

ابن قتيبة الدِّينوري

وَجهودُه اللغَويَّة

د. عمر مسلّم العكش

ابن قتيبة الدِّينوري

وَجُهودُه اللغَويَّة

د. عمر مسلّم العكش

410,92
ع م ا ب
عمر مسلم العكش
ابن قتيبة الدينوري وجهوده اللغوية / عمر مسلم العكش.-
أبوظبي: المجمع الثقافي، 2005.
651ص

1-ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبدالله بن مسلم، 213 - 276 هـ
2- الأدب العربي - العصر العباسي الثاني - تاريخ ونقد.

أ- العنوان.

CULTURAL FOUNDATION
أبوظبي-الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380- هاتف: 6215300
nlibrary@ns1.cultural.org.ae
http:/www.cultural.org.ae
1426 هـ 2005 م

تصميم الغلاف: علي الجاك سعيد

ابن قتيبة الدِّينوري

وَجُهودُه اللغَويَّة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لسَانُ الَّذِي يُلْحِدونَ إِليه أعْجَمِيٌّ وهَذا لِسَانٌ عَرَبيٌّ مُبِينٌ ﴾

سورة النحل 103

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

بلغت الدولة العبّاسية في القرن الثالث الهجري أوج مجدها وازدهارها ، على الرغم من الصراع السياسي الذي شهده ذلك العصر ، ونهضت بغداد ، وأصبحت محطّ رحال العلماء، ومعترك الرأي ، ومقصد ذوي الجاه ، وأخذ شأنها يعلو ، والحضارة فيها تزدهر ، فزهت الحياة ، وانتعشت فيها العلوم والفنون ، وشارك رجال اللغة ونهضوا بعلومها ، ورسموا للنحو رسومه ، وبينوا مناهجه ، وأصّلوا علم اللغة ، وطوّروه وأسّسوا له قواعده ، واجتهدوا بتأليف الكتب والمعاجم التي تحفظ اللغة ، وتصونها من اللحن وفساد الألسنة ، وبلغت الحركة العلمية في علم اللغة مرحلة النضج والإبداع ، وألف علماء اللغة في كل فن وفي كل لون .

ولعلّ ثراء هذا القرن هو الذي أغراني باختيار واحد من أعلامه ، ووقع اختياري على ابن قتيبة ، لأنه شهد تلك النهضة الفكرية والأدبية ، ونشأ في ذلك المناخ العلمي العظيم ، حتّى صار رأساً في اللغة والنحو والحديث والأخبار ، وآية ذلك مؤلفاته العديدة التي غذّت العقل العربي في ذلك الحين ، وغدا ابن قتيبة يمثل ثقافة عصره خير تمثيل ، ثم وقع اختياري من آفاقه العديدة على أكثرها خطراً ، وأغزرها علماً ، وأشدها تأثيراً ، وهو أفق اللغة ، فعكفت على دراسة جهوده اللغوية ، وصنعت من آرائه اللغوية المبثوثة في كتبه هذا البحث بفصوله المترابطة ، وأبوابه المتتابعة ، معتمداً المنهج الاستقرائي التحليلي في دراسة آثاره ، آملاً أن يكون هذا البحثُ معبراً عن وفاء دارس للعربية نحو عَلَمٍ من أعلامها .

بدأت عملي بدراسة المصادر القُتَيْبيَّةِ التي كتبها ابن قتيبة نفسه ، ثم قرأت ما كتبه عنه المحدثون من دراسات ومقالات ، وجعلت بحثي مقسوماً ثلاثة أبواب .

جعلت الباب الأول تحت عنوان: "عصر ابن قتيبة وحياته وآثاره" وقسمت هذا الباب ثلاثة فصول ، تحدثت في الفصل الأول عن البيئة التي تلقت الإمام عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، وصوّرت عصره سياسياً واجتماعياً وثقافياً ، لتظهر آثار تلك المؤثرات في تكوينه الفكري ، ونشأته ، ونشاطه الثقافي واللغوي والأدبي .

وترجمت في الفصل الثاني لابن قتيبة ، وتحدّثت عن اسمه ونسبه ، ومولده ونشأته ووفاته ، وأحصيت شيوخه وتلاميذه ، وفصّلت القول في ثقافته ومصادرها ، وبيّنت عقيدته ومذهبه ، ونوّهت بأخلاقه ومنزلته بين العلماء .

وفي الفصل الثالث تكلمت على آثار ابن قتيبة ، وبدأت بسرد آثاره المطبوعة وفق الترتيب الهجائي لأسماء الرسائل والكتب ، ثم تحدثت عن آثاره المخطوطة وذكرت أماكن وجودها ، ووصفت نسخها ، ثم ذكرت كتبه المفقودة التي تحدث عنها مترجمو ابن قتيبة، أو ذكرها ابن قتيبة نفسه في تضاعيف كتبه، وأنهيت هذا الفصل بالحديث عن الكتب المنسوبة إليه خطأ ، وناقشت آراء من أيّد أو خالف نسبة تلك الكتب إلى ابن قتيبة ، مقارناً وموازناً ومرجّحاً رأياً على آخر ، وذلك حسب الأدلة والحجج التي تتوافر لتوثيق نسبة كتاب أو تقوية الشك بنسبته إليه . وحاولت في هذا الفصل تقديم صورة تعرّف بكتبه التي تعكس ثقافته الموسوعية ، وتبحره في العلوم المختلفة .

وجعلت الباب الثاني تحت عنوان : " آثار ابن قتيبة اللغوية : موضوعاتها ومناهجها " ، وعكفت على دراسة جهوده اللغوية ، وفصّلت الحديث عن آثاره ، وقصدت في الإطالة إلى أن أستدرك ما سيفوتني الحديث عنه في الباب الثالث ففي آثار الإمام موضوعات صغيرة يصعب ربطها بالموضوعات اللغوية العامّة وقد أتاحت لي سعة هذا الباب أن أدرس فيه أظهر كتبه اللغوية وحللت موضوعاتها ، وبينت مناهجها ، واستنبطت من كل كتاب أدرسه أسلوب الدرس الذي يتسق مع موضوعه ومنهجه ، وصنفته في الفصل المخصص له في هذا الباب .

وقسمت هذا الباب أربعة فصول متتابعة ، درست في الفصل الأول جهود ابن قتيبة اللغوية في مجال الدراسات القرآنية ، كتفسير غريب القرآن وتأويل مشكله ، واعتمدت في تقويم جهوده في هذا الجانب على دراسة آثاره التي وصلت الينا ، وهي : "كتاب تفسير غريب القرآن" ، وكتاب : "تأويل مشكل القرآن" ، وكتاب : "الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة" .

وفي الفصل الثاني درست جهود ابن قتيبة اللغوية في علم غريب الحديث وتأويل مختلفه ، واعتمدت في تقويم جهوده في هذا المجال على دراسة آثاره التي وصلت إلينا ، وهي : "كتاب غريب الحديث" ، وكتاب : "تأويل مختلف الحديث" ، وكتاب : "إصلاح غلط أبي عبيد" ، وكتاب : "المسائل والأجوبة في الحديث والتفسير" .

وفي الفصل الثالث درست جهود ابن قتيبة اللغوية في شرح غريب الشعر ونقده واعتمدت في تقويم جهوده في هذا المجال على دراسة آثاره التي وصلت إلينا ، وهي : "كتاب الشعر والشعراء" ، وكتاب : "الميسر والقداح" ، وكتاب : "المعاني الكبير في أبيات المعاني" ، وختمت هذا الفصل بدراسة شواهده الشعرية .

أمّا الفصل الرابع فقد خصصته لدراسة جهود ابن قتيبة في كتابه " أدب الكاتب " ، لأنّ هذا الكتاب يعد أظهر آثاره اللغوية ، وفيه آراؤه القيمة في علم " فقه اللغة " ، ثم شفعته بدراسة وتحليل كتابين من الكتب التي تناولت "أدب الكاتب" بالنقد والشرح والدراسة ، والتي وصلت إلينا ، وهما : كتاب " الاقتضاب في شرح أدب الكتّاب " لابن السيد البطليوسي ، وكتاب "شرح أدب الكاتب" لأبي منصور الجواليقي .

أمّا الباب الثالث من هذه الرسالة فقد جعلته تحت عنوان : " مباحث لغوية عامّة " ، ودرست فيه أهم ما كان ابن قتيبة يهتم به من أمور اللغة ، وجعلته مقسوماً ثلاثة فصول .

تحدثت في الفصل الأول عن جهود ابن قتيبة في معالجة ظاهرة لحن العامة ، وعرضت آراءه التي استنبطتها من كتاب "تقويم اللسان في أدب الكاتب" ، ومن آرائه المبثوثة في

تضاعيف كتبه اللغوية الأخرى ، وشفعتها بآراء مؤيديه ومخالفيه من علماء اللغة الذين اختلفوا حول المقياس الصوابي في اللغة ، وانتهيت إلى تحديد مذهبه في السماع والقياس ، وبيان منهجه الذي سلكه في التنقية اللغوية .

وفي الفصل الثاني عرضت جهود ابن قتيبة اللغوية في علم دلالة الألفاظ ، وتناولت بالتفصيل موقفه من الظواهر اللغوية ، كالترادف والاشتراك اللفظي والتضاد ، لأنَّها تعد من صميم المباحث الدلالية ، وعرضت آراء علماء اللغة القدامى والمحدثين ، من مؤيدين ومنكرين لوجود هذه الظواهر في اللغة ، وقارنتها بآراء ابن قتيبة ، وإدراكه للعوامل التي أدت إلى نشوئها في اللغة، وقوّمت في الفصل الثالث جهود ابن قتيبة اللغوية في معالجة المعرّب والدخيل والأعجمي والمولّد ، ثمَّ ذكرت اختلاف علماء اللغة وأئمة التفسير حول وجود الدخيل في القرآن الكريم وعرضت آراءهم حول هذه القضية ، ونوّهت بجهود علماء اللغة لوضع الضوابط والقواعد العامة لمعرفة الألفاظ الدخيلة ، ثم قوّمت جهود ابن قتيبة في "المعرّب والدخيل" ، وناقشت عنوان الباب الذي عقده في " أدب الكاتب " لهذه الظاهرة والذي جاء في النسخة المحققة التي اعتمدتها في الدراسة تحت عنوان : " ما تكلم به العامة من الكلام الأعجمي " ، ورجحت صحة العنوان الآخر لهذا الباب المنقول عن النسخة المرموزة بالحرف " و " وقد أشار إليه محقق الكتاب في الحاشية وهو " ما يتكلم به العرب " . وتحدّثت في هذا الفصل عن طريقة معالجة ابن قتيبة لمواده وحكمه على الألفاظ الدخيلة ، وختمت الفصل بالحديث عمّا أفاده علماء اللغة المتأخرون من جهوده في هذا المجال ، وتتبعت ما أخذه الجواليقي من ابن قتيبة وضمّنه كتابه الشهير "المعرَّب من الكلام الأعجمي" . وختمت هذه الرسالة بخلاصة أودعتها أهم النتائج التي انتهيْت إليها ، وتوخيت أن تسير أبواب هذا البحث ، وفصوله ، بتسلسل منطقي ، يسلِّم فيه السابق للآحق ، ساعياً إلى بيان جهود ابن قتيبة اللغوية ، وجلاء مآثره ، والكشف عن مظاهر نشاطه اللغوي .

ويكفيني أني قدّمت في هذا البحث خلاصة جهدي، فإن أصبت، فذلك حسبي ومبتغاي، وإن زللت، فالكمال لِله وحده .

وآخر دعوانا "أن الحمد لله ربِّ العالمين" .

د. عمر مسلّم العكش

الباب الأول

عصر ابن قتيبة وحياته وآثاره

الفصل الأول

عصر ابن قتيبة

أولا : الحياة السياسية

ثانيا : الحياة الاجتماعية

ثالثا : الحياة الفكرية

عصر ابن قتيبة

أولاً : الحياة السياسية.

ولد ابن قتيبة في عهد المأمون بن الرشيد أوائل القرن الثالث الهجري ، وقضى حياته كلّها في صميمه ، وأدرك حكم ثمانية من الخلفاء ، هم المعتصم ، والواثق ، والمتوكل ، والمنتصر ، والمستعين ، والمعتز ، والمهتدي ، والمعتمد . وقد شهد ذلك العصر صراعاً سياسياً مريراً على السلطان بين العرب والفرس ، واتخذ صورة عنيفة في حركة الفتنة بين الأمين والمأمون ، فاشتعلت الحروب الأهلية ، وتتابعت سلسلة الاضطرابات ، وظهرت الفتن التي كانت تثور في أنحاء مختلفة ، مهددة عروش الخلفاء ، مثيرة الفزع في قلوب الرّعية . ومن تلك الفتن التي أقضت مضاجع الدولة فتنة نصر بن شبث العُقيلي الذي قوي أمره ، وكثر جمعه ، وغلب على شمال العراق والشام ، وحصر حرّان ، وكانت دعوته قائمة على أساس الانتصار للعرب مِنْ تَغلُّبِ الفرس على الخلافة ، وكان يقول : " إنما هواي في بني العبّاس ، وإنما حاربتهم محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم "[1] وكفتنة أبي السرايا في الكوفة[2] واستفحال أمر بابك الخرّمي ووثوب الحربية ببغداد[3] . وقد عصفت ثورات الطالبيين بالحياة السياسية في ذلك العصر ، ونالت ضرباتهم مختلف أرجاء الدولة العبّاسية، وهدّدت أركانها ، وزعزعت دعائمها . وفي هذا العصر بدأ الضعف يدب في أوصال الدولة، وتقلص سلطان الخلفاء ، وأصبحوا عرضة للكيد والبطش ، فقد قتل المتوكل ، وخلع المستعين والمعتز والمهدي ثم قتلوا بعد خلعهم ، ويصور الدكتور طه حسين الحياة السياسية في ذلك العصر ويقول : " كان العصر موزَّعاً بين الأتراك وغير الأتراك من رؤساء الجيش . وكان الخليفة مضطراً إلى أن يصانع أولئك وهؤلاء ، وهو في أثناء ذلك كله عرضة

---

(1) الكامل في التاريخ لابن الأثير 6 / 308.

(2) نفسه 6 / 315.

(3) نفسه 6 / 478.

لكيد الكائدين ومكر الماكرين ... ومن الحق أن نعترف أنه هو أيضاً كان يكيد لرؤساء الجند خوفاً منهم .

ومن الحق أيضاً أن نلاحظ أن أخلاق الأمراء والخلفاء انتهت من الفساد إلى حد لم نعرفه من قبل . لقد كان الخلفاءُ يمكرون بآبائهم وإخوتهم ، وحياتهم كلها مكر في مكر"[1] . ومن يقرأ تاريخ الطبري والمسعودي وابن الأثير وابن طباطبا يعرف ما كان يصيب الخلفاء والوزراء من أذى على يد الجند . فقد قُتِل المعتز بعد أن نُكّلَ به أشد تنكيل وهو في حالة من الضعف والإعياء ، كما قتل الوزير محمد بن عبد الملك الزيات في زمن المتوكل بعد أن ذاق ألواناً مختلفة من التعذيب [2] .

ويرى عباس محمود العقاد أنَّ أساس هذا الشرّ كله سببان غالبان هما القطيعة بين بني العبَّاس والعرب ، ونظام الإقطاع الذي تمادى فيه بنو العبّاس حتى انتهى إلى تصدع العالم الإسلامي وتشعبه في مدى قرنين اثنين بضع عشرة شعبة [3] . وقيل : إن العباسيين إنما قرّبوا إليهم الفرس والأعاجم واتخذوا منهم الأعوان والقواد مكافأة لهم على نصرهم إياهم وتأييدهم لهم على أعدائهم ... والحقيقة أن بني العبّاس كانوا يتوجسون من العرب قبل أن تقوم لهم دولة وتنتظم لهم عقدة ، وليس أدل على حقد بني العباس على العرب من قول إبراهيم بن محمد صاحب الدعوة في كتاب أرسله إلى أبي مسلم الخراساني : " إن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل ، فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله [4] .

ثم توالت الحوادث بما باعد الشقة بين العرب وأصحاب الدولة الجديدة ، فلما كان الخلاف بين الأمين والمأمون ذهب العرب مع الأمين لأن أمه عربية ، وذهب الفرس مع المأمون

---

(1) من حديث الشعر والنثر / 274.

(2) الفخري في الآداب السلطانية / 214.

(3) ابن الرومي حياته من شعره / 16.

(4) تاريخ الطبري 9/85.

لأن أمه فارسية ، وقتل الأمين وانتصر المأمون فحفظها للعرب وأمعن في إقصائهم وتقريب الأعاجم على تعدد أجناسهم ، ثم جاء المعتصم وكانت أمه تركية ، فاعتمد على جنود الترك وكثر اختلاف الأجناس في جيش الدولة وولاة أمرها ، وتفاقمت أسباب الدسائس بين الملوك والأمراء والقادة والوزراء ، وحاشية القصور من رجال ونساء وبلغ من تفاقمها أن أشفق منها الجند والقواد الذين هم مساعير نيرانها ، فشغب الجند على قوادهم ، وتنازع القواد أمرهم فودُّوا جميعاً لو يملكهم خليفة قوي يخيفهم ويحسم أسباب النزاع بينهم [1] . ويقول المسعودي مصوراً ما أصاب النّاس من أذى الأتراك في بغداد : " كانت الأتراك تؤذي العوام بمدينة السلام بجريها بالخيول في الأسواق وما ينال الضعفاء والصبية من ذلك ، فكان أهل بغداد ربَّما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمه لامرأة أو شيخ كبير أو صبي أو ضرير، فعزم المعتصم على النقلة معهم ... فانتهى إلى موضع سامراء [2] . وقد اشتد بأس هؤلاء الأتراك ، وأخذوا يتطلعون إلى فرصة مواتية ليركزوا أمور الدولة في أيديهم . وتغلغل نفوذهم بعد موت المعتصم ، وأصبح بيدهم الحل والربط ، وما كاد عصر الواثق ينصرم ويخلفه أخوه المتوكل حتى كان سلطان الأتراك قد بلغ أوجه ، فوثبوا على المتوكل وقتلوه بمساعدة ابنه . ومنذ ذلك الوقت بدأ الخلفاء يجنون ثمار غرس المعتصم ، فتسلط القواد على الخلفاء وأمسكوا بالزمام ، ولم يستعد الخلفاء سلطتهم إلا في عهد المعتمد (256–279هـ) وأخذوا يقبضون على زمام الأمور ، وذلك بفضل الموفق أخ المعتمد، الذي حارب الخارجين على الخلافة ، وانتصر على صاحب الزنج ، واستولى على مدينته الغربية ، وعلى مدينة الخبيث الشرقية [3] .

---

(1) ابن الرومي حياته من شعره 18.

(2) مروج الذهب 2/ 272.

(3) الكامل في التاريخ لابن الأثير 7/ 386، 390.

كما حقق المعتمد انتصاراً كبيراً على الروم [1] ، وأعاد للخلافة هيبتها وقوّتها ، وكان المعتمد آخر خلفاء المائة الثالثة الذين عاصرهم ابن قتيبة ، فقد مات ابن قتيبة ، وترك المعتمد على الله في الحكم . ولكنّ الأمور لم تستقر للدولة العبّاسية ، بل أخذت الأطماع تتهددها من الشرق والغرب فالطّاهريون ، والسّامانيون، والصَّفَّاريون يتنافسون للاستقلال بالشرق ، والروم يغيرون على الثغور ، والطولونيون ينتهزون الفرص فيستقلون ، ويكونون دولة بمصر ، ويستولون على بعض أجزاء أخرى يضمونها إليهم . لقد عاش ابن قتيبة عصراً اتسم بالصخب في السياسة ، حيث ثارت على الصعيد الداخلي الفتن والثورات ، وشهد العصر انتقال السلطة من أيدي الخلفاء إلى أيدي الأتراك ، كما واجه الخلفاء تحدي الرّوم على الجبهات الخارجية ، وقد سمّى المؤرخون عصر ابن قتيبة العصر العبّاسي الثاني ؛ لأنه بدأ بانحسار سلطان الخلافة العبّاسية عن بلاد كثيرة .

ثانيا : الحياة الاجتماعية

كان المجتمع العبّاسي حلبة صراع عنيف بين العناصر المختلفة على الحكم والسيادة ، كان فيه العرب ، والفرس ، والترك ، والسريان ، والروم ، وتنافست تلك العناصر في نشر ثقافاتها وتقاليدها في البلاد ، وفي صبغ المجتمع بفلسفاتها حتى يتم لها ما تريد ، وانقسم المجتمع إلى ثلاث طبقات متباينة ، طبقة عليا مكونة من الخلفاء والأمراء والقواد ، ومن لفَّ لِفَّهم ، أو تعلّق بهم ، وقد حظيت هذه الطبقة بنعيم الدينا وترفها ، وغرقت في لهوها وبذخها ، وافتتنت بزينتها ، وسَدِرَتْ في غيّها ، وابتنت القصور التي شهدت مجالس الشراب ، وأمّها الشعراء ينشدون فيها أشعارهم ، ويسمعون فيها الغناء والموسيقى ، وكان إلى جانب تلك الطبقة العليا جماعة قليلة من الطبقة الوسطى من التجار ، وكبار الموظفين وأصحاب الحرف والمهن المريحة . وكانت هناك طبقة دنيا مكونة من جماعات الرقيق والموالي وأبناء الإماء والسراري ، وقد حرمت هذه الطبقة لذة العيش ، وسلبت منها الحرية، مما حملها على الثورة

(1) نفسه 7/406.

على الحكّام لانحرافاتهم السياسية والدينية، ولإغراقهم في اللهو والفساد ، كما دفعها إلى الاشتراك في الفتن التي كانت تعصف بالمجتمع بين فينة وأخرى ، فقد ناصر عوام بغداد الأمين على المأمون ، ونصّبوا إبراهيم المهدي ، وثاروا مع الحنابلة لمقاومة موجات الإباحية والإلحاد ، ويعلل ابن خلدون انحلال البيت بكثرة الترف [1] ، ولكنّ الترف لم يكن حظّ جميع النّاس ، فإن سواد الشعب كانوا فقراء . وكانت كل جماعة من الأجناس المختلفة تمتهن مهنة برعت فيها ، فاليونان عُرفوا بالحِكَم والآداب ، والعرب عُرفوا بالاشتغال بقول الشعر، وبلاغة المنطق، وقيافة الأثر، وحفظ النسب، والبصر بالخيل والسلاح، وآلة الحرب، والحفظ لكل مسموع، وعرف الأتراك بالحروب، وعرف الهنود بالحساب والنجوم وأسرار الطب والصناعات الكثيرة العجيبة [2] .

وتزاوجت هذه الخبرات كلها، والتقت عقائد العرب والفرس واليونان ، والترك والهنود ، وامتزجت عاداتهم وتقاليدهم ، وكوّنت نسيجاً مميزاً تكونت عناصره، واتحدت في اتساق ونظام واحد جمع بينها الذوق الإسلامي . واشتهرت بغداد بالترف الزائد والغنى وزخرف الحضارة ، وتغلغل هذا في حياة الناس وكان من مظاهر ذلك الترف كثرة الجواري والغلمان، وأثّرت الجواري في حياة المجتمع البغدادي، لما كُنَّ يتمتعن به من حرية وثقافة، وظرف. وعمرت بغداد بقصورها الفاخرة الزاخرة ، المزدانة بضروب الزينة، وألوان الرياش النفيس، وفنون المتع. ، وهذّبت الحضارة سلوك أهلها ، فمالوا للجمال، وتأنقوا في المأكل والملبس والمسكن، وشربوا الخمور، واختلفوا حول أنواعها، فأحلّ بعضهم النبيذ وحرّمه آخرون، وألف ابن قتيبة كتابه في "الأشربة" يصور ذلك الصراع بين محلليه ومحرّميه [3] .

---

(1) مقدمة ابن خلدون ص 344 طبعة بيروت .

(2) تاريخ العرب ، فيليب حتي ص 410، وضحى الإسلام 1 / 26 وما بعدها .

(3) الأشربة لابن قتيبة ، تحقيق محمد كرد علي ط 1947م .

وورث القرن الثالث حضارات العرب والفرس والروم ووقف على فنون اللهو في هذه الشعوب ، وامتلأت أيدي الأمراء وكبار العمال والموظفين وأصحاب التجارات الواسعة بالأموال التي كانوا يبتزونها من الناس ، فكثر المترفون المنعمون ، وانتشرت ضروب المجون والخلاعة على نمط لم تره الحياة الإسلامية قبلاً . وشغف الرجال بالفنون ، وذكر المسعودي أنَّ للخليفة المعتمد مجالسات ومذاكرات ومجالس ، وقد دونت في أنواع من الأدب ، منها مدح النديم وصفاته وعفافه وأمن عبثه ، والتداعي في المنادمات والمراسلات في ذلك ، وعدد أنواع الشرب في الكثرة ، وهيئة السماع وأقسامه وأنواعه ، وأصول الغناء ومبادئه في العرب وغيرها من الأمم ، وأخبار الأعلام من مشهوري المغنين المتقدمين والمحدثين، وهيئة المجالس وصنوف الشراب [1] . لقد بلغ المجتمع العبَّاسي الغاية في الترف والحياة الناعمة ، وكان لأبنائه في آداب المجالس وآداب المائدة وطهو الطعام وطرق تناوله في حضرة الملوك والرؤساء ما لم نسمع بمثله عن أصحاب الحضارات العريقة من روم وفرس ، حتى ليقال إنه كان من كبارهم من لا يأكل لقمتين بملعقة واحدة[2] .

وتأثر ابن قتيبة بمظاهر التحضر التي شهدها عصره ، فألف كتاب "استماع الغناء بالألحان" ، وعقد أبواباً لأصناف الطعام والقدور والثياب في كتاب : "عيون الأخبار" وكتاب : "المعاني الكبير في أبيات المعاني" .

ثالثا : الحياة الفكرية

ازدهرت الحياة الفكرية في بغداد ، ويعد عصر المائة الثالثة للهجرة العصر الذهبي ، فقد بدأ المأمون ، وكان أديباً محبّاً للعلم والأدباء ، واتجه إلى بيت الحكمة الذي أسسه أبوه الرشيد ، وجمع له من الكتب المتنوعة ، وأضحى مجتمع المتصلين بالعلم ، والراغبين في

---

(1) مروج الذهب 356/2.

(2) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي /122 .

الأدب ، والمشتغلين بالفن ، وازدحمت جنباته بالعلماء ، والفلاسفة ، والمترجمين ، والمؤلفين، وأئمة اللغة ، ورجال الأدب ، فازدهرت الحياة العلمية ، وتلاحقت الثقافات الوافدة من فارسية وتركية ويونانية وهندية مع الثقافة العربية واصطبغت بصبغة إسلامية .

واتسم عهد المأمون بحرية القول ، والتعبير عن الآراء ، فعقدت المناظرات ، ونشطت الأقلام ، وتحركت الألسنة ، واختلفت الملل والنحل ، وقويت حركة الشعوبية والطعن في العرب ، وقد أدت هذه الحرية إلى نشاط فكري ، كان من ثمراته مجموعة من الكتب الثقافية تتكلم في مثالب العرب وتنتقص من محصولهم الثقافي والحضاري ، ويقابلها مجموعة أخرى تنتصر لهم ، وتتحدث عن مناقبهم ومآثرهم، ومن العلماء الذين انتصروا للعرب ، وردوا على الشعوبية ، شيخنا ابن قتيبة ، فقد ألف كتاباً في تفضيل العرب على العجم [1] .

وقويت كذلك حركة الترجمة من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية ، فأكسبتها ثروة كبيرة ، ووسعت آفاق الفكر الإسلامي ، وكانت لها آثارها البعيدة المدى في التراث الفكري العربي .

واهتمّ المأمون بالمناظرة بين العلماء في مسائل الدين والفلسفة ، وكان يجمعهم إليه . ذكر طيفور في تاريخ بغداد أنَّ يحيى بن أكثم قال : " أمرني المأمون عند دخوله بغداد أنْ أجمع له وجوه الفقهاء ، وأهل العلم من أهل بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلاً [2] " .

وأهم موضوع شغل به المأمون ، وشغل الناس مسألة خلق القرآن التي تركز حولها الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة ، وكانت حركة المعتزلة من أبرز الحركات الفكرية في القرن الثالث الهجري ، ويمكن أن نحدد أوجه الخلاف الرئيسية مع أهل السنة بالموضوعات التالية :

---

(1) نشره محققاً محمد كرد علي في " رسائل البلغاء " .

(2) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ، للشيخ محمد الخضري (الدولة العباسية) / 208 .

أولا – القدَر وأفعال العباد

كان المعتزلة يرون أن أفعال العباد غير مخلوقة للّه ، ومن أجل ذلك يستحقون عليها الثواب والعقاب ، في حين يرى أهل السنة أن الأعمال مخلوقة لله ، وليس للعباد منها إلاّ جريانها على أيديهم ، ولذلك سمّى المعتزلة أهل السنة بالقدريّة ، لأنهم أرجعوا أفعال العباد إلى القدر [1] .

ثانيا – صفات الله

عمد المعتزلة إلى تنزيهه تعالى عن كل صفات قائمة بذاته ، مثل القدرة ، والإرادة ، والسمعَ والبصر ، والحياة، والكلام ، أي أنه لا انفصال لصفاته عن ذاته ، فالله قادر بذاته ، في حين يرى أهل السنة أن الله قدير بقدرة ، وهي صفة قائمة بالذات ، وليست عين الذات. وتفرع على هذه المسألة مسألة خلق القرآن ، فقد ذكر المعتزلة أنه مخلوق ، وأنه خلق معنى في قلب الرسول ، وأمّا اللفظ والأسلوب فليسا من كلام الله لأنه شيء محدود ، ولا يجوز أن نصف الله بصفة محدودة [2] ، على حين يرى أهل السنة أن القرآن بكل حال مقروءاً ومكتوباً ومسموعاً ومحفوظاً غير مخلوق .

ثالثاً –

هناك جملة مسائل أخرى كانت موضع خلاف بين الطائفتين تقل عن المسألتين السابقتين أهمية ، منها مسألة الحديث ، وتدقيق المعتزلة في روايته والاعتماد عليه ، والقول في إعجازالقرآن ، ويرى بعض المعتزلة كالنظّام أنه معجز بالصرفة ، أي أن أسلوبه في قدرة العرب ، وإنما صرفهم الله عن تقليده ، في حين يجمع أهل السنة وجماعة من المعتزلة على إعجاز القرآن في بيانه لأنه فوق مستوى قدرتهم .

---

(1) ينظر رد ابن قتيبة على ذلك في " تأويل مختلف الحديث " ص 5-19 .

(2) ينظر الملل والنحل للشهرستاني / 48 وما بعدها ، وضحى الإسلام لاحمد أمين ، /3/ 21 وما بعدها .

ونشطت في هذا العصر الدراسات الدينية المختلفة ، وكان لحركة الاعتزال أثر كبير في ذلك النشاط ، ولعلّ من أبرز الأعلام الذين أغنوا البحوث الدينية النظّام ، والجاحظ ، وابن قتيبة . وازدهرت دراسات القرآن والحديث ، والشريعة والفقه ، ومن أبرز فقهاء العصر الإمام الشافعي ، والإمام أحمد بن حنبل ، وقد عاصره ابن قتبية ، وكان مذهبه رد فعل على حركة المعتزلة وكانت دعوته إلى التمسك بالحديث والسنة . كما ازدهرت العلوم العقلية ، وبلغ عدد الكتب التي نقلت عن اليونانية في ذلك العصر بضع مئات [1] في الفلسفة والآداب والمنطق ، وفي الرياضيات والنجوم ، وانكب العلماء على الإفادة منها ودراستها، ونبغ منهم أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، ويعقوب بن إسحق الكندي فيلسوف العرب .

وشهد العصر نهضة لغوية وأدبية ونقدية قادها جماعة من اللغويين والأدباء والنقاد الذين أرسوا دعائم علم اللغة والنحو والنقد والأدب ، ووضعوا المؤلفات الكثيرة في علوم العربية واتجهوا نحو التخصص والإتقان والتحقيق ، ويصور لنا ابن قتيبة اتجاه العلماء في ذلك الوقت فيقول : " على أنّ المنفرد بفن من الفنون ، لا يعاب عليه بالزلل في غيره ، وليس على المحدِّث عيب أن يزلّ في الإعراب ولا على الفقيه أن يزلّ في الشعر ، وإنما يجب على كل ذي علم أن يتقن فنه إذا احتاج الناس إليه فيه ، وانعقدت له الرياسة به [2] " .

ونهضت إلى جانب المدرستين الكلاميتين – مدرسة المعتزلة ومدرسة أهل السنة – مدرستان اشتغلتا باللغة والنحو ، هما مدرسة البصرة ، ومدرسة الكوفة . وكان لكل مدرسة من هاتين المدرستين رأيها في النحو ، ولكل رأي أتباعه وأشياعه ، وكانت مدرسة البصرة هي المدرسة الأولى ، ومن علمائها : أبو الأسود الدؤلي ، وابن أبي إسحق الحضرمي ، وعيسى بن عمر الثقفي ، وهارون بن موسى ، وغدا سيبويه إمام البصريين ، الذي تتلمذ

(1) ينظر ضحى الإسلام 1 / 289 وما بعدها .

(2) تأويل مختلف الحديث ، لابن قتبية ، ص 94.

على الخليل بن أحمد الفراهيدي[1] ، وكانوا أهل القياس . ثم كانت مدرسة الكوفة هي المدرسة الثانية ، ومن علمائها : أبو جعفر الرؤاسي وتخرج بها تلميذاه المشهوران : الكسائي والفرَّاء ، وكانوا أهل رواية وسماع [2] . وأثمر التنافس بين مدرستي البصرة والكوفة ، ودفع العلماء إلى الاجتهاد في علوم اللغة ، والاغتراف من الثقافات الوافدة ، والإفادة من علوم القراءات والفقه والحديث ، لإثبات حججهم ،والدفاع عن آرائهم ، وألَّفوا في الخلاف بين النحاة ، على نمط ما صنع الفقهاء في كتبهم التي ألَّفوها في الخلاف بين الحنفية والشافعيَّة [3] .

وإلى جانب هذين المصرين البصرة والكوفة ، نهضت بغداد وأصبحت حاضرة الخلافة العباسية ، وارتحل إليها العلماء من الأقطار كافة ، كلٌّ يحمل إليها طابع بلده الخاص ، فالتقت لكل علم وفن ألوان وطوابع مختلفة ، احتكت وتمازجت ، وكان منها ألوان جديدة مطبوعة بالسمة البغدادية العامة . وذلك ما كان في النحو ، فقد نشر الكوفيون فيها نحوهم وقصدها نحاة بصريون أيضاً ، ونشأت طبقة جديدة في بغداد اختارت من المذهبين وكوَّنت ما عرف بالمذهب البغدادي . وقد عقد ابن النديم لهذه الطبقة باباً عنوانه (من خلط بين المذهبين) عدَّ منهم ابن قتيبة (ـ276هـ) وأبا حنيفة الدِّينوري (ـ290هـ) ، وابن كيسان (ـ320هـ) ، ومحمد بن أحمد بن منصور الورّاق (ـ320هـ) ، ونفطويه (ـ323[4]) .

ونشطت الكتابة بنشاط الحياة في بغداد ، وتجمّع لها كتَّاب منشئون ، كما كان فيها كتَّاب مؤلّفون ، فقد كان الوزراء وأصحاب الدواوين يعيِّنون في مهامهم أعواناً من أرباب الأقلام ، عُرِفوا بالكتّاب، وكانت لهذه الطائفة أهمية خاصة لارتباطهم بالوزراء وأصحاب

(1) أخبار النحويين البصريين ، للسيرافي ، ص: 38.

(2) مراتب النحويين ، لأبي الطيب اللغوي ، ص: 26.

(3) من تاريخ النحو ، للأستاذ سعيد الأفغاني ، ص 90.

(4) الفهرست ، لابن النديم ، ص 115.

الدواوين ، بدليل أن الكثير منهم يتدرج في الرقي حتى يصل إلى منصب الوزارة . ولأهمية الكتّاب أُلّفت فيهم الكتب ، فمن بين من كتب في هذا الباب : ابن قتيبة الذي صنّف كتابه "أدب الكاتب" ، وابن درستويه الذي ألف كتاب "الكتّاب" ، ومحمد بن داود بن الجراح ، صاحب كتاب "الوزراء" ، والجهشياري صاحب كتاب "الوزراء والكتّاب" ، ولأهمية عملهم ، كان الخلفاء يتخيرون للكتابة أشخاصاً تتوفر فيهم صفات معينة ، وفي ذلك يقول ابن خلدون : " إن صاحب هذه الخطة ، لا بدَّ من أن يتخيّر أرفع طبقات الناس ، وأهل المروءة والحشمة منهم ، وزيادة العلم ، وعارضة البلاغة ، فإنه معرّض في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد الحكّام ، من أمثال ذلك ما تدعو إليه عِشْرَةُ الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل مع ما يضطر إليه في الترسل ، وتَطْبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها [1] .

وشارك الْكُتَّاب في نشر الثقافة . لأنهم بحكم مناصبهم ، كانوا مضطرين إلى معرفة أحوال النَّاس الاجتماعية ، وأن يعرفوا من اللغة والأدب وعلوم الدين والفلسفة والتاريخ طرفاً، لاحتياجهم إلى هذه العلوم في مواقفهم [2] ، كما أنّ الكثير منهم لجمعهم بين الآداب العربية والفارسية ، أسهموا بدور كبير في إحياء الثقافة الفارسية القديمة ، وبفضلهم اتسعت آفاق الفكر ، وترعرعت شجرة الثقافة الإسلامية [3] ، وترجم إلى العربية العديد من الكتب الفارسية واليونانية . لقد بلغت الدولة العبّاسية في القرن الثالث الهجري الغاية في العلوم والفنون والآداب ، وفي كنف هذه البيئة المزدهرة علمياً وثقافياً وفكرياً ، نشأ وترعرع شيخنا ابن قتيبة ، وكانت بصمات هذه البيئة واضحة في تكوينه الفكري ، ونبوغه العلمي .

---

(1) المقدمة ، لابن خلدون ، ص 438.

(2) ضحى الاسلام ، أحمد أمين ، ج 1، ص 177.

(3) الأدب في موكب الحضارة الإسلامية ، مصطفى الشكعة ، ص 353.

الفصل الثاني

حياة ابن قتيبة

- اسمه ونسبه
- مولده ونشأته ووفاته
- شيوخه وتلاميذه
- ثقافته
- عقيدته ومذهبه
- أخلاقه ومنزلته بين العلماء

حياة ابن قتيبة

أ - مقدمة

إن كتب التراجم التي ترجمت حياة ابن قتيبة أربت - حتى القرن الحادي عشر الهجري- على اثنين وثلاثين كتاباً ، وكان أبو الطيب اللغوي (ت-352هـ) أوّل كاتب ترجم حياة ابن قتيبة ، وآخر كاتب من القدماء ترجم حياته هو ابن العماد الحنبلي (ت-1089هـ) ، وحفلت كتب التراجم الحديثة ومقدمات كتبه المطبوعة والمحققة بترجمات وتعريفات به* .

* ينظر ترجمته : - أبو الطيب اللغوي (351هـ) : مراتب النحويين / 136-137.

-الأزهري (370هـ) : مقدمة تهذيب اللغة 1 / 30-31.

-الزُّبيدي (379هـ) طبقات النحويين واللغويين / 183 .

-ابن النديم (430هـ) الفهرست / 85 .

-التنوخي المعرّي (442هـ) : تاريخ العلماء النحويين / 209 .

-الخطيب البغدادي (463هـ) تاريخ بغداد 10 / 170-171 .

-السمعاني (-562هـ) : الأنساب 10 / 63 .

-ابن خير (: 575) فهرسة ابن خير / 66، 67، 187، 188، 199، 261، 333، 336، 344، 377، 378، 478 .

-ابن الأنباري (: 577) نزهة الألباء / 209 .

-ابن الجوزي (597هـ) . المنتظم وفيات سنة (276هـ) .

-ابن الأثير الجزري (630هـ) : اللباب 2 / 242، و"الكامل في التاريخ" : 6 / 66 .

-القفطي (646هـ) : إنباه الرواة ، 2 / 143-147 .

-النووي (676هـ) تهذيب الأسماء واللغات 2 / 281 .

-ابن خلكان (681هـ) : وفيات الأعيان 3 / 42 .

-أبو الفداء (732هـ) المختصر في أخبار البشر 2 / 54 .

-الذهبي (748هـ) : تذكرة الحفاظ 2 / 633، دول الإسلام ، 1 / 167، سير أعلام النبلاء ، 13 / 296، ميزان الاعتدال 2 / 503 .

-اليافعي (768هـ) : مرآة الجنان 2 / 191-192 . =

ب – اسمه ونسبه

ذكرت كتب التراجم كلها أنَّ اسمه هو "أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة" ، إلاّ أنّ دائرة المعارف الإسلامية ورد فيها اسمه " أبو عبدالله محمد بن مسلم بن قتيبة المروزي"[(1)] ،

= -ابن كثير (ـ774هـ) : البداية والنهاية 11/ 48-57.

-الفيروز أبادي (817هـ) : البلغة في تاريخ أئمة اللغة / 116.

-ابن قاضي شهبة (851هـ) : طبقات النحاة 2/ 52.

-ابن حجر العسقلاني (852هـ) : لسان الميزان 2/ 357-359.

-ابن تغري بردي (874هـ) : النجوم الزاهرة 3/ 75-76.

-السيوطي (911هـ) : بغية الوعاة 2/ 63-64ـ المزهر 2/409-420-465.

-الداودي (945هـ) : طبقات المفسرين 1/ 245-246.

-عبد اللطيف بن محمد رياضي زادة (ق11هـ) : أسماء الكتب /28، 49، 213، 218، 275، 280، 302.

-حاجي خليفة (1067هـ) : كشف الظنون /32، 47، 108، 335، 463، 470، 575، 609، 722،760، 807، غيرها .

-ابن العماد الحنبلي (1089هـ) : شذرات الذهب 2/ 169.

-الخوانساري (1313هـ) : روضات الجنات 5/ 105-108.

-جرجي زيدان (1914م) :تاريخ آداب اللغة العربية 2/ 170.

-البغدادي (1920م) : ذيل كشف الظنون 1/356، و 2/ 146ـ 506، هدية العارفين 1/ 441، و 2/ 4

-يوسف إليان سركيس (1932م) معجم المطبوعات العربيّة والمعرّبة / 211.

-محمد كرد علي (1953م) : كنوز الأجداد / 88/ 96.

-بروكلمان (1956م) : تاريخ الأدب العربي 2/ 221.

-يوسف العش (-(1967)) فهرس مخطوطات الظّاهرية /6/ 3 الزّركلي 1976م) الأعلام 4/ 137.

-عمر رضا كحّالة (ـ1988م) معجم المؤلّفين 6/ 150.

عمر فروخ (1988م): تاريخ الأدب العربي 2/ 329.

-عادل نويهض : معجم المفسرين 1/ 327.

-عبد الحميد سند الجندي : ابن قتيبة العالم الناقد (القاهرة 1963م) .

(1) دائرة المعارف الإسلامية : ابن قتيبة .

وهذه مخالفة ليست ذات شأن ، إذ إنّ اسمه ونسبه صحيحان في كتب التراجم التي ترجمت حياته .

أما أبوه (مسلم)، فلم تترجم له المصادر، وقد ورد اسمه في كتاب ابن قتيبة "عيون الأخبار" ، خلال روايته عنه، حيث يقول: "حدثني أبي[1]" . ويزيد "البغدادي" تعريفاً بأبيه (مسلم)، فيقول :"وقيل : "إن أباه مروزي[2] ، فنسبه إلى أهل مرو.

وأمّا جده "قتيبة" ، فقد اختلفوا في اشتقاق اسمه ، فقالوا هو تصغير "قِتْبة" بالكسر، واحد الأقتاب ، وهي الأمعاء ، والنِّسْبة إليه : قتيبي[3] .

وقال الزّبيدي : وفي التهذيب : ذهب الليث إلى أن قتيبة مأخوذ من القتب ، ثم نقل عن الأمير المجاهد قتيبة بن مسلم – رحمه الله – أنه فسّر اسمه بمعنى إكاف البعير ، ثم قال الزبيدي : وهذا يوافق ما قاله الليث[4].

وتضيف كتب التراجم إلى اسمه ألقاباً ، فتلقبه : الدِّينَوري، المروزي، البغدادي، الكوفي وقد نسب إلى بلدة (الدِّينور[5])، لأنه أقام بها قاضياً مدة، ويقال أيضاً : المروزي لأن أباه من محلة مرو، ولُقّب بالبغدادي، حيث ذكر بعض مترجميه أنه ولد ببغداد، أو سكنها ، فعرف عندهم بالبغدادي، وقيل في الكوفة، فعرف بالكوفي[6] وانفرد أبو يعقوب السكّاكي بذكر لقب له هو "الهمداني[7]" .

---

(1) عيون الأخبار : 1/ 142، 2/ 307.

(2) تاريخ بغداد : 10/ 170 .ومرو: محلة من أعمال خراسان ، كان يسكنها أهل مرو . معجم البلدان 5/ 112.

(3) الأنساب للسمعاني ج 10/ 63، 64، والإكمال لابن ماكولا ج: 6-374-375 ، واللسان: (قتب) .

(4) طبقات النحويين للزبيدي : (129).

(5) وهي مدينة من مدن الجبل عند قرميسين، ينسب إليها كثير من علماء الأدب والحديث، معجم البلدان 2/ 545.

(6) الفهرست : 115، نزهة الألباء : 209، الكامل لابن الأثير 7/ 438.

(7) مفتاح العلوم : 281.

وابن قتيبة فارسي الأصل، ينتمي إلى أسرة فارسية كانت تقطن محلة "مرو" من بلاد فارس ، وقد حدّد ابن قتيبة انتماءه في كتابه " العرب والرد على الشعوبية " ، فقال : "فلا يمنعني نسبي في العجم أن أدفعها عما تدّعيه لها جهلتها[1] " .

ج - مولده ونشأته ووفاته

مولده : أجمع الذين ترجموا حياة ابن قتيبة على أنه ولد سنة (213هـ) ، ويعد ابن خلّكان أول من ذكر سنة ولادته (213هـ[2]) ، ثم اعتمد من جاء بعده من المترجمين رواية هذا التاريخ كابن كثير[3] ، والقفطي[4] ، والسيوطي[5] ، وقد سكت عنها البغدادي[6] ، ولم يذكر أكثر المترجمين الشهر الذي ولد فيه ، سوى قليل منهم[7] ذكر أنه ولد في مستهل رجب سنة (213هـ) .

واختلف المترجمون في تحديد موطن ابن قتيبة الأول ، فمنهم من يرى الكوفة وهي موطن ولادته[8] ، كابن النديم ، وابن الأنباري ، وابن الأثير ، وتابعهم بعض المحدثين[9] على ذلك . ومنهم من يرى بغداد[10] كالسمعاني ، والبغدادي ، والقفطي، وتابعهم بعض المحدثين على ذلك[11] .

---

(1) رسائل البلغاء : 353.

(2) وفيات الأعيان : 3/ 43.

(3) البداية والنهاية : 11/ 48.

(4) إنباه الرواة : 2/ 147.

(5) بغية الوعاة : 2/ 64.

(6) تاريخ بغداد : 10/ 170.

(7) وفيات الأعيان : 3/ 43، لسان الميزان 3/ 358.

(8) الفهرست / 115، نزهة الألباء 209، الكامل لابن الأثير 7/ 438.

(9) دائرة المعارف للبستاني 3/ 448، تاريخ آداب اللغة العربية ، جرجي زيدان : 2/ 170.

(10) الأنساب للسمعاني : 443، تاريخ بغداد 10/ 170، إنباه الرواة 2/ 143.

(11) الأعلام للزركلي : 2/ 586.

ومنهم من جمع الرأيين السابقين دون ترجيح أحدهما [1] .

وتنسبه المصادر القديمة إلى أكثر من مدينة، إذ لقب بالدينوري، والمروزي، لكن تلك المصادر لا تشير الى أن "دينور" أو (مرو) موطن ولادته ، إذ نسب إلى (دينور) لأنّه كان قاضياً فيها مدة [2] ، ونسب إلى (مرو) لأنها موطن أبيه[3] .

ويُرّجح أنّه وِلدَ في الكوفة البلدة التي أقام أبوه فيها ، ونشأ فيها ، وقضى فيها مراحل حياته الأولى، ولما شبَّ عن الطوق، وجدَّ في طلب العلم انتقل إلى البصرة ، وتلقّى علومه على أكابر علمائها ، ثم سافر إلى بغداد وعرف بها [4] وسكن فيها وقضى شطراً كبيراً من حياته فيها يتابع التعليم ويملي علمه ، ويؤلّف كتبه . وتذكر المصادر أنَّ ابن قتيبة ارتحل إلى نيسابور قاصداً عَلَماً من أعلامها هو إسحق بن راهويه ، كما ارتحل إلى الحجاز والتقى ببعض علماء (مكة) و(المدينة[5]) ، وسمع من بعض الأعراب [6] .

وفاته :

اختلف المترجمون في سنة وفاة ابن قتيبة ، اختلافهم في تحديد البلد الذي ولد فيه ، فذهب فريق إلى أنه مات سنة (–276هـ)، ومن هذا الفريق ابن الأنباري (–328هـ) ،فقد رُوي عن ابن المنادى ، عن أبي القاسم إبراهيم بن محمد بن أيوب بن بشير الصائغ : أن ابن قتيبة أكل هريسة، فأصاب حرارة ، فصاح صيحة شديدة ، ثم أغمي عليه إلى وقت صلاة الظهر ، ثم اضطرب ساعة ثم هدأ ، فما زال يتشهد إلى وقت السحر ، ثم مات . وذلك أول

---

(1) وفيات الأعيان : 3/ 43، شذرات الذهب : 2/ 169، روضات الجنات : 5/ 106 .

(2) الفهرست 115، تاريخ بغداد 10 / 170، الكامل لابن الأثير : 7/ 438 .

(3) تاريخ بغداد : 10 / 170، الأنساب للسمعاني : 443 .

(4) ابن قتيبة ، للحسينيِ :27، ابن قتيبة للجندي :97 .

(5) غريب الحديث لابن قتيبة 2/595، أمالي المرتضى :2/ 6 .

(6) غريب الحديث لابن قتيبة : 2/ 622 .

ليلة من رجب سنة ست وسبعين ومائتين [1] .

ويتابع ابن الانباري على هذا جملة من المؤرخين . وذهب فريق ثان إلى أنَّه مات سنة (270 هـ) ، وقال الخطيب البغدادي (–463هـ) : قرأت على الحسن ابن أبي بكر عن أحمد بن كامل القاضي قال : "ومات عبدالله بن مسلم ابن قتيبة الديِّنوري في ذي القعدة سنة سبعين ومائتين [2] .

ولكنّ الخطيب البغدادي الذي ذكر هذا الخبر بسنده ، يذكر بعده الخبر الذي ساقه ابن الأنباري بسنده ، ولكنه لا يرجح خبراً على خبر . ويجيء ابن خلكان (–681 هـ)، فيزيد على هاتين الروايتين رواية فيقول : توفي في ذي القعدة سنة سبعين ، وقيل : سنة إحدى وسبعين ، وقيل : أول ليلة من رجب سنة ست وسبعين ومائتين ، ثم يزيد : والأخيرة أصحُّ الأقوال [3] . وعند التدقيق في هذه الروايات المختلفة يبرز رجحان سنة 276هـ، عند كثير من الباحثين [4] لأسباب وجيهة منها:

أن سنة 276هـ، ذكرها أحد تلامذته هو إبراهيم بن محمد بن بشير الصائغ ، كما ذكرها الزّبيدي المتوفّى سنة 373، وهو أسبق المترجمين له ، وممّا يزكّي ابن خلكان في ترجيحه أنّ قاسم بن أصبغ الأندلسي (247–340هـ) هو أحد تلاميذ ابن قتيبة ، وأخذ عنه في بغداد ، حيث رحل إلى المشرق سنة (274هـ) وقد روى عنه في الرحلة المذكورة، ولهذا نستبعد الروايات الأخرى غير سنة (276هـ) . وانفرد ابن الجوزي بذكر موضع وفاته ، وقال: "وذكر بعض أهل النقل أنه مات بالكوفة ، ودفن إلى جنب قبر أبي حازم القاضي [5]. وخالف

---

(1) نزهة الألباء : 272-274.

(2) تاريخ بغداد : 10/ 170.

(3) وفيات الأعيان : 2/ 246.

(4) ابن قتيبة للحسيني : 14، ابن قتيبة للجندي : 100.

(5) المنتظم 5/ 102.

المؤرخون ابن الجوزي، فقد ذكروا أنه سكن بغداد وبقي فيها حتى سنة 276 هـ ولم يذكروا أنه غادرها إلى مكان آخر، وكانت وفاته في خلافة المعتمد على الله [1] .

د - شيوخه

قرأ ابن قتيبة في حياته على كثير من علماء عصره ، وقد تضخم عدد الشيوخ الذين تتلمذ على أيديهم ، وأخذ عنهم ، وقد بلغوا السبعين عداً ، وأفاد منهم علوم اللغة والنحو والأدب والحديث والفقه والتاريخ والعلوم المختلفة ، ومنهم من كان مشهوراً ذاع صيته في الآفاق كأبي إسحاق الزّيادي (-249هـ [2]) وأحمد بن خالد أبي سعيد الضرير [3] وأبي سعيد السكّري (-275 [4]) وأبي حاتم السّجستاني النحوي اللغوي (-225 هـ [5]) وأبي الفضل الرياشي اللغوي النحوي (-257 هـ [6]) وعبد الرحمن بن أخ الأصمعي [7] وعبدالله ابن محمد بن هانئ النيسابوري اللغوي (-236 هـ) [8] .

وعمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ (-255هـ [9]) ومحمد بن زياد أبو عبدالله الأعرابي الكوفي اللغوي النحوي (-231 هـ [10]) ومحمد بن سلاّم الجمحي (-231 هـ [11])

---

(1) الكامل في التاريخ لابن الأثير : 7/ 436 .

(2) بغية الوعاة 1/ 414، إنباه الرواة 1/ 166-167 .

(3) عيون الأخبار 2/ 16، وتنظر ترجمته في بغية الوعاة 1/ 305 .

(4) غريب الحديث 1/ 159، 405، وعيون الأخبار 1/265، وتنظر ترجمته في طبقات ابن شهبة 1/ 300.

(5) غريب الحديث 1/153، 224، وتنظر ترجمته في مراتب النحويين / 130-132 .

(6) نفسه 2/ 621، وتنظر ترجمته في تهذيب التهذيب 4/ 30 .

(7) نفسه 1/187،271،367، وتنظر ترجمته في مراتب النحويين 133/ 134 .

(8) نفسه 2/ 12، 341، وتنظر ترجمته في بغية الوعاة 2/ 62-61.

(9) عيون الأخبار 3/199، 249، وتنظر ترجمته في شذرات الذهب 2/ 121-122 .

(10) غريب الحديث 1/ 458، وتنظر ترجمته في وفيات الأعيان 4/ 304-306 .

(11) عيون الأخبار 3/ 37، وتنظر ترجمته في بغية الوعاة 1/ 115 .

ويعقوب بن إسحاق السِّكِّيت النحوي اللغوي (ـ244 هـ[1]) .

ولا شك أن الرواية عن هؤلاء الشيوخ تُعَدُّ مصدراً من مصادر تكوينه الفكري والعلمي والثقافي ، وسنرى أثرهم في ثقافته وفي آثاره التي ألفها وصنفها في مختلف العلوم والآداب والفنون والمعارف .

هـ - تلاميذه

ذكرت المصادر التي ترجمت لابن قتيبة عدداً كبيراً من التلاميذ الذين تتلمذوا على يديه ، وأخذوا عنه علمه ، واستظهروا مما كان يمليه عليهم ، ورووا عنه كتبه التي ألفها ، ومن هؤلاء التلاميذ الذين ذكرتهم كتب التراجم :

(1) إبراهيم بن محمد بن أيوب بن بشير أبو القاسم الصائغ ، روى عنه أكثر مصنفاته وكان ثقة (ت 313 [2])

(2) أحمد بن عبدالله بن مسلم ، أبو جعفر الكاتب (ابنه) ، حفظ كتب أبيه ورواها (ت322 هـ[3]) .

(3) أحمد بن مروان الدينوري المالكي ، روى عن ابن قتيبة كتاب : تأويل مختلف الحديث (ت 333 هـ[4]) .

(4) عبدالله بن جعفر بن درستويه ، أبو محمد الفارسي النحوي ، أحد النحاة المشهورين (346 هـ[5]) .

---

(1) غريب الحديث 2/615، وتنظر ترجمته في نزهة الألباء / 178-180 .

(2) المنتظم 6/ 197، تاريخ بغداد 10/ 170 .

(3) ترتيب المدارك 3/92، تاريخ بغداد 4/ 229، الديباج المذهب 35، إنباه الرواة 1/46 .

(4) لسان الميزان 1/ 309-310 .

(5) نزهة الألباء ، 283-285، طبقات ابن شهبة 2/ -27-28 المنتظم 6/388 .

(5) عبدالله بن أحمد بن عبدالله بن بكر أبو القاسم التميمي ، كان ثقة (ت 334 هـ[1]) .

(6) عبيدالله بن عبد الرحمن بن محمد بن عيسى، أبو محمد السكري، روى عنه كتاب "المسائل والأجوبة" ، وكتاب "إصلاح الغلط" (ت 268 هـ[2]) .

(7) عبيدالله بن محمد بن جعفر بن محمد، أبو القاسم النحوي (ت 348 هـ[3]) .

(8) قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف ، أبو محمد البيّاتي القرطبي، رحل إلى الشرق سنة 274 هـ[4]، وسمع في بغداد من ثعلب والمبرّد وابن قتيبة، وقرأ عليه كتاب المعارف وغريب الحديث (ت 348 هـ[5]) .

(9) محمد بن خلف بن المرزبان، أبو بكر المالكي البغدادي (ت 309 هـ[6]) .

(10) محمد بن علي بن أحمد، أبو العبّاس الكرخي، كان عالماً أديباً زاهداً (ت 343هـ[7]) .

(11) الهيثم بن كليب بن شريح بن معقل، أخذ الأدب من ابن قتيبة في بغداد (ت 335 هـ[8]) .

---

(1) طبقات ابن شهبة 2/ 53، المنتظم 6/ 346 .

(2) طبقات ابن شهبة 2/ 53، المنتظم 6/ 279، لسان الميزان 3/ 358 .

(3) لسان الميزان 4/ 116، بغية الوعاة 2/ 128 .

(4) لسان الميزان 4/ 58، تذكرة الحفاظ 3/ 453-455، بغية الوعاة 2/ 251 .

(5) وهذا دليل آخر على أن ابن قتيبة توفي بعد 274هـ (راجع ما سبق) .

(6) شذرات الذهب 2/ 258، المنتظم 6/ 165 .

(7) بغية الوعاة / 185-186 .

(8) شذرات الذهب 2/ 342، طبقات الحفاظ للسيوطي 351 .

هؤلاء بعض تلاميذ ابن قتيبة الذين أشارت إليهم كتب التراجم ، ولا شكّ أنّ هناك أسماء فريق آخر لم تذكرها المصادر ، ورواة آخرين لم تصل إلينا أسماؤهم .

و- ثقافته

لا شك أن البيئة التي تلقت ابن قتيبة كان لها أثر كبير في تكوينه الفكري ونشاطه العقلي واللغوي والأدبي، فقد نشطت الدراسات الدينية المختلفة ، واهتم الناس بالعلوم العقلية، وسبقت هذا العصر حركة لغوية قادها أئمة اللغة النابهون ، كما شهد العصر نهضة أدبية واسعة شملت جميع جوانب الأدب والنقد ، وتلاقحت الثقافة العربية والوافدة، وأضافت إلى فنونها وعلومها وآدابها علوم وفنون وآداب الأمم الأجنبية، كاليونان، والفرس ، والهند ، بفضل التَّرجمة إلى اللغة العربية . وقد كان لتلك الثقافات المختلفة أثرها البعيد المدى في إرهاف الملكات ، وصقل الأذهان ، وتوجيه العلماء إلى التخصص في فرع معين من فروع العلم والفن، وفي ظل هذا المناخ العلمي نشأ ابن قتيبة ، وعرف منذ شبابه الباكر أن نفسه تواقة إلى المعرفة ، فقد كان ذا نفس طُلَعة دفعته إلى أن يتعلّق من كل علم بسبب، وأن يضرب فيه بسهم، وقد اقتضاه ذلك أن يغشى مجالس علماء الحديث والتفسير والفقه والنحو واللغة والكلام والآداب والتاريخ، فغشي من مجالسهم ما غشي ، وثقف عنهم ما ثقف ، ممّا مكّن له من أسباب القوة ، وهيَّأ له من وسائل التفوق والتبريز. وفي ذلك يقول في كتاب: "تأويل مختلف الحديث" : " وقد كنت في عنفوان الشباب وتطلب الآداب أحبُّ أن أتعلّق من كل علم بسبب ، وأن أضرب فيه بسهم[1]"، وسرت في نفسه تلك المشاعر النبيلة حتى صار رأساً في اللغة والنحو والأدب والأخبار وأيّام النّاس ، وأفاد من النهضة الفكرية والأدبية، وغدت شخصيّته مثقفة بثقافة عصرها، وقد حباه الله ركيزة فطرية، وذكاءً حاداً وقريحة وقّادة، وذهناً مصقولاً ، وحباً للعلم وأهله ، ممّا مَكن له بلوغ درجة رفيعة في العلم والثقافة والتأليف ، وآية ذلك مؤلفاته العديدة التي غزت العقل

---

(1) تأويل مختلف الحديث :61

العربي ، ومثلت ثقافة عصر ابن قتيبة خير تمثيل . وتأثّر في شبابه بما كان يدور في أوساط العلماء من جدل وتناظر بين المعتزلة وأهل السنة، ولمس في فجر حياته غلبة المعتزلة على الحياة الفكرية، فأعجب – على ما يبدو – بآرائهم كما يحكي في "تأويل مختلف الحديث[1]" ، لكنه ناصر أهل السنة، وانعقدت له زعامتهم، ورفع لواءهم عالياً خفاقاً ، وقد اتخذ المنطق سلاحاً لمجادلة الخصوم والنيل منهم، ولم تقتصر ثقافته على اللغة العربية وآدابها، ولكنه تجاوزها إلى لغات الأمم الأخرى كاليونانية، والفارسية، فقد درس المنطق ، وهذا يبدو جلياً في تنظيم مؤلفاته، وتبويب بحوثه، وتَسَلْسُل أفكاره وحسن تنسيقه، وحصره للموضوع .

مصادر ثقافته :

تعددت المصادر الثقافية التي أثّرت في تكوين ابن قتيبة الفكري ، فقد نهل علمه من ينابيع شتى متدفقة، بعضها مسموع ، وبعضها مكتوب، وبعضها عربي السمت والطابع، وبعضها الآخر أجنبي النزعة والاتجاه ، وقد تضافرت جميعها لتترك بصماتها واضحة في تفكيره وآثاره، ومن تلك المصادر :

أ- الرواية عن الشيوخ والأعراب ، والكتابة إليهم :

فقد روى عن فصحاء الأعراب الذين التقى بكثير منهم ، وجمع من أسجاع البدو المنتشرة التي تتضمن تنبؤاتهم الفلكية والجوية، واتخذها مادة ليؤلف كتابه: (الأنواء)، وقد صرَّح بأنه جمع أكبر مادته من الأشعار والأسجاع عند العرب[2] .

وقال "صحبني رجل من الأعراب في فلاة ليلاً، فأقبلت أسأله عن محالّ قوم من العرب ومياههم، وجعل يدلني على كل محلَّة بنجم، فربما أشار إلى النجم وسمَّاه، وربَّما قال لي تراه[3] " .

---

(1) نفسه / 74

(2) الأنواء ، لابن قتيبة 4

(3) الأنواء : 2، 3 .

وسمع من الأعرابيات الفصيحات أثناء رحلاته إذ يقول : "سمعت أعرابية بالحجاز فصيحة تُرْقِي رجلاً من العين فقالت : "أعيذك بكَلم الله التّامّة[1]" .

وكان ابن قتيبة يتجاوز عن ذكر كثير من أسماء شيوخه والأعراب الذين شافههم ، وكان يكتفي بعبارات عامة نحو : " سمعنا من فصحاء العرب[2]" ، و"أخبرني بذلك الحجازيون[3]" ، و"خبّرني بذلك أهل اليمن[4]" . ومن مصادر ثقافة ابن قتيبة الكتابة إلى الشيوخ والأعراب لتلقي معلوماته ، وتوثيق آرائه اللغوية والفقهية ، فقد كتب إلى أبي مُحَلِّم[5] يسأله عن معنى "القواري" وقال :"قال أبو عبيدة القواري هم الذين يتتبعون أعمال النّاس ويتفقدونهم، وهو يرجع إلى التفسير الأول، وأحسبه مأخوذاً من قريت الشيء، إذ جمعته ، كأنهم يجمعون أخبار الناس عندهم، وكتبنا إلى أبي محلِّم نسأله عن هذا الحرف فأجاب بنحو هذا وأنشدنا : والمسلمون بما أقول قواري أي شهود[6] .

ب - المصادر المكتوبة

أفاد ابن قتيبة من النهضة اللغوية والفكرية والأدبية التي شهدها عصره، وأثمرت الدراسات التي نهض بها أئمة اللغة والفقه والأدب والنقد، وازدانت المكتبة العربية بمؤلفاتهم العظيمة في علوم اللغة والأدب ودراسات القرآن والحديث ومختلف الفنون والثقافات ، وانتفع ابن قتيبة بها ، ونهل منها كل ما احتاج إلى ذلك، وفي مؤلفاته نُقُولٌ كثيرة منها ، يحتكم إليها ويدعم آراءه بآراء العلماء الذين سبقوه، فقد نقل كثيراً من أقوال سيبويه التي وردت في الكتاب، من ذلك قوله : "وقرأت في كتاب سيبويه على البصريين:

---

(1) غريب الحديث : 2/ 622.

(2) تفسير غريب القرآن / 13.

(3) غريب الحديث 3/ 666.

(4) غريب الحديث 3/ 666.

(5) أبو محلم هو محمد بن سعد ، ويقال محمد بن هشام الشيباني، (ت 245هـ)، الفهرست: 69.

(6) غريب الحديث :3/ 755.

بشَرْتُه فأبشر مثل فطَرْتُه فأفطر[1]".

وقال أيضاً: "والحنظبَ والعنظب ذكر الجراد، وقرأته في كتاب سيبويه العنظباء بالمد[2]. وأفاد من كتاب "الخيل[3]" لأبي عبيدة، وكتاب "مجاز القرآن[4]" لأبي عبيدة، وذكر ما قاله أبو عبيدة في تفسير معاني كثير من المفردات، كما أفاد من كتب الفراء[5] وغيرها من كتب اللغة التي لم يصرّح بأسمائها، واكتفى بذكر أصحابها، من ذلك قوله: "قال الفرّاء" و"هذا قول الفراء[6]".

وانتفع ابن قتيبة بكتب الجاحظ كثيراً، حيث أجاز له الجاحظ بنفسه أن يستقي منها، دون تحديد أسماء الكتب، حيث يقول ابن قتيبة في ذلك: "وفيما أجاز لنا عمرو بن بحر من كتبه قال... [7]". وأفاد من كتب ابن المقفع، وذكر منها في كتبه "آداب ابن المقفع[8]"، و"كليلة ودمنة[9]" و"التاج[10]".

ومن كتب ابن السكّيت اللغوية كـ"إصلاح المنطق" و"تهذيب الألفاظ"، فقد نقل منهما في كتابيه "غريب الحديث" و"أدب الكاتب"، دون أن يشير إلى اسميهما، وكان يذكر ابن السكيت" في كتابه "غريب الحديث"، ومثال ذلك: قال ابن قتيبة: "قال ابن

---

(1) نفسه: 2/ 233-234، ويقارن بالكتاب 2/ 235.

(2) أدب الكاتب: 81، ويقارن بالكتاب 2/ 315.

(3) غريب الحديث: 2/ 327.

(4) نفسه: 1/ 226.

(5) تفسير غريب القرآن: 29.

(6) غريب الحديث 1/ 249.

(7) عيون الأخبار: 3/ 199.

(8) نفسه: 1/ 20، 22، 23.

(9) نفسه: 1/ 168، 281.

(10) نفسه: 1/ 5، 11، 15.

الأعرابي: شَنّ وسنّ واحد، وكان ابن السكيت يفرّق بينهما فيقول: شَنّ الماء على وجهه، خطأ، إنما هو سنّ بالسين غير معجمة، أي صبّه صبّاً سهلاً، وسنّ عليه درعه، أي صبها، قال: وإنما يقال: شَنَّ الغارة عليهم أي فَرَّقها(1)" .

ونلاحظ أن ابن قتيبة لا يشير صراحة في كتابه "أدب الكاتب" إلى ما أفاده من كتب ابن السكيت كـ"إصلاح المنطق" و"تذهيب الألفاظ" ، ومن ذلك قول ابن قتيبة: "تَنحَّ عن سُنُن الطريق وسُنَنه ، وهو أشُرُ الأسنان وأشَرُها، وهو شُطُبُ السيف وشُطَبه للطرائق فيه(2)"، وما قاله ابن قتيبة في أدب الكاتب موجود في "إصلاح المنطق" عن الفرّاء .

يقول ابن السكيت "الفراء: يقال : تنّح عن سُنُن الطريق وعن سُنَنه، وهو شُطُبُ السيفِ وشُطَبُه للطرائق التي فيه، وهو أشُرُ الأسنان وأشَرُها ، للتحزيز الذَي فيها(3)" . ونلاحظ أنّ المادة واحدة ما عدا اختلافاً بسيطاً في ترتيب المادة وشرحها . وأفاد ابن قتيبة كثيراً من كتب علماء التفسير واعتمد كثيراً من آرائهم في شرحه للألفاظ، وتأويل الآيات ، وكان ينقدها أحياناً ويضيف إليها أحياناً أخرى ما يراه مناسباً من آرائه وأغفل أسماء المؤلفات التي نقل منها، واكتفى بذكر أسماء المفسرين الذين اعتمد آراءهم كابن عبّاس(4) و ابن مسعود(5) ومجاهد(6) وغيرهم .

وقرأ ابن قتيبة كتب الأمثال، وغدت رافداً من روافد ثقافته ، واستعان بها للاستدلال

---

(1) غريب الحديث : 1/ 434.

(2) أدب الكاتب : 535.

(3) إصلاح المنطق : 102.

(4) تاويل مشكل القرآن : 70، 72، 63، 242، تفسير غريب القرآن : 71، 259، 412، 526.

(5) تفسير غريب القرآن :67، 202، 231، 369 .غريب الحديث : 1/369، 574.

(6) تفسير غريب القرآن : 70،100،297، 542 .غريب الحديث: 2/ 646.

والتمثيل ، ومنها أمثال أبي عبيد[1] ، و"الأمثال" لمؤرِّج السدوسي [2]، و"أمثال العرب" للمفضّل الضّبي[3] .

وأفاد من كتب بعض المؤرخين والنسابين ، ومن كتاب "المغازي[4]" لمحمد بن إسحاق . ولا شك أنَّ ابن قتيبة قد اعتمد القرآن الكريم والحديث الشريف المادة الأساس في ثقافته اللغوية والدينية، فهما المصدران اللذان نهل من علومهما، وشرح غريبهما، وأوّل المشكل فيهما، إضافة إلى المصدر الثالث وهو الشعر العربي الموثوق بصحته، فكان مصدراً من مصادر ثقافته. وقرأ الكتب المقدسة كالتوراة والإنجيل، وكان يصرح بقوله: "قرأت في الإنجيل"، و"قرأت في التوراة[5]" .

ويضاف إلى جملة مصادر ابن قتيبة مؤلفاته نفسه، فقد كانت من ضمن المراجع التي اعتمد عليها في شرحه لكثير من القضايا اللغوية والنحوية والأدبية وغيرها. لقد تعددت مصادر ابن قتيبة الثقافية، وكان لها أثر كبير في تكوينه الفكري، وانعكست آثارها المباشرة في مؤلفاته التي ضمَّنها آراء العلماء الذين سبقوه أو عاصروه في اللغة ومفرداتها، وأصولها، وتصاريفها، وتطور معانيها، وضمنها آراءه الخاصة في اللغة والنحو والأدب والنقد، وأصبحت مصدراً مهمّا تمثل ثقافة عصر ابن قتيبة خير تمثيل .

وقد أوضح ابن قتيبة منهجه الذي سلكه لتكوينه الفكري والثقافي بقوله :" واعلمْ أنّا لم نزل نتلقط هذه الأحاديث في الحداثة والاكتهال عمّن فوقنا في السن والمعرفة وعن جلسائنا وإخواننا ، ومن كتب الأعاجم، وسيرهم ، وبلاغات الكتاب في فصول من كتبهم،

(1) غريب الحديث : 2/ 118 .

(2) أدب الكاتب : 442.

(3) الشعر والشعراء : 167 .

(4) غريب الحديث : 2/ 142 .

(5) المعارف : 75. عيون الأخبار : 2/ 270.

وعمّن هو دوننا غير مستنكفين أن نأخذ من الحديث سناً لحداثته، ولا عن الصغير قدراً لخساسته ، ولا عن الأمة الوكعاء لجهلها ، فضلاً عن غيرها، فإنّ العلم ضّالة المؤمن من حيث أخذه نفعه"[1] .

ز - عقديته ومذهبه

حمل ابن قتبية لواء أهل السنة والحديث ، وسخّر قلمه للذود عنهم ، وتصدّى للفرق المختلفة التي حاولت أن تنال من القرآن والحديث ، وتعرَّض في مؤلفاته لأهل القياس والرأي، ولأهل الكلام، والمعتزلة، والقدرية وغيرهم، وناقش مذاهبهم، وآراءهم، وأبطل حجج بعضهم بأسلوب علمي دقيق [2]، معبراً في ذلك عن رأيه ومعتقده، ومدافعاً عن أهل السنة، متأثراً بشيخه إسحاق بن راهويه، وكره الفلسفة وأنصارها، لأنها أثارت الشكوك في الدين، وأوحت إلى العلماء أن يحتكموا إلى العقل، فما وافقه فهو مقبول، وما خالفه فهو مرفوض، وقارع علماء المتكلمين بعد اطلاعه على آرائهم ، وكال لهم بالكيل الذي كالوا به لأهل السنة والحديث ، وعبّر عن ذلك بقوله: "فربما حضرت بعض مجالسهم ، وأنا مغتر بهم، طامع أن أصدر عنه بفائدة أو كلمة تدل على خير أو تهدي لرشد فأرى من جرأتهم على الله تعالى ، وقلة توقيهم، وحملهم أنفسهم على العظائم لطرد القياس أو لئلا يقع انقطاع ما أرجع معه خاسراً نادماً[3]" .

وقد ألّف ابن قتيبة كثيراً من الكتب التي تناول فيها قضية السنة والحديث ، وما وجه إليهما من اتهامات على أيدي المعتزلة وانتصر للمذهب، وللمحدثين ومناهجهم في العلم والعقيدة، ومن تلك الكتب كتاب "تأويل مختلف الحديث" ، و"الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة" ، و"المسائل والأجوبة" .

---

(1)عيون الأخبار 1 / 15 .

(2) ينظر كتاب الاختلاف في اللفظ ، وكتاب "تأويل مختلف الحديث" في أكثر موادهما .

(3) تاويل مختلف الحديث : 61/ 62.

وردّ ابن قتيبة على المعتزلة الذين تأولوا ما جاء في القرآن من ألفاظ قد توحي بغير عقيدتهم ورأى رأي أهل السنة وهو التبسليم بما جاء في القرآن والحديث كما هو لا يتأولونه. واختلف المعتزلة وأهل السنة في مسألة إعجاز القرآن، فقد رأى النظّام أن القرآن معجز، لأنَّ الله صرف الخلق عن الإتيان بمثله، وقال الشهرستاني: "إنه كان يرى أن إعجاز القرآن من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية، ومن جهة صرف الدواعي عن المعارضة، ومنع العرب عن الاهتمام به جبراً وتعجيزاً، حتى لو خلاّهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله، بلاغة وفصاحة ونظماً"[1] . ويرى أهل السنة أن القرآن معجز ببيانه وأسلوبه الرائع الذي لا تستطيعه العرب، والذي ظهر عجزهم عنه منذ عهد النبي ﷺ، وقد تعرّض ابن قتيبة لمسألة "إعجاز القرآن" من وجهة نظر أهل السنة في كتابه " تأويل مشكل القرآن" .

وردّ ابن قتيبة على المعتزلة الذين اتهموا أهل الحديث بالكذب والتناقض، والجهل وقلة المعرفة. وقال ابن قتيبة: "إن معاني الكتاب والحديث، وما أودعاه من لطائف الحكمة، وغرائب اللغة، لا يدرك بالطفرة والتولد والعرض والجوهر، والكيفية والكمية، والأينية، ولو ردوا المشكل منها إلى أهل العلم بها ، وضح لهم المنهج ، واتسع لهم المخرج"[2] .

ويرى ابن قتيبة أن إطلاق الأمر للرّأي والقياس في المسائل الدينية الدقيقة مثل صفات الله تعالى، وقدرته، ونعيم أهل الجنة، وعذاب أهل النار، يدعو إلى الخلاف والزيغ، والأحسن فيها أن نلجأ إلى الحديث ، ونؤمن بما جاء به متعلّقاً بها، لأنها في رأيه "أمور لا يعلمها نبي إلا بوحي من الله تعالى"[3] .

وأنكر ابن قتيبة القياس، وعارض من اتخذه وسيلة لاستنباط الآراء الفقهية، وهو بهذا متابعٌ رأي ابن حنبل، الذي عاصره وأخذ عنه، وقال ابن تيمية: و"ابن قتيبة من المنتسبين

---

(1) الملل والنحل للشهرستاني / 60.

(2) تأويل مختلف الحديث: 10، 11.

(3) نفسه : 111.

إلى أحمد[1]".

وأورد ابن قتيبة حججاً في إبطال مسائل أهل القياس حيث يقول : "وكيف يطمع في تخلص الحق من بينهم؟ وهم مع تطاول الأيام بهم، ومرٌ الدهور على المقايسات والمناظرات ، لا يزدادون إلاّ اختلافاً ، ومن الحقّ إلا بعداً"[2].

ولخص ابن قتيبة آراء أصحاب الحديث بقوله: "أصحاب الحديث كلهم مجمعون على أنّ ما شاء الله كان، وما لم يشأ لا يكون، وعلى أنّه خلاق الخير والشر، وعلى أنّ القرآن كلام الله غير مخلوق، وعلى أنّ الله تعالى يُرى يوم القيامة، وعلى تقديم الشيخين، وعلى الإيمان بعذاب القبر، لا يختلفون في هذه الأصول، ومن فارقهم في شيء منها نابذوه وباغضوه وهجروه[3]".

ومن خلال هذه النصوص ندرك أن ابن قتيبة لم يكن من الجهمية ولا المشبهة، ولا غيرهما من الفرق الأخرى التي فارقت أهل السنة والحديث... وإنما كا سنياً مدافعاً عن القرآن والحديث . ويقول الدكتور عبد الحميد سند الجندي في كتابه "أعلام العرب" : "ويبدو لي أنه لم يكن مجتهداً ، له مذهب خاص في الفقه، كأغلب علماء عصره، ومن المحقق أنه لم يكن شافعياً ، إذ لم يذكره السبكي في "طبقات الشافعية" ، ولا مالكياً ، فلم يرد له ذكر في "الديباج المذهب" لابن فرحون، وخلا كذلك كتاب "طبقات الحنفية" ، للكنوي من اسمه، ولم يذكره صاحب "الجواهر المضيَّة في طبقات الحنفيَّة" ولكن الذي لا شك فيه أنّه كان يميل إلى أحمد بن حنبل ، ويذهب مذهبه في الحديث[4].

فابن قتيبة أدرك أسرار القرآن ومعاني الحديث ، ودافع عن الكتاب والسنة ، ودعا

---

(1) تفسير سورة الإخلاص : 121 .

(2) تأويل مختلف الحديث : 61.

(3) نفسه : 16 .

(4) اعلام العرب رقم (22،241،243) .

المسلمين إلى التمسك بهما ، وقال عنه ابن تيميّة: " ويقال هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة ، فإنه خطيب السنة ، كما أنّ الجاحظ خطيب المعتزلة [1] .

ح - أخلاقه ومنزلته بين العلماء

تأثرت شخصية ابن قتيبة بما كان يجري في عصره من الخير ، والشر ، والحب ، والبغضاء ، وآلمه ما آلت إليه الدولة من تمزق واضطراب، وما حلّ بالمجتمع من خلاعة ومجون وإلحاد ومروق عن الدين، وما قام به الشعوبيون الذين أذكوا نار الفتن، وحاولوا الانتقاص من العرب ، وتجريدهم من مناقبهم وفضائلهم ، وانبرى ابن قتيبة يذود عن العروبة ضدّ الشعوبية يرد كيد المارقين بالحجة والبرهان، بقلمه السيّال ، وألف كتاب " فضل العرب على العجم" ، الذي فنَّد فيه مزاعم العنصريين أعداء العرب ، وقد ناظرهم ودافعهم بالأدلة الساطعة، وكان لذلك أثره في تكوين شخصية ابن قتيبة، وتوجيهه هذه الوجهة الدينية العربية الإسلامية، ودفاعه عن العرب وعلومهم، حيث قال : " ولو أن مؤلف حدّ المنطق بلغ زماننا هذا حتى يسمع دقائق الكلام في الدين والفقه والفرائض والنحو لعدّ نفسه من البُكم أو يسمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته، لأيقن أنَّ للعرب الحكمة وفصْلَ الخطاب" إلى أن يقول: " ولو أنَّ هذا المعجب بنفسه، الزاري على الإسلام برأيه، نظر من وجهة النظر لأحياه الله بنور الهدى وثلج اليقين، ولكنه طال عليه أن ينظر في علم الكتاب، وأخبار الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته، وعلوم العرب ولغاتها وآدابها، فنصب لذلك وعاداه، وانحرف عنه إلى علم قد سلمه له، ولأمثاله المسلمون ، وقل فيه المتناظرون [2] " .

ومن خلال هذا النص ندرك نبل أخلاق ابن قتيبة وحبّه للعربيّة وأهلها، ولم يمنعه نسبه في العجم أن ينبري محاجّا الشعوبية عمَّا تدعيه لها جهلتها، وقد عبَّر عن رأيه حين

---

(1) تفسير سورة الإخلاص : 130 .

(2) أدب الكاتب : 7.

قال: "فلا يمنعني نسبي في العجم أن أدفعها عمًّا تدعيه لها جهلتها[1]" .

وكان ابن قتيبة طاهر النفس، عفيفاً ثقة، ديّناً فاضلاً ، مستقل الفكر، جريئاً يقول الحقّ على نفسه ، وعلى النّاس، وهذه الأخلاق النبيلة هيَّأت له تولية القضاء بالدينور، وقضى حياته وهو يدعو النّاس إلى التمسك بالقرآن ولغة العرب وآدابها، والصمود أمام التيارات الملحدة الضارَّة، فأسدى بذلك خدمات جليلة للعرب والإسلام وهذا برهان على عظمة أخلاقه، وقوَّة شخصيته، وصدق نيّته ، وإخلاصه لدينه ولغة القرآن العظيم ، وقد رسم لتلاميذه منهجاً أخلاقياً ارتضاه، وعبر عنه بقوله : "ونحن نستحب لمن قبل عنّا وائتم بكتبنا أن يؤدّب نفسه، قبل أن يؤدّب لسانه، ويهذِّب أخلاقه قبل أن يهذِّب ألفاظه ، ويصون مروءته عن دناءة الغيبة ، وصناعته عن شين الكذب ، ويجانب – قبل مجانبته اللحن وخطل القول – شنيع الكلام ورفث المَزْح[2] .

إلى ان يقول: "فأما السباب، وشتم السلف، وذكر الأعراض بكبير الفواحش، ممّا لا نرضاه لخساس العبيد، وصغار الولدان[3]" ، ويختم مقدمة كتابه "أدب الكاتب" ، بحثٍّ الناس على التمسك بالفضائل ، وتجنبهم للرذائل والقبائح كلها ، فيقول : " فمن تكاملت له هذه الأدوات ، وأمده الله بآداب النفس – من العفاف، والحلم ، والصبر ، والتواضع للحق، وسكون الطائر ، وخفض الجناح – فهذا المنتهى في الفضل العالي في ذرى المجد، الحاوي قصب السبق ، الفائز بخير الدارين – إن شاء الله تعالى[4] "ويبدو ابن قتيبة من النصوص المتقدمة يفضل التجمل بالأخلاق الفاضلة ، والسجايا الحميدة . ويقدمها على طلب العلم ، وبهذه الروح الطيبة ، والأخلاق المثالية ، تبوأ ابن قتيبة منزلة عظيمة بين

(1)كتاب فضل العرب في رسائل البلغاء ، لمحمد كرد علي ط 3، ص : 356.

(2) أدب الكاتب : 14.

(3) أدب الكاتب : 16.

(4) نفسه : 16.

العلماء ، على الرغم من اختلاف آرائهم في تحديد منزلته، فمنهم من أنزله المكانة التي يستحقها ، ونسب الفضل لأهله، ومنهم من ألهبه الحسد، وحطّ من شأنه ، وقدح في شخصه وعلمه . ومن الطبيعي أن تتباين الآراء في رجل عالم ، وافر المصنفات ، خصب الإنتاج ، حمل لواء أهل الحديث والسنة، وعارض جمهرة من العلماء والباحثين الذين تعرّضوا للحديث بالطعن وفضلوا الأخذ بالرأي والقياس على النصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية . ومن العلماء الذين حظي ابن قتيبة منهم بالثناء عليه ، ابن النديم حيث قال: " كان صادقاً فيما يرويه عالماً باللغة والنحو، وكتبه مرغوب فيها [1] " .

وقال مسلم بن قاسم : " كان ابن قتيبة لغوياً ، كثير التأليف ، عالماً بالتصنيف، صدوقاً من أهل السنة[2] " . وقال الخطيب البغدادي : " كان ثقة ديناً فاضلاً ، وهو صاحب التصانيف المشهورة ، والكتب المعروفة [3]" .

وقال نفطويه : "كان إذا خلا في بيته ، وعمل شيئاً جوَّد، وما أعلمه حكى شيئاً في اللغة إلاّ صدق فيه [4] . وقال ابن الأنباري : " كان فاضلاً في اللغة والنحو والشعر، متفننا في العلوم [5] "وقال ابن حزم : "كان ابن قتيبة ثقة في دينه وعلمه [6] " . وقال الحافظ الذهبي :" ابن قتيبة من أوعية العلم، لكنه قليل العمل في الحديث [7]" .

وقال ابن تيميّة نقلاً عن صاحب "التحديث بمناقب أهل الحديث" : " . . . وهو أحد أعلام الأئمة ، والعلماء الفضلاء ، أجودهم تصنيفاً ، وأحسنهم ترصيفاً . . وكان أهل

---

(1) الفهرست : 115 .

(2) لسان الميزان : 3/358 .

(3) تاريخ بغداد : 10/170.

(4) لسان الميزان : 3/358 .

(5) نزهة الألباء : 209 .

(6) لسان الميزان : 3/358 .

(7) تذكرة الحفّاظ : 2/187 .

المغرب يعظمونه ، ويقولون: من استجاز الوقيعة في ابن قتيبة يُتَّهم بالزندقة ، ويقولون : كل بيت ليس فيه شيءٌ من تصنيفه لا خير فيه ، قلت ؛ ويقال : هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة . فإنه خطيب السنة ، كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة [1] " .

وقال ابن خلّكان : " ابن قتيبة ، النحوي اللغوي ، كان فاضلاً ثقة . . وتصانيفه كلها مفيدة [2] " . هذه أقوال العلماء الذين نال ابن قتيبة إعجابهم وتقديرهم ، إذ عرفوا مكانته العلمية العظيمة ، لكننا لا نعدم من يطعن فيه، ويثلب من منزلته العلمية ، وينسب إليه بعض التهم التي تنال من عقيدته، أو عدم توثيقه في آرائه أو أمانته العلمية .

ومن الذين اتهموه في عقيدته ونسبوه إلى الكراميّة [3]، البيهقي الذي قال فيه " كان يرى رأي الكراميّة [4] " ، وقال الدارقطني : " كان ابن قتيبة يميل الى التشبيه ، منحرفاً عن العترة وكلامه يدل عليه [5] " ، وهذا رأي مردود من تراث ابن قتيبة، إذ ألف كتاباً في الردّ على المشبهة والكرامية .

ومنهم من اتهمه في انحرافه عن أهل البيت – رضي الله عنهم – ، وهذا رأي مردود أيضاً؛ لأن ابن قتيبة كان محبّاً لهم ، عبّر عن مشاعره نحو عليّ – كرّم الله وجهه – وأهل البيت في كتابه "تأويل مختلف الحديث" حين قال : " والسلامة لك ألاّ تهلك بمحبته، ولا تهلك ببغضته ، وألاّ تحمل عليه ضغناً بجناية غيره ، فإن أنت فعلت فأنت جاهل مفرط في

(1) تفسير سورة الإخلاص : 130

(2) وفيات الأعيان : 3/ 42 .

(3) هم أصحاب "محمد بن كرام" ، "الذين يؤمنون بالتجسيم والتشبيه" ، وتزعم الكَرَاميّة أن الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب ، وأن الكفر باللّه هو الجحود والإنكار له باللسان، ينظر مقالات الإسلاميين 1/ 23 .

(4) ميزان الإعتدال 2/ 503 .

(5) لسان الميزان 3/ 357-358.

بغضته ، وأن تعرف له مكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتربية والأخوّة والصهر والصبر في مجاهدة أعدائه ، وبذل مهجته في الحروب بين يديه مع مكانته في العلم والدين والبأس والفضل [1] " .

ومنهم من عاب عليه الشروع في موضوعات لا يقدر عليها، من ذلك ما قاله أبو الطيب اللغوي "إنه أخذ عن أبي حاتم والرياشي وعبد الرحمن بن أخ الأصمعي ، وقد أخذ ابن دريد عن هؤلاء كلهم ، وعن الأشنانداني ، إلاّ أن ابن قتيبة خلط عليه بحكايات عن الكوفيين لم يكن أخذها عن ثقات، وكان يتسرع في أشياء لا يقوم بها ، نحو تعرضه لتأليف كتابه في النحو ، وكتابه في تعبير الرؤيا ، وكتابه في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله، وعيون الأخبار ، والمعارف ، والشعراء [2] " .

وهذا رأي مردود أيضاً ، لأن مؤلفاته تشهد بأمانته العلمية التي تتضح خاصة في كتابه "غريب الحديث" ، فهو يتحرى الدقة في نقل الحديث ، وضبط ألفاظه ، وينحو باللائمة على رواة الحديث لغلطهم في نقله [3] ، وتتجلى أمانته العلمية في نسبته أكثر الأقوال إلى أصحابها [4] وفي سؤاله أهل العلم والخبرة عن أشياء يجهلها ، كقوله : " سألت الحجازيين عن خبث الجميش ، فأخبروني أن بين مكة والحجاز صحراء تعرف بالخبث [5] " .

وأما الذين عابوا عليه الشروع في موضوعات لا يقدر عليها ، فأمرهم مردود بانتشار مؤلفاته واكتمالها وتداولها بين أيدي العلماء والباحثين ، ومنها "عيون الأخبار" ، و"المعارف" ، و"الشعر والشعراء" ، وغيرها . وأمّا ما نسب إليه من أخطاء ، فقد اعترف بأنه

---

(1) تاويل مختلف الحديث : 160-161 .

(2) مراتب النحويين: 136، 137 .

(3) غريب الحديث 2/ 164، 487، 489، 551، 561 .

(4) نفسه : 1/ 186، 187، 201، 244، 249، 317 وتاويل مشكل القرآن : 129، 200، 219 .

(5) نفسه : 1/ 448 .

ليس معصوماً ، شأنه في ذلك شأن كثير من العلماء والمجتهدين ، وقال : " وما أبرأ إليك بعد العثرة والزلة، وما أستغني منك أن وقعت على شيء من التنبيه والدلالة ، ولا أستنكف من الرجوع إلى الصواب عن الخطأ [1] " .

ولا شك أن تعرّض ابن قتيبة لعديد من المشكلات الدينية والفقهية ، ولكثير من المسائل اللغوية والنحوية والأدبية ، قد حمل بعض العلماء الذين اختلف معهم بالرأي على أن ينالوا من مكانته العلمية ، ولكن دعواهم لم تثبت أمام ما نقل عن أكثر مترجميه من وصفه بالصدق والفضل والثقة ، والأمانة العلمية ، والفقه ، والطهارة ، والإخلاص لدينه ولغته ، ودفاعه عن العرب والإسلام . لقد حاولت في هذا الفصل دراسة حياة إمامنا ابن قتيبة ، فذكرت اسمه ونسبه ، وتحدثت عن مولده ونشأته ووفاته ، وأحصيت شيوخه الذين تتلمذ على أيديهم، وتلاميذه الذين نهلوا من مورد علمه ، وفصلت القول في ثقافته ومصادرها ، واشرت إلى المؤثرات التي تركت بصمات قوية في شخصيته ، وتكلمت على عقيدته ومذهبه ، وكشفتُ عن سلوكه وخلقه ، ومنزلته بين العلماء آملاً في بيان الصلة بين ثقافته وتكوينه وآثاره التي سأدرسها في الفصل الثالث .

---

(1) الأنواء : 4.

الفصل الثالث

آثار ابن قتيبة

أولا - الكتب المطبوعة

ثانيا - الكتب المخطوطة

ثالثا - الكتب المفقودة

رابعا - الكتب المنسوبة إليه

الفصل الثالث

آثار ابن قتيبة

لقد مثّل ابن قتيبة ثقافة عصره خير تمثيل ، فقد كان ذا ثقافة واسعة كلّ السّعة ، ومظهر امتزاج الثقافات عنده مظهر جليٌّ واضح ، وتتمثل ثقافته العظيمة في مؤلّفاته القيّمة التي غصّت بها المكتبات العربيّة ، وقد خلّف لنا ثروة علميّة ، تناولها العلماء والدارسون والنقاد بالشرح والتحقيق ، ووصفوا مؤلفها بأنه واسع الاطلاع ، فهو بحق دائرة معارف ألّف في اللغة وعلومها ، والآداب وفنونها ، والشعر والنقد ، والتاريخ والتراجم والمعارف ، وعلوم القرآن، وعلوم الحديث ، والفقه وعلوم الدّين ، وتمثل مؤلفاته اتجاهات ثقافيّة متعدّدة نالت استحسان العلماء في العصور كلها، لأنّها أبانت عن أمانته العلميّة، والتزامه الصدق ، وتحريه الحقيقة، وحسن تصنيفه وترتيبه وتنظيمه ، وتحرره من الفوضى التي غلبت على مؤلفات أقرانه من العلماء في عصره .

وقد عرف النّاس قيمة كتبه، وأعجبوا بها في كل زمان، فقد ذكر السمعاني إعجاب الأمير الميكالي بها ، فقال : " تذاكرنا المتنزهات يوماً : ... فقال هذه متنزهات العيون ، فأين متنزهات القلوب ؟ قلنا : وما هي يا أبا بكر ؛ قال : عيون الأخبار للقتيبي [(1)]" .

ومصنَّفات ابن قتيبة عظيمة النفع ، جليلة القدر ، تطالعك بلاغة العرب من ديباجتها، وتروعك فصاحتهم كلما تقدمت إلى غاياتها ، فتبدو لك المعاني متحلية باللفظ الوجيز الجزل ووصفها النووي (ت – 676 هـ) بقوله:"ولابن قتيبة مصنفات كثيرة جداً ، رأيت فهرستها ، ونسيت عددها ، أظنها تزيد على ستين في أنواع العلوم [(2)]" .

وقد استقصيت أسماء مؤلفاته من الكتب التي أمكنني الوصول إليها ، وسأحاول في

---

(1) الأشربة ، محمد كرد علي /9

(2) تهذيب الأسماء واللغات، محيي الدين النووي، 2/ 281.

هذا الفصل دراسة آثاره المطبوعة ، وسرد آثاره التي بلغتنا أسماؤها ، وعزوها إلى المصادر التي ذكرتها ، وفق الترتيب الهجائي ، ومما تجدر ملاحظته أنّ كثيراً من كتب ابن قتيبة ورد ذكرها بأسماء مختلفة ، وهي في الواقع أسماء لكتاب واحد ، ولعلّ هذا هو أحد الأسباب التي جعلت القدماء يختلفون في عدد كتبه ، بحيث ذكر ابن تيمية نُقلاً عن كتاب: "الحديث بمناقب أهل الحديث" أنّ لابن قتيبة زهاء ثلثمائة مصنَّف [1]" ، وهذا أمرٌ مبالغٌ فيه... وذكر أبو العلاء المعري (ت – 449 هـ) ، أنّ كتبه بلغت خمسة وستين كتاباً [2].

وقد حاول مترجمو حياة ابن قتيبة ، ومحققو آثاره أن يحصوا كلَّ ما صنَّف ، وقد ذكر ابن النديم (ت–434هـ) أربعة وثلاثين كتاباً [3] ، والقاضي عياض (ت – 544 هـ) واحداً وعشرين كتاباً [4] ، وابن خير الإشبيلي (ت – 575 هـ) ستة عشر كتاباً [5] والسمعاني عبد الكريم (ت – 562 هـ) ، سبعة كتب [6] ، والقفطي ، جمال الدين (ت–646هـ) أربعة وعشرين كتاباً [7] ، وابن خلكان ، (ت – 681 هـ) ستة عشر كتاباً [8] ، وابن فرحون (ت–799 هـ) ثلاثة وعشرين كتاباً [9] واليافعي (ت – 768 هـ) سبعة عشر كتاباً [10] ، وابن حجر العسقلاني (ت–852هـ) واحداً وعشرين كتاباً [11] والسيوطي ، جلال الدين

---

(1) تفسير سورة الإخلاص /86.

(2) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة ، تح السيد أحمد صقر، مقدمة /7.

(3) الفهرست : 115.

(4) ترتيب المدارك 3/ 292.

(5) فهرسة ابن خير الإشبيلي : 85.

(6) الأنساب / 443.

(7) إنباه الرواة 2/ 144-146.

(8) الوفيات 3/ 42-43.

(9) الديباج المذهب /35.

(10) مرآة الجنان 2/ 191.

(11) رفع الإصر 1/ 72-75.

(ت–911هـ) تسعة عشر كتاباً [1] ، وحاجي خليفة (ت – 1067 هـ) ، سبعة وثلاثين كتاباً[2]، والخوانساري الموسوي، (ت – 1895 م) ، أربعة عشر كتاباً [3] ، والبغدادي ، إسماعيل (ت – 1920 م) ، ثمانية وثلاثين كتاباً (4) ، وأحمد زكي العدوي ذكر سبعة وأربعين كتاباً (5) ، ومحيي الدين الخطيب : (ت – 1969) ، تسعة وأربعين كتاباً (6) والدكتور إسحق موسى الحسيني ذكر خمسة عشر كتاباً (7) ، والدكتور عبد الحميد سند الجندي ذكر خمسة عشر كتاباً (8) ، وكارل بروكلمان ، (ت – 1956 م) ذكر واحداً وعشرين كتاباً (9) . والسيد أحمد صقر، ذكر ستة وأربعين كتاباً [10] ، والدكتور ثروت عكاشة ذكر سبعة وأربعين كتاباً [11] ، وخير الدين الزركلي ذكر عشرة كتب [12] . وقد تفاوتت تلك المظان التي عرضت لمؤلفات ابن قتيبة ، بين الدقة ، والصحّة ، والكثرة ، ومن أشهر المؤلفات التي صحت نسبتها إلى ابن قتيبة :

---

(1) بغية الوعاة 2 / 63.

(2) كشف الظنون1 / 441.

(3) روضات الجنّات 5 / 105-107.

(4) هدية العارفين،1 / 441.

(5) عيون الأخبار، مقدمة، 1 / 23-42.

(6) الميسر والقداح، مقدمة / 13-24.

(7) ابن قتيبة،حياتة وآثارة، / 47-56.

(8) ابن قتيبة،العالم الناقد الأديب، / 129-175.

(9) تاريخ الأدب العربي 2 / 223-230.

(10) تأويل مشكل القرآن، مقدمة31-7.

(11) المعارف، مقدمة / 41-54.

(12) الأعلام 4 / 280 والمستدرك 2 / 133.

أولاً – الكتب المطبوعة ، وهي :

1– الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة [1]:

ذكر بعض مترجمي حياة ابن قتيبة هذا الكتاب باسم (الرد على المشبهة) ، ومنهم : ابن النديم [2]، والداودي [3] ، والقفطي [4] ، والسيوطي [5] .

ألف ابن قتيبة هذا الكتاب ليرد فيه على خصومه الذين اتهموه بأنه كان كرَّامياً [6] يميل إلى التشخيص والتشبيه ، فنقلوا عن الدارقطني [7] وهو محدث فقيه ، أنه قال : إن ابن قتيبة كان يميل إلى المشبهة ، كما نقلوا عن البيهقي [8] وهو محدث جليل ، أنه قال : كان ابن قتيبة ، كرَّاميا . . كما نسبوه إلى الجهميَّةَ ، وجاء في دائرة المعارف : أن خصوم ابن قتيبة أرادوا أن يسددوا له طعنة نجلاء ، ليتقوا حملته عليهم ، فرموه برقّة الدّين ، ونسبوه إلى

---

(1) طبع الكتاب عدة طبعات في القاهرة وبيروت، منها الطبعة الأولى سنة 1349هـ ، منشورات مكتبة القدس تصحيح الشيخ محمد زاهر الكوثري، وطبع للمرة الثاينة في القاهرة ، منشورات مكتبة القدس، أيضا (الجندي، ابن قتيبة/ 162) . ثم نشره الدكتور علي سامي النشار، وعمار جمعة الطالب ، في كتاب : (عقائد السلف)، وهي رسائل في العقيدة الإسلامية لأحمد بن حنبل، الإمام البخاري، عثمان الدارمي، ونص كتاب ابن قتيبة، في الصفحة/ 223-252، مطبعة منشاة المعارف، الإسكندرية، 1971م، ثم نشرته دار الكتب العلمية في بيروت/ ط1سنة/ 1405هـ – 1985، ونشره محققا الدكتور كاظم حطيط في بيروت، الشركة العالمية للكتاب سنة 1990م.

(2) الفهرست /116 .

(3) طبقات المفسرين 1/ 245.

(4) إنباه الرواة 2/ 146 .

(5) بغية الوعاة 2/ 63 .

(6) والكرّامية: نسبة إلى راسها، محمد بن كرّام، وهي فرقة مشبهة من فرق المرجئة، ومن غلاتها وينظر عنها: الفَرْق بين الفِرَق/ 52-53، والغلو والفِرَق الغالية/ 123،141،144،145 .

(7) الدار قطني، علي بن عمر (–385هـ) .

(8) البيهقي، أحمد بن الحسين (–458هـ) .

الكرّامية ، وأخرى إلى الجهميّة ، وثالثة إلى المشبهة، فوضع كتابه ، ليردّ على الجهميّة والمشبّهة ، وليدافع عن نفسه[1] .

لذلك أراد ابن قتيبة أن يرد على هذه التهم، ويخوض في صراع الجدل الفكري الذي اضطرم أواره في عصره . ذياداً عن حياض الحق ، ورداً لعادية أهل الشرك عن حومة الإيمان وحرمة الشرع الحنيف . . فكتب كتابه هذا الذي دحض فيه أقوال وآراء أعداء القرآن الكريم والحديث الشريف ، وقد احتج على ذلك بالقرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وكلام أهل اللغة ، ونراه حين يردُّ عليهم لا يعدو الردَّ اللغوي ، فقد قال : " ولم أَعْدُ في أكثر الردِّ عليهم طريق اللغة ، فأمّا الكلام فليس من شأننا ، ولا أرى أكثر من هلك إلا به[2] " .

لقد اعتمد ابن قتيبة في ردّه على خصومه تأويلهم بعض آيات القرآن الكريم التي رأوا أنها مشكلة تحتاج إلى توضيح وبيان ، على قدرته اللغوية ، ومخزونه اللغوي ، ليصحح ما اعتقد أنّ خصومه قد أخطؤوا فهمه ، وبنى كتابه على نقض مقولاتهم ، وقد جرى فيه على نمط نقدي بارع ، من حيث حججه المشيدة على نصوص قرآنية ، وأحاديث صحيحة ، بأسلوب لغوي رصين ، جمع فيه حكمة العالم المتفلسف ، وقوّة بيان الأديب المتفنن ، ومعينه في هذا ، القرآن ، والسنة ، وكلام أهل اللغة الثقات ، وكان عقله الفيصل العادل في ترجيح نصوصه . كما يعرض في كتابه ما انزلق إليه أعداء الدين من أخطاء ، ويصور أسلوبه الجدلي ، وموقفه من المتكلمين .

---

(1) والجهمية : فرقة من فرق المرجئة ، قالت بخلق القرآن ، وهي نسبة إلى جهم بن صفوان السمرقندي ، المقتول سنة /128هـ ، والجهمية ، تعطل إرادة البشر بقولها : لا قدرة للعبد أصلاً ، لا مؤثرة ولا كاسبة ، بل هم بمنزلة الجمادات ، وأنّ الإيمان هو المعرفة فقط دون سائر الطاعات ، وهم يكفرون المشبهة صراحة . وينظر عنها : التعريفات / 71، جهم بن صفوان ، للدكتور خالد العسلي ، المغرب 1/ 101، وميزان الاعتدال 1/ 197، والغلو والفرق الغالية للدكتور عبدالله سلوم /71،191،194، 242 ، ودائرة المعارف الإسلامية 1/368/ 369.

(2) الاختلاف في اللفظ / 14 .

ومن الملامح البارزة في منهجه اللغوي أنه كان يفسر اللفظ جارياً على سنن العرب ، ولا يزيل اللفظ عن ظاهره ، ولا يتمحّل في تأويله تأويلاً مجازياً يبعده عن معناه الظاهر ، مع شدّة حرصه على عدم الوقوع في حبائل التجسيم والتشبيه .

2- أدب الكاتب

ذكره بهذا الاسم ابن النديم [(1)] ، وابن خلكان [(2)] ، والسمعاني [(3)] ، وابن كثير [(4)] ، والقفطي [(5)] ، وابن العماد الحنبلي [(6)] ، أمّا الخطيب البغدادي [(7)] ، وابن الأنباري [(8)] فذكراه باسم "أدب الكتّاب"[(9)] . نال أدب الكاتب شهرة بعيدة الصيت في عالم اللغة والأدب ، وعدّه شيوخ الأدب ركناً رابعاً من أركان الأدب ، قال ابن خلدون : " سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن (الأدب) وأركانه أربعة دواوين، وهي : أدب الكاتب، لابن قتيبة ، والكامل للمبرد، والبيان والتبين، للجاحظ، والنوادر للقالي . . .

(1) الفهرست / 116 .

(2) وفيات الأعيان /3 / 42 .

(3) الأنساب / 116 .

(4) البداية والنهاية 48/11 .

(5) إنباه الرواة 145/2 .

(6) شذرات الذهب 169/2 .

(7) تاريخ بغداد 170/10 .

(8) نزهة الألباء /210 .

(9) نشرة المستشرق الألماني شيرول في /ليبسك، سنة 1877م، ثم أعاد نشره المستشرق الألماني جرونيرت في مطبعة بريل سنة /1900م، ثم طبع طبعات كثيرة في القاهرة منها طبعة مطبعة الوطن 1300هـ – وطبعة المطبعة الشرقية، سنة 1318هـ، وطبعة مطبعة الاتحاد، سنة 1328هـ، وطبعة سنة 1310هـ وطبعة المطبعة السلفية، القاهرة 1346هـ-1927م، وهي أتقن الطبعات المصرية، وقد تولّى الإشراف عليها الأساتذة: محيي الدين الخطيب، محمود محمد شاكر، عبدالسلام محمد هارون، وطبع في بيروت، سنة 1967م، ونشرته دار صادر، وطبع بتحقيق الدكتور محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، عدة طبعات .

وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها [1]. لذلك تناوله أهل اللغة والأدب بالشرح والنقد، فمن شرّاحه:

1- الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق، المتوفى سنة /337هـ [2].

2- ابن السيد البطليوسي. عبدالله بن محمد (ت-521هـ)، وشرحه مطبوع، يعرف بالاقتضاب في شرح أدب الكتّاب [3].

3- الزهراوي، سليمان بن محمد، وهو من تلاميذ الزجاجي أبي القاسم، ومن أصحاب أبي جعفر النحاس، توفي في القرن الرابع ذكر شرحه السيوطي [4] وحاجي خليفة [5].

4- عبد الباقي بن محمد (ت-792هـ)، شرح خطبته، ومنه مخطوطة في ليبزج (لينينغراد [6]).

5- أبو علي البطليوسي الحسن بن محمد، (ت-؟) ذكره السيوطي [7] ورواه ابن خير الإشبيلي [8].

6- الجذامي، أحمد بن داود، أبو جعفر النحوي، (ت-598هـ) ذكره السيوطي [9].

---

(1) مقدمة ابن خلدون / 553-554.

(2) وصل إلينا منه شرح خطبته فقط، ومنها نسخ مخطوطة في القاهرة، دار الكتب المصرية، والمتحف البريطاني، وشهيد علي / استانبول (المكتبة السليمانية) ينظر تاريخ الأدب العربي، بروكلمان 226/2.

(3) طبع في بيروت، سنة 1905م، بعناية عبدالسلام البستاني، ثم طبع مرة أخرى سنة 1973، دار الجيل، بيروت، وطبعة ثالثة بتحقيق مصطفى السقا وزميله في القاهرة /1401هـ-1981م.

(4) بغية الوعاة 602/1.

(5) كشف الظنون 48/1.

(6) تاريخ الأدب العربي، بروكلمان 226/2.

(7) بغية الوعاة 525/1.

(8) فهرسة ابن خير الإشبيلي / 344.

(9) بغية الوعاة 306/1.

7– الفارابي، إسحق بن إبراهيم (ت–350هـ) صاحب : (ديوان الأدب) ذكره ياقوت الحموي [1] ، والسيوطي [2] .

8– ابن الخشاب ، أبو محمد : (ت–568هـ) .

9– الخارْزَنْجي ، أحمد بن محمد، البشتي (ت–348هـ) إمام أهل الأدب في خراسان ، وشرح أبياته ، وذكره السيوطي [3] ، والسمعاني [4] ، وياقوت الحموي [5] .

10– المبارك بن فاخر النحوي (ت–500هـ) ، وشرح خطبته ، وذكره ياقوت الحموي [6] والسيوطي [7] .

11– الجواليقي ، موهوب بن أحمد، (ت–540هـ) ، وسمّاه : (شرح أدب الكاتب) ، نشرته مكتبة القدس . القاهرة ، 1350هـ وكتب مقدمته الأستاذ المرحوم مصطفى صادق الرافعي .

12– ابن القوطية ، محمد بن عمر ، (ت–367هـ) وشرح مقدمته ، ورواه ابن خير الإشبيلي [8] ، وسمّاه : (شرح صدر أدب الكاتب) .

13– القالي أبو علي : (ت–356هـ) ، ذكره عبد القادر البغدادي [9] ، نقلاً عن : (الاقتضاب) .

---

(1) معجم الأدباء 227/2.

(2) بغية الوعاة 438/1.

(3) نفسه 388/1.

(4) الأنساب 304/2.

(5) معجم الأدباء 203/4.

(6) نفسه 229/6.

(7) بغية الوعاة 273/2.

(8) فهرسة ابن خير / 343.

(9) خزانة الأدب 431/21.

14– اللبلي ، أحمد بن يوسف : (ت–691هـ) ، ذكره عبد القادرالبغدادي [1] .

15– ابن برّي ، عبدالله بن أحمد (ت–582هـ) ، ذكره عبد القادر البغدادي [2] .

وقد ألّف ابن قتيبة كتاب "أدب الكاتب" للوزير "عبيدالله بن يحيى بن خاقان" لإرشاد الكتّاب إلى سنن الصواب ، وقد ساءه إدبار النّاس عن اللغة العربية وآدابها ، وشدَّة إقبالهم على العلوم المترجمة ، حتى جهلوا الكثير من مسائلها ، فألّف لهم هذه الموسوعة العلميّة، جمع فيها بين تقويم اللسان، وتقويم اليد ، أي سلامة اللسان والكتابة من الخطأ في اللغة العربية .

وتناول موضوع الكتاب ما يمكن أن يعين ناشئة الكتّاب من الآلات، وخاصّة ما يتعلّق منها باللغة وألفاظها وتراكيبها ، وقال في مقدمته :"وليست كتبنا هذه لمن لم يتعلّق من الإنسانيّة إلاّ بالجسم، ومن الكتابة إلاّ بالرسم ، ولم يتقدّم من الأدوات إلاّ بالقلم والدواة، ولكنّها لمن شدا شيئاً من الإعراب ، فعرف الحرف والمصدر، والحال والظرف، وشيئاً من التعاريف والأبنية، وانقلاب الياء عن الواو، والألف عن الياء، وأشباه ذلك [3]" .

ويقع الكتاب في: 1– مقدمة (خطبة) 2–كتاب (باب) المعرفة 3–كتاب تقويم اليد، في سلامة رسم الحرف العربي ، وما يحتاج إليه الكتّاب من ثقافة لغوية في الخط.4 – كتاب تقويم اللسان 5– كتاب الأبنية، وينقسم قسمين :أ–أبنية الأفعال ب– أبنية الأسماء . ويندرج تحت كل كتاب من كتب الأبنية ، باب في صيغة بناء من أبنية الفعل أو الاسم .

وحدّد ابن قتيبة في مقدّمة كتابه الأدوات التي اختارها للكاتب، لتكون عُدّته في عمله، وهي مجموعة نصائح ساقها ابن قتيبة ليأخذ بها مُغْفِلُ التأديب ، ليصيب حظّاً من كل فن، ولوناً من كلٍّ معرفة، وطرفاً من كل علم، وحذقاً بِالفقة وأصوله، وعلوم العربية

---

(1) نفسه 11/1، 335/5 .

(2) نفسه 9/1، 11، 538/2 ، 335/3 .

(3) أدب الكاتب / 12 .

وآدابها، ودراسة أخبار الناس، وتحفّظ عيون الحديث، ليدخلها في تضاعيف سطوره متمثلاً إذا كتب، ويصل بها كلامه إذا حاور.

وعرض في الكتاب لجملة من الأخطاء اللغوية الشائعة، وبيّن ما تستعمله العامّة منها، وأشار إلى الصحيح الوارد في كلام العرب، واحتجن[1] طائفة كثيرة من الألفاظ التي يستعملها الأدباء في غير مواضعها الأصلية، وهو ما عرف عند علماء اللغة بـ (لحن العامّة)، وهو بذلك ينهض قمة رفيعة لدراسة التطور اللغوي . ومنهج ابن قتيبة في (أدب الكاتب) يميل إلى الإيجاز المنسّق، وحشد المعارف اللغوية والثقافية التي يحتاج إليها الأديب واللغوي، فعقد أبواباً لـ "ما جاء مثنى في مستعمل الكلام" و"ما يستعمل من الدّعاء" و"أصول أسماء النّاس المسّمين بأسماء النبات" و "المسمون بأسماء الطير" ، وتعرّض لأسماء النجوم والأزمان والرياح، والخيل ومعرفة ما يستحب في خلقها ، وما يستقبح ، وأورد أمثلة للمحاسن والعيوب في شياتها وألوانها، وتحدَّث عن خلق الإنسان، وما يتعلّق به وبحياته وطعامه وشرابه، وما يستعمله من ثياب وسلاح.

وخرج ابن قتيبة من ذلك إلى مجموعة أخرى من المعارف اللغوية التي تدور على الألفاظ نفسها بصفة عامة، ممّا يدخل في علم النحو والصرف والإملاء . ويعد الكتاب من أظهر آثار ابن قتيبة في اللغة ، ومادته تدخل في أبواب علم (فقه اللغة) ، وعلم الدلالة، والمفردات والحروف. وغدا أنموذجاً يحتذى في هذا اللون من التاليف اللغوي، حيث سار على نهجه، كثير ممن جاء بَعْدَهُ، أمثال : الجهشياري (ت–331هـ) في كتابه (الوزراء والكتّاب) ، وأبو هلال العسكري (–395هـ) في كتابه : (الصناعتين) ، والثعالبي أبو منصور (ت–439هـ) في كتابه ، (فقه اللغة) ، وابن الأثير في (المثل السائر) وابن شيت القرشي ، عبد الرحيم بن علي (من أهل القرن السادس الهجري) في (معالم الكتابة ومغانم الإصابة) .

---

(1) ضمَّ واحتوى.

3- الأشربة :

ذكره ابن النديم [1] ، وابن خلكان [2] ، والقفطي [3] ، وابن العماد الحنبلي [4] وحاجي خليفة [5] ، وأشار إليه المؤلف في كتابه "عيون الأخبار" [6] ، وفي كتابه " الميسر والقداح[7]" ، وذكره في كتابه "الشعر والشعراء[8]" باسم كتاب " الشراب " . والأشربة ، كتاب فقه، حاول ابن قتيبة أن يمزج الأدب بالفقه . بأسلوب علمي رصين ، وقال الأستاذ محمّد كرد علي في مقدمته : "وكانت مسألة الأشربة قد شغلت أمناء الشرع والفقه في أيّامه ، وفي الأيَّام السّالفة ، والمشَرِّعون بين محلّل ومحرّم للأنبذة ، كلٌّ يفتي بمبلغ علمه ، وما وصل إليه رأيه من نصوص الكتاب والسنة ، فكتب ابن قتيبة رأيه مستنداً إلى أقوال الأئمة، ذاكراً ما تعاور هذه المسألة من المرادَّات ، فجاءت فتواه مستوفاة ، وحلّ المسألة المتنازع عليها بإخلاص ، ممّا لم يكن يسبق للفقهاء بلوغ مثله ، ومعظم أرباب الفقه لم يحكّموا الأدب كما حكّمه ابن قتيبة "[9] .

---

(1) الفهرست : 116 .

(2) وفيات الأعيان 42/3 .

(3) إنباه الرواة، 145/2 .

(4) شذرات الذهب 169/2 .

(5) كشف الظنون 1204/2 .

(6) عيون الأخبار 325/1 .

(7) الميسر والقداح /36 .

(8) الشعر والشعراء 192/1 .

- نشر قسماً منه، المستشرق الفرنسي أرثورجي (ت/ 1928م)، في مجلة المقتبس، القاهرة (المجلد الثاني) 1907م، تحت عنوان : صحف منسية، الصفحات : 234-248-387-392-529-535. ثم نشره كاملاً الأستاذ محمد كرد علي. (ت/ 1953م) في دمشق، من مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، مطبعة الترقي، 1366هـ 1947م. ونشر كرنكو ، تعليقات عليه، في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق: 157/23-158، ج1، 1948م.

(9) الأشربة، مقدمة (المحقق).

بدأ ابن قتيبة الكتاب بمقدّمة ذكر فيها ما أحلّ الله من طيّبات الطعام والشراب ، وما حرّم من خبائثهما ، فقال : " وحرَّم بالكتاب الخمر وبالسنَّة المسكر وعوّضنا منهما صنوف الشراب من اللبن والعسل وحلال النبيذ " ، ثم تكلم على اختلافهم في النبيذ أحلالٌ هو أم حرام؟ وذكر أقوالاً لبعض العلماء فيه ، ورجع بالمشكلة إلى أصلها وهو تحريم الخمر ، وما الدواعي التي حُرِّمت من أجلها؟ ثم أنواع المحرَّم منها ، فدفعه ذلك كله إلى البحث في مصادرها ، وكيفيّة صنعها، والأنواع التي تصنع منها، ومدى الآثار التي يتركها كل نوع في الجسم والعقل، حتى ينتهي إلى تقرير الموقف في ضوء ما يتبين له من حقيقة . ويرد ابن قتيبة على المتكلمين الذين يدّعون بأنّ القرآن لم يحرّم الخمر، ويحتَّجون على ذلك بمختلف الحجج والآراء ، وقال : " وقد أجمع الناس على تحريم الخمر بكتاب الله إلاّ قوماً من مجّان أصحاب الكلام وفسّاقهم، لا يعبأ الله بهم، فإنهم قالوا: ليست الخمر محرَّمة، وإنما نهى الله عن شربها تأديباً . . وقالوا لو أراد الله تحريم الخمر لقال: "حرمت عليكم الخمر" كما قال "حُرِّمت عليكم الميتة والدّم"[1] وقال ابن قتيبة إنَّ هؤلاء لا يعبأ بكلامهم، لأنهم لا يعترفون بحجة الإجماع التي تعارف عليها أهل السُّنة، وقد أجمعوا على أنَّ القرآن حرَّم الخمر، وإن اختلف بعضهم في ماهيتها، وذكر حجج من لا يحرّمون من أنواع الخمر النبيذ[2]، وحجج الذين يحرِّمون الخمر بأنواعها[3]، وأورد في ذلك شعراً ومقالات بليغة تضفي جوّاً أدبياً على الموضوع، وأخرج ما يؤيد الرأي من ألفاظ اللغة، كأن يفسر معنى "النديم" بقوله: " قالوا وإنما قيل لمشارب الرجل نديمه من الندامة، لأن معاقر الكأس إذا سكر تكلم بما يندم عليه وفعل ما يندم عليه فقيل لمن شاربه نادمه لأنه فعل مثل فعله، والمفاعلة تكون من اثنين، كما تقول: ضاربه وشاتمه، ثم اشتقَّ من ذلك نديم، كما يقال جالسه، فهو جليس، وقاعده

---

(1) المائدة / 3.

(2) الأشربة / 20 .

(3) نفسه / 22.

فهو قعيد". وروى ابن قتيبة بعض ما يؤيده من الأخبار والأحاديث، وفسَّر قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما﴾[1]، وذكر معنى الإثم، ثم ما كان فيها من النفع في الجاهلية، وانتهى بعد مناقشة آراء المطلقين وحججهم، وآراء الحاظرين وحججهم إلى أنَّ التحريم منصب على المسكر من الخمر بأنواعها، وإنما يحسن الاحتياط بتجنب القليل ممَّا كثيره مسكر[2].

4- إصلاح الغلط

ذكره بهذا الاسم ابن خلكان[3]، والقفطي[4]، وابن العماد الحنبلي[5] وابن قتيبة في كتابه "غريب الحديث[6]. وذكره السيوطي[7]، والداودي[8]، وابن النديم[9] باسم "إصلاح غلط أبي عبيد"، وذكره بروكلمان[10] باسم "إصلاح الغلط في غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام" ويعرف بـ"تبيين الغلط في غريب الحديث لأبي عبيد[11]".

ويحتوي هذا الكتاب على مآخذ أخذها ابن قتيبة على أبي عبيد القاسم

---

(1) البقرة / 219.

(2) الأشربة / 112.

(3) وفيات الأعيان 42/3.

(4) إنباه الرواة 145/2.

(5) شذرات الذهب 169/2 .

(6) غريب الحديث 151/1 .

(7) بغية الوعاة 63/2 .

(8) طبقات المفسرين 245/1 .

(9) الفهرست 116 / .

(10) تاريخ الأدب العربي 2/ 230–221 .

(11) نشره المستشرق الفرنسي جيرارد لوكونت في مجلة (كلية القديس يوسف) في بيروت، 1968م، وكان المستشرق الألماني (ريتر، ت 1975م) قد نشر تعريفاً به، في مجلة (الإسلام، المجلد / 17، 1929). ونشره محققاً الدكتور عبدالله الجبوري سنة 1403هـ – 1983م، دار الغرب الإسلامي، بيروت .

بن سلام، جاءت في كتابه " غريب الحديث " ، ورأى أنه لم يفسرها تفسيراً سليماً، ونبه على صوابها ، وقد استدرك فيه على أبي عبيد في نيّف وخمسين موضعاً .

ويعد كتاب "إصلاح الغلط" من أهم كتب النقد اللغوي ، إذ تتضح فيه شخصية ابن قتيبة، العلمية، وقد جرى فيه على سنن العلماء الأثبات، من أدب نفس جم، وإيراد الموضع المنقود، والرّد عليه بالحجة والدليل . إلاّ أنّ ابن قتيبة لم يغفل ثناءه على أبي عبيد وكتابه، واعتذر إليه في مقدمة كتابه وقال: " ونذكر الأحاديث التي خالفنا الشيخ أبا عبيد – رحمه الله – في تفسيرها، على قلّتها في جنب صوابه ، وشكرنا ما نفعنا الله من علمه "[1].

وقد اتخذ ابن قتيبة من أسلوب المناقشة العلمية ، والرَّدَّ اللغوي سبيله إلى الإقناع، ويعضد رأيه بآراء العلماء الثقات، ويورد الحجج والشواهد المختلفة، ويستدلُّ بالظواهر اللغوية لتقديم ما اعتقد أنّ أبا عبيد قد غلط في تفسيره، متوخياً النصف والاعتدال، متجنباً الشطط والإسراف، ملتزماً تفسير النص تفسيراً يتسّق مع المراد من الحديث .

5- الأنواء:

ذكره ابن النديم[2]، وابن خلكان[3] ، والقفطي[4] ، والسيوطي [5] ، وحاجي خليفة[6]،

---

(1) إصلاح الغلط / 74 .

(2) الفهرست : 116 .

(3) وفيات الأعيان : 43/3 .

(4) إنباه الرواة: 146/2 .

(5) بغية الوعاة: 63/2 .

(6) كشف الظنون: 945/2 .

وابن خير الإشبيلي [1]، والمسعودي [2]، والزمخشري [3]، وسمّاه (مناظر النجوم)، وسمّاه البيروني [4]: (علم مناظر النجوم). وذكره ابن قتيبة في كتاب "المعاني"[5][6].

ويبين ابن قتيبة الغرض من تأليفه هذا الكتاب، ويقول في مقدمته: "وكان غرضي في جميع ما أنبأت به الاقتصار على ما تعرفه العرب في ذلك، وتستعمله، دون ما يدّعيه المنسوبون إلى الفلسفة من الأعاجم، ودون ما يدّعيه أصحاب الحساب، فإني رأيت علم العرب هو العلم الظاهر للعيان، الصادق عند الامتحان، النَّافع لنازل البر، وراكب البحر، وابن السبيل[7]".

ويعد كتاب الأنواء مصدراً ذا مكانة علمية وأساسية لمن كتب بعد ابن قتيبة في علم الأنواء من علماء العرب، ويتميز هذا الكتاب، بالإضافة إلى ما يحويه من علم الميقات عند العرب، بأنه يضم روايات نادرة عن الأعراب، وقضايا لغوية مهمة ومفيدة، وقد استقى ابن قتيبة معلوماته الفلكية العربية من أمثال العرب، وأسجاعهم، وعاداتهم المتّبعة، وتجاربهم الخاصة التي كانوا يقيسون بها الأحوال الجوية والفلكية عندما كانوا يرتحلون في الصحراء، وينتقلون من مكان إلى آخر، ويهتدون بمواقع النجوم، وتعرض ابن قتيبة لمنهجه في الكتاب فقال: " وقد قيّدت بهذا الكتاب أطرافاً من هذا الفن، أدركت بعضها بالتوقيف وبعضها

---

(1) فهرسة ابن خير: 377، 475 .

(2) مروج الذهب: 442/3 .

(3) الفائق: 37/3 .

(4) الآثار الباقية: 239، 336 .

(5) المعاني الكبير: 1/ 375-378 .

(6) وطبع الكتاب بمطبعة "دائرة المعارف العثمانية - بحيدر أباد - الدكن 1956م، ونشره الأستاذان شارل بلاّ ومحمد حميد الله، وطبع طبعة ثانية في بغداد، ونشرته وزارة الثقافة والإعلام - دائرة الشؤون الثقافية العامة سنة 1988م" .

(7) الأنواء: 1، 2 .

بالاعتبار، واستخرجت بعضها من الأشعار[1]".

لقد جاء كتاب ابن قتيبة في علوم الأنواء على مذاهب العرب ، وتضمن كل ما كان العرب يعرفونه عن السماء والنجوم والأنواء ومهاب الرياح، وتفصيل الأزمنة ، وغير ذلك من أمور هذا الفن ، وليس فيه شيء من علوم الأمم الأخرى، ممن ترجمت كتبهم إلى اللغة العربية، إلا أشياء يسيرة جداً لا يعوَّل عليها في هذا الباب، من ذلك ما أورده في "ذكر الأزمنة الأربعة وتحديد أوقاتها[2]" ، وهو على مذهب أهل الحساب المحدث، وإلاَّ أشياء يسيرة أخرى تفرَّقت في تضاعيف كتابه هنا وهناك . وقد روى ابن قتيبة في كتابه عَنْ سَلَفه من مؤلفي كتب الأنواء، أمثال، ابن الأعرابي، وابن كناسة، والأصمعي، ومؤرِّج السدوسي، وأبي زيد الأنصاري، وأبي عبيدة معمر بن المثنى، وأدهم بن عمران العبدي، وأيوب بن موسى بن طلحة، والشعبي، في مسائل اللغة وعلم النجوم، وأقرّ ابن قتيبة بمسائل علم النجوم التي بدأت تسري في عوام المسلمين، كقوله:"وكعمل القمر في المدّ والجزر[3]" ، وأحياناً يحار في تفسير بعض مسائلها، فيقول :"وقد سمعت من يذكر أنّ الأفلاك أطواق تجري فيها النجوم والشمس والقمر، والسماء فوقها، ولست أدري كيف هذا، ولا وجدت عليه شاهداً من الكتاب، ولا من الحديث ولا قول العرب[4]" . لقد اشتمل كتاب ابن قتيبة على مبادئ علم الأنواء، واتجه المؤلف في كتابه اتجاهاً علمياً بعيداً عن الأوهام والخرافات، فوضع أسس "علم مناظر النجوم" ، لطلاب هذا العلم الذين يريدون أن يعرفوا شيئاً من كل شيء دون أن يغوصوا إلى غوامض الفن ودقائق العلم .ولذلك لم يعرض ابن قتيبة في كتابه آراء العلماء واختلافهم ونزاعاتهم في هذا الفن، وإنما عرض أفكاره مباشرة بأسلوب واضح، وبلغة أنيقة دلّت على اتجاهه اللغوي، وتمكنه من علمه، وسعة اطلاعه، وأيّد آراءه بأقوال

(1) نفسه : 4 .

(2) الأنواء : 100، 102 .

(3) نفسه : 15 .

(4) نفسه : 134 .

العلماء، وبشواهد من القرآن الكريم، وبأحاديث نبوية شريفة، كقوله في ذكر السحاب والبرق والمطر: " مخايل السحاب " : " إذا كان السحاب ناشئاً من العين، وثقوا بالمطر. والعين ناحية القبلة، وقال ابن كناسة: "هي عن يمينك إذا أنت استقبلت القبلة قليلاً . تقول العرب : مطرنا"بالعين" و"من العين" إذا نشأ السحاب من ناحيتها.

قال العجّاج:

سار سرى من قبل العين فجر عيط السحاب والمرابيع الكبر

"والعيط" : الطوال الأعناق من السحاب، و"المرابيع" : التي يجيء مطرها في أوّل الربيع[1] .

6- تأويل الرؤيا:

ذكره ابن قتيبة في كتابه "عيون الأخبار[2]"، وذكره أبو الطيب اللغوي[3]، وابن النديم[4]، باسم "تعبير الرؤيا"، والذهبي[5] باسم " كتاب الرؤيا" .

7- تأويل مختلف الحديث :

لقد ذكر في اسم هذا الكتاب أسماء متقاربة منها اسم (مختلف الحديث)، ذكره الداودي[6] والسيوطي[7]، أمّا ابن النديم[8] فذكر ثلاثة كتب هي (المشكل) و (مختلف

---

(1) نفسه: 169 ، 170 .

(2) عيون الأخبار: 4 .

(3) مراتب النحويين: 137 .

(4) الفهرست: 439 .

(5) سير أعلام النبلاء 297/13 . والكتاب مطبوع في سرقسطة سنة 1893م. وتوجد منه نسخة مخطوطة في دمشق (الميسر والقداح، المقدمة 22) وصفها الأستاذ علي الطنطاوي في مجلة (الرسالة) المصرية. مج1 ، العدد/ 84 سنة. 1353هـ، ص/ 216 ، وص / 261، ع / 85 .

(6) طبقات المفسرين: 245/1 .

(7) بغية الوعاة: 63/2 .

(8) الفهرست / 116 .

الحديث) و (اختلاف تأويل الحديث)، وذكره ابن خلكان [1] والخطيب البغدادي [2] ، والسمعاني [3] ، وابن الأنباري [4] ، والقفطي [5] ، وابن العماد الحنبلي [6] باسم (مشكل الحديث) . وذكره حاجي خليفة باسم (اختلاف الحديث [7]) ، وباسم (كتاب المناقضة [8]) إضافة الى ما ذكره باسم (تأويل مختلف الحديث) [9] .

والظاهر من هذه الأسماء كلها أنها لكتاب واحد . ويتضمن الكتاب دفاع ابن قتيبة عن الحديث، ويمثل دفاعه وجهة نظر أهل السنة ، ويحاول إبطال اعتراضات الفلاسفة والمنحرفين والحاقدين على الحديث والسنة والعقيدة الإسلامية.

8- تأويل مشكل القرآن :

ذكره الخطيب البغدادي [10] ، وابن الأنباري [11] ، وابن خلكان [12] ، وابن حجر [13] ،

---

(1) وفيات الأعيان 42/ 3 .

(2) تاريخ بغداد : 170/10 .

(3) الأنساب : 443 .

(4) نزهة الألباء : 210 .

(5) إنباه الرواة : 144/2 .

(6) شذرات الذهب : 169/2 .

(7) كشف الظنون : 32/1 .

(8) نفسه : 1464/2 .

(9) نفسه : 335/1 . وقد طبع هذا الكتاب في القاهرة سنة 1326هـ، بمطبعة كردستان العلمية باسم (تأويل مختلف الحديث)، ثم نشره الشيخ محمد زهري النجار، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة سنة 1386هـ – 1966م .

(10) تاريخ بغداد : 170/10 .

(11) نزهة الألباء : 210 .

(12) وفيات الأعيان : 42/ 3 .

(13) لسان الميزان : 358/3 .

وابن كثير [1] ، والقفطي [2] والسيوطي [3] ، باسم (مشكل القرآن) ، وذكره ابن قتيبة في أدب الكاتب [4] ، وتأويل مختلف الحديث [5] ، والأنواء [6] ، وتفسير غريب القرآن [7] ، وغريب الحديث [8] .

هدف ابن قتيبة من تأليف كتابه إلى الردّ على الملحدين الذين اعترضوا كتاب الله بالطعن والتحريف واللغو وقال : " وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون، ولغوا فيه وهجروا، واتبعوا (ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله [9]) . . . . فأحببت أن أنفح عن كتاب الله . وأرمي من ورائه بالحجج النيّرة، والبراهين البينة ، وأكشف للنّاس ما يلبسون، فألفت هذا الكتاب جامعاً لتأويل مشكل القرآن، مستنبطاً ذلك من التفسير بزيادة في الشرح والإيضاح، وحاملاً ما أعلم فيه مقالاً لإمام مطلع على لغات العرب، لأُرِيَ المعاند موضع المجاز ، وطريق الإمكان من غير أن أحكم فيه برأي، أو أقضي عليه بتأويل، ولم يجز لي أن أنص بالإسناد إلى من له أصل التفسير، إذ كنت لم أقتصر على وحي القوم حتى كشفته، وعلى إيمانهم حتى أوضحته، وزدت في الألفاظ ونقصت، وقدّمت وأخّرت، وضربت لذلك الأمثال والأشكال حتى يستوي في فهمه السامعون [10] " .

---

(1) البداية والنهاية 48/11 .

(2) إنباه الرواة : 144/2 .

(3) بغية الوعاة : 63/2 .

(4) أدب الكاتب : 16 .

(5) تأويل مختلف الحديث : 69 .

(6) الأنواء : 7 .

(7) تفسير غريب القرآن : 10، 20، 29، 39، 41، وغيرها .

(8) غريب الحديث 171 /1، 232، 269 . ونشر الكتاب لأول مرة الأستاذ السيد أحمد صقر سنة 1373هـ، بمطبعة عيسى البابي الحلبي، ثم أعيد طبعه سنة 1393هـ – 1973م بدار التراث، القاهرة .

(9) آل عمران : 3/2 .

(10) تأويل مشكل القرآن : 17 .

بدأ ابن قتيبة كتابه بالحكاية عن الطاعنين، فسرد مطاعنهم على اختلاف أنواعها، ثم عقد أبواباً للردّ عليهم في وجوه القراءات، وما ادّعوا على القرآن من اللحن، وما نحلوه من التناقض والاختلاف بين آيه، وما قالوه في المتشابه، كما أجاب عن قولهم: ماذا أراد بإنزال المتشابه في القرآن، من أراد لعباده الهدى والبيان؟. ثم ذكر بعد ذلك أبوابَ المجاز ، لأنّ أكثر غلط المتأولين كان من جهته، وبسببه تشعبت الطرق، واختلفت النحل. وكان يذكر ما أتى من أبواب المجاز في كتاب الله ، ثم يعقبه بأمثاله من الشعر ولغات العرب وما استعمله النّاس في كلامهم . وقد بدأ بباب الاستعارة، ثم باب المقلوب، وباب الحذف والاختصار، وباب تكرار الكلام والزيادة فيه، وباب الكناية والتعريض، وباب مخالفة ظاهر اللفظ معناه. ثم ذكر باب الأبواب في الكتاب ، وهو باب تأويل الحروف التي ادُّعِيَ على القرآن بها الاستحالة وفساد النظم ، فتحدّث عن الحروف المقطّعة، واختلاف المفسّرين فيها، ثم خلص من الكلام عليها إلى الكلام على مشكل سور القرآن، فذكر ما في السورة منه ثم أوّله ، ولكنه لم يرتب السور على حسب ترتيبها المعروف في المصحف، بل ذكرها حسبما عنَّ له من مشاكلها، وقد لا يستوفي الكلام على مشاكل السورة التي يذكرها، فيعيد ذكرها مرّة أو مرّات، مثلما فعل في سورة البقرة والأنعام، وسورة النحل والنساء . والسورة الوحيدة التي استوفى تأويلها، وشرحها كلها، من بين السور التي ذكرها، هي سورة الجن، لما فيها من إشكال وغموض، بما وقع فيها من تكرار "إنَّ" واختلاف القرّاء في فتحها وكسرها، واشتباه ما فيها من قول الله وقول الجن .

ولأبواب المجاز التي ذكرها ابن قتيبة في هذا الكتاب قيمة تاريخية كبيرة ، لأنّ ابن قتيبة قد أسهم في تكوينها وتطويرها بنصيب موفور في نشأة البلاغة وتطور تاريخها، إضافة إلى ما استخرجه من أنواع المجاز في القرآن الكريم وتبويبها. وبعد أن فرغ ابن قتيبة من تأويله لمشكل السور التي ذكرها، عقد باباً عظيم القدر، بالغ الأهمية وهو "باب اللفظ الواحد للمعاني المختلفة" تحدث فيه عن نيف وأربعين لفظاً من الألفاظ التي جاءت في القرآن متحدة

المباني، كالقضاء، والبلاء، والأمة، والرؤية، والإمام، والإسلام، والفتنة، والسلطان، والضلال، والنسيان، والحساب، والكتاب . ولهذا الباب قيمة تاريخية عظيمة ، فقد أرجع ابن قتيبة المعاني المختلفة للفظ الواحد إلى أصل واحد نشأت فيه، وتفرّعت عليه، ومن أمثلة ذلك، أنه ذكر كلمة " القضاء" وبين معانيها المختلفة التي تصير إليها، من ذلك قوله:

"أصل قضى: حتم، كقوله عزّ وجل: "فيُمسك التي قضى عليها الموت"[1] ، أي حتمه عليها ثم يصير الحتم بمعان، كقوله: "وقضى ربُّك ألا تعبدوا إلاّ إياه" [2] ، أي أمر، لأنه لمّا أمر حتم بالأمر.

وكقوله: "وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب"[3] ، أي أعلمناهم، لأنه لما خبرهم أنهم سيفسدون في الأرض، حتم بوقوع الخبر" .

وقوله: "فقضاهن سبع سموات" [4] ، أي صنعهن ...

ثم ختم ابن قتيبة كلامه قائلاً: "وهذه كلها فروع ترجع إلى أصل واحد[5] " ، وبذلك يكون لابن قتيبة فضل السبق إلى القول بتأصيل المادّة اللغوية .

ثم ذكر ابن قتيبة بعد ذلك "باب تفسير حروف المعاني، وما شاكلها من الأفعال التي لا تتصرّف "كأين، وأنّى، ولولا، ولوما، ولا جرم، وتعال ، وهلمّ، ورويداً ، ولدن" .

ثم ختم كتابه "بباب دخول بعض حروف الصفات مكان بعض" . ويعد الكتاب صدى من أصداء اهتمام ابن قتيبة بالبحث في أمور العقيدة، وقد ذهب الباحث الدكتور عبد

---

(1) الزمر / 39 / 42 .

(2) الإسراء / 17 / 23 .

(3) نفسها / 4 .

(4) فصّلت / 41 / 12 .

(5) تأويل مشكل القرآن: 442 .

الحميد الشلقاني إلى أنّ: "الكتاب في مجموعه كتاب لغة، وإن أخذ صورة المجادلة مع الطاعنين على القرآن والدين [1] .

9- تفسير غريب القرآن :

ذكره الخطيب البغدادي [2]، وابن خلكان [3] ، والداودي [4]، والسيوطي [5] ، وابن كثير [6] ، وابن الأنباري [7] ، والقفطي [8]، وابن العماد الحنبلي [9] ، وحاجي خليفة [10]، وابن خير الإشبيلي [11] . وقد افتتح ابن قتيبة مقدمته بذكره أنه قسم كتابه ثلاثة أقسام ، الأول : لتأويل أسماء الله الحسنى وصفاته واشتقاقها. والثاني : لتفسير المفردات التي تكررت في القرآن ، والثالث لتفسير الغريب [12] .

ثم يذكر غرضه ومنهجه في الكتاب، وذلك أنه أراد أن يختصر دون إخلال ، ويوضح دون إسهاب ، وألا يستشهد على اللفظ المعروف، ولا يحشو الكتاب بآراء النحاة وأهل

---

(1) رواية اللغة: 268 .

(2) تاريخ بغداد: 170/10 .

(3) وفيات الأعيان: 42/3 .

(4) طبقات المفسرين: 245/1 .

(5) بغية الوعاة 63/2 .

(6) البداية والنهاية 48/11 .

(7) نزهة الألباء: 209 .

(8) إنباه الرواة: 144/2 .

(9) شذرات الذهب: 169/2 .

(10) كشف الظنون: 1204/2 .

(11) فهرسة ابن خير: 66 . نشر الكتاب لأول مرة الأستاذ السيد صقر في القاهرة سنة 1378هـ – 1958م ، دار إحياء الكتب العربية .

(12) غريب القرآن: 3 .

الحديث، لأنّ ذلك يقلل الانتفاع به، ويجعله شبيهاً بكتب السلف التي كان غرض هذا الكتاب أن يأتي على غير منوالها [1]، ثم يقرر ابن قتيبة أن كتابه مستنبط من كتب من سبقه من المفسرين وأصحاب اللغة الكبار، ويختار منها ما كان أقربه في الدلالة اللغوية وأشبهه بقصة الآية، تاركاً التأويل البعيد والتفسير المكذوب، ثم يمثل للتأويل البعيد والمنحول أمثلة عديدة من القرآن مسجلاً حيرته بقوله: " لا ندري أمن جهة المفسرين لها وقع الغلط؟ أو من جهة النقلة؟"[2]. والكتاب يمثل في منهجه نضجاً علمياً وعقلياً واضحاً، يتمثل ذلك بتقديمه للكتاب وتبويبه وترتيبه ومعالجته تفسير الألفاظ، فابن قتيبة يستشهد على ما يقول بآيات القرآن نفسها فهو يفسر القرآن بالقرآن كما في (السّلام) حيث قال: "ومن صفاته: (السلام المؤمن المهيمن)". ومنه سُمّي الرجل: عبد السلام، كما يقال: عبدالله، ويرى أهل النظر من أصحاب اللغة أنّ "السَّلام" بمعنى السلامة، كما يقال: الرَّضاع والرَّضاعة، واللّذاذ واللّذاذة. قال الشاعر:

تحيّي بالسّلامة أمُّ بكر فهل لك، بعد قولك، من سلام؟

فسمّى نفسه – جلَّ ثناؤه – "سلاماً" لسلامته ممّا يلحق الخلق من العيب والنقص والفناء والموت"[3]. ومنهج ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن واضح، فقد راعى ترتيب سور القرآن، فأمسك القرآن سورة سورة وآية آية، وتتّبع الغريب فيه، فقد بدأ بسورة الحمد، فالبقرة، وانتهى بسورة النّاس، والتزم بشرح الألفاظ التي اعتقد أنَّها غريبة، ولكنَّه فسَّر الكلمات الغريبة والسهلة معاً، ومن أمثلة العبارات السهلة تفسيره قوله تعالى: ﴿ وأنتم تعلمون ﴾[4] أي تعقلون، وكذلك قوله تعالى: ﴿ التي وقودها ﴾[5]

(1) نفسه: 3 .

(2) نفسه: 5 .

(3) غريب القرآن: ٦ .

(4) البقرة/ 24 .

(5) البقرة/ 42 .

و "جنّات "[1] ، وغير ذلك من الكلمات التي لا غرابة فيها، وكان شرحه متفاوتاً بين الطول والقصر ، فكان لا يتجاوز شرح الكلمة بمرادفها، كما في قوله تعالى :﴿ حتى يأتيك اليقين ﴾[2] أي الموت، وأحياناً تبلغ الصفحة الكاملة كما في قوله تعالى : ﴿ ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ﴾[3]، وذكر القراءات القرآنية وبين معانيها، ونسبها أحياناً إلى أصحابها، وردّ الآراء إلى قائليها، وأفاض أحياناً في الشرح، ومثال ذلك حين شرح كلمة (ننشرها) في قوله تعالى : ﴿ كيف ننشرها ﴾[4] . فقال : "بالراء أي نحييها، يقال: أنشر الله الميت فَنُشر، وقال: ﴿ ثم إذا شاء أنشره ﴾[5] (ننشزها) بالزاي، أراد نحرك بعضها إلى بعض ونزعجه ومنه يقال: نشز الشيء ونشزت المرأة على زوجها. وقرأ الحسن: "ننشرها" كأنه من النشر عن الطي، أو على أنه يجوز: أنشر الله الميت ونشره، إذا أحياه[6]" .

ويعد الكتاب مكملاً لكتابه (تأويل مشكل القرآن) وقد أشار إليه في أكثر من ثمانين صفحة من صفحاته المطبوعة [7]، وقد جمع ابن مطرف الكناني الكتابين في كتاب واحد سماه (كتاب القرطين) .

10- الشعر والشعراء :

ذكره ابن النديم [8] بهذا الاسم ، وذكره ابن خلكان [9]، والداودي [10]،

(1) البقرة/ 25 .

(2) الحجر: 99 .

(3) النور: 58 .

(4) البقرة: 259 .

(5) عبس: 22 .

(6) غريب القرآن: 95 .

(7) ينظر من ذلك: ص29، 43، 45، 47، 152، 176 .

(8) الفهرست : 116 .

(9) وفيات الأعيان: 42/3 .

(10) طبقات المفسرين: 246/2 .

والقفطي[1] ، وابن العماد الحنبلي[2]، والسيوطي[3] باسم (طبقات الشعراء) ، ورواه أيضاً ابن خير الإشبيلي[4] بهذا الاسم وأشار إليه مؤلفه في كتابه " المعارف[5]"، باسم (الشعراء) .

وقد طبع الكتاب طبعات عدّة في القاهرة وغيرها . وقد قسم ابن قتيبة كتابه إلى جزأين، سمى مقدمة الكتاب جزءاً أول، وتراجم الشعراء جزءاً ثانياً . وقد وضع في المقدمة الأصول العامّة للشعر والشعراء، وجمع قدراً لا بأس به من مقاييس النقاد وأحكامهم، مع اجتهاد ومسايرة لظروف الشعر الجديد واتجاهاته وأساليبه، ومواجهة جريئة لمقاييس اللغويين والمتزمتين الذين درجوا على تحكيم أصول الشعر القديم، ومعاييره الموروثة. وتُعدُّ مقدمة الكتاب أهم ما فيه، فقد بسط فيها آراءه، ووضع مقاييسه العامة، والأصول التي بنى عليها آراءه في الشعر والشعراء، ويرى أن الشعر الجيد هو الذي يتفق ومفهومات العصر ولا يغرب في اللفظ أو المعاني، بل تشتق ألفاظه وصوره من الحياة التي يعيش فيها، فلا يدخل إذاً عنده عامل الزمن، ولا عبرة للمتقدّم، فلا ينظر له نظرة إعظام وإجلال لمجرد تقدم زمانه، ولا ينظر بعين الاحتقار للمتأخر لمجرد تأخر زمانه، بل المعوّل على القيمة الفنية في الشعر نفسه، مخالفاً في ذلك آراء كثير من العلماء المعاصرين له، حيث قال : "فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه في متخيره، ويرذل الشعر الرصين، ولا عيب عنده إلا أنه قيل في زمانه، أو أنّه رأى قائله. ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خصّ به قوماً دون قوم، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كلِّ

(1) إنباه الرواة : 145/2 .

(2) شذرات الذهب : 169/2 .

(3) بغية الوعاة : 64/2 .

(4) فهرسة ابن خير : 378 .

(5) المعارف : 649 .

دهر، وجعل كلَّ قديم حديثاً في عصره "(1).

ثم ينظر ابن قتيبة للشعر من ناحية الأسلوب والصياغة، فيقسمه من حيث ألفاظه ومعانيه أربعة أقسام: ما حسن لفظه وجاد معناه، وما حسن لفظه وحلا فإذا فتشته لم تجد هنا فائدة في المعنى ، وما جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه، وما تأخر معناه ولفظه جميعاً، والضربان الأولان- عنده يكثر ورودهما عند الشعراء المجيدين، أمّا الثالث فيقل، والرابع من صنعة المتكلفين، وهي ظاهرة واضحة في شعر العلماء، لأنه لم يصدر عن طبيعة وموهبة.

ثم يبسط آراءه في بناء القصيدة، والمتكلّف والمطبوع من الشعر، ومنازل الشعر، والشعراء وموضوعات الشعر، وعيوب الشعر . ويضطلع الكتاب بعد المقدمة، بذكر الشعراء وتراجمهم وأخبارهم وقبائلهم، وما يستجاد من شعرهم، وما قاله العلماءُ فيه، ثم طبقات ذلك الشعر، والوجوه التي يختار لأجلها، ويقدّم. ولم يعرض لشعراء العرب جميعاً، بل اختار عدداً منهم، وكان اختياره مبنيّاً على الشهرة والتقدّم، وعلى أشياء ذكرها في قوله: "وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جلّ أهل الأدب، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفي النحو، وفي كتاب الله عزّ وجلَّ - وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمّا من خفي اسمه، وقلّ ذكره، وكسد شعره، وكان لا يعرفه إلا بعض الخواص، فما أقّل من ذكرت من هذه الطبقة "(2).

ويتبع في ترتيب الشعراء نهجاً تاريخياً إلى حدٍّ ما، فيبدأ بشعراء الجاهلية القدماء الذين لم يدركوا الإسلام، ثمّ بالذين أدركوا الإسلام كلبيد بن ربيعة، والنابغة الجعدي، ولكنه أورد مهلهل بن ربيعة بين النابغة الجعدي، والعبّاس بن مرداس، ومهلهل شاعر جاهلي قديم، ثم ذكر بعد هؤلاء الشعراء من عاصروا الخلفاء الراشدين وبني أمية وهكذا.. وقد أورد في

(1) الشعر والشعراء: 7/1 .

(2) مقدمة "الشعر والشعراء" : 3 .

كتابه ترجمة جمهرة من الشعراء ، أطال في الكلام عن كلٍّ منهم، وقصّر حسب مكانته، وما يروى من شعره ، أو يستجاد ، ويستشهد به .

وقد تناول الدكتورمحمد مندور آراء ابن قتيبة في الشعر والشعراء ، وحللها، ونقدها بقوله : " فابن قتيبة لم يتناول النصوص ولا الشعراء بنقد فني تطبيقي، وإنما اكتفى بأنْ عرض في مقدمته لبعض المسائل العامة، يحاول أن يضع لها مبادئ، ثم أخذ في سرد سير الشعراء، وبعض أشعارهم على غير منهج واضح ولا مبدأ في التأليف [1]" .

ويبدو أن شخصية ابن قتيبة في تراجم الشعراء غير واضحة وضوحها في مقدمة الكتاب وخاصة من وجهة نظر الناقد، وبعد هذا يظل كتاب " الشعر والشعراء " مَعْلَماً واضحاً على فكر ابن قتيبة المتحرر، وخطوة متقدمة عبَّر فيه عن أصالة رأي واضحة، وأثَّر منهجه في كتب النقد التي جاءت بعد ابن قتيبة .

11- عيون الأخبار :

ذكره ابن النديم [2]، وابن خلكان [3]، والخطيب البغدادي [4]، والسمعاني [5]، والقفطي [6] وابن كثير [7]، وابن العماد الحنبلي [8] . ويعد كتاب عيون الأخبار من أهم

(1) النقد المنهجي عند العرب : 12 .

(2) الفهرست / 115 .

(3) وفيات الأعيان / 3 /42 .

(4) تاريخ بغداد / 10 / 170 .

(5) الأنساب / 443 .

(6) إنباه الرواة / 2 /145 .

(7) البداية والنهاية / 11 / 48 .

(8) شذرات الذهب / 2 / 169 .

– وقد طبع الكتاب في ستراسبورج سنة 1900 – 1908، بتحقيق المستشرق بروكلمان بأربعة أجزاء، وطبعته دار الكتب المصرية بأربعة أجزاء، وأعيدت طباعته في القاهرة وبيروت سنة 1973 .

مصادر التراث العربي ، ويبين ابن قتيبة غرضه من تأليف الكتاب في مقدمة الكتاب، ويقول: " إني كنت تكلفت لمُغْفِل التأدب في الكتّاب كتاباً في المعرفة وفي تقويم اللسان واليد . . . وشرطت عليه مع تعلّم ذلك تحفّظ عيون الحديث ليدخلها في تضاعيف سطوره، متمثلاً إذا كاتب، ويستعين بما فيها من معنى لطيف ، ولفظ خفيف حسن إذا حاور. ولما تقلدت له القيام ببعض آلته، دعتني الهمة إلى كفايته، وخشيت إن وكلته فيما بقي إلى نفسه، وعوّلت له على اختياره، أن تستمّر مريرته على التهاون . . . فأكملت له ما ابتدأت[1]" .

لقد أراد ابن قتيبة من تصنيف هذا الكتاب تزويد الكاتب الناشئ ، أو القارئ بوجه عام، بما يحتاج إليه في حديثه وكتابته من ثقافة أدبية واسعة، فجمع فيه مختلف الأخبار والأشعار، والمختارات الجميلة من المعاني الهامّة . والكتاب غزير المادّة، منوّع الألوان، قلّما نلمح فيه نسقاً مطّرداً، أو بحثاً متماسكاً ، ويتسم بالاستطراد من موضوع إلى آخر، جرياً على عادة مؤلفي كتب الأدب في عصر ابن قتيبة، ليرضي جميع الناس على اختلاف مشاربهم وثقافاتهم ومذاهبهم ، وقد وصفه ابن قتيبة بقوله ، " وإنما مثل هذا الكتاب مثل المائدة، تختلف فيها مذاقات الطعوم، لاختلافات شهوات الآكلين[2]" .

ويقول ابن قتيبة في المقدمة : " وهذه عيون الأخبار ، نظمتها لمُغْفِل التأدّب تبصرة .

ولأهل العلم تذكرة. . . وصنفتها أبواباً ، وقرنت الباب بشكله، والخبر بمثله، والكلمة بأختها، ليسهل على المتكلم علمها، وعلى الدارس حفظها، وعلى الناشد طلبها. . . وإلى حيث قسمت هذه الأخبار والأشعار وصنفتها ، وجدتها على اختلاف فنونها وكثرة عدد أبوابها تجتمع في عشرة كتب، بعد الذي رأيت إفراده عنها، وهو أربعة كتب متميزة، كل كتاب منها مفرد على حدته : كتاب الشراب ، وكتاب المعارف ، وكتاب الشعر ، وكتاب

(1) عيون الأخبار / مقدمة المؤلف / 9 ، 10 .

(2) نفسه (المقدمة) 12 .

تأويل الرؤيا . . . [1] " .

وهذه الأبواب العشرة التي يتألف منها الكتاب هي كتب : السلطان ، والحرب ، والسؤدد ، والطبائع والأخلاق ، والعلم ، والزهد ، والإخوان ، والحوائج ، والطعام ، والنساء. فالكتاب من هذه الوجهة يمتاز بشيءٍ من التنظيم والتبويب . وقلّما نجد لابن قتيبة في أحد هذه الأبواب فكرة خاصة أو بحثاً شخصياً ، إذ ليس الباب سوى مجموعة من الأخبار المنقولة المتصلة بالمعنى الذي بني عليه ، مع جملة من النوادر والأشعار المشاكلة لتلك الأخبار ، ويحاول ابن قتيبة أن يستقصي البحث في الموضوع الواحد من شتى جوانبه، ويستشهد بالنصوص التي تؤيد ما يبحثه من نقاط حول هذا الموضوع، ومثال ذلك كتاب السلطان، فقد احتوى على الأخبار عن محل السلطان، واختلاف أحواله، وعن سيرته وعمّا يحتاج صاحبه إلى استعماله من الآداب في صحبته، وفي مخاطبته ، ومعاملته، ومشاورته له وما يجب على السلطان أن يأخذ به في اختيار عماله وقضاته وحجّابه وكُتّابه، وما على الحكّام أن يمتثلوه في أحكامهم، وما جاء في ذلك من النوادر، وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار . ويمثل الكتاب ثقافة ابن قتيبة الموسوعية التي امتزجت فيها الاتجاهات المختلفة للثقافات المتنوعة ، فإذا أورد أحاديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو أقوالاً عن عمر بن الخطّاب ، وعمر بن عبد العزيز على سبيل المثال ، أورد بجانب ذلك ما قرأه في الكتب الهندية والفارسية وغيرها، ممّا يناسب الموضوع، ويقول في كتاب "السلطان" : " وقرأت في كتابٍ من كتب الهند : شرّ المال ما لا يُنفق منه، وشر الإخوان الخاذل ، وشر السلطان من خانه البريء، وشر البلاد ما ليس فيها خصب ولا أمن [2] " .

ثم يقول : " وقرأت فيه (أي في الكتاب نفسه) : خير السلطان من أشبه النّسر حوله

(1) مقدمة عيون الأخبار : 1 / 10 / 16 .

(2) عيون الأخبار : 1 / 3 .

الجِيَف ، لا من أشبه الجِيَف حولها النسور [1] " . ويعد كتاب " عيون الأخبار " خطوة متقدمة في طريق التأليف المنهجي عند العرب القدماء وهو بما فيه من معلومات إضافية عن الثقافة العربية وغير العربية ، يعد مصدراً لا غنى عنه للباحث في التراث العربي .

12- غريب الحديث :

ذكره ابن النديم [2] ، والخطيب البغدادي [3] ، وابن خير الاشبيلي [4] ، وابن الجوزي[5] ، وابن الأنباري [6] ، وياقوت الحموي [7] ، وابن خلكان [8] ، والحاكم النيسابوري[9] . وذكره ابن قتيبة في كتبه : " أدب الكاتب [10] " ، والأشربة[11] ، وإصلاح الغلط [12] ، و" غريب القرآن[13]" ،وعيون الأخبار [14] ، والشعر والشعراء[15] ،

---

(1) نفسه : 1 / 3 .

(2) الفهرست : 116 .

(3) تاريخ بغداد : 10 / 170 .

(4) فهرسة ابن خير : 187 .

(5) المنتظم : 1025 .

(6) نزهة الألباء : 210 .

(7) معجم الأدباء : 34/4 .

(8) وفيات الأعيان : 42/3 .

(9) معرفة علوم الحديث : 89 .

(10) أدب الكاتب : 16 .

(11) الأشربة : 109 .

(12) إصلاح الغلط : 68 .

(13) غريب القرآن : 29 .

(14) عيون الأخبار : 244/2 .

(15) الشعر والشعراء : 95 .

وتأويل مختلف الحديث[1] ، وتأويل مشكل القرآن [2] . قدّم ابن قتيبة لكتابه بمقدمة بيَّن فيها الدافع إلى وضعه هذا المؤلَّف وقال : " وقد كنت زماناً أرى أنّ كتاب أبي عبيد قد جمع تفسير غريب الحديث ، وأنّ الناظر فيه مستغن به ، ثم تعقبت ذلك بالنظر والتفتيش والمذاكرة ، فوجدت ما تركه نحواً ممّا ذكر أو أكثر منه، فَتتبَّعت ما أغفل، وفسَّرته على نحو ما فسَّر، بالإسناد لما عرفت إسناده، والقطع لما لم أعرفه، وأشبعت ذلك بذكر الاشتقاق والمصادر والشواهد من الشعر ، وكرهت أن يكون الكتاب مقصوراً على الغريب، فأوْدعته من قصار أخبار العرب وأمثالها، وأحاديث السلف وألفاظهم ما يشاكل الحديث أو يوافق لفظه لفظه، لتكثر فائدة الكتاب، ويمتع قارئه ، ويكون ذلك عوناً على معرفته وتحفظه [3]" .

فالدافع الذي حدا بابن قتيبة إلى وضع مؤلّفه ، هو إكمال ما بدأه أبو عبيد في مصنفه، لأن الأخير لم يستطع أن يأتي على جميع الأحاديث ، وقد استطاع ابن قتيبة أن يجمع عدداً يقارب ما في كتاب أبي عبيد، فوضع لذلك كتاباً آخر، ليفسر غريب ألفاظها وهو يأمل "أن لا يكون بقي بعد هذين الكتابين من غريب الحديث ما يكون لأحد فيه مقال [4] " .

ثم يوضح ابن قتيبة ما خالف فيه منهج أبي عبيد فيقول : " ولم أعرض لشيء ممّا ذكره أبو عبيد، إلا أحاديث وقع فيها الزلل ، فنبّهت عليه ودللت على الصواب فيه، وأفردت لها كتاباً يدعى كتاب " إصلاح الغلط " ، وإلاّ حروفاً تعرض في باب ولا يكتمل ذلك الباب إلاّ بذكرها، فذكرتها بزيادة في التفسير والفائدة، ولن يخفى ذلك على من جمع بين الكتابين[5]" .

(1) تأويل مختلف الحديث : 12، 212 .

(2) تأويل مشكل القرآن : 82، 93، 136، 295 . وطبع الكتاب بتحقيق د . عبدالله الجبوري في بغداد عام 1977 بثلاثة أجزاء، وطبعة ثانية بتحقيق د . رضا السويسي عام 1979، وطبعة ثالثة بعناية نعيم زرزور عام 1988 .

(3) غريب الحديث : 108/1 .

(4) غريب الحديث : 108/1 .

(5) نفسه : 108/1 .

ولم تقتصر مهمة ابن قتيبة على ذكر الأحاديث التي أهملها أبو عبيد، بل تعقّبه، ونبّه على أخطائه، وأفرد تلك التنبيهات في كتاب سمّاه " إصلاح غلط أبي عبيد في غريبه " .

وقد نهج ابن قتيبة في كتابه منهج أبي عبيد، فجعل أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين – رضي الله عنهم – في أبواب مستقلة، وختم كتابه بأحاديث غير مسندة وغير منسوبة، وقال : " وسمعت أصحاب اللغة يذكرونها، لا أعرف أصحابها ولا طرقها، حسنة الألفاظ، لطاف المعاني تضعف الأحاديث التي ختم بها أبو عبيد كتابه أضعافاً [1]" .

أمّا منهج ابن قتيبة في شرح غريب الحديث، فهو يبدأ بذكر الحديث كاملاً، ثم يتبعه بذكر السند، ثم يفسر الألفاظ الغريبة، فيه، مستشهداً بشواهد متنوعة من القرآن الكريم والشعر العربي، وكلام العرب وأمثالهم ليدعم رأيه في تفسير المفردات الغريبة، مؤيداً رأيه بآراء علماء المصرين البصرة والكوفة . ويحتل كتاب ابن قتيبة مكانة مرموقة في كتب غريب الحديث، لأهميته اللغوية والدينية في آن واحد معاً، لكنّ اتجاه ابن قتيبة الأساسي في كتابه يبقى الاتجاه اللغوي، وقد ذكر ذلك وبيّنه أكثر من مرّة، فقال : " حديثٌ فيه طول اختصرته واقتصرت فيه على ما يفسر" أو "ألفاظ اختصرتها واقتصرت فيها على ما يفسر" .

فابن قتيبة يبقى حريصاً على البقاء في اتجاهه اللغوي ولو جلبته طبيعته إلى الفقه في الدين، وقد عالج في كتابه بعض الألفاظ الإسلامية معالجة لغوية، ودلّ بأصولها على معانيها، كالوضوء والصلاة والزكاة والأذان والصيام والعتاق والطلاق والظِّهار والتدبير وأشباهها، ممّا لا يكمل علم المتفقّه والمفتي إلا بمعرفة أصولها، ثم أتبع ذلك تفسير ما جاء في الحديث من ذكر أهل الأهواء والرافضة والمرجئة والقدرية والخوارج [2]، وفسّر ما جاء في

(1) نفسه : 109/1 .

(2) نفسه : 109/1 .

الحديث من ذكر الكافرين والظالمين والمنافقين والفاجرين والملحدين، ومن أين اشتق كل اسم منها .

13- فضل العرب والتنبيه على علومها :

ذكره ابن النديم [1] باسم " التسوية بين العرب والعجم " ، وذكره ابن عبد ربه [2] باسم " العرب والعجم " وذكره الزركلي [3] باسم " العرب وعلومها " ، وذكره البيروني [4] باسم "تفضيل العرب على العجم " .

وذكره الأستاذ محمد كرد علي [5] باسم " العرب والرد على الشعوبية " . ويرجع هذا الاضطراب في اسم الكتاب إلى ضياع الورقة الأولى من مخطوطته المحفوظة بدار الكتب المصرية، وما هي في الحقيقة إلا أسماء مختلفة لكتاب واحد . وقد ذكره ابن قتيبة في كتابه " الشعر والشعراء [6]" باسم كتاب " فضل العرب " . وفي كتابه : غريب الحديث [7]" باسم

(1) الفهرست : 116 .

(2) العقد الفريد : 408/3 .

(3) الأعلام : 4 / 208 / ط2، وذكر الأستاذ الزركلي كتابين له : 1- العرب وعلومها . 2- فضل العرب على العجم

(4) الآثار الباقية : 238 .

(5) رسائل البلغاء : 269 .

(6) الشعر والشعراء : 1 / 70، 109 .

(7) غريب الحديث : 580/2 .

- نشر الأستاذ جمال الدين القاسمي في (مجلة المقتبس) المجلد الرابع، الصفحة (736-721-668-657) جزءاً صغيراً من الكتاب وذكر أنه نقله من نسخة تحتفظ بها خزانة الشيخ شاكر الحمزاوي الدمشقي، وأول هذه النسخة : "قال أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، جعلنا الله وإياك على النعم شاكرين، وعند المحن والبلوى صابرين، وبالقسم من عطائه راضين، وأعاذنا من فتنة العصبية وحميَّة الجاهليَّة، وتحامل الشعوبيَّة، فإنها بفرط الحسد ونغل الصدر تدفع العرب عن كل فضيلة . . ." .
- ثم أعاد نشر الكتاب الأستاذ محمد كرد علي، في كتاب (رسائل البلغاء)، (ص/ 269 - 295، ط / 1913م، القاهرة) .

" فضل العرب والتنبيه على علومها " .

14- المسائل والأجوبة في الحديث واللغة :

ذكره ابن النديم [1] ، وابن خلكان [2] ، والقفطي [3] ، والداودي [4] ، والسيوطي [5] باسم (المسائل والجوابات)* .

ليس للكتاب مقدمة كعادة المؤلفين، وإنما يبدأ مباشرة بالأسئلة، والجواب عنها، ومناقشتها واحدة واحدة، وقد كتب في مطلع كل مسألة كلمة "سُألت عن" . وبلغت مسائله (190) مسألة على هيئة سؤال وجواب، وهي أسئلة وجّهت إليه حول ألفاظ غريبة تحتاج إلى تفسير وبيان ، لم يفسرها في كتابه "غريب الحديث" ، وقال : " سألت عن أحاديث ذكرت أنك لم تجدها في كتابي المؤلف في تفسير غريب الحديث [6]" .

---

(1) الفهرست / 116 .

(2) وفيات الأعيان : 3/43 .

(3) إنباه الرواة : 146/2 .

(4) طبقات المفسرين : 246/2 .

(5) بغية الوعاة : 263/2 .

* نشره للمرّة الأولى السيد حسام الدين القدسي، في القاهرة، 1349 – 1930م، في مطبعة السعادة. وهي طبعة ناقصة، ومعه كتاب : (عيون المسائل) للطبري .

– ثم أعاد نشره السيد شاكر العاشور، في مجلة (المورد) البغدادية، (المجلد الثالث) العدد الرابع، 1974م، ص / 235 – 253 .

– ثم طبع باسم "كتاب المسائل والأجوبة في الحديث والتفسير" بتحقيق الأستاذين مروان العطية ومحسن خرابة، الطبعة الأولى سنة / 1401هـ – 1990 ، دار ابن كثير، دمشق، وذكرا أنهما حققّاه عن مخطوط في /50/ لوحة، من مخطوطات المكتبة الأحمدية بحلب رقم 275 . وكانت الصفحة الأولى مخصصة لعنوان الكتاب، وجاء على الشكل التالي : كتاب المسائل في الحديث والتفسير لأبي محمد، عبدالله بن مسلم بن قتيبة" .

(6) المسائل والأجوبة / 239 .

ومن تلك المسائل (46) مسألة في غريب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، و(20) مسألة في تفسير حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير الغريب ، و(52) مسألة في غريب أثر الصحابة والتابعين وتابعيهم، و (3) مسائل في تفسير الأثر من غير الغريب، و(5) مسائل مشتركة بين غريب الحديث والأثر ، و(33) مسألة في تفسير آيات قرآنية ظاهرها الاختلاف والتعارض وتأويلها، و(15) مسألة في اللغة، و(5) مسائل في الفقه، و(4) مسائل في القراءات القرآنية، و(2) مسألتان في النحو، و(1) مسألة واحدة في التاريخ ، و(1) مسألة واحدة في الحديث عن مصطلح الحديث والتفريق بين حدثنا، وأخبرنا، و(1) مسألة واحدة في تفسير مثل، و(1) مسألة واحدة في تفسير قول .

15- المعارف :

ذكره ابن النديم [1] ، وأبو الطيب اللغوي [2]، والخطيب البغدادي [3] ، والسمعاني [4]، وابن الأنباري [5] ، والقفطي [6] ، وابن خلكان [7]، وابن كثير [8] ، وابن العماد الحنبلي [9]، بهذا الاسم . وسماه حاجي خليفة باسم " المعارف في التاريخ [10] . وقد جمع ابن قتيبة في مؤلفه هذا ما رآه ضرورة لكل كاتب ومتأدب من المعارف التاريخية وقال : " هذا كتاب

(1) الفهرست : 116 .

(2) مراتب النحويين: 132 .

(3) تاريخ بغداد : 170/10 .

(4) الأنساب : 443 .

(5) نزهة الألباء : 210 .

(6) إنباه الرواة : 145/2 .

(7) وفيات الأعيان : 42/3 .

(8) البداية والنهاية : 48/11 .

(9) شذرات الذهب : 169/2 .

(10) كشف الظنون : 1465/2 .

جمعت فيه من المعارف، ما يحق على من أنعم عليه بشرف المنزلة ، وأُخرج بالتأدب عن طبقة الحشوة ، وفُضِّل بالعلم والبيان على العامَّة، أن يأخذ نفسه بتعلمه، ويَروضها على تحفظُّه إذ كان لا يستغنى عنه في مجالس الملوك إن جالسهم، ومحافل الأشراف إن عاشرهم، وحِلَقِ أهل العلم إن ذاكرهم [1] " .

وتحدث عن مضمون الكتاب، وما احتواه من فنون كثيرة فقال: "وكتابي هذا يشمل على فنون كثيرة من المعارف ، أولها مبدأ الخلق ، وقصص الأنبياء وأزمانهم، وحلاهم، وأعمارهم، وأعقابهم، وافتراق ذراريهم، ونزولهم بمشارق الأرض ومغاربها ، وأسياف البحار، والفلوات والرمال، إلى ان بلغت زمن المسيح ، والفترة بعده، ووصلت ذلك بذكر أنساب العرب مختصراً ذلك، ومقتصراً على العشائر ومشهور البطون، ثمّ أتبعته أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسبه، وذكر عمومته وعمّاته وجدّاته لأبيه، وأمّه، وأظآره، وأزواجه، وأولاده ، ومواليه، وأحواله في مولده ومبعثه ومغازيه، إلى أن قبض صلى الله عليه وسلم، وأخبار العترة من المهاجرين – رحمهم الله تعالى – ثم الصحابة المشهورين، ثم الخلفاء من لدن معاوية بن أبي سفيان إلى أحمد بن محمد بن المعتصم المستعين بالله ، والمشهور من صحابة السلطان ، والخارجين من الخوارج، ثم التابعين، ومن بعدهم من حملة الحديث، وأصحاب الرأي، ومن عُرف منهم بالترفض والتشيّع والإرجاء والقدر، وأصحاب القرارات من أهل الحجاز ومكة والعراق والشام ، والنَّسابين وأصحاب الأخبار، ورواة الشعر والغريب، وأصحاب النحو والمعلمين، والمهاجرين من الصحابة، والتابعين، وأول من أحدث شيئاً باقياً على مرور الأيام، وذكرت المساجد المشهورة، كالكعبة، وبيت المقدس، ومسجد المدينة، ومسجد البصرة، ومسجد الكوفة، ومسجد دمشق، ومتى ابتُنِيتْ، وعلى يد من أسِّسَتْ، ودللت على جزيرة العرب، وحدود السواد، والجزيرة بين دجلة والفرات، وحدود نجد والحجاز وتهامة، وأخبرت عن الفتوح، وما كان منها عنوة، وما كان عن صلح، وعمّن

(1) المعارف: مقدمة المؤلف / 1 .

جُمِعَ له العراقان، وعن فرق ما بين المهاجرين الأولين ، والمهاجرين الآخرين، وعن المخضرمين، وعن سبب إضعاف الصدقة على نصارى بني تغلب، وعن أديان العرب في الجاهلية، وعن صناعات الأشراف في الجاهلية، وعن أهل العاهات الذين كثرت فيهم، وعن البُرْصِ، والعُرْج والصُّم والجُدْع والجُذمى والحُول والزُّرْقِ والفقم والكوابح والصُّلْعِ والنُّحر والعُور والمكافيف، وعن أشياء تتابعت في نسق ليس لها مثل، وعن المنسوبين إلى غير عشائرهم وآبائهم، وعن المسمّين بكناهم، وعن ذكر الطّواعين وأوقاتها، وعن الأيام المشهورة، مثل يوم ذي قار، والفجارين، وحِلف الفُضول، وحِلف المطيبين، وحرب بكرَ وتغلب، وحرب داحس والغبراء، وعن قصص قومٍ جرى المثل بأسماعهم مثل: قوس حاجب، وحُمق باقل، وقُرطى مارية ... " إلخ[1] .

ثم قال: "وكان غرضي في جميع ما اقتصصت الإيجاز، والتخفيف، والقصد المشهور من الأنباء دون المغمور، ولما يجري له سبب على ألسنة الناس، دون ما لم يجر له سبب"[2]. ومن خلال هذا التعريف الجامع، ندرك أن ابن قتيبة أراد أن يكون كتابه أشبه بموسوعة إخبارية ، تضم ألواناً مختلفة من المعرفة[3] .

16- المعاني الكبير :

ذكره ابن النديم ،[4] باسم (معاني الشعر الكبير)، وذكره ابن قتيبة في كتابه "عيون

(1) المعارف: مقدمة المؤلف / 3-6 .

(2) نفسه: ٦ .

(3) نشر الكتاب في غوتنغن سنة 1850م، بعناية وستنفلد، ثم في مصر سنة 1300هـ ثم نشره محققاً الأستاذ ثروت عكاشة في مصر سنة 1960م، وهي طبعة صدرت عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي، وكتب لها المحقق مقدمة جيدة، عرّف بالكتّاب وبنسخه، مع ذكر آثار ابن قتيبة، وذيّلها بالفهارس العلمية، وهي بحق، طبعة استوفت أسباب التحقيق العلمي. وقد نقدها الدكتور مصطفى جواد، ونشر نقده في مجلة المجمع العلمي العراقي (المجلد/ 9، ص / 443 ـ 459) .

(4) الفهرست: 115 .

الأخبار" بقوله : " وقد فسرت هذا الشعر في كتابي المؤلف في أبيات المعاني في خلق الفرس[1]" . والكتاب واحد من مجموعة كتب متشابهة عُرِفت باسم "معاني الشعر" ، وقد سميت بهذا الاسم، كما قال السيوطي: " لأنّ العرب قالتها، فصادف أن تكون ألغازاً، وهي نوعان: فإنها تارة يقع في الإلغاز بها، من حيث معانيها، وأكثر أبيات المعاني من هذه النوع، وقد ألف ابن قتيبة في هذا النوع [2] " . قسم ابن قتيبة كتابه اثني عشر كتاباً ذكرها ابن النديم في الفهرست [3] ، وهذه الكتب هي : الفرس، والإبل، والحرب، والقدور، والديار، والرياح ، والسباع والوحوش، والهوام، والأيمان والدواهي، والنساء والغزل، والشيب والكبر، وتصحيف العلماء.

ولم تصل إلينا من هذه الكتب إلا خمسة هي كتب : الإبل ، والديار ، والرياح ، والنساء والغزل ، وتصحيف العلماء . ويُعَدُّ الكتاب من معجمات المعاني المرتّبة على الأشعار، فقد أورد ابن قتيبة فيه مجموعة من القصائد والمقطّعات والأبيات المفردة قيلت في موضوعات مختلفة عامّة، تندرج تحتها موضوعات فرعية، وضم ابن قتيبة الموضوعات المتشابهة في كتاب واحد، فقد بدأ بكتاب الخيل، وتكلّم عمّا جاء في صفاتها، وعددها وَوَثْبها، ولحُوقها بالصيد، وما تُشَبّه به من تشبيهها بالعقاب والبازي، وبالنعامة ، وما يُستقبح من صورها وأعضائها، وما يستحسن، مع ذكر ما توارد في ذلك من قديم الشعر، وتفسير غريبه، ونهج هذا المنهج في كتاب " السباع" فذكر أنواع الوحوش والحيوان الضاري، كالذئاب والضباع والسّباع ، وغيرها من الحيوان كالأرانب، والكلاب، والطيور، كالغربان، والعُقبان والنسور والصقور والرّخم والحمام والقطا. وجعل الكتاب الثالث في "الطعام والضيافة" ، وذكر فيه ما قيل في القدور والجفان، والعقر للضيفان، والقرى باللبن، وذكر الخمر وآلاتها.

---

(1) عيون الأخبار: 158/1 .

(2) المزهر: 275/1 .

(3) الفهرست: 115 .

والكتاب الرابع في " الذباب وغيرها"، كالجراد والنحل والعسب والجعل والقراد والعنكبوت والنحل. و"كتاب الحرب" ، وما جاء في الطعنة والشجة والضربة والديات والثأر، والبيض والدروع والقسّي والسّهام والسيوف والرماح، والعداوة والبغضاء والحقد. و"كتاب الميسر" وغيره، ويتكلم عمّا جاء في الميسر والتطير والفأل، وفي الشعر والشعراء، وفي الشيب والكبر، وفي وصف الآثار وتشبيهها . فالكتاب ضمّ ذخيرة أدبية قيّمة من الشعر العربي القديم، في موضوعات مختلفة ، تتصل بضروب الحياة عند العرب، وتصور لنا أحوالهم الاجتماعية، وتكشف لنا عن عاداتهم وتقاليدهم في السلم والحرب، وتعد تلك الأشعار وثيقة تاريخية حيّة نادرة، قد لا نعثر عليها في كثيرٍ من كتب الأدب التي وصلت إلينا . وتَظهر في الكتاب شخصية ابن قتيبة العلمية، فقد أحسن ترتيب الكتاب، وأحكم منهجه في إيراد الموضوعات. وضمّ المتشابه منها، ومعالجة مسائله، وشرح غريب الأشعار، وقد فسّر اللفظة المراد بيان معناها من خلال الشاهد، من ذلك ما جاء في كتاب (الأبيات في الحيّة) قال النابغة :

فبتُّ كأنّي ساورتني ضئيلة   من الرُّقْشِ في أنيابها السّمُّ ناقعُ

ضئيلة: أفعى ، وذلك أنّها دقيقة اللحم "[1] .

وفي باب (الجوار والحلف والإغاثة): قال الحطيئة :

قومٌ إذا عقدوا عقداً لجارهم   شدّوا العناج وشدُّوا فوقه الكربا

أي إذا عقدوا أوفوا لمن عقدوا، فكان عقدهم وثيقاً، والعناج : حبل أو بطان يجعل أسفل الدلو تشد به العراقي ليكون عوناً للوذم، والوذم: السيور التي بين أطراف العراقي وأذان الدلو. والكرب : عقد مثنى يشد على العراقي "[2] .

---

(1) المعاني الكبير: 2/662-663 . والبيت في ديوانه: 30 .

(2) نفسه: 2/1106 ، 1107 ، والبيت في ديوانه 7 .

وقد فسّر كثيراً من الألفاظ الغريبة التي وردت في الأشعار التي ساقها ، فقد تكفّل بجمع أبيات المعاني وتفسير العويص من الشعر ، وبيّن ما اعترى ألفاظ اللغة من تحريف وتصحيف، وما تناقله اللغويون من كلام مصحّف أو محرّف عن أصل صحيح، قد غابت عنهم معرفته، وجمع من ألفاظ اللغة ما كان يتصل بموضوع واحد ، أو موضوعات متقاربة، ورتّب الأشعار التي أراد تفسيرها وبوّبها بحسب موضوعاتها، فشابهت بذلك أبواب الكتاب الكتب التي تخصصت بموضوعات محدّدة ، لكنّ ابن قتيبة قصر ألفاظها على الشعر . والكتاب يشهد على مكانة ابن قتيبة في علم اللغة، وسعة اطلاعه ، ومعرفته بشعر العرب، وأسرار كلامهم. ويعدُّ الدكتور الجندي هذا المؤلَّف من أوضح كتب ابن قتيبة دلالة على تبحره في اللغة تبَحُّراً... يحكم في غير تردد أنّ ابن قتيبة قد حبس نفسه على التضلع في اللغة [1]*.

17- الميْسِرُ والقداح :

ذكره ابن النديم [2]، وابن خلكان [3]، والقفطي [4]، وحاجي خليفة [5]، وأشار إليه ابن قتيبة في كتبه الأخرى، كالأنواء [6]، والأشربة [7]، وإصلاح الغلط [8]*.

(1) ابن قتيبة، د. عبدالحميد سند الجندي : 88 .

* طبع الكتاب في حيدر أباد – الدكن، سنة 1368 هـ في مجلدين بعناية المستشرق الدكتور كرنكو، وراجعه وأضاف إليه بعض الشروح الشيخ عبدالرحمن بن يحيى المعلمي اليماني ثم أعيد طبعه في بيروت في ثلاثة أجزاء، عدد صفحاتها (1270) صفحة، دار النهضة الحديثة / 1971م .

(2) الفهرست : 116 .

(3) وفيات الأعيان : 3/ 43 .

(4) إنباه الرواة : 146/2 .

(5) كشف الظنون : 1465/2 .

(6) الأنواء : 8 .

(7) مجلة المقتبس : 534 .

(8) إصلاح الغلط : 117 . =

ألف ابن قتيبة هذا الكتاب استجابه لرغبة بعض تلاميذه الذين أبدوا رغبتهم في معرفة "الميسر والقداح عند العرب"، وقال في المقدمة : "أما بعد، فإنك كتبت تعلمني تعلّق قلبك بالميسر ، وكيفيته، والقداح وحظوظها، والمياسرين وأحوالهم، ومعرفة ما في الميسر من النفع الذي ذكره الله في القرآن " .

والميسر أمرٌ انقطع بمجيء الاسلام، ولم يكتب فيه أحدٌ من العلماء وقتئذٍ مقالاً شافياً، وتعد مصادره نادرة، وليس فيه إلاّ ما قد يجيء في الشعر، ولذلك فقد عمد ابن قتيبة إلى الاجتهاد ، وبذل جهوداً كبيرة في تأليفه ، واستنباط مادّته من الأبيات الشعرية التي قيلت في هذا الغرض. وبدأ بتفسير لفظ الميسر في اللغة ، فهو "الجزور" [1] نفسه، وسمّي "ميسراً" ، لأنه يجزّأ أجزاء. والمتقامرون أو اللاعبون بالميسر على الجزور "ياسرون" ويستعمل هؤلاء القداح [2] في ضربهم، وهذا هو المقصود في قوله تعالى: ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ﴾ [3]، والذي حرّمه الله تعالى .

و" الأزلام" القداح أيضاً ، والاستقسام بها محرّم. "كانوا إذا أرادوا أن يقتسموا شيئاً مختلفاً بين قوم، تساهموا عليه، فما خرج لكل امرئ جعلوه حظّاً له ، فقيل الاستقسام أي طلب القِسْم ، وهو النصيب ، وكانوا إذا أرادوا الخروج إلى وجه ضربوا الأقداح، فإن خرج القدح الآمر نفذ الرجل لوجهه راجياً السلامة ، وإذا خرج القدح الناهي ، أمسك عن الخروج خائفاً النكبة والجائحة "[4] .

= * وطبع "الميسر والقداح" في القاهرة، المطبعة السلفية، سنة 1343هـ ونشره المرحوم الشيخ محب الدين الخطيب، ثم أعيد طبعه سنة 1385هـ .

(1) الجزور: ما يجزر من النوق والغنم/ ج: جزر .

(2) القداح: ج قدح، وهو سهم الميسر .

(3) البقرة / 219 .

(4) الميسر والقداح: 40 .

وذكر ابن قتيبة ما جاء في القرآن من تلك الأنواع ، وبيّن ما فيها من النفع، كما ذكر أسماء القداح التي يضربون بها ، أو يستقسمون عليها، وعلاماتها، وصفاتها وهيئاتها، وأوقات التقامر ، وذكر الأيسار وعددها، وأجزاء الجزور وأسماءها، ثم طريقة اللعب والرهان وكيفية الفوز والغُرم، وتوزيع الأنصبة. وكتاب " الميسر " كتاب لغة وأدبٍ، فقد ساق ابن قتيبة الأخبار ، واستشهد بالأشعار الجاهلية التي قيلت في الميسر وقال : " ولم أجد السبب إلى ما التمسته إلا جمع الأبيات في الميسر، وتدبرها ، والاستدلال على كيفيته باعتبارها ، ففعلت ذلك ، وأودعت كتابي هذا منه ما أدّى إليه النظر، ودلّ عليه الاستخراج "[1] .

وقد أبان ابن قتيبة في تفسير وشرح الشواهد الشعرية عن دقة نظر، وسعة علم، وحسن استخراج، من ذلك ما ذكره في باب نفع الميسر وقال :

قال عنتره يصف رجلاً :

رَبِذٍ يداه بالقداح إذا شتا … هتّاك غاياتِ التجار مُلوَّمِ

"رَبِذٍ" أي خفيف اليدين بضرب القدح . "إذا شتا" يقول : يفعل ذلك في الجدب . و"الغايات" الرّايات . و"التّجار الخمّارون، وكانوا ينصبون راياتٍ لهم لتعرف بها مواضعهم. يقول: هذا الرجل يشتري جميع ما عند الخَمار، حتى يَقْلَعَ الخَّمار رايته، فكأنّ هذا الرجل هتكها . "ملوَّم" يلام على الإنفاق "[2] .

وتحدّث ابن قتيبة عن حياة العرب في الجاهلية، وصوّر عاداتهم، من ذلك ما ذكره في باب نفع الميسر فقال : " وأمّا نفع الميسر فإنّ العرب كانوا في الشتاء عند شدّة البرد، وجدب الزمان وتعذُّر الأقوات على أهل الضُّرِّ والمسكنة يتقامرون بالقداح على الإبل ، ثم يجعلون لحومها لذوي الحاجة منهم والفقراء . فإذا فعلوا ذلك اعتدلت أحوال الناس، وأخصبوا،

(1) نفسه: 4 .

(2) نفسه: 50 ، 51 .

وعاشوا واستراشوا. قال الأعشى يمدح قوماً :

المطعمو الضيف إذا ما شتوا والجاعلو القوت على الياسر

أي يجعلون أقوات الفقراء منهم على الياسرين بالقداح ، وهم أهل الثروة ، وذوو الجِدَة والأجواد . وكانوا يُمْدَحون بأخذ القداح، ويُسَبُّون بتركها، ويسمُّون الموسر الذي لا يدخل معهم في الميسر ، ولا يتحمّل الغُرم بصلاح أحوال الناس : "البَرِم"[1] . فالكتاب ، وإن تناول مسألة الميسر وما حُرِّم منه وما أُحِلَّ ، فهو كتاب لغة وأدب وتاريخ .

ثانياً - الكتب المخطوطة وهي :

1- معجزات النبي :

ذكره أبو الطيب اللغوي[2] بهذا الاسم . ومنه نسخه مخطوطة في دار الكتب المصرية - الخزانة التيمورية - . وذكره ابن النديم[3] ، والداودي[4] ، والسيوطي[5] ، وحاجي خليفة[6] باسم (دلائل النبوة) ، والسخاوي[7] ، وابن قاضي شهبة[8] ، والذهبي[9] ، باسم (أعلام النبوة)، وابن الأنباري[10] باسم (دلائل النبوة من الكتب المنزلة على الأنبياء عليهم السّلام) .

---

(1) نفسه : 36 .

(2) مراتب النحويين : 137 .

(3) الفهرست : 116 .

(4) طبقات المفسرين : 245/1 .

(5) بغية الوعاة : 63/2 .

(6) كشف الظنون : 760/1 .

(7) الإعلان بالتوبيخ : 91 .

(8) طبقات ابن شهبة : 54/2 .

(9) سير أعلام النبلاء : 297/13 .

(10) نزهة الألبَّاء : / 144 .

2- **منتخب اللغة وتواريخ العرب :**

ذكره بروكلمان [1] ، منه نسخة مخطوطة في دار الكتب المصريّة رقم 499/ مجاميع كتب اللغة (2/41) .

ثالثا- الكتب المفقودة وهي :

1- آداب العِشْرَة :

ذكره ابن النديم [2] .

2- آداب القراءة :

ذكره حاجي خليفة [3] .

3- أدب القاضي :

ذكره ابن قاضي شهبة [4] ، والذهبي [5] .

4- استماع الغناء بالألحان :

ذكره حاجي خليفة[6] .

5- إعراب القرآن :

وقد ذكره بهذا الاسم ابن النديم [7] ، والداودي [8] ، والسيوطي [9] ،

---

(1) تاريخ الأدب العربي : 228/2 .

(2) الفهرست : 116 .

(3) كشف الظنون : 43/1 .

(4) طبقات ابن شهبة : 54/2 .

(5) سير أعلام النبلاء : 297/13 .

(6) كشف الظنون : 1001/2 .

(7) الفهرست : 116 .

(8) طبقات المفسرين : 245/1 .

(9) بغية الوعاة : 63/2 .

واليافعـي [1] ، والقفطي [2] ، وذكره ابن خلكان [3] باسم "إِعراب القراءات" .

6- آلة الكتّاب :

ذكره ابن السيد البطليوسي [4] .

7- التقفية :

ذكـره ابن النـديم [5] ، وابن خلـكان [6]، والقـفطي [7]، وحـاجي خليـفـة [8]، باسم "التـفـقيـه" ويبـدو أن هذا تصـحـيف، بدليـل مـا ذكـره ابن النديم "وهـو أكـبـر من كـتـاب البندنيجي [9]، واسم كتاب البندنيجي (التقفية) .

8- جامع الفقه :

ذكره ابن النديم [10] ، بهذا الاسم ، وذكره القفطي [11] باسم (كتاب الفقه) .

9- وجامع النحو :

ذكـره ابن النــديم [12]، وابن قاضي شهبـة [13]، والدوادي [14]، والسيـوطـي [15]، وابن

---

(1) مرآة الجنان : 191/2 .

(2) إنباه الرواة : 146/2 .

(3) وفيات الأعيان : 42/3 .

(4) الاقتضاب في شرح أدب الكتّاب : 125/1 .

(5) الفهرست (115) .

(6) وفيات الأعيان : 42/3 .

(7) إنباه الرواة : 146/2 .

(8) كشف الظنون : 453/1 .

(9) الفهرست : 115، 116 . وكتاب "التقفية" للبندنيجي معجم يأخذ بأواخر الأصول حققه الدكتور خليل عطيّة .

(10) نفسه : 115 .

(11) إنباه الرواة : 146/2 .

(12) الفهرست : 116 .

(13) طبقات ابن شهبة : 53/2 .

(14) طبقات المفسرين : 245/1 .

(15) بغية الوعاة : 63/2 .

فرحون [1]، وذكره القفطي [2]، باسم (كتاب النحو) ، وذكر حاجي خليفة[3] أنَّ له (جامع النحو) وهو صغير وكبير .

10- جامع النحو الكبير :

ذكره ابن النديم [4]، والقفطي[5] ، وابن قاضي شهبة [6] ، والداودي [7] ، والسيوطي[8] وحاجي خليفة [9]، وذكر أبو الطيب اللغوي [10] أنّ لابن قتيبة كتاباً في النحو .

11- الجوابات الحاضرة :

ذكره ابن قاضي شهبة [11] ، والسيوطي [12]، والدادوي[13]، وحاجي خليفة[14] .

12- الحكاية والمحكي :

ذكره ابن النديم[15]

---

(1) الديباج المذهب: 35 .

(2) إنباه الرواة : 146/2 .

(3) كشف الظنون :575/1 .

(4) الفهرست : 116 .

(5) إنباه الرواة : 1462 .

(6) طبقات ابن شهبة : 346/2 .

(7) طبقات المفسرين: 246/1 .

(8) بغية الوعاة: 64/2 .

(9) كشف الظنون : 575/1 .

(10) مراتب النحويين: 137 .

(11) طبقات ابن شهبة: 346/2 .

(12) بغية الوعاة : 64/2 .

(13) طبقات المفسرين: 246/1 .

(14) كشف الظنون: 609/1 .

(15) الفهرست : 116 .

13– حكم الأمثال :

ذكره ابن النديم [1] ، وابن قاضي شهبة[2] .

14– خلق الإنسان :

ذكره ابن النديم[3] ، وابن قاضي شهبة[4] ، والداودي[5] ، والسيوطي[6] ، وحاجي خليفة [7] .

15– الخيل :

ذكره ابن النديم [8] ، وابن قاضي شهبة [9] ، وابن خلكان [10] ، والداودي [11] ، والسيوطي [12] والقفطي [13] ، واليافعي [14] ، وذكره حاجي خليفة [15] باسم (كتاب الحيل)، ويبدو أن هذا تصحيف من الناسخ .

16– ديوان الكتّاب :

---

(1) الفهرست : 116 .

(2) طبقات ابن شهبة : 53/2 .

(3) الفهرست : 116 .

(4) طبقات ابن شهبة : 53/2 .

(5) طبقات المفسرين : 245/1 .

(6) بغية الوعاة : 63/2 .

(7) كشف الظنون : 722/1 .

(8) الفهرست : 116 .

(9) طبقات ابن شهبة : 53/2 .

(10) وفيات الأعيان : 42/3 .

(11) طبقات المفسرين : 245/1 .

(12) بغية الوعاة : 63/2 .

(13) إنباه الرواة : 146/2 .

(14) مرآة الجنان : 191/2 .

(15) كشف الظنون : 1425/2 .

ذكره ابن النديم [1] ، وابن قاضي شهبة [2] ، والسيوطي [3] ، وحاجي خليفة [4] .

17– الرد على القائل بخلق القرآن :

ذكره ابن قاضي شهبة [5] ، والسيوطي [6] .

18– الرسالة في الخط والقلم :

ذكره الداودي [7] ، والسيوطي [8] ، باسم (كتاب القلم) ، وذكره ابن النديم [9] ، والقفطي [10] باسم (كتاب العلم) ، ولعل هذا من تحريف النساخ .

19– سير العجم :

ذكره ابن السراج [11] .

20– الصيام :

ذكره ابن قاضي شهبة [12] ، وأشار إليه ابن قتيبة في كتابه "الأنواء" [13] .

---

(1) الفهرست : 116 .

(2) طبقات ابن شهبة : 53/2 .

(3) بغية الوعاة : 63/2 .

(4) كشف الظنون : 807/1 .

(5) طبقات ابن شهبة : 346/2 .

(6) بغية الوعاة : 64/2 .

(7) طبقات المفسرين : 146/1 .

(8) بغية الوعاة : 64/2 .

(9) الفهرست : 116 .

(10) إنباه الرواة : 146/2 .

(11) مصارع العشاق : 373 .

(12) طبقات ابن شهبة : 54/2 .

(13) الأنواء : 130 .

21- عيون الشعر :

ذكره ابن النديم [1] .

22- القراءات :

ذكره ابن النديم [2] ، وابن حجر العسقلاني [3] ، وابن فرحون [4] ، وابن قاضي شهبة [5] بهذا الاسم ، وأشار إليه ابن قتيبة في كتابيه : تفسير غريب القرآن [6] ، وتأويل مشكل القرآن [7] .

23- فرائد الدرر :

ذكره ابن النديم [8] .

24- النّسب :

أشار إليه ابن قتيبة في كتاب " المعارف [9] " .

25- كتاب الوحش :

ذكره ابن قاضي شهبة [10] ، وأشار إليه ابن قتيبة في كتاب "الأنواء" [11] .

---

(1) الفهرست : 116 .

(2) نفسه : 116 .

(3) رفع الإصر : 73 .

(4) الديباج المذهب : 35 .

(5) طبقات ابن شهبة : 53/2 .

(6) تفسير غريب القرآن : 16 .

(7) تأويل مشكل القرآن : 64 .

(8) الفهرست : 116 .

(9) المعارف / 177 .

(10) طبقات ابن شهبة : 54/2 .

(11) الأنواء / 130 .

رابعاً – الكتب المنسوبة :

1– كتاب تلقين المتعلم من النحو

ذكره بروكلمان[1] ، وأشار إلى وجود نسخة منه مخطوطة في المكتبة الوطنية في باريس برقم (4715) ، وتوجد مصورة لها بدار الكتب القطرية تحت رقم (173) . وقد طبع الكتاب الطبعة الاولى سنة 1409هـ – 1989م ، بتحقيق الدكتور جمال عبد العاطي مخيمر ، مطبعة أبناء وهبة حسّان – القاهرة ، معتمداً على نسخه باريس الفريدة ، وهي تامّة الأول والآخر ، وعدد لوحاتها خمس وسبعون لوحة من القطع الكبير .

وجاء في صفحة العنوان ما نصه : " كتاب تلقين المتعلّم من النحو ، فيه تفهم للمتعلم، لابن قتيبة، "رحمه اللّه تعالى" ، وقد عد المحقق ما جاء بخط الناسخ في صفحة العنوان من نسبة الكتاب إلى ابن قتيبة" بعبارة صريحة ، من أكبر الأدلة التي استند إليها في توثيق نسبة الكتاب إلى ابن قتيبة . ولا نستطيع أن نقطع بنسبة الكتاب إلى ابن قتيبة لأنَّ الأدلة والقرائن التي ساقها محقق الكتاب لا ترقى إلى ترجيح ما ذهب إليه ، لأسباب كثيرة ، منها أن الكتاب لم يرد معزواً إلى ابن قتيبة عند غيره من النحاة واللغويين اللاحقين به في أيٍ من مؤلفات أحدهم ، ولم يذكره أحد من مترجمي حياة ابن قتيبة الذين ذكروا مؤلفاته ، إضافة إلى أنّ ابن قتيبة لم يشر إليه في أيٍّ من مؤلفاته ، وممّا يزيد الشك في نسبة الكتاب إليه أنّ أحداً ممن اتصلت أعمالهم العلمية أو بحوثهم اللغوية بابن قتيبة لم يشر لا من قريب ، ولا من بعيد إلى هذا الكتاب ضمن مؤلفات ابن قتيبة .وقد وقف الدكتور عبد الحميد سند الجندي على مخطوطة الكتاب ، فأنكر نسبته إلى ابن قتيبة ، وساق أدلة على ما ذهب إليه ، بسطها في كتابه[2] .

2– كتاب الجراثيم :

مخطوطة في اللغة ، تضم كتباً في مواد لغوية، تحتفظ بها مكتبة الأسد بدمشق، وتقع

---

(1) تاريخ الأدب العربي 229/2 .

(2) ابن قتيبة العالم الناقد الأديب / 174–175 .

في (220) ورقة ، 20 X 17س. ورقمها (1596[1]) . والمخطوطة كاملة الأول، تبدأ بعد البسملة، بقوله : "الحمد لله رب العالمين. . المخلوقين، فالملائكة عالم، والجن عالم، والوحوش والأنعام عالم[2]" .

وتضم المخطوطة من الأبواب والكتب : باب النفس والجسم والشخص ، باب الألوان ، باب الألسنة والكلام والأصوات والسكوت، باب النساء ونعوتهن، باب البهت والدهش والقيافة والتطير والتمائم، باب الطيب والنتن واللباس والعري، باب الطعام وألوانه، باب اللبن والشراب، باب الإقامة والتلبث واللزوق، باب نوادر مثل : حسب ، وعشير وقصار ، باب الطبيعة والملاهي والميسر، باب الرحل وآلاته والأواني في السفر، باب الأزمنة والرياح وأسماء الدَّهر ، باب السحاب والمطر، باب الجبال والأرضين والفلوات والأودية، كتاب النخل والكرم، كتاب الخيل ونعوتها والسلاح واعتماله ، كتاب السلاح ونعوته، كتاب النَّعَم والبهائم والوحش والسباع والطير والهوام وحشرات الأرض ، باب نوادر الأسماء ، باب نوادر الأفعال ، باب عيوب الشعر وأسماء القوافي .

والمخطوطة قديمة النسخ، كتبت بخط نسخي مقروء ، أعجمت بعض حروفه وضبطت بالشكل ، وليس فيها اسم الناسخ أو تاريخ نسخه ومكانه، وقد كتب في أولها العبارة التالية :"تأليف أبي محمد عبدالله بن مسلم" . . . وقد نشرت منها رسائل هي :

1- النعم والبهائم والوحش والسباع والطير والهوام وحشرات الأرض :

نشره المستشرق الأب موريس بوج، بيروت ، سنة / 1908م ، ونسبه إلى أبي عبيد القاسم بن سلاّم.

2- النخل والكرم :

(1) فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية/ علوم اللغة العربية/ 81–82 .

(2) نفسه / 82 .

نشره الدكتور أوغست هفنر، في مجلة (المشرق) السنة الخامسة، ونسبه إلى الأصمعي، عبد الملك بن قريب، ثم أعاد نشره الأب لويس شيخو في كتاب :(البلغة في شذور اللغة ص/64) ... ونسبه إلى أبي عبيد القاسم بن سلاّم .. وقال إنّ هذه النسبة أقرب إلى أبي عبيد منها إلى الأصمعي ... ثم رجح نسبته إلى أبي حاتم السجستاني ..

3- الرحل وآلاته والأواني في السفر والحضر والدور والبيوت والأخبية والأبنية :

نشره الأب لويس شيخو اليسوعي باسم (كتاب الرحل والمنزل) في مجموعته (البلغة في شذور اللغة، ص/121–137، ورجَّح نسبته إلى أبي عبيد القاسم بن سلاّم ، وقال : "وما لا ينكره أحد أنّ الكتاب من آثار قدماء اللغويين ، ومن عجب الأمور أن معجم لسان العرب وكتاب المخصص لابن سيده يكادان يذكران معظم مضامين هذا الكتاب متفرقة في مظانّها وبحرفها الواحد وهما ينسبانها لأبي عبيد المتوفى سنة 224هـ[1]" .

4- أبواب اللبن والشراب :

نشره الأب لويس شيخو اليسوعي في مجموعته (البلغة) بيروت سنة 1914، ص/146– 151 . وجعله ملحقاً بكتاب (اللبأ واللبن) لأبي زيد الأنصاري (ت215هـ) المنشور قبله، ولم ينسب اليسوعي الكتاب إلى أحد، واكتفى بقوله: "في كتاب الجراثيم المنسوب لابن قتيبة ... فصل شبيه برسالة أبي زيد السابق ذكرها في اللبن والشراب ، ننقله هنا[2]" .

5- أبواب متفرقة :

نشرها الأب لويس شيخو اليسوعي ملحقة بكتاب (فقه اللغة وسر العربية) للثعالبي، الذي نشره في بيروت المطبعة الكاثوليكية .والكاتِب كما تصرح صفحة العنوان بكنيته واسمه (أبو محمَّد عبدالله بن مسلم) هو ابن قتيبة (ت276هـ)، ولا يعرف غيره بهذه

---

(1) البلغة/ 121 (ولعل هذا أرجح ما قيل في الموضوع) .

(2) نفسه/ 146 .

الكنية والاسم ، وإن لم تذكر المخطوطة أنه (ابن قتيبة) .

على أساس الكنية والاسم هذين انفرد بروكلمان بنسبة الكتاب إلى ابن قتيبة [1] ، ودلّ على نسخته الفريدة في دمشق، ولكنَّ أحداً من أصحاب كتب الطبقات والتراجم والفهارس القديمة لم يشر إلى وجود مثل هذا الكتاب بين مؤلفات ابن قتيبة ، وهو كتاب ضخم ، في حين لم يَغْفَلُوا عن نسبة رسائله الصغيرة إليه، إضافة إلى أنَّ عدداً من الدارسين قد سجلوا شكوكاً حول نسبة الكتاب إلى ابن قتيبة أو بعض أبوابه التي نشرت، ومن هؤلاء الدكتور عبدالله الجبوري الذي شك في نسبة الكتاب إلى ابن قتيبة ، ورأى فيه لوناً من ألوان التأليف اللغوي الذي درج عليه علماء اللغة الأول، أمثال: أبي زيد الأنصاري، والأصمعي، وأبي حاتم السجستاني [2]، في حين نسبه الدكتور محمد حسين آل ياسين إلى مؤلف آخر اسمه (أبو محمد عبدالله بن رستم) [3] .

3- الإمامة والسياسة :

والكتاب مطبوع مشهور ، طبع في القاهرة وبيروت أكثر من مرّة ، ويعرض الكتاب لفضائل أبي بكر وعمر وعثمان ، ولمسألة الإمامة وأحقيتها . والكتاب من الكتب المنحولة لابن قتيبة ، وقد درس أمر انتحاله جمهرة من العلماء والباحثين، ومن الأدلة التي ساقوها للدلالة على بطلان نسبته ودفعه عن عقل ابن قتيبة ، أنّه استمدّ معارفه في فتح الأندلس ، من امرأة شهدت الفتح في سنة 92هـ، وأنه ينقل مباشرة عن أبي ليلى، الذي تولى القضاء في الكوفة سنة 148هـ . وأنَّ الكتاب لم يذكره أحد ممن ترجم له من القدامى ، ولم يذكره ابن قتيبة في أيٍّ من مؤلفاته . وأول من ارتاب في نسبة الكتاب إلى ابن قتيبة، أبو بكر ابن العربي (ت-543هـ) في كتابه : (العواصم من القواصم ص/45-48) .

(1) تاريخ الأدب العربي 228/2 .

(2) مجلة آداب المستنصرية، السنة الثانية 126/2 .

(3) الدراسات اللغوية عند العرب/ 321-313 .

4- النبات :

وقد انفرد بذكره الزركلي [1] وقد أخذه من خبر نشرته مجلة (الكتاب م/ 5س/ 3ج/5 ص/ 805، 1947-1367هـ القاهرة :

ونصه : " وجد أحد علماء الهند بعض الأبواب من كتاب : (النبات) الشهير لابن قتيبة، والكتاب مفقود ، وتتعلق هذه الأبواب بأصناف الخشب المستعمل لإيقاد النار ، وألوان الدخان الطالع منها عند الإيقاد .. " .

وهذا خلط في النسبة، بين أبي حنيفة الدينوري صاحب (النبات) وابن قتيبة الدينوري، إذ لم يذكره أحدٌ ممن ترجم له .

5- الاشتقاق :

ذكره الزركلي أيضاً ، وأشار إلى أنه مخطوط [2] ، ولم يذكره أحد ممَّن ترجم لابن قتيبة .

6- أرجوزة في الظاء والضاد:

أولها :

أفضل ما فاه به الانسـان

وخير ما جرى به اللسان

وهي في سبعة وأربعين بيتاً ، عثر عليها الدكتور داود الجلبي الموصلي (ت-1960م) . في مجموع مخطوط ، في خزانة مدرسة الحجيات في الموصل رقم (24) ، فنشرها في مجلة (لغة العرب، م/ 7ص/461، ج/ 6 السنة / 7، حزيران 1929م) ولم يذكرها أحد من القدامى الذين ترجموا له ، كما لم يشر إليها هو نفسه في كتبه .

---

(1) الأعلام 280/4 .

(2) نفسه 280/4 .

7- وصية ابن قتيبة لولده :

عثر عليها الأستاذ رشاد عبد المطلب، في مجموعة مخطوطة تحتفظ بها مكتبة الجامعة الأمريكية في بيروت ، كتبت في سنة 486هـ ، في ثغر الإسكندرية . وهي في أربع ورقات ، فنشرها الدكتور إسحق موسى الحسيني ، في مجلة (الأبحاث) التي تصدرها الجامعة الأمريكية – ببيروت : عدد آذار 1954م– ج 1س/ 7ص: 70–82) . . . ثم أعاد نشرها في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق : (1375هـ – 1955م، م/ 30ج/ 4ص: 546– 560، وشك في نسبتها السيد أحمد صقر [1] ، وذلك لاختلاف أسلوبها عن أسلوب ابن قتيبة .

لقد كان ابن قتيبة واحداً من كبار المصنفين في القرن الثالث الهجري ، أغنى المكتبة العربية بآثاره القيّمة التي مثّلت ثقافة العصر الموسوعية ، واتجاهاتها المتنوعة ، وأبرزت في الوقت نفسه اتساع دائرة ثقافة ابن قتيبة ، ونضج تكوينه الفكري .

ولا شك أنَّ ما وصلنا من آثاره لا يمثِّل نتاجه كاملاً ، فقد ضاع كثيرٌ من كتبه ، وما وصلنا منها . . يُمثّل فكر ابن قتيبة ، ويُثبِّتُ قدرته على التأليف في مختلف العلوم والآداب والفنون ، فقد ألَّف في علوم القرآن والحديث والفقه والقراءات القرآنية والعقائد الدينية ، وألّف في مجال النقد والأدب والشعر وعلوم اللغة ، وألّف في مجال الاجتماع والسياسة والتاريخ ، وألّف في علم الفلك والأنواء .

وعرف الناس قيمة كتبه ، وتدارسوها وأعجبوا بها في كل زمان ، نظراً لما توافر لابن قتيبة من فكر مرتَّب ، وذوق مصفًّى ، وذهن متوقّد مكّنه أن يؤلف كتباً امتازت بالأصالة والجِدة ، والطرافة والدّقة ، وحسن الترتيب والتنظيم ، فكانت لوناً جديداً خلا من الشوائب والاستطراد والتخليط ، ومساوئ التأليف والتصنيف . وقال الخطيب البغدادي [2] : "وهو

(1) تأويل مشكل القرآن، مقدمة المحقق/ 35–32 .

(2) تاريخ بغداد 170/10 .

صاحب التصانيف المشهورة ، والكتب المعروفة " . وقال القفطي : "هو صاحب التصانيف الحسان في فنون العلم ... وكان ثقة ديناً فاضلاً ، صادقاً فيما يرويه ، كثير التصنيف والتأليف "[1] .

(1) إنباه الرواة 143/2 .

الباب الثاني

آثاره اللغوية : موضوعاتها ومناهجها

الفصل الأول :

جهود ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن وتأويل مشكله .

الفصل الثاني :

جهود ابن قتيبة في تفسير غريب الحديث وتأويل مختلفه .

الفصل الثالث :

جهود ابن قتيبة في شرح غريب الشعر ونقده .

الفصل الرابع :

جهود ابن قتيبة في أدب الكاتب .

تفسير غريب القرآن وتأويل مشكله

جهود ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن وتأويل مشكله

أ) تمهيد: تفسير غريب القرآن :

نزل القرآن بلغة عربية تتجلّى فيها أفصح اللهجات وأعلاها ، وكانت هذه اللغة المتخَيِّرة المتمثلة لخصائص العربيّة في بواديها وحواضرها وقبائلها قد توحدت عند نزول القرآن . . . لكنهم لمكانة قريش والحجاز – دينياً ، وجغرافياً ، وتجارياً – رأوا أن يكتب بلهجة قريش ، خشية الاختلاف ، وتفادياً لكتابته بلهجات محلية لا يعرفها العرب جميعاً . وتلك اللغة اجتمع العرب على وحدتها قبل الإسلام ، ثمّ مدّ القرآن أطنابها ورسخ جذورها ، فقد كان من إعجازه أن جاءهم بأفصح ما انتهت إليه لغات العرب جميعاً ، وقال أبو عبيدة : " إنما نزل القرآن بلسان عربي مبين" ، وتصديق ذلك في آية من القرآن : ﴿بلسان عربي مبين﴾[1] ، وفي آية أخرى : ﴿وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبيّن لهم﴾[2] . ولم يحتج السلف، ولا الذين أدركوا وجهه إلى أن يسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن معانيه، لأنهم كانوا عرب الألسن ، فاستغنوا بعلمهم عن معانيه ، وعمّا فيه ممّا في كلام العرب مثله في الوجوه والتلخيص، وفي القرآن مثل ما في الكلام العربي من وجوه الإعراب ، ومن الغريب والمعاني"[3] .

وقد أدرك العلماء في العصر الإسلامي الأول علاقة الألفاظ باللغة والقرآن والحديث ، ورأوا أنَّ في القرآن الكريم ألفاظاً اصطلحوا على تسميتها بالغرائب ، وليس المراد بغرائبها أنّها

---

(1) الشعراء / 195 .

(2) إبراهيم / 40 .

(3) مجاز القرآن 8/1 .

منكرة أو نافرة أو شاذة ، فإنّ القرآن منزّه عن هذا جميعه ، وإنما اللفظة الغريبة ههنا هي التي تكون حسنة مستغربة في التأويل ، بحيث لا يتساوى في العلم بها أهلها وسائر الناس .

واللفظة الغريبة في قبيلة قد تكون مألوفة في قبيلة أخرى ، وكذا الأمر في المكان والزمان فالغرابة هنا نسبيّة . وجملة ما عدُّوه من ذلك في القرآن كلِّه سبعمائة لفظة أو تزيد قليلاً ، ومنشأ الغرابة فيما عدوه من الغريب بأن يكون ذلك من لغات متفرقة ، أو تكون اللفظة الغريبة مستعملة على وجه من وجوه الوضع ، يخرجها مخرج الغريب، كالظلم، والكفر، والإيمان، ونحوها ممّا نقل عن مدلوله في لغة العرب إلى المعاني الإسلامية المحدثة ، وقال أبو حاتم الرازي (–322هـ) : إنّ الأسماء التي هي مشتقة من ألفاظ العرب، ولم تعرف قبل ذلك مثل : المسلم ، والمؤمن، والمنافق ، والكافر ، لم تكن العرب تعرفها ، لأنّ الإسلام، والإيمان ، والنفاق ، والكفر، ظهر على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما كانت العرب تعرف الكافر ، كافر النعمة، لا تعرفه من معنى الكفر بالله . . . وكانت تعرف المؤمن من جهة الأمان ، أمّا المنافق فإنّه لا ذكر له في كلام العرب . . . فهذه الكلمات كلها ظهرت في الإسلام على لسان محمد صلى الله عليه وسلم بلسان عربي مبين ، ولم تكن لسائر الأمم على هذا النظم العجيب والاختصار الحسن ، فلمّا وردت عليهم، اضطروا إلى قبولها وتدوينها ، والإقرار بفضلها [1] " .

وكان الصحابة – رضي الله عنهم – يسمّون فهم هذا الغريب (إعراب القرآن)، لأنهم يستبينون معانيه ويخلصونها . وقد عدَّ العلماء من غير لغات العرب أكثر من مائة لفظة، ترجع إلى لغات الفرس والروم والنبط والحبشة والبربر والسريان والعبران والقبط، وهي كلمات أخرجتها العرب على أوزان لغتها، وأجرتها في فصيحها، فصارت بذلك عربية [2] . وقال أبو حاتم الرازي في باب (الأسماء الأعجمية في القرآن) : " فمنها ما هي قديمة في

(1) الزينة / 1 / 140، 141، 146، 147، 150، 152 .

(2) إعجاز القرآن : مصطفى صادق الرافعي / 74 وما بعدها .

كلام العرب، اشتقاقاتها معروفة، ومنها أسام دلَّ عليها النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الشريعة، ونزل بها القرآن، فصارت أصولاً في الدين وفروعاً في الشريعة، لم تكن تعرف من قبل ذلك، وهي مشتقة من ألفاظ تعرفها العرب، وأسام جاءت في القرآن، لم تكن العرب تعرفها، ولا غيرها من الأمم مثل : تسنيم[1]، وسلسبيل[2]، وغسلين[3]، وسجين[4]، والرقيم[5]، وغير ذلك[6].

وراح العلماء يبحثون في هذه الألفاظ ليتحققوا أعربية هي أم أعجمية ؟ وكانت لهم في ذلك آراء مختلفة، لا يتسع مجال بحثنا لبسط القول فيها ، كما أدركوا صلة الدراسات اللغوية بالقرآن الكريم وعلوم الدين، فبادروا إلى تفسير غريب القرآن، والاستشهاد له بالشعر، وانكبوا على تعلم العربية خدمة للقرآن العظيم ولغته، وعن يحيى بن عتيق[7] قال : سألت الحسن[8]، فقلت : الرّجل يتعلم العربية يلتمس بها المنطق، ويقيم بها قراءته .

---

(1) تسنيم : قوله تعالى : (ومزاجه من تسنيم، عيناً يشرب بها المقربون) المطففين 28. وتسنيم : عين في الجنة، وتسنَّم الشيء : علاه . اللسان مادة (سنم) .

(2) السلسبيل : السهل المدخل في الحلق، قال ابن الأعرابي : "لم أسمع السلسبيل إلا في القرآن" . ينظر المعرَّب للجواليقي / 189من قوله (عيناً فيها تُسمى سلسبيلا) .الإنسان (الدهر) / 18 .

(3) قوله تعالى : (ولا طعام إلا من غسلين لا يأكله إلا الخاطئون) الحاقة / 36/37. وقيل : غسلين : شديد الحر .

(4) قوله تعالى : (كلا إن كتاب الفجار لفي سِجِّيْن) . المطففين / 7. سجِّين : فعِّيل من السجن والسجين .

(5) قوله تعالى (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) . الكهف / 9. والرقيم : لوح كتبت فيه أسماؤهم .

(6) الزينة : 1/ 141.

(7) يحيى بن عتيق الطفاوي البصري، روى عن مجاهد ومحمد بن سيرين والحسن، وعنه الحمَّادان وعبد العزيز بن المختار وغيرهم، وثَّقه أحمد وابن معين وأبو حاتم وابن سعد والنسائي . ينظر طبقات ابن سعد 7/ 192.

(8) الحسن البصري الإمام، هو الحسن بن أبي الحسن، واسم أبيه يسار مولى الأنصار، واسم أمه خيرَة، مولاة لأم سلمة، توفي سنة (110هـ) . ينظر الفرّاء / 1074.

ب - كتاب غريب القرآن لابن قتيبة

يعد الكتاب خلاصة لما تقدمه من كتب تفسير غريب القرآن، فقد تضمن آراء من سبقه من علماء اللغة الذين اجتهدوا في مجال الدراسات القرآنية، وقال ابن قتيبة في مقدمة الكتاب :

"وكتابنا هذا مستنبط من كتب المفسرين، وأصحاب اللغة العالمين، لم نخرج فيه عن مذاهبهم ولا تكلفنا في شيء منه بآرائنا غير معانيهم، بعد اختيارنا في الحرف أولى الأقاويل في اللغة، وأشبهها بقصة الآية" [1].

فقد أخبرنا ابن قتيبة أن كتابه مستنبط من كتب المفسرين وأصحاب اللغة العالمين، وأنه لم يخرج فيه عن مذاهبهم ومعانيهم، ولم يتكلف في شيء فيه إلاّ الإفصاح عن ألفاظهم بلفظه، واختياره في تأويل الحرف أولى الأقوال في لغة العرب ويُعلّل منهجه بأنه لن يورد ألفاظ العلماء السابقين بأعيانها وأن لا يستشهد على اللفظ المتداول وقال : " وغرضنا الذي امتثلناه في كتابنا هذا أن نختصر ونكمل وأن نوضح ونجمل وأن لا نستشهد على اللفظ المبتذل، ولا نكثر الدلالة على الحرف المستعمل، وأن لا نحشو كتابنا بالنحو والأحاديث والأسانيد [2]" .

فقد اتسم الكتاب بالإيجاز، إذ قصر كتابه على تفسير غريب القرآن دون تأويل مشكله وقال : "نفتتح كتابنا هذا بذكر أسمائه الحسنى، وصفاته العلا، فنخبر بتأويلها واشتقاقهما ونتبع ذلك ألفاظاً كثر تردادها في الكتاب، . ثم نبتدئ في تفسير غريب القرآن دون تأويل مشكله، إذ كنا قد أفردنا للمشكل كتاباً جامعاً كافياً .... [3]" .

وقد سلك ابن قتيبة منهجاً سهلاً واضحاً في تناوله ألفاظ القرآن وتفسيرها، والتزم

---

(1) تفسير غريب القرآن / 4.

(2) نفسه/ 3.

(3) نفسه / 3.

بشرح الألفاظ التي اعتقد أنّها غريبة، وكان شرحه متفاوتاً بين الطول والقصر، فكان لا يتجاوز شرح الكلمة بمرادفها، كما في قوله تعالى : ﴿حتى يأتيك اليقين﴾ [1] ، أي الموت[2]. وقوله تعالى : ﴿ لو أنّ لنا كرَّة ﴾ [3] أي رجعة [4]. وقوله تعالى ﴿معاجزين﴾ [5] أي مسابقين [6]، وأحياناً تبلغ الصفحة الكاملة كما في قوله تعالى ﴿ كيف ننشزها ﴾ [7]، فقد أفاض في شرحها، وذكر القراءات القرآنية وبيّن معانيها ونسبها إلى أصحابها، وردّ الآراء إلى قائليها، وقال :" بالراء أي نحييها، يقال : أنشر الله الميت فنشر وقال : ﴿ ثم إذا شاء أنشره﴾ [8] ، ومن قرأ (ننشزها) بالزاي ، أراد نحرك بعضها إلى بعض ونزعجه، ومنه يقال: نشز الشيء ونشزت المرأة على زوجها، وقرأ الحسن " ننشرها " كأنه من النشر عن الطي، أو على أنه يجوز : أنشر الله الميت ونشره، إذا أحياه) .

وكان يستشهد على ألفاظ القرآن الكريم بالحديث الشريف، ومثال ذلك شرحه معنى كلمة " يَغِل" في قوله تعالى : ﴿ وما كان لنبي أن يَغُلَّ ﴾ [9]، أي يخون في الغنائم ﴿ومن يَغْلُل يأت بما غلَّ يوم القيامة﴾ معناه قول النبي صلى الله عليه وسلم " لا أعرفن أحدكم يوم القيامة على عنقه شاة لها ثغاء، لا أعرفن كذا، لا أعرفن كذا، فيقول : يا محمد، فأقول : لا أملك لك شيئاً، قد بلغت " ، يريد : أنّ من غلَّ شاة أو بقرة أو ثوباً أو

---

(1) الحجر : 99.

(2) تفسير غريب القرآن : 240.

(3) البقرة : 167.

(4) تفسير غريب القرآن : 68.

(5) الحج : 51.

(6) تفسير غريب القرآن / 294.

(7) البقرة : 259.

(8) عبس : 22.

(9) آل عمران : 161.

غير ذلك أتى يوم القيامة يحمله ومن قرأ " يُغَلَّ " أراد يُخَان، ويجوز أن يكون في معنى يُلفى خائناً . يقال : أغللت فلاناً ، أي وجدته غالاً، كما يقال : أحمقته : وجدته أحمق، وأحمدته : وجدته محموداً . وقال الفرّاء : من قرأ " يُغَلّ " أراد يُخَوَّن ، ولو كان المراد هذا المعنى لقيل : يُغَلَّلُ، كما يقال : يُفَسَّق ويُخَوَّن ويُفجَّر [1]" .

إنّ ابن قتيبة يفسّر القرآن بالقرآن، مستشهداً على ما يقول بآيات القرآن نفسها، وبالشعر، كما في (السلام) [2]، فقال في باب (أسماء الله الحسنى وصفاته العلا) : ومن صفاته : "السلام" قال : (السلام المؤمن المهيمن) . ومنه سمّي الرجل : عبد السلام ، كما يقال: عبدالله، ويرى أهل النظر من أصحاب اللغة أن السلام بمعنى السلامة،كما يقال : الرَّضاع والرَّضاعة، واللّذاذ واللذاذة . قال الشاعر :

تحيّي بالسلامة أمُ بكر فهل لك، بعد قولك، من سلام؟

فسمّى نفسه – جل ثناؤه – " سلاماً " لسلامته ممّا يلحق الخلق من العيب والنقص والفناء والموت " [3] .

ونقل ابن قتيبة بالمعنى حين أورد آراء العلماء وقد أشار إلى ذلك عند نقله عن الفرّاء "وهذا معنى قوله، وليس هو بعينه" [4]، ولكنه لم يقف موقف المستسلم العاجز من الآراء التي ذكرها، بل كان يبدي رأيه بموافقته أو مخالفته لهم، معزّزا لما يذهب إليه بالشواهد، من ذلك ما ذكره في تفسير قوله تعالى : ﴿ وكلّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه ﴾ [5]. قال أبو عبيدة : حظّه، وقال المفسرون : ما عمل من خير وشر ألزمناه عنقه، وهذان التفسيران يحتاجان إلى تبيين، والمعنى فيما أرى – والله أعلم – أنّ لكل امرئ حظاً من الخير والشر قد

(1) تفسير غريب القرآن/ 6.

(2) نفسه : 6.

(3) نفسه / 6.

(4) نفسه : 482.

(5) الإسراء : 13.

قضاه عليه فهو لازم عنقه .. والمعنيان جميعاً سواء، لأنّ العرب تقول – جرت له طير الشمال، فالطير جماعة، والطائر واحد [(1)]" .

وقد يرجّح أحد المعنيين بعد أن يقارب ويوازن ويصرح بما يمليه عليه حسه اللغوي السليم كما في قوله تعالى : ﴿ وكأس من معين، لا يصدّعون عنها [(2)] ﴾ . وكان بعضهم يذهب في قوله : ﴿ لايصدّعون ﴾ إلى أنَّ معناه أي لا يتفرقون عنها، من قولك : صدعته فانصدع، ولا أراه إلاّ من الصداع الذي يعتري شُرَّاب الخمر في الدنيا، لقول النبي صلى الله عليه وسلم في وصف الجنة : " وأنهار من كأس ما إن بها صداع ولا ندامة [(3)]" .

وكان ابن قتيبة ينص في تفسيره على ذكر الصواب، ويخطّئ أقوال بعض العلماء، ومن ذلك تفسير الفرّاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ بطائنها من استبرق [(4)] ﴾ .

قال الفرّاء : قد تكون البطانة ظهارة والظهارة بطانة، وذلك أنّ كل واحد منهما قد يكون وجهاً ... وهذا أيضاً من عجب التفسير، كيف تكون البطانة ظهارة ؟ والظهارة بطانة ؟ ، والبطانة ما بطن من الثوب، وكان من شأن النّاس إخفاؤه، والظهارة ما ظهر منه، وكان من شأن الناس إبداؤه [(5)] .

وكان يقلب التفاسير المختلفة، ولا يرجح أحد المعنيين عندما يرى أنهما متقاربان من ذلك قوله : " لَتُبْلَوُنَّ ... أي : لتختبرُنَّ، ويقال : لتصابُنَّ، والمعنيان متقاربان [(6)]" . كما كان يذهب إلى قبول جميع الآراء ولم يعترض على أحدها، لأنه اختار أولى الأقاويل في

---

(1) تفسير غريب القرآن : 252 .

(2) الواقعة : 18-19 .

(3) تفسير غريب القرآن : 447 .

(4) الرحمن : 54 .

(5) تفسير غريب القرآن 441 .

(6) نفسه : 117 .

اللغة من ذلك قوله : " الفوم فيه أقاويل"، يقال : هو الحنطة، والخبز معاً، ويقال الفوم : "الحبوب[1]" .

ومن ذلك قوله : " الصُّور، قال أبو عبيدة : وهو جمع صُورَة ، وقال غيره : الصُّور : القرآن بلغة قوم من أهل اليمن[2]" .

ومن ذلك قوله : (ن) . قال قتادةُ والحسن : هي الدواة، ويقال : الحوت تحت الأرض" [3] .

وكان أحياناً لا يقف عند لفظة بعينها في الآية، وإنما يضيء معناها العام، من ذلك تفسير قوله تعالى : ﴿ وإن هذا صراطي مستقيماً فاتَّبِعُوهُ ولا تتبِّعوا السبل ﴾[4] .

يريد بالسبل التي تعدل عنه يميناً وشمالاً[5]" . ومن ذلك تفسير قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلاّ الله[6] ﴾ ، أي أمرناهم بذلك فقبلوه، وهو أخذ الميثاق عليهم[7]" .

وكان ابن قتيبة يعلل تسمية المسمّى حين يفسر بعض الألفاظ، كقوله في سبب تسمية الريح : " الحاصب : الريح، سميت بذلك : لأنها تحصب، أي ترمي بالحصباء، وهي : الحصى الصغار" [8] . وكقوله في الجن : إنَّما سُمُّوا جنًّا لاستتارهم عن أبصار الإِنْس[9]" .

---

(1) نفسه : 51 .

(2) نفسه : 25 .

(3) نفسه 277 .

(4) الأنعام : 153 .

(5) تفسير غريب القرآن : 163 .

(6) البقرة : 83 .

(7) تفسير غريب القرآن : 86 .

(8) نفسه : 259 .

(9) نفسه : 21 .

و"سـمي الإنس إنسـاً : لظهـورهم، وإدراك البـصـر إيّاهم[1]" و " الثَّـقـلان : يعني : الجنّ والإنس، سُمِّيا بذلك : لأنهما ثقل الأرض، إذ كانت تحملهم أحياءً وأمواتاً "[2].

كما كان يذهب في تفسيره ألفاظ القرآن إلى الكشف عن المعنى الأصلي للألفاظ قبل أن تخضع لعوامل التطور الدلالي، من ذلك قوله : " أصل الإلحاد : الميل[3]" ، و" أصل الإيمان : التّصديق[4]" ، و " أصل الحرج : الضيق[5]" و " اللعن في اللغة أصله : الطرد[6]

ويفسر الألفاظ المعرّبة في القرآن، وينص على أصلها، من تفسير قوله تعالى : ﴿ بحجارة من سجيل ﴾[7] ، يذهب بعض المفسرين إلى أنّها سنْك وكِلْ بالفارسيّة[8].

ويفسر الألفاظ القرآنية التي ذكرت على سبيل المجاز، من ذلك تفسير قوله تعالى : ﴿ فما ربحت تجارتهم ﴾[9]" ، والتجارة لا تربح، إنما يُرْبَحُ فيها، وهذا على المجاز[10]"

وينص على اختلاف دلالات الألفاظ بسبب اختلاف الحركات، من ذلك قولـه: "الكَرْه، الإكراه والقهر" ، فأمَّا الكُرْه بالضم فبمعنى : المشقّة[11]" . وقولـه: "الجُهْد : الطاقة، والجَهْد : المشقة[12]" . وقوله " الوَقْرُ : الصَّمَمُ، والوِقْرُ : الحِمْلُ على

(1) نفسه 21 .

(2) نفسه : 22 .

(3) نفسه : 249 .

(4) نفسه : 9 .

(5) نفسه : 165 .

(6) نفسه : 165 .

(7) هود : 82 .

(8) تفسير غريب القرآن 207 .

(9) البقرة : 16 .

(10) تفسير غريب القرآن : 42 .

(11) نفسه : 122 .

(12) نفسه : 190 .

الظّهر[1]". وقوله: والهَوْن بفتح الهاء الرّفق، قال اللـه تعالى جلّ وعزّ: ﴿وعباد الرَّحمن الذين يمشون على الأرض هَوْناً﴾[2]، فإذا ضممت الهاء فهو الهوان، قال اللـه تعالى: ﴿عذاب الهُون﴾[3]". ويفسر الألفاظ القرآنية التي ذكرت على سبيل إحلال صيغة محلّ أخرى، من ذلك مجيء المفعول به على لفظ الفاعل، كقوله تعالى: ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾[4] أي لا معصوم من أمره، وكقوله تعالى: ﴿من ماء دافق﴾[5]، أي مدفوق، وكقوله تعالى: ﴿في عيشةٍ راضية﴾[6] أي مرضي بها، وكقوله تعالى: ﴿أو لم يروا أنّا جعلنا حرماً آمناً﴾[7]، أي مأموناً فيه[8]. ومن ذلك ما جاء من أسماء الله الحسنى وصفاته على فعيل بمعنى فاعل نحو، قدير وبصير وسميع وحفيظ وشهيد وعليم ورقيب وكفيل وخبير وحكيم ومجيد .... ومنهج ابن قتيبة منهج لغوي، فهو يفسِّر الألفاظ لغوياً، ويستشهد عليها بالشعر والحديث والمثل وكلام العرب، كما يفسرها قرآنياً ويستشهد بأقوال المفسرين المشهورين[9].

ب - تأويل مشكل القرآن:

استرعى انتباه علماء التفسير قوله تعالى: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب، منه آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أمُّ الكتاب، وأُخَرُ متشابهات، فأمّا الذين في قلوبهم زيغٌ فيتبعون ما تشابه

---

(1) نفسه: 152.

(2) الفرقان: 63.

(3) الأنعام: 93. وينظر غريب القرآن: 315.

(4) هود: 43.

(5) الطارق: 6.

(6) الحاقة: 21، والقارعة: 7.

(7) العنكبوت: 67.

(8) تفسير غريب القرآن: 204، 257.

(9) نفسه: 71، 259، 412، 526 (على سبيل المثال).

منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلاّ الله، والرّاسخون في العلم يقولون آمنّا به ، كلٌّ من عند ربّنا، وما يذّكّر إلا أولو الألباب ﴾ [1].

وقد حمل ذكر المحكم والمتشابه العلماء على وضع مؤلّفات كثيرة في هذا العلم، لبيان معاني بعض آياتٍ من الكتاب الكريم، وهم متفقون على أنّ المحكم من الآيات هو الذي يدل على معناه بوضوح لاخفاء فيه، ولذلك لم يبحثوا فيه، لأنّ قراءته كافية لفهم المراد منه، أمّا المتشابه فهو الذي يخلو من الدلالة الراجحة على معناه، ويدخل في المتشابه المجمل والمؤول والمُشْكِل ، لأنّ المُجمَل يحتاج إلى تفصيل، والمؤوَّل لا يدل على معنى إلا بعد التأويل والمُشْكل خفيٌّ الدّلالة، فيه لبس وإبهام .

وقد حفز اشتمال القرآن على المتشابه العلماء على الاشتغال بالعلوم الكثيرة التي تمكّنُهم من فهم الآيات المتشابهات، فجدُّوا في بيان معانيها، وتوضيح مشكلاتها اللغوية والنحوية والصرفيه، وشرح ألفاظها الغامضة، ومفرداتها الغريبة، وإزالة الغموض من متشابهها، وتأخذ هذه المؤلفات من كلٍّ علم بطرف، فهي آخذةٌ من اللغة بطرف، ومن التفسير وبيان الأحكام بطرف، ولا تستقصي هذه المؤلفات تفسير آيات القرآن آية آية .

ولقد سبق إلى التأليف في تأويل مشكل القرآن قبل ابن قتيبة عددٌ من العلماء اللغويين، منهم واصل بن عطاء (– 131هـ [2]) ، ويونس بن حبيب (– 182هـ [3]) ، وأبو جعفر محمد بن الحسن الرؤاسي(-187 [4]) والكسائي (-189 [5])، وأبو فيد مؤرّج السدوسي

(1) آل عمران / 7.

(2) وفيات الأعيان 6/ 11 .

(3) الفهرست / 55/ وذكر أنّ له كتابين : صغير وكبير .

(4) نفسه / 55. ومعجم الأدباء 18/ 125. وإنباه الرواة/ 51 .

(5) نفسه / 55 وذكر المحقق أن مخطوط الكتاب موجود، ينظر الحاشية (135) من الصفحة نفسها، ينظر معجم الأدباء 13/ 202.

(– 195هـ[1])، وأبو محمد اليزيدي (– 202هـ[2]) . وقطرب (– 206هـ[3])، والفرّاء (–207هـ[4]) ، وأبو عبيدة (–211هـ[5]) ، والأخفش (–215هـ[6]) وأبو عبيد القاسم بن سلاّم (–224هـ[7]) .

ومن تلك المؤلفات وصلت كتب معاني القرآن للفرّاء، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ومعاني القرآن للأخفش، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة .

تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة :

هدف ابن قتيبة من تأليف كتابه إلى الرد على الملحدين الذين اعترضوا كتاب الله بالطعن والتحريف واللغو فقال : " فأحببت أن أنفح عن كتاب الله، وأرمي من ورائه بالحجج النيّرة والبراهين البيّنة، وأكشف للناس ما يلبسون، فألّفت هذا الكتاب جامعاً لتأويل مشكل القرآن[8]" .

وقد عرض لما صنع مرّة أخرى، بعد أن شرح معنى المتشابه والمشكل فقال : " وأصل التشابه أن يشبه اللفظُ اللفظَ في الظاهر، والمعنيان مختلفان . . . ومنه يقال : اشتبه عليّ الأمر، إذ أشبه غيره، فلم تكد تفرّق بينهما، وشبّهت علي : إذ لبّست الحقَّ بالباطل، ثم

---

(1) نفسه / 55 وفيات الأعيان 5/ 304.

(2) نفسه / 55. وتنظر ترجمته في وفيات الأعيان 6/ 183 .

(3) الفهرست : 129، إنباه الرواة : 3/220، معجم الأدباء : 19/53، طبقات المفسرين 1/ 35.

(4) طبقات المفسرين للداودي : 2/326، والكتاب مطبوع ، بتحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار (1955-1973)، في القاهرة .

(5) بغية الوعاة : 2/ 295. وكتابه مطبوع، بتحقيق، محمد فؤاد سزكين، ونشرته مكتبة الخانجي بمصر سنة 1954 .

(6) طبقات المفسرين للداودي : 1/35، والكتاب مطبوع، نشره فائز فارس : الكويت، المطبعة العصرية، 1979 .

(7) بغية الوعاة/ 376. وإنباه الرواة/ 110 .

(8) تاويل مشكل القرآن : 23.

يقال لكل ما غمض ودقّ : متشابه، وإن لم تقع الحيرة فيه من جهة الشبه بغيره، ومثل المتشابه : المشكل، وسمّي مشكلاً لأنه أشكل، أي دخل في شكل غيره، فأشبهه وشاكله، ثم يقال لما غمض، وإن لم يكن غموضه من هذه الجهة : مشكل . وقد بينت ما غمض من معناه، لالتباسه بغيره، واستتار المعاني المختلفة تحت لفظه، وتفسير المشكل الذي ادُّعي على القرآن فساد النظم فيه [(1)]" .

بدأ ابن قتيبة كتابه بالحكاية عن الطاعنين، فسرد مطاعنهم على اختلاف أنواعها، ثم عقد أبواباً للرد عليهم في وجوه القراءات، وقال : " أمّا ما اعتلّوا به في وجوه القراءات من الاختلاف، فإنّا نحتج عليهم فيه بقول النبي صلى الله عليه وسلم : " نزل القرآن على سبعة أحرف، كلها شافٍ كافٍ، فاقرؤوا كيف شئتم " ، وإنما تأويل قوله : " نزل القرآن على سبعة أحرف " على سبعة أوجه من اللغات متفرقة في القرآن، يدلك على ذلك قوله رسول الله صلى الله عليه وسلم " فاقرؤوا كيف شئتم [(2)]" .

وعقد ابن قتيبة في كتابه أبواباً للرَّدِّ على الطاعنين، وما ادّعوه على القرآن من اللحن، وما نحلوه من التناقض والاختلاف بين آيه، وما قالوه في المتشابه، كما أجاب عن قولهم : ماذا أراد بإنزال المتشابه في القرآن، من أراد لعباده الهدى والبيان ؟ . .

ثم ذكر بعد ذلك أبواب المجاز، لأنَّ أكثر غلط المتأوِّلين كان من جهته، وبسببه تشعبت الطُّرق، واختلفت النحل . وقد بدأ بباب الاستعارة، ثم باب المقلوب، وباب الحذف والاختصار وباب تكرار الكلام والزيادة فيه، وباب الكناية والتعريض، وباب مخالفة ظاهر اللفظ معناه . ثم ذكر باب الأبواب في الكتاب، وهو باب تأويل الحروف التي ادُّعي على القرآن بها الاستحالة وفساد النظم، فتحدث عن الحروف المقطّعة، واختلاف المفسّرين فيها، ثم خلص من الكلام عليها إلى الكلام على مشكل سور القرآن، فذكر ما في السورة منه ثم

(1) نفسه : 101و 102.

(2) تأويل مشكل القرآن : 33و 34.

أوّلَه، ولكنه لم يرتّب السور على حسب ترتيبها المعروف في الصحف، بل ذكرها حسبما عَنَّ له من مشاكلها، وقد لا يستوفي الكلام على مُشْكِلاتِ السورة التي يذكرها، فيعيد ذكرها مرّة أو مرّات، مثلما فعل في سورة البقرة، وسورة الأنعام، وسورة النحل، وسورة النساء .

والسورة الوحيدة التي استوفى تأويلها، وشرحها كلّها - من بين السور التي ذكرها - هي سورة الجن، لما فيها من إشكال وغموض، بما وقع فيها من تكرار " إنَّ " واختلاف القرَّاء في نصبها وكسرها، واشتباه ما فيها من قول الله وقول الجن .

وبعد أن فرغ ابن قتيبة من تأويله لمشكل السور التي ذكرها، عقد باباً عظيم القدر بالغ الأهمية، وهو " باب اللفظ الواحد للمعاني المختلفة " تحدث فيه عن نيّف وأربعين لفظاً من الألفاظ التي جاءت في القرآن متحدة المباني، مختلفة المعاني، كالقضاء، والبلاء، والأمة والرؤية، والإمام، والإسلام، والفتنة، والسلطان، والضلال، والنسيان، والحساب، والكتاب .

ثم ذكر بعد ذلك " باب تفسير حروف المعاني، وما شاكلها من الأفعال التي لا تتصرَّف" كأيْن، وأنّى، ولولا، ولوما، ولا جَرَمَ، وتعالى، وهلمَّ، ورويدا، ولَدْن . . .

ثم ختم ابن قتيبة كتابه بباب دخول بعض حروف الصفات مكان بعض " . ويمكننا أن نحدد منهجه في تناوله الآيات التي أراد الكشف عن معانيها، وشرحه الألفاظ بما يأتي :

نجد ابن قتيبة كثيراً ما يشرح الآية التي رأى أنها مشكلة شرحاً مطوّلاً، يزيل كُلَّ لَبْسٍ أو غموض يكتنف معناها، من ذلك تفسير قوله تعالى : ﴿ قل إنما أعِظُكُمْ بواحدة، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنَّةٍ إنْ هو إلا نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد ﴾[1] . تأويله أنَّ المشركين قالوا : إن محمداً مجنون وساحر، وأشباه هذا من خَرَصهم، فقال الله جلَّ وعزَّ لنبيِّه : قل لهم : اعتبروا أمري بواحدة، وهي أن تنصحوا لأنفسكم، ولا

(1) سبا : 46، وينظر تاويل مشكل القرآن : 311 .

يميل بكم هوى عن حق، فتقوموا لله وفي ذاته، مقاماً يخلو فيه الرَّجل منكم بصاحبه فيقول له : هَلُمَّ فلنتصادق، هل رأينا بهذا الرجل جنَّة قط أو جربنا عليه كذباً ؟ فهذا موضع قيامهم مثنى .

ثم ينفرد كل واحد عن صاحبه فيفكر وينظر ويعتبر، فهذا موضع قيامهم فرادى، فإنَّ في ذلك ما دلهم على أنَّه نذير .

وكل من تحيَّر في أمر قد اشتبه عليه واستبهم، أخرجه من الحيرة فيه، أن يسأل ويناظر ثم يفكِّر ويعتبر"[1] .

ونجده أحياناً يشرح الآية شرحاً موجزاً ويختار اللفظة التي يعتقد أنها سبب اللبس، فيفسرها بما يتفق مع سياق المعنى الذي توحي به الآية، من ذلك تفسير قوله تعالى : ﴿ قد نعلم إنه ليحزُنك الذي يقولون، فإنهم لا يُكذّبونك، ولكنَّ الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾[2] يريد : أنهم كانوا لا ينسبونك إلى الكذب ولا يعرفونك به، فلمَّا جئتهم بآيات الله، جحدوها، وهم يعلمون أنك صادق .

والجَحْدُ يكون ممن علم الشيء فأنكره، يقول الله عزّ وجلّ : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعُلّواً ﴾[3] .

ونجد ابن قتيبة يذكر في شرح الآية وتأويل مشكلها قولين أو أكثر، ويرتضي جميع الآراء التي تحتملها الآية، ولا يقطع برأي خاص به، ولكنه يختار أولى الأقاويل في اللغة، من ذلك ما ذكره في تأويل قوله تعالى : ﴿ حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كُذّبوا جاءهم نصرنا فَنُجّي من نشاء ﴾[4] .

(1) تأويل مشكل القرآن : 311و 312 .

(2) الأنعام : 33 .

(3) النمل : 14 .

(4) يوسف : 110 .

قد تكلم المفسرون في هذه الآية بما فيه مقْنَعٌ وغناء عن أن يوضح بغير لفظهم . . . " . وبعد أن ذكر تفاسيرهم وعلّق عليها مقارناً وموازناً ومرجّحاً قال :

" وهذه مذاهب مختلفة، والألفاظ تحتملها كلها، ولا نعلم ما أراد الله عزَّ وجل، غير أنَّ أحسنها في الظاهر، وأولاها بأنبياء الله – صلوات الله عليهم – ما قالت أم المؤمنين عائشة "رضي الله عنها"[1] .

وقد يرجّح أحد المعنيين، بما يراه ملائماً لتأويل مشكل الآية، من ذلك تفسير قوله تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء، ومن رزقناه مِنّا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سرّاً وجهْراً ﴾[2] .

هذا مثلٌ ضربه الله لنفسه ولمن عُبِدَ دونه، فقال ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ﴾. فهذا " مثل مَنْ جُعِلَ إلهاً دونه أو معه " لأنه عاجز، مدبر، مملوك لا يقدر على نفع ولا ضرّ .

ثم قال : ﴿ ومن رزقناهُ منّا رزقاً حسناً، فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون ﴾ ؟ فهذا " مثله جلّ وعزّ " ، لأنه الواسع الجواد القادر الرّازق عباده جهراً من حيث يعلمون، وسراً من حيث لا يعلمون .

وقال بعض المفسرين : هو " مثلٌ للمؤمن والكافر " فالعبد هو الكافر، والمرزوق هو المؤمن . والتفسير الأول أعجب إليَّ[3]" ويخطّئ بعض أقوال المفسرين ويردُّها، من ذلك تفسير قوله تعالى : ﴿ قل إن كان للرحمن ولدٌ فأنا أول العابدين ﴾[4] .

---

(1) تأويل مشكل القرآن : 410-412.

(2) النحل : 75.

(3) تأويل مشكل القرآن : 384، 385.

(4) الزخرف : 81.

لمّا قال المشركون : لله ولد، ولم يرجعوا عن مقالتهم بما أنزله الله على رسوله، عليه السلام، من التبّرؤ من ذلك، قال الله سبحانه لرسوله عليه السلام : (قل) لهم (إن كان للرحمن ولدٌ) أي: عندكم في ادِّعائِكُمْ . (فأنا أول العابدين) أي : أول الموحدين، ومن وحّد الله فقد عبده، ومن جعل له ولداً أو نِداً فليس من العابدين، وإن اجتهد . ومنه قوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون ﴾[1]، أي إلاّ ليوحّدون .

قال " مجاهد " : يريد إن كان لله ولد في قولكم، فأنا أول من عبد الله ووحدَّه، وكذَّبكم بما تقولون . و " بعض المفسرين " يجعل " إنْ " بمعنى "ما" وليس يعجبني ذلك[2] . ومن ذلك معارضته تأويل بعض المفسرين الذين يلتمسون لألفاظ كتاب الله – جلّ ذكره – المخارج البعيدة بالحيل الضعيفة كتأولهم في قوله تعالى : ﴿ وعصى آدم ربَّه فغوى ﴾[3]، أي: بشم من أكل الشجرة . وذهبوا إلى قول العرب : غوى الفصيل إذا أكثر من اللبن حتى يبشم، وذلك غَوَى – بفتح الواو – يغوي غَيًّاً . وهو من البشم غَوِي – بكسر الواو – يغوى غَوَى " . . .

ونحن نقول : " عصى وغوى " كما قال الله تعالى، ولا نقول : آدم " عاصٍ ولا غاوٍ " لأنّ ذلك لم يكن من اعتقاد متقدم ولا نيّة صحيحة، كما تقول لرجل قطع ثوباً وخاطه قد قطعه وخاطه، ولا تقل : " خائط ولا خيّاط " حتى يكون معاوداً لذلك الفعل معروفاً به "[4]

فابن قتيبة يأخذ بظاهر النص أحياناً، ولا يخرج عن سنن العرب، ولا يحمل اللفظة ما لا تحتمل من التأويل، بل يفسر في حدود النص تفسيراً لغوياً محدوداً على قدر ما تسمح به معاني الألفاظ الظاهرة، ولا يحاول أن يبعد في التأويل، ويذكر أقوال المفسرين التي تتسق

---

(1) الذاريات : 56.

(2) تأويل مشكل القرآن : 373.

(3) طه : 121.

(4) تاويل مشكل القرآن : 402، 403.

مع تأويله، ويرتضيها ولا يعترض عليها، من ذلك تفسير قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظّل ﴾ [1] . قال : امتداد الظل ما بين طلوع الشمس، كذلك قال المفسرون ويدلك عليه أيضاً قوله في وصف الجنّة : ﴿ وظلٍّ ممدود ﴾ [2] . أي لا شمس فيه، كأنه ما بين هذين الوقتين [3]" .

وقد يكتفي ابن قتيبة بإعطاء فكرة عامّة عن الآية كلها، من ذلك تفسير قوله تعالى : ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنَّه فاتَّبعوه إلاّ فريقاً من المؤمنين ﴾ [4] . تأويله أن إبليس لمّا سأل الله تبارك وتعالى النَّظرَة فأنْظَرَه وقال : ﴿ لأتَّخِذَنَّ من عِبَادِكَ نصيباً مَفرُوضاً ولأُضِلنَّهُم وَلأُمَنِّيَهم ولآمُرنَّهم فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الأنعام ولآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ الله . . . ﴾ [5]" .

وقد يجمع ابن قتيبة بين إعطاء فكرة عامة عن الآية وشرح الألفاظ الغريبة فيها، من ذلك تفسير قوله تعالى : ﴿ أو كصَيِّبٍ من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق [6] ﴾، فالصَّيِّب : المطر، والظلمات : ظلمة الليل، وظلمة السحابة، والرعد : دليل على شدة ظلمة الصَّيِّب وهوله . أراد: أو مثل قوم في ظلمات ليل ومطر . فضرب الظلمات لكفرهم مثلاً، والبرق لتوحيدهم مثلاً . . . . [7]" .

ونرى ابن قتيبة يشير إلى سبب تسمية المسمَّى عندما يشرح بعض الآيات المشكلة من ذلك قوله : " وإنما سميت الإبل : صفراً ، لأنّه يشوب سوادها شيء من صفرة كما قيل

---

(1) الفرقان : 45.

(2) الواقعة : 30.

(3) تاويل مشكل القرآن : 314.

(4) سبأ : 20.

(5) النِّساء: 118-119. ينظر: تاويل مشكل القرآن 311.

(6) البقرة : 19.

(7) تاويل مشكل القرآن : 362.

لبيض الظِّباء : أدم، لأنّ بياضها تعلوه كُدْرَة[1]" .

ومثله السائق ههنا : قرينها من الشياطين، سمّي سائقاً لأنه يتبعها، وإن لم يحثها ويدفعها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسوق أصحابه أي يكون وراءهم[2]" .

ومثله أيضاً : " ومعاد الرجل : بلده، لأنه يتصرف في البلاد ... ثم يعود إلى بلده[3]" .

كما يشير إلى بيان أصل الألفاظ في الآية التي يُؤَوِّل مشكلها، من ذلك تفسير قوله تعالى : ﴿ كمثل غيث أعجب الكفّار نباته ﴾[4] ، فإنما يريد الكفّار ههنا : الزُّرّاع، واحدهم كافر، وإنما سمّي كافراً، لأنه إذا ألقى البذر في الأرض كفره، أي غطّاه، وكلُّ شيءٍ غطّيته فقد كفرته، ومنه قيل : تكفَّر فلانٌ في السلاح، إذا تغطّى، ومنه قيل لليل كافر، لأنه يستر بظلمته كلَّ شيء . ومنه قول الشاعر لبيد :

يعلو طريقة متنها متواتراً في ليلة كفر النُّجومَ غَمامُها[5]

أي غطّاها، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ يعجب الزُّرّاع ليغيظَ بهم الكفّار ﴾[6] .

ونرى ابن قتيبة مع أخذه في كثير من الآيات بظاهر المعنى، ونفوره من التأويل البعيد، ومن فرض الاحتمالات الأسلوبية، انطلاقاً من عقيدته ومناصرته لآراء أهل السّنة، نجده

(1) نفسه : 321.

(2) نفسه : 422.

(3) نفسه 425.

(4) الحديد : 20.

(5) أي يعلو طريقة متن هذه البقرة مطر تتابع . والطريقة : خطة مخالفة للونها . والمتنان : مكتنفا الظهر. وكفر: غطّى . يريد أنّها مظلمة، وقد غطى السحاب فيها النجوم " . البيت من معلقة لبيد، شرح القصائد العشر للتبريزي ص 147.

(6) الفتح : 29. وينظر تأويل مشكل القرآن : 76.

أحياناً يخرج عن تقليده، ويعارض بعض المفسرين والظاهريين من اللغويين في تحكمهم اللفظي، فالظاهرية – وهم أتباع الإمام داود بن علي الظاهري (–270هـ) – قد أنكروا المجاز في القرآن، لأنهم يأخذون بظاهر الكتاب والسنّة، ويعدُّون ذلك من السلامة في الدين، ولهذا لا يعترفون بالمجاز في القُرآن الكريم إذا غمض أو خفيت القرينة الدّالّة على المعنى المراد، لأنهم يأخذون بظواهر النصوص [1]، واتفقت كلمة العلماء على وقوع الحقيقة في القرآن الكريم، وأنَّ أكثره من الحقائق، والحقيقة عندهم الكلمة المستعملة في أصل وضعها اللغوي، أمَّا المجاز المقابل للحقيقة فلم يكن قبوله أمراً سهلاً عند جميع المسلمين، لذلك اختلفوا في وقوع المجاز في القرآن الكريم بين مُنْكِرٍ ومُجيزٍ تبعاً لاختلاف مذاهبهم، يقول الزركشي : "لا خلاف أنّ كتاب الله يشتمل على الحقائق، وهي كل كلام بقي على موضوعه ... وهذا أكثر الكلام ... وأمّا المجاز فاختلف في وقوعه في القرآن [2]" .

ويُعَّد المجاز القطب الذي تدور عليه قضية المشكل، والرأي عند ابن قتيبة أن المجاز واقع في القول، ولا سبيل إلى إنكاره، والمجاز واقع في القرآن الكريم، ويقولُ في ذلك : " وأمّا الطاعنون على القرآن بالمجاز، فإنهم زعموا أنّه كذب، لأنَّ الجدار لا يريد، والقرية لا تُسأل . وهذا من أشنع جهالاتهم، وأدَلِّها على سوء نظرهم، وقلة أفهامهم، ولو كان المجاز كذباً، وكلَّ فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلاً، كان أكثر كلامنا فاسداً، لأنّا نقول : نبت البقلُ، وطالت الشجرة، وأينعت الثمرة، وأقام الجبل، ورخص السعر" [3] .

ويرى ابن قتيبة أن القرآن نزل بلغة العرب، وأنَّ اللغة العربية فاقت جميع لغات العالم، بسحر البيان واتساع المجاز والتفنن في الأساليب، والمجاز ليس كذباً لوجود القرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقي، وليس عجزاً عن التعبير بالحقيقة، لأنَّها أصلٌ للمجاز ، وهو متفرّعٌ

---

(1) مقدمة تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرَّضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن : 56.

(2) البرهان في علوم القرآن للزركشي : 254و 255.

(3) تاويل مشكل القرآن : 132.

عنها، وكلاهما يكوّنان الأسلوب العربي البليغ الذي نزل به القرآن متحدّياً به أرباب البيان وفصحاء العرب، ويقول ابن قتيبة في ذلك : " وإنّما يعرف " فضل القرآن " . من كَثُر نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب، وافتنانها في الأساليب، وما خصَّ الله به لغتها دون جميع اللغات، فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة – قوة الكلام وتنقيحه والرأي الجيد – والبيان، واتساع المجاز ما أوتيته العرب (1)" .

ويمضي ابن قتيبة يفند مزاعم المنكرين لوقوع المجاز في القرآن ويقول : " إنَّ القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها، ومذاهبها في الإيجاز والاختصار والإطالة والتَّوكيد، والإشارة إلى الشيء وإغماض بعض المعاني حتى لا يظهر عليه إلاّ اللَّقِنُ – سريع الفهم – وإظهار بعضها وضرب الأمثال لما خفي، ولو كان القرآن كلُّه ظاهراً مكشوفاً حتى يستوي في معرفته العالم والجاهل لبطل التفاضل بين الناس، وسقطت المحنة وماتت الخواطر" (2).

ويؤكد ابن فتيبة أنّ القرآن نزل بأساليب العرب، وافتنانها في التعبير ويقول : " للعرب المجازات في الكلام ومعناها طرق القول ومآخذه، ففيها الاستعارة، والتمثيل، والقلب والتقديم والتأخير، والحذف، والتكرار، والإخفاء، والإظهار، والتَّعريض، والإفصاح، والكناية والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب واحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص، مع أشياء كثيرة ستراها في أبواب المجاز ... وبكل هذه المذاهب نزل القرآن" (3).

ويقرر ابن قتيبة بأن جهل الناس بأساليب العرب وافتنانها في طرق القول، وتنويعها في مذاهب الكلام هو الذي جرَّهم إلى الاختلاف في الفهم، والغلط في التأويل، لعدم التمييز بين الحقيقة والمجاز وقال : " وأمّا المجاز فمن جهته غلط كثير من النّاس في التأويل، وتشعّبت

---

(1) تأويل مشكل القرآن : 12.

(2) نفسه : 86.

(3) نفسه : 20و 21.

بهم الطرق، واختلفت النِّحَل"[1] .

أمّا منهجه في إيراد أبواب المجاز فقد ذكر ما أتى منها في كتاب الله، يعقبه بأمثاله من الشعر ولغات العرب، وما استعمله النّاس في كلامهم .

واستخرج ابن قتيبة أنواع المجاز في القرآن الكريم وبوَّبها، وبدأ بباب الاستعارة، لأنّ أكثر المجاز يقع فيه" [2]، وقال في تعريف الاستعارة : " فالعرب تستعير الكلمة، فتضعها مكان الكلمة الأخرى إذا كان المسمّى بها بسبب من الأخرى، أو مجاوراً لها، أو مشاكلاً ، وبعد أن عَرَّف الاستعارة أخذ يمثِّل لها ويقول : ومن الاستعارة : " اللسان يوضع موضع القول : لأنَّ القول يكون بها، قال الله عزَّ وجل حكاية عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين[3] ﴾ أي ذكراً حسناً . قال الشاعر :

إنّي أتَتْنِي لِسَانٌ لا أسَرُّ بها   من عَلوَ لا عَجَبٌ مِنْها ولا سَخَر

أي أتاني خبرٌ لا أسَرّبه، وهو موت المنتشر بن وهب الباهلي" [4]. وواضح أن هذا مجاز مرسل علاقته الآلية ويقول : ومن الاستعارة ﴿ وأما الذين ابيضَّت وجوههم ففي رحمة الله ﴾ [5] يعني الجنة سمَّاها رحمة، لأنَّ دخولهم إيّاها كان برحمته، وقد توضع الرحمة موضع المطر، لأنَّه ينزل برحمته، قال تعالى : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ﴾ [6] يعني المطر، وقال : ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي ﴾ [7] يعني مفاتيح

---

(1) نفسه : 103 .

(2) نفسه : 134 .

(3) الشعراء / 84 .

(4) تأويل مشكل القرآن : 146و147، والبيت لأعشى بأهلة من قصيدة يرثي به المنتشر بن وهب الباهلي، وفي اللسان " ويروى من علوَ وعلوِ – بفتح الواو وكسرها – أي أتاني خبر من أعلى"

(5) آل عمران : 107 .

(6) الأعراف : 56.

(7) الإسراء : 100 .

رزقه، وقال: ﴿ ما يفتح الله للنَّاس من رحمة فلا ممسك لها ﴾ [1] أي من رزق، فقد أطلق الرحمة على الرزق، وهذا مجاز مرسل علاقته السببية، وقد عدّها ابن قتيبة من باب الاستعارة [2].

ويقول في قوله تعالى: ﴿ ناصية كاذبة خاطئة ﴾ [3]. وإنما يعني صاحبها، والناس يقولون هو مشؤوم النّاصية، لا يريدونها دون غيرها من البدن، ويقولون: قد مرَّ على رأسي كذا أي عليَّ، وواضح أنَّه من المجاز المرسل، والعلاقة الجزئية، فأطلق البعض وأراد الكل [4] وعدَّ من الاستعارة قوله تعالى: ﴿ سَنَسِمُهُ على الخرطوم ﴾ [5]. يقول: ذهب بعض المفسرين فيه إلى أنّ الله عز وجل يسم وجهه بالسواد يوم القيامة. فأطلق الأنف وأراد الوجه كله، وهذا من المجاز المرسل والعلاقة فيه الجزئية أيضاً [6].

وقد أورد ابن قتيبة أمثلة كثيرة للمجاز المرسل، وعدّها من الاستعارة، لأنّ تعريفه المتقدم شامل لها وللمجاز المرسل، وبذلك اندرج المجاز المرسل تحت تعريف الاستعارة الذي ذكره ابن قتيبة، لأنه لم يفطن للفرق بينهما كما تنبَّه إليه البلاغيون المتأخرون.

كما أنه لم يفطن للفرق بين الكناية والاستعارة، وشرح كثيراً من الآيات، وأوّل الكناية على أنّها من باب الاستعارة، والحق أنّ الأسلوب فيها جاء على سبيل الكناية، من ذلك قوله: " فمن الاستعارة في كتاب الله قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ يوم يُكشف عن ساق ﴾ [7] أي عن

---

(1) فاطر: 2.

(2) تأويل مشكل القرآن: 145، 146.

(3) العلق: 17.

(4) تأويل مشكل القرآن: 117.

(5) القلم: 16.

(6) تأويل مشكل القرآن: 155، 156.

(7) القلم: 42.

شدةٍ من الأمر، كذلك قال قتادة، وقال إبراهيم : عن أمر عظيم، وأصل هذا : أنَّ الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى معاناته والجد فيه، شمَّر عن ساقه، فاستعيرت الساق في موضع الشدة [1]. ويقول الدكتور كامل الخولي : " والحق أنّ الأسلوب كناية عن شدة الأمر، لأنه يلزم من كشف الساق الوقوع في أمر عظيم يحتاج إلى التعب والجد، وليست هناك مشابهة بين الساق والشدة حتى يستعار الساق للشدّة" [2].

ويقول ابن قتيبة ممثلاً للاستعارة، ومنه قول الله تعالى : ﴿ ولا يُظْلَمُون فَتيلا [3] ﴾ و﴿ لا يُظْلمون نَقيرا [4] ﴾ . والفَتيل : ما يكون في شقّ النّواة، والنّقيرُ : النُّقْرَة في ظهرها، ولم يرد أنهم لا يظلمون ذلك بعينه وإنما أراد أنهم إذا حُوسبُوا لم يُظلموا في الحساب شيئاً، ولو مقدار هذين التّافهين الحقيرين . والعرب تقول : ما رزأته زِبَالاً . و" الزّبَالُ " : ما تحمله النَّمْلةُ بفيها، يريدون ما رزأته شيئاً" [5]. وواضح أن هذا من باب الكناية . ويقول : وكذلك قوله عز وجل : ﴿ والَّذيْنَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِه ما يَمْلِكونَ من قِطْمير ﴾ [6]، ويفسر القطمير بقوله : " وهو الفوفة – الغشاء الرقيق – التي فيها النواة . يريد ما يملكون شيئاً " [7]. فالأسلوب جاء على سبيل الكناية كما هو واضح .

ويعد من الاستعارة قوله تعالى : ﴿ وقالت اليهود يَدُ الله مَغْلولةٌ غُلّت أيديهم ولُعِنُوا بما قالوا ﴾ [8] يقول أي : مُمْسِكةَ [9] والأسلوب جاء على سبيل الكناية عن البخل .

(1) تأويل مشكل القرآن 155، 156 .

(2) صور من تطور البيان العربي / 142 .

(3) النساء / 49.

(4) النساء / 124 .

(5) تأويل مشكل القرآن / 138 .

(6) فاطر / 13 .

(7) تأويل مشكل القرآن / 138 .

(8) المائدة / 64.

(9) تأويل مشكل القرآن / 167 .

ومن أبواب المجاز التي أوردها ابن قتيبة باب المقلوب، وذكر ما أتى منه في كتاب الله للاستهزاء، ومن ذلك قول قوم شعيب : ﴿ إنّك لأنت الحليم الرشيد ﴾ [1].

ومن ذلك أن يسمّى المتضادان باسم واحد، والأصل واحد . فيقال للصبح : صريم، ولليل : صريم . قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ فأصبحت كالصّريم ﴾ [2]، أي سوداء كالليل، لأنّ الليل ينصرم عن النهار، والنهار ينصرم عن الليل [3].

ومنه قولهم لليقين : ظنٌّ . وللشّكِّ : ظنٌّ، لأنّ في الظن طرفاً من اليقين . قال الله تعالى : ﴿ قال الذين يظنّون أنّهم ملاقوا الله ﴾ [4]، أي يستيقنُون . وكذلك قوله عزّ وجل : ﴿ إنّي ظننت أنّي مُلاقٍ حسابيه ﴾ [5]. هذا كله في معنى اليقين [6].

ومن المقلوب أن يُقَدَّم ما يوضحه التأخير، ويُؤخَّر ما يوضحه التقديم، كقول الله تعالى : ﴿ فلا تحسبنَّ الله مُخْلِفَ وعْدِهِ رُسُلَه ﴾ [7]، أي مُخْلِف رُسُلِه وعدَه، لأنَّ الإخلاف قد يقع بالوعد، كما يقع بالرُّسل، فيقول : أخلفت الوعد، وأخلفت الرُّسل [8].

وقال عزَّ وجل : ﴿ خلق الإنسان من عَجَلٍ ﴾ [9]. أي خُلِق العجل من الإنسان، يعني العجلة، كذلك قال " أبو عبيدة " [10].

---

(1) هود : 87.

(2) القلم : 20.

(3) تاويل مشكل القرآن : 186، 187.

(4) البقرة : 249.

(5) الحاقة : 20.

(6) تاويل مشكل القرآن : 187.

(7) إبراهيم : 47.

(8) تاويل مشكل القرآن : 193.

(9) الأنبياء : 37.

(10) تاويل مشكل القرآن : 197، 198.

وأكثر ابن قتيبة من الشواهد موضحاً المراد من الشاهد بالشرح والبيان، ولكنّه لم يبيّن سبب التقديم، والوجه البلاغي في ذلك، واكتفى ببيان المعنى المطلوب .

وعقد ابن قتيبة باباً للإيجاز بالحذف بعنوان : " باب الحذف والاختصار " ، وعدّ ما جاء منه في كتاب الله من المجاز ، والإيجاز عنده نوعان : إيجاز بالقصر ولم يسمه بهذا الاسم، وتناوله من الناحية التطبيقية، فأكثر من الشواهد والأمثلة، مبيناً المراد منها، وإيجاز الحذف والاختصار، وقد أفاض ابن قتيبة في حديثه عن هذا النوع وذكر له صوراً متعددة، وشواهد كثيرة توضح الفكرة، وترسم الصورة للإيجاز بالحذف، من ذلك حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه وجعل الفعل له، كقوله تعالى : ﴿ واسأل القرية التي كُنَّا فيها ﴾[1]، أي سل أهلها فالقرية لا تُسأل بل يُسْأل أهلها . وكقوله تعالى : ﴿ وأُشربوا في قلوبهم العِجْلَ ﴾[2] ، أي حُبَّه[3] .

ومن الحذف أن توقع الفعل على شيئين وهو لأحدهما، ويضمر للآخر فعله، كقوله تعالى : ﴿ ويطوف عليهم ولدان مخلدون، بأكواب وأباريق وكأس من معين ﴾[4] ثم يقول : ﴿ وفاكهة ممَّا يتخيَّرون، ولحم طير ممَّا يشتهون، وحور عين ﴾[5]، والمعنى : يؤتون بفاكهة ولحم طير، لأن الفاكهة ولحم الطير لا يطاف بها فحذف المسند، ومثله قوله تعالى : ﴿ فأجمِعُوا أمركم وشركاءكم ﴾[6] أي وادعوا شركاءكم لأن الشركاء لا يجمعون[7] .

---

(1) يوسف : 82.

(2) البقرة : 93.

(3) تأويل مشكل القرآن : 210.

(4) الواقعة : 18.

(5) الواقعة : 20-22.

(6) يونس : 71.

(7) تأويل مشكل القرآن : 213.

ومن ذلك حذف جواب الشرط، لعلم المخاطب به طلباً للاختصار، كقوله تعالى : ﴿ولو أنَّ قرآناً سُيرت به الجبال، أو قطعت به الأرض، أو كلم به الموتى، بل لله الأمر جميعاً﴾ [(1)]. أراد لكان هذا القرآن . ومنه قوله تعالى : ﴿ ولولا فضلُ الله عليكم ورحمتُه، وأنَّ الله رؤوف رحيم﴾ أراد لعذّبكم، فحذف الجواب للعلم به من سياق الآية [(2)].

ومن ذلك حذف الكلمة والكلمتين، كقوله تعالى : ﴿ فأمّا الّذين اسودَّت وجوههم أكفرتم﴾ [(3)] والمعنى فيقال لهم أكفرتم ؟ [(4)]. ومنه قوله تعالى : ﴿ وقضى ربُّك ألا تعبدوا إلاَّ إيّاه وبالوالدين إحسانا﴾ [(5)]. أي ووصّى بالوالدين [(6)].

ومن الاختصار القسم بلا جواب إذا كان في الكلام بعده ما يدل عليه، كقوله تعالى : ﴿ والنّازعَاتِ غَرْقَاً والنَّاشِطَاتِ نَشْطاً، والسَّابِحَاتِ سَبْحاً، فالسَّابِقَاتِ سَبْقاً، فالمدبِّرَاتِ أَمْراً﴾ ثم قال : ﴿ يَوْمَ تَرجُفُ الرَّاجِفَةَ ﴾ [(7)]. فلم يذكر الجواب للقسم لعلم السامع به . إذ كان فيما تأخر من قوله دليل عليه، فكأنه قال : والنازعات وكذا وكذا لتبعثُنَّ، فقالوا : أئذا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً [(8)] نُبْعَثُ [(9)] ؟ . . . .

ومنه أن تحذف "لا" من الكلام، والمراد إثباتها، كقوله تعالى : ﴿ تالله تَفْتَأ تَذْكُر

(1) الرعد : 31.

(2) تاويل مشكل القرآن : 214.

(3) آل عمران : 106.

(4) تاويل مشكل القرآن : 216.

(5) الإسراء : 23.

(6) تاويل مشكل القرآن : 217.

(7) النازعات / 1-6.

(8) النازعات / 11.

(9) تاويل مشكل القرآن : 224، والآية من سورة النازعات / 11.

يُوسُفَ ﴾ [1] أي لا تزال تذكر يوسف [2].

ومن الاختصار الإضمار لغير مذكور، وتنص القاعدة النحوية على أن الضمير لا بُدّ له من مرجع يعود عليه، وقد يعود الضمير على غير مذكور سابق في الأسلوب، إذا كان هناك دليل يدلُّ عليه، وقرينة ترشد إليه، كقوله تعالى : ﴿ حتّى توارَتْ بالحجاب ﴾ [3]، يعني الشمس، ولم يذكر قبل ذلك، والسياق يدل على ذلك [4].

ومن الاختصار حذف حروف الجر، وقد عبّر عنها ابن قتيبة بحروف الصفات، كقوله تعالى : ﴿ وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخْسِرُون ﴾ [5] أي : كالوا لهم أو وزنوا لهم .

أما إيجاز القصر فمَثَّل له ابن قتيبة بقوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بالْعُرْفِ، وأَعْرِضْ عن الجاهلين ﴾ [6] كيف جمع له بهذا الكلام كلَّ خلُق عظيم، لأنَّ في " أخذ العفو " : صلة القاطعين، والصفح عن الظالمين، وإعطاء المانعين . وفي " الأمر بالعُرْفِ " تقوى اللهِّ، وصلة الأرحام، وصون اللسان عن الكذب، وغض الطرف عن المحرَّمات . وفي " الإعراض عن الجاهلين " : الصبر والحلم، وتنزيه النفس عن مُجَاراة السَّفيه، ومنازعة اللّجوج [7]" .

ومن الإيجاز بالقصر قوله تعالى : ﴿ أَخْرَجَ مِنْها مَاءَها ومَرْعَاها ﴾ [8]. انظر كيف دلَّ بشيئين على جميع ما أخرجه قوتاً ومتاعاً للأنام [9].

---

(1) يوسف / 85.

(2) تأويل مشكل القرآن / 225.

(3) ص / 32.

(4) تأويل مشكل القرآن : 226.

(5) المطففين / 3، وينظر تأويل مشكل القرآن / 228.

(6) الأعراف / 199.

(7) تأويل مشكل القرآن / 4، 5.

(8) النازعات / 31.

(9) تأويل مشكل القرآن / 5.

وتكلم ابن قتيبة عن تكرار الأنباء والقصص في القرآن الكريم، وبيَّن السرَّ البلاغي في هذا التكرار ثم تكلم عن الزيادة في العبارة لإفادة التوكيد، وعن تكرار المعنى بلفظين مختلفين، لإشباع المعنى، والاتساع في الألفاظ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ فيها فاكهة ونخلٌ ورمّان ﴾ [1] . والنَّخل والرَّمان من الفاكهة، فأفردهما عن الجملة التي أدخلهما فيها، لفضلهما وحسن موقعهما [2] وبيَّن السِّرَّ البلاغي في زيادة بعض الحروف، كزيادة، لا، والباء، واللام، وعلى، وعن، ومن ذلك قوله : " وقد تزاد (لا) في الكلام، والمعنى : طرحها لإباءٍ في الكلام، أو جَحْدٍ، كقوله تعالى ﴿ ما مَنَعك ألاَّ تَسْجُدَ إذْ أمَرْتُك ﴾ [3] أي ما منعك أن تسجد، فزاد في الكلام (لا) لأنه لم يسجد . ومنه قوله تعالى : ﴿ لِئلاَّ يَعْلَم أهْلُ الكتاب ألاَّ يقْدرونَ على شيءٍ منْ فَضْلِ الله ﴾ [4] يريد ليعلم أهل الكتاب أنهم لا ينالون شيئاً من ذلك، ولذلك زاد (لا) في أول الكلام لأنَّ في آخره جَحْداً .

وتزاد (لا) للرَّد على المكذبين، كقوله تعالى : ﴿ لا أقسم بيوم القيامة، ولا أقسم بالنفس اللّوامة ﴾ [5]، ﴿ فلا أقسم بالشَّفق ﴾ [6]، ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ [7]، فإنها زيدت في الكلام على نيَّة الرَّدِّ على المكذبين، كما تقول في الكلام : (لا والله ما ذاك كما تقول، ولو قلت، والله ما ذاك كما تقول لكان جائزاً، غير أن إدخالك (لا) في الكلام أبلغ في الرد) [8] .

---

(1) الرحمن / 68 .

(2) تأويل مشكل القرآن / 240 .

(3) الأعراف / 12 .

(4) الحديد / 29 .

(5) القيامة / 1-2

(6) الانشقاق / 16 .

(7) البلد / 1 .

(8) تأويل مشكل القرآن : 247 - 244 .

وقد أفاض ابن قتيبة في شرح الحروف التي تزاد في الأسلوب، واستقصى مواضع زيادتها في الآيات القرآنية، وبين الأغراض البلاغية من زيادتها .

ومن أبواب المجاز التي ذكرها ابن قتيبة باب " مخالفة ظاهر اللفظ معناه"، تكلم فيه عن الأساليب الإنشائية، وخروجها عن أصلها إلى الاستعمالات المجازيَّة، من ذلك الدعاء على جهة الذَّمّ لا يراد به الوقوع، كقول الله عزَّ وجل : ﴿ قُتِلَ الخرَّاصُون ﴾ [1]. وردَّ ابن فارس على ابن قتيبة فقال : " لا يجوز لأحد أن يطلق فيما ذكره الله أنَّه دعاء لا يراد به الوقوع، وما كان الله ليدعو على أحد فتحيد الدعوة عنه"[2] . لأن القتل هنا جاء بمعنى اللّعن والطرد من الرحمة . ومنه أن يأتي الكلام على لفظ الأمر ويخرج إلى غرض التهديد كقوله تعالى : ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ [3]، وإلى غرض التأديب كقوله تعالى : ﴿ وأشْهدُوا ذوي عدل منكم ﴾ [4] وقوله تعالى : ﴿ واهجروهنَّ في المضاجع واضْرِبُوهُنَّ ﴾ [5]، وإلى غرض الإباحة، كقوله تعالى : ﴿ فكاتِبوهم إن علمتم فيهم خيراً ﴾ [6]، وقوله تعالى : ﴿ فإذا قُضيتِ الصَّلاةُ فانْتَشِروا في الأرض ﴾ [7]. ويقول ابن قتيبة : ومنه أن يأتي، الكلام على مذهب الاستفهام وهو تقرير، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُم باللّيل والنَّهار من الرَّحمنِ ﴾ [8].

– ومنه أن يأتي على مذهب الاستفهام وهو تعجب، كقوله سبحانه وتعالى :

---

(1) الذاريات : 10 .

(2) الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كرمها : 169 .

(3) فصلت : 40.

(4) الطلاق : 2.

(5) النساء : 34، وانظر تأويل مشكل القرآن : 280 .

(6) النور : 33.

(7) الجمعة : 10 .

(8) الأنبياء : 42.

﴿ عمَّ يتساءلون، عن النّبأ العظيم ﴾[1] ، كأنه قال : عمَّ يتساءلون يا محمد ؟ ثم قال : "عن النبأ العظيم يتساءلون" ، ومعنى هذا الاستفهام تفخيم الشأن كما يقول الزمخشري في كشافه[2] .

– ومنه أن يأتي على مذهب الاستفهام وهو توبيخ، كقوله تعالى : ﴿ أتأتون الذكران من العالمين ﴾[3] .

– ومنه عام يراد به خاص كقوله سبحانه : ﴿ والشّعراء يتّبعهم الغاوون ﴾[4] ، ولم يرد كل الشعراء[5] .

– ومنه جمع يراد به واحد واثنان، كقوله تعالى : ﴿ ولْيَشْهدْ عذابهما طائفةٌ من المؤمنين ﴾[6] ، واحد واثنان فما فوق[7] .

– ومنه واحد يراد به جمعٌ كقوله : ﴿ هؤلاءِ ضيْفي فَلا تفضحون ﴾[8] .

– ومنه أن تصف الجميع صفة الواحد، نحو قوله تعالى : ﴿ وإن كُنْتُمْ جُنُباً فاطَّهرُوا ﴾[9] .

– ومنه أن يجتمع شيئان ولأحدهما فعل فيجعل الفعل لهما، كقوله سبحانه :

---

(1) النبأ : 1 . وانظر تاويل مشكل القرآن : 279 .

(2) الكشاف للزمخشري ج2/ 446 .

(3) الشعراء : 165 .

(4) الشعراء : 224 .

(5) تأويل مشكل القرآن 281 .

(6) النور : 2 .

(7) تأويل مشكل القُرآن : 282 .

(8) الحجر : 68 . وقد نقله ابن فارس في الصاحبي من غير نسبة : 350 .

(9) المائدة : 6 .

﴿ فلمَّا بَلغَا مَجْمَع بينهما نَسيا حوتهما ﴾، روي في التفسير : أنَّ النَّاسي كان " يُوشَع بن نون " ، ويدلك قوله لموسى عليه السلام : ﴿ إنّي نَسيتُ الحُوتَ ﴾ (1).

– ومنه أن يجتمع شيئان فيجعل الفعل لأحدهما، أو تنسبه إلى أحدهما وهو لهما كقوله تعالى : ﴿ والله ورسُوله أحقُّ أنْ يُرْضُوه ﴾ (2).

– ومنه أن تخاطب الشاهد بشيء ثم تجعل الخطاب له على لفظ الغائب، كقوله عزَّ وجل : ﴿ حتى إذا كُنْتُم في الفُلْكِ وجَرَيْن بهم بريح طيّبةٍ وفَرِحُوا بها ﴾ (3).

– ومنه أن يُخَاطَبَ الرَّجَل بشيء ثم يجعل الخطاب لغيره، كقوله سبحانه : ﴿ فإن لم يستجيبوا لكم ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال للكفار : ﴿ فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلاَّ هو ﴾ يدلك على ذلك قوله تعالى : ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ (4).

– ومنه أن تأمر الواحد والاثنين والثلاثة فما فوق أمْرَك الاثنين، فتقول : افعلا، قال الله تعالى : ﴿ ألقيا في جهنَّم كُلَّ كفَّار عنيد ﴾ (5). الخطاب لخزنة جهنم أو زبانيتها .

– ومنه أن يخاطب الواحد بلفظ الجميع، كقوله سبحانه : ﴿ قال ربِّ ارجعون ﴾ (6).

– ومنه أن يتصل الكلام بما قبله حتى يكون كأنَّه قول واحد، وهو قولان، نحو قوله تعالى : ﴿ يا ويلنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مرْقَدنا ﴾ ، انقطع الكلام، ثم قالت الملائكة :

---

(1) الكهف : 61. وينظر تأويل مشكل القرآن : 287. وقد نقله ابن فارس في الصاحبي من غير نسبة : 185.

(2) التوبة : 62 وينظر تأويل مشكل القرآن : 288. وقد نقله ابن فارس في الصاحبي من غير نسبة : 185.

(3) يونس : 22. وينظر تأويل مشكل القرآن : 289. وقد نقله ابن فارس في الصاحبي من غير نسبة : 356.

(4) هود : 14. وينظر تأويل مشكل القرآن : 290.

(5) ق : 24 . وينظر تأويل مشكل القرآن : 291. وقد نقله ابن فارس في الصاحبي من غير نسبة : 86.

(6) المؤمنون : 99. وينظر تأويل مشكل القرآن : 293.

﴿ هذا ما وعد الرّحمن وصدَقَ المُرْسَلون ﴾ [1].

– ومنه أن يأتي الفعل على بنية الماضي وهو دائم، أو مستقبل، كقوله تعالى : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ [2]. يريد يوم القيامة ، أي سيأتي قريباً فلا تستعجلوه .

– ومنه أن يجيء المفعول به على لفظ " الفاعل " ، كقوله سبحانه ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم ﴾ [3] أي لا معصوم من أمره .

– ومنه أن يأتي " فعيل " بمعنى " مفعل " ، نحو قوله : ﴿ بديعُ السموات والأرض ﴾ [4] ، أي مُبْدِعها .

– ومنه أن يأتي الفاعل على لفظ المفعول به، وهو قليل، كقوله تعالى : ﴿ إنه كان وعده مأتياً ﴾ [5] ، أي آتياً .

وقد تناول ابن قتيبة عدداً من الآيات القرآنية التي اشتملت على التشبيه، بالتفسير والإيضاح وبيان مراميها، ومغازيها وأهدافها، ومدى أثرها في النفوس البشرية، ومن ذلك تفسير قوله تعالى: ﴿ إنها شَجَرةٌ تخرج في أصل الجحيم، طَلْعُها كأنه رؤوس الشياطين ﴾ [6] . طلعها ثمرها، سُمّي طلعاً لطلوعه كلّ سنة، والشياطين : حيّات خفيفات الأجسام، قبيحات المنظر، قال الشاعر وذكر ناقة :

تُلاعِبُ مَثْنَى حَضْرَمِيٍّ كَأَنَّهُ تَعَمُّجُ شَيْطانٍ بذي خِرْوَعٍ قَفْرِ [7]

---

(7) يس : 52. وينظر تأويل مشكل القرآن : 294.

(2) النحل : 1. وينظر تأويل مشكل القرآن : 295. وقد نقله ابن فارس في الصاحبي : 186، 364.

(3) هود : 43. وينظر تأويل مشكل القرآن : 296. وقد نقله ابن فارس في الصاحبي : 187.

(4) البقرة : 117. وينظر تأويل مشكل القرآن : 297.

(5) مريم : 61. وينظر تأويل مشكل القرآن : 298.

(6) الصّافّات : 64، 65، وينظر تأويل مشكل القرآن : 388.

(7) المثنى : زمام الناقة، والحضرمي : منسوب إلى حضرموت، والتَّعمُّج : التلوي . والشيطان : الحية والبيت=

يعني زماماً . شبَّه تلويه . بتلوي الحيّة . . . إلى أن يقول : " وذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّه أراد الشَّياطين بأعيانها .

شبه ثمر هذه الشجرة في قبحه برؤوسها، وهي وإن لم تُرَ ، فإنَّها موصوفة بالقبح معروفة به " [1] .

فابن قتيبة يوضح التشبيه في الآية توضيح العالم الخبير بلغة العرب وآدابهم، مبيناً كلَّ الوجوه والاحتمالات الممكنة، راداً على الطاعنين في القرآن بأنّ المشبه به مجهول، وإنما يكون التشبيه بالمعلوم، مبيناً لهم أن المشبه به إمّا أن يكون الحيَّات، وقد استشهد بقول الشاعر العربي المتقدم وإمّا أن يكون رؤوس الشياطين بالفعل، فهي وإن لم تُرَ فإنها معلومة بالقبح، موصوفة به عند العرب . فالمراد التنفير والتقبيح، فقد بيّن طرفي التشبيه، ووجه الشبه في هذه الآية .

ويقول في قوله تعالى : ﴿ كالعُرْجُونِ القديم ﴾ [2] ، وإذا صار القمر في آخر منازله دقّ حتى يعود كالعرجون القديم، وهو العذق اليابس . والعرجون إذا يبس دقّ واستقوس حتَّى صار كالقوس، انحناءً، فشبه القمر به ليلة ثمان وعشرين [3] . وبذلك رسم الصورة كاملة شارحاً الطرفين والأداة والوجه، وهو : الدقة والانحناء في كلٍّ منهما .

ويقول في قوله تعالى : ﴿ ومثل الّذين كَفروا كمَثَلِ الذي يَنْعِقُ بما لا يسمعُ إلاّ دُعاءً ونداءً ﴾ [4] وكان بعض أصحاب اللغة يذهب إلى مثل هذا في القلب، ويقول : وقع التشبيه بالراعي في ظاهر الكلام، والمعنى للمنعوق به وهو الغنم " [5] .

= لطرفة بن العبد، تأويل مشكل القرآن / 388 .

(1) تاويل مشكل القرآن : 390 .

(2) يس / 39 .

(3) تاويل مشكل القرآن / 316 .

(4) البقرة / 171 .

(5) تاويل مشكل القرآن / 199 .

ويقول في قوله تعالى : ﴿ الذين يأكُلُون الرِّبَا لا يَقُومُون إلاَّ كما يَقُوم الّذي يَتَخَبَّطهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ ﴾ [1] . هذا في يوم القيامة : يريد إذا بُعثِ الّناس من قبورهم خرجوا مسرعين بدليل قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُون من الأجداثِ سراعاً كأنَّهم إلى نُصُبٍ يُوفضون ﴾ [2] . أي كأنهم إلى علم قد نصب لهم يستبقون إلاّ أكلة الربا فإنهم يقومون ويسقطون، كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان ويسقط . لأنهم أكلوا الربا في الدنيا، فأرباه الله في بطونهم يوم القيامة، حتى أثقلهم فهم ينهضون ويسقطون، ويريدون الإسراع فلا يقدرون [3] فقد صور حالة أكَلةِ الرِّبا يوم القيامة وسوء مصيرهم، بحالة من مسَّه الشيطان فأخذ يتخبط في مكانه، بجامع الارتباك والاضطراب والألم الشديد الناشئ عن القيام والقعود المتواصلين.

ويقول في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَكُونوا كَالَّتي نَقَضْت غَزْلَها مِنْ بعْد قُوَّةٍ أنْكاثا ﴾[4] يقول : "هذا مثلٌ لمن عاهد الله وخالف به، فتكونوا إن فعلتم خلْفَ الوعد، كامرأةٍ غزلت غزلاً، وقوَّت مِرَّتَهُ وأبْرَمْته، فلمَّا استحكم نقضته فجعلته أنْكاثا، والأنكاثُ : ما نُقِضَ من أخلاق بيوت الشعر والوبر، لِيُغْزَل ثانية، ويُعاد مع الجديد، وفيه قيل لمن أعطاك بيعته على السمع والطاعة، ثم خرج عليك : ناكِثٌ، لأنه نقض ما وكَّدَ على نفسه بالأيمان والعهود، كما تنقض الناكثة غزلها [5]" . وبذلك رسم ابن قتيبة الصورة رسماً دقيقاً، فقد بيَّن حالة من نقض العهد بحالة من نقضت غزلها المحكم الصنع، بجامع مطلق النقض والفساد في كلٍّ، على سبيل التشبيه التمثيلي، وهذا في منتهى القبح لمن يخلف الوعد وينقض العهد .

ويقول في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهمْ كَسَرابٍ بِقيَعةٍ يَحْسبُه الظَّمْآن مَاءً

(1) البقرة/ 275.

(2) المعارج/ 43.

(3) تاويل مشكل القرآن/ 435.

(4) النحل : 92.

(5) تأويل مشكل القرآن/ 386.

حتَّى إذا جَاءَهُ لَمْ يجدْهُ شَيئاً ﴾[1]، أي كالسراب يحسبه العطشان من البعد ماءً يرويه، كذلك الكافر يحسب ما قدَّم من عمله نَافعَهُ حتى إذا جاءَهُ، أي مات، لم يجد عمله شيئاً، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أبطله بالكفر ومحقه[2].

ويقول في قوله تعالى : ﴿ أو كَظُلماتٍ في بَحْرٍ لجيٍّ، يغشاه مَوْجٌ مِن فَوقِه مَوْجٌ مِنْ فَوْقِه سَحابٌ، ظُلُماتٌ بَعْضَها فَوْقَ بَعْضٍ ﴾[3]، يريد أنه في حَيْرةٍ من كفره كهذه الظلمات[4]".

ولأبواب المجاز التي ذكرها ابن قتيبة في كتابه "تأويل مشكل القرآن" قيمة تاريخية كبيرة ، لأنه أسهم في تكوينها وتطورها بنصيب موفور في نشأة البلاغة العربية وتطور تاريخها إضافة إلى ما استخرجه من أنواع المجاز في القرآن الكريم وتبويبها .

وبعد أن فرغ ابن قتيبة من تأويله لمشكل السور التي ذكرها، عقد باباً عظيم القدر، بالغ الأهمية، وهو "باب اللفظ الواحد للمعاني المختلفة" تحدَّث فيه عن نيِّفٍ وأربعين لفظاً من الألفاظ التي جاءت في القرآن متَّحدة المباني، مختلفة المعاني، كالقضاء، والبلاء، والأمة، والرؤية، والإمام، والإسلام، والفتنة، والسلطان، والضلال، والنسيان، والحساب، والكتاب . ولا شكَّ أنّ لهذا الباب قيمة تاريخية كبيرة، فقد أرجع ابن قتيبة المعاني المختلفة للفظ الواحد إلى أصل واحد نشأت منه، وتفرعت عنه، واستشهد على تطور معاني تلك الألفاظ، من ذلك ما قاله في أصل لفظة " القضاء " . " أصل قضى : حتم، كقول الله عزَّ وجل : ﴿ فَيُمْسِكُ الّتي قَضَى عَلَيْها الموت ﴾[5]، أي حتمه عليها . ثم يصير الحتم بمعان،

---

(1) النور/ 39.

(2) تأويل مشكل القرآن/ 329.

(3) النور/ 40.

(4) تأويل مشكل القرآن : 329.

(5) الزُّمر : 42.

كقوله : ﴿ وقضَى ربُّك ألاّ تَعْبُدوا إلاّ إيّاه ﴾[1] ، أي أمر، لأنه لَمّا أمر حتم بالأمر . كقوله : ﴿ وقَضَيْنا إلى بني إسْرائيل في الكتاب ﴾[2] ، أي أعلمناهم، لأنه لما أخبرهم أنهم سيفسدون في الأرض حتم بوقوع الخبر . وقوله : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سماوات ﴾[3] ، أي صنعُهُنّ .

وقوله : ﴿ فاقض ما أنْتَ قاضٍ ﴾[4] ، أي فاصنع ما أنت صانع .

ومثله قوله : ﴿ فَأَجْمِعُوا أمرَكمْ وشركاءكمُ ثم لا يَكنْ أمْرُكُمْ عَليْكُم غُمَّة ثم اقْضوا إليَّ ﴾[5] ، أي اعملوا ما أنتم عاملون ولا تُنْظِرون .

قال أبو ذؤيب :

وعَلَيْهِما مَسْرُودتَانِ قَضَاهُما ... دَاوُدُ أوْ صَنَعُ السَّوابِغِ تُبَّعُ[6]

أي صنعهما " داود " و " تُبّع " . وقال الآخر لعمر بن الخطاب – رضي الله عنه – :

قَضَيْتَ أُموراً ثم غادرت بَعْدَها ... بوائج في أكْمامِهَا لَمْ تفَتَّقِ[7]

أيْ عَمِلْتَ أعمالاً، لأنَّ كُلَّ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً، وفرغ منه فقد حتمه وقطعه .

ومنه قيل للحاكم : قاضٍ، لأنَّه يقطع على النَّاس الأمور ويحتم . وقيل : قُضي قضاؤك، أي فرِغ من أمرك . وقالوا للميت : قد قضى . أي فرغ .

---

(1) الإسراء : 23 .

(2) الإسراء : 4 .

(3) فصّلت : 12 .

(4) طه : 72 .

(5) يونس : 71 .

(6) ديوانه : 19 . مسرودتان : درعان، قضاهما : فرغ منهما داود النبي عليه السلام . والصَّنع : الحاذق بالعمل والتبابعة ملوك اليمن، واحدهم تبع . وفي شرح أشعار الهذليين : " وَعلَيْهما ماذِيَّتان / " ص 39.

(7) البوائج : جمع بائجة، وهي الدّاهية . والبيت للشمّاخ بن ضرار .

وبعد أن بين المعاني المختلفة التي صارت إليها كلمة " القضاء " ، ختم بحثه بقوله : "وهذه كلها فروع ترجع إلى أصل واحد" [1]. وكذلك قال بعد تبينه لمعاني " القنوت " : "ولا أرى أصل هذا الحرف إلاّ الطاعة، لأنَّ جميع هذه الخلال من الصلاة والقيام فيها، والدعاء وغير ذلك، يكون عنها" [2] وقال بعد ذكره لمعاني كلمة " الأمر " : "وهذا كُلّه وإن اختلف فأصله واحد" [3] ، وبذلك يكون لابن قتيبة فضل السبق إلى القول بردٍّ مفردات المادَّة اللغوية إلى أصولها المعنوية المشتركة .

ثم ذكر ابن قتيبة بعد ذلك " باب تفسير حروف المعاني، وما شاكلها من الأفعال التي لا تَنْصَرف " نحو : كأيِّن، وأنّى، ولولا، ولوما، ولا جَرمَ، وتعالى، وهلم، ورويدا، ولدن، وغيرها . من ذلك ما قاله في تفسير كلة " كأيّن " هي بمعنى " كم " ، قال الله تعالى : ﴿ وكأيِّنْ مِنْ قَرْيةٍ عَتَتْ عن أمْر ربِّها ورُسلِه ﴾ [4] ، أي وكم من قرية . وفيها لغتان : كأيّن بالهمز وتشديد الياء وكائن على تقدير قائل وبائع، وقد قرئ بهما جميعاً في القرآن، والأكثر والأفصح تخفيفها، قال الشاعر :

وكائِنْ أريْنا الموتَ من ذي تَحِيَّةٍ ... إذا ما ازْدَرَانا أو أَصَرَّ لِمَأْثَمِ [5]

وقال في تفسير كلمة " كيف " بمعنى : على أيِّ حال، تقول : كيف أنت ؟ تريد بأي حال أنت ؟ . وتقع بمعنى التعجب، في مثل قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرون باللّه وكُنتُم أمْواتاً فأحْيَاكم ﴾ [6]، ثم ختم ابن قتيبة كتابه " بباب دخول بعض حروف

(1) تأويل مشكل القرآن : 412 .

(2) نفسه : 452 .

(3) نفسه : 515 .

(4) الطّلاق 8 .

(5) تأويل مشكل القرآن : 519 . والبيت بلا نسبة في الكتاب .

(6) البقرة : 28 . وينظر تأويل مشكل القرآن : 520 .

الصفات مكان بعض " .

وهكذا فقد مضى ابن قتيبة، يبذل جهوده اللغوية في تفسير غريب القرآن، ليسهل فهم مفرداته، ويؤكد أصالتها الثابتة التي أتى بها الوحي الإلهي، بما ينسجم مع روح هذا الكتاب المنزل، والدلالات السليمة للعربيّة الفصحى، ويجتهد في تأويل مشكل آياته، حتى يستوي في فهمه السَّامعون، ويمضي في تبيين نواحي إعجازه وتناسق سوره وآياته، وتكامله في وحدته، وهو يهدف في هذا التبيين إلى هدم كلّ ما أشاعه المغرضون حول الكتاب الكريم، من مزاعم التناقض والغموض، والتفاوت في البيان .

جـ - الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة :

شارك ابن قتيبة في دخول معترك النزاع الفكري الذي كان يجري في عصره، وحمل لواء أهل السنة والحديث، وردّ على خصومه الذين اتهموه بأنه كان كرّامياً يميل إلى التشخيص والتشبيه، فألف كتاب " الاختلاف في اللفظ والرّد على الجهميّة والمشبّهة، ليدفع عن نفسه ما رموه به، وتسلّح باللغة، ليرد عليهم أقوالهم، ويفند مزاعمهم، ويبطل حججهم، ولم يأخذ بعلم الكلام لأنه لغويٌّ، وليس من شأنه الدخول في مناقشات عقيمة رأى من كان قبله قد هلك بها، وقال : " ولم أعْدُ في أكثر الرّد عليهم طريق اللغة، فأمَّا الكلام فليس من شأننا، ولا أرى أكثر من هلك إلاَّ به" [(1)].

ويرد ابن قتيبة على خصومه تأويلهم بعض آيات القرآن الكريم التي رأى أنها مشكلة تحتاج إلى توضيح وبيان، واعتمد في ذلك على قدرته اللغوية ومخزونه اللغوي ليصحح ما اعتقد أنَّ خصومه قد أخطؤوا فهمه، من ذلك قوله في الرّدِّ على الجهميّة والمشبَّهة : " ولمَّا اطّرد لهم القول على ما أصَّلوا، ورأوه حسن الظاهر قريباً من النفوس، يروق السامعين، ويستميل قلوب الغافلين، نظروا في كتاب الله، فوجدوه ينقض ما قاسوا، ويبطل ما أسَّسوا،

---

(1) الاختلاف في اللفظ : 99.

فطلبوا له التأويلات المستكرهة، والمخارج البعيدة وجعلوه عويصاً وألغازاً . وإن كانوا لم يقدروا من تلك الحيل على ما يصح في النظر، ولا في اللغة" [1].

ومن الآيات التي عارض ابن قتيبة تأويل القدرية أو المعتزلة لها قوله تعالى : ﴿ يضل من يشاء ﴾ [2]، فهم يرون أن الله ينسبهم إلى الضلال . وفي قوله تعالى : ﴿ يهدي من يشاء ﴾ [3]، ينسبهم إلى الهداية ويقول ابن قتيبة في رده : (يضل من يشاء) تعني الإضلال فعلاً، وليس (ينسبهم إلى الضلال) وإلاّ صحَّ أن يقال مكانها يضلّلهم كما يقال يُخوِّنهم ويُفسِّقهم ويُظلِّمهم أي ينسبهم إلى الظلم . وقال المعتزلة في قوله عزَّ وجل : ﴿ ما كان لنفس أن تؤمن إلاّ بإذن الله ﴾، أي ما كان لنفس أن تؤمن إلاّ بعلم الله، وردَّ عليهم ابن قتيبة بقوله : " وهذا تأويلهم لا يصح في نظر أو لغةٍ" [4] ويأخذ ابن قتيبة بأصالة الدلالة للفظ العربي في التأويل القرآني، وتأييد موقف أصحاب الحديث ويسلك منهج المناظرة، ويؤيّد ما يقدّمه من ردود بالحجج والأدلة المأخوذة من القرآن، والسنة، والأقوال المأثورة، والشعر العربي الذي يحتج به، ويبرز بجلاء الدلالات الأصلية لألفاظ وردت في نصوص قرآنية ونبويَّة ويقول : " أمَّا النظر فإنّه لم يقل أحد من الناس أنَّ شيئاً يحدث في الأرض إلا بعلم الله . . . وإنما اختلفوا في الإذن الذي هو المشيئة والإطلاق فقال المثبتون [5]" : لم يشأ أن يؤمن جميع النّاس ولو شاء لآمنوا، فليس لنفس أن تؤمن حتى يشاء الله ذلك ويُطْلِقُه، وقال أهل القدر [6] : قد شاء الله هذا لكل نفس وأطلقه فلها أن تؤمن إن شاءت، وفي صدر

---

(1) نفسه : 100 .

(2) النحل : 93.

(3) النحل : 93.

(4) الاختلاف في اللفظ : 101 .

(5) المثبتون : ومفردها المثبت وهو الذي يثبت الصفات الإلهية ويسمون أيضاً الصفاتية .

(6) أهل القدر : المعتزلة لكونهم يقولون بالتخلية والإهمال وأن الإنسان تعودِ إليه أموره ويكون حراً في القيام بأفعاله ومسؤولاً عنها .

هذا الكلام دليل على ما قاله أهل الإثبات، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب إيمان قريش فأنزل الله عليه : ﴿ ولو شاء ربك لآمن مَنْ في الأرض كُلُّهم جميعاً أفأنت تُكْره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ [1]، ثم قال على إثر ذلك : ﴿ وما كان لنفس أن تؤمن إلاّ بإذن الله ﴾ [2]، يريد بمشيئته وإطلاقه، فأوّل الكلام دليلٌ على آخره . والنّاس مجمعون لا يختلفون على أنَّ القائل إذا قال : "لو شئت لأتيتك أنه لم يشأ إتيانه" [3].

ويحتكم ابن قتيبة في تأويل اللفظ القرآني إلى تداوله الحي الثابت في أكثر من مجال قرآني وتراثي عربي، ورفض ما يتعدّى ذلك إلى مجرد التصور أو التقدير النظري، ودقّة التحليل اللغوي، ويعارض تأويل المعتزلة والجهمية وسواهم كلمة (إذْن) في الآية المتقدمة بعلم أو إعلام، ويرجع في هذه المعارضة إلى التداول الحي لهذه الكلمة، رافضاً تحميلها غير دلالتها العربية المتبعة ويقول : (وأما اللغة فإنه لا يجوز فيها أن يجعل الإذن العلم لأنه الإذن، ألا ترى أنَّ قائلاً لو قال لك قد آذنتك بخروج الأمير إيذاناً أي أعلمتك خروجه إعلاماً، إنَّ جوابك كان يكون له قد آذنت لقومك إذناً أي سمعته فعلمته . والإيذان المأخوذ من الأذن إنما هو إيقاع الخبر في الأذن، والأذن استماعه وعلمه، قال عدي بن زيد [4] :

أيُّها القَلْبُ تعلَّلْ بِدَدَنْ إنَّ هَمِّي في سَماعٍ وأذُنْ [5]

ومنه أذان الصلاة إنما هو إسماع الناس ذكرها حتى يعلموا . وقوله الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وأذان من الله ورسوله ﴾ [6]، أي إسماع وإعلام، والإذن في الشيء أن تشاءه وتطلقه،

---

(1) يونس : 99.

(2) يونس : 100.

(3) الاختلاف في اللفظ : 101.

(4) هو عدي بن زيد العبادي، شاعر جاهلي غلب على شعره طابع الحكمة والزهد، قيل إن النعمان قتله (604م) .

(5) بددن : بلهو، وقد جاء في الحديث (ما أنا من دَدٍ ولا دَدُ مني) .

(6) التوبة : 3.

تقول : أذنت له في الخروج إذناً) هذا ما ليس به خفاء على من نظر إلى اللغة وفهمها "[1] .

ويعارض ابن قتيبة ما ذهب إليه الجهمية والمعتزلة في تأويل قوله تعالى : ﴿ فمن يُرِدِ الله أن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَه للإسلام ومن يُرِدْ أن يُضلَّه يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضيِّقاً حَرَجاً ﴾[2] ، فجعلوا الإرادة في الهداية والإضلال للعبد لا لله، وركبوا في ذلك غلطاً، والإرادة لا يجوز أن تكون للعبد وقد وليها اسم الله، وهو مرفوع بإجماع القُرّاء، ولو كان أحد منهم نَصَبَ الله لكان أقرب إلى المعنى الذي أراده، وإن كان لا يجوز أيضاً لأنه يضم في الكلام (من) فيكون معناه من يريدُ مِنَ الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ثم يحذف (من) وينصب الله لمّا نزع حرف الصلة كما يقال " من يسرق القوم مالهم يقطع " ، وهذا ليس يجوز إلا مع حروف معدودة محكية عند العرب لا تحمل عليها غيرها وتقيسها عليها[3] .

فقد انتقد ابن قتيبة تأويل المعتزلة الكلامي لهذه الآية في أصولية دينيَّة ولغوية، ورأى أنَّهم يحرفون الحقائق والصفات وينسبون إلى المخلوق ما هو خاص بالخالق انسجاماً مع ما يؤمنون به في مذهبهم الكلامي دون مراعاة لخصائص الكلام العربي، وخاصَّة في قواعدها النحوية . وقالوا في قوله تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنَّم كثيراً من الجنِّ والإنس ﴾[4] دفعنا وألقينا ..... ويرد عليهم ابن قتيبة بقوله : " وهذا جهلٌ باللغة وتصحيف، وأحسبهم سمعوا قول العرب : " أذرَتْه الدَّابَّةَ عن ظهرها " أي ألقته، فتوهموا أنّ (ذرأنا) من ذلك، ولو أريد ذلك المعنى لكان (لقد أذرينا لجهنَّم) . وليس يجوز أن تكون (ذرأنا) في هذا الموضع إلاّ خلقنا كما قال : ﴿ ذرأكم في الأرض ﴾[5] ، وقال : ﴿ يذرؤكم فيه ﴾[6] أي

---

(1) الاختلاف : 102 .

(2) الأنعام : 125 .

(3) الاختلاف : 103 .

(4) الأعراف : 179 .

(5) المؤمنون : 79 .

(6) الشورى : 11 .

يخلقكم في الرحم[1].

ويُظهر ابن قتيبة دراية عميقة بالنص القرآني حين يفسر الآيات المشكلة، مُدْرِكاً تَطَوَّر دلالة اللفظ الذي قد يرد بشكل عام ولكنَّه يعني ضمناً معنى خاصاً كقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿ وأنا أوَّلُ المؤمنين ﴾[2]، ثم قوله على لسان محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ وأنا أوَّلُ المسلمين ﴾[3]، لم يريدا كل المؤمنين، وكل المسلمين في جميع الأزمنة، بل مؤمني زمن موسى ومسلمي زمن نبينا، عليهما السلام، وكذلك قوله تعالى في بني إسرائيل: ﴿ فضّلكم على العالمين ﴾[4]، لم يفضّلهم على محمد صلى الله عليه وسلم، ولا أمّتهم على أمته، وإنما أراد عالمي أزمنتهم[5].

فابن قتيبة لم يفسر معنى اللفظ تفسيراً سطحياً، وإنما فسره من خلال سياق الآية، وحدَّد دلالته الخاصة، مدركاً أنَّ الألفاظ تكتسب دلالاتها من سياق الكلام.

وأدرك بحسّه اللغوي السليم أثر الحرف في تحديد معنى الآية، وتنبه لمحاولات الجهمية وأتباعها في إبدال بعض حروف القرآن بغيرها لإقامة مذهبهم، وردَّ عليهم، وأبطل قراءاتهم، لأنه رأى فيها تحريف المعنى عن جهته ونقله عن سننه وقال: " وحاول بعضهم إبدال حروفه بغيرها فقرأ: ﴿ عذابي أصيب به من أشاء ﴾[6]، بالسين غير المعجمة والنصب، وقرأ جميع ما في القرآن من المخلَصين بكسر اللام، وإن كان قرأ بذلك بعض القراء يريد أن يجعل الإخلاص لهم وألاّ يكون لله فيه صنع فكيف يصنع بقوله: ﴿ إنا أخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةِ

(1) الاختلاف: 104.

(2) الأعراف: 143.

(3) الأنعام: 163.

(4) الأعراف: 140.

(5) الاختلاف: 105.

(6) الأعراف: 156.

ذكرى الدار ﴾[1]. وقرأ : ﴿ ولا يحسبَنَّ الَّذين كَفَروا أنَّما نُمْلي لَهم[2] خيرٌ لأنفسِهمْ إنما نملي لَهُم لِيزْدادُوا إثْماً ﴾[3]، بكسر الثانية وفتح الأولى ، يريد لا يحسبَنَّ الذين كفروا أنما نملي لهم ليزدادوا إثماً إنما نملي لهم خيراً لأنفسهم، فحرّف المعنى عن جهته، ونقله عن سننه، وجعل الإملاء للكفّار من الله إنما هو لخير يريده بهم .

وقد حمل بعضهم نفسه على أن قرأ : " ليزدادوا إيماناً " وألحقها في بعض المصاحف طمعاً في أن تبقى على الدهر ويجعلها الناس وجهاً[4]، وكيف له ما قدّر ؟ والله يقول إلى جنبها : ﴿ ولهم عذاب مهين ﴾[5].

وينتصر ابن قتيبة لدعوة إثبات الصفات الإلهية متبعاً في ذلك السلف، وهو يرفض نفي هذه الصفات، كالقول بأن الله حليم ولكن ليس بحلم، وعليم وليس بعلم، وسوى ذلك .

ويستند في تأييد دعوته إلى اللغة، فالناس مجمعون على أن يقولوا : (أسألك عفوك) و (يعفو بحلم، ويعاقب بقدرة) ، ويرى بحسه اللغوي ما دام الله تعالى يحلم ويعفو حقيقة لا مجازاً فقد وجب في المصدر ما وجب في الصدر، ولأنا نقول : غفر الله مغفرة وعفا عفواً، وحلم حلماً ومن المحال أن يكون واحدٌ منهما حقيقة والآخر مجازاً، ويبسط ابن قتيبة رأيه بالتحليل والمناظرة ويقول : " وتعمق آخرون في النظر وزعموا أنهم يريدون تصحيح التوحيد بنفي التشبيه عن الخالق فأبطلوا الصفات مثل الحلم والقدرة وأشباه ذلك، فقالوا : (نقول هو الحليم ولا نقول بحلم وهو القادر ولا نقول بقدرة، وهو العالم ولا نقول بعلم كأنهم لم يسمعوا إجماع الناس على أن يقولوا : (أسألك عفوك) وأن يقولوا (يعفو

---

(1) ص : 46. ذكرى الدار : ذكر الدار : الآخرة أي ذكرها والعمل بها .

(2) أنَّما نُملي لهم : أي إملاؤنا (لهم) بتطويل الأعمار .

(3) آل عمران : 178 .

(4) أي وجه من وجوه القراءة القرآنية عملاً بالحديث : "إنما أنزل القرآن على سبعة أحرف " .

(5) آل عمران : 178 . ولهم عذاب مهين : ذو إهانة في الآخرة .

بحلم ويعاقب بقدرة والقدير هو ذو القدرة (والعليم هو ذو العلم) .

" فإن زعموا أنَّ هذا مجاز قيل لهم : ما تقولون في قول القائل : (غفر الله لك، وعفا عنك) أمجاز هو أم حقيقة فإن قالوا هو مجاز فالله لا يغفر لأحد ولا يعفو عن أحد ... ولن يركبوا هذه [1]، وإن قالوا : حقيقة فقد وجب في المصدر ما وجب في الصدر، لأنا نقول : غفر الله مغفرة " ، وعفا عفواً وحلم حلماً، فمن المحال أن يكون واحد حقيقة والآخر مجازاً" [2].

فابن قتيبة انتصر لرجال الحديث في إثبات صفات الله كالسمع والبصر والحلم، وغيرها أي أن الله سميع بسمع، وعليم بعلم، وحليم بحلم، وسمعه صفة له، وما هو عين ذاته، وكذلك هو علمه وحلمه وسواه، وعارض الجهمية هذا التأكيد الصفاتي الإلهي، وأصروا على نفي الصفات عن الذات الإلهية خوفاً من الوقوع في التشبيه أو التجسيم، ويقولون إنَّ الله عليم وعلمه هو عين ذاته، وكذلك هو بصره، وسمعه، وغيره.....

ويخوض ابن قتيبة معترك الرأي بمسألة خلق القرآن، وزاده في ذلك اللغة، فينبري إلى مقارعة خصومه من المعتزلة بإبطال حججهم التي اعتمدوها من ألفاظ القرآن، بأنه مخلوق، فيعيد ابن قتيبة تأويلها مستخدماً براعته اللغوية، ومقدرته على تقليب الكلمة على وجوه مختلفة تلائم معتقده، وتستقيم مع مذهبه الذي أقامه، فقد تزعم أهل السنة الذين يقولون بقدم كلام الله النفسي، وحدوث الأصوات والنقوش والأوراق والقلوب التي فيها الكلام اللفظي، وقال ابن قتيبة في ردّه على المعتزلة : " وقالوا في كلام الله إنه مخلوق لأن الله تعالى قال : ﴿ إنا جعلناه قرآناً عربياً ﴾[3]، والجعل يعني الخلق، ولأنّه قال : ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربِّهم مُحْدَثٍ ﴾[4]، فكل محدث مخلوق وإن معنى كلَّم الله أوجد

(1) ولن يركبوا هذه : أي لن يقدموا على ارتكابها .
(2) الاختلاف : 109 .
(3) الزخرف : 3 .
(4) الأنبياء : 2 .

كلاماً و : ﴿ كلَّمَ الله موسى تكليما ﴾ [1]، أوجد كلاماً سمعه . فخرجوا بهذا التأويل من اللغة ومن المعقول لأنَّ معنى تكلَّم الله أتى بالكلام من عنده، وترحَّم الله أتى بالرحمة من عنده، كما يقال : تخشَّع فلان أتى بالخشوع من نفسه، وتشجَّع أتى بالشجاعة من نفسه، وتبتَّل [2] أتى بالتبتَّل من نفسه، وتحلَّم أتى بالحلم من نفسه، ولو كان المراد أوجد كلاماً لم يجز أن يقال تكلَّم، وكان الواجب أن يقال : (أكلم) ، كما يقال : (أقبح الرجل أتى بالقباحة) و (أطاب) أتى بالطيب، و (أخسَّ) أتى بالخساسة، وأن يقال : (أكلم اللّه موسى كلاماً) كما يقال : (أقبر الله الميت) أي جعل له قبراً، أو (أرعى الله الماشية) جعلها ترعى وأشباه هذا كثيرة لا تخفى على أهل اللغة . . . . "[3].

" وأمَّا استشهادهم (بالجعل) على خلق القرآن في قول الله ﴿ إنَّا جعلناه قرآناً عربياً ﴾ [4]، فإنّ الجعل يكون بمعنيين أحدهما خلق، والآخر غير خلق .

" فأمَّا الموضع الذي يكون فيه خلقاً فإذا رأيته متعدياً إلى مفعول واحد لا يجاوزه، كقول الله : ﴿ خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾ [5]، فهذا بمعنى خلق، وكذلك : ﴿ وجعل منها زوجها ﴾ [6] أي خلق منها، وأمَّا الموضع الذي يكون فيه غير الخلق، فإذا رأيته متعدياً إلى مفعولين كقوله : ﴿ وقد جَعَلْتُم اللَّهَ عليكم كفيلا ﴾ [7]، أي صيَّرتم، وكقوله : ﴿ فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها ﴾ [8]، وكقول القائل : (جعل

---

(1) النساء : 164 .

(2) تبتَّل عن الزواج تركه أو زهد فيه .

(3) الاختلاف : 110 .

(4) الزخرف : 3 .

(5) الأنعام : 1 .

(6) الأعراف : 189 .

(7) النحل : 91 .

(8) البقرة : 66 .

فلان أمر امرأته في يدها)[1]، فإن هم وجدوا في القرآن كله جعل، متعدية إلى القرآن وحده ليقضوا عليه بالخلق فنحن نتابعهم، وكذلك المُحْدث ليس هو في موضع معنى مخلوق، فإن أنكروا فليقولوا في قول الله : ﴿ لعلَّ الله يُحْدِثُ بَعْدَ ذلك أمراً ﴾[2]، إنه يخلق، وكذلك قوله : ﴿ لعلَّهم يتَّقون أو يُحدث لهم ذكراً ﴾[3]، أي يحدث لهم القرآن ذكراً، والمعنى يحدث عندهم ما لم يكن . وكذلك قوله : ﴿ ما يأْتِيهم مِّن ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ ﴾، أي ذكر حدث عندهم لم يكن قبل ذلك"[4] .

ومن الملامح البارزة في منهج ابن قتيبة اللغوي أنه يفسر اللفظ جارياً على سنن العرب، ولا يزيل اللفظ عن ظاهره، ولا يتحملُ في تأويله تأويلاً مجازياً يبعده عن معناه الظاهر، مع شدة حرصه على عدم الوقوع في حبائل التجسيم والتشبيه، فهو يقر بصفات الله التي انتهى إليها الله عزَّ وجل في صفته، أو إلى حيث انتهى رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا يزيل اللفظ عما تعرفه العرب وتضعه عليه .

وقد أقرَّ بوقوع الاشتراك في اللغة، فاللفظ الواحد عنده، يحتمل أكثر من معنى، ويحدد معناه سياق الآية، أو الجملة، فهو ينص على معناه الظاهر، دون سؤال عن الكيف، ولذلك فقد رفض تأويل المعتزلة كلمتي اليد، والروح في بعض الآيات القرآنية، فقد أوّلوا كلمة يد في قول الله تعالى : ﴿ وقالتِ اليَهُودُ يدُ الله مَغْلُولَةٌ ﴾[5] بالنعمة، وكلمة : (الروح) في قوله تعالى : ﴿ ونَفَخْتُ فِيهِ من رُوحي ﴾[6] بالأمر، أي أمرت أن يكون .

---

(1) جعل فلان أمر امرأته في يدها : أي أوكل إليها أمر طلاقها منه وليس له .

(2) الطلاق : 1 .

(3) طه : 113 .

(4) الاختلاف : 110، 111 .

(5) المائدة : 64 .

(6) الحجر : 29 .

ويرد ابن قتيبة على هذا التأويل فيبين ما لليد من المعاني، مثل النعمة والقوة، كما في قوله تعالى : ﴿ أولي الأيدي والأبصار ﴾ [1]، يريد أولي القوَّة في دين الله، ومعنى اليد الطاقة . ويرفض تأويل (اليد) بالنعمة في الآية المتقدمة، لأنَّ النعمة لا تُغَلُّ، وكما في قوله تعالى : ﴿ بل يداه مبسوطتان ﴾ [2]، ولا يجوز أن يريد (النعمتان مبسوطتَان) . ويؤكد أنَّ اليد في الآية الأولى والمعنية هي اليد، وأنَّ (اليدين) في الآية المتقدمة الثانية هما (اليدان) وهو يستند في تأكيده إلى قول ابن عباس : (اليدان اليدان) ولكن دون أي كيف، ويدعم رأيه بأمثلة موضحة، كقول الرسول صلى الله عليه وسلم (كلتا يديه يمين) ، فلا يجوز لأحد أن يجعل اليدين نعمة أو نعمتين و (يدا) الحديث المذكور تعنيان التمام والكمال، لما في اليمين عند العرب من التمام والكمال، وقوله تعالى : ﴿ لَمَّا خلقت بيدي ﴾ [3]، فاليد هنا ليست النعمة، ولكن هي كما يقول الله ويصف نفسه، وهي تعنيه مع نفي الكيف والتشبيه، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يمين الله سحَّاء لا يغيضها شيء الليل والنهار) أي هي تصب العطاء، ولا ينقصها ذلك أبداً [4] .

ويعارض ابن قتيبة تأويل المعتزلة للروح في الآية المتقدمة الذكر بالأمر، ويبين ما لكلمة الروح من دلالات معنوية مختلفة، فهي تعني الكلام، والملك العظيم، وروح الأجسام، والرحمة والنفخ، وهي ما دامت ملازمة للنفخ فلن تفيد إلاّ معناها الواحد والثابت في التراث كقول الشاعر ذي الرمة[5]، وذكر ناراً قدحها :

---

(1) ص : 45 .

(2) المائدة : 64 .

(3) ص : 75 .

(4) الاختلاف : 113، 114 .

(5) ذو الرّمة : هو غيلان بن بهيس من مضر، وهو أحد الشعراء المتيَّمين وصاحبته ميَّه بنت مقاتل المنقري، وكانت جميلة، وكان هو دميماً، وهو من أصحاب الملحمات، توفي سنة (117هـ) .

وقُلْتُ له ارْفَـعْـهـا إليكَ وأَحْـيِـهـا بِرُوحِكَ واقْـتـتْـه لهـا قَـيْـتـةً قَـدرا [1]

يقــول احي النار بنفــخك . فنحن نؤمن بالنفخ وبالروح ولا نقــول كـيف ذلك، لأنَّ الواجب علينا أن ننتهي في صفات الله إلى حيث انتهى في صفته، أو حيث انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نزيل اللفظ عمَّا تعرفه العرب، وتضعه عليه ونمسك عمَّا سوى ذلك [2].

ويرفض تأويل المعتزلة الآية الكريمة : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئذٍ نَاضِرَةٌ إلى ربِّها نَاظَرةٌ ﴾ [3]، فيرون أن (ناظرة) هنا تعني منتظرة الثواب، ويستندون في ذلك إلى أكثر من دليل كقوله عزَّ وجل : ﴿ لا تدركـه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ [4]، وابن قتيبة يرى في (ناظرة إلى ربِّها) المذكورة إثباتاً لحقيقة الرؤية الإلهية . وينفي نفي المعتزلة لها لكون ناظرة تعني عندهم منتظرة، وذلك لا يصح وإلاَّ وجب التغيير في صيغة الآية فتصبح (... لربِّها ناظرة)، ويقول: وقالوا في قوله : ﴿ وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربِّها ناظرة ﴾ أي منتظرة، والعرب تقول نظرتك وانتظرتك بمعنى واحد، وفي قوله تعالى : ﴿ انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نورِكم ﴾ [5] . أي انتظرونا . وما ننكر أن نظرت قد تكون بمعنى انتظرت، وأنّ الناظر يقال أنا لك ناظر أي أنا لك منتظر، ولا يقال أنا إليك ناظر أي إليك منتظر إلاَّ أن يريد نظر العين، والله يقول : (وجوهٌ يومئذٍ ناضرة إلى رَبِّها ناظرة) ، ولم يقل لربها ناظرة لتحتمل ما تأولوا ... [6]" .

---

(1) واقتت : اقْتَاتَ للنار : قدَّم لها حَطَباً . ونَفَخَ فيها نَفْخاً رفيقاً .

(2) الاختلاف : 115 .

(3) القيامة : 22 - 23 .

(4) الأنعام : 103 .

(5) الحديد : 13 .

(6) الاختلاف : 115، 116 .

وانطلاقاً من موقع ابن قتيبة السلفي فهو يعارض تأويل المعتزلة للمفردات القرآنية : العرش، الكرسي، عجل، فغوى، مؤمناً بالدلالات الأصلية لتلك المفردات في مقابل عقلانية المعتزلة ويدعم آراءه بآيات القرآن الكريم، وبالشعر العربي الذي يحتج به، وهو يغلب هذه المعايير والمبادئ في تأويل القرآن الكريم، على ما عند المعتزلة من مجرد الرأي والنظر، ويرفض تأويل الجهمية والمعتزلة كلمة استوى في الآية الكريمة : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ [1]، بـ(استولى)، ويرى في هذا التأويل مجرد القول بالرأي، والصواب عنده تفسيرها بـ(استقر)، ويدعم رأيه بورود الكلمة المعنية في أكثر من آية قرآنية، وفي مأثور التخاطب العربي كأن يقول الرجل لصاحبه إذا رآه مستوفزاً : استو . وهو ما يعني بوجه آخر إجماع الناس، وقال في ذلك : " وقالوا في قوله : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾، إنه استولى . وليس يُعْرَف في اللغة، استويت على الدار أي استوليت، وإنما استوى في هذا المكان استقرَّ، كما قال الله تعالى : ﴿ فإن استويت أنت ومن معك على الفلك ﴾ [2]، أي استقررت . وقد يقول الرجل لصاحبه إذا رآه مستوفزاً استو يريد (استقر)، وأمَّا قوله : ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ [3]، فإنه أراد عمد لها وقصد، فكل من كان في شيء ثم تركه لفراغ أو غير فراغ وعمد لغيره، فقد استوى إليه، فهذا مذهب القوم في تأويل الكتاب بآرائهم [4] وعلى ما أصَّلوا من قولهم [5]" .

لقد صدر ابن قتيبة في كتابه (الاختلاف في اللفظ والرد على الجهميَّة والمشبِّهة) عن آراء ناضجة في تأويل مشكل الآيات، وأثبت نضجاً لغوياً، وعمقاً في الثقافة، واجتهاداً

(1) طه : 5 .

(2) المؤمنون : 28 .

(3) البقرة : 29 .

(4) بآرائهم : أي دون الرجوع في التأويل إلى نصٍّ قرآني أو حديث نبوي .

(5) الاختلاف : 120 .

دونما مفارقة في ذلك للكتاب والسنة، وهديهما، أو تَعمد للقياس . ويدعم آراءه بأدلة من القرآن الكريم، والحديث الشرِيف، وبمأثورات التراث العربي، منافحاً عن دينه ولغته، مفنداً آراء خصومه، يبطل حججهم بتفقهه في أمور العقيدة، وامتلاكه ناصية اللغة، والغور على خفاياها وأسرارها، وعلمه بدلالات ألفاظها الأصلية واتِّساقها مع سنن العرب في التعبير وطرق القول ومآخذه .

ولا شك أنَّ ابن قتيبة تأسَّى بدراساته القرآنية بأئمة التفسير كابن عباس ومجاهد وغيرهما وأفاد من آرائهم، ونقل كثيراً في كتبه عنهم، مصرِّحاً بأسمائهم، ونهج نهجهم في تفسير غريب القرآن وتأويل مُشْكله، بالرجوع إلى شعر العرب وكلامهم، ولعلَّ هذا هو الاتجاه الأسلم لتجنب تحميل النص القرآني ما ليس له، كما يفعل أصحاب البدع والأهواء، وسلك منهجاً تطبيقياً جديداً في تفسيره آيات القرآن الكريم، أساسه رسم الصورة الكاملة، لايضاح الفكرة، وبيان الغرض من النص القرآني، ولذلك لم يعن بالتعريفات والتقسيمات، بل انصرفت عنايته إلى الناحية التطبيقية فأكثر من الشواهد والأمثلة.، مبيناً المراد منها، لتتحقق الغاية المرجوة، وهي فهم الفكرة وتقريرها وتأكيدها في ذهن القارئ، وقد خالف اللغويين والنقاد الذين كانوا يحتجون بكلام العرب على القرآن، فابن قتيبة يورد النص القرآني، ثم يتبعه بآيات القرآن وبكلام العرب شعراً ونثراً، وهو بذلك يحتج بالقرآن على الشعر وكلام العرب، ومحاولاته من هذا القبيل من مظاهر شخصيته العلمية المستقلة .

الفصل الثاني

جهود ابن قتيبة اللغوية في
تفسير الحديث وتأويل مختلفه

جهود ابن قتيبة في تفسير غريب الحديث وتأويل مختلفه

أ - مقدمة :

الحديث في اللغة ضدّ القديم، وفي اصطلاح الشرعيين ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم من قول، أو فعل، أو تقرير، وإن بعض النّاس خصّ الحديث بما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم من قول فقط، ولعلّ هذا الرأي الأخير يراعي المعنى اللغوي للحديث .

والحديث نوعان : حديث نبوي، وهو ما ذكرنا . وحديث قدسي، وهو ما روى فيه الرسول عن ربّه، بناه على الإلهام للرسول بمعناه في اليقظة أو المنام، ثم يُعَبّر الرسول عنه بعبارة من عنده .

والفرق بين الحديث القدسي والقرآن، مع أنّ كُلاً منهما طريقه الوحي الإلهي، أنّ القرآن قد نَزَل به جبريل بلفظه ومعناه في اليقظة، وأنه متعبدٌ بتلاوته وأنه معجز، ولا يصح نسبته عند القراءة إلاّ إلى الله تعالى، أمّا الحديث القدسي فليس بمُعجز، وليس متعبداً بتلاوته، ولا يكون له من الأحكام ما للقرآن، وتصح نسبته عند روايته إلى الله تعالى أو الرسول ، فيقال: قال الله تعالى فيما يرويه عنه الرسول، أو قال الرسول فيما يرويه عن ربّه .

وللحديث علوم كثيرة، أهمها علم الحديث رواية، وعلم الحديث دراية، فأما علم الحديث رواية فهو علم يشتمل على أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته وصفاته وروايتها وضبطها وتحرير ألفاظها، وموضوعه ذات الرسول صلى الله عليه وسلم من حيث إنه رسول .

وعلم الحديث دراية، وهو المعروف بعلم مصطلح الحديث : علم يعرف به حقيقة الرواية وشروطها، وأنواعها، وأحكامها، وحال الرواة وشروطهم، وأصناف المرويات، وما يتعلّق بها .

ب – علم غريب الحديث :

غريب الحديث هو ما وقع في متن الحديث من الألفاظ الغامضة، البعيدة من الفهم لقلة استعمالها . وعلم غريب الحديث، من المهمات المتعلقة بفهم الحديث والعلم والعمل به، لا بمعرفة صناعة الإسناد وما يتعلق به . وهو فن جليل، له خطره في معرفة الحُديث وروايته، ويتطلب من طالب الحديث، إتقانه ويجب أن يتثبت فيه أشدّ تثبت، ويهدف هذا العلم إلى شرح ما خفي معناه من ألفاظ الحديث النبوي، وقد اهتم علماء المسلمين به، لما يترتب عليه من ضبط ألفاظ الحديث، وفهم معناه، إذ من اليسير على المرء أن يروي مالا يفهم، أو ينقل مالا يحسن أداءه . ومعرفة مفردات الحديث وفقه معناها هي الخطوة الأولى إلى فهم معنى الحديث، واستنباط الحكم منه، وتتأكد العناية بمعرفة غريب الحديث لمن يروي الحديث بالمعنى، ومّما تجدر ملاحظته أن حديث رسول الله "صلى الله عليه وسلم" لم يكن غريباً على الأمة العربية في صدر الإسلام، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أفصح العرب لساناً، وأعذبهم نطقاً، وأسدَّهم لفظاً، وأبينهم حُجَّة، وأقواهم عبارة، وأوسعهم بياناً، وأحسنهم ترتيباً للكلام وأكثرهم تنزيلاً له منازله، وأعرفهم بمواقع الخطاب، فقد أمَّده الله بجوامع الكلم، وقد تكلم بألفاظ اقتضبها لم تسمع من غيره، وإذا عزب عن بعض أصحابه شيءٌ مما يقوله سألوه عنه، فيبينه لهم، فكان يخاطب العرب على اختلاف قبائلهم ولهجاتهم بما يفهمون .

فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل في دين الإسلام كثيرٌ من أبناء الأُمم الأُخرى، الذين تعلموا من العربية ما لا غنى لهم عنه في المحاورة والخطاب، اشتدت الحاجة إلى ضبط ألفاظ الحديث الشريف، كما مسّت إلى ضبط الكلام عصمة من اللحن، فنهض العلماء وأهل اللغة والمحدّثون إلى وضع الآثار في هذا الفن، منذ افتتاح القرن الثاني للهجرة، فتتبّعوا الألفاظ الغريبة في متن الحديث، وانبروا لبيانها وشرحها، بل اهتموا بشرح الأحاديث كلها، لتسهل على الناس معرفة الدين، وييسر لهم العمل بأحكامه .

وإنَّ الأقوال المنسوبة إلى الصحابة أو التابعين، متى جاءت من طريق المحدثين، تأخذ حكم الأقوال المرفوعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة الاحتجاج بها في إثبات لفظ لغوي، أو وضع قاعدة نحوية [1].

وقد تعَّرض القدامى إلى مسألة الاحتجاج بالحديث الشريف ولم ينفوا صحة الاستدلال به، وقال في ذلك الخطيب البغدادي : " لا يلزم من عدم استدلالهم بالحديث الشريف عدم صحة الاستدلال به [2]" . وناقش الباحثون المحدثون مسألة استشهاد القُدامى بالحديث الشريف، وذكروا بأنهم لم يمنعوا الاستشهاد به، وقال الدكتور أحمد مختار عمر في ذلك : " إنَّ هؤلاء القُدماء الذي نسب إليهم رفضهم الاستشهاد بالحديث لم يثيروا هذه المسألة، ولم يناقشوا مبدأ الاحتجاج بالحديث، وبالتالي لم يصرّحوا برفض الاستشهاد به، وإنما هو استنتاج من المتأخرين الذين لاحظوا خطأ أن القُدامى لم يستشهدوا بالحديث، فبنوا عليه أنهم يرفضون الاستشهاد به، ثم حاولوا تعليل ذلك [3]" . وذكر الدكتور أحمد مختار عمر أنَّ أغلب القُدماء من النحويين واللغويين قد استشهدوا بالحديث الشريف في مسائل اللغة والنحو، منهم أبو عمرو بن العلاء والخليل وسيبويه والكسائي والفرّاء والأصمعي وأبو عبيد وابن الأعرابي وابن السكيت وأبو حاتم وغيرهم [4].

وليس ما يفسر قلة احتجاجهم بالحديث الشريف إلا جواز رواية الأحاديث بالمعنى، لا باللفظ، إضافة إلى وقوع اللحن فيما روي من الحديث الشريف، لأنَّ كثيراً من رواته كانوا من الأعاجم، فوقع اللحن في روايتهم، وهم لا يعلمون ذلك [5].

---

(1) محمد الخضر حسين، الاستشهاد بالحديث في اللغة، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج 3ص/ 167.

(2) خزانة الأدب : 1/ 9.

(3) البحث اللغوي عند العرب : 19.

(4) نفسه : 22-21، وينظر موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث / 42 وما بعدها .

(5) خزانة الادب : 1/9، 5/168، 169، والاقتراح للسيوطي : 16-18.

ونشط علماء الحديث في أواخر القرن الثاني للهجرة، ومطالع القرن الثالث، نشاطاً عظيماً في تدوين الحديث، وتقريبه على طالبيه، وظهرت الكتب التي اعتمدها المحدثون، وعليها عوّل المستنبطون وحظيت بخدمة العلماء في جميع العصور ما بين شارح ومختصر، وهذه الكتب ستة : الصحيحان للبخاري، ومسلم، والسنن لأبي داوُد، والنّسائي، والترمذي، وابن ماجه .

وصرف علماء اللغة اهتمامهم إلى التأليف في غريب الحديث، وتفسير ألفاظه، وتأويل مختلفه وأول من تنص المصادر على تأليفه كتاباً في هذا الفن هو أبو الحسن النضر بن شُمَيْلٍ المازني (203 هـ)[(1)]، وهو أحد شيوخ إسحاق بن راهويه شيخ البخاري، ثم تبعه كثير من المصنفين في غريب الحديث، منهم أبو بكر الحسين بن عباس الباجداني (204 هـ[(2)])، وأبو عمرو الشيباني (206 هـ[(3)])، وقطرب (206هـ[(4)])، والفرّاء (207هـ[(5)])، وأبو عبيدة معمر بن المثنى (210هـ[(6)]) والأصمعي (213هـ[(7)])، والأخفش (215هـ[(8)])، وأبو زيد الأنصاري (215هـ[(9)])، وأبو عبيد القاسم بن سلاَّم (224هـ[(10)])، وابن الأعرابي (231هـ[(11)])، وعمرو بن أبي عمرو الشيباني

---

(1) الفهرست / 129، ونزهة الألباء / 85، وطبقات المفسرين للداودي 2/35، ومعجم الأدباء 19 / 243 .

(2) الفهرست /129، والنهاية 1/5، وإنباه الرواة 3/8، وطبقات المفسرين للداودي 2/35 .

(3) الفهرست /102، وإنباه الرواة 1/227، ومعجم الأدباء 6 / 282 .

(4) الفهرست / 129، وإنباه الرواة 3/220، والنهاية 1/5، ومعجم الأدباء 19 / 53 .

(5) طبقات المفسرين للداودي 2 / 326 .

(6) بغية الوعاة 2 / 295 .

(7) الفهرست /129، وإنباه الرواة 2/203، والنهاية في غريب الحديث والأثر 1/6 .

(8) طبقات المفسرين 129 .

(9) الفهرست 129 .

(10) بغية الوعاة / 376 .

(11) الفهرست : 129 .

(ت231هـ[1])، وعلي بن المغيرة بن الأثرم (232هـ[2])، وأبو جعفر محمد بن عبد الله بن قادم (251هـ[3])، وأبو عمرو شَمِر بن حمدويه الهروي (255[4])، وسَلَمة بن عاصم النحوي (270هـ[5])، وابن قتيبة عبدالله بن مسلم الدينوري .

ويعد كتاب أبي عبيد القاسم بن سلاَّم الهروي (–224 هـ) أقدم ما وصلنا من مصنفات غريب الحديث، وكان بعده كتاب أبي محمد، عبد الله بن مسلم .

جـ- غريب الحديث لابن قتيبة :

نال كتاب " غريب الحديث " شهرة عظيمة، وعُدَّ أصلاً من أصول اللغة وعلم الغريب، وذكر القُدامى من العلماء المحققين أنه وكتاب أبي عبيد (غريب الحديث) من أُمهات هذا الفن، ووصفَهما ابن الأثير بقوله : " وفي الكتابين غنى ومندوحة عن كل كتاب ذكرناه قبل، إذ كانا قد أتيا على جماع ما تضمنت الأحاديث المودعة فيهما من تفسير وتأويل، وزادا عليه فصارا أحقّ به وأملك له[6]" .

وقد أشار ابن قتيبة في مقدمة كتابه " غريب الحديث " إلى أنه سعى إلى إكمال ما بدأه أبو عبيد القاسم بن سلاَّم، حيث لم يستوعب الأخير في مصنفه، على سعته، جميع ألفاظ غريب الحديث والآثار، ولم يستطع أن يأتي على جميع الأحاديث، فقد اجتمع لابن قتيبة عدد وافٍ من الأحاديث الشريفة تستحق أن يضع لأجل تفسير غريبها كتاباً آخر فقال:

---

(1) الفهرست : 101 .

(2) الفهرست : 129 .

(3) الفهرست : 129، ومعجم الدباء 18 / 209 .

(4) معجم الأدباء : 11 / 275 .

(5) معجم الأدباء : 11 / 243، وطبقات المفسرين للداودي 1 / 208 .

(6) النهاية في غريب الحديث والأثر : 1 /7، 8 .

" وقد كنت زماناً أرى أن كتاب أبي عبيد قد جمع تفسير الحديث، وأنَّ الناظر فيه مستغن به، ثم تعقبت ذلك بالنظر والتفتيش والمذاكرة، فوجدت ما تركه نحواً ممَّا ذكر أو أكثر منه، فتتبعت ما أغفل وفسَّرته على نحو ما فسّر، بالإسناد لما عرفت إسناده، والقطع لما لم أعرفه، وأشبعت ذلك بذكر الاشتقاق والمصادر والشواهد من الشعر، وكَرِهت أن يكون الكتاب مقصوراً على الغريب، فأودعته من قصار أخبار العرب وأمثالها، وأحاديث السّلف وألفاظهم ما يُشاكِل الحديث أو يوافق لفظُه لفظه، لتكثر فائدة الكتاب ويمْتَع قارئه ويكون عوناً على معرفته وتحفُّظه [1]، ولم أعرض لشيءٍ ممَّا ذكره أبو عُبَيْد، إلاّ أحاديث وقع فيها زلَل، فنبهت عليه ودللت على الصّواب فيه، وأفردت لها كتاباً يدعى : كتاب " إصلاح الغلط " وإلاّ حروفاً تَعْرِض في باب ولا يكمل ذلك الباب إلاّ بذكرها، فذكرتها بزيادة في التفسير والفائدة، ولن يخفى ذلك على من جمع بين الكتابين [2].

فابن قتيبة لم تقتصر جهوده على ذكر الأحاديث التي أهملها أبو عبيد في الغريب، بل تعقبه، ورأى جملة من الأحاديث مفسّرة في (غريبه) على نحو مجانب للصواب، فخالفه في تفسيرها وردّها عليه، ونبّه على أخطائه، وأفرد تلك التنبيهات في كتاب سمَّاه : "إصلاح غلط أبي عبيد في غريبه" وقد وضع ابن قتيبة كتاب (غريب الحديث) وفاق المنهج الآتي:

أولاً : ابتدأ بتفسير الألفاظ الدائرة بين النّاس، في الفقه وأبوابه . . .

ثانياً : ثم ابتدأ بتفسير أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وضمنه الأحاديث التي يدعي بها على حملة العلم حمل التناقض .

ثالثاً : ثم تلاه بأحاديث الصحابة رجلاً رجلاً .

---

(1) التحفظ : التيقظ من السقطة، وقلة الغفلة في الأمور، ثم أصبحت من استعمالات المولدين، وتعني عندهم : الحفظ . ينظر اللسان (حفظ)، وتصحيح الفصيح1 / 103، وأساس البلاغة / 133 .

(2) غريب الحديث، 151 .

رابعاً : ثم تلاه بأحاديث التابعين، ومن بعدهم، من تابعي التابعين، وبعض الخلفاء من بني أُمّية، ونَفَرٍ من ولاتهم .

خامساً : أفرد باباً لتفسير غريب أحاديث النساء . . .

سادساً : ختم الكتاب بذكر أحاديث غير منسوبة، سمع أهل اللغة يذكرونها، ولا يعرف أصحابها ولا طرقها، حسنة الألفاظ، لطاف المعاني، تزيد على الأحاديث التي ختم بها أبو عبيد كتابه أضعافاً .

ولم يراع ابن قتيبة ترتيب الأحاديث في أبوابها ترتيباً معيَّناً، فهي غير مرتبة على الحروف، ولا على الموضوعات، وإنما ذكرها الواحد تلو الآخر دون نظام ما . وطريقته في ذكر الحديث هو أن يبدأ بذكره كاملاً أو مختصراً ثم يذكر بعده السند في أغلب الأحاديث، ثم يشرح الألفاظ التي يرى أنها غريبة، ملتزماً إشباع التفسير، وإيراد الحجة، وإيضاح المبهم من العبارات، ذاكراً الأشباه والنظائر لإظهار معنى النص في شكلٍ مفهوم، يتّسق ومعنى التفسير العام، مشيراً إلى اللغات والظواهر اللغوية، مؤيداً آراءه بما أفاد من آراء علماء البصرة والكوفة.

ويمكننا أن نحدد منهجه في تناوله الأحاديث الشريفة التي أراد الكشف عن معانيها، وتفسير غريب ألفاظها بما يلي :

نجد ابن قتيبة قد أخذ نفسه كثيراً بذكر الأصل اللغوي للكلمة وجعله أصلاً لمعاني الكلمات القريبة من هذه الكلمة في حروفها مبيناً دلالة ذلك الأصل، مشبعاً ذلك بذكر الاشتقاق والمصادر، والشواهد من كلام الله، وكلام العرب، مثلاً وخطباً، وشعراً، موضحاً المعنى المراد من اللفظة التي يفسرها، من ذلك تفسيره الألفاظ الدائرة في الفقه والأحكام واشتقاقها . وبدأ بتفسير كلمة " الوضوء للصلاة " وقال : " هو من الوضاءة، والوضاءة النظافة والحسن، ومنه قيل : فلان وضيء الوجه، أي : نظيفه وحسَنُه، فكأن الغاسل لوجهه

وضّأه، أي : نظّفه بالماء وحسّنه، ومن غسل يده أو رجله أو عضواً من أعضائه . . . بالماء فقد وضّأه . والوضوء الذي حدّده الله تعالى [1] في كتابه للصلاة هو غَسْلُ الوجوه والأيدي إلى المرافق، والمسح بالرؤوس والأرجل، والغسل للرّجل وغيرها يسمى مسحاً، خبّرنا بذلك سهل [2] بن محمد عن أبي زيد الأنصاري قال : وقال، ألا ترى أنك تقول تَمَسَّحت للصلاة، إذا توضأت لها، وإنّما سمّي الغسل مسحاً، لأن الغسل للشيء تطهير له بإمرار الماء . والمسح تطهير له بإمرار الماء، فالمسح خفيف الغُسْل [3] .

ومن ذلك تفسيره كلمة " الاستنثار " فقال : " سُمّي بذلك، لأنَّ النّثرة الأنف، فالاستنثار (استفعال) من ذلك يراد جَعْلُ الماء في أنفك [4] .

وقوله أيضاً : " التَّيَمُّم بالصعيد أصله التعمُّد، يقال تيممتك وتأممتك، قال الله عزّ وجل ﴿ فتيمموا صعيداً طيباً ﴾ [5] : أي تعمَّدُوا تراباً طيباً، ثم كثر استعمالهم هذه الكلمة حتى صار التَّيمُّم مسح الوجه واليدين بالتراب [6] .

وقال في تفسير كلمة الصلاة : " أصل الصلاة : الدعاء، قال الله عزّ وجل : ﴿ وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾ [7] أي : ادعُ لهم . وقال تعالى : ﴿ ومِنَ الأعرابِ من يؤمن باللّه واليومِ الآخر ويتّخذ ما ينفق قُربات عند الله وصلوات الرسول ﴾ [8]، أي : دعاؤه،

---

(1) وآية الوضوء هي : " .... إذا قمتم للصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين " المائدة 66.

(2) سهل بن محمد، هو أبو حاتم السجستاني (-250هـ)، ينظر مراجع ترجمته في بروكلمان 2/ 159 .

(3) غريب الحديث : 1/157، والغُسل، بضم الغين المعجمة، الاسم، بفتحها المصدر، ينظر اللسان (غسل) .

(4) نفسه : 1/160، 161 .

(5) النساء : 43.

(6) غريب الحديث : 161 .

(7) التوبة : 103.

(8) التوبة : 99.

فسميت الصلاةُ بذلك، لأنهم كانوا يدعون فيها، ويدلك على ذلك : الصلاة على الميت، إنّما هي دعاءُ له، ليس فيها ركوع ولا سجود"[1] .

وقد يفسر ابن قتيبة أحياناً معنى اللفظة، ثم يذكر أصلها اللغوي، من ذلك : "التحّيات المُلْك، وأصله إنَّ الملِك كان يُحَيًّا فيقال : أنعِمْ صباحاً، وأبيت اللّعن، ولا يقال ذلك لغيره[2] .

ومن ذلك تفسيره كلمة "الأذان" : "الأذان" هو إعلام الناس للصلاة، ومنه قول الله جلّ وعزّ : ﴿ وأذانٌ من اللّه ورسوله ﴾ [3] أي إعلام من الله . وأصله من الإذن والأُذن، يقال : آذنتك بالأمر فأذِنْت، أي : أعلمتك به فعلمت، يريد أوقعته في أذنك[4] .

وقد يشير إلى سبب تسمية اللفظة كقوله في " الزكاة " : " الزكاة من الزّكاء، وهو النّماء والزّيادة فيها، ومنه قول الله جلّ وعزَّ : ﴿ أقتلت نفساً زاكية ﴾ [5]، بالألف[6]، أي: نامية .

ومنه تزكية القاضي للشهود، لأنه يرفعهم بالتعديل والذّكْر الجميل، ثم يقال فيه : فلان زكيّ، وفلان أزكى من فلان وأطْهَر، ثم قيل لزكاة الفطر فطرة، والفِطرة الخلقة، ومنه قول الله جلّ وعزّ : ﴿ فِطْرة الله التي فطر النّاس عليها ﴾ [7]، أي : جبلّته التي جبل النّاس عليها، يراد أنَّها صدقة عن البدن والنفس، كما كانت الزّكاة الأولى صدقة عن المال[8] ومن

---

(1) غريب الحديث : 1/ 167 .

(2) نفسه : 1/ 168 .

(3) التوبة : 3 .

(4) غريب الحديث : 1/ 172 .

(5) الكهف : 74 .

(6) وهي قراءة، وقيل إنها لغة، يقال : قاسية وقسية . ينظر : الحجة لابن خالويه/ 202 .

(7) الروم : 30 .

(8) غريب الحديث : 1/ 184 .

ذلك تفسيره كلمة "المزابنة" بقوله : بيع المزابنة المنهي عنه : هو بيع للثَّمر في رؤوس النّخل بالتمر كيْلاً، وبيع العنب على الكرم بالزَّبيب كيْلاً، وأخبرنا شيخٌ من أصحاب اللغة أنّه سُمّي مُزابنة، لأنَّ المتبايعين إذا وقفا فيه على الغَبْن، أراد المغبون أن يفسخ البيع، وأراد الغابن أن يمضيه فتزابنا أي : تدافعا واختصما .

والزّبْن : الدفع، يقال : زبَنَتْه الناقة، إذا دفعته برجلْها، فَسُمّي هذا الضّرْب من البيع مزابنة لأنّ المُزابنة هو التُّدافع، والقتال يقع فيه كثيراً [1]" .

وقد يفسر معنى الكلمة، ثم يشير إلى سبب التسمية، من ذلك قوله : (عَصَبة الرجل : وعَصَبة الرجل قَرَابَتُه لأبيه وبَنُوه، وسُمُّوا بذلك لأنّهم عصبةٌ عصبوا به، أي : أحاطوا به، فالأب طرف والابن طرفٌ، والعم جانب والأخ جانب، والعرب تُسمّي قرابات الرَّجل أطرافه

أنشد أبو زيد [2] لعَوْن بن عبد الله بن عُتْبة بن مسعود :

فكيفَ بأطرافي، إذا ما شَتمتني؟ وما بَعْدَ شَتْمِ الوالِدَيْن صُلُوحُ [3]

ولمّا أحاطت به هذه القرابات عصبت به، وكل شيءٍ استدار حول شيء واستكفّ، فقد عصب به، ومنه العصائب، وهي العمائم، ولم أسمع للعَصَبة بواحد، والقياس أن يكون عاصباً مثل طالب وطَلَبة، وظالم وظَلَمة [4]" .

وقد يذهب إلى تفسير معنى الكلمة، ملتمساً سبب التسمية، مبيناً أصلها المعنوي،

---

(1) غريب الحديث : 1/ 193 .

(2) أبو زيد، هو : أبو زيد الأنصاري .

(3) صلوح : صَلاح . اللسان (طرف) و (صلح) . والبيت في اللسان (طرف)، وروايته في (صلح) : فكيف بإطراقي .

(4) غريب الحديث : 1/ 226 .

واشتقاقها اللغوي، من ذلك تفسير ما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذكر القرآن فقال : " حدثني سهل بن محمد عن أبي عبيدة أنّه سُمّي فرقاناً لأنه فَرَّق بين الحق والباطل وبين الكافر والمؤمن، وسمّي قرآنا لأنه جمع السّور وضمها، ويقال للّتي لم تلد من النوق : ما قرأت سلى قط[1]، أي : ما ضمت في رحِمها ولداً، وكذلك ما قرأت جنيناً وقال في قوله تعالى : ﴿ إنّ علينا جَمْعَهُ وقرآنه ﴾ [2] أي : تأليفه، قال : والسورة، تهمز ولا تهمز، فمن همزها جعلها من (أسْأرتْ) يعني : أفضلت فضلة، كأنّها قطعة من القرآن، ومن لم يهمز جعلها من سورة البناء، أي منزلة بعد منزلة [3]" .

وقد يذكر الأصل الاشتقاقي ثم يذكر المعنى، كقوله في تفسير التوراة : " وأمّا التوراة فإنَّ الفراء يجعلها من : ورى الزّنْد يري، إذا خرجت ناره، وأوريْتُه، يريد أنَّها ضياء، وفيه لغة أخرى، وَري الزَّنْد يري، ويقال : وَرِيَتْ بك ناري، ومثله زَهرت بك ناري [4]" .

وقال في تفسير الزّبور : " فإنه من زبر الكتاب يَزْبره، إذا كتبه، وهو (فَعُول) بمعنى (مفعول)، مثل جلُوب بمعنى مجلوب، وركوب بمعنى مركوب، وأصل قولهم : كتب الكتاب، بمعنى جمع حروفه، ومنه كتب الخَرَز، ومنه يقال : كَتَبتْ البَغْلة، إذا جمعت بين شُفريها بحلْقة، وفيه لغة أخرى : الزُّبور بضم الزاي، وكأنّه جَمْع، وقد قرئ بهما[5]، قال أبوذؤيب :[6]

عَرَفْتُ الدّيَارَ كَرَقْمِ الدّوَا ةِ يَزْبُرُها الكاتِبُ الحِمْيَري

(1) السلى : المشيمة . اللسان (سلا) وفيه : "والسّلى : الجلدة الرقيقة التي يكون فيها الولد . ." .

(2) القيامة : 17 .

(3) غريب الحديث : 1 / 241 .

(4) نفسه : 1 / 244، 245 .

(5) من قرأها بالفتح، أراد مفرداً واحداً، ومن قرأها بالضم أراد الجمع، مثل عمود وعُمُد . ينظر : الحجة لابن خالويه / 103، 127 .

(6) شرح أشعار الهذليين 1 / 98 وفيه : يذبرها (بالذال المعجمة)، وذكر الرواية الثانية .

ويروى : يَذْبرها أيضاً، وهو مثله يقال : زبَر الكاتب الكتاب يَزْبِرُه ويزبُرُهُ، وذَبَره يذبُره ويَذْبِرُه [1]" .

وقال في تفسير الإنجيل : [2]" فإنه من نَجلْتُ الشيء، إذا أخرجته، ومنه قيل لنَسْلِ الرّجُل : نَجْلُه كأنّه هو استخراج، يقال : فتح الله ناجليْه، أي : والديه، وقُيل للماء الذي يظهر من النّز : نَجْل، يقال : قد استنجل الوادي، وإنجيل، (إفعيل) من ذلك، كأنّ الحق كان دثِر ودُرِس كثيرٌ من معالمه، وكثر تحريف أهل الكتاب وخَفيَ على النّاس ما أحدثوه، فأظهر الله جلَّ وعزَّ ذلك [3].

فابن قتيبة قد ذكر الأصل الاشتقاقي للكلمة، وبين معناها، وأشبع تفسيرها بالاستدلال والتمثيل والشواهد المتعددة، وتقليبها على وجوهها المتعددة، وذكر ما جاء فيها من لغات مختلفة، وحاول أن يلتمس الاشتقاق لبعض الألفاظ المعَرَّبة وأن يجريها على أوزان ما يماثلها من مفردات عربية الأصل، وقد يُبيّن معنى الكلمة أولاً ثم يذكر أصلها الاشتقاقي من ذلك تفسيره كلمة الفاسق : وقال : " وأمّا الفاسق فإنَّ الفراء يذكر أنه الخارج عن طاعة ربّه، قال : ومنه يقال : فسقت الرُّطبة، إذا خرجت من قشرها، واحتجَّ بقول الله تعالى : ﴿ إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربّه [4] ﴾، قال : خرج عن طاعته، وقد جرى ذكر هذا في ذكر تسمية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، (الفأرة فُويْسِقة [5]) . ولا أعلمني سَمِعْتُ في هذا شيئاً عن غير الفرّاء [6].

---

(1) غريب الحديث : 1/ 245.

(2) الإنجيل : هو في الأصل يوناني، وقيل عبري أو سرياني، ينظر : المُعرَّب / 23-24، واللسان (نجل) .

(3) غريب الحديث 1/ 246.

(4) الكهف : 50.

(5) الحديث في النهاية 3/ 447.

(6) غريب الحديث : 1/ 249.

وقد أخذ ابن قتيبة عن الفراء تفسيره هذا ، وارتضاه، واعتمده في تفسير غريب حديث النبي صلى الله عليه وسلم " أنّه سمّى الغُراب فاسقاً " ، وقال : " الفاسق : العاصي . وأصل الفِسق، الخروج من الشيء " .

قال الله تعالى : ﴿ إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾، أي : خرج عن طاعته، قال الفرّاء : ولا أحسب الفأرة سمّيت فُوَيسقة، إلا لخروجها من جحرها على النّاس[1]" .

وقال في تفسير كلمة الكافر : " أمّا فهو من قولك : كفرْتُ الشيء، إذا غطّيْته، ومنه يقال تكفر فلان في السلاح إذا لبسه، وقال بعضهم : ومنه كافور النّخْل، وهو قشر الطّلْعة . تقديره (فاعول)، لأنه يُغطي الكُفرى[2]، ومنه قيل ليلٌ كافر، لأنه يْستُر كلّ شيء . قال لبيد وذكر الشمس :

حتى إذا ألقت يداً في كافر وأجنّ عَوْراتِ الثّغور ظَلامها

قوله : ألقت يداً في كافر : أي : دخل أولها في الغور، وهو مثل قول الآخر[3] يصف ظليماً أو نعامة :

فتذكّرا ثَقلاً رشيداً بعدما ألقت ذُكاءُ يمينَها في كافر

وذكاء، هي الشمس، ومنه يقال للصبح : ابن ذُكاء، لأنّ ضوءه من الشمس، فكأنّ الأصل في قولهم : كافر، أي : ساترٍ لنِعَم الله عليه، وكان بعض المحدثين يذهب في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا ترجعوا بعدي كفّاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض"[4]

---

(1) غريب الحديث : 1/ 326.

(2) الكفرى (بضم الكاف والفاء، وبكسرها وبفتحهما، وضم الكاف وفتح الفاء، وعاء طلع النخل، وهو الكافور أيضاً) .

(3) هو : ثعلب بن صُعُيرة المازني . ينظر اللسان (كفر) .

(4) الحديث في النهاية : 4/ 185.

إلى التكفّر في السلاح يريد : ترجعوا بعد الولاية أعداء يتكفّر بعضكم لبعض في الحرب[1]" .

فابن قتيبة بيَّن الأصل الاشتقاقي الذي أُخِذَتْ منه الكلمة، وفسّر معناها، مؤيداً رأيه بما ورد في القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر العربي الذي يحتج به وكلام العرب وأمثالهم، ذاكراً الأشباه والنّظائر لإظهار معنى النص في شكل مفهوم، ينسجم ومعنى التفسير العام، مستفيداً من ثقافته اللغوية ومعرفته بأصول الألفاظ لإيضاح المبهم من اللفظ، وهو لا يكتفي بتفسير الكلمة التي أراد بيان معناها في الحديث، وإنما يفسر معاني المفردات في الشواهد التي يحتج بها، وبذلك تتسع دائرة التفسير لتشمل الألفاظ التي يرى أنها غريبة، وتحتاج إلى توضيح وشرح .

وقد يذكر أكثر من معنى للفظ الواحد، ويرى أنّ المعنى يحدده سياق الحديث لبعض الألفاظ التي يرد فيها أكثر من وجه، وقد أقر بوقوع الاشتراك في اللغة، من ذلك ما ذكره في معنى اللحن في حديث معاوية : أنّ المراد باللحن الفطنة، وقال : " قال أبو محمد في حديث معاوية رضي الله عنه أنّه قال : كيف ابنُ زياد ؟ قالوا : ظريفٌ على أنه يَلْحَنُ، فقال: أو ليس ذلك أظرف له[2]" .

وذكر معاني أخرى لكلمة اللحن كاللغة والخطأ[3] .....

ومثل ذلك ما ذكره في معنى " المجيز " فقال : " والمُجيز : المأذون له في التجارة ها هنا، ويكون الوليّ في موضع آخر، ويكون الوصيّ . ومنه قول شُريح : " إذا باع المجيزان، فالبيع للأول وإذا أنكح المُجيزان، فالنكاح للأول " . وإنما قيل لكلّ واحد من هؤلاء : مجيز، لأنه

---

(1) غريب الحديث : 1/ 248.

(2) الفائق : 2/ 376.

(3) غريب الحديث : 2/ 417-419.

يجيز الشيء، أي يُمْضيه فيجوز "[1].

وقال في شرح حديث الإمام علي عليه السلام أنه قال : " أيّما رجل تزوّج امرأة مجنونة أو جَذماء أو بَرصاء أو بها قَرْن، فهي امرأته، فإن شاء أمسك، وإن شاء طلّق "[2].

يرويه وكيع عن ابن أبي خالد عن الشعبي عن عليّ عليه السلام، قال الأصمعي : القَرْن : العَفَلة الصغيرة[3]، وقال غيره : القَرْن كالعَفَلة، ومن العَفَلة يقال امرأة عَفْلاء، إذا كان ذلك بها .. والقَرْن في غير هذا : الجَبَل الصّغير، والقَرْن : الدّفعة من العرق، يقال : عَصرْنا الفرس قرنا أو قرنين، والقَرْن : الخُصْلة من الشعر، ويقال : فلانٌ قَرْن فلان في السن، وهو قِرْنُه بكسر القاف في الشدة[4].

وكان ابن قتيبة ينقل آراء أهل اللغة حين يتناول ألفاظ الحديث الغريبة بالتفسير، ولا يسلّم بها جميعاً، بل كان يجتهد ويفتي بالراجح منها، ويبين وجهين مختلفين للمعنى، ويرجّح ما يراه صواباً، مستنداً إلى معرفته العميقة بأسرار اللغة، والوقوف الدقيق على ظواهرها اللغوية كالاشتراك اللفظي، والإبدال، من ذلك ما ذهب إليه في تفسير كلمة (الصّربى) في حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لرجلُ أتاه " أرَبُّ إبل أنت أم رَبُّ غنم؟ قال : من كلٍّ قد آتاني الله فأكثر وأطيب، قال : فتنتجها[5] وافية أعينها وآذانها، فَتجْدَعُ هذه فتقول : صَرْبى، وتقول بحيرة، فساعِدُ الله أشدّ، وموساه أحَدّ، ولو شاء أن يأتيك بها صَرْبى أتاك "[6] . . .

---

(1) غريب الحديث : 2/ 514.

(2) النهاية : 4/ 54.

(3) العفلة : بظارة المرأة، أو هو شيء مدور يخرج في فرجها . اللسان (عفل) .

(4) غريب الحديث 2/115، 116.

(5) قوله فتنتجها، يريد : فتنتج عندك : غريب الحديث : 1/ 424.

(6) غريب الحديث : 1/ 424.

وصَرْبى، هو من قولك، صَرَبْتُ اللّبن في الضَرْع، إذا أنت جمعته فيه ولم تحلُبْه، ويقال لما اجتمع منه ومن غيره : الصّريب ... وإنما قيل للبَحيرة[1]، صَرْبى، لأنهم كانوا لا يحلبونها إلا لضيف، فيجتمع اللبن في ضرعها كما قال محمد بن إسحاق ... وكأن الصَّرْبى من : صَرَبت اللّبن في ضرعها، أي : جمعته . والصّرب من اللبن الحامض، يقال قد صرب اللبن في الوَطْب يصْرُبه صرْبا، إذا حلب بعضه على بعض، وتركه يحمض ... وبعضهم يجعل الصّرْبى من الصّرْم وهو القطع والجَدْع، ويجعل الباء فيه مُبْدلة من ميم كما يقال : لازم، في لازب، ومنه قيل للسيف : صارم . أي : قاطع، وصرمت الحبل صَرماً بفتح الصاد، إذا كان مصدراً . والصُّرم الاسم بضمها، وهذا عندي أصح التفسيرين . لقوله : " فتجدع هذه فتقول صَرْبى "، ولأنه روي من وجه آخر أنّه قال : " فقطع آذان بعضها فتقول : هذه بُحُر، وتشق آذان أخرى فتقول هذه : صُرُمٌ[2]" ومنه الحديث الآخر : " في هذه الأمة خمس فتن، قد مضت أربع، وبقيت واحدة وهي الصَّيْرَمُ[3] وهو (فَيْعَل) من صرمت، مثل الفيصل من فصَلْتُ[4].

فقد ساق ابن قتيبة أدلةً متعددة لتأييد ما ذهب إليه من رأي، واحتج بأكثر من حديثٍ لتفسير ما اعتقد أنه الصواب الراجح في رأيه، وهذا مظهرٌ من مظاهر شخصيته العلمية المستقلة . ومن ذلك قوله في تفسير كلمة (أشْكعه) وردت في حديث عمر – رضي الله عنه – أنّه لّما دنا من الشام ولقيه النّاس، جعلوا يتراطنُون، فأشكعه ذلك .....[5]" .

" أشكعه : فيه قولان، يقال أغضبه ذلك، تقول أشْكعني الأمر وأحفظني، أي :

(1) إنما سميت بحيرة لشقهم أذنها . والبَحْر : الشق، وهي (فعيلة)، بمعنى (مفعولة)، غريب الحديث 1 / 425 .

(2) الحديث في : الفائق 2 /292، والنهاية 3 / 26 .

(3) الحديث في : الفائق 2 /297، والنهاية 3 / 27 .

(4) غريب الحديث : 1 /428، 429 .

(5) نفسه : 2 / 49 .

أغضبني، ويقال : أشْكعه : أمَلّه وأضْجره، يقال : شَكَعْتُ من كذا، إذا مَلِلْتـه، وهذا أعجب إليّ من الأول لقول أبي وَجْزة :[1]

سلّ الهَوى ولُبانات الفؤاد بها والقلب شاكي الهوى من حُبّها شَكِعُ [2]

فقد ذكر ابن قتيبة قولين في تفسير الكلمة، ورجَّح القول الثاني مؤيّداً رأيه بشاهد شعري . وأفاد من ثقافته اللغوية، ومعرفته بمعاني الصيغ اللغوية في تتبع معاني الحديث الشريف وشرح ألفاظه وترجيح رأي الفراء بعد إمعان نظر في آراء اللغويين الآخرين في حديث عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – " أصل كلّ داء البَرَدَة "، وقال : " قال الأعمش : سألت أعرابياً من كلْب عن البَردة، فقال : هي التُخَمَة، ولست أحفظ هذا من علمائنا، فإن كان الحرف صحيحاً لم يقع فيه تغيير، فالمعنى جيد حسن . وأرى أصل الحرف من البَرْد . وسُمّيت التُّخمة بَرَدة، لأنها تبْرُدُ حرارة الجوع والشَهْوة وتذهب بها . وما أكثر ما تأتي (فَعَلَة) في الأدواء والعاهات . مثل : الشَّتَرَة والخَرَمَة والقَطَعَة والفَطَسَة والفَدَعَة والصَلَعَة والنزَعَة .

وقد رُوِي من وجه آخر : " أصلُ كل داء البَرْدُ " . وما أبْعد أن يكون أيضاً البَردَة من هذا الوَجْه، فغلط فيه بعض الرواة، على أنّه قد يجوز على هذا التأويل أن يسمّى الإكثار بَرْداً، لأنه يَبْرُد حرارة الجوع، كما سُمِّي النوم بَرْداً، لأنّه يُبرد حرارة العطش، قال ذلك الفرَّاء[3]، وهذا المعنى، إن صحّ، فهو أعجَبُ إليّ ممّا يذهب إليه النّاس، من أصل كلّ داء البَرْد الذي هو ضدّ الحر، لأنا قد نرى من الأدواء ما يضطر إلى أن يُعْلَم أنّه ليس عن برد الزمان، ولا برد الطباع، ولا نرى داءً يضطرّنا أنه ليس عن الطُعْم . وكما قالوا : الدواء هو الأزم . يعنون التخفيف والحِمْية، كذلك الداء هو الشِّبَعُ المُفْرط والتُخَمة . وكان يقال :

(1) هو أبو وجزة السعدي . غريب الحديث 2/ 49.

(2) غريب الحديث : 2/ 50.

(3) ينظر معاني القرآن 3/ 228.

الشّبَعُ داعية البَشَم، والبَشَمُ داعية السّقَم والسَّقَمُ داعية الموت .

وقال بعضهم : لو سُئِل أهل القبور ما سبب آجالهم ؟ لقالوا : التُخَم [1] .

كما أفاد من خبرته اللغوية بمعاني الصيغ ودلالتها والفروق بينها في تفسير ألفاظ الحديث الغريبة، من ذلك ما ذكره في تفسير عبارة " أُنشط من عقال " في حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، حيث سُحر : " أنه حين أُخرج سِحْره، جعل عليٌّ عليه السلام يَحُلّه، وكلما حلّ عُقْدَة وجد لذلك خِفةً . فقام فكأنّما أُنْشِط من عقالٍ [2] .

" وقوله : أُنشط من عقال، أي : حُلّ، أنشطْتُ العُقْدَة، حللتها، ونشطتها . عقدتها بأنشوطة، وقد جاءت حروف على هذا المثال، ويكون (أفعلت) فيها ضداً (لفَعَلْت) ، مثل قولهم : أخفيْتُ الشيء سترته، وخفيْته، أظهرته، وأفرطت جاوزت القَدْر، وفرّطت قصرْت، وأعذرت في طلب الحاجة، بالغت، وعَذّرْت قصّرْت، وأقْسَطتُ في الحكم عَدَلْت وقسَطْتُ فيه : جُرْت، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ المُقْسطين في الدنيا على منابرَ من لؤلؤ يوم القيامة " .

وقال أبو موسى [3] : " من إجلال الله، إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامِل القرآن غير الغالي فيه، ولا الجافي عنه، وإكرام ذي السّلطان المُقسط "، فهذا من : أقسطت أي : عَدلت [4] .

وقال الله جلّ وعزّ : ﴿ وأمّا القاسطون فكانوا لجهنّم حطبا ﴾[5]، وهذا من قَسَطْتُ، أي: جُرْت [6] فقد قلّب ابن قتيبة العبارات على وجوهها المختلفة، والتمس الفروق الدلالية

(1) غريب الحديث : 2/225، 226.

(2) نفسه : 1/417، 419.

(3) هو أبو موسى الأشعري، عبد الله بن قيس بن سليم (-44هـ)، ينظر : التهذيب 5/362، والإصابة 4/ 119 .

(4) ينظر اللسان (قسط) والهمزة فيه للسلب، أي للتعدي، ينظر : إصلاح المنطق / 225 وما بعدها .

(5) الجن : 15 .

(6) غريب الحديث : 1/ 417-420.

بينها، وفسّرها بما يتفق ويتسق مع معنى النص، مؤيداً رأيه بالحجج اللغوية والمعنوية، والاستخدامات الشائعة في كلام العرب، وإدراكه العميق لأسرار اللغة، ومعرفته بظواهرها كالتضاد، والزيادة، وما يترتب على الزيادة في المبنى من زيادةٍ في المعنى، ليقنع القارئ برأيه في فهم النص وبيان المراد منه .

وقد يذهب ابن قتيبة في تفسيره إلى بيان أكثر من وجه لمعنى الكلمة، ويورد قولين دون أن يرجح أحدهما على الآخر، وكأنه ارتضى الرأيين، وقد يصرح بقبولهما، من ذلك ما قاله في تفسير حديث النبي صلى الله عليه وسلم : " أنَّ عكراش بن ذُؤيْب قال : بعثني بنو مُرَّة بن عُبَيْد بصدقات أموالهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقدمت عليه بإبل كأنّها عروق الأرْطى [(1)] . . . "

قوله : كأنّها عروق الأرطى . فيه قولان :

أحدهما : أنه أراد كأنها حُمْر، وحُمْرُ الإبل : كرامُها . ولذلك يقال : ما يسرني بكذا حُمْرُ النَّعَم . والآخر : أنّه أراد أنّها دقاق كعروق الأرْطى، وذلك من أمارة كرمها . والمعنيان جيدان جميعاً، لأنّ الشعراء تشبه الثور والحمار بعروق الشجرة في الضمْر وفي الحُمْرة، وتصف عروق الأرطى بالحُمْرَة، وكذلك السِّدْر، قال الهُذلي [(2)] يصف حماراً :

خاظٍ كعِرْقِ السِّدْرِ يسْـ ـبِقُ غَارَةَ الخُوصِ النّجائِبْ

قال الأصمعي : أراد كأنه في حمرته عِرْق سِدْرة، وليس يجوز أن يكون أراد الضُّمْر هنا، لأنّه قال : خاظٍ، والخاظي : الممتلئ .

وقال العجّاج يصف ثوراً يحفر عند أصل أرطاة :

إذا انتحى كالنّابتِ المُثير مَرّتْ لَهُ دُونَ الرّجَا المَحْفُورِ

نواشِطُ الأرْطاة كالسُّيُورِ [(3)]

(1) الحديث في النهاية 1/ 39.

(2) هو الأعلم الهذلي، شرح أشعار الهذليين 1/ 313.

(3) ديوان العجاج 1/ 358، وفيه : وإن نحا كالنابث .

أي : يعترض له عروق الشجرة دون الرّجا، يعني ناحية الكناس، والنّواشط : عروق تأخذ من جانب إلى جانب، وشبّه عروقها بالسّيور في الرّقّة وفي الحُمْرَة [1] .... "

فقد أشبع التفسير واحتجّ على ما ذهب إليه بالشعر العربي، واستعان بصور الشعراء لتوضيح المعنى، وارتضى تفسير كبار اللغويين كالأصمعي والسّجستاني والفرّاء وأبي زيد الأنصاري، ومن أمثلة ما ارتضاه من أقوال دون أن يرجّح أحدها على الآخر قوله في تفسير قول عليّ، رضي الله عنه، أنّه قال يوم خيبر :

أنا الذي سَمَّتْني أمّي حَيْدَرَة ضرغام آجام وكنت قسْورة [2]

كليْثِ غابات كريه المنظرة أو فيهم بالصّاع كيْل السّنْدرة

والسّندرة، شجرة تُعمل منها القسّي والنّبْل .. والسندرة في الحديث تحتمل أن تكون مكيالاً يتخذ من هذه الشجرة، سمّي باسمها، كما يسّمى القوس نبْعةً باسم الشجرة التي اتخذت منها، فإن كانت السندرة كذلك فإني أحسب الكيل بها كيلاً جزْفاً [3] فيه إفراط، لأنّ من شأنهم أن يصفوا المجازاة للضرب والطّعن بالوفاء والزيادة ..

وتحتمل السّندرة أيضاً أن تكون امرأة تكيل كيْلاً وافياً، أو رجلاً . وهذا الذي خبّرتك به شيء يحتمله المعنى، ولم أسمع فيه شيئاً [4] ... "

فابن قتيبة بيّن أكثر من وجه لمعنى الكلمة، ولم يرجح أحد القولين، ولم يفت برأي قاطع، مادام المعنى يحتمل أكثر من وجه، ولم يسمع فيه شيئاً ينزله منزلة اليقين والرأي

(1)غريب الحديث 1 / 260-262 .

(2) البيتان في : الفائق 1 /266، والنهاية 1 / 354 (بلا ياء المتكلم) .

(3) جزف وجزاف : المجهول القدر، يقال : أخذ الشيء مجازفة وجزفا وجزافاً، وهو فارسي معرّب اللسان (جزف) .

(4) غريب الحديث : 2 / 104 .

الرّاجح، وهذا مظهر من مظاهر أمانته العلمية، وتحرجه في الإفتاء بما لم يبلغه علمه، ومن ذلك أيضاً ما ذهب إليه في تفسير حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من توضأ للجمعة فبها ونعْمت . ومن اغتسل فذلك أفضل "[1] . قال أبو حاتم : سألت الأصمعي عن التأنيث في قوله (فبها)، فقال أظنه . أريد، فبالسنة (أخذ) أضمر ذلك . إن شاء الله .

وأمّا قوله : ونعمت، ففيه قولان : يقال أراد ونعمت الخلّة أو الفعْلة، ثم تُحْذف الخلّة اختصاراً، ويقال ونعِمْت بكسر العين وتسكين الميم، أي : نعّمك اللّه "[2] .

ولم يلتزم ابن قتيبة في شرحه الألفاظ نهجاً واحداً، فكان يوجز أحياناً أشدّ الإيجاز، ويذكر الكلمة الغريبة في الحديث، ويفسرها بكلمة أخرى توضحها، دون أن يمثل لما يقول أو يستوفي المعنى، نحو قوله في القسّاس : المتجسّس[3]، والأحلام : العقول[4]، والدُّبّاء : القرع[5]، والهجان : الأبيض[6] والأزهر : الأبيض[7]، والأصَلة : الأفعى[8] .

وأحياناً ينهج وسطاً في شرحه مستوفياً المعنى دون إيجاز مُمِلٍ أو إسهاب مُخِلٍ، من ذلك قوله في تفسير حديث النبي صلى الله عليه وسلم : " أنّه كان يتعّوذ من خمس، من العَيْمة، والغَيْمة، والأيْمَة والكَزَم، والقَرَم "[9] .

---

(1) الحديث في تأويل المختلف / 199، والفائق 4/ 3 .

(2) غريب الحديث : 1/ 289 .

(3) نفسه : 1/ 257 .

(4) نفسه : 1/ 322 .

(5) نفسه : 1/ 299 .

(6) نفسه : 1/ 307 .

(7) نفسه : 1/ 307 .

(8) نفسه : 1/ 307 .

(9) الحديث في : الفائق 3/ 42 .

والعَيْمة، شهوة اللّبن حتى لا تصْبر عنه، يقال : عام إلى اللبن يعام ويعيم عيْماً، وما أشد عيْمته، ورجلٌ عيْمان وقوم عيامى .

والغيمة، أن يكون الإنسان شديد العطش كثير الاستسقاء للماء، يقال : غام يغيم .

قال الشاعر (1) يصف حميراً :

فظلّت صَوافِنَ خُزْرَ العُيُونِ ... إلى الشّمْسِ مِنْ رَهْبَةٍ أن تَغيما

يقول : خَشيتْ أن يَشْتَدَّ عَطشها، فهي ترقب الشمس إلى أن تغيب فترد الماء . والأيْمة، طول التَّعَزُّبِ . من قولك : رجل أيّم، وامرأة أيّم، إذا كانا عَزبين . والقَرَم في اللّحم كالعَيْمة في اللبن، يقال : قَرِمْتُ إلى اللحم وعِمْتُ إلى اللبن، إذا اشتدت شهوتُك لهما .

والكَزَم، فيه قولان، يقال : هو شدّة الأكل، من قولك : كزم فلان الشيء بفيه يكزمه كَزْماً، إذا كسره . المصدر ساكن الزاي، والاسم مفتوحها . ويقال هو البُخْل، من قولك : فلان أكْزم البنان أي : قصّيها . وأكزم الرجل . وهذا كما يقال في الرّجُل المُمْسِك، جَعْدُ الكف وقصير البنان . وذهب قتادة في تفسير الكزم إلى البخل (2) .

ومن ذلك أيضاً تفسيره حديث النبي صلى الله عليه وسلم : " أنه نهى عن الجَلاّلة والمجثّمة (3) "، وقال : " أما الجَلاّلة، فهي التي تأكل الجَلّة، والجَلّة : البَعَر، كنى بها عن العَذِرة، وقد فسر أبو عبيدة ذلك، ومنه قوله لرجل سأله عن لحوم الحمير : " أطعمْ أهلك من سمين مالك، فإني إنما كرهت لك جَوالَّ القرية "، جمع جالّة وهي بمنزلة الجَلاّلة، وأمّا المُجَثَّمة، فهي التي جُثِّمت على الموت، يقال : بَرك البَعير، وربضت الشّاة، وجَثَم الطائر، وجثَمَت الأرنب وجثّمتها إذا أنا فعلْتُ بها مُكرِهاً لها عليه .. وبين الجاثم والمُجثِّم فرْق .

---

(1) هو : ربيعة بن مقروم الضبي، والبيت في المفضليات / 357. وفيه "فظلّت صوادي" .

(2) غريب الحديث : 1 / 338، 339.

(3) الحديث في : الفائق 1 / 323، والنهاية 1 / 288.

فالجاثم من الصيد يجوز لك أن ترميه حتى تصطاده، والمُجثَّم فهو ما مُلِّكْته فجثَّمْته، ثم جعلته غرضاً ترميه حتى تقتله [1].

وكان ابن قتيبة يسهب كثيراً في شرحه، ويستطرد إلى ذكر القصص وأخبار العرب وأمثالها وأحاديث السلف وألفاظهم ما يشاكل الحديث، أو يوافق لفظه، حتى لا يتسرب الملل إلى قارئه، وقد أشار إلى ذلك في المقدمة، وعزا منهجه فيه إلى الإفادة اللغوية العامة .

من ذلك قوله في تفسير حديث النبي صلى الله عليه وسلم : " مَثَلُ المُنَافِقِ مَثَلُ الشاة بين الرَّبَضَيْن، إذا أتَتْ هذه نطحَتْها، وإذا أتت هذه نطحَتْها [2]" .

" رَبَضُ الغنم : مأواها، ولا أحسب سُمّي ربضاً إلا لأنّها تَرْبِض فيه . وجمْعُه أرباض . وقال العجّاج :

واعتــــاد أرْباضـــــاً لهـــــا آرِيٌّ [3]

فأمّا الرّبيض، فجماعة الغَنَم، فإن كان الحرف على ما رواه من الرّبضَيْن، فإنه أراد به منزلة شاة بين مربضيْ غَنَم . وإن كان بين الربيضيْن فلا فرق بينه وبين الغَنَمين، وقد يقال ذلك للجماعتين إذا انفردت كلّ واحدة منهما يقال : الغَنَمان، والإبلان . قال الشاعر : [4]

همـــا سَيِّـــدانا يَزعُـــمـــان وإنّمـــا يَسُـــودانِنـا أن يَسّـــرت غَنَمـــا هُمـــا

وقال الحارث بن حلّزة : [5]

عَنـنـاً باطـلاً وظلمــــاً كـــمـــا تُعْـ ـتَــرُ عَنْ حُـجْـرَةِ الرّبيضِ الظّبـــاءُ

---

(1) غريب الحديث : 1/ 276، 177 .

(2) الحديث في : الفائق 2/ 24 .

(3) ديوان العجاج 1/ 510 .

(4) هو : أبو أسيدة الأبيري، والبيت في اللسان (غنم)، ولم ينسبه، ونسبته موجودة في حاشية الأصل .

(5) ديوانه : 36، والبيت في لسان العرب (عنتاً) بدل (عنناً)، والمعاني الكبير 2/1012 .

قال الأصمعي : العَتْر : الذّبْح . والعِتْر : الذّبح في رجَب، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " لا فَرَعةَ ولا عَتيرة [(1)]" . والحُجْرة : الحَظيرة وتُتخذ للغنم، والرّبيض : جماعة الغَنَم . وكان الرّجل من العرب ينذر نذراً على شائه إذا بلغت مائة أن يذبح عن كل عَشرٍ منها شاة في رجب، فكانت تسمى تلك الذبائح : الرّجبيّة والعتائر، فكان الرجل ربما بخل بشائه، فيصيد الظباء ويذبحها عن غنمه ليوفي بها نذره، فقال الشاعر : أنتم تأخذوننا بذنوب غيرنا، كما ذبح أولئك الظباء عن غنمهم، فأراد عليه الصلاة والسلام المثل، معنى قول الله تعالى : ﴿ مذبْذبين بَيْن ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴾ [(2)]. ولست أدري أي شيء أنكر ابن عُمَر من الرّبض أو الربيض، ومعناهما معنى الغنم . إلاّ أن يكون لذكر اللفظ بعينه دون المعنى، وروى ابن عمر في إسناد هذا الحديث : " بين غنمين [(3)]" .

وقال في تفسير حديث النبي صلى الله عليه وسلم : " إنّ أهل الجنة أكثرهم البُلْه " ، يذهب عوام الناس إلى أنّ البُلْه ها هنا المجانين ومن لا يعْقل، ويمتد إلى خشائرهم ولا أرى إلاّ أنّ موحد الله وعابده بعقل وعلم، وإن كانت منه الزلاّت والهفوات أفضل عند الله من المجانين، وأولى بتعظيم الحُرْمة في المحيا والممات .

وليس البُلْه الذين ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم أكثر أهل الجنّة على ما ظنوا . وإن كنا لا نبعد أولئك أيضاً من رحمة الله وفضله، وإنما البُلْه في الحديث، الذين غلبت عليهم سلامة الصدور وحسن الظن بالنّاس . قال النمر بن تولْب :

ولقد لهوْت بطفلةٍ ميّالةٍ بلهاءَ تُطْلعني على أسرارها [(4)]

يريد : أنها غُرّ ليس لها دهاء . فهي تخبرني بأسرارها ولا تفهم ما في ذلك عليها . ولم

---

(1) الحديث في : الفائق 3/97، والنهاية 3/435، والفرعة والفرع : أول ولد تنتجه الناقة .

(2) ينظر : البحر المحيط 3/378، والقرطبي 5/ 424.

(3) غريب الحديث : 1/ 277-279.

(4) هو في شعره : 60.

يُرد أنها بمجنونة ولا معتوهة . ومن شأنهم أن يصفوا الجارية بالغرارة وسلامة الصدر والانقطاع . قال ابن الدُّمينةِ :

بنفسي وأهلي من إذا عَرَضوا له ... ببعض الأذى لم يَدْرِ كيف يُجيب
ولم يعْتذر عُذْر البريء ولم يَزَل ... به ضَعْفَةٌ حتى يقال : مُريب [1]

وقال أبو داود الإيادي يصف ضعْفة النساء :

يَكْتَبين اليَنْجوع في كبّة ... المشتى وبُلْهٌ أحلامُهنّ وسامُ [2]

والأحلام ها هنا : العقول . والبُلْه فيها سلامتها وغفلتها عن الشرّ والخبّ والمكر . وقد يُكَنّى عن العقول بالأحلام . لأن الأحلام تكون عنها . قال الله تعالى : ﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا ﴾ [3]، وإلى هذا بعينه ذهب ابن شهاب في هذا الحديث، ومن الشاهد عليه أيضاً قول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام حين ذكر زماناً ذمّ أهله وقال : " لا ينجو فيه إلاّ كلّ نُوَمَة، يعني الميت الذكر - أولئك أئمة الهدى، ومصابيح العلم، ليسوا بالعُجل المذاييع البُذُر [4]" ..

وفي الحديث : " إنّ الله جلّ وعزّ يُدخل الجنة أقواماً بسلامة الصدور ليس لهم كبير عمل " هذا أو نحوه من الكلام [5]" .

فابن قتيبة لم يكتف بتفسير معنى الكلمة الغريبة في الحديث، وإنما استطرد إلى أخبار العرب وأمثالها وأحاديث السلف، واستشهد بشواهد مختلفة من القرآن الكريم والحديث

(1) ديوانه : 113 .

(2) شعره : 337 .

(3) الطور : 32 .

(4) الفائق 4/ 31 . والمذاييع : واحده مفعال، الذي يذيع السر، والبذر : جمع بذور، وهو الذي يبذر النمائم .

(5) غريب الحديث : 1/ 331-333 .

الشريف وأقوال الصحابة وآراء بعض العلماء، وبأكثر من شاهد شعري، وتناول شرحه الألفاظ التي وردت في الشواهد نفسها، فتضخم الشرح وأشبع التفسير ليمتع القارئ ويدفع عنه السأم والملل .

وقد أفاد ابن قتيبة من معرفته بلغة العرب ومجازات القول فيها، ومخالفة اللفظ ظاهر معناه، وأدرك دلالات الصيغ في تحديد المعنى، فكان يبين معنى الكلمة ثم يذكر الجمع منها، كقوله في تفسير (المِقاط) في حديث عمر رضي الله عنه : " أنّه قدم مكة، فسأل مَنْ يَعْلم المقام ؟ وكان السَّيْل احتمله من مكانه، فقال المطلب بن أبي وداعة السّهمي : أنا يا أمير المؤمنين، فقد كنت قدرته وذرعتْه بِمقَاط عندي [1] ..

المِقَاط : الحَبْل، وجمعُه مُقُط . قال الراعي وذكر حميراً :

كـأنّهـا مُـقُطٌ ظلّت على قـيمٍ   من ثُكْدَ واغـتـمست في مـائه الكَدِرِ [2]

شبهها بالحبال في ضمرها واندماجها . والقيم : جمع قامة، وهي البِكر . وثُكُد : ماءٌ لبني نُمَيْر [3] .

وقال في تفسيره " القِدْح " في حديث عمر رضي الله عنه " أنّه انكفأ لونه في عام الرمادة، حين قال : لا آكل سَمْناً، وأنه اتخذ أيام كان يُطْعِمُ الناس قِدْحاً فيه فَرْض . فكان يطوف على القصاع فيَغْمِزُ القِدْح، فإن لم تبلغ الثريدة الفَرْض، فتعال فانظر ماذا يفعل بالذي ولي الطعام [4]" .

قوله : انكفأ لونه . يريد : تغيّر عن حاله وحال . والأصل في الانكفاء : الانقلاب .

(1) الفائق 3/ 380، والنهاية 4/ 347 .

(2) البيت في الفائق 1/ 380، ومعجم البلدان، ترجمة (ثكد) وهو ماء .

(3) غريب الحديث : 1/ 611 .

(4) الفائق 3/ 267، والنهاية 3/ 432 .

ومنه يقال : كفأت الإناء، إذا قلبْتُه . وقال الأصمعي : يقال : أرْمَد النّاس، إذا جُهِدوا . ولذلك قيل عام الرمادة . والرِّمدُ : الهَلاك . ومنه قول الشاعر :

صَبَبْت عليكم حاصبي فتركتُكم كأصرام عادٍ، حين جلّلها الرِّمْدُ [1]

والقِدْح : السّهم، وجمعه قِداح .... "[2] .

وقال في تفسير " البجاد " في حديث جبير – رضي الله عنه – ، أنه قال : " نظرت الناس يقتتلون يوم حُنيْن إلى مثل البجاد الأسود يهوي من السماء، حتى وقع، فإذا نَمْلٌ مبثوث قد ملأ الوادي، فلم تكن إلا هزيمة القوم، فلم يشك أنَّها الملائكة "[3] .

البجاد : كساء، وجمعه بُجُد ... [4]

وقد يشرح معنى الكلمة ويشير إلى مفردها مدركاً ما لعلاقة ذلك بوضوح المعنى وتحديده، أو ليبين الفرق بينها وبين ألفاظ أخرى ترد في الصيغة نفسها، من ذلك تفسيره كلمة "أسفار" في حديث حذيفة رضي الله عنه – " أنه ذكر قوم لوط وخسْفَ الله بهم، فقال: وتُتُبِّعَتْ أسفارهم بالحِجارة "[5] ...

الأسفار : ها هنا المسافرون، يقول : رموا بالحجارة حيث كانوا فألحقوا بأهل المدينة وهو جمع سَفْر، وسَفْر جمع مسافر، وإن جعلْته جمعاً لسافر جاز . وهو قليل، نحو : صاحب وأصحاب، وشاهد وأشْهاد، ويقال أشْهاد جمع شهيد، مثل : شريك وأشْراك [6] ومثل ذلك تفسيره كلمة " السّيجان" في حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – أنّه قال : " أصحاب

---

(1) هو : أبو وجزة السعدي، اسمه : يزيد بن عبيد، تابعي شاعر إسلامي، ينظر : الأغاني 12/ 239-254.

(2) غريب الحديث : 1/600، 601.

(3) الفائق 1/79، والنهاية 1/ 96.

(4) غريب الحديث : 2/ 283.

(5) الفائق 2/185، والنهاية 2/ 372.

(6) غريب الحديث : 2/260، 261.

الدّجّال عليهم السّيجان، شواربهُم كالصّياصي، وخفافهم مُخرْطمة [1]" .

السّيجان : الطّيالسة الخُضْرُ، واحدها : سَاج، مثل : تاج وتيجان، وقاع وقيعان [2]" .

وقد يذكر مفرد الكلمة الغريبة ثم يبين معناها، من ذلك تفسيره كلمة "ثُغْبان" في حديث معاذ رضي الله عنه، أنه قال للنّخع [3] : " إذا رأيتموني صنعْت شيئاً في الصلاة فاصنعُوا مِثْلَهُ، فلّما صلّى بهم أضَرّ بعْينه غصنُ شجرة فكسَره، فتناول كل رجلٍ منهم غصْناً فكسره، فلمّا صلّى قال : إنّي إنما كسَرْته لأنه أضَرّ بعْيني، وقد أحسنْتم حين أطعْتم [4]" .

قوله : أضرّ بعْيني، يعني : دنا منها . وكل شيءٍ دنا من شيء فقد أضرّ به . وأنشد الرياشي :

سُحَيْراً وأعناق المَطيّ كأنّها ... مَدافِعُ ثُغْبان أضَرّ بها الوَبْل

ثُغْبان : جمع ثَغَب، وهو الغدير [5] . وفيه لغة أخرى، ثَغْب، ساكنة الغين . وقوله : أضرّ بها، يعني : ركبها [6]" .

ومثل ذلك ما ذكره في تفسير "اللخاف" و "القُضُم" في حديث الزّهري، أنه قال : (قُبِضَ رسُول الله صلى الله عليه وسلم ، والقرآن في العُسُب والقُضُم والكرانيف) [7]" .

العُسُبُ : جَريد النّخْل، واحدُها . عَسيب . وكان المسلمون على عهد رسول الله

---

(1) الفائق 2/210، والنهاية 2/23، و 3/ 67.

(2) غريب الحديث : 2/ 292.

(3) النخع : قبيلة عربية كبيرة من مذحج، نزلت اليمن، تنسب إلى رأسها النخع، ينظر : جمهرة الأنساب/ 389-391.

(4) الفائق 2/338، والنهاية 2/ 82.

(5) اللسان (ثغب)، وهو أيضاً : مجاري المياه، وذوب الجمد، والمكان الذي تحتفره السيول ثغب، والماء ثغب .

(6) غريب الحديث : 2/244، 245.

(7) الفائق : 2/431، والنهاية 3/ 234.

صلى الله عليه وسلم يكتبون القرآن في سَعَف النّخْل، وكذلك كان أهل الكتاب يكتبون الزّبور في السّعَف . قال امرؤ القيس :

لِمَنْ طَلَلٌ أبصـرتُه فـشجـاني كَـوَحْي الزّبور في عسيب يماني [1]

وقال زيد بن ثابت، حين أمره أبو بكر بجَمْع القرآن، قال : " فجعَلْت أتتبّعُه من الرّقاع والعُسُب واللّخاف [2].

واللّخاف : جَمْع لَخْفة، وهي حجارة رِقاق . قال الأصمعي : تُوضع الفسيلة بالمدينة معها لخفة، وهو حجر رقيق . . .

والقُضُم : جمع قضيم، وهي الجلود البيض . وقد يُجْمع قَضَم، مثْلُ أديم وأدَم . قال النابغة الذبياني :

كأنّ مجرّ الرامِسات ذيُولَها عليه قَضيمٌ نمّقته الصّوانعُ [3]

والكرانيف : أصول السَّعَف الغلاظ . واحدها كِرْنافة . . . [4]

ولم تقتصر مهمة ابن قتيبة في كتابه على تفسير غريب الحديث، بل تعداها إلى النقد اللغوي، فقد جمع في الكتاب مادة وفيرة من النقد اللغوي، فقد صحّح ابن قتيبة الألفاظ التي اعتقد أنّ المفسرين أخطؤوا تفسيرها، على الرغم من اتباعه آراءهم في كثير من القضايا اللغوية، وحاول أن يستقل برأيه وأن يرد على بعض العلماء في بعض القضايا اللغوية، من ذلك مخالفته الأصمعي في تفسيره قول إبراهيم بن متمم بن نويرة لعبد الملك بن مروان " الحُسْنُ أحمر " وقال ابن قتيبة في رده على الأصمعي : " وأمّا قوله : الحُسْن أحْمر . فإنّ

---

(1) ديوانه / 85. ويُرْوَى : كخطّ زبورٍ في عسيب يماني .

(2) الفائق : 2 / 431، والنهاية 3 / 234 .

(3) ديوانه / 43.

(4) غريب الحديث 3 / 668، 669.

سهلاً حدّثني عن الأصمعي، أنه قال : العرب تقول : الحسن أحمر . يراد به من أراد الحُسْن صبر على أشياء يكرهها . فذهب الأصمعي في أحمر إلى معنى الصعوبة والمشقة، كما قيل: مَوْتٌ أحمر .

وقد تدبرت هذا فرأيت معنى الحديث يدل على أنه يريد : أنّ الحُسْنَ في الحُمْرة، لا ما ذهب إليه الأصمعي، وممّا يدلّ على ذلك قول الشاعر :

فإذا ظهَرْتِ تقنّعي بالحُمْرِ، إنّ الحُسْن أحْمَرْ[1]

يريد : أنّ الحُسْن في الحُمْرة . وقال المفسرون، أو مَنْ قال منهم، في قول الله جلَّ وعزَّ : ﴿ فخرج على قومه في زينته ﴾[2] : أنه خرج في ثياب حُمْر، ولا أحسبه كره المُعْصفر للرجال إلا لِحُسْنه .

قال إبراهيم : إني لألبس المَعصْفر، وأنا أعلم أنّه زينة الشيطان، وأتختم الحديد، وأعلم أنه حلية أهل النّار[3] . أراد أن المُعصْفَر : الزينة التي يختِلُ بها الشيطان . وحدّثني زياد بن يحيى قال : حدثنا بشر بن المفضل عن يونس عن الحسن، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الحُمْرَةُ من زينة الشيطان، والشيطان يحب الحُمْرَة[4]" .

ولا أرى إبراهيم لبس المعصْفَر وتختّم بالحديد، إلاّ لما كان يريد من إخفاء نفسه وستْر عمله، وكأنه أراد أن ينفي عن نفسه الشُّهْرَةَ بالزّهد والعِبادة . لا أعلم وجهاً غير هذا .

وقد يقع ما ذهب إليه الأصمعي من إقامة الأحْمر مقام الصعْب الشديد . من ذلك قولهم : مَوْتٌ أحمر . وأصله : القَتْل، سُمّي موْتاً أحمر، لحمْرَةِ الدّم . وذكر رسول الله

---

(1) البيت في اللسان (حمر) .

(2) القصص : 79.

(3) وهو من قوله صلى الله عليه وسلم في خاتم الحديد : (مالي أرى عليك حلية أهل النار). النهاية 10/2.

(4) ينظر : جامع الأصول 4/ 786-788.

صلى الله عليه وسلم ما يكون بين يدي الساعة، فقال : " لو تعلمون ما يكون في هذه الأمة من الموت الأَحْمَر، والجوع الأَغْبَر " . يعني بالموت الأحْمر، القَتْل [1].

فابن قتيبة ردّ على الأصمعي مع علو كعبه ومبلغ علمه في اللغة، ما ذهب إليه إلى أن (أحمر) في معنى الصعوبة والمشقة، ورأى أن المعنى الذي يتّسق مع النّص وسياق الحديث هو "الحُسْن في الحمرة، فاستقل برأيه، وهذا مظهرٌ من مظاهر شخصيته العلمية المستقلة، وقد أيّد رأيه بشواهد متعددة من القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر العربي وأقوال المفسرين، والأحاديث الشائعة في كلام العرب، ليبين المراد من النص في شكل مفهوم .

وردّ على الفّراء ما ذهب إليه في تفسير حديث أبي ذر – رضي الله عنه – ، أن أبا أسماء الرّحبي دخل عليه بالرّبذة[2]، وعنده امرأة سوداء مُشَنَّعة وليس عليها أثر المجاسد [3]. وقال ابن قتيبة : " المجاسد : جمع مُجْسَد، وهو المَصْبُوغ المُشْبَع بالزعْفَران، والجساد الزّعفران، فأما المِجْسد، بكسر الميم، فإنّه الذي يلي الجسد من الثياب . وقال الفّراء : المُجْسَد والمِجْسَد واحد [4]. وهو من : أُجْسِد، أي : أُلْصق بالجَسَد، فكسر أوله بعضهم وكذلك قالوا : مِصْحَف [5]وهو مأخوذ من : أُصْحِفَ، أي : جُمِعَتْ فيه الصّحُف فكُسِر أوّله . وأصله الضم، ومِطْرَف، وهو من أُطْرِف، أي : جُعِل في طرفيه العَلَمَان . ويقال : مُطْرَف ومُصْحَف على القياس . والحديث يدلّ على أن المُجْسد على ما فسَّرنا أولاً وليس على ما قال الفرّاء [6].

---

(1)غريب الحديث : 3/ 682-684.

(2) الرّبذة، من قرى المدينة المنّورة، كانت منزل أبي ذر، وفيها قبره. معجم البلدان 4/222، والكامل لابن الأثير 3/ 134.

(3) الفائق 2/ 264.

(4) ينظر اللسان (جسد) .

(5) ينظر اللسان (صحف) .

(6) غريب الحديث : 2/198، 199.

وردّ ابن قتيبة على ماتوهم فيه بعض الرواة في حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنّه ذكر إهلاك الله يأجوج ومأجُوج، فقال : " والذي نفسُ مُحَمّدٍ بيده، إنّ دوابَّ الأرض لتسْمُنُ وتَشْكرُ شكراً من لحُومهم[1]" .

وقوله : تشْكُر، أي تمتلئ، ومنه قيل شكرت الشاة تشْكَر شكراً، إذا امتَلأ ضَرْعها لبناً، وشاة شكرى، وبعضهم يتوهّم أنه : تسكر سُكراً من لحومهم . والرواية بالشين معجمة[2] فقد صحح ابن قتيبة الصيغة التي أخطأ بعض الرواة روايتها . مستفيداً من ثقافته اللغوية، وإدراكه لما لحق بالصيغة من تصحيف في حروفها، وأنّ المعنى لا يتسق إلا بتصويب الخطأ .

ومن ذلك رده على بعض الرواة في رواية حديث أبي هريرة أنه قال : " يوشك أن يجيء من قبل المَشْرق قوم عِراضُ الوجوه، فُطْسُ الأنف، صِغارُ الأعين، حتى يلحقوا الزرع بالزرع، والضرْع بالضرْع، والرّاوية يومئذٍ يستقى عليها أحَبّ إليّ من لاءٍ وشاء[3] .

وقال ابن قتيبة : " هكذا يرويه المُحَدِّث : لاء، مثل ماء . وهو غلط من بعض نَقَلة الحديث، وإنما هو من : ألآء، تقدير : ألْعَاء : وهي الثيران، واحدها : لأً، تقديره : لَعاً، مقصور مثل قفاً وأقفاء . وقال الطّرماح، وذكر فلاة :

كظهْــر اللأى، لو تبتــغي رَيّةً بهـا نهـاراً لعـيّتْ في بُطُون الشـوَاجن[4]

شبّه الفلاة بظهر الثور في انملاسِها .... ولم أجمع لأً على فِعال[5]، وهو أقرب من لفظ المحدّث، لأنه لم يأت لذلك ممّا كان آخره الألف من المعتلّ، نحو قفا وعصا، وإنما جاء في السالم نحو : جمل، وجمال، و(أفعال) لأدنى العدد، وربما جاء في الحرف جامعاً للمعنيين

(1) الفائق 2/248، والنهاية 2/482، 494.

(2) غريب الحديث : 1/ 400.

(3) الفائق 3/ 128 .

(4) البيت في ديوانه : 165 .

(5) وجمعه : ألآء زنة العاء، ومنه سمّي : لؤي، وهو مصغره . ينظر اللسان (لأي)، وتاج العروس (لأي) .

نحو :رَسَن وأرْسان، للقليل والكثير . قال ذلك سيبويه[1] . . . . " .

لقد كانت معرفة ابن قتيبة العميقة بالمعاني، ودرايته بعلم الحديث، وامتلاكه ناصية اللغة، سبيله إلى تصحيح رواية الأحاديث الشريفة وتصويب معانيها، ونقد ما تحّرف منها، والاجتهاد في مخالفة آراء بعض اللغويين الذين أخطؤوا تفسير بعض ألفاظها، توخياً لتصويبها من الوجهة اللغوية، وانتقد خطأ العوام في تفسير بعض الأحاديث محتكماً إلى المعيار الصوابي في اللغة، من ذلك ما ذهب إليه بعضهم في تفسير حديث النبي "عليه السلام" في يوم الجمعة : " مَنْ غسّل واغتسل، وبَكّر وابتكر واستمع ولم يَلْغُ[2]" .

وقال ابن قتيبة : " فإنّ أكثر النّاس يذهبون في : غسّل إلى أنّه أراد : مجامعة الرجل أهله قبل خروجه إلى الصلاة، لأنه لا يُؤْمَنُ عليه أن يرى في طريقه ما يُحَرِّك منه ويُشْغل قلْبه . ويذهب آخرون أنه أراد بقوله : غسّل، توضأ للصلاة فغسَلَ جوارح الوضوء . وثَقّل (الفعْل) لأنه أراد : غَسْلاً بعد غُسْل، لأنه إذا أسبغ وأكمل الطهور غسل كلّ عضو ثلاث مرّات ثُم اغْتسل بعد ذلك غسل الجمعة .

وأمّا قوله : بكّر، فإن العوام تذهب في هذا، إلى أنّه الغُدُو إلى المسجد الجامع، وليس كذلك، إنما التبكير ها هنا إتْيان الصّلاة لأول وقْتها، وكلّ من أسرع إلى شيء، فقد بكّر إليه، ولذلك يقال : (بكروا بصلاة المغرب[3]) أي : صلُّوها عند سقوط القُرْص، ويقال لأول شيء يأتي من الفواكه : باكورة، لأنه جاء في أول الوقت .

وحدَّثني أبي قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا تزال أمّتي على سُنّتي، ما بَكَّروا بصلاة المغرب[4]" . وأما قوله : وابتكر، فإنّه أراد أدرك الخطْبة من أوّلها، وأولها

---

(1)الكتاب 2/ 177 .

(2) الفائق 3/ 66، والنهاية 3/ 367.

(3) الفائق 3/67، والنهاية 1/ 148 .

(4) الفائق 3/67، والنهاية 1/ 148 .

بكورتها، كما يقال ابتكر الرجل إذا أكل باكورة الفاكهة . وابتكر إذا نكح بكْراً أو تزوج بكْراً، ويدلك أيضاً على هذا التأويل، قوله بعقِب ابتكر : استمع ولم يَلْغُ، ومن الدليل على هذا التأويل . حديث رواه الزيادي . . . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من غسل رأسه واغتسل، ثمّ هَجَّرَ إلى المسجد وابتكر، ثم دنا واقترب واستمعَ كُتِب له بكل خطوة يخطوها صيام سنة وقيام سنة "[(1)] .

لقد أفاد ابن قتيبة من معرفته بالأساليب الصحيحة، وخبرته بمعاني الحديث وألفاظه، ومن حسّه اللغوي السليم أن يمارس النقد اللغوي وأن يجتهد مفتياً بوجه الصواب، مؤيداً رأيه بشواهد متعددة، منها الأحاديث الشريفة التي يستشهد بها لإيراد الحجج على صحة تفسير ألفاظ غريبة، أو إثبات صيغ أو توضيح معانٍ أو تصويب أخطاء الرواة الذين غفلوا عن ضبط الحديث ضبطاً صحيحاً، من ذلك ما أخذه على بعض نقلة الحديث ما وقعوا فيه من خطأ في ضبط كلمة (يُنْبله) في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : " أنّه لمّا ذهب النّاس يوم أُحُد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، جعل سعد يرمي بين يديه وفتىً يُنْبلُهُ، كلّما نفدت نَبْلُه، ويقول : ارْمِ أبا إسحق، ثم طلبوا الفتى بَعْد، فلم يقدروا عليه "[(2)] . وقال ابن قتيبة :

وقوله : يَنْبُلُه كلما نفِدت نَبْلُه نَبَلَه، هذا غلط من بعض نَقَلَةِ الحديث، وإنّما هو يُنْبِلُه كلّما نفدت نبْله أنبله، أي : يُعْطيه النبْل . يقال : أنْبلت فلاناً سَهْماً، أي أعطيْته إياه، أو يُنبّلهُ، يقال نبّلْت الرّجل ناولته النبل ونبَّلته أحجارا، أعطيته إياها، وهذا مما جاء فيه (أفْعَلْتُ وفَعّلْت[(3)])، تقول : أنبلْت ونبَّلْتُ، مثل : بكّرْت وأبكرْت، وسمّيت وأسميت .

فأما نبلْته أنبُله، فبمعنى رَميْته، وهو لم يَرْمِه، وإنما كان يُعْطيه النّبْل ليرمي

(1) غريب الحديث : 1/289، 290.

(2) النهاية 5/10، والفائق 3/ 402.

(3) ينظر : أدب الكاتب/344، وأفعال ابن القوطية/112، 118، وأفعال ابن القطّاع 3/214، 284.

بها [1]. فقد أدرك ابن قتيبة بحسّه اللغوي السليم أن الخطأ في الحركة يُغيِّر من معنى الحديث، فصوّب الغلط مبيّناً الفروق الدلالية بين الصيغ، لتتحقق الغاية من فهم نص الحديث فهماً صحيحاً، وانتقد خطأ الرواة في تحريف الحديث، وقد كانت معرفته الواسعة بمعانيه تُمِدَّه بأداة قوية لتصويب بعض ألفاظه التي بدّل نقلة الحديث بعض حروفها بزيادة أو نقصان، أو أخطأ العامة في استعمال لغة غير صحيحة، من ذلك ما قاله في حديث صفوان [2]، " أنه كان إذا قرأ هذه الآية، بكى حتى يُرى لقد انْدقّ قضيض زوْره [3] : ﴿وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون﴾ [4]. وقال ابن قتيبة : قوله : قَضيض زَوْره : هو عندي غلط من بعض نقلة الحديث، وأراه : قَصص زوْرِه، وهو وسط الصدر. وفيه لغة أخرى : قص، وهو المستعمل في الكلام، فأمّا قصص، فلغة لأهل الحجاز. والعرب تقول في مَثَل : هو ألزم لك من شعرات قصصِك وقصّك [5]. لأنه كلما حُلِق نبت. والعامة تقول : قسّ الشاة. وهو خطأ [6].

وقد أفاد من درايته بعلم الأصوات، لتصحيح الغلط في إبدال حرف من آخر، لقرب مخرج الحرفين، من ذلك تصويبه غلط بعض نَقَلَة الحديث في رواية حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنّه لما فرغ من قتال أهل بَدْر، أتاه جبريل على فرس أنثى حمراء، عاقداً ناصيتَه، عليه دِرْعُه، ورمحه في يده، قد عصم ثنّيتيه الغبار" فقال : " إنّ الله جلّ وعزّ أمرني أن لا أفارقك حتى ترضى، فهل رضيت ؟ قال : نعم رضيت فانْصرف [7]" .

---

(1) غريب الحديث : 2/164، 165.

(2) هو صفوان بن محرز، المازني، تابعي، زاهد، مات في ولاية عبد الملك بن مروان، ينظر : طبقات ابن الخيّاط / 193.

(3) الفائق 3/207، والنهاية 4/ 71.

(4) الشعراء / 227.

(5) جمهرة الأمثال 2/ 218.

(6) غريب الحديث 2/ 551.

(7) الفائق 2/437، والنهاية 3/244، 249.

وقال ابن قتيبة : " هكذا رواه" : قد عصم ثَنِيّتيه الغبار " وأحسبه غلطاً من بعض نقلة الحديث والصواب : عَصَب بالباء، أي يبس الغبار على ثنيتيه، فتوهمه السامع عصم لقرب مخرج الميم وأشباههما في السمع، يقال عصب الريق بفيه يعصب عصباً، إذا يبس، وقد عصَب فاه الرِّيقُ، قال ابن أحمر :

يُصَلِّي على من مات منّا عريفُنا ويقرأ حتى يعصِبَ الرّيق بالفَمِ [1]

وقال بعض الرّجاز :

يعصِب فاه الرّيق أيّ عَصْب عَصْبَ الجُباب بشفاه الوَطْب [2]

والجُباب شيءٌ يجتمع من ألبان الإبل كالزّبد، وليس للإبل زبد، وأما عصم فبمعنى منع. ومنه العِصْمة في الدّين . إنما هو المَنَع من المعاصي . وقوله : ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله ﴾[3] أي : لا مانع . ويقال : " قد عصمه الطعام، أي مَنْعه من الجوع، وليس لعَصم في هذا الحديث وَجْه ، إلا أن يكون أعصم بثنيتيه " . أي : لزمهما ولصق بهما . قال أبو زيد : أعصم الرجل بصاحبه، إذا لَزِمُه، ويقال : أعْصَم الرّجل يَعْصِم، إذا تشَدّد واستمْسك بشيءٍ لئلا يصرعه فرسه أو بعيره، قال الشاعر :

كِفْل الفروسةِ دائم الإعصامِ [4]

وقال طُفَيْل :

ولم يشهد الهَيْجا بألْوَث مُعْصِم [5]

---

(1)شعره / 152 .

(2) هو أبو محمد الفقعي، كما في اللسان (عصب) .

(3) هود / 43.

(4) هو : الجحّاف بن حكيم، والبيت في اللسان (عصم) . وصدره : والتغلبي على الجواد غنيمة .

(5) ديوانه/80، وصدره : إذا ما غدا لم يسقط الخوف رمحه .

فابن قتيبة لم يسلّم برواية نَقَلَةِ الحديث، بل قلّب اللفظة التي شَكّ في صحتها، على وجوه متعددة، وأدرك الفروق اللغوية بين المفردات المتقاربة في اللفظ والمختلفة في المعنى، مستعيناً بمعرفته العميقة بالظواهر اللغوية كالإبدال، لتفسير دلالة الألفاظ والتماس الفروق بين معانيها، وكان يُعَزِّزُ آراءه بإيراد الحجج الكثيرة، مستشهداً على صحة الألفاظ والمعاني بالقرآن الكريم الذي يمثّل أعلى درجات الفصاحة فاستشهد بكل ما جاء فيه على معاني ألفاظ الحديث الشريف، من ذلك استشهاده على معنى لفظة "الحفدة" "التي وردت في حديث أم معبد [1] وهي تصف رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما مرَّ عليها مع أبي بكر ومولى أبي بكر عامر بن فهيرة، حين خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة فقالت : " ... غصنٌ بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قدْراً، له رفقاء يحفُّون به، إنْ قال أَنْصَتُوا لقوله، أو أمر تبادروا إلى أمْرِه، محفُود مَحْشُود، لا عابس ولا مُعْتد [2] .... " .

وقال ابن قتيبة : " وقولها : مَحْفُود، أي : مخدوم، والحَفَدَةُ : الخَدَم . قال الله جلَّ وعزّ ﴿ وجَعَلَ لكم من أزواجِكم بَنِيْنَ وحَفَدَة ﴾ [3] يقول : هم بنون وهم خدم . وأخبرني أبو حاتم عن أبي عبيدة، أنه قال : الحفدة هم الأعوان، وما أقرب هذا من ذلك [4] ... "

واستشهد بالحديث الشريف وكلام صاحبته والتابعين على صحة معاني ألفاظ وردت في أحاديث يفسر ما جاء فيها من غريب : من ذلك استشهاده على معنى عبارة " ولا الروم ذات القُرون " التي وردت في حديث موادعة الرسول أهل مكّة وإسلام أبي سفيان، ففسر ابن قتيبة العبارة الغريبة في هذا الحديث وقال : " ولا الروم ذات القرون، بلغني عن الأصمعي أنّه قال : أراد قرون شعورهم، وكانوا يُطَوِّلون ذلك، فكانوا يُعْرَفون بـــه ... [5] "

(1) أم معبد، اسمها : عاتكة بنت خالد، الخزاعية، ينظر عنها : طبقات ابن الخيّاط / 341، والإمتاع 1 / 43.

(2) الفائق 1 / 94-95.

(3) النحل : 72.

(4) غريب الحديث 1 / 462-474.

(5) الحديث في الفائق 3 / 174، والنهاية 4 / 51، وينظر غريب الحديث 1 / 259.

فقد اعتمد ابن قتيبة رأي الأصمعي في تفسير العبارة وارتضاه، ودعم هذا التفسير باستشهاده بحديث آخر جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه لفظٌ كالمفسر وقال : " وقد جاء عن النبي في حديث آخر هذا الحرف كالمفَسَّر ... قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فارس نَطْحة أو نطحتين، ثم لا فارس بعدها أبداً، والروم ذاتُ القرون، كلما هلك قَرْن خَلَف مكانَه قَرْن، أهل صَخْر وبَحْر، هيهات آخر الدهر [(1)]" .

واستشهد بالحديث الشريف للدلالة على أصول الألفاظ وبيان اشتقاقها ومن أين أخذت حروفها . من ذلك استشهاده على أصل لفظة الفاسق في حديث النبي صلى الله عليه وسلم : أنَّه سُمِّي الغُرابُ فاسقاً وقال ابن قتيبة : " الفاسق : العاصي . وأصل الفسق، الخروج من الشيء . قال الله تعالى : ﴿ إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمرِ ربِّه ﴾[(2)] أي خرج عن طاعته ... وسُئل بعض علماء الأعراب، لم سمِّي الغراب غُراباً ؟ فقال : لأنَّه نأى واغترب وذَهَب . هذا إلى أنَّ اسمه مشتقٌ من الغُرْبة، لا أنّ الغُرْبة مشتقةٌ منه . وهذا وجه أيضاً .

وممّا يزيد هذا المعنى وضوحاً حديث محمّد بن سنان العوفي .. قال : " شهدت مع النبي صلى الله عليه وسلم حُنيْناً فقال لي : ما اسمك ؟ قلت : غُراب، فقال : أنت مسلم. كره أن يكون اسمه غراباً لِفِسْق الغراب ومعصيته . فسمَّاه مُسْلماً [(3)]" .

واستشهد ابن قتيبة بالحديث الشريف لإثبات بعض الصيغ، من ذلك ما قاله في حديث عائشة أم المؤمنين : " إنّ دِقْرة [(4)] قالت : كنت أطوف معها بالبيت وعليها ثوب قد كاد يَشِفُّ، فناولْتُها عِطَافاً كان عليَّ فرأت فيه تصليباً، فقالت : نَحّيه عَنِّي [(5)]" .

---

(1) الحديث في الفائق 3/174، والنهاية 4/51، وينظر غريب الحديث 1/ 260.

(2) الكهف / 50.

(3) غريب الحديث : 1/ 326-328.

(4) دِقْرَة : أم عبد الله بن أذنية، تروي عن عائشة رضي الله عنها . ينظر : طبقات ابن خياط / 198 .

(5) النهاية 3/257، الفائق 3/ 206.

وقال ابن قتيبة في إثبات صيغة " عطاف " : " والعطاف : الرداء . يقال له أيضاً : مِعْطف . ومثله ما جاء على هذا التقدير : مِلْحَف ولِحاف، ومِنْطق ونِطاق، ومِسَنّ وسِنان، ومِسْرَد وسِراد . . . "[1] .

واستشهد بالحديث الشريف للدلالة على حكاية بعض الأصوات، من ذلك استشهاده على ما جاء في هذا القول من حكاية بعض الأصوات : " من وُقي شرَّ لَقْلَقه وشرَّ قَبْقَبه، وشرَّ ذبْذَبه فقد وُقي " . وقال ابن قتيبة : " وقال الأصمعي : اللَّقْلَق : اللّسان، والقَبقب البَطْن، والذَبْذب الفَرْج . وقال غيره : إنَّما قيل لِلّسان لَقْلَق من اللَّقْلقة، وهي الجَلَبة . وكأنَّ اللَّقْلقة حكاية الأصوات إذا كثُرت .

ومنه حديث عُمَر رضي الله عنه : " ما على نساء بني المُغيرة أن يَسْفكن من دُموعِهِنَّ على أبي سُلَيْمان، ما لم يكن نقْعٌ ولا لقَلقة "[2] .

وقال : إنما قيل للبَطْن، قَبْقب، من القَبْقَبة، وهو صوت يُسْمع من البَطْن، كأنَّ القبقبة حكاية ذلك الصوت . .

ومثلُ هذا الحديث في قوم يقرؤون القرآن : " لا يجاوز جرَاجرهم "[3] .

قال الأصمعي : أراد حُلُوقَهم، وسمَّاها جَراجر، لجرجرة الماء إذا شُرِب، وإنَّما تكون الجرجرة في الحَلْق، وكأنها حكاية الجرع، قال : ولا واحد لها، وأنشد للنّابغة :

لهَا ميمُ يَستلْهُونها بالجَراجِر[4]

ونحو من هذا قول الهُذَلي[5] :

---

(1) غريب الحديث 2/ 452.

(2) النهاية 4/165، وفيه : أراد الصياح والجلبة عند الموت وفي اللسان : رفع صوت النائحة (لقق)، وأبو سليمان : خالد بن الوليد .

(3) النهاية 1/ 255.

(4) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه /127، وصدره : عِظامُ اللُّها أبناءُ عُذْرَةَ إنَّهم .

(5) هو : عبد مناف بن ربْع، شرح أشعار الهذليين 2/ 674.

فالطَّعْنُ شَغْشَغَةٌ والضَّرْب هيْقَعَةٌ   ضَرْبَ المُعوِّلِ تحت الدِّيمة العَضَدا

فالشَّغْشَغة، حكاية صوت الطَّعْن، والهَيْقعة، حكاية (صوت الضَّرْب بالسيوف) ، ثم شَبَّهه بصوت ضرب الرَّجل عَضَداً، وهو ما قُطع من الشَّجر ليُبنى به عالة، وهي شبه الظُّلة يستتر بها من المطر[1] .

واستشهد ابن قتيبة بالحديث الشريف على لهجات العرب، من ذلك ما ذكره في حديث عطاء ابن أبي رباح[2] ، أن ابن جُرَيْج قال : سألته عن صَدَقَة الحَبِّ فقال : فيه كله الصَّدقة، وذكر الذُّرة والدُّخْن والجُلْجلان والبَلسن والإِحْريض، وذكر التَّقْدة[3]" .

وقال ابن قتيبة : " والبُلْسُن : العَدَس، والبُلْس : التِّين بِلُغة أهل اليَمن، وسَمِعْتُهُ منهم. خبَّرني بذلك الحجازيون . ومنه حديث يرويه عمر بن قيس عن عطاء عن ابن عبَّاس، أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : " من أحَبَّ أن يَرِقَّ قَلْبُه فَلْيُدْمِن أكْل البَلَس[4]" .

واستشهد ابن قتيبة بأحاديث الصحابة – رضوان الله عليهم –، على لهجات العرب من ذلك ما جاء في حديث عمر رضي الله عنه : " أنه ذُكِر عنده التَّمْر والزَّبيب، أيُّهما أطْيب، وفي حديث آخر، أنه قال لرجُل من أهل الطائف : الحبَلَة أفضل أم النَّخْلة، فأرسل إلى أبي خيثمة الأنصاري فقال : إنَّ هؤلاء قد اختلفوا في التمر والزبيب[5]" .

وقال ابن قتيبة : " الحَبَلة، الأصلُ من الكَرْم . . . " ثم ذكر الحُبْلة واستشهد عليها بحديث سعد بن أبي وقَّاص، وقال : " فأما الحُبْلة، بضم الحاء، فهو ثَمَرُ العِضَاه، ومنه قول

---

(1) غريب الحديث 1 / 430، 431 .

(2) عطاء بن أبي رباح، تابعي، من أهل مكة، توفي سنة 117هـ أو سنة 114هـ . ينظر : تهذيب التهذيب 7 / 199-203، وطبقات ابن خياط / 280، ومشاهير العلماء / 81 .

(3) الفائق 1 / 231، وبعضه في : النهاية 1 / 152 .

(4) الحديث في النهاية 1 / 52، وفيه : فليدم، وينظر : غريب الحديث 3 / 665، 666 .

(5) الفائق 1 / 254 .

سعد بن أبي وقَّاص، " كُنَّا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وما لنا طعام ألا الحُبْلة وورَقُ السَّمُر [1]" .

ولقد كان ابن قتيبة حين يستشهد بالحديث الشريف ينص على الاستدلال به وذكره بأنه "حديث" من قوله : من هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم و (ممًّا يزيد هذا المعنى وضوحاً حديث ....) ، و (من هذا الحديث) و (منه الحديث) ، وكان يعتمد الإسناد لما عرف إسناده، والقطع لما لم يعرفه، وقد أدرك قيمة لغة الحديث الشريف بما حفلت به من ثروة لغوية غزيرة وجمهرة من لهجات العرب التي هي أساس التطور اللغوي، وركن مهم من أركان أصول القراءات، وهي الرافد الأعظم لعلم الأصوات، فنهل من معينها، وفزع إليها في شد أزر شواهده ودعم ما يذهب إليه من صحة وسلامة في اللغة والتفسير، ولا غرابة في ذلك ، فقد وصف الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ريادته لبلاغة الكلام وفصاحته بقوله : " أوتيت جوامع الكلم [2]" ، وقوله أيضاً : " أنا أفصح العرب بَيْدَ أنِّي من قريش [3]... " وهذا يعطي لغة الحديث الشريف قيمة رفيعة في الفصاحة وقوة البيان، إذْ هي قَبَسٌ من لغة الوحي، تلي لغة القرآن الكريم في البلاغة، وروعة النظم .

وتتضح لنا أمانة ابن قتيبة العلمية في كتابه " غريب الحديث " ، فهو محدِّثٌ يلتزم الصدق والتحرِّي في الإسناد والرواية ويتوخَّى الدِّقَّة في نقل الحديث، وضبط ألفاظه، وينحو باللائمة على بعض الرواة لغلطهم في نقله . ويحرص على نسبة أكثر الأقوال والشواهد والآراء إلى أصحابها، وسؤال أهل اللغة والخبرة والاختصاص عن أشياء لم يقف عليها، ويستثبت بعض ما روى عن شيوخه ليكون على يقين في تفسيره وروايته، من ذلك ما ذكره من كلام الحجاج بن يوسف الثقفي : " ألاَ وإيّاي وهذه السُّقْفَاء والزَّرافات، فإني لآخذٌ

---

(1) الحديث في النّهاية 1/ 334، وينظر اللسان (حبل)، وغريب الحديث 1/ 612-613.

(2) الفائق : 1/ 11.

(3) النهاية : 1/ 171.

من الجالسين في زرافة، إلاَّ ضربت عنُقَه [1]" . وقال ابن قتيبة : " وأمَّا الزرافات، فهي الجماعات، نهاهم أن يجتمعوا . وقد ذكر أبو عبيد [2] هذا الحرف من الحديث، وفسَّره، وذكر السُّقْفاء أيضاً، وقال : لا أعرفه . وقد أكثرت أيضاً السؤال عنه، فلم يعرف [3]" .

ومن شدة تحرجه وتحريه للحقيقة فقد كان يسأل شيوخ اللغة ليوثق تفسير عبارة وردت في شرح حديث رواه عن شيوخه، من ذلك تعقيبه على ما ذكره أبو عبيدة في تفسير حديث النبي صلى الله عليه وسلم : " أنَّه يظل مُحْبَنْطِيًّاً على باب الجَنَّة [4]" فإنَّ أبا عبيدة قد ذكره وفسَّره : المُحْبنطيُّ : المُتَغَضّب المستبطئ للشيء . قال : فإذا هُمِزَ فهو العظيم البطن المنتفخ، وذاكرت بهذا الحرف شيخاً من العلماء باللغة فقال لي : المُحْبَنطِئ، المتمدد . . [5]" .

وكان ابن قتيبة يكتب إلى بعض الأعراب ليستثبت ما قاله علماء اللغة في تفسير ألفاظ غريب الحديث، من ذلك ما ذكره أبو عبيدة في الحديث : " النَّاس قَواري الله في الأرض . يُراد أنَّهم شُهُودُه، إذا قالوا خيراً وَجَب، وإذا قالوا شرًّاً وجب [6]" .

" قال أبو عبيدة : القواري، هم الذين يتتبَّعون أعمال الناس، ويتفقدونهم . . وأَحسَبه مأخوذاً من : قَريت الشيء، إذا جَمَعْته، كأنَّهم يجمعون أخبار النَّاس عندهم . . . " .

وقال ابن قتيبة : " وكتبْنا إلى أبي مُحلِّم [7] نسأله عن هذا الحَرْف، فأجاب

(1) غريب الحديث : 3/ 694 . وينظر : الكامل للمبرد 1/380، والبيان والتبيين 2/307، وعيون الأخبار 2/ 244 .

(2) غريب أبي عبيد 4/ 481 .

(3) غريب الحديث 3/ 702 .

(4) الفائق 1/251، وغريب أبي عبيد 1/ 130 .

(5) غريب الحديث 1/ 422 .

(6) الفائق 3/188، والنهاية 4/ 56 .

(7) أبو محلِّم، هو : محمد بن هشام الشيباني، أعرابي، أحفظ أهل زمانه للشعر والغريب (ت/245هـ) . الفهرست (46) .

بنحـو هذا[1] ..." .

ومن مظاهر أمانته العلمية عدم إفتائه بما لا يعلم، فكان ينص صراحة بعبارة " لا أعلم " أو "لم أسمع" في معنى بعض الألفاظ، ولا يدَّعي لنفسه ما لا يعلم به، ويستخدم أحيانًا ألفاظ (أحسب) و (كأنَّ) و (لعلَّ) و (هذا أو نحوه من الكلام) عندما لا يقطع برأيه، مستخدماً عبارة "والله أعلم" في المسألة التي لم ينته فيها إلى رأي قاطع . وهو لا يقول حدّثنا فلان إلاَّ إذا كان من شيوخه .

ولم يقف ابن قتيبة من آراء العلماء الذين نقل عنهم موقف المستسلم العاجز، بل كان يبدي رأيه بموافقته أو مخالفته لتلك الآراء، معزِّزاً لما يذهب إليه بالشواهد المتعددة، ويجتهد ويفتي في مسائل اللغة، وإن دقت، ويرجح ما يراه صواباً، وإن شاع ضده . . . مستخدماً بعض العبارات نحو (وهذا أحبُّ إليَّ) أو (الذي أراه) أو (هذا عندي أصحُّ التفسيرين أو / وهذا أعجب إلي) ، وغيرها . واعتمد كثيراً من آراء المفسرين في شرحه لألفاظ الحديث الشريف، واستدلَّ بها، وكان أحياناً يختصر الأحاديث، ويذكر ما يهمه من الألفاظ الغريبة التي يريد تفسيرها، من ذلك ما قاله في حديث لقيط بن عامر :[2]" وذُكر ذلك عنه في حديث فيه طُول، اختصرته واقتصرت منه على ما يُفَسَّر[3]" . وذكر ابن قتيبة أسماء المفسِّرين الذين اعتمد آراءهم كابن عبّاس[4]، وابن مسعود[5]، ومجاهد[6]، وعكرمة[7]، والحسن البصري[8]، ملتزماً أساليب المنهج العلمي، في نسبة الآراء، وإرجاع

(1)غريب الحديث 3/754، 755 .

(2) ينظر عنه : الاستيعاب 3/340، وطبقات ابن خيَّاط /57، 285، وجمهرة الأنساب/291 .

(3) غريب الحديث 1/ 531 .

(4) ينظر على سبيل المثال : غريب الحديث 1/404، 593، 2/11، 161، 3/ 728 .

(5) ينظر على سبيل المثال : غريب الحديث 1/369، 574، 2/253، 314، 632 .

(6) ينظر على سبيل المثال : غريب الحديث 2/ 646 .

(7) ينظر على سبيل المثال : غريب الحديث 2/58، 338، 411 .

(8) ينظر على سبيل المثال : غريب الحديث 2/355، 637 .

المآخذ إلى أصحابها . . فكثيراً ما نجده يقول : كتب إليَّ الربيع، أو رواه لنا فلان، أو قرأته في (كتاب كذا) . .

وخلاصة القول في منهج ابن قتيبة الذي سلكه في تفسر غريب الحديث أنه جرى على نمط لغوي التزم فيه المنهج العلمي، فكان يفكُّ مُغْلق الكلمة المستبهمة من ألفاظ الحديث، ثم يجيل النظر في اشتقاقها وصيغتها، ويحاول إرجاعها إلى أصولها، ثم يعرض لوجوه استعمالها، وتطورها وبعد ذلك يعمد إلى توثيق مذهبه في التفسير، فيعضده بنصوص من القرآن الكريم . والحديث الشريف، وبشواهد من كلام العرب الفصحاء، شعراً ونثراً، كالأمثال، والخُطَب، لشدِّ أزره فيما ذهب إليه . ولا يغفل توجيهاته النحوية والتصريفية، فكان يستأنس بآراء علماء اللغة والنُّحاة الأثبات، وبخاصة أبي حاتم السجستاني، وسيبويه، والخليل، وأبي عبيدة . وأثبت جمهرة وافرة من وجوه القراءات، ومنها طائفة من شواذ القراءات، كما أثبت مادة غنية بالمعرفة والعلم من الأخبار وأمور التاريخ، وطائفة من الألفاظ التي تدور عند أهل الفقه، والتوحيد، كذكره أسماء الفرق والملل والنحل، فجاء منهجه وافياً التزم فيه إشباع التفسير، ووجد فيه أهل الأدب واللغة والفقه والتفسير، وأهل الأخبار والتاريخ ضالَّتهم، فنهلوا من معينه، وغدا مورداً عذباً وزاداً طيباً لصنَّاع المعاجم ومؤلفي كتب اللغة والأدب والغريب .

وقد تتبَّع محقق الكتاب الدكتور عبد الله الجبوري أثر (غريب الحديث)، في كتب اللغة والأدب والتاريخ والفقه، وكتب (غريب الحديث) التي نقلت منه، وانتفعت به، وتأثرت به، وجعلته من مواردها فعدَّدها، وأشار إلى مواضع النقل منه فيها[1]، ونصَّ على النقول التي وجدها من كلام ابن قتيبة في المظان من أصول التراث اللغوي والأدبي والحديثي، فقد أصاب كتاب : (غريب الحديث)، حظاً وافراً من الذيوع والعناية به، عند

(1) ينظر : غريب الحديث (مقدمة التحقيق) 1/ 50-74 .

جمهرة كبيرة من العلماء . فروته طائفة منهم وحدَّثت به أخرى .. وجعلوه من أصول كتب غريب الحديث وأمهاته ... على كثرة ما ألف فيه . .

ولا شك أن النقل كان سمة من سمات التأليف اللغوي في العصور المتقدمة . فالعالم ينقل عن الأعلام السابقين، ويفيد من آرائهم التي سمعها أو قرأها، ويتفاوت العلماء تأصيلاً وابتكاراً أو تقليداً واتباعاً، ويتفاوتون في الأمانة العلمية التي يتحلَّون بها، فبعضهم يلتزم الصدق ويتحرى الحقيقة في نسبة الأقوال والشواهد والآراء إلى أصحابها، وبعضهم الآخر لا يلتزم هذا النهج، فالآراء المهمة والروايات عن أهل اللغة يتداخل بعضها في بعض، ولا تعرف أهي له، أم لغيره ...

وابن قتيبة – شأنه في ذلك شأن علماء عصره – أفاد من العلماء الذين تقدَّموه وروى عن سيبويه والأصمعي وأبي عمرو بن العلاء، وهو لم ير أحداً منهم، ولكنه سمع ما رواه عنهم من جماعة من الثقات المأمونين، فقد سمع من أبي حاتم السجستاني ومن الرياشي ومن أبي سعيد الضرير، وسمع كتب أبي عبيد، وسمع من عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي، ونسب أكثر الأقوال والآراء إلى أصحابها، ووثق ما سمعه أو رواه .

د- إصلاح غلط أبي عبيد في غريب الحديث[1] .

وهذا الكتاب يعد حلقة في سلسلة جهود ابن قتيبة في علم الحديث، ويأخذ فيه على أبي عبيد في ثلاثة وخمسين حديثاً، يرى أنَّ أبا عبيد لم يفسرها تفسيراً صحيحاً، ووقع له فيها زلل يجب التنبيه عليه، إلاَّ أنَّ ابن قتيبة لم يغفل ثناءه على أبي عبيد وكتابه، واعتذر إليه في المقدمة وقال : " ... ونذكر الأحاديث التي خالفنا الشيخ أبا عبيد – رحمه الله – في تفسيرها، على قلتها في جنب صوابه، وشكرنا ما نفعنا الله به من علمه[2]" .

---

(1) نشره محققاً د. عبد الله الجبوري، ط1، 1403هـ-1983، دار الغرب الإسلامي، بيروت .

(2) إصلاح الغلط / 47.

ونهج ابن قتيبة في كتابه منهجاً نقدياً، حيث استدرك على أبي عبيد الأخطاء التي اعتقد أنها أخرجت بعض الأحاديث التي فسَّرها في كتابه "غريب الحديث" عن المراد منها، وحاول تصويبها، متخذاً من أسلوب المناقشة والرد اللغوي سبيله إلى الإقناع .

ومن المواطن التي نبَّه فيها ابن قتيبة على غلط أبي عبيد، ما اعتقد أنه أخطأ في تفسير دلالة بعض ألفاظ الحديث، من ذلك ردُّه على أبي عبيد، ففي حديثه عليه السلام: " إن قريشاً كانوا يقولون: إنَّ محمداً صُنبور " قال أبو عبيد: " قال أبوعبيدة: الصُّنبور: النخلة تخرج من أصل النخلة الأخرى لم تغرس . وقال الأصمعي : الصُّنْبُور : النخلة تبقى منفردة ويَدِقُّ أسفلها ..

... قال أبوعبيد: فشبهوه بها، يقولون: إنه فرد ليس له ولد ولا أخ، فإذا مات انقطع ذكره . قال أبو عبيد: وقول الأصمعي في الصُّنبور أعجب إلي من قول أبي عبيدة، لأنَّ النبي عليه السَّلام لم يكن أحد من أعدائه من مشركي العرب ولا غيرهم يطعن عليه في نسبه "[1].

وردَّ ابن قتيبة على أبي عبيد قائلاً: " تدبرت هذا التفسير فلم أر النخلة إذا دق أسفلها ويبس سعفها أولى بأن تشبه بالفرد الذي لا ولد له ولا أخ، من النخلة إذا غلظ أسفلها ورطب سعفها، لأنَّ هذه في الإنفراد بمنزلة هذه، ولا أدري أي شيء أوحشه من قول أبي عبيدة وهو الصواب، وإنَّما أرادوا أنَّ محمداً ناشيء حدث بمنزلة الصّنْبور الذي يخرج من أصل النخلة، يقولون : فكيف تتبعه المشايخ والكبراء وهو كذلك.. "[2].

ويبدو أن ابن قتيبة قد ذهب بعيداً في تغليط أبي عبيد في هذا المواطن، ذلك أن الزمخشري قد وافق أبا عبيد في تفسير الصنبور وقال في الفائق : إن الصنبور هو الأبتر الذي

---

(1) غريب الحديث لأبي عبيد : 1/ 12-10.

(2) إصلاح الغلط / 76، 77.

لا عقب له .[1] وكأن قريشاً كانت تمني نفسها بموته فينْقَطِعَ خبره وخبر دعوته .

ومن ذلك ردّه على أبي عِبيد قال : "قال أبو عبيد : في حديثه عليه السلام : " إنَّ رجلاً أتاه وعليه مقطَّعَاتٌ له .[2] قال الكسائي : المقطَّعات هي الثياب القصار . قال أبو عبيد : وكذلك غير الثياب أيضاً ومنه حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما في وقت صلاة الضحى، قال: إذا تقطَّعت الظِّلالُ، وذلك لأنها تكون ممتدة في أول النهار، فكلما ارتفعت الشمس قَصُرَت الظلالُ فذلك تقطُّعُها .

ويروى أنَّ جرير بن الخطفي كان بينه وبين العجَّاج اختلافٌ في شيء، فقال: أما والله، لئن سَهِرُت له ليلة لأَدَعَنَّه، وقلَّما تغني عنه مقطَّعاته، يعني أبيات الرجز، سمَّاها مقطَّعات لقصرها " .

وقال ابن قتيبة : " والذي رأيت عليه أهل اللغة في المقطَّعات من الثياب أنَّها المقطوعة سابغةً كانت أو قصاراً، وكان القوم يلبسون المآزر والأردية والمروط والأكسية، فمن لم يلبس ذلك وقَطَّع ثيابه، فقد لبس المقطَّعات، ويدلُّ على هذا حديثٌ يرويه نَقَلَةُ الأخبار، قالوا : مرَّ هشام بن عبد الملك بسويد بن قيْس الفِهْري، وهو والي البَلْقاء، وعلى هشام مقطَّعاتٌ له يسحبُها، وهشام حديثُ السِّن، يريد بعض المغازي، فقال له سويد : يا أبا الوليد أما رأيت أمير المؤمنين عبد الملك ؟ قال: أدركْتُه وأنا حديث السِّنّ، قال: أما إنك لو رأيْتَه لرأيت أحوزيّاً[3] مشمراً بعيد المَشابِه والشَّمائل منك غير جرَّار لثيابه، فقال له هشام: إني كلما أردت تقصير ثيابي ذكرت قول الشاعر لأبيك:

قصيرُ الثِّياب فاحِشٌ عند بابه لشرُّ قريش في قريش مركَّبا[4]

---

(1) الفائق : 2/ 39.

(2) الحديث في النهايةٰ : 81) 4، والفائق 13 / 208، وغريب الحديث لأبي عبيد 1 / 161، 162.

(3) الأحوزي : السريع، والشجاع والذكي، ينظر : تاج العروس 15 / 122-124. وهي كالأحوذِيٌ زِنَةً ومَعْنَىً.

(4) إصلاح الغلط 50. وفي الفائق 2 / 358 إنَّ المقطَّعات الثياب التي تقطع وتخاط كالجلباب .

وردَّ ابن قتيبة على أبي عبيد ماقاله: " في حديث النبي عليه السلام،أنه ذكر المختالات المُتبرِّجات، فقال: " لا يدخل الجنَّة منهنّ إلاّ مثْلُ الُغراب الأعْصَم [1]" . قال أبو عبيد: "الغراب الأعصم هو الأبيض اليدين ولهذا قيل للوعول: عُصْم، والأنثى منهن عَصْماء، والذكر أعصم، وإنما هو لبياض في أيديها ، فوصف قلة من يدخل الجنة َمنهن، قال أبو عبيدة: وهذا الوصف في الغربان عزيز لا يكاد يُوجد، إنما أرجلها حُمْر، وأمَّا هذا الأبيض البطن والظهر فإنما هو الأبقع، وذلك كثير، وليس هو الذي ذكر في الحديث، قال أبو عبيد: فنرى أنَّ مذهب الحديث أنّ من يدخل الجنة من النساء قليل كَقِلَّة الغربان العصم عند الغربان السود والبُقْع " .

وقال ابن قتيبة: " وقد تدبرت هذا التفسير، فرأيته مضطرباً، لأنَّه قال في أوله: الأعصم هو الأبيض اليدين، والغراب ليس له يَدَان، ثم قال بعد: وهذا الوصف في الغربان عزيز لا يكاد يوجد، إنما أرجلها حُمْر، فكأنه أراد هو الأبيض الرِّجْلين، وذكر مع هذا أن أرجُلَ الغِربان حُمْر، ولم أر ذلك في البُقع منها ولا في الغُدْفان [2]، وإنما الحُمْر الأرْجُل، ضَرْب منها سُودٌ صغار، وهي مع ذلك حُمْر المناقير. والغرابُ الأعصم هو الأبيض الجناحين، لأنّ جَناحَيْ الطائر بمنزلة اليدين، كما كانت العُصْمَةُ في الوُعُول والخَيْل بياضَ أيديها، فكذلك هو من الغربان بياض أجنحتها، إذْ كانت الأجْنحة لها بمنزلة الأيدي ومَّما يشهد لهذا، حديثُ حدّثنيه محمد بن عبد العزيز عن ابن عائشة عن حمَّاد بن سلمة عن أبي جعفر الخطمي عن عمارة بن خزيمة، قال: خرجنا مع عمرو بن العاص متوجهين إلى مكة، فإذا نحن بامرأة عليها جبائر وخواتيم، وقد بسطت يديها على الهَوْدج، فقالت: كنَّا مع رسول الله صَلَى الله عليه وسلم، فإذا نحن بغرابَيْن فيهما غُرابٌ أعصم أحمر المنقار والرِّجليْن، فقال: "لا يدخل الجنَّة من النِّساء إلاّ قَدْر هذا الغُراب في الغِربان" . والغراب الأبيض الجناحين عزيز لا

(1)الحديث في النهاية 3/249، وينظر غريب الحديث لأبي عبيد : 3/101، 102 .

(2) الغدفان جمع : غداف . وهو الغراب، ينظر اللسان (غدف) .

يكـاد يوجد[1]".

فقد أخذ ابن قتيبة على أبي عبيد تفسيره بعض ألفاظ الحديث تفسيراً لايتسَّقُ مع مراد النص، وصَّوب دلالتها، معملاً تفكيره، معتمداً على خبرته في اللغة، وفهمه الدقيق لدلالة ألفاظها، وتأويلها تأويلاً يتلاءم مع سياق الحديث،ملتمساً وجه الصَّواب، حتى يتحقق المعنى المطلوب، ويدعم رأيه بأحاديث تعضد التفسير الذي ارتضاه، وبالمأثور من كلام العرب، مثلاً وشعراً، ونثراً والمستعمل الشائع في كلام النَّاس .

ومن المآخذ التي أخذها ابن قتيبة على أبي عبيد غلطه في ضبط بنية ألفاظ الحديث الشريف لأنَّ الخطأ في الحركة يغيّر معنى الحديث، ومن ذلك ما قاله أبو عبيد في حديثه عليه السلام، إنّه قال في الغائط " اتّقوا المَلاعن وأعدُّوا النُّبَل " .

قال أبو عبيد عن الأصمعي : أراه بضم النون وفتح الباء، قال : ويقال : نَبِّلْني أحجاراً للاستنجاء – أي أعطنيها، ونبِّلني عَرْقاً - [2] أي أعطنيه، لم يعرف منه الأصمعي غَير هذا، قال وسمعت محمد بن الحسن يقول : النُّبُلُ حجارة الاسْتنجاء . قال أبو عبيد : والمحدِّثون يقولون : هي النَّبَل – بفتح النون . ونراها سميت نَبَلاً لصغرها، وهذا من الأضداد في كلام العرب أن يقال للعظام نَبَل وللصغار نَبَل، وقيل إنَّ رجلاً من العرب توفي، فورّثه أخوه إبلاً، فعيّره رجل بأنه قد فرح بموت أخيه لَمّا ورّثه، فقال الرجل [3] :

إن كنت أزْنَنْتني بها كَذباً جَزْءٌ فلاقيْتَ مثلها عجلاً
أفرَحُ أن أُرزأ الكرامَ وأَنْ أُورَثَ ذَوْداً شَصائصاً نَبَلاً ؟ [4]

---

(1) إصلاح الغلط : 74، 75.

(2) العَرْق – بفتح العين وسكون الراء : العظم . ينظر غريب الحديث لأبي عبيد 1/ 79. والحديث في الفائق 3/ 318 " لعن "

(3) هو حضرمي بن عامر، ينظر أمالي القالي ج 1ص67، طبع الدار سنة 1926، واللسان (جزأ، شصص، نبل) .

(4) جزء اسم الرجل الذي عيره، وهو ابن عم الحضرمي بن عامر، كما في اللسان (جزأ) . والبيت الثاني في=

والشَصَائِصُ: التي لا ألبان لها، والنُّبَل في هذا الموضع الصِّغار الأجسام، فنرى أنّها سميت حجارة الاستنجاء نَبَلا لصغرها . وأمَّا المَلاعنُ: التغوط بالطريق، لأنه يقال: من فعل هذا لعنه الله [(1)]".

وقال ابن قتيبة: " أرى أبا عبيد قد أرتضى هذا القول، واحتجَّ له وأعرض عن قول الأصمعي ومحمد بن الحسن، والأمر كما قالا، هي النُّبَل بضمّ النون وفتح الباء جمع نُبْلة .وإنَّما قيل لها نُبْلة، بالتّناول من الأرض أو بالمناولة، تقول: انْتَبلْت حَجَراً من الأرض، إذا أنت أخذْتَه، وأنبلْت فلاناً حَجَراً، ونَبلْتَه أيضا، إذا أنت أعطيْته إياه على ما قال الأصمعي، واسمُ الشيء الذى يتناوله نُبْلة، واسمُ ما في فيك حُسْوة، والجميع: غُرَف وحُسَو. مثل: نُبَل في التقدير، وفي شعر لبيد: كآرام النُّبَل [(2)]، وأمَّا قول الشاعر " شصائصاً نَبَلاً، فقد يُحْتَمل المعنى ما ذهَب إليه، إنْ كانت الرّواية بفتح النون وكان هذا محفوظاً في الأضداد، وإلاّ فإنَّما هي نُبَلا، جمع نُبْلة أي عطيَّة وعِوضاً من أخي، وأمَّا قوله: " اتّقوا الملاعن " فإنّ أبا عبيد لم يفسر ذلك [(3)] والملاعن جمع مَلْعنة، وهي أنْ يُحدثَ الرجُلُ في المواضع التى ينزلُها النّاس، أو على قارعة الطريق... وإنما سميت مَلاعن لِلَعْن النّاس فاعلَها . وفي هذا الحديث قال أبوعبيد: العَرْق: الفدْرة من اللَّحم، وليس كلُّ فدْرة من اللَّحم تكون عَرْقاً، إنَّما العَرْق: العَظْم بلحم وبغير لحم، وجمْعُه عُراق، وقد بيَّنت هذا في كتاب " غريب الحديث [(4)]".

= الفائق 1/658. والإزنان: الإتهام – بالزاي والنون المكررة، ينظر غريب الحديث لأبي عبيد 1/80، واللسان (زنَن) .

(1) غريب الحديث، لأبي عبيد 1/ 79- 81.

(2) وتمامه:

كل يوم صنعوا جاملهم ومُرِنَّات كآرام نُبَلْ

وفي الديوان (تُبَل) / 146.

(3) فسَّر أبو عبيد قوله: الملاعن، ينظر: غريب الحديث 1/ 81.

(4) لم يفسره أبو عبيد في موضع الحديث المذكور، ينظر غريب الحديث 1/105، 295، 3/286، 4/ 227. وإصلاح الغلط: 65-68.

ونلاحظ أن ابن قتيبة لم يسلم بتفسير أبي عبيد، بل ذكر معاني كثيرة للكلمة التي يرد فيها أكثر من وجه، وبين الوجوه المتعددة للمعنى، وانتصر لرأي الأصمعي ومحمد ابن الحسن، وعضد ما ذهب إليه في تأييدهما بإيراد الحجج والشواهد المختلفة، ذاكراً الأشباه والنظائر، لإظهار معنى النص في شكل مفهوم، ينسجم ومعنى التفسير العام، وفسَّر الألفاظ الغامضة التي لم يفسرها أبو عبيد، ملتزماً إشباع التفسير، ملتمساً الإشارة إلى سبب التسميات، لإيضاح المعنى .

وقال أفاد ابن قتيبة من درايته بعلم الحديث، وخبرته بروايته فصوب غلط أبي عبيد في حديث النبي صَلَّى الله عليه وسلم في حديث أم زرع: " إنَّ المرأة الخامسة قالت: زوجي إن أكل لفَّ وإنْ شَرِبَ اشْتَفَّ، ولا يولِجُ الكفَّ ليعلم البَثَّ " . قال أبو عبيد: اللفُّ في المَطعَم الإكثار منه مع التخليط من صنوفه ، حتى لا يبقي منه شيئاً . والاشْتفاف في الشَّرْب أن يَسْتَقصي ما في الإناء ولايُسئِر فيه سؤراً، وإنَّما أُخِذ من الشُّفافة وهي البقيَّة تبقى في الإناء من الشَّراب، فإذا شربها صاحبها، قيل: اشتفها وتشافَّها تشافّاً، قال ذلك الأصمعي . . . وقولها، لا يُولِج الكفَّ ليعلم البثَّ، قال: فأحسبه كان بجسَدها عَيْبٌ أو داء تكتئب له، لأنّ البثَّ: هو الحزن، فكان لا يدخل يده في ثوبها ليحسَّ ذلك العَيْبَ، فيشق عليها، تصفه بالكرم[1]" .

يقول ابن قتيبة: " وقد تدبرت هذا التفسير، فرأيت المرأة في اللَّفظين الأوَّلين قد وصفتْه بالشَّرَه والنَّهَم والبُخْل . . . فكيف تهجوه بلفظين وتصفه بالكرَم في الثالث ؟ ولا أرى القول فيه إلاَّ ما قال ابن الأعرابي، فإنه رَواهُ: " زَوْجي إن أكل لفَّ، وإنْ شرب اشْتَفَّ، وإنْ رَقَد التفَّ، ولا يُدخل الكفَّ ليعلم البثَّ . وفسَّره فقال: أرادت أنه إذا رقد التفَّ ناحيةً ولم يُضاجِعْها . . .[2]" .

---

(1) غريب الحديث، لأبي عبيد : 2/ 286-293 . والمرأة الخامسة هي : بنت أوس بن عبد،

(2) إصلاح الغلط / 72، 73 .

فقد صوَّب ابن قتيبة رواية الحديث، وأعاد إليه ما أسقطه الراوي، بعد أن وقف على ما فيه من تناقض في تفسيره .

ويصوب ألفاظ الحديث التي ذكرت على سبيل إحلال صيغة محلَّ أخرى، من ذلك رده على أبي عبيد فيما ذهب إليه في تفسير حديث عبيد بن عُمَيْر: " الإيمان هَيُوبٌ، إذ يقول: إنَّ المؤمن يَهاب الذُّنوب، لأنه لولا الإيمان ما هاب الذُّنوب، ولا خافها، فالفِعْل كأنَّه للإيمان، وإذا كان للإيمان فهو للمؤمن [(1)]" .

ويقول ابن قتيبة: " لو كان هذا على مافسَّر لم يكن للحديث فائدة، ومن يشك في أنَّ المؤمن يهاب الذُّنوب وإنما أراد المؤمن مَهيب يُجلُّه الناس، ويَهابُونَهُ، فجاء بـ (فعول) في موضع (مفعول) " وعضد تفسيره بقوله تعالى: ﴿ وذَلَّلْناها لهم فَمنْهَا رَكُوبُهم ومنها يَأكُلون ﴾ [(2)] أي: لما يركبونه، كما تقول: حَلُوب القوم لما يحلبونه، وقال الشَّماخ، وذكر الحمير:

إذا ما اسْتَافَهُنَّ ضَرَبْنَ منه ... مكان الرُّمْحِ من أنْفِ القَدُوعِ [(3)]

يريد الفرس المقدوع [(4)]" .

ويصوب أبنية الحديث بما يَتَّسِقُ مع معنى النص، مشيراً إلى اختلاف المعنى لتغير الحركة: من ذلك رده على أبي عبيد فيما ذهب إليه في تفسير حديثه عليه السلام: " الثَّيِّبُ يُعْرِب عنها لِسانُها، والبكْرُ تُسْتأمَرُ في نفسها " . قال أبو عبيد: هذا الحرف يروى في الحديث يُعْرِب بالتخفيف . وقال الفَرَّاء: هو يُعَرِّب – بالتشديد، يقال: عَرَّبْتُ عن

---

(1) غريب الحديث، لأبي عبيد 4/ 354.

(2) يس : 72.

(3) ديوانه 60، والقدع : الرَّدُّ . واستافَهُنَّ : شَمَّهن .

(4) إصلاح الغلط /136، 137 .

القوم، إذا تكلمتُ عنهم واحتججتُ لهم ... "[1].

ويقول ابن قتيبة: " واللفظ على ماجاء في الحديث: يُعْرِب عنها لسانُها، يقال: اللِّسانُ يُعْرِب عن الضَّمير، أي يُبين عنه، والإعْرابُ في الكلام من هذا، إنَّما هو الإفصاح والإبانة، ولم أسمع أحداً يقول: التَّعْريبُ، وقال الكميت لبني هاشم:

وَجَدْنَا لكم في آلِ حَمِيم آيةً   تأوَّلها مِنَّا تقيٌّ ومُعْرِبُ [2]

أي: تأوَّلها منَّا رجلٌ يتَّقي على نفْسه، فهو لا يتكلم، ولا يُبْدي ذلك التَّأويل خَوْفاً على نفسه من بني أميَّة. وآخر يُعْرب، أي: يُبين ويُفْصح بذلك التأويل ولا يُباليهم ... "[3].

ونجد ابن قتيبة يأخذ في تفسيره بعض ألفاظ الحديث بتعدد المعنى، ويذكر في اللفظ أكثر من قول ولا يُرَجِّح أو يعترِضُ على أحدها، وهذا يعني أنه ارتضى تلك الآراء، ولذلك أخذ على أبي عبيد أنه ارتضى آراء بعض علماء اللغة في تفسير لفظ، ولم يذكر أقوال علماء آخرين، من ذلك استدراكه على أبي عبيد في تفسير حديث النبي صَلَّى الله عليه وسلم: " إنه نهى عن المَجْر ". قال أبو زيد: المَجْر: أن يُبَاع البعير أو غيره في بَطْنِ النَّاقة، يقال منه: قد أمْجَرْتُ في البَيْع إمجاراً ... "[4]

وقال ابن قتيبة: " وفيه قولٌ آخر، رأيت أهل العلم باللغة، يجعلون المَجْر في الغَنَم دون الإبل، وحُدِّثت عن الأصمعي، أنه قال: هو أنْ يشتدَّ هُزال الشاة ويصغر جسْمُها، أو يثقُل ولَدُها في بَطْنها، وتَرْبِضُ، فلا تقوم. ويقال: شاة مُمْجر، وأنشد لابن لجأ في وصف امرأة، أحسبها راعية:

---

(1) غريب الحديث، لأبي عبيد 1/162، 163.

(2) الهاشميات 4، وتفسير غريب القرآن: 36، واللسان (عرب).

(3) إصلاح الغلط / 78، 79.

(4) غريب الحديث، لأبي عبيد: 1/ 206.

وتحمـــل المُنْجِـرَ في كسـائهـا [1]

يعني: هذه الشَّاة إذا ألْقت نَفْسَها فَلم تقدر على النُّهوض، حمَلتْها في كسائها . وقال غيره، يقال، شاة مَجْرَةٌ، والجَمْعُ مَجْرٌ، ويقال أيضاً: شاةُ مَجْرٌ وشاة مَجْرَةٌ، كلُ هذا قد سَمِعت . فنهى النبي صَلَى الله عليه وسلم عن شراء ولد هذه في بَطْنها وعن شراء الأجنة كلِّها . [2]

وخالف أبا عبيد، لأنه ارتضى آراء بعض علماء اللغة، وأنكر آراء بعضهم الآخر، ورأى ابن قتيبة أن ما أنكره أبو عبيد صحيح لا يجوز ردُّه، من ذلك ما قاله أبو عبيد: في حديث النبي صَلَّى الله عليه وسلم: " إِنَّه نَهَى عن كَسْب الزَّمَّارة " قال أبو عبيد:

وقال حجّاج: الزمّارة، الزانية، قال أبو عبيد: ولم أسمع هذا الحرف إلاّ في هذا الحديث، ولا أدري من أي شيء أُخِذَ .

وقال أبو عبيد: قال بعضهم: الرّمّازة، وهذا عندي خطأ في هذا الموضع ... ولا وجه للحرف إلاّ ما قال حجّاج: الزَّمَّارة ... وهو أثبت عندنا مِمّن خالفه . [3]

وقال ابن قتيبة: " وهو كما ذكر إلاّ ما أنكره على مَنْ زعم أنَّها الرَّمّازة، والرمَّازة: الفاجرة، سميت بذلك، لأنَّها ترمز، أي تومِيء بعينيها وحاجبيها وشفتيها، قال الفَرّاء: وأكثر الرمز بالشفتين، ومنه قول الله عزَّ وجل: ﴿ آيتك أنْ لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلاّ رَمْزا ﴾ [4] .

فالرَّمَّازة: صفة من صفات الفاجرة ثم صار اسماً لها أو كالاسم ... والمريبة: لا تكاد

---

(1) ابن لجا، هو عمرو بن لجا التيمي، شاعر أموي، عاصر جريراً، وتوفي سنة 105، ينظر الشعر والشعراء 2/ 684 - 685.

(2) إصلاح الغلط /68، 69.

(3) غريب الحديث : لأبي عبيد 1/ 341، 342.

(4) آل عمران / 41.

تُعْلِن الكلام، إنَّما تُومِض أو تومىء أو ترمز أو تصفر، قال الشاعر:

رَمــــزتْ إليَّ مــــخــــافــــةً من بَعْلها   من غــيــر أنْ يبــدو هناك كــلامُــهَــا

... وبلغني عن المفضَّل، أنه كان يقول في قول النّاس: " أجْبَن من صافر " إنه الرجل يصفر للفاجرة، فهو يخاف كل شيء، فأمَّا الأصمعي، فإنه بلغني عنه أنه كان يقول الصَّافر ما يصفر من الطَّير، وإنَّما وُصِفَ بالجُبن، لأنه ليس من الجوارح، ولا أرى القول إلاّ قول المفضَّل، والدليل على ذلك قول الكميت:

أرجــــو لكم أن تكونوا في إخــــائكم   كلبــاً كــورهاء تَقْلي كلَّ صَــفَّـــار

لَمَّا أجــابت صَــفــيــراً كــان آيتــهــا   من قــابسٍ شَــيَّطَ الوَجْــعــاء بالنَّار [1]

فهذه امرأة كان يصفر لها رجُل فتجيبه، فتمثَّل لها زَوْجها به فَشَيَّطها بِمَيْسَم فلما عاد الصفير، قالت: قد قَلِيْنا كلَّ صفار، تريد كلّ زانٍ وعَفْفَنا [2]".

لقد سلك ابن قتيبة في الردّ على أبي عبيد منهج المناقشة العلمية، ولم يردَّ رأياً وينتصر لآخر إلا عضده بشاهد من القرآن الكريم، أو الحديث الشريف، أو كلام العرب، معتمداً على فقهه بأسرار اللغة، ووقوفه على سبب التسمية، وتطور دلالة اللفظ من الحقيقة إلى المجاز، ملتمساً تعليل ما يذهب إليه، موسِّعاً دائرة التفسير، حتى يزيل عن النص كلَّ لبس أو غموض.

وقد استدرك ابن قتيبة تفسير عددٍ من الأحاديث الشريفة التي اشتملت على التشبيه، بالتفسير والإيضاح، وبيان مراميها لأنّ أبا عبيد لم يذكر علَّة التشبيه فيها، ولم يبين المراد من هذا التشبيه من ذلك ما قاله أبو عبيد: في حديث النبي صَلَّى الله عليه وسلم: " أنَّه ذكر فِتْنة تكون في أقْطار الأرض، كأنَّها صَياصِي بقر " .

(1) اللسان : (شيط)، والبيت الثاني في اللسان

(2) إصلاح الغلط : 59-63.

قوله: صياصي بقر: يعني قرونها، وإنما سميت صياصي، لأنَّها حصونُها التي تُحَصَّن بها من عدوها. وكذلك كلُّ من يُحصَّن بحصن، فهو له صِيصة، قال الله عزَّ وجل: ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صَيَاصيهم ﴾ [(1)] . يقال في التفسير: إنَّها حصونهم، وكذلك يقال لأصبع الطائر الزائدة في باطن رجله: صيصة، والصيصة في غَير هذا: شوكة الحائك [(2)]" .

وقال ابن قتيبة: " قال أبو عبيد: الصياصي القرون، ولم يذكر لِمَ شبهها بقرون البقر، وهو الذي يراد من الحديث؛ قال أبو محمد: إنما شبهها بقرون البقر، لما يُشْرَعُ فيها من الرِّماح وأشباهها من السِّلاح، فشبَّه ذلك بقرون بقر مجتمعة، وكانت العرب تشبه الكتيبة بالشجر، لما يُشْرَع فيها من الرِّماح، وكانوا ربّما جعلوا القُرون مكان الأسنَّة، قال المفضَّل العبدي:

يُهَزْهِزُ صَعْدَةً جَرْدَاءَ فيها نَقيعُ السُّمِّ أو قَرْنٌ مَحيقُ [(3)]

والمَحيق: هو الذي امّحق ممّا دُلِكَ، وهو (فعيل) بمعنى (مفعول)، ويُسَمُّون الثَّور رامِحاً، يريدون أنَّ له رمحاً من قَرْنه، قال ذو الرُّمَّة:

وكائن ذعرنا من مهاةٍ ورامحٍ بلادُ الوَرَى ليست له ببلادِ [(4)]

وقال لبيد يشبه القِسِّي بالقرون:

وأصدَرْتُهم شتَّى كأنَّ قِسِيَّهُم قرونُ صِوَارٍ ساقِطٍ مُتَلَغَّب [(5)]

---

(1) الأحزاب / 26.

(2) غريب الحديث، لأبي عبيد 2/84، والحديث في: ابن حنبل 4/109، 5/ 33، والفائق 2/ 323.

(3) وفي اللسان البيت منسوب للمفضّل النكري (محق) وروايته " يُقلِّب صَعْدَةً " وَنصْلٌ مَحِيقٌ أي مُرَقق محدّد.

(4) ديوانه: 141، وينظر اللسان (رمح)، والمخصص 6/28، وإصلاح الغلط / 85، 86.

(5) ديوانه: 21. وصوار: (بضم الصاد المهملة وكسرها): البقر. التكملة على الصحاح 3/ 76.

واجتهد ابن قتيبة في تفسير الأحاديث التي استغلقت بعض ألفاظها على أبي عبيد، وفسَّرها تفسيراً مجازياً، وقدِ أدرك أن الإيجاز بالحذف باب من أبواب المجاز غرضه التخفيف على المخاطب لغرض من الأغراض كذكاء المخاطب وضيق المقام، وغير ذلك من الأغراض كالعلم به، والدليل الذي يدل عليه [1]، وقد عقب على قول أبي عبيد في حديث النبي صَلَّى الله عليه وسلم الذي تحدِّثُه عنه قَيْلة [2]: " ... ثم انطلقت إلى أخت لي .. فقالت أختي: الويل لي، لا تخبرها فتَتْبَع أخا بكر بن وائل بين سمع الأرض وبصرها ليس معهما رجل من قومها ... "[3].

قال أبو عبيد: وقول أخت قيلة: " لا تُخبزها فتَتْبَع أخا بكر بن وائل بين سمع الأرض وبصرها، قال بعضهم يقول: بين طولها وعَرْضها،.. ولا أدري ما الطول والعَرض من السمع والبصر، ولكنَّ وجهه عندي: - والله أعلم - أنّها أرادت أنَّ الرجل يخلو بها، ليس أحد يسمع كلامها ولا يبصرها ... إلاَّ الأرض القفْر، فصارت الأرض خاصة، كأنَّها هي التي تسمعها وتبصرها دون الأشياء والناس، وإنما هذا مثل، ليس على أنَّ الأرض تسمع وتبصر... "[4]

وقال ابن قتيبة: والذي عندي في سَمْع الأرض وبصرها، أنَّها أرادت: فتتبعه بين أسماع الناس وأبصارهم كأنَّها لا تباليهم إذا سمعوا باتباعها إيَّاه وأبصروا ذلك، وجعلت السمع والبَصَر للأرض، تريد ساكنيها، كما قال الله عزَّ وجل ﴿ واسأل القرية ﴾ [5]، أي أهلها [6].

---

(1) ينظر تأويل مشكل القرآن : 10.

(2) هي قيلة بنت مَخْرَمَة، هاجرت إلى النبي "صلى الله عليه وسلم" مع حريث بن حسان، ينظر التهذيب 12/ 447، والفائق 3/ 100

(3) غريب الحديث لأبي عبيد 3/ 50.

(4) نفسه 3/ 51.

(5) يوسف : 82، وينظر تأويل مشكل القرآن /202، 210، والصناعتين : 135.

(6) إصلاح الغلط : 96، 97.

فابن قتيبة رسم صورة للإيجاز بالحذف هنا، وهي حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وجعل الفعل له. وواضح أنَّ المجاز هنا، مجاز مرسل علاقته المحلية، وابن قتيبة لم يستخدم المصطلح الذي استخدمه البلاغيون المتأخرون، لأنَّ البلاغة في عصره كانت في أطوار النشأة والنمو، لم تكتمل لتتضح صورتها التامة، وتترسخ ملامحُها، وتتحدد مصطلحاتها، ومع ذلك فإن لابن قتيبة فضل الريادة الأولى في أبحاث البلاغة العربية وتأصيل علومها، وقد أفاد من جاء بعده من جهوده وطوّرها إلى أن بلغت مرحلة النضج والكمال.

وتبدو ثقافة ابن قتيبة اللغوية في تفسير الألفاظ الغريبة التي لم يُفْتِ أبو عبيد بدلالة معناها، لأنه لم يسمع بها إلا حين ورودها في الأحاديث التي أراد تفسير غريبها، من ذلك، ما قاله في حديث عمر- رضي الله عنه- أنه سمع المفقود الذي اسْتَهْوتْهُ الجنُّ : ما كان طعامهم ؟ قال: الفول ومالم يُذكر اسم الله عليه . قال: فما كان شرابهم ؟ قال: الجَدَف " .

قال: يعني مالم يُغَطَّ من الشراب، هكذا هو في الحديث؛ قوله في تفسير الجَدَف لم أسمعه إلاَّ في هذا الحديث، وما جاء إلاَّ وله أصل، ولكن ذهب من كان يعرفه ويتكلم به، كما قد ذهب من كلامهم شيء كثير، وقد روي في تفسيره أيضاً غير هذا، قيل . الجَدَف نبات يكون باليمن تأكله الإبل، فلا يحتاج معه إلى شرب ماء [(1)]".

وقال ابن قتيبة معقباً على ما ذكره أبوعبيد: " ولم أزل لتفسير هذا الحديث منكراً، لأنه سأله عن شرابهم، فأجابه بذكر نبات، والنبات لا يجوز أن يكون شراباً وإن كان صاحبه يسْتغني مع أكله عن شرب الماء، إلاَّ على وجه من المجاز ضعيف، وهوأن يكون صاحبه لايشرب الماء، فيقال: إنَّ ذلك شرابُهُ، لأنّـه يقوم مقام شرابه، فيجوز أن يقال هذا . وإن كانت الجنُّ لا تشرب شراباً أصْلاً، وأمّا التفسير الذي جاء في الحديث، فله مخرج

(1) غريب الحديث، لأبي عبيد 3/381، 382. وغريب ابن قتيبة 2/38، والفائق 1/ 195والنهاية 1/ 247.

نخبر به إن شاء الله .

وبلغني عن بعض أصحاب اللغة أنه كان يقول: الجَدَف زَبَدُ الشّراب ، ورَغْوة اللَّبن ، وغيره، سمِّي جَدَفاً من موضعين . أحدهما: لأنَّه يُجْدَفُ عن الشَّراب، أي يُقْطَع ويُلْقى إلى الأرض، والجَدْفُ والجَذْفُ ، واحد، ومنه قيل: قميص مجدوف الكمّين، أي مقطوعهما وقصيرهما، تقول: جَذَفْت الشيء جَذْفاً، إذا قطعته، واسم ما انقطع منه جَذَفٌ، كما تقول: نفضْتُ الشجرة نَفْضاً، واسم ما سَقَط من ثمرها إلى الأرض نَفَضٌ، وخبْطُتها. خَبْطاً، واسم ما سقط من ورقها إلى الأرض خَبَطٌ، وقد يجوز أن يقال لما لا يُغَطَّى من الشراب جدف على هذا المخرج، كأنَّ غطاءه جُدِف، أي قُطِعَ .

والموضع الآخر: لأنَّ الشَّراب يُجْدَفُ، أي: يُحَرّك فترتفع الرغوة، فما ارتفع منها جَدَفٌ، لأنه عن الجدف كان، كما مثَّلْت لك . . . "[1] .

لقد فسَّر ابن قتيبة الكلمة الغريبة في متن الحديث، مشيراً إلى سبب التسمية، مبيناً أصل اللفظة ودلالتها، واشتقاقها، ومن أين أخذت حروفها، مقلباً العبارة على وجوه مختلفة، يتصرف بها تصرّف العالم بمبناها ومعناها، ذاكراً الأشباه والنَّظائر، حتى يستقيم معنى الكلمة بما يتَّسقُ ومضمون الحديث، وبذلك يكون قد أضاف جديداً لجهود علماء غريب الحديث، وأزال اللبس والغموض الذي اكتنف بعض ألفاظه، والتي استغلقت على أبي عبيد، ولم يهتد إلى تفسيرها تفسيراً يلائم معنى النص، ويبين المراد من الحديث .

وقد أفاد العلماء من جهوده في علم غريب الحديث، وأيَّدوه في كثير من الآراء والفتاوى التي اجتهد فيها، وتابعوه فيما ذهب إليه في تفسير " الجدف " بمعنى " القطع " .

وقال ابن الأثير: " وقال القتيبي: أصله من الجدف، وهو القطع، أراد مايرمى به عن الشراب من زبد، أو رغوة، أو قذى، كأنه قطع من الشراب فرمي به، هكذا حكاه الهروي

(1) إصلاح الغلط / 104، 106 .

عنه (أي عن القتيبي) ، والذي جاء في صحاح الجوهري، أنّ القطع هو الجذف – بالذال المعجمة، ولم يذكره في الدال المهملة، وأثبته الأزهري فيهما [(1)]".

وقال الزمخشري: " وجدف من قولهم: رجل مجدوف الكمين – إذا كان قصير الكمين مجدوفهما، وجدفت السماء بالثلج: رمت به . . . [(2)]".

وارتضى الزمخشري تفسيره كلمة المكايلة في حديث عمر– رضي الله عنه، وخالف أبا عبيد، وقال أبو عبيد: في حديث عمر – رضي الله عنه – أنّه نهى عن المكايلة " بالياء.

قال أبوعبيد: والمحدثون يفسرونه: المقايسة، وإنما معناه المقايسة بالقول، وأصل ذلك إنما هو مأخوذ من الكيل في الكلام، يعني أن تكيل له، كما يكيل لك، وتقول له، كما يقول لك، ويكون هذا في الفعل أيضاً، وهو أن تكافىء بالسوء، فالذي أراد عمر الاحتمال، وترك المكافأة بالسوء [(3)]" ويرُدُّ ابن قتيبة عليه ويقول: " ليست المكافأة بالسُّوء أوْلَى بالمكايَلة من المكافأة بالخير، وكل من وازنْته بشيء، كان منه، فقد كايلْتَه، وإنّما أراد عمر أن لا يقايس في الدين ويكايل، أي : يوازن الشيء بالشيء ويترك العمل بالأثر، كذلك رأيت أهل النّظر يقولون في هذا الحديث [(4)].

وقال الزمخشري: " وقيل معناه النهي عن المقايسة في الدين وترك العمل بالأثر [(5)]".

ويفسر ابن قتيبة اللفظة الغريبة في متن الحديث من السياق، وبما يتلاءم مع معناه، ويخالف أبا عبيد الذي خصَّص دلالة بعض الألفاظ بالدلالة على مسمًّى معين، بينما تحتمل الصفة تعميم الدلالة على سواه، من ذلك ما قاله أبو عبيد في حديث الزبير– رحمه الله "

---

(1) النهاية : 1/ 175.

(2) الفائق ك 1/ 176.

(3) غريب الحديث، لأبي عبيد 3/ 408، 409.

(4) إصلاح الغلط / 108.

(5) الفائق 2/ 440.

إنَّه رأى فتية لُعْساً فسأل عنهم، فقالوا: أمُّهم مَوْلاةٌ للحُرَقة [1]، وأبوهم مملوك، فاشترى أباهم فأعتقه فجرَّ ولاءهم " .

قال الأصمعي: اللُّعْسُ: الذين في شفاههم سواد، وهومّا يستحسن، يقال منه: رجل ألعس وامرأة لعساء، والجماعة منهم لُعْس، وقد لَعِس يلعَس لعَساً، قال ذو الرّمّة يذكر امرأة:

لَمْيَاءُ في شَفَتَيْهَا حُوَّةٌ لَعَسٌ ... وفي اللِّثاتِ وفي أنْيابِها شَنَبُ [2]

فالشنب: رقّة في الأسنان وحدة مع كثرة الماء، وقوله: الحوّاء واللمياءَ هما نحومن اللعساء، والاسم من اللمياء اللمَى . . . " .

وقال ابن قتيبة: " أُتِي أبو عبيد في هذا التفسير من جهة البيت، واللَّعَس: السَّواد، كما ذكر، إلاّ أنّه يكون في الشَّفَةِ وغيرها، وأكثر ماتوصف به الشِّفاه، قال العجَّاج:

وَبَشَرٍ مع البَيَاضِ أَلْعَسَا [3]

وكذلك اللَّمى توصف به الشفاه، وقد يجعل لغيرها، قال الشاعر:

إلى شَجَرٍ ألْمَى الظِّلال كأنّه ... رواهِبُ أُحْرِمْنَ الشّراب عُذُوبُ [4]

أي: ظِلُّه أسود لكثافته وكثرة وَرَقه. وليس اللَّعَسُ في هذا الحديث صفة لشفاه هؤلاء، ولا لصفتهم بسواد الشّفاه معنىً، ولا فيه دليل على شيء، وإنّما توصف شفاه النّساء باللّعس لحسْنه في الشِّفاه، وإنّما أراد أنّه رأى فِتْيَةً سُوداً فاشتَراهم [5]" .

---

(1) الحُرقة: هي بنت النعمان بن المنذر، ينظر التاج: " حرق "، ينظر غريب الحديث، لأبي عبيد 4/ 4.

(2) ديوانه: / 32.

(3) البيت في ديوانه/1/ 189.

(4) هو حميد بن ثور، ينظر اللسان (لما)، وديوانه: 57، وغريب الحديث لابن قتيبة 2/ 294.

(5) إصلاح الغلط / 119، 120.

ومن المواطن التي أخذ فيها ابن قتيبة على أبي عبيد تفسير بعض ألفاظ الحديث تفسيراً لا يتسق مع معنى الحديث، إشارته إلى الجموع السماعية لبعض الألفاظ أو إلى مفردها إذا كانت جمعاً، وتغليطه فيما ذهب إليه، مدركاً ما لعلاقة ذلك بوضوح المعنى وتحديده، أو للتفرقة بينها وبين ألفاظ أخرى، ترد في الصيغة نفسها، من ذلك التنبيه إلى مفرد صيغة "القَشْع" وبيان معناها في حديث أبي هريرة: "لو حدَّثْتُكم بكُلِّ ما أعلم لرميْتُموني بالقَشْع" .

قال أبو عبيد: قال الأصمعي وغيره: القَشْع، الجلود اليابسة، ولا يكون القَشْع أبداً إلاً يابساً، الواحد منها قَشْع، قال أبو عبيد: وهذا على غير قياس العربية، ولكنه هكذا يقال [1] .

وقد ردَّ ابن قتيبة عليه معقباً: " ليس من عادة النَّاس أنْ يرموا بالجلود اليابسة مَنْ يريدون رَمْيَه، ولا يتيّسر ذلك لكلّ رام، فكيف يرمون أبا هريرة بها . وليس القَشْع ما ذهب إليه، يدلك على ذلك أنّ (فَعْلاً) لا يُجْمع على (فَعِلَ)، وإنما القِشَع جمعٌ لِقَشْعة، مثل بَدْرة وبِدَر، والقَشْعة ما قَشَعْتَهُ عن وجْه الأرض من المَدَر والطين فرمَيْت به، ومِثْلُه قولُ النَّاسَ: رماه بقُلاعة- أي قَلَع من الأرض مدراً ورماه به، والقُشَاعة مثلُه، وكلُ شيء قَلْعته أو كشفْته، فقد قشعته، ومنه يقال: قَشَعَت الرِّيحُ السَّحاب ... فأمَّا قوله: إنَّ القَشْع: الجلد اليابس، فإني أراه توهَّم ذلك من قول الشاعر متمم بن نويرة يرثي أخاه فقال:

ولا بَرِمٌ يُهْدي النساء لعِرْسه إذا القَشْعُ من برد الشتاء تَقَعْقَعا [2]

وإنما أراد الشاعر أن الجلد قد تقعقع من شدة البرد ويبس ... " [3]

---

(1) غريب الحديث، لأبي عبيد : 4/188، 189. و (القشع) بفتح القاف، على الإفراد، وبكسرها : على الجمع، ينظر التكملة على الصحاح 4/328 ، واللسان والتاج (قشع) .

(2) البيت في اللسان (قشع)، والأمالي للقالي 1/20، وسمط اللآلي، ص 87. والمعاني الكبير 2/ 1147 (ولا بَرما) .

(3) إصلاح الغلط / 130-132.

ونلاحظ أن ابن قتيبة يبيّن أصل اللفظة ودلالتها، ويأخذ المعنى اللغوي لها فيجعله أصلاً لمعاني الكلمات القريبةِ منها، ذاكراً اشتقاقها، ومن أين أخذت حروفها، منبّهاً على أنّ دلالة الكلمة تفسّر من السياق، وقد أخذ على أبي عبيد قصره تفسير بعض ألفاظ الحديث على معنى خاص استدل عليه من شاهد شعري ورد فيه، من ذلك ما قاله أبو عبيد: في حديث الحسن: "ما تشاء أن ترى أحدَهم أبيضَ بَضّاً، يَمْلَخُ في الباطل مَلْخاً يَنْفُضُ مذْرَوَيْه، يقول: ها أنذا فاعْرِفُوني " ..

قال أبو عبيد: وأمَّا المذْروان فإنهما كأنّهما فَرْعا الإِلْيتَين، قال عنترة:

أنحْوي تَنْفُض اسْتُكَ مِذْرويْها لتَقْتُلني فها أنذا عُمَارا [1]

وخالف ابن قتيبة أبا عبيد في تفسير " المذروان "، وقال: " إنما أُتي أبو عبيد في هذا التأويل من البيت، وليس المذروان فَرْعَيْ الإليتين حَسْب، ولكنَّهما الجانبان من كلٍّ شيء، تقول العرب: جاء فلان يضرب أصْدَرَيْه ويضربُ عِطْفَيْه وينفُض مذْرَوَيْه. تريد جانِبَيْه، وهما منكباه، وسمعت رجلاً من فُصَحاء العرب يقول: قنَّع الشّيبُ مِذْرَويه – يريد جانبي رأسه وهما فَوْداه، وإنَّما سُمّيا بذلك، لأنَّهما يُذريان، أي يشيبان، والذَّراء: هو الشَّيْب، يقال ذَرِيَتْ لحيتُه. وهذا أصل الحرف، فاسْتُعير للمنكبين والإليتين والطرفَيْن من كلِّ شيء ...

ولم يُرد الحسن أنَّ هذا الذي وصفه يحرِّك إلْيتَيْه، ولا من شأن من يَبْذَخُ ويتيه، على نفسه، ويقول ها أنذا فاعرفوني، أن يحرِّك إلْيتيه، وإنَّما أراد بقوله: ينفُضُ مذْرَوَيه، بمعنى يضرب عِطْفَيهِ، وهذا ممَّا يوصف به المَرِح المختال .... "[2].

---

(1) البيت في اللسان(ذرا)، قاله عنترة يهجو عُمارة بن زياد العبسي، وفيه " أحولي " موضع " أنحوي "، وينظر غريب الحديث لأبي عبيد 4/454، 455.

(2) إصلاح الغلط /140، 141.

لقد كانت معرفة ابن قتيبة الواسعة بالمعاني تمدُّه بأداة قوية للدفاع عن سلامتها،وتصويبها من الوجهة اللغوية، ومعرفة ما تحرَّف منها عن عمد أو غير عمد، وأن نقلة الحديث قد يُصَحِّفُون حروف ألفاظ الحديث، فيتغير المعنى ويخرج عن المراد من الحديث، أو يستغلق اللفظ، وعقَّب على ماقاله أبو عبيد: في حديث الحَجَّاج أنه خطب فقال: " إيَّاي وهذه السُّقْفاء والزّرافات " .

قال أبو عبيد: أمَّا السُّقْفاء فلا أعرفها [(1)]".

وقال ابن قتيبة: " أكثرت السؤال عن هذا الحرف فلم يعرفه أحد، وقال لي فيه بعض أصحابنا قولاً أحبَبْت أن أذكره، قال: إنَّما هو الشُّفعاء، فصَحَّف فيه بعض نقَلة الحديث، وأراد: أنهم كانوا يجتمعون إلى السلطان يشفعون في المريب فنهاهم عن ذلك . . . [(2)]".

وأمدّت ابن قتيبة ثقافته اللغوية بأداة قوية لتفسير ماتعرّضت له ألفاظ اللغة من تغير صوتي، وإبدال بعض الحروف من بعض، وأثر ذلك في إخراج نصوص الأحاديث عن المراد منها لتغير معاني الألفاظ التي اعتراها الإبدال والتغير الصوتي، ومن ذلك تغليطه أبا عبيد في تفسير حديث النبي صَلَى الله عليه وسلم " اللهم إنَّا نَعُوذُ بك من الأَلْس والألْق والكِبْر والسخيمة " .

وقال أبو عبيد: الألْس، هو اختلاط العَقْل، يقال منه ألس الرجل فهو مألوس . وأمَّا الألْق، فإني لا أحسبه أراد إلا الأوْلَق، والأَوْلَقُ الجنون . . . فإن كان أراد الكذب فهو الوَلْقُ . . . [(3)]".

وقال ابن قتيبة: " ولا أرى الألْسَ في هذا الموضع إلاّ الخيانة والغشّ، وفيه يقول النّاس:

---

(1) غريب الحديث لأبي عبيد 4/ 481.

(2) إصلاح الغلط /142، 143 .

(3) غريب الحديث، لأبي عبيد 4/434، 495. والفائق 1/55، والنهاية 1/ 60.

فلان لا يُدالِسُ ولا يُوالِس، فالمدالسة: من الدَّلَس، وهو الظُّلْمَة، يريد أنّه يُعمِّي عليك الشيء، يُخفيه ويستر ما فيه من عَيْب فكأنَّه دفعه إليك في دَلسٍ، ومنه يقال أيضاً: دَلَس عليَّ كذا وكذا، والمؤالسة: الخيانة... والألْقُ: الكذبُ، وأصله: الوَلْق، فهُمِزت الواو، والعرب قد تهمز الواو إذا كانت أوّلاً، وكانت مضمومة أو مكسورة، وربَّما همزَتْها، وهي مفتوحة، كما قيل في الحديث: أيَّ مالٍ ما أُدِّيَتْ زكاتُه فقد ذهبت أبلتُه [1]" أي مضَرَّته، وأصلها: وَبْلَةٌ، لأنّهَا من قولك: اسْتَوْبَلْتُ الشيء، إذا أضرَّك ولم يوافقك، وكما قالوا: وَكَّدْتُ، وأكّدْتُ ووقَّتُ وأقَّتُّ – من الوقت " .

لقد واتى ابن قتيبة حسٌ لغوي سليم، هيّأ له إمعان النظر في ألفاظ اللغة، وتقليبها على وجوهها المختلفة، وتفسيرها تفسيراً يتَّسق مع المعنى العام للنص، متخذاً من أسلوب المناقشة العلمية، وإيراد الحجج والشواهد المختلفة، والاستدلال بالظواهر اللغوية منهجاً لتقويم ما اعتقد انَّ أبا عبيد قد غلط في تفسيره، ذاكراً الأشباه والنظائر، ملتزماً إشباع التفسير، مستقلاً برأيه العلمي، مورداً آراء علماء اللغة من بصريين وكوفيين، بعيداً عن التعصب لآراء فئة معينة، منتصراً لما يعتقد أنه الصواب الذي يدفع عن الحديث كل لبس أو غموض، وهذا مظهرُ من مظاهر شخصيته العلمية المستقلة، ودليل قويٌ على كونه إماماً من أئمة اللغة يفتى بمسائلها، يؤيد رأياً ويخالف آخر، يرجّح قولاً ويردّ آخر، متوخياً النصف والاعتدال، ومتجنباً الشطط والإسراف، ينظر إلى قضايا اللغة نظرة ناقد خبير بأسرارها، فقيه بعلومها، ونستطيع أن نُحِلَّ كتابه هذا المحلَّ الأول من كتب النقد اللغوي المبكر، وريادة الدّرس اللغوي وتأصيله عند العرب .

---

(1) إصلاح الغلط 94- 96، والحديث في غريب الحديث لأبي عبيد 4/ 396 والفائق 1/ 10، والنهاية 1/ 15، وهو من حديث : يحيى بن يَعْمر العدواني .

د - تأويل مختلف الحديث :

يعد كتاب " تأويل مختلف الحديث" تكملة لجهود ابن قتيبة في (غريب الحديث)، فقد توافر على وضع هذا الكتاب، دفاعاً عن السُّنة والحديث الشريف والعقيدة الإسلامية، وتحدياً للملاحدة وأهل الشرك والحاقدين والمنحرفين الذين اتخذوا من التفسيرات المشبوهة لآيات القرآن الكريم، والنصوص الغريبة المحرَّفة للأحاديث النبوية الشريفة في معناها ولفظها، ورداً على أهل التشبيه والتجسيم والتأويل، والطاعنين في الحديث والمحدّثين من المتكلّمين والمعتزلة، أمثال عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء، والنّظام، والجاحظ، ونقد ابن قتيبة كذلك ثمامة بن الأشرس، ومحمد بن الجهم البرمكي، وأبا هذيل العلاّف وغيرهم، وعرض لأهل الرأي وأبان عن منابذتهم للكتاب والسنة . وأدار الجزء الأكبر من كتابه على الأحاديث التي ادُّعِي عليها التناقض والاختلاف ومخالفة القرآن، والأحاديث التي زعموا أنَّ النظر يدفعها، وحجة العقل تدفعها، فكشف عن معانيها التي صرفهم عن فقهها الهوى الجموح، ولفتهم عن وجه الحقّ فيها إلحاد الضمائر والقلوب والعقول.

وصوَّر ابن قتيبة في مقدمة كتابه النزاع العقائدي، والصراع المذهبي في عصره، وما آل إليه أمر المسلمين من اختلاف وتعاد وتفرق، وقال: "فإنَّك كتبت إليّ تعلمني ما وقفت عليه من ثَلْب أهل الكلام أهل الحديث وامتهانهم، وإسهابهم في الكتاب بذمهم، ورميهم بحمل الكذب ورواية المتناقض حتى وقع الاختلاف، وكثرت النِّحل، وتقطَّعت العِصَم، وتعادى المسلمون وأكفر بعضهم بعضاً، وتعلّق كلٌّ فريق منهم لمذهبه بجنس من الحديث ...

وتذكُر أنك وجدت في كتابي المؤلف في غريب الحديث باباً ذكرت فيه شيئاً من المتناقض عندهم، وتأولته فأمّلتَ بذلك أن تجد عندي في جميعه مثل الذي وجدته في تلك من الحُجَج، وسألت أن أتكلف ذلك محتسباً للثواب فتكلفته بميْلغ علمي ومقدار طاقتي

وأعدتُ ما ذكرتُ في كتبي من هذه الأحاديث ليكون الكتاب تامّاً جامعاً للفن الذي قصدوا الطعن به [1]".

لقد مكنت ثقافة ابن قتيبة العميقة في علم الحديث، وعلو كعبه في فهم ألفاظه وإدراك معانيه، أن يعقد الهمَّة، بعزم جميع، على متابعة ما بدأه في كتابه " غريب الحديث " ويدرس مختلف الحديث النبوي معتمداً تأويله ليسقط بذلك كلّ ادعاء عليه بالغموض أو التناقض، وليثبت تناسق هذا الحديث الشريف وتكامله وينفي عنه ما نسب إليه زوراً وكذباً، معلناً مواقفه وآراءه التي جمع فيها بين تضلعه في فهم الإسلام وتفقهه في العربية وسعة اطّلاعه على التراث العربي .

وقدَّم ابن قتيبة، قبل ذكر الأحاديث وكشف معانيها، وصفَ أصحاب الكلام وأصحاب الحديث، متوخياً النَّصف والعدل، دون تعمدٍ لتمويه ولا إيثار لهوى ولا ظلم لخصم [2] . وتحدّث عن مواطن الخلاف بين الفريقين وأشار إلى أنّ الخلاف، يدور بصفة خاصة حول الذات الإلهية، والصفات، ثم ما يتعلق بهما من أحاديث وتأويلات، وليس اختلافاً في الفروع والسنن، وقال موضحاً ذلك: " ولو كان اختلافهم في الفروع والسنن لاتَّسع لهم العذر عندنا، وإن كان لا عذر لهم مع ما يدعونه لأنفسهم، كما اتّسع لأهل الفقه، ووقعت لهم الأسوة بهم، ولكنَّ اختلافهم في التوحيد، وفي صفات الله تعالى، وفي قدرته، وفي نعيم أهل الجنة، وعذاب أهل النار، وعذاب البرزخ، وفي اللَّوح، وفي غير ذلك من الأمور التي لا يعلمها نبي إلاَّ بوحي من الله تعالى.. [3]".

ويأخذ المحدثون بالأخبار والحديث، فيفسرون بها آيات القرآن، ولا يأخذون بالتأويل الاجتهادي كما يفعل المعتزلة وأهل النظر، لذلك كان المفسرون الأولون، لا يخرجون عن

---

(1) تاويل مختلف الحديث : 12.

(2) ينظر تاويل مختلف الحديث : 12- 59.

(3) تاويل مختلف الحديث : 13، 14.

نطاق اللغة ودلالات الألفاظ الظاهرة، وأخذ المعتزلة عليهم ذلك، لأنه يخرج بهم أحياناً إلى كثير من اللبس والخلط، بل إلى التشبيه، وإثبات صفات الله تعالى، كصفات الخلق، وهو منزّه عنها.

ولم يطق المحدّثون هجمات المعتزلة وسخريتهم، فهاجموهم بالمثل، وينبري ابن قتيبة فيعرض لأقوالهم وحججهم، ويردُّ عليها، ويبدأ بالقول في تفسير القرآن، فيرد عليهم تأويلهم، ويقول: وفسَّروا القرآن بأعجب تفسير يريدون أن يردُّوه إلى مذاهبهم ويحملوا التأويل على نِحَلِهم"[1] . ومن عجائب تأويلهم عنده، أنهم يستشهدون بالشعر المجهول قائله على القرآن، كما أنهم في رأيه يُخضعون ما جاء بالقرآن عن اليوم الآخر والملائكة وما شاكلها للقياس، وهي أشياء لا تخضع عنده لمنطق العقل، والحس، ويقول: ومعاني الكتاب والحديث، وما أودعاه من لطائف الحكمة وغرائب اللغة لا يُدرك بالطفرة والتولد والعَرَض والجوهر والكيفية والكمية والأينيّة، ولو ردوا المشكل منهما إلى أهل العلم بهما وضح لهم المنهج، واتسَّع لهم المخرج[2] .

فهذه أشياء يجب التسليم بها كما وردت بالأخبار والآثار الموثوق منها عن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته.

ويقف المتكلمون أمام الأخبار والأحاديث ورواتهما، فلا يثقون بالرواية إذا عارضت الفكرة العقلية، ولهذا فهم لا يأخذون بحجيّة الإجماع إذا لم يوافق المنطق .

ولم يدع ابن قتيبة مجالاً لمعارضيه، فهاجمهم وردّ على ما ادعوه، منتصراً لأهل الحديث، منبهاً على الهدف الذي ندب إليه نفسه في هذا الكتاب، وقال: " وليس يدفع أصحاب الحديث عن ذلك إلاّ ظالم لأنهم لا يرّدون شيئاً من أمر الدين إلى استحسان، ولا

---

(1) نفسه : 46.

(2) نفسه : 13 .

إلى قياس ونظر، ولا إلى كتب الفلاسفة المتقدمين ولا إلى أصحاب الكلام المتأخرين، فإن ادّعواْ عليهم الخطأ بحملهم الكذب والمتناقض، قيل لهم: أمَّا الكذب والغلط والضعيف، فقد نبّهوا عليه على ما أعلمتك، وأمّا المتناقض فنحن مخبروك بالمخارج منه، ومنبهوك على ما تأخر عنه علمك وقصر عنه نظرك.. "[1].

ولم يراع ابن قتيبة ترتيب الأحاديث التي فسّرها في هذا الكتاب ترتيباً ما، فهي غير مرتبة على الحروف، ولا على الموضوعات، وإنما ذكرها الواحد تلو الآخر، دون اتباع نظام ما، وطريقته في ذكر الأحاديث التي ادّعوا عليها التناقض، أو التي تخالف كتاب الله تعالى، أو التي يدفعها النظر وحجة العقل، هو أن يبدأ بذكرها مختصرة أو كاملة، دون التزام بذكر الإسناد، وينص على الاختلاف الذي ادعوه، مستخدماً بعض العبارات التي يبدأ بها، مثل: " قالوا حديثان متناقضان "، أو (قالوا حديث يدفعه النظر وحجة العقل)، أو (قالوا حديث يكذبه العيان)، أو (قالوا حديث يكذبه النظر والخبر)، أو (قالوا حديث يكذبه القرآن من جهتين) . وبعد أن يذكر الأحاديث أو الأحكام التي ادّعوا عليها بالتناقض، يباشر الردّ عليهم مستخدماً هذه العبارة في جميع ردوده التي ساقها في هذا الكتاب: " قال أبو محمد " .

ويمكننا أن نحدد منهجه في تأويله الأحاديث الشريفة التي ادّعي عليها بالتناقض والاختلاف بما يلي:

يلتمس ابن قتيبة ذكر الأصل الدلالي للكلمة التي يفسرها في الحديث الذي يحاول تأويله تأويلاً يتّسق مع معنى النص، ويعضد ذلك بشواهد من كلام الله تعالى، والحديث الشريف، وكلام العرب، مثلاً، وخطباً، وشعراً ويشرح المفردات الغريبة في الشاهد، ويبين معناه، ليدعم تفسيره، ملتزماً إشباع التفسير، وإيراد الحجج، من ذلك تفسير كلمة " مؤمن

---

(1) نفسه : 59.

" في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم" لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن [(1)]" وقال ابن قتيبة: " الإيمان في اللغة التصديق، يقول الله تعالى: ﴿ ما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ [(2)]، أي بمصدق لنا، ومنه قول النّاس ما أؤمن بشيء ممّا تقول أي ما أصدق به .

ويدرك ابن قتيبة تطور دلالة الكلمة، وخروجها عن أصلها اللغوي إلى معانٍ أخرى، مستعيناً بخبرته بكلام العرب، وطرائق تسمية المسميات، محاولاً الرد على خصومه بطريق اللغة، من ذلك ما ذكره في كلمة " الإيمان " في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الحياء شعبةٌ من الإيمان [(3)]" .

وقال ابن قتيبة: " إن المستحيي ينقطع بالحياء عن المعاصي، كما ينقطع بالإيمان عنها، فكأنه شعبة منه، والعرب تقيم الشيء مقام الشيء إذا كان مثله أو شبيهاً به، أو كان سبباً له- ألا تراهم سموا الركوع والسجود صلاة وأصل الصلاة الدُّعاء، وسموا الدعاء صلاة، كما قال الله تعالى: ﴿ وصلِّ عليهم ﴾ [(4)]، أي ادع لهم، وقال تعالى: ﴿ لو لا دعاؤكم ﴾ [(5)]، أي لولا صلاتكم، وقال ابن عمر إنه كان إذا دُعي – عليه السلام – إلى وليمة فإنْ كان مفطراً أكل، وإن كان صائماً صلّى أي دعا .

وأصل الصلاة الدعاء، قال الله تعالى: ﴿ وصلِّ عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾ [(6)]، أي ادع لهم، وقال تعالى: ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي، يا أيها الذين آمنوا صلوا

---

(1) تأويل مختلف الحديث : 115، والحديث في صحيح البخاري كتاب الحدود 1، 6، 19، وابن ماجه 2/ 242 .

(2) يوسف / 17 .

(3) تأويل مختلف الحديث : 160والحديث في صحيح البخاري في كتاب الإيمان 2، 16 . وصحيح مسلم كتاب الإيمان 57 - 59 .

(4) التوبة / 103 .

(5) الفرقان / 77 .

(6) التوبة / 103 .

عليه وسلموا تسليماً ﴾[1]، أي ادعوا له، وما جاء في هذا كثير، فلمّا كان الدعاء يكون في الصلاة سميت الصلاة به. وكذلك الزكاة، وهي تطهر المال ونماؤه، فلما كان النماء يقع بإخراج الصدقة عن المال سمِّي زكاة، ومثل هذا كثير .... وكان آخر ما حفظ من كلام النبوة: " إذا لم تستح فاصنع ما شئت " يراد به أنه من لم يستح وكان فاسقاً ركب كل فاحشة، وقارف كل قبيح، لأنه لا يحجزه عن ذلك دين، ولا حياء- أفما ترى أنّ الحياء قد صار والإيمانَ يعملان عملاً واحداً فكأنهما شيءٌ واحد[2] .

وقد يذهب ابن قتيبة إلى تفسير معنى الكلمة، ملتمساً سبب التسمية، مبيناً أصلها المعنوي، واشتقاقها اللغوي، من ذلك تفسيره كلمة " فواسق " في حديث رسول الله "صلى الله عليه وسلم" خمس فواسق يقتلن في الحلّ والحرام: الغراب والحدأة والكلب والحيَّة والفأرة[3]" .

وقال ابن قتيبة: ولو أنا تركنا هذا المذهب الذي عليه المسلمون في تجويز الطاعة والمعصية على الحية والغراب والفأرة إلى ما يجوز في كلام العرب، وفي اللغة، لجاز لنا أن نسمي كل واحد من هذه فاسقاً، لأنَّ الفسق الخروج على النّاس، والإيذاء عليهم . يقال: فسقت الرطبة إذا خرجت عن قشرها، وكل خارج عن شيء، فهو فاسق، قال الله تعالى: ﴿ إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾[4]، أي خرج عن أمر ربه وطاعته . فالحية تخرج على الناس من جحرها، فتعبث بطعام النّاس، وتنهش، وتكرع في شرابهم، وتمج فيه ريقها، والفأرة أيضاً تخرج من جحرها، فتفسد أطعمتهم، وتقرض ثيابهم، وتضرم بالذبالة على أهل البيت بيتهم، ولا شيء من حشرات الأرض أعظم منها ضرراً . والغراب يقع على

---

(1) الأحزاب / 56.

(2) تاويل مختلف الحديث : 161.

(3) نفسه : 93. والحديث في صحيح البخاري باب الصيد /7، وصحيح مسلم باب الحج / 66- 69.

(4) الكهف / 50.

داء البعير الدبر[1]، فينقره حتى يقتله، ولذلك تسمّيه العرب ابن داية، وينزع عن الخير، ويختلس أطعمة النّاس . والكلب يعقر ويجرح، وكذلك السباع العادية، وكل هذه قد يجوز أن تسمّى فواسق لخروجها على النّاس، واعتراضها بالمضار عليهم، فأين كانوا عن هذا المخرج إذا قبح عندهم أن ينسبوا شيئاً من هذه إلى طاعة أو معصية[2]".

فابن قتيبة قد ذكر الأصل الاشتقاقي للكلمة، وبيَّن معناها، وأشبع تفسيرها بالاستدلال والتمثيل.

وقد أقر ابن قتيبة بوقوع المشترك اللفظي – كما سلف القول – ويذكر أكثر من معنى للفظ الواحد، ويرى أنَّ المعنى يحدده سياق الحديث، من ذلك تفسيره ما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : "والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله[3]"، وقال ابن قتيبة في تفسيره معنى " الكتاب " : ونحن نقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يرد بقوله لأقضين بينكما بكتاب الله ههنا القرآن، وإنما أراد لأقضين بينكما بحكم الله تعالى، والكتاب يتصرف على وجوه، منها الحكم والفرض كقول الله عزَّ وجل ﴿ كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم ﴾[4] أي فرضه عليكم . . وقال ﴿ كتب عليكم القصاص ﴾[5] أي فرض عليكم . وقال ﴿ وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال ﴾[6] أي فرضت، وقال تعالى ﴿ وكتبنا عليهم فيها أنَّ النفس بالنفس ﴾[7] أي حكمنا وفرضنا .

---

(1) الدبر : محركة، قرحة الدابة، ومنه المثل هان على الأملس ما لاقى الدبر، كما في القاموس .

(2) تأويل مختلف الحديث : 96.

(3) تأويل مختلف الحديث : 63 والحديث في صحيح البخاري كتاب الصلح /5، وصحيح مسلم كتاب الحدود / 25.

(4) النساء / 24.

(5) البقرة / 178.

(6) النساء / 77.

(7) المائدة / 45.

وقال النابغة الجعدي :

ومـــال الـوَلاء بـالـبـــلاء فــــملتم ومـــا ذاك قـــال الـلـه إذ هـو يَـكـتـب

أراد مالت القرابة بأحسابنا إليكم وما ذاك أوجب الله إذ هو يحكم [(1)] .

وقال في شرح حديث رسول الله "إن الله تبارك وتعالى ينزل إلى السَّماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل فيقول هل من داع فأستجيب له أو مستغفر فأغفر له، وينزل عشية عرفة إلى أهل عرفة، وينزل في ليلة النصف من شعبان [(2)]" . وردّ على من ادعّى أنّ الحديث في التشبيه يكذبه القرآن والإجماع، محتجاً بقوله تعالى: ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴾[(3)] . وقد أجمع الناس على أنه بكل مكان ولا يشغله شأن عن شأن . وقال ابن قتيبة: " وأما قوله ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴾ فليس في ذلك ما يدل على الحلول بهما، وإنما أراد به أنه إله السماء وإله من فيها وإله الأرض وإله من فيها – ومثل هذا من الكلام قولك هو بخراسان أمير وبمصر أمير، فالإمارة تجتمع له فيهما وهو حالٌّ بإحداهما أو بغيرهما – وهذا واضحٌ لا يخفى . فإن قيل لنا : كيف النزول منه جلَّ وعز ؟ قلنا لا نحتم على النزول منه بشيء، ولكنا نبين كيف النزول منَّا، وما تحتمله اللغة من هذا اللفظ والله تعالى أعلم بما أراد – والنزول منا يكون بمعنيين (أحدهما) الانتقال عن مكان إلى مكان كنزولك من الجبل الى الحضيض، ومن السطح إلى الدار (والمعنى الآخر) إقبالك على الشيء بالإرادة والنيّة . وكذلك الهبوط والارتقاء والبلوغ والمصير وأشباه هذا من الكلام . . . [(4)]" .

فقد استند ابن قتيبة في ردّه على خصومه إلى ثقافته اللغوية، ومعرفته العميقة بأسرار

---

(1) تأويل مختلف الحديث : 64 .

(2) نفسه : 182 . والحديث في سند الإمام الدرامي /باب الصلاة : 168 .

(3) الزخرف / 84 .

(4) تأويل مختلف الحديث : 184 .

اللغة، والوقوف الدقيق على ظواهرها اللغوية، كالاشتراك اللفظي، وبيَّن أنَّ اللفظ الواحد له معان متعددة، وأن معنى الكلمة يحدده سياق الحديث، واختار المعنى الذي يتَّسق مع النص، وعضد رأيه بشواهد متعددة، وفسَّر معاني المفردات بالشواهد التي يحتج بها، وأشبع التفسير بالاستدلال والتمثيل، والشائع من كلام النّاس، ليدعم رأيه ويرد على خصومه بالحجج المقنعة متخذاً من اللغة سبيله لتحقيق غايته، وبلوغ هدفه .

وأشار ابن قتيبة في تأويله الحديث إلى خروج اللفظ عن ظاهر معناه، وأن دلالة اللفظ تتطور من الحقيقة إلى المجاز، وبيَّن ما تحتمله اللغة من اللفظ، من ذلك ما عضد به تفسيره لفظ " النزول" بمعنى الإقبال على الشيء بالإرادة والنية، ومثّل لذلك بالشائع والمستعمل في كلام الناس ليبطل حجج خصومه وقال: " وقد يقول القائل بلغت إلى الأحرار تشتمهم، وصرت إلى الخلفاء تطعن عليهم، وجئت إلى العلم تزهد فيه، ونزلت عن معالي الأخلاق إلى الدناءة، وليس يراد في شيء من هذا انتقال الجسم، وإنما يراد به القصد إلى الشيء بالإرادة والعزم والنية، وكذلك قوله جلَّ وعزَّ ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾[1]، لا يريد أنه معهم بالحلول، ولكن بالنصرة والتوفيق والحياطة[2]" وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " يقول الله عزَّ وجل من تقرب إليَّ شبراً تقرّبت منه ذراعاً ومن تقرَّب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة[3]".

وقال ابن قتيبة: " ونحن نقول إنَّ هذا تمثيل وتشبيه، وإنما أراد من أتاني مسرعاً بالطاعة أتيته بالثواب أسرع من إتيانه، فكنّى عن ذلك بالمشي وبالهرولة، كما يقال فلان موضع في الضلال - والإيضاع سير سريع - لا يراد به أنه يسير ذلك السير، وإنما يراد أنه يسرع إلى الضلال فكنّى بالوضع عن الإسراع . وكذلك قوله تعالى: ﴿ والذين سعوا في آياتنا

(1) النَّحل / 128.

(2) تأويل مختلف الحديث : 184، 185.

(3) نفسه : 152. والحديث في صحيح البخاري كتاب التوحيد / 15، 50، صحيح مسلم كتاب التوبة /1

معاجزين ﴾[1]، والسعي الإسراع في المشي، وليس، يراد أنهم مشوا دائماً وإنما يراد أنهم أسرعوا بنياتهم وأعمالهم والله أعلم .

ونستطيع أن نفسر ميل ابن قتيبة إلى القول بالمجاز، ومخالفة نهج المفسرين الأولين، الذين لا يخرجون عن نطاق اللغة، ودلالات الألفاظ الظاهرة، بأنه أحسَّ بغمز الغامزين الذين اتهموه بأنه كان يرى رأي الكرَّامية، وهم من غلاة المشبهة، فنهج في كتابه " تأويل مختلف الحديث" يدفع عنه ذلك الاتهام، وغلب عليه الاعتدال، وحمل على الخالطين، وردَّ كثيراً من زيف الأحاديث التي تثبت التشبيه والتجسيم، حتى يردّ على معارضيه ردّاً قاطعاً واضحاً لايدع مجالاً للشك أو للاتهام والغمز.

ومن أمثلة تفسيره لما جاء من الأحاديث تفسيراً مجازياً ينفي التجسيم والتشبيه، قوله فيما رووه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في سعد بن معاذ لقد اهتز لموته العرش ...[2] ولم يسلّم ابن قتيبة بما ذهب إليه بعض المفسّرين من تفسير الاهتزاز تفسيراً حسياً كما يدل على ذلك ظاهر اللفظ، وإنَّما حمل اللفظ على المجاز وقال: " ونحن نقول إنه قد تأوَّل هذا الحديث قوم فذهبوا فيه إلى أنَّ الاهتزاز من العرش إنما هو الحركة، كما يهتز الرمح، وكما تهتز الشجرة إذا حركتها الريح . وإذا كان التأويل على هذا وقعت الشناعة ووجبت الحجة التي احتج بها هؤلاء . . .وليس الاهتزاز ما ذهبوا إليه من الحركة، ولا العرش ماذهب إليه الآخرون، بل الاهتزاز الاستبشار والسرور – يقال إنَّ فلاناً ليهتز للمعروف أي يستبشر ويُسرّ، وإنّ فلاناً لتأخذه للثناء هزة أي ارتياح وطلاقة، ومنه قيل المثل إنَّ فلاناً إذا دعي اهتز وإذا سئل ارتزّ – والكلام لأبي الأسود الدؤلي – يريد أنه إذا دعي إلى طعام يأكله اهتزَّ أي ارتاح وسرّ وإذا سئل الحاجة ارتزَّ أي ثبت على حاله ولم يطْلُق، فهذا معنى الاهتزاز في هذا

(1) الحج / 51.

(2) تأويل مختلف الحديث 178، والحديث في صحيح البخاري كتاب مناقب الأنصار /12، وصحيح مسلم، فضائل الصحابة / 125 -123.

الحديث . وأمَّا العرش فعرش الرحمن جلَّ وعزَّ على ما جاء في الحديث، وإنما أراد باهتزازه استبشار الملائكة الذين يحملونه ويحفون حوله بروح سعد بن معاذ، فأقام العرش مقام من يحمله ويحيط به من الملائكة ، كما قال الله عزَّ وجل ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ [1] يريد ما بكى عليهم أهل السماء ولا أهل الأرض، فأقام السماءَ والأرض مقام أهلهما، وكما قال ﴿ واسأل القرية ﴾ [2]، أي سل أهلها، وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم في أحُد : هذا جبل يحبنا ونحبه، يريد يحبنا أهله يعني الأنصار، ونحبه أي نحب أهله، كذلك أقام العرش مقام حَمَلته والحافين من حوله ... وهذا التأويل – بحمد الله تعالى – سَهْلٌ قريبٌ كأنه قال : لقد استبشر حملة العرش والملائكة حوله بروح سعد "[3] .

لقد أقرّ ابن قتيبة بوقوع المجاز في القرآن الكريم والحديث الشريف، وتصدّى للذين أنكروا وقوعه فيهما، كما تصدّى للذين أنكروا بعض الحقائق وصرفوها إلى المجاز متأوِّلين بعض الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة تأويلاً يتناسب ومذهبهم ومعتقدهم وأفكارهم، على الرغم من أنَّ ابن قتيبة لم يذكر تعريفاً عاماً للمجاز، فإنه قد وضَّحه بشرح الشواهد، وبيان المراد منها دون أن يبين لنا نوع المجاز، وقد يكون له العذر في ذلك، لأنّ المصطلحات البلاغية لم تكن محددة ومعروفة بالصورة التي وردت في كتب البلاغيين المتأخرين، ولم ينهج نهجاً نظرياً، وإنّما التزم المنهج التطبيقي، وأكثر من الشواهد العربية من القرآن الكريم ، والحديث الشريف، والشعر العربي، والأمثال السائرة، لتتضح فكرة المجاز وتتسع دائرة التفسير .

ولا نستطيع أن نعمم هذه الظاهرة اللغوية عند ابن قتيبة، لأنه لم يلتزم حمل جميع الألفاظ على المجاز وإنما أقرَّ أحياناً بما يعتقده هو وأهل الحديث بتفسير بعض الأحاديث

---

(1) الدُّخان / 29.

(2) يوسف / 82.

(3) تأويل مختلف الحديث : 178، 179 .

تفسيراً لا يخرج عن نطاق اللغة ودلالات الألفاظ الظاهرة، من ذلك تأويله ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: " أن الله عزَّ وجل خلق آدم على صورته، والله تبارك وتعالى يجُلُّ عن أن يكون له صورة أو مثال[1]".

وقال ابن قتيبة: " ونحن نقول كما قالوا إن الله تعالى وله الحمد يجلُّ عن أن يكون له صورة أو مثال غير أنَّ النّاس ربّما ألِفوا الشيء وأنسوا به فسكتوا عنه وأنكروا مثله "... ويقول: " والذي عندي - والله تعالى أعلم - أنَّ الصورة ليست بأعجب من اليدين والأصابع والعين، وإنما وقع الإلف لتلك لمجيئها في القرآن، ووقعت الوحشة من هذه، لأنَّها لم تأت في القرآن، ونحن نؤمن بالجميع، ولا نقول في شيء منه بكيفيَّة ولا حَدٍّ[2].

والتمس ابن قتيبة، في تأويله الأحاديث التي ادّعوا عليها بالتناقض والاختلاف، الفروق الدلالية بين الألفاظ التي يذهب الناس إلى أنّها واحدة، ليبطل حججهم، ويفند مزاعمهم، من ذلك ما نص عليه بقوله: (حديثان متناقضان) قالوا رويتم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه تعوَّذ بالله من الفقر، وقال أسألك غناي وغنى مولاي. ثم رويتم أنه قال: اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين..[3]".

وردّ بن قتيبة بقوله: " ونحن نقول إنّه ليس ههنا اختلاف بحمد الله تعالى، وقد غلطوا في التأويل، وظلموا في المعارضة، لأنهم عارضوا الفقر بالمسكنة، وهما مختلفان، ولو كان قال: اللهم أحيني فقيراً وأمتني فقيراً واحشرني في زمرة الفقراء، كان ذلك تناقضاً كما ذكروا. ومعنى المسكنة في قوله: احشرني مسكيناً: التواضع والإخبات، كأنه سأل الله تعالى أن لايجعله من الجبارين والمتكبرين، ولا يحشره في زمرتهم. والمسكنة حرف مأخوذ

(1) تأويل مختلف الحديث: 150. والحديث في صحيح البخاري باب الاستئذان 1، وصحيح مسلم باب البر 115، والجنة / 28.

(2) نفسه: 150.

(3) نفسه: 113، 114، والحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل / 3، 453.

من السكون، يقال تمسكن الرجل إذا لان وتواضع وخشع وخضع . ."[1].

لقد لاذ ابن قتيبة بثقافته اللغوية، واستند إلى فقهه بأسرار اللغة، ووقوفه على دلالات ألفاظها والفروق بينها، ليقيم رأيه، ويدحض رأي خصمه، ولم يقف عند بيان الفرق بين دلالتي اللفظين، بل ذهب إلى تقليب الكلمة على وجوهها، ذاكراً معنى المسكنة، مبيناً أصلها اللغوي ومن أين اشتقت حروفها، ممثلاً لدلالاتها، حتى يتضح التفسير، ويَزَالَ اللبس والغموض .

وقد اهتم في تأويله ألفاظ الأحاديث المشكلة بالإشارة إلى الجموع السماعية لبعض الكلمات أو إلى مفردها إذا كانت جمعاً ، لتحديد معانيها أو لبيان الفرق بينها وبين ألفاظ أخرى ترد في الصيغة نفسها، ومن ذلك تفسير كلمة " المخارف " وردَّها إلى مفردها في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: " عائد المريض على مخارف الجنة "[2] . والمخارف الطرق، واحدها مخرفة، ودعم ابن قتيبة تفسيره للّفظ بحديث عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – حين قال: "تركتكم على مثل مخرفة النعم أي طريقها " ، وإنَّما أراد أن عيادة المريض تؤدي إلى الجنة فكأنه طريق إليها . . " .

وقد يوسّع دائرة التفسير، ويشرح المفردات الغريبة التي ترد في الشواهد التي يعضد بها رأيه .ويشير إلى المفرد من صيغة الجمع السماعية، ويفسره ويدعم تفسيره بشاهد آخر، من ذلك ذكْرُه مفرد صيغة " صور" التي وردت في قول الشاعر أمية بن أبي الصلت:

شَرْجَعاً ما ينالُهُ بصر العَيْنِ ترى دُونَهُ المَلائِكَ صُورا[3]

(1) نفسه : 113، 114 .

(2) تاويل مختلف الحديث : 82 . والحديث في صحيح مسلم باب البر / 29 . ومسند الإمام أحمد بن حنبل ج /5/276 ، 279 .

(3) الشرجع : الطويل، والبيت في ديوانه /400، وفيه " لا يناله " .

وقال: " صور جمع أصور، وهو المائل العنق، . وهكذا قيل في الحديث: إن حملة العرش صور، وكل من حمل شيئاً ثقيلاً على كاهله أو على منكبه لم يجد بداً من أن يميل عنقه [1]".

ومن ذلك ما ذكره في تفسير: اللَّخاف، والقُضم، والعُسب، والرِّقاع، والكرانيف، وأشار إلى المفرد من تلك الجموع السماعيّة، وشرح معانيها [2] .

ونجد ابن قتيبة يعمد إلى إيضاح المبهم من الألفاظ التي وردت في الأحاديث التي ادعوا عليها بالتناقض والاختلاف، ويذكر الأشباه والنظائر، لإظهار معنى النص في شكل مفهوم، يتسق ومعنى التفسير العام، منبهاً على غلط الرواة مستنداً في ذلك إلى معرفته العميقة بمعاني الحديث وخبرته بما تحرَّف منها عن عمد أو غير عمد، ولم يكن مجرد ناقل آراء علماء الفقه واللغة والتفسير والحديث، بل كان ناقداً واسع المعرفة، يوظف علمه بأسرار اللغة والتفسير والحديث، لتصحيح الخطأ والتماس وجه الصواب. من ذلك رده على الطاعنين في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال، وذكر سنة مئة إنه لا يبقى على ظهرها يومئذ نفس منفوسة. قالوا وهذا باطل بيِّن للعيان، ونحن طاعنون في سني ثلاثمائة والناس أكثر ممَّا كانوا ؟ " .

وردّ ابن قتيبة قائلاً: إنَّ هذا حديث قد أسقط الرواة منه حرفاً، إمَّا لأنهم نسوه أو لأنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أخفاه فلم يسمعوه، ونراه بل لا نشك أنَّه قال : لا يبقى على الأرض منكم يومئذ نفس منفوسة، يعني ممن حضره في ذلك المجلس أو يعني الصحابة، فأسقط الراوي (غيري) [3]".

---

(1) تأويل مختلف الحديث : 184. والحديث في مستند الإمام أحمد بن حنبل 1/218، وسنن ابي داود باب السنة / 18.

(2) نفسه : 210، وينظر غريب الحديث : 3/668، 669.

(3) نفسه : 67. والحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل 3/ 326.

لقد أفاد ابن قتيبة من حسّه اللغوي السليم، وتصدّى في كتابه للحاقدين الذين تظاهروا بالإسلام ليدسوا التفسيرات المشبوهة، والنصوص المحرَّفة اللفظ والمعنى . وقد رد عليهم ما ادّعوا من تناقض في أحاديث الصلاة، مفصِّلاً القول، مؤيداً رأيه بالحجج والشواهد المتنوعة، وقال: " إنه ليس في هذه الأحاديث تناقض ولا اختلافُ . . . فأغفل بعض الرواة هذه في الموضع الأول، وذكره في الموضع الثاني وجعله مكان تلك، وقد ذكرت لك مثل هذا من إغفال النقلة للحرف، والشيء اليسير يتغيّر به المعنى [1]".

ومن ذلك رده على الطاعنين بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم" أنه قال في الضب لا آكله ولا أنهى عنه ولا أحله ولا أحرمه "، وقال ابن قتيبة: " إنّ هذا الحديث قد وقع فيه سهو من بعض النقلة، وكان: لا آكله ولا أنهى عنه حسبُ فظهر أنه لا يحلّه ولا يحرّمه، كما أنه لا يأكله ولا ينهى عنه وبين الأمرين فرق، لأنه لم يتركه من جهة التحريم، وإنما تركه لأنه عافه . . [2]".

ويستمد ابن قتيبة من ثقافته الواسعة ومعرفته بمعاني الكتب المقدسة كالتوراة والإنجيل، أدلة يدعم بها آراءه التي تعبر عن شخصيته العلمية المستقلة، وقد يذكر في تناوله ألفاظ الحديث المشكلة معاني كثيرة، وتأويلات مختلفة، ولا يحتم بأحدها، لأنه كما يعتقد بأن التأويل يخالف مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث، منبهاً على تحريف الحاقدين ألفاظ الحديث وتزيدهم فيه، من ذلك قوله: " وزاد قوم في الحديث أنّه – عليه السلام – مرَّ برجل يضرب وجه رجل آخر، فقال: لا تضربه، فإنَّ الله تعالى خلق آدم عليه السلام على صورته أي على صورة المضروب . . . وفي هذا القول من الخلل ما في الأول، ولما وقعت هذه التأويلات المستكرهة، وكثر التنازع فيها، حمل قوماً اللجاج على أن زادوا في الحديث . . . وقال: " ولم أر في التأويلات شيئاً أقرب من الاطراد ولا أبعد من الاستكراه من

---

(1)تأويل مختلف الحديث 161، 162.

(2) نفسه : 180، والحديث في صحيح مسلم باب الصيد /40، وسنن الترمذي باب الأطعمة / 2.

تأويل بعض أهل النظر، فإنه قال فيه أراد أنَّ الله تعالى خلق آدم في الجنة على صورته في الأرض . . . ولست أحتم بهذا التأويل على هذا الحديث، ولا أقضي بأنه مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه، لأني قرأته في التوراة . . .وهذا لايصلح له ذلك التأويل"[1].

ونجد ابن قتيبة يلتزم الأمانة العلمية، ويذكر أقوال المفسرين بلا ترجيح لأنه يعتقد أن المعنى يحتمله التأويل وينص على ذلك مُتْبِعاً ما ذكره بعبارة " والله أعلم "، من ذلك ما قاله في الرد على الطاعنين في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الشمس تطلُّ من بين قرني شيطان فلا تصلُّوا لطلوعها " . وقال: " والذي أخبرتك به شيء يحتمله التأويل ويباعده عن الشناعة، والله أعلم"[2] ونرى ابن قتيبة يذكر وجهين مختلفين للمعنى ويرجح أحدهما مستخدماً عبارة " والأول أحسن عندي " من ذلك ما قاله في الرّدّ على الطاعنين في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " منبري هذا على ترعة من ترع الجنة، وما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة . . . "[3] وقال ابن قتيبة: " فإنَّه لم يرد بقوله ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة، إن ذلك بعينه روضة، وإنما أراد أنَّ الصلاة في هذا الموضع، والذكر فيه يؤدي إلى الجنَّة، فهو قطعة منها . . . وقد يذهب قوم إلى أنّ مابين قبره ومنبره حذاء روضة من رياض الجنة، وأنَّ منبره حذاء ترعة من ترع الجنة فجعلهما من الجنة إذا كانا في الأرض حذاء ذينك في السماء . والأول أحسن عندي والله أعلم"[4].

ولم يلتزم ابن قتيبة في تأويله الأحاديث المشكلة نهجاً واحداً، بل كان مختلفاً من حين

---

(1) نفسه : 147- 150، والحديث في صحيح البخاري باب الاستئذان / 1، وصحيح مسلم باب البر 115. والجنة / 28.

(2) نفسه : 87- 84.

(3) نفسه : 82، 83. والحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل 2/360، 450، 534.

(4) تأويل مختلف الحديث : 82، 83.

لآخر، فقد استوفى عرض معاني بعض الأحاديث، وأوجز في بعضها، واستطرد في شرح قسم آخر، ذاكراً بعض الأمثلة والاختلاف في روايتها، وتعدد الشواهد، وسنمثل بذكر بعض الأحاديث التي توضح منهجه في تناوله المادة اللغوية.

ومن الأحاديث التي أوّلها بإيجاز، حديث قال فيه أهل الكلام إنَّ القرآن يبطله، وأورود ما قالوا: رويتم أنَّ رجلاً قال لبنيه إذا أنا متُّ فاحرقوني ثم اذروني في اليمِّ لعلّي أضِلُّ الله ففعلوا ذلك، فجمعه الله، ثم قال له ما حملك على ما فعلت، قال مخافتك يا رب فغفر الله له .

قالوا: وهذا كافرٌ والله لا يغفر للكافر، وبذلك جاء القرآن .

وردّ ابن قتيبة على ادِّعائهم: " ونحن نقول في أُضل الله إنه بمعنى أفُوت الله، تقول:ضللت كذا وكذا وأضللته. ومنه قول الله تعالى ﴿ في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ [1]، أي لا يفوت ربي . وهذا الرجل مؤمن بالله مُقِرٌّ به خائف له، إلاَّ أنه جهل صفة من صفاته، فظنَّ أنه إذا أُحرِقَ وذُرِي في الرِّيح أنه يفوت الله تعالى، فغفر الله تعالى له بمعرفته تأنيبه، وبمخافته من عذابه جهله بهذه الصفة من صفاته، وقد يغلط في صفات الله تعالى قومٌ من المسلمين، ولا يحكم عليهم بالنار، بل تُرْجَأ أُمورهم إلى من هو أعلم بهم وبنيّاتهم .. "[2].

فقد فسَّر الكلمة التي أدت إلى اللبس، وعضد تفسيره بآية من القرآن الكريم، ولم يستطرد إلى ذكر الشواهد المتعددة، والاختلاف في الروايات ومعاني الألفاظ .

ومن الأحاديث ما كان عرضه مستوفياً للمعنى، نحو ما بيَّنه في الرَّدِّ على من ادّعى بتناقض حديثين من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: (قالوا حديثان

---

(1) طه / 52.

(2) تاويل مختلف الحديث : 80، 81.

متناقضان) قالوا رويتم أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مثل أمتي مثل المطر لا يُدرى أوله خير أم آخره [1] ، ثم رويتم أنَّ الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً [2] .

وأنه قال خير أمتي القرن الذي بعثت فيه [3]" . قالوا هذا تناقض واختلاف .

قال ابن قتيبة : " ونحن نقول إنه ليس في ذلك تناقض ولا اختلاف ؛ لأنه أراد بقوله إنَّ الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً ، أنَّ أهل الإسلام حين بدأ قليل، وهم في آخر الزمان قليل، إلاَّ أنهم خيار وممّا يشهد لهذا ما رواه معاوية بن عمرو عن أبي إسحاق عن الأوزاعي عن يحيى أو عروة بن رويم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : خيار أمتي أولها وآخرها، وبين ذلك ثبج أعوج، ليس منك ولست منه، والثبج : الوسط، وقد جاءت في هذا آثار منها أنه ذكر آخر الزمان، فقال : المتمسِّك منهم يومئذ بدينه كالقابض على الجمر . ومنها حديث آخر، ذكر فيه أن الشهيد منهم يومئذ كشهيد بدر . وفي حديث آخر، أنه سئل عن الغرباء، فقال : الذين يُحيون ما أمات النّاس من سنتي . وأمَّا قوله خير أمتي القرن الذي بعثت فيه، فلسنا نشك في أنَّ صحابته خير ممن يكون في آخر الزمان، وأنه لا يكون لأحد من النّاس مثل الفضل الذي أوتوه، وإنما قال مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره، على التقريب لهم من صحابته، كما يقال : ما أدري أوجهُ هذا الثوب أحسن أم مؤخره ؟ ووجهه أفضل، إلاَّ أنك أردت التقريب منه، وكما تقول ما أدري أوجه هذه المرأة أحسن أم قفاها ؟ ووجهها أحسن، إلاَّ أنك أردت تقريب ما بينهما من الحسن . ومثل هذا قوله في تهامة إنها كبديع العسل، لا يدرى أوله خير أم آخره . والبديع الزق، وإذا كان العسل في زق، ولم يختلف اختلاف اللبن في الوطب [4] ، فيكون أوله خيراً من آخره، ولكنه تقارب،

---

(1) الحديث في مسند أحمد ابن حنبل 3/ 242، 265، وسنن الترمذي باب الأدب 81 .

(2) الحديث في صحيح مسلم باب الإيمان / 232 . ومسند الإمام أحمد بن حنبل 1/ 184 .

(3) الحديث في صحيح البخاري، باب مناقب /23، ومسند أحمد بن حنبل 2/ 373 .

(4) الوطب : سقاء اللبن، وهو جلد الجذع، فما فوقه . القاموس المحيط (وطب) .

فلا يكون لأوله كبير فضل على آخره "[1].

فقد أوَّل ابن قتيبة الحديثين تأويلاً مستوفياً للمعنى، مبيناً أن لا تناقض ولا اختلاف بينهما، مُقيماً الحجة بالأدلة والشواهد من أحاديث رسول الله التي تُزيلُ اللَّبس والغموض وتوضح معاني النصوص، ومثَّل لما ذهب إليه بكلام العرب وبالشائع من كلام النّاس، ذاكراً الأشباه والنظائر، لتتضح الصورة بالمقارنة، ويتحقق فهم معنى الحديثين، ومع ذلك فإنه لم يخرج عن دائرة التفسير، ولم يستطرد إلى ذكر الأخبار والقصص التي يودعها بعض شروح أحاديثه الطوال، ومن هذا النوع الأخير من الأحاديث التي أفاض ابن قتيبة في تأويلها وجاء عرضه لمعانيها مطولاً حتى غدا من السمات البارزة والظاهرة في كتابه هذا، فيضرب الأمثال ويذكر مِنْ أحاديث السلف وألفاظهم ما يشاكل الأحاديث أو يوافق ألفاظها، ويورد الحجج الكثيرة والشواهد المتعددة، وينص على الاختلاف في روايتها ومعاني ألفاظها، حتى يدحض آراء خصومه الذين ادَّعوا على أحاديث رسول الله بالتناقض والاختلاف، وينتصر لرأيه ورأي أهل الحديث، ولذلك سلك في هذا النوع نهج الجدل والمناظرة والمقايسة، وأبان عن معرفة عميقة بمعاني الحديث ودراية بأصول الفقه، وامتلاك لناصية اللغة وفقه بأسرارها وخفاياها، ووقوف على ظواهرها، واجتهاد في الإفتاء بمسائلها وقضاياها، من ذلك قوله في تأويل حديث رسول الله الذي ادّعي عليه من أهل النظر، و" قالوا حديث يبطله حجة العقل "، قالوا رويتم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : كادت العين تسبق القدر[2]، ودُخِل عليه بابني جعفر بن أبي طالب– رضي الله عنهما وهما ضارعان فقال مالي أراهما ضارعين ؟ قالوا تسرع إليهما العين، فقال : اسْتَرْقَوا لهما "[3]، وقد نهى في غير حديث عن

(1) تأويل مختلف الحديث : 77، 78.

(2) قال في النهاية في شرح هذا الحديث : الضارع : النحيف الضاوي الجسم .

(3) الحديث في صحيح مسلم باب السلام 60 ومسند الإمام أحمد بن حنبل 3/ 333.

الرُّقى . قالوا : وكيف تعمل العين من بُعدٍ حتى تُعلَّ وتُسْقِمَ - هذا لا يقوم في وهم، ولا يصح على نظر .

وقال ابن قتيبة : ونحن نقول : إنْ هذا قائم في الوهم، صحيح في النظر من جهة الديانة، ومن جهة الفلسفة التي يرتضون بها، ويردُّون الأمور إليها، والنَّاس يختلفون في طبائعهم، فمنهم من تضرُّ عينه إذا أصاب بها، ومنهم من لا تضرُّ عينه، ومنهم من يعض فتكون عضته كعضة الكلب الكَلِب [1] في المضرّة، أو كنهشة الأفعى لا يسلم جريحها، ومنهم من تلسعه العقرب فلا تؤذيه وتموت العقرب ... " ويستطرد ابن قتيبة إلى ذكر الأخبار والقصص عن الأعراب، ويورد أقوال أصحاب المنطق وأهل الفلسفة، ويروي عن علماء اللغة كالنضر بن شميل والأصمعي وأبي زيد الأنصاري، ويذكر تفسير الفراء قول الله سبحانه ﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لمَّا سمعوا الذكر﴾ [2] . ويورد شواهد متعددة من كلام العرب، مثلاً ، وشعراً ونثراً، ويفسرها، وينبّه على الفروق الدلالية بين العبارات من ذلك قوله : " تقول النَّاس نظر إليَّ شَزْراً [3] ، ونظر إليَّ محدِّقاً [4] ورأيته لحاً باصراً " ، ويستشهد على الحديث بالحديث، ويفسر ما جاء فيه من ألفاظ غريبة نحو قوله : "وجاء في الحديث : لا رُقية إلاَّ من عين [5] ، أو حمة [6] ، أونملة أو نفس، فالنفس: العين والحمة : الحيَّات والعقارب وأشباهها من ذوات السموم، والنملة : قروح تخرج في الجنب ... " [7] .

---

(1) بفتح فكسر الكَلِب : المصاب بداء يشبه الجنون يأخذه فيعقر النّاس، كما في المصباح .

(2) القلم 51 .

(3) الشَّزْر بفتح فسكون، النظر في أحد الشقين، أو نظر فيه إعراض، أو نظر الغضبان بمؤخر العين، كذا في القاموس .

(4) بشدِّ الدال من التحديق، وهو تشديد النظر، كما في القاموس والمصباح .

(5) العين : وهو مصدر عانه بعينه إذا أصابه بالعين، كما في النهاية .

(6) في القاموس الحمة كثبة السم أو الإبرة يضرب بها الزنبور والحية ونحو ذلك أو يلدغ بها الجمع حماة وحمى .

(7) تأويل مختلف الحديث : 229-234 . والحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل 3/118، 119، 127 .

لقد صدر ابن قتيبة في تأويله الأحاديث التي ادّعى عليها بالتناقض والاختلاف، عن ثقافة موسوعية اتسمت بالإحاطة والشمل، وبدت شخصيته العلمية التي أوعبت علوم عصره، فهو عالم باللغة وعلومها وأسرارها، وفقيه ومحدِّث عالم بأمور الدين وأحكام القرآن والسنة، وراوٍ لأشعار العرب، عليم بمعانيها وغريب ألفاظها ، حافظ لكلامهم، وأمثالهم وخطبهم، مُلِمٌّ بأخبارهم وقصصهم، وقد مكنَّه ذلك كله من المنافحة عن كتاب الله وسنة رسوله، والتصدي لأهل الشرك والملاحدة وأهل النظر وأصحاب الفلسفة الذين أرادوا أن ينالوا من أحاديث رسول الله، فأبطل حججهم ، وانتصر لرأيه ومعتقده ولأهل الحديث، وقد أفاد من شيخه إسحق بن راهويه وروى عنه كثيراً، كما روى عن ابن عباس وعلماء الحديث، وعلماء اللغة من كوفيين وبصريين دون تعصب لمذهب، أو انتصار لمدرسة، بل كان يرتضي الأقوال التي تتَّسق مع معنى الحديث، ولم يسلِّم بها جميعاً، فكان يقارن ويوازن ويفتي بالرَّاجح منها، وامتاز عن معاصريه، بالمنهج العلمي الذي سلكه في كتبه، والذي يُعرف بأنه : منهج يقوم على الاستقراء والتجربة والبحث واستخلاص النتائج، بعد المشاهدة والخبرة . . وهذه حِلية قلَّما نجدها في عالم معاصرٍ له .

كتاب المسائل والأجوبة في الحديث والتفسير (1)

و (المسائل والأجوبة) كتاب يضيف جديداً إلى جهود الإمام ابن قتيبة في علم غريب الحديث، وغريب اللغة، ويعد تتمَّة لكتابه " غريب الحديث " ، وقد تضمَّن/ 190/ مسألة من المسائل التي سئل عنها ابن قتيبة، وفسّرها على جهة (السؤال والجواب)؛ لذلك سميّت بـ (المسائل) . وقد صُدِّر أغلبها بكلمة " سألت عن " . وهي تدور حول موضوع غريب الحديث والأثر والتفسير واللغة، وتحتجن عدداً من الأحاديث النبوية، فيها ألفاظ غريبة تحتاج إلى تفسير وبيان، لم يفسرها في كتابه "غريب الحديث " ، وقال : " سألت عن

(1) هذا هو اسم الكتاب الذي آثر محققاه : مروان العطية ومحسن خرابة تسميته بهذا العنوان .

أحاديث ذكرت أنك لم تجدها في كتابي المؤلّف في تفسير غريب الحديث [1]" . فشرح معانيها، وأوضح مراميهاِ، وآيات قرآنية بدت في ظاهرها مختلفة متناقضة متعارضة، ففسَّرها، وأوَّلها، وأزال تعارضها، واختلافها، وتناقضها، وقراءات قرآنية، وقضايا فقهية، وبلاغية وتاريخية، ونحوية، وجملة من المواد والظواهر اللغوية تتصل بالترادف والاشتراك، يفيد منها الدّرس اللغوي .

خلا هذا الكتاب من مقدمة، نجد فيها ما يفيدنا في تحديد موضوعه ومنهجه، جرياً على عادة ابن قتيبة، في التقديم لمؤلفاته بخطبة يوضح فيها الهدف من وضع الكتاب، ويبين منهجه الذي سلكه فيه، وبدأ كتابه هذا مباشرة بالأسئلة، والجواب عنها، ومناقشتها واحدة واحدة .

وقد سلك ابن قتيبة في تأليف هذا الكتاب المسلك نفسه الذي سلكه في كتاب غريب الحديث، واتّبع الطريقة نفسها ممَّا حمل بعض الدارسين على تسميته بذيل غريب الحديث، أو جعله تتمة له [2]، والتزم المنهج في تناوله الأحاديث الشريفة التي أراد الكشف عن معانيها،وتفسير غريب ألفاظها، إلا أنَّه لم يلتزم ذكر السند، فذكرها مقطوعة عن الإسناد، كما أنّه لم يراع ترتيب الأحاديث في كتابه ترتيباً معيناً، وإنَّما ذكرها دون نظام ما ، وطريقته في ذكر الحديث هو أن يبدأ بذكره كاملاً أو مختصراً، ثم يشرحه، ويفسر معانيه، ويزيل غوامضه بإحالته إلى اللغة، وذكر أصل الكلمة الغريبة، ومعرفة اشتقاقها، والاستشهاد عليها بالقرآن الكريم، وبالحديث الشريف، وبالشعر العربي القديم، وبأقوال الصحابة والتابعين، من ذلك قوله في هذه المسألة : " سألت عن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا داء ولا غائلة، ولا خِبْثَةَ [3]" .

---

(1) المسائل والأجوبة / 69 .

(2) غريب الحديث، لابن قتيبة، تحقيق د . عبد الله الجبوري 1 / 79 .

(3) الحديث في الفائق 1 /350 .

ويجيب ابن قتيبة مفسراً : " أمَّا قَولُهُ : " لا داء " ، فإنه يريد لا داء لك في العبد [(1)] من الأدواء التي يُرَدُّ منها مثلِ الجُذَامِ، والبرص، والسِّلِّ، والجُنون، والأوجاع المتقادمة . .

وقَوْلُهُ : "ولا غائلةَ" هو من قولك : اغتالني فُلانٌ إذا احتال عليك بحيلةٍ يُتْلفُ بها بَعْضَ مالِكَ، يقال : غالتْ فلاناً غُولٌ إذا أَذْهَبَتْهُ، والغَضَبُ غُولُ الحِلْم، والخَمْرُ غُول العَقْل، والمعنى : لا حيْلةَ عليك في هذا البيع يغتالُ بها مالَكَ [(2)] وقولهُ : " لا خِبْثَةَ " يُريد الأخلاق الخبيثة مثل الإباق [(3)] والسَّرق [(4)] ، والعرب أيضاً تدعو الزّنى خُبْثاً وخِبْثَةً [(5)] .

وفي الحديث : " أنَّ رجلاً وُجِدَ مع امرأةٍ يخْبُثُ بها [(6)] " أي يزني بها . والله عزَّ وجلّ يقول: ﴿ الخبيثات للخبيثين ﴾ [(7)] ، وفي بعض الحديث أيضاً "يكون كذا إذا كثُر الخَبَثُ [(8)] " يراد الفُسُوق والفُجُور . وكلُّ قَذَرٍ ونجسٍ فهو خَبَثٌ، قال تعالى : ﴿ ويحرّم عليهم الخبائث ﴾ [(9)] ، ومن هذا قيل : خَبَثُ الحَديد، يراد به قذَرُهُ ورديئُه الذي ينفيه عنه الكيرُ . والخِبْثَةُ قد تكون في البيَع، والفسادُ في السِّباءِ . تقول العَرَبُ هذا سَبْيٌ طيِّبٌ إذا كان صحيح السَّبْيِ [(10)] " .

---

(1) الذي اشتراه العدّاء بن خالد بن هودة من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والداء العيب الباطن الذي لم يُطلع البائعُ المشتري عليه .

(2) ينظر اللسان (غول)، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة / 370. والقرطبي 15/ 78.

(3) الإباق : هرب العبيد . ينظر اللسان (أبق) .

(4) السَّرق : مصدر فعل السارق، تقول : برئت إليك من الإباق والسرق في بيع العبد، اللسان (سرق) .

(5) ينظر اللسان والتاج (خبث) .

(6) ينظر النهاية 2/ 6. وغريب الحديث لابن الجوزي 1/ 260.

(7) النّور / 26.

(8) ينظر النهاية 2/6، وغريب الحديث لابن الجوزي 1/260، واللسان والتاج (خبث) .

(9) الأعراف / 157.

(10) المسائل والأجوبة /35، 36.

فقد التزم ابن قتيبة إشباع التفسير، وإيضاح المبهم من العبارات، وإيراد الحجج التي يعضد بها تفسيره، وذكر المصادر، والإشارة إلى اللغات والظواهر اللغوية، كالاشتقاق والإبدال، من ذلك تفسيره حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي جاء جواباً لحديث ذُكِرَ فيه أنَّ رجلاً قال : يا رسول الله إنَّ لي قرابات أَصِلهم، ويقطعونني، وأعطيهم، ويكفُرونني، هذا أو نَحْوهُ من الكلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنَّما تُسفُّهُم المَلَّ [1]" .

وقال ابن قتيبة : " قَوْلُهُ : تُسِفهم : من السَّفُوفِ [2]، والمَلُّ : الجَمْرُ، ويقال : للرَّماد الحار أيضاً المَلُّ [3] والمَلَّةُ : مَوْضِعُ الخُبْزَةِ في النّار . ومنه يقال : فلان يتململ على فراشه والأصل يتململ، يريد أنَّهم إذا لم يشكروك فإنَّ إعطاءك إيّاهم حرام عليهم ونار في بطونهم [4]" .

فقد ذكر ابن قتيبة الأصل اللغوي للكلمة وجعله أصلاً لمعاني الكلمات القريبة من هذه الكلمة في حروفها، مبيناً دلالة ذلك الأصل ، مشبعاً ذلك بذكر الاشتقاق، مستعيناً بخبرته ودرايته بالظواهر اللغوية، وقد يفسر معنى الكلمة، ثم يشير إلى سبب التسمية، مبيناً اشتقاقها، ومن أين أخذت حروفها، من ذلك قوله في تفسير الحديث: " لا تُحْدثوا في القَرَعِ، فإنَّه مُصَلَّى الخافيْن [5]" .

وقال : "والقَرَعُ يكونُ في الكلأ مثلَ القَرَعِ في الرَّأسِ، وهو أنْ يكون في الرأس لُمَعُ [6]

(1) النهاية 2/ 375 و4/ 361 ، وينظر اللسان والتاج (سفف، ملل) .

(2) السَّفوف، اسم لما يُستَفُّ . اللسان (سفف)

(3) في اللسان (ملل) : " المَلَّةُ : الحفرة نفسها .والمَلُّ والمَلّة : الرماد الحار الذي يُحمى ليدفن فيه الخبز لِيَنْضُجَ " .

(4) المسائل والأجوبة /69، 70.

(5) النهاية 2/56، وغريب الحديث لابن الجوزي 1/ 292، واللسان والتاج (قرع، خفا) .

(6) في اللسان (لمع): " لُمَعَ : جمع لُمْعَة وهي قطعة من النبت قد احَشَّتْ اي قد امكنت من ان تُحَشَّ ولا=

لا يكون فيها شعر، وكذلك القرع في الكلأ، وهو أن تكون قطع لا يكون فيها نباتُ . والخافون هم الجن سُمُّوا بذلك لاستخفائهم ، واستتارهم عن الأبصار" .

وسلك ابن قتيبة الطريقة نفسها في تفسير الآثار التي ذكرها في هذا الكتاب، وكانت هذه الآثار لبعض الصحابة، وبعض التابعين وتابعيهم كعلي بن أبي طالب، وعمر بن الخطّاب، وابن عبّاس، وابن مسعود، وأنس، وأبي هريرة، وابن الزبير، وغيرهم.

ونجد أنَّ ابن قتيبة يفسر الحديث أو الأثر، ويناقش القضايا الفقهية المستفادة من الحديث، من ذلك قوله في تفسير قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :" إنَّ الله حَرَّم من الرَّضاعة ما حَرَّم من النَّسب " ، وفي حديث آخر " ما حَرَّم من الولادَة " . وبيّن ابن قتيبة الموضع الذي يتساوى فيه الرّضاع والنّسبُ في التحريم [1] .

كما نجد ابن قتيبة يفسر الأحاديث أو الآثار التي ظاهرها التناقض والاختلاف، فيزيل تناقضها، ويبيّن توافقها، وعدم اختلافها، مؤيداً وجهة نظره بالقرآن الكريم، والحديث الشريف، وأقوال الصحابة والتابعين، من ذلك تفسيره وتأويله قول رسول الله : " إيّاكم والظن فإنّ الظن أكذبُ الحديث [2]" ، وقول عمر رضي الله عنه : " احتجزوا عن الناس بسوء الظن [3]" .

وقال ابن قتيبةَ : " وظَنَنْتَ هذا خلافَ ذلك . ولهذا مَوْضِعٌ خلافُ مَوضع الآخر، وإنما أراد النبيُّ بقوله : والظَّنُّ أكذبُ الحديث " إذا ظننتُم فلا تُحقِّقُوا، كما قال في حديث آخر: " ثلاثةٌ لا يَسْلَمُ مِنهنَّ أَحدٌ، الطِّيَرةُ والحَسَدُ والظَّنُ، فإذا تطيَّرْتَ فلا تَرْجِعْ، وإذا حَسَدْتَ فلا

= يقال لها : لُمْعَةُ حتى تبيضّ" .

(1) المسائل والأجوبة / 176 . وينظر أيضاً تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة / 194 - 196 .

(2) رواه البخاري 9/ 171في النكاح، ومسلم رقم 2563 في البر والصلة .

(3) النهاية 3/163، وغريب ابن الجوزي 2/ 57.

تبْغِ،، وإذا ظننْتَ فلا تُحقّقْ [(1)]".

وأمَّا قولُ عُمر: احتجزوا من النَّاس بسوءِ الظَّنّ" فإنه يريد لا تَنْبسَطوا إلى كُلِّ النَّاسِ، ولا تأْنَسُوا بهم، ولا تُفْضُوا إليْهمْ بأسراركم، فإنَّ ذلك أسلمُ لكم [(2)]".

وهناك أحاديث وآثار ليس فيها غريب، وإنما فسَّر معانيها فقط، لأنها تحتاج إلى تفسير، من ذلك تفسيره قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا رأيْتُم المدّاحين فاحْثُوا في وجوههم التُّراب [(3)]".

وقال : " ... وأمَّا حَثْوُ التُّراب في وُجُوهِهم فله مَعْنيان : أحدُهما أنَّه أرادَ بذلك التَّغليظ عليهم في ردِّ ما أتوا به، ولم يرد إيقاع الفعْل، كما قال في شارب الخمر: وفي الرَّابعة إن شربَ فاقْتُلُوهُ [(4)]"، ولم يُرِد أن يُقتَل، ولكنْ غلَّظ عليه ليتناهى النَّاس عن ذلك، وكما قال : " مَنْ قَتَل عَبدَهُ قَتَلْناهُ [(5)]" ولم يُردْ بذلك إلاَّ تغليظ الوعيد . والمعنى الآخر أن يقال للمادح بالباطل : بِفيْك التُّرابُ [(6)]".

وتناول ابن قتيبة في كتابه مجموعة من الآيات القرآنية، وفسَّر غريبها، وأوضح معانيها، وبيَّن مراميها، وأوّل مقاصدها، وأزال ما ادّعي عليها من تناقض واختلاف وتعارض، وبسط القول فيها حتى أصبحت واضحة، بيِّنة القصد والمرمى .

وكان يتبع خطته نفسها في تفسير الآيات القرآنية، يستشهد على ما يذهب إليه في

---

(1) رواه ابن قتيبة أيضاً في كتابه : تأويل مختلف الحديث ص 107، وينظر القرطبي 16/ 332.

(2) المسائل والأجوبة / 294.

(3) أخرجه مسلم في الزهد باب النهي عن المدح رقم 3002، ورواه أحمد في المسند 2/ 94 و 6/ 5، والترمذي رقم 22395 في الزهد .

(4) رواه الترمذي رقم 1444في الحدود، وأحمد في المسند رقم 16918 و 16930 و 16940 و16995 .

(5) رواه الترمذي رقم 1414في الديات، وأبو داود رقم 4515 ورقم 4516.

(6) المسائل والأجوبة /145- 148، وتنظر المسائل 41و 46 و132، و 133.

التفسير بالقرآن، ويدعم رأيه بالحديث الشريف، ويؤيده بأقوال الصحابة والتَّابعين والفقهاء، وبالشعر العربي القديم، حتى تبدو الآيات واضحة المعاني، ظاهرة القصد والمراد، لا اختلاف فيها ، ولا تناقض، ولا تعارض . من ذلك تفسيره قول الله عزّ وجل : ﴿ لقد خلقنا الإنسان من سلالَة من طين ﴾ [1]، وقوله في مَوْضِع آخر : ﴿ من صَلْصال كالفَخَّار ﴾ [2]، وفي موضع آخر ﴿ من حَمَإ مَسْنون ﴾ [3]، وفي مَوْضِع آخر ﴿ من طين ﴾ [4] .

وقال ابن قتيبة : " وظَنَنْتُه اختلافاً، وتناقُضاً، ولم أتْرُكْ ذِكْرَ هذا في كتاب تأويل مُشْكِلِ القرآن إلاّ لوُضُوحه عنْدَ أهْلِ المعرفة . وليس في هذا اختلافٌ بحمد الله، لأنَّ الله تبارك وتعالى خلق الإنسان أطواراً كما قال [5] . فخلق آدم من سُلالَةٍ من طِيْن كأنَّه سُلَّ من جميع طين الأرض شيءٌ خُلِقَ منه آدَمُ ، فهو من طِيْنٍ، ومن سُلالَةٍ مِنْ طِيْنٍ، ثم ترك هذا الطِّيْنُ حتى عاد حماً [6] مسنوناً . والمَسْنُونُ : المُتَغيِّرُ الرِّيح، ويُقالُ : هو المصبوبُ من قولك: سَنَّ الماءَ إذا صَبَّهُ . وهذا مستقصى في كتاب غريب القرآن [7] ، ثمَّ صَوَّرَهُ من ذلك الحَمَإ حتّى جَفَّ، فصار صَلْصَالاً أي يتصلصلُ مِنْ شِدَّة يُبْسه كما يُصَلْصِلُ اللِّجامُ، ويَطِنُّ إذا نُقِدَ [8] ، ثم نَفَخَ فيه الرُّوحَ، ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً في قرارٍ مكينٍ، يَعْني وَلَدَ آدم في الرّحم . وقد يَجُوزَ أن يكون أراد بِقَوْلِه : ﴿ ولقد خَلَقْنَا الإنسان مِنْ سُلالَةٍ من طين ﴾ ولَدَ آدم خلَقَهُ مِنْ سُلالَةٍ أي من نُطْفَةٍ، وتلك النُّطْفَةُ من آدم، وهو مخلوقٌ من الطِّيْنِ [9]" .

---

(1) المؤمنون : 12 .

(2) الرحمن : 14 .

(3) الحجر : 26 .

(4) ص 71 .

(5) في سورة نوح الآية / " : 14 ﴿ وقد خلقكم أطواراً " ﴾ .

(6) الحمأ : الطين الأسود المنْتن .

(7) ينظر غريب القرآن لابن قتيبة ص 238 .

(8) ينظر اللسان والتَّاج (صلل) .

(9) المسائل والأجوبة /110، 111 .

لقد بدت تلك الآيات القرآنية متعارضة في ظاهرها، وقد أوّلها ابن قتيبة وأزال اختلافها، وبسط فيها القول، حتى أصبحت واضحة المعنى، وقد أمدَّته خبرته العميقة بالمعاني بأداة قوية لتفسيرها وتأويلها التأويل الذي يتّسق مع معنى النص القرآني، متصدّياً لترهّات أهل الكلام، وأصحاب الفلسفة، الذين ادّعوا على آيات القرآن بالاستحالة وفساد النظم، فأبطل حججهم، بما أوتي من قوّة العارضة، وبيان الحجة، والقدرة على التصرف بألفاظ اللغة بما يحقق للنّص القرآني وضوح القصد وبيان المرام وقال في تفسير قول الله جلّ وعزّ : ﴿ فنبذناه بالعراء وهو سقيمٌ ﴾ [(1)]، وقوله في موضع آخر ﴿ لولا أن تداركه نعمةٌ من ربِّهِ لنُبِذَ بالعراء وهو مَذْمومٌ ﴾ [(2)]، ويعقّب على قول السائل : " وقلتَ : هذا خلاف الأوّل، لأنّه ذَكَرَ في الكلام الأوّل أنَّه نَبَذهُ بالعَراء، وهو سقيم، وقال في الكلام الثاني : ﴿ لولا أن تداركه نعمةٌ من ربّه لنبذ بالعراء وهو مذموم ﴾، وهذا يدُلُّ على أنّه لم يُنْبَذْ بالعراء ، ويردّ عليه قائلاً : وليس الأمر كما توهَّمْت، ولا بين الكلامين اختلافٌ كما ذكرت، لأنَّه أراد لولا أنَّا تبنا عليه، ورحمناه لنبذناه، حين نبذناه، بالعَراءِ مذموماً أي على حالته الأولى لم نتُبْ عليه . ويَدُلُّكَ على ذلك قولُهُ بعد مذموم : ﴿ فاجتباه ربُّه فجعله من الصَّالحين ﴾ أي تاب عليه [(3)]".

لقد انطلق ابن قتيبة في تأويله الآيات المشكلة من فهم عميق لألفاظ القرآن الكريم، ودلالاتها، وعلاقاتها في النظم، وأثر ذلك في فهم النص القرآني الذي نزل بأساليب العرب ومجاراتهم في القول، وأشار إلى مواطن الإيجاز، وأنَّ القرآن جمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه، وسلك أسلوب الحذف، وعبّر عن ذلك بقوله : " ومن تتبّع هذا من كلام العرب، وأشعارهم وجده كثيراً [(4)]". فالإيجاز بالحذف والاختصار كما يسميه ابن قتيبة،

---

(1)الصَّافَّات : الآية / 145.

(2) القلم / 49.

(3) المسائل والأجوبة / 233. وينظر القرطبي 15 / 128و18 / 235.

(4) تأويل مشكل القرآن / 171.

الغرض منه التخفيف على المخاطب لغرض من الأغراض كذكاء المخاطب وضيق المقام، وغير ذلك من الأغراض كالعلم به، والدليل الذي يدُل عليه .

والتزم ابن قتيبة منهجاً علمياً بتفسير ألفاظ النص من السياق، وأقرَّ بوقوع المشترك اللفظي، وتطور الأصل الدلالي بسبب التوسُّع في المجاز، وأنّ الألفاظ لا تستوي في المعاني، ويستدل على معانيها بما يتقدَّم قبلها من الكلام، ويتأخّر، وناقش هذه المسألة مناقشة علمية مدعومة بالحجج والشواهد، وأفتى سائلاً بقوله : " وسألتَ هل تختلف العرب في الاسم الذي يَحْتملُ معنيين، فيظنُّ واحدٌ أحدَ المعنيين، ويُظَنُّ آخرُ المعنى الآخر ؟ .

وأجاب قائلاَ : " وقد يقع هذا في جميع هذه الحروف ذوات الوجوه، وإنما يُستَدلُّ على معانيها بما يتقدَّم قبلَها من الكلام، ويتأخَّرُ ... وقال : " وفي القرآن أيضاً أشياء من الأمر والنَّهي تخرُج مَخرجاً واحداً، وهي لا تستوي في المعاني، فمنها أمرٌ هو فَرْضٌ كقوله عَزَّ وجلَّ : ﴿ أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ [1]، ومنها أمْرٌ هو تأديبٌ كقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وأشهدوا ذوي عَدْلٍ منكم ﴾ [2]، ﴿ واهجُروهُنَّ في المضاجع واضربوهُنَّ ﴾ [3]، ومنها أمْرٌ هو تهديد، كقوله تبارك وتعالى : ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ [4]، وهذا أمرٌ لا يُعلم إلا بتوقيف [5]" . فقد جاء الطلب في الآية الأولى ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾، للوجوب، وهو مستعملٌ في حقيقته، وخرج إلى المجاز في الأغراض الأخرى التي ذكرها ابن قتيبة . وقد عقد باباً في كتابه :

"تأويل مشكل القرآن " بعنوان : " باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه "، تكلم فيه على

(1) البقرة / 43و83، و 110 .

(2) الطلاق / 2 .

(3) النساء / 34 .

(4) فصِّلت / 40 .

(5) المسائل والأجوبة /54، 55 .

الأساليب الإنشائية، ومدى خروج الإنشاء الطلبي عن أصله إلى الاستعمالات المجازية [1] .

وأدرك ابن قتيبة أن الاشتراك في اللفظ يشترط فيه أن يكون البناء اللفظي للكلمة المشتركة واحداً، ويستلزم هذا أن يكون الاتفاق في الحروف والحركات، وقال : " وسألت عمَّا يحتمل من الأسماء معنيين وأكثر، وما لا يحتمل إلاَّ معنىً واحداً ؟ : وأجاب : " وهذا كثير، فمن ذلك الأرض : هي الأرض التي نحن عليها، والأرض الزكام . يقال : رجل مأروض إذا كان مزكوماً. والأرض الرعدة . وقال ابن عبّاس : أزلزلت الأرض أم بي أرض ؟ أي رعدة [2] . والأرض قوائم الفرس، قال الشاعر [3] :

ولم يُقلِّب أرْضَها البَيْطارُ [4]

أي قوائمها .

ومن ذلك القَرْن وهو الخُصلة من الشعر، والقرن العفلة في الجارية، والقَرْنُ دُفْعَةٌ من عرق الفَرَس، والقَرْنُ الجبل الصغير، والقرن حاجبُ الشمس، والقرن قرنُ الثَّور، والقرن قِرْن الإنسان في السنّ، والقرن يقال : ثمانون سنة [5] .

ومزج ابن قتيبة بين اللغة وفقه اللغة، وتحدّث عن الأسماء التي تطلق على عدة أشياء، وتقع تحتها معان مختلفة من وجوه متجانسة من وجه، وقال : " ومنها أسماء تقع تحتها معانٍ مختلفة من وجوهٍ متجانسةٍ من وجهٍ، كالحيوان تحته الإنسانُ، والأنعام، والسباع، والحشراتُ، وهي مختلفة من هذه الجهات، ومتجانسة من جهة الحياة. وهذا كثير [6]" .

(1) تأويل مشكل القرآن / 213.

(2) الفائق 1/37، والنهاية 1/39، وغريب الحديث لابن الجوزي 1/ 19. واللسان والتاج (أرض) .

(3) هو حُمَيْدُ الأرقط، وهو حميد بن مالك بن ربْعيٍّ التميمي، شاعر أموي، ينظر معجم الأدباء 11/13، والخزانة 5/ 395.

(4) البيت في الصحاح واللسان والتاج (أرض) .

(5) المسائل والأجوبة /51، 52.

(6) نفسه / 35.

وتحدَّث عن أسماء تقع تحتها معانٍ متجانسة، وقال : " ومنها أسماء تقع تحتها معان متجانسة كالصوت تحته زئير الأسد، وضبْح الثعلب، ونبيح الكلب، ونهيق الحمار . هذا كله يقع عليه اسم صوت، ثم يُفَرَّق بينه باختلاف مصوِّتيه "[1].

وتحدَّث عن الأسماء التي لا تحتمل إلاَّ معنى واحداً، ولا يتوهَّم فيها غير ذلك اتّصلت بكلام أو انقطعت، كالغلام والشجر والجبل والحجر، وأشباه هذا . . "[2].

وأقرَّ ابن قتيبة بوقوع التضاد في اللغة، وهو عنده نوعٌ من أنواع المشترك اللفظي، فاللفظ الواحد يَدّلُّ على معنيين متضادّين، يحددهما سياق النص، وربما لم يُسْتدلَّ على معنى اللفظ، فيحتاج إلى التوقف، ومثل لذلك بـ " القَرْء " وقال : " هو في كلام العرب الحَيْضُ، وهو الطُّهرُ أيضاً، وإنَّما سُمِّي الحَيْض قَرْءاً، والطُّهرُ قرْءاً، لأنّ كلّ واحدِ منهما يأتي لوقت معلوم، وكلُّ شيءٍ أتاك لوقت، فقد أتاك لقَرْئِه وقارئه، قال الهذلي[3] :

كَــرِهْتُ العَــقْــرَ عَــقْــرَ بني شُلَيْلٍ   إذا هَبَّتْ لقــارئـهـــا الرِّيـاحُ[4]

أي لوقتها في الشتاء . ومثلُ القَرْء، قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ والليل إذا عسعس ﴾[5] يكون إذا أقبل، ويكون إذا أدْبَر، والقرء : الفرض، ولا يُعلَمُ إلاَّ تَوْقيفاً، لأنَّ المخرجين مخرجٌ واحدٌ ما لم يُبَيِّن ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم "[6].

---

(1) نفسه / 53.

(2) نفسه / 53.

(3) هو مالك بن الحارث الهذلي، أحد بني كاهل، شاعر من مخضرمي الجاهلية والإسلام، ينظر الشعر والشعراء 2/ 666.

(4) البيت في ديوان الهذليين 3/81، وفي شرح أشعار الهذليين 1/ 239. والعقر : اسم مكان . وشليل هو جد جرير بن عبد الله البجلي .

(5) التكوير / 17.

(6) المسائل والأجوبة /54، 55.

فقد سلك ابن قتيبة طريق اللغة للرد على الأسئلة التي وُجِّهت إليه، فنراه يقلب الكلمة التي يُسْأَلُ عنها ويتحدّثِ عن أصلها اللغوي، واشتقاقها، ومعناها، ومن أيْنَ أخذت حروفها، والمعاني التي تحتملها، فحين سئل عن الجار، تحدّث عن الجار في اللغة، والمعاني التي تحتملها الكلمة، وفصَّل القول في أنواع الجيران، وقال : " وسألت عن الجار ؟

والجيران أربعة : أحدهم : من ساكنك في الدار، ولهذا سمّت العرب زَوْج الرجل جارَتَهُ قال الأعشى لامرأته :

أيا جارتي بيني فإنَّك طالِقهْ [1]

والثاني المُلاصِقُ المنزلِ لمنزلك إذا كان بابه يُشرَعُ في المَحَلَّة كما يُشْرعُ بابُك .

والثالث : الذي معك في المحلَّةِ وإن لم يلاصِقْك . . .

والرابع : من الجيران الذي جمعك وإيَّاه بَلدٌ واحد، يقول الله عزَّ وجل في المنافقين : ﴿ ثم لا يُجاورونَكَ فيها إلاّ قليلاً ﴾[2]، يعني في المدينة، وإنَّما يُسمَّى هذا جاراً في بعضِ الأحوال دون بعضٍ، وإن تُقَابِلْه بمن ليس يجْمَعُك وإيَّاه سببٌ كأنَّكما في بلد غريبان، وأنتما من بلد، فتقول هذا جاري في بلدي. ولقد بيّن النَّمِرُ بن تَوْلب [3] أنَّ من الجيران الدّاني والقاصي بقوله :

فلا الجارةُ الدُّنيا لها تلْحَيَنَّها ... ولا الضَّيْفُ فيها إنْ أناخ مُحَوَّلُ [4]

وأدرك ابن قتيبة تطور دلالة الألفاظ، ووقف على قوانين هذا التطور، وأنَّ الكلمة تتطور

---

(1) وتتمته : كذاكِ أمور النَّاس غادٍ وطارِقَه، والبيت قاله الأعشى لامرأته الهِزَّانية حين طلقها، ديوانه / 263.

(2) الاحزاب / 60.

(3) النَّمِرُ بن تَوْلَبُ بن زهير العكلي : شاعر مخضرم، توفي نحو سنة 14هـ، ينظر الشعر والشعراء 1 / 309، والأعلام 8 / 48.

(4) البيت في مجموع شعره (شعراء إسلاميون) ص 373.

من المحسوس إلى المجرد وأنَّ الاستعمال المجازي يُعَدُّ عاملاً مهماً من عوامل تغير المعنى واختلافه، فاللفظ قد يوضع ليدل على مسمّى معين، ثم يستعار ليدل على معان أخرى، من ذلك ما ذهب إليه في تفسير " الناسك "، وقال : " والناسك أصلُهُ الذَّابح لله عزَّ وجلَّ، يقال نسك فلان يَنْسُكُ نَسْكاً، والاسم النَّسك، والنَّسِيكَةُ الذَّبيحة، والمَنْسَك المَذْبحُ، ويوم الأضحى أيضاً مَنْسَكٌ [1].

وكان لا يَذْبَحُ لله تبارك وتعالى القُربانَ [2] من بني إسرائيل إلاّ العبّادُ المجتهدون، وكانوا يُدْعَوْن نُسّاكاً لهذه العلّة، ثم استعير الاسم لكلِّ عابدٍ مجتهدٍ، وإن لم يَذْبحْ [3]".

لقد أدرك ابن قتيبة مظاهر التطور الدلالي، وبين أن الاسم عند وضعه كان مقتصراً على دلالة ضيقة وخاصة في الأصل، ثم استعمل في معنى أوسع ممَّا كان عليه في الأصل . وربَّما مزج في تفسيره بين اللغة والفقه، فيتحدَّث عن المعنى اللغوي للكلمة، ثم ينتقل إلى المعنى الشرعي الفقهي الاصطلاحي، من ذلك تفسيره معنى " الناسخ والمنسوخ "، فقال : "والنَّاسخُ هو الذي إذا وقع زال بوقعه غيره، أو استغنى عنه، يقال : الظِّلُّ ينسخ الشمس، والشمسُ تنْسخُ الظِّلَّ، لأنَّ كل واحدٍ منهما إذا وقع زال بوقوع الآخر .

وعلى هذا ناسخ القرآن ومنسوخه، لأنَّ النَّاسخ يقع فلا يقعُ العملُ بالمنسوخ، ومن هذا قيل : نَسَخْتُ الكتاب، كأنَّك إذا كَتَبْتَ ما فيه استغنيت عنه بالثاني [4]".

وتحدَّث عن معنى الزَّاني في اللغة، ثم انتقل إلى المعنى الشرعي الفقهي [5]، وكذلك السارق، والتمس الفروق الدّلالية بين كلمتي " السارق" و " الخائن " ، وبين الأحكام

---

(1) لأنَّ الذَّبائح تنحر فيه لله، ينظر اللسان والتَّاج (نسك) .

(2) القُربان : ما تقربْتَ به إلى الله تبتغي بذلك قربة وسيلة كذبح البقر والغنم والإبل . .

(3) المسائل والأجوبة /56. وينظر القرطبي 2/ 386.

(4) نفسه /45، وينظر الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه، لمكي بن أبي طالب القيسي / 47- 59.

(5) نفسه / 44.

الفقهية في السَّرق، وقال : " والسَّارق في اللغة آخذٌ ما ليس له سِرّاً، فإن أخذه، وهو مؤتمن سراً، فهو خائن، يقال لكل خائنٍ : سارق، وليس كلُّ سارقٍ خائناً، فإن جاهر، ولم يَسْتَتِرْ فهو غاصبٌ . ثم بيَّنت السنَّةُ أن القَطْع في بعض السَّرق دون بعضٍ،وفي بعض الأمور دون بعضٍ، وفي مقْدارٍ دون مِقْدارٍ[(1)]" .

وقد فطن ابن قتيبة إلى مذهب العرب في تسمية الأشياء، تسمية مجازية، وبيَّن أنَّ اللغة العربية تحتوي على المجاز، وأنه واقع في القرآن الكريم، وكلام العرب شعراً ونثراً، ولكنَّه لم يذكر تعريفاً عامَّاً للمجاز، واكتفى بإطلاقه على بعض الأساليب التي تستعملها العرب في الكلام وفنون القول، وقال : "فالعرب تستعير الكلمة، فتضعها مكان الكلمة الأخرى إذا كان المسَّمى بها بسبب من الأخرى، أو مجاوراً لها، أو مشاكلاً[(2)]" .

وقال في تفسير كلمة " الفقه " : " والفقه في اللغة الفَهْمُ، يقال : فلانٌ لا يَفْقَهُ قولي، وقال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وإن من شَيْءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْده ولكن لا تفقهون تسبيحَهُم [(3)] ﴾ أي لا تفهمونه ثم قال : العِلْمُ الفقْهُ، لأنَّه عن الفَهْم يكون، وللعالِم فقيهٌ، لأنَّه إنَّما يَعْلَمُ بَفهمِهِ على مَذْهب العَرَب في تسْميةِ الشيء ممَّا كانَ له سبباً[(4)]" .

ومعلوم أنَّ استعمال الفقه بمعنى العلم مجاز مرسل علاقته " السببيَّة" ، غير أن ابن قتيبة لم يستخدم هذا المصطلح البلاغي الذي استخدمه البلاغيون المتأخرون .

ونجد ابن قتيبة أحياناً يخرج من التفسير اللغوي إلى الفقه، فيذكر بعض القضايا الفقهية، ومن التفسير إلى بعض الآداب، والمعارف الإسلامية العامة، وقد يوجز القول في

---

(1) نفسه /46، وينظر المهذب في فقه الإمام الشافعي للشيرازي 2/ 280وما بعد .

(2) تاويل مشكل القرآن / 101 .

(3) الإسراء /44، وينظر القرطبي 10 / 266 .

(4) المسائل والأجوبة / 58 .

بعضها [1]، ويفصِّل القول، ويبسط الكلام في بعضها الآخر [2]، ذاكراً الأدلَّة والشواهد من القرآن الكريم، والحديث الشريف، وأقوال الفقهاء، كالشافعي، ومالك، والثوري، وغيرهم.

ويناقش القراءات القرآنية التي ترد في ثنايا بعض المسائل [3]، ويحتج على نفيها، أو إثباتها بعلم النحو، ويتحدَّث عن الحكاية بعد القول، وعمل " تقول " عمل " تظنّ " إذا سبقت باستفهام، وذكر أن ذلك مذكورٌ في كتاب سيبويه [4]، وناقش مسألة نحوية أخرى في كتابه، وتحدّث عن الاستثناء، وأنه لا يجوز استثناء أكثر الشيء منه [5].

ومن مجموع هذه الكتب التي ألّفها ابن قتيبة في علم غريب الحديث وتأويله مختلفه، يبرز إمامنا علماً من أعلام علم الحديث – لغةً وسنداً وتأويلاً – بحيث فاق سابقيه بما وضع في ذلك من مؤلَّفات، وبما بذل من جهود لغويَّة ظهرت آثارها في كتب الغريب والحديث ومعاجم اللغة، وكان بحقٍّ المبِّرز السابق في هذا الميدان، وبدت شخصيته العلميَّه المستقلة من خلال آرائه اللغوية، وترجيحاته بين الأقوال، وأخذه بالأحسن منها، وبمنهجه المتَّسم بإشباع التفسير، وإيراد الحجج المتنوعة، حتى يزيل كلّ لبس أو غموض عن النص، لتتضح الفكرة، ويستقيم المعنى بما يتَّسق مع المراد من الحديث، وقد استطاع، بما امتلك من ثقافة لغوية أصيلة، وفقه عميق بأحكام الدين، ودراية واسعة بعلم الحديث، أن يتصدّى لخصومه من أهل الفلسفة، وأصحاب المنطق، وأن يفنّد مزاعمهم، ويسقط حججهم، بما ادَّعوه على الحديث من تناقض واختلاف، وقد عكست جهوده في علم غريب الحديث ثقافته الموسوعيَّة التي أوعبت علوم عصره، وبدا مُلمَّاً بتاريخ الأمم وأخبارها، ومطَّلِعاً على الكتب

---

(1) المسائل والأجوبة/ تنظر المسألة /8/ ص : 47، والمسألة /59/ص 179.

(2) نفسه /تنظر المسألة /48/ص 159، 160، والمسألة /50/ص : 165، 167.

(3) نفسه /تنظر المسألة / 72ص 208وما بعد،

(4) نفسه /تنظر المسألة /73/ص 217وما بعد .

(5) نفسه /تنظر المسألة /74/ص 221 - 220.

المقدسة كالتوراة والإنجيل، خبيراً بتراجم الأعلام ، متأثراً بعلم الكلام والمنطق، متمكناً من ثقافته العربية والإسلامية، قابضاً على ناصية اللغة، خبيراً بعلومها، فقيهاً بأسرارها، ممَّا مكنَّه من النهوض بمسؤولياته مدافعاً عن القرآن والسنة منتصراً لأهل الحديث، متصدياً للملاحدة وأصحاب الفرق والأهواء، متخذاً من اللغة وسيلته للرَّدِّ عليهم، وبدا من خلال اللغة الغزيرة التي نثرها في مؤلفاته من كبار اللغويين.

الفصل الثالث

جهود ابن قتيبة اللغوية
في شرح غريب الشعر ونقده

جهود ابن قتيبة اللغوية في نقد الشعر وشرح غريبه

أ - مقدمة :

أولى العرب الشعر جلَّ الاهتمام، وعظيم الرعاية، وكان الشعر ديوان العرب الخالد وسجلهم الحافل بأيامهم وانتصاراتهم، انعكست على صفحته عاداتهم وتقاليدهم الأصيلة، وآمالهم وآلامهم، وآدابهم، وخلاصة تجاربهم، وكان الشعر العربي الموثوق بصحته مصدراً رئيساً من المصادر التي قام عليها علم اللغة في العصر الإسلامي الأول، وبعد أن كان الشعر في قديم عصوره يتناقل شفاهاً، بدأ العلماء في القرن الثاني الهجري يخصُّون تراث العرب الشعري بعنايتهم، فيجمعون ما تفرق منه، ويحاولون إنقاذ ما تبقى في الصدور، بعد أن أتى ضرام الفتوح على قسم جليل منه، وقد ظهر خلال هذا القرن والقرن الثالث عدد كبير من رواة الشعر، وكانوا في الوقت ذاته من رواة اللغة، وعلمائها الأعلام، فقد كان جمع اللغة وجمع الأدب يجريان جنباً إلى جنب لأن كلاً منهما متمم للآخر، وقد عكف هؤلاء الرواة والعلماء على صنع الدواوين، وجمع أشعار القبائل، وصنع المجموعات الشعرية، وكتب المختارات المنوعة، وكتب تراجم الشعراء، وتصنيفهم في طبقات، وكتب نقد الشعر وتفسير غريب ألفاظه، وشرح أبياته، ودراسة أغراضه ومعانيه، وعوامل التطور والتجديد فيه، وقد أولى اللغويون عناية كبيرة في الاستشهاد بالشعر ، وإن كتب اللغة والنحو زاخرة به، وقال ابن عباس : " الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا ذلك منه [1]".

وقد أجمع العلماء على صحة الاستشهاد بشعر طبقة الجاهليين،كامرئ القيس وطرفة وعمرو بن كلثوم، وبشعر طبقة المخضرمين، كحسّان بن ثابت وكعب بن زهير والخنساء، وبشعر طبقة الإسلاميين كجرير والفرزدق والأخطل، وآخرهم ابن هرمة [2] أما الطبقة الرابعة

(1) الإتقان، السيوطي 1 / 120- 123 .

(2) خزانة الأدب 1 / 6 .

فهي طبقة المولدين أو المحدثين، وهم الذين عاشوا ابتداءً من العصر العباسي، كبّشار وأبي نواس، فلم يستشهدوا بكلامها، متخذين من عنصر الزمن أساساً في قبول ما نظم من شعر في جميع أنحاء الجزيرة العربية في العصور المتقدمة .

وحرص علماء اللغة على تفسير الأبيات المشكلة من الشعر التي تشتمل على أفكار قديمة، وألفاظ غريبة، لا يعرف دلالاتها إلا العلماء المتّصلون بالبداوة، المطّلعون على أسرار اللغة، وفِقْهِ مجازها واشتقاقها، والوقوف على ظواهرها، فهم أقدر من سواهم على تفسير هذه الأبيات، ووضعوا مصنفات عديدة، في هذا الفن تدل على مدى اهتمامهم بعلوم العربية وشواهدها [1]، وقد عرفت تلك الكتب بـ(أبيات المعاني) ، أو بأسماء قريبة إلى هذا الاسم.

وقد اعتنى ابن قتيبة – شأنه شأن علماء عصره – عناية كبيرة بالشعر العربي، ووضع فيه المؤلفات المستقلة التي تمحضت لدراسة الشعر ونقده وتفسيره تفسيراً لغوياً، كما بحثه في كتبه الأخرى، في مجالات عدة تبعاً لتنوع العلوم التي ألف فيها .

ومن الكتب التي تظهر فيها بوضوح جهود ابن قتيبة اللغوية في نقد الشعر ودراسته دراسة لغوية : الشّعر والشّعراء، والميسر والقداح، والمعاني الكبير، وسأحاول في هذا الفصل أن أعرض لجهوده اللغوية، مبيناً منهجه في هذه الكتب .

ب - كتاب الشعر والشعراء :

يعد كتاب الشعر والشعراء من مصادر الأدب والنقد الأولي، وقد ترجم فيه ابن قتيبة للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جلّ أهل الأدب، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب، وفي النحو وفي كتاب الله عز وجل، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم" . وهذا الذي قصد إليه :" فأما من خفي اسمه، وقلّ ذكْرُه وكَسَدَ شعرُه، وكان لا

(1) الإيضاح في شرح أبيات مشكلة الإعراب، المقدمة/ 31.

يعرفه إلا بعض الخواص، فما أقل من ذكرت في هذه الطبقة . إذ كنت لا أعرف منهم إلا القليل، ولا أعرف لذلك القليل أيضاً أخباراً [1]" .

قدَّم ابن قتيبة لكتابه بمقدمة عرض فيها موضوع الكتاب ومنهجه الذي سلكه في تقديم مادته، والهدف الذي سعى إليه من تأليف كتابه فقال : و" هذا كتاب ألفته في الشعراء، أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم، وأقدارهم، وأحوالهم في أشعارهم، وقبائلهم، وأسماء آبائهم، ومن كان يعرف باللقب أو بالكنية منهم، وعما يستحسن من أخبار الرجل ويستجاد من شعره، وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ في ألفاظهم أو معانيهم، وما سبق إليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون :

وأخبرت فيه عن أقسام الشعر وطبقاته، وعن الوجوه التي يُختار الشعر عليها ويُستحسن لها، إلى غير ذلك ممّا قدمته في هذا الجزء الأول[2]" .

فالموضوع الذي يدور عليه الكتاب ذو شقين، الأول منهما عرض تاريخي ذكر فيه أسماء الشعراء، وتراجمهم وأخبارهم وقبائلهم، وفي الشق الثاني عرض للناحية الأدبية أوالنقدية ، فذكر مما يستجاد من شعرهم، وما قاله العلماء فيه، ثم طبقات ذلك الشعر ، والوجوه التي يختار لأجلها ويقُدم .

وأوّل ميزة يراها القارئ المتأمّل في الكتاب أن اختيار ابن قتيبة لبعض شعر الشاعر اختيارُ عالم بالشعر، عارف به، فقيه فيه، فهو يختار فيحسن الاختيار، وينقد فيحسن النقد ويجيد، ويوازن بين الشعراء فيقيم الوزن بالقسط، لا يَحيد ولا يميل .

وأهم ما في الكتاب مقدمته، فقد أودع فيها أصول النقد المعروفة في عصره، وبسط فيها آراءه في أقسام الشعر، وعيوب الشعر، والإقواء، والإكفاء، والعيب في الإعراب، وأوائل

(1) الشعر والشعراء 1/ 65.

(2) نفسه 1/ 65.

الشعراء . ووضع مقاييسه العامة، والأصول التي بنى عليها آراءه في الشعر والشعراء .

ولم يعرض ابن قتيبة في كتابه إلاّ لمن غلب عليه الشعر، وعوّل في اختياره على القيم الفنية في الشعر نفسه مخالفاً في ذلك آراء كثير من العلماء المعاصرين له الذين كانوا يستجيدون الشعر السخيف لتقدُّم قائله، ويضعونه في متخيّرهم، ويَرْذلون الشعر الرصين، ولا عيب له عندهم إلاّ أنّه قيل في زمانهم، أو أنّهم رأوا قائله [1] .

ونظر ابن قتيبة إلى الشعر نظرة ناقد لغوي فقسمه من حيث ألفاظه ومعانيه إلى أربعة أقسام :

الأول ما حسن لفظه وجاد معناه، والثاني ما حسن لفظه وحلا، فإذا فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى، والثالث، ما جاد معناه وقصُرت ألفاظه عنه، ووصفه بأنه قليل الماء والرَّونق، أما الرابع فهو ما تأخر معناه وتأخّر لفظه، ووصفه بأنّه بيّن التكلُّف رديء الصنعة، وعدّ من هذا الضرب أشعار العلماء لأنها لم تصدر عن طبع وموهبة أو سَماحٍ وسهولة، أما الضربان الأولان – عنده – فيكثر ورودهما عند الشعراء المجيدين، أما الثالث فيقل وإن كان جيد المعنى والسبك، لكنَّ ألفاظه ليست جيدة، ولا مبيّنة لمعناه .

ونرى ابن قتيبة ينطلق في نقده اللغوي من الحس اللغوي الفطري غير المعلل، ولم ينطلق في حكمه على ما استجاد من شعر أو ما استقبح، من مقاييس لغوية أو معايير محددة وإنما يحكّم الذوق الفطري ويطلق أحكاماً عامة تنبىء عن إحساس عفوي بالجمال، غير متأثر بالفلسفة أو المنطق، كما نرى عند البلاغيين المتأخرين، فحين مثّل للضرب الأول وهو ما حسن لفظه وجاد معناه، كان يعقّب بعد ذكر الشاهد بقوله : " لم يُقل في الهيبة شيء أحسن منه " أو " لم يبتدئ أحد مرثية بأحسن من هذا [2] " . أو بقوله : " لم يبتدئ أحد

(1) الشعر والشعراء 1/ 68.

(2) نفسه 1/ 71.

من المتقدمين بأحسن منه ولا أغرب "[1] ، وعقب على الضرب الثالث بعد أن مثّل له بقوله " وهذا الشعر بيّن التكلف رديء الصنعة " . وهكذا يمضي ابن قتيبه في إطلاق أحكامه العامة دون التزام بمقاييس لغوية توقفنا على القدر المشترك في استجلاء جوانب الإبداع اللغوي في الشعر، كالبحث عن دلالة الكلمات، وعمّا إذا كانت منتهية إلى الحدود المعجمية، أم أنها تجتاز إلى الآفاق المجازية الرحبة، أو البحث عن الصيغ والأزمنة للكلمات المختارة، وعمّا إذا كانت مشتقة متحولة، أو جامدة ثابتة، ولم يبحث العلاقة بين الألفاظ في الجملة، وهل جاءت بطريقة تقليدية نمطية، أم أن فيها كسراً للنمط، وخروجاً على التقليد، ولم يشر إلى طريقة رصف الكلمات أو وضعها، بعضها إلى جوار بعض في النسيج الشعري، ولم نلمح عنده مقاييس نقد الأسلوب للمفردات، والتراكيب، والعبارة الشعرية ككل، كما لم تتضح عنده مقاييس نقد المعنى، ونلتمس العذر لابن قتيبة، لأن مقاييس النقد وأحكامه كانت في أطوار النشأة الأولى، ومهما يكن من أمر فإن ابن قتيبة يعد من اللغويين والنقّاد الأوائل الذين التزموا الحَيْدة تجاه النص الأدبي بغضّ النظر عن الملابسات والمؤثرات وآراء العلماء السابقين فالشاعر الجاهلي والمخضرم، والأموي والعباسي، في ميدان اللغة والأدب سواء، والشعر وحده هو مقياس تقدم الشاعر ونبوغه، وعلو منزلته في الشعر، دون النظر إلى من تقدّمه، أو تأخر عنه في الزمان، فأخص خصائص الناقد في نظره أن يقوّم الشعر والشعراء، ويستحسن أو يستهجن أدبهم وفقاً لما يُمْليه عليه ذوقه، وما يحتوي عليه النص من الخصائص الفنية، وأن ينظر إلى أشعارهم بعين العدل، ولذا أنحى باللائمة على النقاد الذين استجادوا الشعر السخيف لتقدم قائله، وذمّوا الشعر الرائع الرصين لتأخر قائله، أو معاصرته لهم . .[2]

ومن آرائه اللغوية النقدية القيمة، نظرته إلى تحقيق النص الشعري، بحيث تكون عبارة

(1) نفسه 1/ 72.

(2) الشعر والشعراء 1/ 68.

النص صحيحة سليمة، كما نطق بها الشاعر، وهذا يحتاج إلى ثقافة واسعة، ومعرفة كبيرة باللغة والنحو والصرف، وأسماء الشجر والأمكنة والمياه والبلدان، مع التأكد من صحة نسبة القصيدة إلى قائلها، وقال : " وكلٌّ علم محتاج إلى السماع، وأحوجه إلى ذلك علم الدّين، ثم الشعر، لما فيه من الألفاظ الغريبة، واللغات المختلفة، والكلام الوحشيّ، وأسماء الشجر والنبات والمواضع والمياه، فإنك لا تَفْصِلُ في شعر الهُذَلَيّين إذا لم تسمعه بين " شَابَةَ " و" سايَةَ " وهما موضعان .... وأشباه هذا ؛ لأنه لا يلحق بالذكاء والفطنة، كما يلحق مشتقُّ الغريب "[1].

ونبّه إلى ما يعتري ألفاظ الشعر من تصحيف، وأثر ذلك في تغيُّر المعنى، وانحراف دلالة الكلمة عن المراد الذي توخّاه الشاعر، ومثَّل لذلك بأخطاء الرواة أو بأخطاء النقلة الذين يأخذون من دفاتر الشعراء، ومن أمثلة النوع الأول قوله : " وقرئ يوماً على الأصمعي في شعر أبي ذؤيب :

بأَسْفَلَ ذات الدَّيْرِ أُفْرِد جحْشُها

فقال أعرابي حَضَرَ المجلس للقارئ : ضَلَّ ضلالكَ (أيها القارئ) إنما هي " ذاتُ الدَّبْرِ " وهي ثنيةٌ عندنا، فأخذ الأصمعي بذلك فيما بعد "[2] ومثّل للنوع الثاني بقوله : " ومَن ذا من الناس يأخذ من دفتر شعر المُعَذَّل بن عبد الله في وصف الفرس :

مِنَ السُّحِّ جَوَّالاً، كأن غُلامَهُ ... يُصَرِّفُ سِبْداً في العِنان عَمَرَّدَا[3]

إلا قرأه " سِيداً " يذهب إلى الذئب، والشعراء قد تشبه الفرس بالذئب، وليست الرواية المسموعة عنهم إلاّ " سِبْدا " . قال أبو عُبَيْدة:

(1) نفسه 1/ 88.

(2) نفسه 1/ 89.

(3) البيت في اللسان (عمرد)، وقال : " قوله من السح : يريد من الخيل التي تسح الجري، أي تصب، والعمرد الطويل " .

المصحّفون لهذا الحرف كثير، يروونه " سيداً " (أي ذئباً) . وإنّما هو " سِبْدٌ " بالباء المعجمة بواحدة، يقال "فلانُ سِبْدُ أسْبادٍ " أي داهيَةُ دواهٍ .

ومثَّل لهذا النوع من التصحيف بمثالٍ آخر، وقال :

وكذلك قول الآخر:

زَوْجُكِ يا ذاتَ الثَّنايا الغُرّ الرَّتِلاتِ والجبينِ الحُرّ [1]

يرويه المصحّفون والآخذون عن الدفاتر " الرَّبَلات " وما " الرَّبلاتُ " من الثنايا والجبين ؟ وهي أصول الفخذين، يقال : " رجل أرْبلُ " إذا كان عظيم الرَّبلتين، (أي عظيم الفخذين)، وإنما هي " الرَّتَلات " بالتاء، يقال ثَغْرٌ رَتَلٌ " إذا كان مُفَلَّجاً [2]"

فقد انطلق ابن قتيبة في تصويبه رواية البيت، وتصويبه ما اعترى بعض الألفاظ من تصحيف، من دراية عميقة بالشعر ورواياته، وخبرة عميقة بمعانيه ودلالة ألفاظه، ولم يرتض العبارة التي لا تتسق مع النص، وأدرك بحسه اللغوي السليم أن المعنى لا يستقيم حتى يقوِّم الخطأ في بنية الكلمة، لما لهذا التصحيف من أثر في تغير المعنى، وقد أمدَّته خبرته بمعاني الشعر بأداة قوية للوقوف على الأخطاء، وتحقيق صحة النص وصواب عباراته.

ومن آرائه النقدية القيمة إقراره بأن الشعر لفظ ومعنى، فهما عنصرا الأدب في نظره،ولكن ليس كل الشعر يختار ويحفظ على جودة اللفظ والمعنى، ولكنه قد يختار ويُحْفظ على أسباب، منها الإصابة في التشبيه، أو خفّة الرَّويّ، أو لأن قائله لم يقل غيره، أو لأن شعره قليل عزيز، أو لأنه غريبٌ في معناه، أو لنبل قائله، أو لأن الشعر شريف بنفسه وبصاحبه، ومثَّل لكل نوع بشواهد تدلُّ على حسن اختيار، وذوق رفيع، ودراية بمعاني

(1) وفي اللسان (رتل) : الرتل : حسن تناسق الشيء، وثغرٌ رَتَلٌ ورَتِلٌ : حسن التنضيد مستوي النبات .

(2) الشعر والشعراء 1 / 90 - 89 .

الشعر وألفاظه وصوره وموسيقاه [1] .

وتنبه بحسه اللغوي إلى التفرقة بين الشعر المطبوع والمتكلّف، ورأى أن المتكلف من الشعر، وإن كان جيداً مُحكماً، فليس به خفاء على ذوي العلم، لتبينهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكر، وشدة العناء، ورشح الجبين ، وكثرة الضرورات ، وحذف ما بالمعاني حاجة إليه، وزيادة ما بالمعاني غنىً عنه كقول الفرزدق في عُمَر بن هُبيْرة لبعض الخلفاء :

أوَلَّيْتَ العِراقَ ورافِدَيْهِ فَزارِيّاً أحَذَّ يدَ القَميصِ [2]

يريد أولَّيتها خفيف اليد، يعني في الخيانة، فاضطرته القافية إلى ذكر القميص [3] ، ورافديه : دِجْلة والفرات .

ومثّل ابن قتيبة للمتكلّف الذي يرد فيه من الضرورات بقول الفرزدق :

وعَضُّ زمانٍ يا ابْنَ مروانَ لم يَدَعْ مِنَ المالِ إلا مُسْحَتاً أو مُجَلَّفُ [4]

فرفع آخر البيت ضرورة، وأتعب أهل الإعراب في طلب العلة، فقالوا وأكثروا، ولم يأتوا فيه بشيء يُرْضى، ومَن ذا يخفى عليه من أهل النظر أن كل ما أتوا به من العلل احتيالٌ وتمويهٌ؟ وقد سأل بعضهم الفرزدق عن رفعه إيّاه فشتمه، وقال : عليّ أن أقول وعليكم أن تحتجوا [5] .

لقد فطن ابن قتيبة إلى تمحّل النحاة، ومحاولاتهم التماس العلل، للضرورة التي وردت

---

(1) نفسه 1/ 90 - 94.

(2) ديوانه / 487.، والشاعر يخاطب يزيد بن عبد الملك والبيت في اللسان (حذذ) .

(3) هذا التفسير يوافق تفسير الجوهري، قال في اللسان : (فقد قيل في الأحَذّ غير ما ذكره الجوهري، وهو أن الأحَذّ المقطوع، يريد أنه قصير اليد عن نيل المعالي ... ولا يجب لمن هذه صفته أن يولّى العراق) .

(4) ديوانه / 551- 569. واللسان (سحت) وقال : المُسْحَتْ : المُهْلَكْ، والمُجَلَّفِ : الذي بقيت منه بقية " .

(5) الشعر والشعراء 1/ 95.

في بيت الفرزدق، فردّها ولم يأخذ بها، وهذا يدلّ على معرفته العميقة بأسرار اللغة وعلومها وظواهرها، وانطلاقه في الحكم على الشعر من دراية عميقة بفقهها وألفاظها ومعانيها. ورأى أن التكلّف في الشعر يبين حين نرى البيت فيه مقروناً بغير جارِه، ومضموماً إلى غير لِفْقه [1].

ويرى أن المطبوع من الشعراء من سمح بالشعر، واقتدر على القوافي، وأراك في صدر بيته عَجُزَه، وفي فاتحته قافيته، وتبينت على شعره رونق الطبع وَوَشْي الغريزة. ويرى أن الشعراء أيضاً في الطبع مختلفون: منهم مَنْ يسهل عليه المديح، ويتعذر عليه الهجاء، ومنهم من تسهل عليه المراثي، ويتعذّر عليه الغزل، وأمثلة ذلك كثيرة، فهذا ذو الرُّمة، أحسن الناس تشبيهاً، وأجودهم تشبيباً، وأوصفهم لِرَمْلٍ وهاجرةٍ وفلاةٍ وماءٍ وقُرادٍ وحيَّةٍ، فإذا صار إلى المديح والهجاء، خانه الطبع، وذاك أخّره عن الفحول [2].

ونجد أن الحكم على شعر شاعر وتفضيله على شعر آخر، يخضع عند ابن قتيبة لعدة عوامل، منها مقدار الجيد في شعره وزيادته على الجيد في شعر غيره، وقال: "ولا أحسب أحداً من أهل التمييز والنظر، نظر بعين العدل وترك طريق التقليد، يستطيع أن يقدم أحداً من المتقدمين المُكثرين على أحد إلا بأن يرى الجيد في شعره أكثر من الجيد في شعر غيره [3]".

ومنها التأثر الوقتي، فيفضل الشاعر الذي يشغل شعره الذهن بطول القراءة، وقال: "ولله درُّ القائل: أشعر الناس مَنْ أنت في شعره حتى تفرغ منه [4]".

وتحدث ابن قتيبة في مقدمته عن عيوب الشعر، وهي عيوب متصلة بالصياغة، من

---

(1) نفسه 1/ 96.

(2) الشعر والشعراء 1/ 100.

(3) نفسه 1/ 87.

(4) نفسه 1/ 88.

حيث سلامة الأوزان، أو اعتدال القوافي وصحتها، وتواردها على رويّ واحد، أو هي عيوب متصلة بالإعراب، وتظهر فيما قد يلجأ إليه الشاعر من تسكين متحرك، أو تحريك ساكن، أو قصر ممدود، وعبّر عن رأيه في الضرورة التي يُضْطَرُّ فيها الشاعر إلى الخروج عن قواعد اللغة، منبّهاً على خطأ كبار علماء اللغة والنحو في الاحتجاج بأبيات غلطوا في روايتها، فصحّحها معتمداً على معرفته بالشعر وروايته، وقال : " وقد رأيت سيبويه يذكر بيتاً يحتجُّ به في نسَق الاسم المنصوب على المخفوض، على المعنى لا على اللفظ، وهو قول الشاعر [1] :

مُعَاوِيُ إنّنا بَشَرٌ فأسْجِحْ ... فلَسْنا بالجِبالِ ولا الحديدا

قال : كأنه أراد : لسنا الجبال ولا الحديدا، فردّ الحديد على المعنى قبل دخول الباء . وقد غلط الشاعر، لأنّ هذا الشعر كلّه مخفوض، وهذا البيت أولها . وبعده : قال الشاعر :

فَهَبْنا أُمّةً ذهبَتْ ضَياعاً ... يَزيد أميرُها وأبو يزيدِ

أكلتم أرضنا فجَرَدتموها ... فهَل من قائمٍ أو منْ حَصيدِ [2]

ويحتج أيضاً بقول الهُذَلي في كتابه، وهو قوله :

يَبيتُ على مَعَاريَ فاخراتٍ ... بهِنّ مُلَوَّبٌ كَدَمِ العِباطِ [3]

ويعقب ابن قتيب على البيت مشيراً إلى ما وقع فيه الشاعر من عيب في الإعراب دون ضرورة اضطرته إلى أن يترك صرف " مَعَارٍ " وبعد أن ينص على خطأ الشاعر، يذكر وجه الصواب الذي يصح به الوزن والإعراب، ويقول : " وليست ها هنا ضرورة فيحتاج الشاعر

---

(1) هو عقبة بن هبيرة الأسدي " شاعر جاهلي إسلامي " والبيت في الخزانة 2/260، مع أبيات مشروحة .

(2) جرَّدتموها : قشرتموها، كما يجرد اللحم من العظم، والبيتان في الخزانة 2/ 260.

(3) البيت للمتنخّل الهذلي، وهو في اللسان (عرا) .و" المعاري " جمع " معرى " وهي الفرش . و" الملوَّب " الذي أجري عليه الملاب وهو ضرب من الطيب . وشبهه في حمرته بدم العباط، وهي التي نحرت لغير علة . وروايته " أبيت على معاري واضحاتٍ " .

إلى أن يترك صرف " معار " ولو قال :

يَبيتُ على مَعارٍ فاخراتٍ . كان الشعر موزوناً، والإعراب صحيحاً .

وقد كان حسُّه اللغوي يهديه ليلتمس وجه الصواب . منطلقاً من درايته الكبيرة بالشعر ورواياته وألفاظه ومعانيه، وقد يذهب إلى مخالفة النحويين والرواة، ومثال ذلك ما ذهب إليه في قول امرىء القيس :

فاليَوْمَ أشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ إثماً من اللهِ ولا واغلِ (1)

وقال ولولا أن النحويين يذكرون هذا البيت، ويحتجّون به في تسكين المتحرك لاجتماع الحركات، وأنّ كثيراً من الرواة يروونه هكذا لظننته :

فاليوم أُسقى غير مُستحقبٍ

وقد يفسر ابن قتيبة معنى البيت، ثم يذكر وجه الإعراب، من ذلك قوله :

وقد يُضطر الشاعر فيسكّن ما كان ينبغي له أن يحركه كقول لبيد :

ترَّاكُ أمْكِنَةٍ إذا لم أرْضَها أو يعْتَلِقْ بَعْضَ النفوسِ حِمامُها (2)

يريد : أتركُ المكان الذي لا أرضاه إلى أن أموت، لا أزال أفعل ذلك . و " أَوْ " هاهنا بمنزلة " حتّى " .

وقد رأى ابن قتيبة أن الشاعر قد يُضطرُّ فيصرف غير المصروف، وعدّ من القبح ألاّ يصرف المصروف، كقول العبّاس بن مِرداسِ السُّلَمي :

وما كانَ بَدْرٌ ولا حابِسُ يفوقانِ مِرْداسَ في مَجْمَعِ (3)

---

(1) البيت من قصيدة في ديوانه / 155- 151 .

(2) البيت من معلقته، ينظر شرح التبريزي / 155 .

(3) الشعر والشعراء 1 / 104 .

وكان حقُ "مرداس" أن يصرف لكنَّ الشاعر منع صرفه، وهذا قبيح عند ابن قتيبة ورأى أن ترك الهمز من المهموز كثيرُ واسعُ، لا عيب فيه على الشاعر، والذي لا يجوز أن يَهمزَ غير المهموز.

فابن قتيبة يرى أن من الضرورات ما يصحّ التجاوز عنه، ومنها ما لا يغفر للشاعر إذا وقع فيه .

وهكذا تنتهي مقدمة الكتاب، وقد وضع فيها الأصول العامة للشعر والشعراء، وضمَّنها أصول النقد المعروفة، ومقاييس النقاد وأحكامهم، وأوضح فيها آراءه واجتهاده ومواجهته لعلماء عصره الذين درجوا على تحكيم المعايير الموروثة للشعر القديم في الشعر الجديد واتجاهاته وأساليبه.

وبعد المقدمة اضطلع ابن قتيبة في كتابه بالترجمة لستة ومائتين من الشعراء الجاهليين والمخضرمين، والأمويين والعباسيين . ولكنه لم يلتزم الترتيب الزمني الطبيعي، فبدأ بامرئ القيس، ثم أتبعه بزهير ابن أبي سُلْمَى، وذكر بعده من هم أقدم منه، كالحارث بين حلِّزة، وطرفة، وعمرو بن كلثوم . وترجم لجرير، والفرزدق والأخطل على هذا الترتيب . ومعلوم أن الأخطل أكبرهم سناً، وجعله هو الأخير، ونهج في ترجمته للشعراء منهجاً تاريخياً في الشق الأول من الترجمة، ذكر فيه اسم الشاعر، وأخباره وقبيلته، وعرض لأدبه ونقده في الشق الثاني، فذكر ما يستجاد من شعره، وما قاله العلماء فيه، فمثلاً حين ترجم لامرئ القيس ذكر وقائع حياته مع إيراد شواهد من شعره على تلك الوقائع، وانتهى إلى ذكر فضله في الشعر، وأقوال بعض الأئمة والعلماء فيه، فذكر قول عمر بن الخطاب فيه وأبي عبيدة، وابن الكلبي، وما قيل في سَبْقِهِ إلى كثير من المعاني واتباع الشعراء له فيها، كتشبيه الخيل بالعصا، وبكاء الديار، وأورد أمثلة من أبيات امرئ القيس، مع أبيات لشعراء آخرين قلدوه فيها واتبعوه في معانيها وصورها .

وسلك المنهج نفسه في تراجم الشعراء الآخرين، وكان يعرض إلى خصائصهم الشعرية

فيرى أن زهيراً كان يتألّه في شعره، وأن عديّ بن زيد كان بمنزلة سهيل في النجوم، يعارضها ولا يجري مجاريها، وأن العرب لا تروي شعره، لأن ألفاظه ليست نجدية، وأنه لم يكن يحسن نعت الخيل .

وشخصية ابن قتيبة في هذه التراجم غير واضحة، وضوحها في مقدمة الكتاب، وقد تناول الدكتور محمد مندور بالنقد منهج ابن قتيبة وقال فيه "فابن قتيبة لم يتناول النصوص، ولا الشعراء، بنقد فني تطبيقي، وإنما اكتفى بأن عرض في مقدمته لبعض المسائل العامة، يحاول أن يضع لها مبادئ؛ ثم أخذ في سرد سير بعض الشعراء وبعض أشعارهم على غير منهج واضح ولا مبدأ في التأليف"[1] .

ولا بد أن نشير إلى أن نقد الدكتور مندور انطلق من مقاييس النقد الحديث واتجاهاته وأساليبه، وهذا لا يجوز؛ لأن تقويم جهود ابن قتيبة في هذا الميدان ينبغي أن ينظر إليه في ضوء أصول النقد المعروفة في عصره، وعلى أساس من مقاييس النقاد وأحكامهم.

ولا شك أن كتاب " الشعر والشعراء " يعد خطوة متقدمة بالنسبة لكتب النقد التي أُلّفت في عصر ابن قتيبة، وقد بدا أثره واضحاً في كتب النقد التي جاءت بعده، من ذلك كتاب " عيارالشعر " لابن طباطبا (–322هـ)، و" كتاب الصناعتين " لأبي هلال العسكري (ت 395هـ) فقد سارا على نهجه في تقسيم الشعر إلى أربعة أضرب من حيث اللفظ والمعنى، وأن اللفظ والمعنى معاً هما عنصر الأدب في نظر ابن قتيبة، فاللفظ جسم وروحه المعنى .

جـ ـ كتاب الميسر والقداح :

تناول ابن قتيبة في هذا الكتاب مسألة " الميسر " التي أشار إليها كتاب الله في مواطن

---

(1) النقد ومناهجه عند العرب / 12 .

متعددة، ونص على تحريم الميسر في قوله : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ﴾ [1]، وقد انقطع الميسر بمجيء الإسلام، ويظل تاريخ القداح والميسر جزءاً من تاريخ العرب الاجتماعي قبل الإسلام، ومِثْلُ كتاب ابن قتيبة في هذا الموضوع مما يعين على فهم هذه المسألة، وفهم تلك المواطن التي أشارت إلى الميسر في كتاب الله عز وجلّ .

وقد نهج ابن قتيبة في تاليف كتابه منهجاً علمياً، وقال في مقدمته : " ولم أجد السبب إلى ما التمسته إلاّ جمع الأبيات في الميسر، وتدبُّرها، والاستدلال على كيفيَّته باعتبارها، ففعلت ذلك، وأودعت كتابي هذا منه ما أدى إليه النظر ودل عليه الاستخراج [2]".

فقد قصد ابن قتيبة إلى الشعر لتفسير جانب من جوانب الحياة الاجتماعية للعرب قبل الإسلام، مدركاً أن الشعر ديوان العرب، تنعكس على صفحته صور حياتهم، وأحوال معاشهم، وقد أجاب ابن قتيبة طلب من سأله ليكتب إليه كتاباً يوضح له الميسر، ويسهله عليه، لأن هذا الأمر لم يكتب فيه أحد من العلماء وقتئذ مقالاً شافياً، وتعد مصادره نادرة شحيحة،لأنه من أمور الجاهلية قطعه الله بالإسلام، وليس فيه إلاّ النَّبْذَ اليسير، مما قد يجيء في الشعر، وقال : " فإنك كتبت تعلمني تعلق قلبك بالميسر وكيفيَّته، والقداح وحُظوظها، والياسرين وأحوالهم، ومعرفة ما في الميسر من النفع الذي ذكره الله في القرآن، وأنك لم تجد فيه لأحد من علماء اللغة مقالاً كافياً، ولا قرأت فيه لمتقدم من السلف خبراً شافياً، وتسأل أن أكتب إليك كتاباً يوضحه لك، ويسهّله عليك، حتى كأنك للأمر حاضر، وبالقداح ياسر [3]".

بدأ ابن قتيبة كتابه بذكر الميسر، وفسّره تفسيراً لغوياً، والتمس سبب تسميته، وعضد

(1) البقرة / 219.

(2) الميسر والقداح / 27.

(3) نفسه / 26.

تفسيره بشواهد من شعر العرب، استشهد بها على الميسر الذي ذكره الله تعالى في كتابه وحرّمه وهو ضرب القداح عِلى أجزاء الجزور قماراً، وقال : الميسر الجزور نفسه . سمي ميسراً لأنه يجزّأ أجزاءً فكأنه موضع التجزئة، وكلّ شيء جزّأته فقد يسرته . والياسر الجازر؛ لأنه يجزّئ لحم الجزور، قال الشاعر :

ولم يَنزل بك واشـــيـــهم ومكرُهُم حـتى أشـاطوا بغـيبٍ لحم من يسـروا [1]

أشاطوا أحرقوا، ويسروا جزوراً، فيقول : أحرقوا لحمه بعد أن قطّعوه [2]"

وعضد تفسيره بشاهد آخر، وفسر الكلمات الغريبة التي وردت في الشواهد، واستشهد على صحتها بآيات من القرآن الكريم، فاتّسعت دائرة التفسير، وقلّب البيت على روايات متعددة، وأفاد من الظواهر اللغوية كالاشتقاق، وذكر جمع الكلمة المفردة، وردَّ الجمع إلى مفرد، مدركاً ما لعلاقة ذلك بوضوح المعنى وتحديده، وقال : وقال الآخر:

أقـــول لهم بالشّــعب إذ ييـــســـرونني ألـم تـيـــأســـوا أني ابنُ فـــارس زَهْدَم [3]

يروى ييسرونني ويأسرونني، فمن روى ييسرونني أراد يقتسمونني ويجعلونني أجزاء -أحسبه أراد فداءه؛ لأنهم إذا أخذوا فداء فقسموه، فكأنهم اقتسموا نفسه – ومن رواه يأسرونني جعله من الأسر . وقوله " ألم تيأسوا أني ابن فارس زهدم " أراد ألم تعلموا، قال الله عز وجل : ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ﴾[4] أي أفلم يعلم الذين آمنوا [5] .

---

(1) البيت في اللسان (شيط) وقال : " أشاط الجزور إذا قطعها وقسم لحمها " .

(2) الميسر والقداح / 28.

(3) البيت في اللسان (زهدم) ، ونقل ابن بري أن قائل البيت هو جابر بن سحيم بن وثيل، وزهدم فرس سحيم .

(4) الرعد : 31.

(5) في تاج العروس (مادة يئس) : يئس أيضاً عَلِمَ في لغة النَخَع (بالتحريك اسم قبيلة باليمن) .

هذا الأصل في اليأس، ثم يقال للضاربين بالقداح المتقامرين على الجزور (ياسرون)، لأنهم أيضاً جازرون، إذ كانوا سبباً لذلك، وكان الجزور إنما يقع بضربهم، والجازر يفصّل اللحم لهم بأمرهم، وكل من يأمر بشيء ففُعل فهو الفاعل له ، وإن لم يتولّه بيده ولا أرى الرجل يسمى ياسراً إلا من هذا .

ويقال للضارب بالقداح أيضاً (يَسَر) والجمع أيسار . وقد يكون اليسر جمعاً لياسر، ثم يجمع اليسر، فيقال : أيسار جمع الجمع، كما يقال : حارس وحَرَس وأحراس [1] .

فقد ذكر ابن قتيبة الأصل اللغوي للكلمة، وفسَّر معناها، معلّلاً إطلاق الاسم على المسمى، مؤيداً رأيه بشواهد متعددة، مشيراً إلى الجموع السماعية لبعض الألفاظ ، للتفرقة بينها وبين ألفاظ أخرى ترد في الصيغة نفسها، ذاكراً الأشباه والنظائر، موضّحاً دلالة الصيغة من خلال مبناها، مبيناً دلالتها الأصلية الحسية، من ذلك قوله في باب الاستقسام بالأزلام : " والأزلام والقداح واحدها زُلَم وزَلَم، وهي الأقلام أيضاً، واحدها قلم، سمّيت بذلك لأنها تُقَلَّمُ أي تُقَرَّم؛ ولذلك سمي القلم الذي يكتب به قلماً، ومنه قلامة الظفْر .

ولها موضع آخر حرَّمه الله وهو الاستقسام بها . والاستقسام استفعال من القِسْم وهوالنصيب "[2] .

وفسّر ابن قتيبة جوانب من الحياة الاجتماعية عند العرب، وذكر ضربهم بالقداح عند إقدامهم على أمر ما، فقال : " كانوا إذا أرادوا الخروج إلى وجه ضربوا بالقداح، فإن خرج القدح الآمر نفذ الرجل لوجهه راجياً السلامة والصُّنْع، وإذا خرج القدح الناهي أمسك عن الخروج خائفاً النكبة والجائحة . وقد بيّن هذا الشاعرُ في قوله يمدح قوماً :

همُ المجيرون والمغبوطُ جارُهُم ... في الجاهلية إذ يُستأمَر الزَلَم

---

(1) الميسر والقداح / 29- 31.

(2) نفسه / 32.

والاستقسام بها أشبه شيءٍ بالقرعة التي أطلقها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعلها باباً من الحُكم .

وذكر ابن قتيبة عادة ضرب العرب بالقداح على السبي، واستشهد بقول الفرزدق وذكر نساءً سُبينَ :

خرجنَ حريرات وأبدين مِجْلداً   وجالت عليهنَّ المكتَّبةُ الصُّفْرُ (1)

" حريرات " أي محرورات، أي يَجدن حرارة المصيبة . و " المِجْلَد " شيء من أَدَم كان النساء يلتدمْنَ به . وجالت عليهن المكتَّبة الصفر " يعني القداحَ ضُربت عليهن في الاقتسام لهنّ . و " مكتَّبة " عليها أسماء أصحابها أو علامات لهم . و " الصّفر " يريد أنها من القِدَم قد اصفرّت أو أنها نبع وما أشبهه " .

كما صوّر تقامر العرب بالقداح على الإبل عند شدّة البرد وجَدْب الزمان وتعذُّر الأقوات على أهل الضُّرِّ والمسكنة، ثم يجعلون لحومها لذوي الحاجة منهم والفقراء، واستشهد بقول الأعشى يمدح قوماً :

المطعمو الضيفَ إذا ما شتوا   والجاعلو القُوت على الياسر (2)

أي يجعلون أقوات الفقراء منهم على الياسرين بالقداح، وهم أهل الثروة، وذوو الجِدَة، والأجوادُ .

وكانوا يَمدحون بأخذ القداح، ويَسبّون بتركها، ويسمون الموسر الذي لا يدخل معهم في الميسر، ولا يتحمل الغرم لصلاح أحوال الناس (البَرِم) . قال مُتَمِّم بن نُويرة يرثي أخاه مالكاً :

---

(1) البيت في اللسان (مادة حرر)، وروايته : " ودارت عليهن المقرّمة الصفر " والميسر والقداح ص / 35 .

(2) نقل ابن سيده في المخصص (13 : 20) عن أبي عبيد : والياسرون الذين يلون قسمة الجزور .. والياسر يعني الجازر .

ولا بَرِماً يُهدي النساء لعرسه إذا القِشْعُ من برد الشتاء تقعقعا [1]

وجمعه (أبرام) . وإذا كان الرجل بَرِماً – لا يدخل معهم في القداح – لم يدخل اللحم بيته إلاّ بأن يُهديَه نساء الحيّ إلى امرأته .

وقوله " القِشْع " وهو الجلد – ومن برد الشتاء تقعقعا – يَدُلُك على أن ذاك يكون في الشتاء عند جدب الزمان وضيق الأمر عليهم [2] .

والعرب في الجاهلية تمدحُ خفيف اليد بضرب القمار، الحاذق بالميسر . واستشهد ابن قتيبة على هذه العادة بقول عنترة بصف رجلاً :

رَبذٍ يداه بالقداح إذا شتا هتّاكِ غاياتِ التجار مُلَوَّمِ [3]

وفسَّر ابن قتيبة الألفاظ الغريبة في البيت تفسيراً لغوياً، ثم بين المعنى العام الذي أراده الشاعر وقال : " رَبذٍ " أي خفيف اليدين بضرب القداح . " إذا شتا " يقول : يفعل ذلك في الجَدْب .و" الغايات " الرايات . و" التجار " الخمارون، وكانوا ينصِبون رايات لهم لتعرف بها مواضعهم .

بقول : هذا الرجل يشتري ما عند الخّمار حتى يَقْلَع الخمَّار رايته، فكأنَّ هذا الرجل هتكها إذ كان بسببه هتكها " ملوَّم " يلام على الإنفاق [4] .

وتحدّث ابن قتيبة عن أسماء القداح المشهورة التي ذكرها العلماء، واستشهد عليها بأشعار الجاهليين، ولم يجد فيهم أحداً ألهَجَ من ابن مُقبِل ثم الطرمّاح بعده، وقد أبان في تفسير أبياتهما وغيرهما في القداح والميسر عن دقة نظرٍ، وسَعَة علم، وحسن استخراج،

---

(1) في الصحاح ورد منصوباً . وفي التاج (مادة قشع) : ولا برم .

(2) الميسر والقداح / 38

(3) هذا البيت من معلقة عنترة، وقال التبريزي في تفسيره : هو حاذق بالقمار والميسر، خفيف اليد بضرب القمار "

(4) الميسر والقداح / 42.

وذكر من أسماء القداح المَنيح، وأشار إلى أنَّ ابن مُقبل قد بيَّن في شعره أنَّ هذا القدح إنما سُمِّي منيحاً بالامتناح وهي الاستعارة .

قال يذكره :

إذا امتَنَحتـه من مَعَدٍّ عصابةٌ غدا ربُّه قبل المفيضين يقدحُ
مُفَدَّىً مُؤدّىً باليدين مُلَعَّنٌ خَليعُ لِحامٍ فائزٌ متمنَّحُ
خَروُجٌ من الغُمَّى إذا صُكَّ صكَّةً بدا والعيونُ المستكفَّةُ تلْمَحُ [1]

يشير إلى قدح كان لبني عامر بن صَعْصَعة لا يُجعل في القداح إلا خرج فائزاً أبداً .

قوله " إذا امتنحته من مَعَدّ عصابةٌ " يريد إذا استعار هذا القدح أحدٌ من صاحبه، فأدخله في جملة قداح الأيسار، فهو لثقته لفوزه وأمنه من خيبته، يقدح ناره ويهيء قدوره قبل الإفاضة به، وجعله مفدَّىً عند الفوز وملَعَّناً عند الخيبة. و" لِحام جمع لحم " . يريد أنه يختلع القسم من هذا فيجعله لهذا [2]"

ويستقصي ابن قتيبة أسماء القداح وصفاتها، ويستشهد عليها بما ورد في أشعار العرب، ويفسر ما ورد في الشواهد من ألفاظ غريبة تفسيراً لغوياً ينم عن دراية كبيرة بمعاني الشعر وشرح غريبه، من ذلك قوله : وإذا رأيت المنيح يوصف بالكرِّ والعطف، فإنما يعني بذلك المنيح الذي لا حظَّ له، لأنه يعاد في كل رماية يضرب بها، ولا يخلو منه ومن صاحبه. فيقال "كرَّ كرَّ المنيح، وعَطَف عَطْف المنيح " .

قال الأخطل يذكر الخيل :

---

(1) قال الزبيدي في تاج العروس " الغمّى " من شدائد الدهر، و" صك صكة " دفع دفعة، و" المستكفة " من قولهم استكف القوم حول الشيء أي أحاطوا به ينظرون إليه .

(2) الميسر والقداح / 54 - 52.

ولقـــد عَطَفْنَ على فَـــزارةَ عَطْفـــةً كـــرَّ المَنيح وجُلْنَ ثَمَّ مَـــجـــالا (1)

وقال الكُمَيْت :

أقـــول لـكم هـذا وفـي الـنـفـس خُـطَّـةٌ أطيـلُ بهـا - كـرَّ المنيح - جـدالهـا (2)

أراد : أطيل بهذه الخُطة جدال النفس وأكرر ذلك كما يكرُّ المنيح . . . . "

وقال أيضاً : " وإذا رأيت المنيح يضرب به المثل في الغربة، فإنما يراد المستعار؛ لأنَّه يدخل في قداح قوم ليس منها فيشبَّه بالغريب في القوم . قال الكُميت لقُضاعة في تحولها إلى اليمن، وادِّعائها إليها – وهي من نزار في قول بعضهم :

فَـمَـهـلاً يا قُـضـاعُ، فـلا تكوني مـنِيـحـاً في قِـداح يَدَيْ مُـجـيل (3)

يريد : لا تكوني هناك غريبة كهذا المنيح في هذه القداح، ولكن ارجعي إلى نسبك في نزار .

وإذا كان القدح مستعاراً فهو " شَجِير " والشجير الغريب، وقال المُنَخَّل اليشكُريُّ :

وإذا الـرِّيـاح تـكـمَّـشـتْ بجـوانب البـيـت القـصـيـر

ألـفـيـتـني هـشَّ الـنـدى بشـريـج قـدحي أو شـجـيـري (4)

" تكمشت " : رفعت جوانب البيت . ويروى " بجوانب البيت الكسير " أي ذي

---

(1) البيت في ديوانه : 1/113، وفي المعاني الكبير 3/1156، والميسر والقداح / 54 .

(2) الميسر والقداح /54.، وفي المعاني الكبير 3/ 1156 .

(3) ورد البيت في تاج العروس في مادة (منح) بلفظ " يا قصاع " بالصاد المهملة، وفي اللسان (منح) بلفظ (ياقُضَاعُ) .

(4) في اللسان (شرج) : الشريج العود يشق منه قوسان، فكل واحد منهما شريج وقيل الشريج : القوس المنشقة وجمعها شرائج .

الكِسْر [1] و" الشريج " أن تشقّ الخشبة نصفين فيكون أحد الشقين شريج الآخر . و"الشجير " الغريب، يقال "نزل شجيراً في بني فلان " أي غريباً، يقول : ألفيتني في هذا الوقت من الشتاء أضرب بقدحي، وأستعير قدحاً أضرب به في الميسر [2]" .

ويذكر ابن قتيبة حظوط القداح وعلاماتها، ويستشهد عليها بما ورد في أشعار العرب، ويفسر ما ورد في الشواهد من ألفاظ، ويشرح معانيها، من ذلك ما قاله الطِّرِمّاح في صفة القدح :

مُوعَبُ لِيطِ القَرا بِهِ قُوَبٌ ... سودٌ قليل اللَّحاء مُنجرِدُهْ [3]

" موعب ليط القرا " أي قد أوعب قشره، يريد استُقصي أخذ قشره عنه [4]" . به قُوَبُ أي آثار، وجعلها سوداً، لأنَّها تأثير النارفيها . . . [5] .

ويستشهد بما قاله ابن مقبل، وهو يذكر قداحاً :

جَلَتْ صَنِفاتُ الرَّيطِ عنه قَوابه ... وأخْلَصْنَه مما يُصانُ ويُمْسَح

" الصنفات " حواشي الثياب واحدتها صَنِفة، أراد أنه مُسِح بالثياب حتى انجلت عنه الآثار [6] .

---

(1) كسر البيت (بكسر الكاف وفتحها): جانبه . وقيل ما انحدر من جانبيه عن الطريقين . ولكل بيت كسران عن يمين وشمال .

(2) الميسر والقداح / 54 - 59.

(3) أوعب واستوعب : بمعنى استقصى واستأصل . والليط : قال الأزهري " ليطُ العود " قشره الذي تحت القشر الأعلى . والقرا : الظهر .

(4) ينظر اللسان : (ليط) .

(5) الميسر والقداح /62، 63.

(6) ينظر الصحاح (مادة صنف) وتاج العروس (صنف) وجاء فيه : صَنِفَةُ الإزار (بكسر النون) طُرَّتُهُ وحاشيته . والريط جمع ريطة وهي كل ملاءة غير ذات لِفْقَيْن، وقيل كل ثوب دقيق ليِّن . واللسان (صنف) و(ريط) .

ويذكر صفات القداح وهيئتها ويقول : " إني تدبرت ما جاء في الشعر القديم في هيئات القداح وكيفيتها، فوجدتهم يصفونها بالتشابه في المقادير، وليس يجوز أن تكون إلاّ كذلك، لأنها إذا اختلفت أمكنتِ الضاربَ الحيلةُ فيها [1]".

ويستشهد على صفاتها بما ورد في شعر الشعراء الذين يحتج بأقوالهم، ويفسر ألفاظها ويشرح معانيها ، ويعلل سبب تسميتها، من ذلك استشهاده بقول لبيد على وصف القداح بالتشابه في المقادير :

وجَزورِ أيسارٍ دعوتُ لفتيةٍ ... بمَغالقٍ متشابهٍ أجسامُها [2]

فيقول :

فهي تتشابه في أقدار الأجسام ، وإنما تختلف بالعلامات والوسوم .

وتسميتهم لها بالقداح والسهام دليل على أنها كالنّبْل؛ لأنّ النبل هي القداحُ والسهام. وتسميتهم لها بالحظاء دليلُ على أنها كصغار النبل؛ لأنّ الحِظاء نبل صغار، ترمي بها الصبيان، واحدها حَظْوَة [3] .

لهذا استقصى ابن قتيبة أسماء القداح المتعدّدة، وأوعب ما قيل فيها، وعضد ما ذهب إليه، بإيراد الحجج، وفسّر ما جاء في الشواهد من ألفاظ غريبة، بشواهد أخرى فاتسعت دائرة التفسير لديه، وقَدَّمَ بذلك خدمة للعربية، فحفظ ألفاظاً وشواهد كان يخشى عليها من النسيان والاندثار والضياع، لغرابتها، وقلة استعمالها، ولأن المواضع التي وردت فيها،

---

(1) الميسر والقداح / 68.

(2) البيت من معلقة لبيد بن ربيعة، ينظر شرح المعلّقات للخطيب التبريزي ص /164، وفي تاج العروس مادة (غلق) قال " والمغالق من نعوت القداح التي يكون لها الفوز، وليست من أسمائها " والبيت في اللسان (غلق) وروايته :

وجزُورِ أيسارٍ دَعوْتُ لحَتْفِها ... بمغالقٍ متشابهٍ أجرامُها

(3) الميسر والقداح / 69.

والتي تمثل جوانب من الحياة الاجتماعية عند العرب في الجاهلية، جبّها الإسلام، وانقطعت بمجيئه، فكان لابن قتيبة فضل جمعها وتدوينها وتفسيرها، والاستدلال عليها بما ورد في كتاب الله، وكلام العرب منظومه ومنثوره، وقد استشهد على سبيل المثال بتسمية القداح والسهام بالحِظاء بما قاله ابن مقبل، وفسّر معنى الكلمة، وبين المراد من الشواهد، وقال :

قال ابن مقبل يصف القداح ؛

فشَذَّبَ عنه النَّبْلَ ثم غدا به مُحَلًّى من اللائي يُفَدَّينَ مِطْحَرا (1)

تحنُّ حِظاءُ النَّبع تحت حنينه إذا سَبَحَت أيدي المفيضين صَدَّرا (2)

وعقب ابن قتيبة على ما قاله ابن مقبل قائلاً :

" قوله " مِطْحَرَ " يريد أنه يطحر عنه القداحَ أي ينفيها ويدفعها وينفرد . و" الحِظاء " القداح التي شبهها بحِظاء الغلمان التي يرمون بها (3)" .

واستوعب صفاتها، وما قيل في نعتها بالاصفرار والاعوجاج والأود والاستدارة والاستواء، والحنين والرّنين وغير ذلك، مستشهداً على كل صفة من صفات القدح بأكثر من شاهد، مفسّراً ألفاظه الغريبة، مبيّناً المعنى المراد، مستدلاً عليه من الشعر نفسه، كقوله :

" ووجدت الشعر يدل على أن القدح منها مدوّر أملس كالسهم " . قال ابن مقبل :

صَريعٌ دَوِيرٌ مَسُّه مَسُّ بَيضةٍ إذا سنَحَت أيدي المُفيضين يبرَح

وعقّب ابن قتيبة على الشاهد وقال :

---

(1) البيت في التاج (مادة طحر)، والطَّحْرُ : الدفع والإبعاد والتمدد، والمِطحر- بكسر الميم - السهم البعيد الذهاب، وفي اللسان (طحر) .

(2) الحظوة بالتثليث، كما في التاج، وهو سهم صغير قدر ذراع يلعب به الصبيان، ويتعلمون به الرمي .

(3) الميسر والقداح / 70.

" فقوله " دَوِيرٌ " يدلُّ على الاستدارة ؛ لأنّه إذ فُتِل استدار، كما يستدير المغْزَل، وإذا كان مربَّعاً أو ذا حروف وجوانب لم يستدر . وقوله " مسُّه مسُّ بيضةٍ " يدلُّ على الملامسة والاستواء أيضاً . وقوله " صريع " يدلُّ على أنَّ عوده أخذ ساقطاً عن شجرته يابساً ولم يقطع، وذلك أجود له وأسرع لبريه، لأنه إذا أُخِذَ رطباً احتاجوا إلى أن يُمظِّعوه . والتمظيع [1] أن يشرب ماء اللحاء .

وعضد تفسيره بشاهد آخر، وقال :

وقال أيضاً في مثل ذلك :

وأزجُر فيها قبلَ تمِّ ضَحَائها صريعَ القِداح والمنيحَ المجبَّرا [2]

ويفسر ما بدا له في الشاهد من ألفاظ غريبة وقال :

والمجبَّر" الذي انكسر فجُبِر وشُدَّ بالعقب. وهذا يدلك على جودته ونفاستهم به، لأنهم لايجبرون عوداً لطيفاً إلا والخَلف منه عسير [3]"

ونرى ابن قتيبة يقلّب الشّاهد على وجوهٍ متعددة، ويستشهد به في مواضع مختلفة ويشرح بعض الألفاظ في موضع، ويشرح بعضها في موضع آخر، مفسراً المراد حتى يتسّق معنى النص، ويذكر أقوال علماء اللغة، وتفسيراتهم، ويأخذ ما يراه ملائماً، ويردُّ ما يراه مخالفاً، ويفتي برأيه مؤكداً شخصيته العلمية المستقلة، وقدرته على الخوض في مسائل اللغة، والتصرف بألفاظها ومعانيها، وتقليب العبارات على وجوهٍ متعددة، ليقف على

(1) في القاموس : التمظيع : التمصيع، وهو أن يترك على القضيب قشره حتى يجف عليه لِيطُه . و" الليط " الجلد .

(2) الضّحاء : الغَداءُ . يقول : إني أعمد إلى الجزور قبل أن تنتهي من غدائها فأزجر فيها القدح الصريع والمنيحِ المجبَّر. ينظر اللسان . (مَنَح) وفيه : " المَنِيحُ " : " القِدْحُ المستعار، وقيل : هو الثامن من قداح الميسر واللسان (ضحا)

(3) الميسر والقداح / 79

المعنى الملائم، وقد خالف علماء اللغة في تفسير كلمة " الربابة " وقال : " وقد يقال لجماعة القداح أيضاً " ربابة " . قالِ أبو ذؤيب [(1)] يذكر الحمار والأتن :

وكــــــأنهـنَّ رَبَابـةٌ، وكـــــــأنَّـه   يَسَـــرٌ يُفـيـض على القِـداحِ، ويَصْـدَعُ [(2)]

يقول : هذا الحمار قد جمع هذه الأتن كما يجمع اليَسَر القداحَ . ويصدع أي يفرّقها تارة ويجمعها تارة . و" على القداح " في المعنى، بالقداح . ويعقّب ابن قتيبة على قول علماء اللغة ويقول : " هذا قول علمائنا . ولست أراه بيِّناً ولا فيه ما دلَّ على تلك الربابة، وكيف هي، ولا على الإفاضة وكيف تكون . وقد تدبرت ذلك في الشعر، واعتبرت بعضه ببعض، فوجدت الربابة كالخريطة واسعة، تستدير فيها القداح وتستعرض، ولها مخرجٌ ضيِّق يضيق على أن يخرج منه قِدْحان أو ثلاثة، والقداح فيها كفصوص النرْد الطوال، غير أنها مستديرة فتجعل القداح في تلك الخريطة .... " [(3)].

ويعضد ابن قتيبة تفسيره بشواهد من الشعر، ويفسّر ما جاء فيها من ألفاظ غريبة، مظهراً درايته بغريب اللغة، ومعرفته بمعاني الشعر القديم، وفك المستغلق من ألفاظه، ملتزماً إشباع التفسير، من ذلك استشهاده على معنى " الربابة " بعدة شواهد من الشعر، ساقها ليدعم تفسيره وقال : " فإذا قعد الرقيب وراءه (وراء الضارب) بعد شدٌ عينيه، وشدٌ الربابة على يديه، قيل له " جَلْجِلْ [(4)] " فيجلجل بالقداح في تلك الخريطة مرَّتين أو ثلاثاً . قال أوس بن حجر، وذكر خيلاً تدفع للغارة :

---

(1) واسمه خويلد بن خالد الهذلي .

(2) البيت من قصيدة أبي ذؤيب، وهي خاتمة مختارات المفضل الضبي، وأول قصائد المراثي في جمهرة أشعار العرب لأبي الخطاب القرشي، وقد قالها أبو ذؤيب وقد فُقد له ثمانية بنين، ومطلعها :

أمن المنون وريبـــه تتـــوجّع   والدّهر ليس بمُعْتِبٍ من يجـزع

(3) الميسر والقداح / 102 .

(4) في تاج العروس : والجلجلة التحريك، يقال جلجلته إذا حركته بيدك فتجلجل . (جلجل) .

فـجلجلها طورين ثم أجـالها ... كـمـا أُرسلت مـخـشـوبـةٌ لم تُقـوَّم [1]

المخشوبة : قداح لم تليَّن من العجلة . ويروى " لم تقرَّم " أي لم تعلَّم بعلامة، والقرم الوسم .... فإذا جلجلَ القداح في الخريطة مرَّة أو مرتين أو ثلاثاً اختلط بعضها ببعض، واستدار بعضها في الخريطة، واعترض بعضها، وبقي بعضها على حاله، واستدللتُ على سعة الخريطة بالجلجلة؛ لأن الجلجلة إنما تكون في شيء واسع كالجُلجُل فيه الحصيات، وبأنَّ القداح تستدير فيها، وليست تستدير إلاّ في وعاء واسع ... "[2] . ويفسر معنى "الإفاضة" تفسيراً لغوياً، ذاكراً الأشباه والنظائر، ويقول : " الإفاضة بالقداح هو أن تدفعها دفعة واحدة قدَّام، ليخرج منها قِدْحٌ . وكذلك الإفاضة من عَرَفات؛ إنما هي الدَّفع منها إلى جَمْع [3] . فإذا دفع بها بَدَر من مخرج ذلك الضيق قِدْح واحد ويقوم الرَّقيب فيأخذه، وينظر إليه، فإن كان من الثلاثة الأغفال التي لا حظوظ لها ردّه إلى الربابة، وقال للحُرْضة [4] : أعد الجلجلة والإفاضة ... "[5] .

لقد عرض ابن قتيبة للميسر والقداح عند العرب، وأطلّ على جانب من جوانب الحياة الاجتماعية للعرب في الجاهلية، وقد أودع كتابه تفسيراً لشعر العرب فيهما، واحتجن مجموعة من المواد اللغوية المهمة، والمفردات الغريبة، فجاء كتاب لغة، وأدب، ويعدّ من المصادر النادرة، لأنه لم يصل إلينا سواه من مؤلفات هذا الفن . .

(1) البيت في تاج العروس، وقال الزبيدي بعد أن استشهد بالبيت : ومنه جلجل الياسر القداح إذا حركها .

(2) الميسر والقداح / 105 .

(3) المراد هنا المزدلفة، سميت جمعاً لاجتماع الناس فيها ليلة الإفاضة من عرفات، ثم يستأنفون السير صباحاً إلى منى .

(4) الحُرْضة " : رجل يُحْضِره الياسرون ليضرب بالقداح بينهم، وهو رجل ساقط؛ لأنه لم يأكل لحماً قطُّ بثمن، إنّما مأكله عند الناس وفي المآدب . ينظر الميسر والقداح / 98 - 99.

(5) الميسر والقداح / 109 .

د - كتاب المعاني الكبير في أبيات المعاني :

تمهيد :

لقد سبق ابن قتيبة إلى التأليف في كتب " أبيات المعاني " عدد من العلماء، وضعوا عدّة مؤلفات في هذا الفن، منهم أبو ثروان العكلي (أستاذ الخليل ت 175هـ[1])، والمفضّل الضبي (ت 170هـ[2])، ومؤرّج السدوسي (ت 195هـ[3])، والنضر بن شميل (ت 204هـ[4])، وأبو محمد عبد الله بن يحيى بن كناسة (ت 207هـ[5])، وأبو الحسن سعد بن مسعدة (ت 221هـ[6])، والأصمعي (ت 213 هـ)، وله ثلاثة كتب : معاني الشعر، والقصائد الست، والأراجيز[7]، وأبوعبيد القاسم بن سلاّم (ت 224 هـ)، وأحمد بن حاتم روى عن الأصمعي ويكنى أبا نصر (ت 231 هـ)، وله كتاب أبيات المعاني[8]، وأبو عبد الله محمد بن زياد الأعرابي (231 هـ[9])، وأبو العميثل الأعرابي عبد الله بن خليد مولى جعفر بن سليمان (ت 240 هـ[10])، وابن السكيت يعقوب بن السكيت (ت 246 هـ) وله كتابان : كتاب معاني الشعر الكبير، وكتاب معاني الشعر الصغير[11]،

---

(1) الفهرست / 75.

(2) نفسه / 108.

(3) نفسه / 77.

(4) نفسه / 83.

(5) نفسه / 111.

(6) نفسه / 84.

(7) نفسه / 88.

(8) نفسه 112.

(9) نفسه 89.

(10) نفسه 109.

(11) نفسه / 79.

وعلي بن محمد بن عبدوس الكوفي نحوي (ت 245 هـ)، وله كتاب معاني الشعر [1]، وأبو محمد عبد الرحمن ابن أخ الأصمعي (ـ 250 تقريباً)، وله كتاب معاني الشعر [2]، وأبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، ولم يفلت من قبضة الضياع سوى كتاب ابن قتيبة من تلك المؤلفات، وكتاب آخر لمؤلف معاصر لابن قتيبة وتوفي بعده هو أبو عثمان الأشنانداني (ت 288 هـ) [3].

ويعكس كتاب " المعاني الكبير " جهود ابن قتيبة اللغوية في تفسير الشعر العربي القديم، ونقده، وبسط ما فيه من مادة لغوية ثريّة، كما احتجن الكتاب مواد أدبية ونحوية وبلاغية ونقدية وتاريخية ومعارف شتّى، سخّرها ابن قتيبة لتفسير الأبيات الملغزة الغريبة المعاني المتأبيّة على أفهام أكثر الناس بسبب غرابة أسلوبها وبُعْد مأخذها، وقد قال السيوطي: " وأبيات لم تقصد العرب الإلغاز بها؛ وإنما قالتها فصادف أن تكون ألغازاً، وهي نوعان : فإنها تارة يقع الإلغاز بها من حيث معانيها، وأكثر أبيات المعاني من هذا النوع، وقد ألف ابن قتيبة في هذا النوع مجلداً حسناً، وكذلك ألفً غيره، وإنما سمّوا هذا النوع " أبيات المعاني " ؛ لأنها تحتاج إلى أن يسأل عن معانيها ... "[4].

وقد حاول ابن قتيبة أن يجمع في كتابه معظم أبيات المعاني ، ولم يسق الأشعار التي أراد تفسيرها مفرّقة كيفما اتفق، بل رتّب وبوّب وهَذّب فقسم الكتاب إلى اثني عشر كتاباً بحسب موضوعاتها أولاً، ثم قسم كل كتاب إلى أبواب رتبها بحسب معانيها التي تأتلف في موضوع كل كتاب ثانياً، وقد ذكرها ابن النديم في الفهرست على النحو التالي[5] :

---

(1) نفسه / 123.

(2) نفسه / 133- 143.

(3) نفسه / 89. وكتابه " معاني الشّعر" نشر في دمشق سنة 1922م .

(4) المزهر 1/ 275.

(5) الفهرست / 115.

- 1 كتاب الفرس، ستة وأربعون باباً.

- 2 كتاب الإبل، ستة عشر باباً .

- 3 كتاب الحرب، عشرة أبواب .

- 4 كتاب القدور، عشرون باباً .

- 5 كتاب الديار، عشرة أبواب .

- 6 كتاب الرياح، واحد وثلاثون باباً .

- 7 كتاب السباع والوحوش، سبعة عشر باباً .

- 8 كتاب الهوام، أربعة عشر باباً .

- 9 كتاب الأيمان والدواهي، سبعة أبواب .

-10 كتاب النساء والغزل، باب واحد .

-11 كتاب الشيب والكبر، ثمانية أبواب .

-12 تصحيف العلماء، باب واحد .

وهذه الكتب والأبواب التي ذكرها ابن النديم، لم تصل إلينا كاملة، والكتاب المطبوع لا توجد فيه إلاّ خمسة كتب هي : كتاب الإبل، كتاب الديار، كتاب النساء والغزل، كتاب تصحيف العلماء، كما أنّ أبواب الكتب الأخرى تختلف عمّا ذكره ابن النديم .

وقد جعل ابن قتيبة وكده أن يجمع غالب أبيات المعاني في كل كتاب، وحرّر أبيات كتابه من سمة الفوضى والاستطراد، وامتاز بخصيصة الترتيب والتنسيق من حيث تقسيم الكتاب على الكتب، وتقسيم الكتب على الأبواب، فقد خصّص الكتاب الأول وجعله في موضوع الخيل، ثم رتّبه على أبواب، بدأها بمقدمة تناول فيها وصف ألوان الخيل، ثم ذكر الأبواب : العرق، اضطرام العَدْو وحفيفه، في وثبها، في لحوق الخيل بالصيد، الميل في أحد الشقين، جريها ومشيها، ما يُشَبَّه به مشيها وجريها، التشبيه بالعقاب، التشبيه بالبازي... إلخ

ونراه يتحرّى حسن التخلص من باب إلى باب مع مراعاة المناسبة، ويجمع بين النظائر ويضم الشيء إلى مثله، والشكل إلى شكله، وبذلك يتهيأ للمطالع الإحاطة بكل موضوع في مكان واحد، ويتسنى للمراجع أن يظفر ببغيته في موضع معين ....

ومن أثمن ما في الكتاب جمع الأشعار الغريبة البديعة في صفات الوحوش والطير والهوام والحشرات كالأشعار في الذئب، والأشعار في القطا، والأشعار في الحيَّة، والأشعار في النحل ....

ولم يقتصر ابن قتيبة على ذكر العويص من الشعر بل أتى بما يقرب منه، وما يتصل به، وما يناسبه في معناه، وحفظ لنا الكتاب طائفة غير قليلة من الأشعار التي طالتها يد الزمن، ولا توجد في الكتب الأخرى، كما حفظ لنا طائفة أخرى من الأشعار موجودة في الكتب الأخرى، لكنها غير مفسرة فيها، وهي في كتاب ابن قتيبة مفسّرة تفسيراً واضحاً، وعامة الألفاظ اللغوية المفسَّرة فيه، إنما هي واردة في الأشعار التي يفسرها، وفي ذلك أعظم فائدة، لتحقيق ضبط الكلمة ومعناها وموضع استعمالها [1] .

وسلك ابن قتيبة منهجاً متميزاً في كتابه، فقد عقد الباب للشعر المتضمن لمعاني ذلك الباب، وتناول ما ورد في الأبيات من ألفاظ تعهّدها بالتفسير والشرح والتمثيل، معتمداً على الشعر لتدوين معاني اللغة، وقد عدَّ بعض الباحثين هذا الكتاب من معجمات المعاني الضخمة [2] ، لأن ابن قتيبة قد انصرفت عنايته إلى المعاني أكثر من الألفاظ، منبهاً إلى أهمية السياق اللغوي في تحديد معاني الألفاظ، كما أنه أراد أن يحصر الألفاظ معجمه بالشعر، للدلالة على صحة ورودها في اللغة، ويقوم هذا الشعر مقام الاستشهاد على الألفاظ، وليس في كتابه لفظة أصيلة في بابها المعقود لها لم ترد في الشعر، إلاّ ما استطرد إليه أثناء شروحه بعض الألفاظ، ممّا لا يتصل بموضوع الباب الذي هو فيه . وهو أسلوب يخالف منهج

---

(1)المعاني الكبير : المقدمة .

(2) الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، للدكتور محمد حسين آل ياسين / 308.

أصحاب معاجم المعاني، فهو وإن اتفق معهم في جمع المادّة تحت عنوان معين، لكنهم اعتمدوا اللفظة أساساً، ثم استشهدوا على توثيقها بالشعر، أمّا ابن قتيبة فقد جعل الشعر أساساً في الجمع، ثم تناول الألفاظ بالتفسير والشرح، من ذلك ما ذكره في كتاب الخيل باب " في لحوق الخيل بالصيد " .

قال امرؤ القيس :

وَقَدْ أغْتَدي والطَّير في وُكُناتِها بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأوابِدِ هَيكلِ[1]

الوكنة : الوكر، وهو موضع العش، وأمّا الوكن بالنون فالعود الذي يثبت عليه الطائر، منجرد : قصير الشعر، وطول الشعر هجنة، ويقال : منجرد ماض غير وانٍ، كما يقال . انجردْ في حاجتِك، قَيد الأوابد : يقول : إذا أرسل على الأوابد، وهي الوحش فكأنها في قيد، وقال الأسود بن يعفر :

بمقلَّصٍ عَتَدٍ جَهيزٍ شدُّه قَيْدِ الأوابدِ والرِّهانِ جَوادِ[2]

الأصمعي : المقلَّص . المشرف الطويل القوائم، والعَتَدُ الذي هو عدَّة للجري : يقال : فرس عَتَد وعتِد، جهيز شدّه أي سريع شدُّه، ومنه قيل : أجهز على الرجل، إذا كان بآخر رمق فقتله، وقال أبو عبيدة : المنجرد الذي لا يتعلق به فرس، والمقلِّص : الطويل القوائم المرتفع عن الأرض، الخفيف الوثب .

أبو عبيدة : يقال قَيد الأوابد وقيد الرهان، وهو الذي كأنّ طريدته في قيدٍ إذا طلبها . قال : وأول من قيدها امرؤ القيس . وقال ابن أحمر يصف فرساً.

بِمُقَلِّصٍ دَرَكِ الطَّريدَةِ مَتْنُهُ كصَفا الخليقةِ بالفضاءِ المُلْبِدِ[3]

---

(1) البيت في ديوانه /51، والوكنات : بفتح الواو والكاف وبضمهما وبكسرهما .

(2) البيت في المفضليات /456، وروايته بِمُشمِرٍ . عَتَدٍ . . .

(3) البيت في اللسان (خلق)، وعمدة ابن رشيق (5 / 78) .

دَرْكُ الطريدة : أي هو إدراك الطريدة . ويقال : مالَكَ في هذا دَرَكٌ أي إدراكَ، يقول فهو درك الطريدة، كما قال الآخر قيد الأوابد، والخليقة : الملساء، مثل الخلقاء، والمخلّقة، يقال : خلقت الشعر إذا ليَّنْتَه وملَّسته، يريد أنه ليِّن أملس كهذا الصفا، والفضاء المتَّسع من الأرض، والمُلْبِد الخاشع، يريد كصفا في مستوى من الأرض . وقال عَديٌّ بن زيد :

مُشْرِفُ الهادي له غُسَنٌ يُوثِقُ العِلْجَيْن إحضاراً [1]

العلجان : حماران غليظان، والغُسَن : شعر الناصية، الواحدة غُسنَةُ، ويروى يُغْرِقُ العلجين إحضاراً، أي يجيء الفرس بجريٍ يغمر جريهما .... [2]"

وهكذا يسير بالباب من الإنشاد والشرح والتفسير، حتى يستوفي المعاني مستشهداً عليها بشواهد متعددة، ويستقصي المعاني الجزئية في الباب الواحد، ويشرح معاني المفردات الغريبة من السياق اللغوي، مؤيداً تفسيره بأقوال أئمة اللغة الذين يستند إلى آرائهم في اللغة والغريب، ويقلّب العبارة على وجوه متعددة حتى يتسق معناها في النص، ملتزماً إشباع التفسير، وفك المستغلق من الألفاظ. وجاء في كتاب الذباب باب " الأبيات في الجرذان والفأر " .

قال أوس بن حجر :

لَحَيْنَهُم لَحْيَ العصَا فَطَرَدْنَهُمْ إلى سَنَةٍ جِرْذانُها لم تَحلَّم [3]

لم تحلَّم : لم تَسمن، لأنها في سنة جدب، ويقال تحلَّم الصبي إذا سمن واشتدَّ، وتحلّمت الشاة وتملّحت، يقول : لم تسمن جرذانها فكيف ما سواها، واللحيُ : القشر .

---

(1) البيت في اللسان والتاج (غسن)، وروايته في اللسان : " يُعْرِقُ " بالعين المُهْمَلة . وفي التهذيب : بالغين المعجمة " يُغْرِقُ " .

(2) المعاني الكبير 1/ 25.

(3) الحيوان 5/79، والمعاني 2/ 656. وديوانه / 119. ولحينهم لحي العصا : قشرنَهم كما يقشر لحاء العصا . وفي اللسان " قِردانُها "

وقال الحارث بن حلّزة :

وَهُـــــمُ زَبَـــابٌ حَــــائِـرٌ   لا يَسْــــــمَعُ الآذانُ رَعْــــــدا [(1)]

الزباب : جنس من الفأر أصمّ، يقال : أسرقُ من زبابة، وأسرق من جرذ، والحائر :الذي لا يتّجه، والحائر من الفأر أعمى، وإنما وصف قوماً بالجهل .

ولم يلتزم ابن قتيبة في شرح الألفاظ نهجاً واحداً، فكان يوجز أحياناً أشدَّ الإيجاز ويذكر الشعر في الباب المعقود له ، ثم يتناول الألفاظ التي يريد تفسيرها، فيشرح الكلمة ويفسرها بكلمة أخرى توضحها، دون ذكر المعنى العام للشعر، من ذلك ما ذكره في باب الثور، قال الهذلي وذكر ثوراً :

يَظلُّ على البَـــرْزِ اليَـــفـــاعِ كـــأنَّه   طِــرافٌ رَسَــتْ أوتــادهُ عــنــد نــازلِ [(2)]

البَرْز : ما برز من الأرض، واليفاع : المرتفع، والطِراف : بيت من أدم، رسَتْ : ثبتتْ .

وقال في باب البيض والدروع، وقال عمرو بن كلثوم :

عـلـيـنـا كـلُّ ســـــابِـغَــــةٍ دلاصٍ   ترى فَــوْقَ النِّطاقِ لهـا غُــضُــونا [(3)]

دلاص : لينة . سابغة : واسعة . غضون تشنج؛ وإنما تشنجت فوق النطاق لطولها .

قال الحطيئة :

فــيــهِ الرِّمــاحُ وفــيــهِ كُلُّ سَــابِغَــةٍ   جَــدلاَءَ مُــبْــهَــمَــةٍ مِنْ نَسْجِ سَــلاَّمِ [(4)]

---

(1) ديوانه / 46. والحيوان 5/ 81. والمعاني الكبير 2/ 656.

(2) وهو أبو خراش : المعاني الكبير 2/735، والبيت في شرح أشعار الهذليين ورواية عجزه " **من الغار والخَوْف للحَمّ وبيلُ** " 3/ 91.

(3) البيت من معلقته : 31، والمعاني الكبير 2/ 1031.

(4) البيت في ديوانه : 75، والمعاني الكبير 2/ 1031.

سابغة : درع، جدلاء : مدورة الحلق، مبهمة : مستوية الحلق، وأراد بسلاّم سليمان (عليه السلام)، ولم يعمل الدروع سليمان؛ وإنما عملها داود عليه السلام .

وقال في باب " الدعاء بالشر واليمن " .

قال زيد الخيل :

فلا شربا إلاّ بلَزْن مصرَّدٍ ولا رميا إلاّ بأفْوَقَ ناصل [1]

اللَّزْن : الضيق والقلة، والمصرَّد : الذي ينقطع قبل الرّي، والأفوق : السهم المنكسر الفوق، والناصل : الساقط النصل .

وأحياناً نجد ابن قتيبة يشرح معاني الألفاظ الغريبة في البيت، ثم يعقب بذكر المعنى العام، من ذلك ما ذكره في كتاب " الفرس "باب الخد وما يحمد منه أسالته وملاسته ورقته" .

قال امرؤ القيس يصف خدّ فرس :

يُبَاري شَبَاةَ الرُمْحِ خَدٌّ مُذَلَّقٌ كَصفْحِ السِّنانِ الصُلَّبِيّ النَّحِيضِ [2]

شباة الرمح : حد السنان، والمذلّق : الطويل الدقيق الذي ليس بكزٍّ، يريد أن عنقه طويلة فَخَدُّه يباري حد الرمح، وصفح السنان : عرضه، والسنان : المسن، والصلبي : منسوب إلى الحجارة الصلبة، والنحيض : المرقق، شبه خدّه بالمسن في ملاسته ورقته، وذلك من علامات العتق والكرم .

وقد يعقب على معنى البيت أولاً، ثم يفسر المفردات الغريبة فيه تفسير لغوياً، وينقل

(1) المعاني الكبير 2/832، والبيت في ديوانه /47، وفي اللسان (لزن) : ومَشْرَبٌ لَزِنٌ ولَزْنٌ ومَلْزونٌ : مُزْدحم عليه .

(2) نفسه 1/ 118. والبيت في ديوانه / 127.

آراء علماء اللغة، ومن ذلك ما جاء في كتاب الفرس " باب العرق " وقال :

قال بشر بن أبي حازم :

تَراها مِنْ يبيس الماء شُهْباً مُخالِطَ دِرَّةٍ منها غِرارُ [1]

قال ابن الأعرابي : يقول لا ينقطع عَرَقُها، ولا يكثر فَيُضْعِفُها، والدِرَّة : أن تدر، والغِرار : القلَّة، ويقال : غارت الناقة إذا قلَّ لبنها بعد مجيئه .

وقال غيره : أراد سيرها إذ تنفتق من عزّة نفسها ونشاطها، ثم ترجع إلى الذي كانت عليه من سيرتها، وعَرَقُ الخيل إذا يبس ابيضَّ، وعَرَقُ الإبل إذا يبس اصفرّ .

وقال في صفة لون الوعل : " ومثله قول ساعدة بن جؤية وذكر وعلاً :

تحوَّلَ لوناً بَعْدَ لَوْنٍ كأنّه بِشَفَّانِ يومِ مُقْلِعِ الوَبْلِ يَصْرَدُ [2]

أراد أنه يقشعر، فيخرج باطن شعره، فيبدو لونٌ غير لونه، ثم يسكن، فيعود لونه الأول، والشَّفان : الريحُ الباردةُ، يقول هبَّت بعقب مطر فهو أشد البرد .

وقد يعقب ابن قتيبة على الشاهد الشعري تعقيباً موجزاً، مبيناً المعنى الذي أراد الشاعر التعبير عنه، دون أن يفسر المفردات تفسيراً لغوياً، مدركاً أن السياق اللغوي قد حدد معاني الألفاظ، ولا حاجة لشرحها مفردة بعيداً عن السياق اللغوي، من ذلك ما ذكره من أبيات المعاني في وصف الذئب، وقال :

قال كعب بن زهير :

يقول حيَّاي من عوفٍ ومن جشمٍ ياكعب ويحك ألاّ تشتري غنما

---

(1) نفسه 1 / 10 . والبيت في المفضليات / 674.

(2) نفسه 1 / 5.2 / 728، والبيت في شرح أشعار الهذليين 3 / 1170، وروا ية عجزه " بِشَفَّان رِيحٍ . . . "

مــــالـيَ منهـــا، إذا مـــا أزْمـــةٌ أَزَمَتْ ومن أُوَيْسٍ، إذا مـــا أنْفُــــه رَذَمـــا [1]

وعقّب ابن قتيبة على البيتين قائلاً :

يعني الذئب إذا جاع سال أنفه، يريد أنه يأكلها .

وقد يكون شرحه تعقيباً على البيت الذي استشهد به على المعنى المعقود له، ويذهب إلى دعم شرحه ببيت آخر في المعنى نفسه، دون أن يشرح أو يعقب على الشاهد الذي أورده ليعضد تفسيره، من ذلك ما ذكره من أبيات المعاني في الأرانب، وقال : قال الشاعر :

وطـالـت بـي الأيام حــــتى كـــأننـي من الكبــــر البــــادي بَدت لي أرنب [2]

يريد انحنيت، فكأني صائد يختل أرنباً، فهو يتقاصر لها كيلا تراه . ومثله :

وقـــــد طـالـتْ بـي الأيّام حــــــتى كـــأني خـــاتلٌ يدنو لصــيـــد [3]

وقد أدرك ابن قتيبة أهمية السياق في تحديد معاني الألفاظ التي تحتمل أكثر من معنى من ذلك تفسيره كلمة " الأرانب " في قول المُخَبَّل :

كـــمـــا قـــال ســــعـــدٌ إذ يقـــود به ابنه كـــبـرت فـجنبني الأرانب صـعـصـعـا [4]

فإن الأرانب في هذا البيت أحقاف من الرمل منحنية، يريد خذ بي في طريق مستوٍ وجنبني الوعث والرمل والصعود .

ويدعم تفسيره لهذه اللفظة بشاهد آخر، ويقول : وكذلك قول الكلح الذهلي يصف راحلته :

---

(1) المعاني الكبير 1/ 197، والبيت الثاني في اللسان (رَذَمَ) : قَطَرَ .

(2) المعاني الكبير 1/ 209.

(3) نفسه 1/ 210، والبيت لأبي الطمحان القيني، ينظر كتاب المعمرين / 63، والأغاني 13/ 11 .

(4) نفسه 1/ 211. وفي اللسان : الأرْنب : موْضع . وقال ابن منظور : واحسب القُتَيبي : ذكر عن الأصمعي الأَرْنَبة، وهو غير صحيح .

قَــــــوداءُ تَملكُ رحلَهــــــــا مــــــثل اليــــتـــيم من الأرانب [1]

أراد أن رحلها على سنام مثل اليتيم، وهي الهضبة المنفردة، وكلُّ شيءٍ انفرد فقد يتم، والأرانب : الأحقاف من الرمل، واحدها أرنب "[2].

وقد يذكر ابن قتيبة الاختلاف في رواية لفظة وردت في بيت، بعد أن يتناول المادة اللغوية بالشرح المطوّل، ويسرد الأخبار التي تدور في فلك معنى البيت، من ذلك ما ذكره في أبيات المعاني في الضبع، وقال :

قال الكميت :

كــمــا خــامَــرَتْ في حِــضْنِهــا أم عــامــر لدى الحبلِ حتّى عـال أوسٌ عـيـالهـا [3]

أم عامر : الضبع، وأوس : الذئب، والضبع من أحمق الدواب، وتبلغ من حمقها أنه يدخل عليها في مغارها، فيقال : ليست هذه أم عامر، فتسكن حتى تقاد، ويقال لها : خامري أم عامر، ثم يشد في عرقوبها حبل ثم تجرّ به، وقوله خامرت سكنت وانخدعت، وأصل المخامرة : المخالطة . وقوله : لدى الحبل يريد الصائد، وقوله : حتى عال أوس عيالها، يقال إن الضبع إذا صيدت عال الذئب ولدها وأتاها باللحم، وذلك أنه يثب على الضبع فتحمل منه وتلد له، وكان بعضهم يرويه : غال أوس عيالها أي أكل جراءها " .

وقد فسر المفردات الغريبة في الشاهد تفسيراً لغوياً، وفك مستغلقها، وذكر الأصل اللغوي للكلمة وفسر دلالتها تفسيراً يتّسق مع صيغة بنائها، فأصل المخامرة المخالطة، والفعل خامر، فالفعل والمصدر يفيدان معنى المفاعلة، ثم أشار إلى المعاني الأخرى للكلمة التي تتّسق مع معنى البيت، ويرى أن الذي يحدد معنى الكلمة السياق اللغوي، وحين ذكر

(1) نفسه 1/ 211. وفي اللسان : " وفرس أَقْوَدُ : بيّن القود؛ وناقة قوْداءُ، والقوداء :الطويلة .

(2) المعاني الكبير 1/ 211.

(3) نفسه 1/ 212. وجاء في اللسان (خمر) : " ويقال للضَّبُع : خامري أمَّ عامرٍ أي استتري .

الاختلاف في رواية لفظة " عال " وذكر " غال " فسّر المعنى بما يتلاءم مع دلالة اللفظة في السياق، وبما تضيف من معنى جديد، يختلف اختلافاً تاماً عن معنى الشاهد بالرواية الأولى، ويرى أن الرواية الأخرى قد ساقت معنى لا بُد أن يعضده بشاهد آخر يذكره ويشرحه، ويؤيده بكلام العرب وأمثالهم، فقال :

كَمُرْضِعَةٍ أوْلادَ أُخْرى وَضَيَّعَتْ بَنيها ولَمْ ترفَعْ بذلك مَرْقَعا (1)

أراد الذئبة، يقال إنها تدع ولدها، وتُرضِع ولد الضبع، ولذلك تقول العرب : أحمق من جهيزة . يعنونها، ويقولون أيضاً : أحمق من نعامة؛ لأنها تدع الحضن على بيضها ساعة تحتاج إلى الخروج لطلب الطعم، فإن رأت بيض نعامة قد خرجت للطعم حضنت وتركت بيض نفسها .

ويعضد تفسيره بشواهد أخرى، مكتفياً أحياناً بذكر الشاهد دون أي تعليق أو تفسير، كقوله :

وقال ابن هرمة :

كتارِكَةٍ بَيْضَها بالْعَراءِ وَمُلْبِسَةٍ بَيْضَ أُخْرَى جَنَاحاً (2)

ويذكر شاهداً آخر في المعنى نفسه، ويفسر ما ورد فيه من ألفاظ غريبة، وقال :

وأنشد أبو عبيدة :

والذِّئبُ يغذو بناتِ الذيخِ نافلةً بل يَحْسَبُ الذِّئْبُ أنَّ النَّجل للذِّيب (3)

الذيخ : ذكر الضباع، وهو الضبعان أيضاً، والنَّجل : الولد .

---

(1) نفسه 1/ 212. والبيت لابن جَذْل الطِّعان الكِناني، كما في حماسة البحتري / 115 .

(2) المعاني الكبير 1/312، والبيت في حماسة البحتري/116

(3) نفسه1/ 213. وفي اللسان (ذيخ) : الذّكر من الضّباع الكثير الشعر " .

فقد استقصى ابن قتيبة ذكر الشواهد في معاني هذا الباب، وقامت هذه الأبيات مقام الاستشهاد على الألفاظ الواردة فيها، وبذلك يكون ابن قتيبة قد أسهم في جمع الصحيح الفصيح من الألفاظ .

وقد أفاد من خبرته بفقه اللغة ووقوفه على أسرارها، وفهمه العميق لظواهرها في تناوله للمادة اللغوية في الشعر، ومعالجته للألفاظ وتفسيرها تفسيراً لغوياً، يتّسق مع معنى النص، وبين المراد من اللفظة في البيت، وقد أقرَّ بوقوع المشترك اللفظي – كما سلف القول – وأشار إلى أن الكلمة الواحدة تحتمل أكثر من معنى، وأنَّ الذي يحدد معناها السياق اللغوي، من ذلك ما ذكره في باب " أبيات معانٍ في المدح " واستشهد بقول زهير :

رَأيتُ ذَوي الحاجات حولَ بُيوتهم   قَطيْناً بها حتَّى إذا نَبَتَ البَقْلُ

هنالك إن يُستَخْبَلُوا المالَ يُخْبِلوا   وإن يُسألوا يُعطوا وإن يَيْسِروا يُغلُوا [1]

ففسّر معنى القطين في البيت وقال : القطين : الحشم والأهل، يقول يلزمونهم حتى يسمنوا وجمع القطين قُطن . وقد أشار إلى جمع الكلمة المفردة مدركاً العلاقة بين هذا الجمع وتحديد المعنى في شاهد آخر ذكره ليدعم ما ذهب إليه في إيراد صيغة هذا الجمع السماعية .

وقال :

قال لبيد :

فتكنّسوا قُطُناً تصِرُّ خِيامها [2]

ويسوق شاهداً ترد فيه الكلمة بمعنى آخر، فيقول :

---

(1) نفسه 1 / 539، والبيت في اللسان (خول) ورد برواية يُسْتَخْوَلُوا . وديوانه / 62

(2) نفسه 1 / 540، والبيت في ديوانه : 166، وصدره : **شَاقَتْكَ ظُعْنُ الحيِّ حين تَحَمَّلوا** .

وقال جرير يهجو بني الفدَوكَس رهط الأخطل :

هذا ابن عـــمي في دمـــشق خليـــفـــة لـو شـــئت ســـاقَكم إليَّ قَطينا [1]

ويعقب على الشاهد قائلاً : فقيل يا أبا حزرة أمَا وجدت في تميم مفخراً تفخر به عليهم حتى فخرت عليهم بالخلافة، لا والله ما صنعت شيئاً في هجائهم، والقطين ها هنا العبيد، والقطين في مكان آخر السكّان، قال الأخطل :

خَفَّ القطِينُ فَراحُوا منكَ أوْ بَكَرُوا [2]

وقد يرَدُّ صيغة الجمع السماعية إلى مفردها لتحديد معنى الكلمة ويقول : والُقطّان المقيمون واحدهم قاطن، وبعد تقليب هذه الكلمة على وجوهها المختلفة، وتحديد معانيها من السياق اللغوي، يشير إلى الخلاف في رواية اللفظة، وينص على خلاف العلماء في ذكر معناها ويقول :

" قال الأصمعي قال أبو عمرو بن العلاء : لا أعرف الاستخبال وأراه قال يستخولوا، والاستخوال أن يملكوهم إياه، وقال أبو عبيدة أنشدنا أبو عمرو : يُسْتَخْوَلُوا المال يخولوا، وقال لم أسمع يستخبلوا، وقال يونس بلى قد سمعه، ولكنه نسي .

وقال غير الأصمعي : الاستخبال أن يستعير الرجل من الرجل إبلاً فيشرب من ألبانها وينتفع بأوبارها، فإذا أخصب ردّها .... [3]".

وينص على اختلاف العلماء في تفسير معنى الكلمة، ويذكر أوجه الخلاف في ذكر المعنى، من ذلك ما ذكره في كتاب الوعيد والبيان " باب الداهية والخطة " وقال :

---

(1) نفسه 1/540، والبيت في الشعر والشعراء 1/ 477.

(2) المعاني الكبير 1/540، والبيت في ديوانه 1/192، وعجزه " **وأزعجتهم نوىً في صَرْفها غِيَرٌ**" .

(3) نفسه 1/ 540.

قال امرؤ القيس :

بُدِّلْتُ من وائلٍ وكِنْدَةَ عَدْ ... وَانَ وفَهْماً صَمِّي ابنةَ الجبلِ [1]

يقال للدّاهية صَمِّي صمَامِ مثل نظارِ وحذارِ . وعضد تفسيره بشاهد آخر وقال :

وقال ابن أحمر :

فردوا ما لديكم من ركابي ... ولما تأتكم صُمِّي صمامِ

وقد اختلف في أصل هذا الحرف، فقال الأصمعي : بنت الجبل : الصدى، ويقال إذا دُعي رجل بهلكة " صُمَّ صداه ".

وقال أبو عبيدة : بنت الجبل هي الحصاة، ويقال في المثل : صمَّتْ حصاة بدم، وذلك إذا اشتدت الحرب، وتفاقم الأمر، كأنه كثر الدم، حتّى إذا وقعت فيه حصاة لم يُسمع لها صوت .

وقال آخر : بنت الجبل، الحيّة الصماء التي لا تجيب الراقي، وذلك أنّها تكون في الجبل، يقال لها : صمّي صمَام، أي لا تجيبي، ثم شبّهت الداهية بها [2]".

وتظهر شخصية ابن قتيبة العلمية حين ينص على أوجه الاختلاف في ذكر المعنى، ويرجّح رأياً على آخر، منتصراً لما يمليه عليه فهمه لمعنى النص، محكّماً حسّه اللغوي، مفيداً من معرفته بظواهر اللغة، وبمعاني الشعر التي أمدته بأداةٍ قويّة ليفتي بالرّاجح من الآراء، ومن ذلك ما ذكره في الأبيات من الميسر، حين قال :

قال الأعشى يمدح قوماً :

المُطْعِمو الضَّيفِ إذا ما شَتَوْا ... وَالجاعِلُو القُوتِ على اليَاسِرِ [3]

---

(1) نفسه 2/857، والبيت في ديوانه/157، وعَدْوَان وفَهْم قبيلتان (حاشية الديوان) .

(2) نفسه 2/ 857 .

(3) المعاني الكبير في ديوانه /95، وروايته " المُطعِمُو اللَّحْم ... "

الياسر : الضارب بالقداح وهو اليَسَر أيضاً، وجمع الأول ياسرون، وجمع الثاني أيسار والميسر الجزور نفسه، أي يجعلون أقوات ذوي الحاجة منهم على الياسرين، وهم أصحاب الثروة، وهم ذوو الجدة والأجواد .... ويقال الياسر الذي يلي قسمة الجزور، وقد ذُهب ببيت الأعشى هذا المذهب، أراد الجازر، والأشهر أنه الضارب بالقداح[1]".

والتفت ابن قتيبة إلى ظاهرة الاشتقاق في معالجته لألفاظ الشعر، فذكر المصدر الذي اشتقت منه حروف الكلمة وفسّر معناها، والتمس سبب تسمية بعض الألفاظ، من ذلك ما ذكره في باب " أبيات معانٍ في المدح "، وقال مستشهداً بقول زهير :

وليس مانعَ ذي قُربى ولا حسب ... يوماً ولا مُعْدِماً من خابطٍ وَرَقا [2]

وعقّب على البيت شارحاً :

يريد ولا معدماً خابطاً ورقاً، والإعدام أَن يمنع الإنسان ما يريد، فيقول قد عدمته، وأراد بقوله : من خابطٍ - خابطاً كقولك : ما رأيت من أحد وما رأيت أحداً، ويقال للرجل إنّ خابطه ليجد ورقاً أي إن سائله ليجد عطاءً، وسمّى من طلب بغير يد ولا رحم خابطاً .

لقد امتلك ابنُ قتيبة ناصية اللغة وفقه علومها وسخّرها لتأويل النصّ بما يحقّق توضيح المراد من المعنى، وقد أجرى نظره في البيت وأدار تفكيره في قواعد النحو والصرف والاشتقاق، واجتهد في تعليل تسمية الألفاظ، من ذلك ما ذكره في كتاب الفرس " باب الميل في أحد الشقين في مشيها وجريها " مستشهداً بقول امرئ القيس :

إذا ما عَنَجتَ بالعِنانِ رأسه ... مشى الهِربذي في دَفِّه ثم فرفرا [3]

---

(1) نفسه 2/1147، 1148.

(2) نفسه 1/539، والبيت في ديوانه /43، وروايته " وليس مانعَ ذي قُرْبى وذي رَحِمٍ " .

(3) نفسه 1/28، والبيت في ديوانه / 96

إذا زُعْتَهُ من جانبَيْه كِلَيْهما ... مَشى الهَيْدَبى في دَفِّهِ ثم فرفرا

ويعقب على البيت، شارحاً الألفاظ الغريبة، ذاكراً اختلاف الرواية في ألفاظه، مبيناً اشتقاق الكلمة ومصدرها ووزنها ويقول :

عنجت : عطفت، والهربذي : التبختر، وقوله في دفّه يريد أنه يحرك رأسه مرّة في هذا الجانب، ومرّة في هذا الجانب . في دفه، وهو جنبه، وفرفر : نفض رأسه، ويروى الهيْذبى، وهي فيعلى من الإهذاب ... "[1].

ونراه حين يجيل نظراته في الاشتقاق اللغوي، يذكر الأصل الدلالي للكلمة، ثم يفسرها من خلال السياق، مبيناً تطور دلالة اللفظة بسبب التوسع في الاستعمال المجازي، من ذلك ما ذهب إليه في تفسير الأعشى وهو يمدح :

هَضُومُ الشّتاء، إذا المُرْضِعَاتُ جَالَتْ جَبَائِرُ أعْضَادِهَا[2]

ويعقب على البيت قائلاً :

أصل الهضم الظلم، يقول يُقري في الشتاء، ويُطعم فيذهب بشدته، والجبائر أسورة النساء ... تجعل في الأعضاد، جالت من الهزال .

ويقلب العبارة على وجوه متعددة، ويبيّن دلالتها في أكثر من شاهد، واستشهد على معنى " الهضم " ببيت لبيد يذكر عامر بن الطفيل :

وَمُقَسِّمٌ يُعْطي العشيرةَ حَقَّها وَمُغَذْمِرٌ لحقوقِها هَضَّامُها[3]

ويقول في تفسير معنى البيت : المُقسِّم الذي يعطيها مالها، والمُغَذْمِر الذي يحطّم حقوقها ويكسرها ، ويقال هو الذي يضرب حقوق الناس بعضهم ببعض، ويهضم من ماله

(1)المعاني الكبير 1/ 28. والبيت في ديوانه : /96، وشرح ديوانه /90.

(2) نفسه 1/ 546. والبيت في ديوانه /71.

(3) نفسه 1/547. والبيت في ديوانه /179 .

للنّاس، ويعطي هذا ما يأخذ من هذا، ومنه قيل للحادي إنّه لذو غذامير في حدائه، هضّامها يهتضمها يحتملها "[1].

وقد يُفسّر معنى الكلمة أولاً ثم يذكر اشتقاقها ومن أين أخذت حروفها، من ذلك ما ذكره في باب الهجاء، وذكر خداش بن زهير يهجو قوماً .

لا تبـــرحـــون على الأبواب مـــلأمـــةً تغـــارزون بهـــا مـــا لألأ الفُـــور [2]

أي تقيمون، يقال غرز فلان، إذا أقام ، ولم يبرح، وذا مأخوذ من غرز الجراد، إذا غرّز بموضع ألقى بيضه به، والفور الظباء لا واحد لها من لفظها، لألأت حرّكت أذنابها. ويعضد تفسيره بشاهد آخر، ويجري الاشتقاق في لفظ " العفر " ويقول :

ومثله قول الأبيرد اليربوعي :

أحـــقـــاً عـــبـــاد الله أن لست رائيـــاً بريداً طوال الدهر مـــا لألأ العُـــفْـــر [3]

ويعقب على البيت ويقول :

" العفر : الظباء في ألوانها، مأخوذ من عفر الأرض وهو لونها "[4]. ويعضد تفسيره بيت آخر للشاعر نفسه، ويدير تفكيره في اشتقاق كلمة " المآدير " ويذكر مصدرها، ومن أين اشتقت حروفها، ويردُّ صيغة الجمع السماعيَّة إلى مفردها ويذكر وزنها ويقول :

كـــأنّكم نبطيّـــاتٌ بمزْرعـــةٍ قُـــشْـــرُ الأنوفِ، دراديرٌ مـــآديرُ [5]

دراديرِ لا أسنان لها، والدردر : منبت الأسنان قبل أن تخرج، والمآدير : العظام الخصّي

---

(1) نفسه 1/547.

(2) نفسه 1/572. وفي اللسان (فور) : لا افعل ذلك ما لألأت الفُور أي : لا افعله أبداً " .

(3) نفسه 1/572. والبيت في أمالي الغالي 3/ 4 و" بريداً " اسم أخيه

(4) المعاني الكبير 1/572.

(5) نفسه 1/572.

من الأدرة، يقال رجل آدر مثال أفعل من الأدرة، ودرادير استأنف به وصف القوم، ولم يضف إلى النبطيّات . قشر الأنوف : حُمْرُها .

ويجري الاشتقاق في الشواهد التي يعضد بها تفسيره لأبيات المعاني، ويحتج بكلام العرب وأمثالهم، ثم المفردات الغريبة في الشاهد، ويبين اشتقاق الكلمة ويذكر فعلها ويفسر معناه، من ذلك ما قاله في باب " الأبيات في الحيّة "، وذكر قول النابغة :

فَبِتُّ كأنّي ساوَرَتْني ضئيلةٌ   من الرُّقْشِ في أنيابها السُّمُّ ناقِعُ (1)

ويعقب على البيت قائلاً :

ضئيلةٌ أفعى، وذلك أنّها دقيقةٌ قليلةُ اللحم، تقول العرب : سلط الله عليه أفعى حارية، يريدون أنّها تحري أي ترجع من غلظ إلى دقة، ومن طول إلى قصر، وذلك أنَّه يُذهب تقادُمها رطوبتها، ويشتّد سمُّها إذا أسنّت .

ويعضد تفسيره لكلمة " حارية " بشاهد آخر، وقال آخر في ذلك :

حَارِيةٌ قَدْ صَغُرَتْ مِنَ الْكِبَرِ   صِلٌ صَفَا ما يَنْطوي مِنَ الْقِصَرِ (2)

ونرى ابن قتيبة يذكر مصدر الكلمة الغريبة ويفسر معناها تفسيراً لغوياً ثم يذكر ألفاظاً أخرى تشتق من المصدر زيادة في الشرح والتوضيح، من ذلك ما ذكره في باب (الأبيات في الشاء والمعز)، واستشهد بقول الحارث بن حلّزة :

أو نقَشْتُمْ فالنَّقْشُ يجْشَمُهُ النَّاسُ   وفيهِ السَّقامُ والإِبْراءُ (3)

ويفسره بقوله :

---

(1) نفسه 1/2/663، والبيت في ديوانه : 80.

(2) المعاني الكبير 2/663، والبيت في الحيوان 4/95، وفي اللسان (حري) : و" الحارية : الأفعى التي كبرت " .

(3) نفسه 2/ 1010 والبيت في ديوانه /27. وروايته" وفيه الصلاح والإبراء "

النقش : الاستقصاء، ومنه قيل ناقش فلان فلاناً في الحساب أي استقصاه، ويعقّب على البيت شارحاً معناه :

يقول : إن استخرجتم كلَّ شيء ففي النّاس السّقام والإبراء، أي لا تأمنون إن استقصيتم أن يكون السقام فيكم بأن تكونوا قُتلتم فلم تثأروا وقُهِرتم، وعسى أن يكون الإبراء منّا فيستبين ذلك للنّاس، ويصير عاره عليكم، فترك الاستقصاء خير .

وقد يفسر معنى المصدر، ثم يذكر صيغة الاسم المشتق منه، من ذلك قول الحارث بن حلِّزة :

فاتْركُوا الطَّيخَ والتَّعدي وإمّا تَتَعاشَوْا ففي التَّعاشِي الدّاءُ [1]

ويعقب على البيت بقوله :

الطيخ : الكلام القبيح، يقال : هو طيّاخة، والتعاشي : التعامي، يقول : إن تعاشيتم عن أيامنا فألجأتمونا إلى الإخبار عنكم وعنّا صرتم إلى ما تكرهون .

وقد يفسر معنى اللفظ المشتق بذكر فعله، ويذكر قصة الشاهد، نحو قوله في بيت الحارث بن حلِّزة :

أم علينا جَرّى إيادٍ كما قِيلَ لِطَسْمٍ : أخُوكُمُ الأبَّاء [2]

ويقول : قال الأصمعي : كان طسم وجديس أخوين فكسرت جديس على الملك خراجه فأُخذت طسم بذنب جديس، والأبّاء : أبى أن يؤدي الخراج، يقول : تريدون أن تلزمونا ذنوب الناس، كما قيل لطسم إن أخاكم كسر الخراج على الملك، فنحن نأخذكم بذنبه"[3].

(1) نفسه 2/ 1011 . والبيت في ديوانه /36. وروايته " فاتركوا الطيخ والتعاشي . .)

(2) نفسه 2/ 1011 . والبيت في ديوانه /37

(3) المعاني الكبير 2/ 1011 .

ومن الظواهر اللغوية، التي وقف ابن قتيبة عندها أثناء معالجاته للألفاظ، ظاهرة التضاد، وقد أقرَّ بوقوعه في العربية، واستعمل مصطلح الأضداد .. في تفسيره بعض ألفاظ الشعر، من ذلك تفسيره قول رؤبة في وصف البازي :

لمّا رأتني راضياً بالإهمادْ كالكُرَّز المَرْبوطِ بَيْنَ الأوْتادْ [1]

فقال : الإهماد السكون ولزوم البيت، وهو في موضع آخر سرعة السير، وهذا حرف من الأضداد، واستشهد على المعنى الآخر بشاهد يروى لرؤبة أيضاً :

ما كان إلاّ طَلَقَ الإهْمَادِ وجذبُنا بالأغْرُبِ الجيادِ [2]

والتفت الى ذكر الكلمة المعرَّبة من الأعجمية الفارسية " الكرّز " وقال :

والكُرَّز بالفارسية : الحاذق المجرّب، يقال له : " كُرَه " فَعُرِّب، وأراد البازي الذي قد شُدَّ لئلا يطير حتى يسقط ريشه .

ومن ذلك تفسيره قول بشير بن أبي خازم في صفة الثور :

فباتَ يقولُ أصْبِحْ لَيْلُ حتى تَجَلَّى عن صَرِيمَتِهِ الظَّلامُ [3]

ويعقب قائلاً :

أي طال عليه الليل ممّا هو فيه، ويروى : صريمَيْه، والصريم : الليل، يريد أول الليل وآخره. وقال ابن الأعرابي : صريمته رملتُه . وقال أبو عبيدة : الصريم : الليل والصبح، وهو من الأضداد .

فقد أقرّ بوقوع التضاد في اللغة، واستعان به لتفسير ألفاظ الشعر، ونقل آراء علماء

---

(1) نفسه 1/288. والرجز في ديوانه /28.

(2) نفسه 1/288. والرجز في ديوانه /173، ورواية البيت الثاني (وكرِّنا بالأغْرُبِ الجِياد)

(3) نفسه 2/755، والبيت في المفضليات /653، وروايته : " فبات يقول أصْبِحْ لَيْلُ حتى ... "

المدرستين البصريين والكوفيين، وأفاد من آرائهم دون تعصب؛ ليعضد ما ذهب إليه من فك مستغلق الألفاظ وتوضيح دلالاتها .

وذكر الأضداد في باب المعاني في وصف الشعر والشعراء، مستشهداً بقول الشمَّاخ :

نُبِّئْتُ أنَّ رَبيعاً أنْ رَعَى إبلاً ... يُهْدي إليَّ خَنَاهُ ثانيَ الجِيدِ (1)

فإنْ كرِهْتَ هِجائي فاجتَنِبْ سَخَطي ... لا يعلقنَّك إفْراعي وتصعيدي

وفسر الإفراع في هذا الشاهد بقوله : إفراعي هاهنا انحداري، واستشهد ببيت آخر ترد فيه الكلمة بمعنى الصعود، وأنشد لرجلٍ من العبلات :

إنّي امرؤٌ من يَمَانٍ حينَ تَنْسِبُني ... وفي أُمَيَّةَ إفراعِي وتصويبي (2)

وعقّب قائلاً :

"وقوله : وتصويبي يدلك على أنّ الإفراع هاهنا الصعود " .

لقد أقرَّ ابن قتيبة بأن الكلمة الواحدة قد تقع على معنيين مختلفين، وأن الذي يحدّد معناها السياق اللغوي، فقد فسَّر " إفراعي " في قول الشمَّاخ، بمعنى " الانحدار " .

وقد أفاد من الطباق بين إفراعي وتصعيدي، وما يوحيه معنى البيت، وفسّر " الإفراع " في الشاهد الآخر بمعنى " الصعود "، مستنداً إلى ما توحيه كلمة "تصويبي" في السياق اللغوي، من معنى مغاير لدلالتها اللغوية في بيت الشمّاخ .

وقد أفاد ابن قتيبة من درايته العميقة بمعاني الشعر، وروايته، وعرض إلى الألفاظ التي يغلط فيها الناس، ونص على وجه الغلط، وبيّن الصواب، من ذلك ما ذكره في كتاب " الفرس "باب " العرق " ، واستشهد بقول امرئ القيس يصف فرساً :

---

(1) نفسه 3/ 1177، والبيتان في ديوانه / 22، ورواية عجز البيت الثاني " لايُدْرِكَنَّكَ إفراعي . . .

(2) المعاني الكبير 3/ 1177 . والبيت في اللسان (صعد) و (فَرَع) .

فــعـــادى عِــداءً بين ثَورٍ ونَعْـجَــةٍ دراكــاً ولم يَنْضحْ بماءٍ فَـيُــغْـسَلِ [1]

ويقـول هـكذا أنشـدنيـه السـجسـتـاني عـن الأصـمـعي يَنْضَـح، والنـاس يغلطون فيروونـه يُنْضَح .

وقد يُنَبِّه على الغلط في نطق الكلمة، ويعده من لحن العامة، من ذلك استشهاده على "معان في الطعام والضيافة" ببيت امرئ القيس :

فظَلَّ صِحــابي يَشْـتَــوُون بنَعْـمَــةٍ يَصُــفّــون غــاراً باللَّكيك المُوَشَّقِ [2]

وعقب على البيت قائلاً :

قـال الأصمعي : لا أعرف الغار هاهنا، ولكن الغار الكتيبة، يقال : التقى الغاران . . . واللكيك اللحم، وقال غيره : الوشيقة : اللحم يقطع صغاراً، وهي التي تسميها العامة العشيقة . . .

كمـا التفت في أثناء معالجته لألفاظ أبيات المعاني إلى ظاهرة القلب اللغوي في بنية الكلمة، ونبّه على أصلها، وأشار إلى وقوع القلب فيها، وبيّن دلالتها، ومن ذلك ما ذكره في كتاب الفرس " باب جريها ومشيها " ، مستشهداً بقول رؤبة :

وإنْ هَمَـرْنَ بَعْــدَ مَــعْقٍ مَــعْــقَــا عَـرَفْتَ من ضَـرْبِ الحرِير عِـتْــقَــا [3]

ويقول :

الهَمْر : الغَرْف، يقال إنه ليهمر هَمْراً في الكلام، وإنّه لمهمار إذا كان كثير العطاء أو كثير الكلام، والمَعْق : البعد، يقال عمق ومعق، والحرير فرس كان لهم .

---

(1) نفسه 1 / 378، والبيت في ديوانه : 58. والمعاداة والعداء : الموالاة .

(2) نفسه 1 / 378، والبيت في ديوانه /137. وروايته " وظلَّ " .

(3) نفسه 1 /32، والبيت في ديوانه /180.

ونص على ما وقع فيه القلب اللغوي، مستعملاً المصطلح في معالجته كلمة "المغاريد" في بيت عذار بن دُرَّة الطائي في وصف الشَّجّة، "في باب الطعنة والشجة والضربة" :

يحجُ مَأمُومةً في قعرها لَجَفٌ فاسْتُ الطَّبيبِ قَذَاها كالمغَارِيدِ[1]

ويعقب على البيت شارحاً :

يحجّ : يُصْلح، مأمومة: شجة بلغت أم الدماغ، ولجف : أن يذهب في إحدى الناحيتين، فالطبيب ممّا يرى من هولها تقذى استه كالمغاريد وهم كمء صغار . ويقال له غماريد مقلوب. وهو مثل الجوز متعقد في كل شجرة ذات هَدْب، والهدب ما كان يشبه ورق السرو، ممّا ذهب طولاً وما ذهب عرضاً فهو ورق .

ونصَّ على القلب اللغوي في معالجته كلمة " تتهيبك " في بيت النمر بن تولب، الذي ساقه في باب " مكارم الأخلاق " ، وقال :

وإن أنتَ لاقيتَ في نَجدَةٍ فلا تتهيَّبْكَ أن تُقدِما
فإنّ المنية من يَخْشَها فسوف تُصادِفُه أيْنَما[2]

ويقول :

في نجدة أي في قتالٍ وشدَّة، فلا تتهيبك أي لا تتهيبها، وهذا من المقلوب وأشار إلى المحذوف اختصاراً في تفسيره وقال : ...

فسوف تصادفه أينما ذهب، وإن كان محذوفاً، كان يحذف اختصاراً .

فقد أعمل ابن قتيبة تفكيره، وأجال نظراته في العبارات، وقلّبَها على وجوهها، ووقف

---

(1) المعاني الكبير 2/977. والبيت في اللسان (لجف) وفيه " اللّجفة : الغار في الجبل" .

(2) نفسه 3/1264 . والبيتان في مختارات ابن الشجري /16 . ينظر حاشية التحقيق (9 ص / 16) .

على ما اعترى الكلمة من قلب في حروفها، وما اعترى الأساليب من حذف واختصار، فوصل ما انقطع، وتنبه إلى الأصل ففسره تفسيراً لغوياً يجلو الغموض عن النص، ويبين المراد منه، مبرزاً معناه بوضوح .

ونبّه على ما اعترى الكلمة من إبدال في حروفها أو إدغام، وردّ الجمع إلى مفرده، مدركاً العلاقة بين تحديد أصل الصيغة وبيان معناها، من ذلك معالجته لفظ " عِدّان " وما اعتراه من إبدال وإدغام في حروفه، وقد ورد في قول الأخطل في باب " الأبيات في الشاء والمعز " :

واذْكُرْ غُدانَةَ عِدَّاناً، مُزَنَّمَةً ... من الحَبَلَّق . تُبْنَى حَولَها الصُّيَرُ

تُمْذي؛ إذا سَخَنَتْ في قُبلِ أذْرُعِها ... وتَزْرَئِمُّ إذا ما بَلَّها المَطَرُ (1)

ويفسره بقوله : عِدّان جمع عتود، أدغمت التاء في الدال، والحبلّق غنم صغار، والصير جمع صيرة، وهي حظيرة الغنم شبههم بها، وهي إذا أصابها الحر أمذت فيصيب أذرعها، وتزرئم، أي تنقبض إذا أصابها المطر .

والتفت إلى ما اعترى الكلمة من إعلال ونبه عليه، من ذلك معالجته لصيغة " تيقوري " في قول العجاج الذي ساقه في باب " أبيات المعاني في الشيب والكبر " :

فإنْ يَكُنْ أَمْسى البِلَى تَيْقُوري ... والمَرْءُ قد يصيرُ لِلتَّصِيرِ

مُقَرَّرا بِغَير لا تَقْرير (2)

ويفسره قائلاً :

تيقوري أي الأمر الذي وقرت به وهو فيعول من الوقار والتاء فيه مبدلة من واو أصله

---

(1) نفسه 2/689، والبيتان في ديوانه 1/209 و 210و وغدانة : ابن يربوع . والعدّان : المعزى المجدوعة الأنوف والحَبَلّق : الجديان صغار الماعز . المزنّمة : التي تهدّل ما تحت حلقها . تمذي : تبول .

(2) المعاني الكبير 3/1223 . والرجز في ديوانه : 1/340 .

ويقور، والبلى هاهنا الكبر، يقول : صيرني الكِبْرُ إلى الوقار، والمرء قد يرجع للمرجع أي للكبر، قد قرر بالرّضا بالهرم، وليس ذاك ممّا يقرر به الناس .

وقد لا يذكر المصطلح الصرفي فيما اعترى الكلمة من تغيير في حروفها، ويكتفي بالإشارة إلى ميزانها الصرفي، فيتضح من خلال المقابلة ما اعتراها من تغيير، من ذلك معالجته كلمة " تُكُمُّوا " في قول العجاج الذي ساقه في باب " العداوة والبغضاء والحقد والظلم " :

بَلْ لَوْ شَهِدْتَ القومَ إذْ تُكُمُّوا بِقَدَرٍ حُمَّ لَهمْ وَحُمُّوا (1)

ويفسره بقوله : تُكُمُّوا : تُفُعِّلوا، من الكمَّة أي لبسوا غُمَّة كُمُّوا بها، كما تُكَمّ النَّخلة، جُلِّلوا، والكَمْيُ : قمْعُ الشيء وسَتْرُه .

والتفت أثناء معالجاته ألفاظ الشعر إلى ظاهرة التَّصغير، وبيّن ما اعترى بنية الكلمة من تغيير، وفسَّر المعنى المراد من التصغير، من ذلك معالجته كلمة " دويهية " في بيت لبيد الذي ساقه في باب . الدّاهية والخُطَّة " :

وكلُّ أُناسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ دُوَيْهِيَةٌ تَصْفَرُّ منها الأناملُ (2)

وعقب عليه قائلاً :

صغّر دويهية، والمعنى التكبير ... وإذا اصفرّت أنامل الرَّجل فقد مات .

كما التفت إلى ظاهرة النسب في معالجة ألفاظ الشعر، من ذلك معالجته كلمة : (حِرْمِيٌّ) في بيت أبي ذؤيب الذي ساقه في كتاب " الطعام والضيافة "، باب " أبيات معان في القدور " :

---

(1) نفسه 2/1128 . والرجز في ديوانه : 2/124 . ورواية البيت الأول : " بَلْ لَوْ شَهِدْتَ الناس " .

(2) نفسه 2/859 . والبيت في ديوانه / 132 .

لَهُنَّ نَشِيجٌ بالنَّشِيلِ كَأَنَّها ضَرائِرُ حِرْمِيٍّ تفاحشَ غارُها [1]

وفسّره بقوله :

نشيج : غليان، والنشيل أصله ما أخرجت بيدك من اللحم، ولم يرد ذلك بعينه؛ وإنّما أراد اللحم، وشبّه غليان القدور باصطخاب ضرائر، ثم نسبهُن إلى رجل من أهل الحرم؛ لأن قريشاً أول من اتخذ الضرائر، وغارُها : غيرتها، حِرْمِيٌّ : منسوب إلى الحرم على غير قياس، والقياس حَرَمِيٌّ .

وأشار إلى ظاهرة المقصور والممدود في تفسيره ألفاظ الشعر، ونص على مذكّر المسمّى ومؤنثه، مستعملاً المصطلح اللغوي، من ذلك معالجته لفظ " أسفى " في قول سلامة بن جندل الذي ساقه في كتاب " الفرس " باب " الناصية وما يحمد من سبوغها " :

لَيْس بِأَسفى وَلَا أَقْنَى وَلَاسَفِلٍ يُسْقَى دَوَاءً قَفِيَّ السَّكْنِ مَرْبُوب [2]

وفسره بقوله : الأقنى : الذي في أنفه احديداب، وذلك يكون في الهجن، والأسفى : الخفيف الناصية، والاسم السفا مقصور، وهو عيب في الخيل ومحمود في البغال .

وعضد تفسيره بشاهد آخر، وأنشد :

جاءَتْ به مُعْتَجِراً بِبُرْدِهِ سَفْواءُ تَرْدي بِنَسِيجِ وحدِهِ [3]

وقال في تفسيره، معتمداً رأي أبي عبيدة، في تفسير كلمة " أسفى " .

قال أبوعبيدة : يقال للفرس : أسفى، ولا يقال للأنثى سفواء، ويقال للبغلة سفواء،

---

(1) نفسه 1/365. والبيت في شرح أشعار الهذليين 1/79.

(2) المعاني الكبير 1/116، 117. والبيت في المفضليات /230، ورواية عجزه " يُعطَى دواءً ..." .

(3) نفسه 1/116، 117، والرجز – لدكين بن رجاء في عمر بن هبيرة – وهو موجود في اللسان (وحد) وفيه : "والعرب تنصب وحده في الكلام كله لا ترفعه ولا تخفضه إلا في ثلاثة أحرف : نسيج وحدِه وعُيَير وحدِه، وجحيش وحدِه

وليس وراء السفا إلا الزّعر والمعر والحصص، وذلك كلّه قريب بعضه من بعض، وهو ذهاب شعر الناصية ... والسَّغِل : المضطرب الخلق السيء الغذاء ...

والقفي : الذي يعطى القفيَّة وهي ما خبأت للإنسان تكرمة . والدواء : ما عولجت به الجارية لتسمن، وعولج به الفرس عند المضمار، والسكن أهل الدار، مربوب : مربب يصان ولا يرسل .

وبالإضافة إلى المباحث الصرفية التي ضمَّنها كتابه أثناء معالجاته ألفاظ الشعر، فإن ابن قتيبة قد التفت إلى المباحث النحوية، وبسط آراءه دون إغراق في التفاصيل؛ لأنه توخى توظيف قضايا النحو لتوضيح معنى النص وجلاء غوامضه، مورداً آراء علماء المدرستين البصرية والكوفية دون تعصب لرأي أو انتصار لمذهب، إلا ما يتسق مع ما يقتضيه معنى النص، ويحقق المراد منه ، من ذلك ما أورده من رأي يونس بن حبيب من علماء مدرسة البصرة، والكسائي من علماء مدرسة الكوفة، في معالجة هذا البيت الذي أنشده يونس، وساقه ابن قتيبة في كتاب " الأبيات في الحرب " :

نَجا عامرٌ والنَّفْسُ منْهُ بِشِدْقِهِ ... وَلَمْ يَنْجُ إلاَّ جَفْنَ سَيْفٍ وَمِئْزَرَا [1]

وعَقَّب عليه قائلاً : يونس : أراد لم ينج إلا بجفن سيف ومئزر، وكان الكسائي ينصبه على الاستثناء يريد نجا ولم ينج ماله، كما تقول : نجا فلان وأنت تريد ماله، واحترق منزل فلان إلا بيتين .

كما أخذ بمذهب الكوفيين، وذهب إلى أنّ (كما) تأتي بمعنى كيما وينصب بها ما بعدها [2]، وعالج هذه المسألة في قول أبي النجم الذي ساقه في باب " الأبيات في النعام " ، وذكر ظليماً :

(1) المعاني الكبير 2/972، والبيت لحذيفة بن أنس الهذلي، ينظر أشعار الهذليين 2/558، وروايته " نجا سالم " .

(2) الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، لابن الأنباري /310، 311.

قلت لشـــيـــبــان ادْنُ من لقـــائهِ كـــمـــا تُغَـــذِّي القـــومَ من شِـــوائه [1]

وفسّره بقوله :

شيبان ابنه، قلت له : اركب في طلبه، كما بمعنى كيما، يقول كيما نصيده فنغدي القوم به مشوياً .

وذهب ابن قتيبة إلى جواز إتباع النعت حركة ما قبله على المجاورة إذا فَصَلَ بينه وبين منعوته فاصل، وعالج هذه القضية في بيت للمتنخّل ساقه في باب "أبيات معانٍ في المدح" :

السَّالِكُ الثُّغْرةِ اليَقْظَانَ كَالِئُهَا مَشْيَ الهَلُوك عَلَيْهَا الخَيْعَلُ الفُضُلُ [2]

وفسّره بقوله : الثّغْرة والثّغْر سواء، وهو موضع المخافة، والكالئ : الحافظ، والخَيْعَل : ثَوْبٌ يُخاط أحد جانبيه ويترك الآخر، والهلوك المتثنية المتكسرة، والفضل من صفة الهلوك، وكان ينبغي أن يكون جرّاً، ولكنه رفعه على الجوار للخيعل .

وعضد ما ذهب إليه بإيراد الحجج من كلام العرب شعرهم ونثرهم، وقال : ومثله للعجّاج :

كأنَّ نَسْجَ العَنْكبوتِ المُرْمَلِ [3]

ومثله " جحرُ ضبٍ خربٍ "، ومثله لامرئ القيس :

كبيرُ أُناسٍ في بِجادٍ مُزَمَّلِ [4]

أراد أنه آمن لا يخاف، فهو يمشي على هينته .

---

(1) المعاني الكبير 1 / 363، والبيت في الخزانة 8 / 501 .

(2) نفسه 1 / 543، والبيت في شرح اشعار الهذليين 3 / 1281 .

(3) نفسه 1 / 544، والبيت في ديوانه . 1 / 243، وينظر حاشية التحقيق (2) .

(4) نفسه 1 / 544، والبيت في ديوانه / : 62 وصدره : " كأنّ ثَبيراً في عرانين وَبْلِهِ "، وينظر حاشية التحقيق (2) ص / 62.

وقد ردّ ابن الشجري هذا القول وقال : " وزعم بعض من لا معرفة لهم بحقائق الإعراب، بل لا معرفة لهم بجملة الإعراب، أن ارتفاع الفضل على المجاورة للمرفوع، فارتكب خطأ فاحشاً، وإنما الفضل نعت للهلوك على المعنى، لأنها فاعلة من حيث أسند المصدر الذي هو المشي إليها، كقولك : عجبت من ضرب زيدٍ الطويلُ عمراً، ورفعت الطويل، لأنه وصف لفاعل الضرب، وإن كان مخفوضاً في اللفظ .

فلو قلت عجبت من ضرب زيد الطويلَ عمراً، فنصب الطويل، لأنه نعت لزيد على معناه من حيث هو مفعول في المعنى كان مستقيماً . . . "[1].

وذهب ابن قتيبة إلى جواز إتباع المعطوف حركة المعطوف عليه على المجاورة، وعالج هذه القضية في قول النّمر بن تولب الذي ساقه في باب " الأبيات في الظباء والبقر " يذكر الظبية وولدها :

خَرِقٌ إذا ما نام طافت حوله … طوف الكَعاب على جنوب دُوارها
بأغنَّ طِفْلٍ لا تُصاحِبُ غيْرَه … فله عُفافةُ دَرِّها وغِرارِها [2]

ويفسره بقوله : خَرِق : لاصق بالأرض، والدوار : صنم كانوا يدورون حوله في الجاهلية، والعفافة : ما يبقى من اللبن في الضرع بعد الحلب، والغرار ما ترفع الناقة من لبنها، يقال : ناقة مُغارّ إذا فعلت ذلك، يقول : لهذا الطفل قليل لبن هذه الظبية وكثيره، وجر غرارها على الجوار، وكان ينبغي أن يكون مرفوعاً، وهو كما يقال : جحرُ ضبٍّ خربٍ، وقوله : لا تصاحِب غيره : يريد أنها قد خذلت صواحبها فانفردت . "

لقد وظف ابن قتيبة قضايا النحو لتقريب النص اللغوي، وتفسير ما غمض منه، مدركاً علاقة النحو بالمعاني، فالإعراب يبين عن علاقات الألفاظ ومعانيها في السياق اللغوي، وقد

---

(1) أمالي ابن الشجري 2/ 31، والخزانة 5/ 11و 12 .

(2) المعاني الكبير 2/ 708، والبيت الثاني في اللسان (عفف) وفيه " لا يُصاحب " .

بسط آراءه النحوية بوضوح دون إغراق في المصطلحات والتفريعات التي تشتت الذهن، وتصرف القارئ عن بلوغ الهدف الذي يسعى إليه في فهم المعاني بيسر وسهولة .

والتفت ابن قتيبة أثناء معالجته ألفاظ الشعر إلى لغات القبائل، واعتنى بها، وكان ينص عليها، ويذكر أوجهاً من خلافاتها، واستعان بها في تفسير ألفاظ الشعر، من ذلك ما ذكره في باب " الأبيات في النحل والعسل " مستشهداً بقول أبي ذؤيب، وذكر خمراً :

تدلّى عليه بين سِبٍّ وخِيطَةٍ بجَرْداء مِثْلَ الوَكْفِ يَكْبُو غُرابُها (1)

ويفسره بقوله : السِّبُّ في كلام هُذيل مثل السبب، و "الخِيطَةُ " الوتد، يقول : هو بين الحبل والوتد في أعلى الجبل، و " الوَكْفُ " النّطْعُ، جرداء : صخرة ملساء يَزِلُّ عنها الغراب من ملاستها .

ومن ذلك ما يذكره في باب " الأبيات في الظباء والبقر " مستشهداً بقول أبي النجم :

كأنَّ ابنةَ الزيدي يوم لقيتُها موشَّحةٌ بالطُرَّتَيْنِ هميجُ

بأسفل ذات الدير أُفرِد جحشُها فقد ولَهتْ يومين فهي خلوج (2)

ويفسره بقوله : يعني ظبية لها طُرَّتان في جنبيها سوداوان، كذلك الظباء التهامية، والهميج الضعيفة النفس، يقال : أهمجت نفس الرجل، ويقال للنفساء هميجة النفس إذا ذبل وجهها، والجحش : الخشف في لغة هذيل، والدير : مكان والخلوج التي اختلج ولدها عنها أي أُخذ .

وفسَّر ما اعترى ألفاظ اللغة من تغيير في أصواتها، وعزاه إلى لغات القبائل، فقد عالج لفظ " باناة " في قول امرئ القيس الذي ساقه في باب " القسي والسهام " وبين أن اللفظ قد

(1) نفسه 2/619، والبيت في شرح أشعار الهذليين 1/53، وروايته " تَدَلّى عَلَيْها . . . "

(2) المعاني الكبير 2/722، والبيت الأول في اللسان منسوب لأبي ذؤيب (همج) وروايته " كأنَّ ابنة السَّهْميِّ . . . "

اعتراه القلب اللغوي على لغة طيء، وقال :

عَـــــــــــــــــارِضٍ زَوْرَاءَ مِــن نَـشَــمٍ   غَــيــــــر بَانَاةٍ عَلــــى وَتَـــرِهْ [1]

ويفسره بقوله :

أي رب رام عـارض أي يرمي عن القـوس العـربيـة، وإنما يرمي عليـهـا بالعـرض، والزَّوراء القوس لا عوجاجها، والنشم شجر تعمل منه القسي . قال الأصمعي : غير باناة : غير بانيــة، فقلب، ذهب إلى لغـة من قال باداة في البادية، وناصاة في الناصية، وامـرأة كاساة يريد كاسية.

وقد عضد ابن قتيبة تفسيره بقول الأصمعي، واستشهد على تفسيره لبيت امرئ القيس بشاهد لحُرَيْث بن عَتاب الطائي :

لقــــدْ آذَنَتْ أهلَ اليــــمـــــامــــةِ طَيِّئٌ   بحَــرْبٍ كناصــاةِ الحـصــانِ المُشَــهَّــرِ [2]

ويعود إلى تفسير بيت امرىء القيس ويقـول : على وتره في معنى عن وتره، يريد أنّ القوس ليست بمنفَّجَة فيقل ذهاب سَهْمِها .

فقد استشهد ابن قتيبة على لغة طيء بشاهد لشاعر من قبيلة طيء مبيناً القلب في لفظ ناصاة، وذهب إلى دخول حرف " على " مكان " عن " في بيت امرئ القيس .

وفسّر تَرْك مدِّ الهاء في بيت ساقه في باب " شدة الزمان والجدب "، وذكر الضّيف واللحم :

فــإن يَكُ غَــثًّـــاً أو سَــمــــيناً فــإنّني   ســأجــعلُ عــينيْــهِ لقلبــهِ مَــقْنَعــاً [3]

---

(1) نفسه 2/1048، والبيت في ديوانه /102.

(2) نفسه 2/1048، والبيت في اللسان (نص) وفيه " والناصاةُ، لغة طيئية "

(3) نفسه 1/422، والبيت في الأصمعيات /62، في قطعة لمالك بن حريم الهمذاني، وفي الكتاب 1/ 8 وقال محقق الكتاب في الحاشية (2) ، أراد لنفسي، فحذف الياء ضرورة في الوصل تشبيهاً بها في الوقف، وروايته (لنفسه).

ويفسره بقوله : تَرْكُ مدّ الهاء في مثل " لقلبه " لغة لبعضهم، يقول : إذا ذبح الجزور بين يديه، اتخذت له الطعام بحضرته، لا أغيب عنه غثاً كان أو سميناً، لئلا يظن أني قد استأثرت عليه .

ويذكر ابن قتيبة ثلاث لغات للكلمة، من ذلك ما قاله في قول قيس بن الخطيم الذي ساقه في " باب في الرمح " :

ترَى قِصَدَ المُرَّانِ تُلْقَى كأنَّه   تَذَرُّعُ خُرْصانٍ بأيدي الشَّواطِبِ [(1)]

ويفسره بقوله : التَّذرُّع قدر ذراع ينكسر فيسقط، قال : والتذرع والقِصَد واحد، وواحد القِصَد قِصْدة، والمران والوشيج عروق القنا فنسبوا القنا إليه . واستشهد ببيتٍ لزهير:

وهل يُنْبِتُ الخطِّيَّ إلا وَشيجُهُ   وتُغْرَسُ إلاّ في منابِتِها النَّخلُ [(2)]

ويعود لتفسير بيت قيس بن الخطيم ويقول :

مثل ما جعل الخرص الرمح، وإنما هو نصف السنان الأعلى إلى موضع الجبَّة، وكذلك الأسل إنما هي أطراف الأسنة، يقال خِرص الرمح وخُرص الرمح وخَرص الرمح – ثلاث لغات – وخِرصان للجميع، والشاطبة التي تعمل الحُصُر من الشطْب شطبت تشطب شطوباً وهو أن تأخذ قشره الأعلى، وتشطب وتلحي واحداً، وواحد الشَّطْب شطبة وهي السعفة، وكل قضيب من شجرة خرص، ومن ثم قيل للرمح خرص ...

فقد نصّ ابن قتيبة على أوجه الاستعمال في اللغات الثلاث للكلمة الواحدة، وذكر صيغة الجمع منها، وفسرها تفسيراً لغوياً، ونبّه على الأصل الدلالي للكلمة، وسبب

---

(1) المعاني الكبير 2/1101، والبيت في اللسان (قصد) وروايته " تُلْقَى كأنّها "، والقِصْدَةُ : القطعة من الشيء إذا انكسر .

(2) نفسه 2/1101، والبيت في ديوانه /63. والوشيج : القنا الملتف في منبته، الواحدة : وشيجة .

تسميتها، وانتقال صيغتها من التخصيص إلى التعميم نتيجة التطور في التوسع باستعمال الكلمة .

وكان أحياناً يذكر أن اللفظة تلفظ على وجهين، دون أن ينص على اللغتين، ويرجح وجهاً على الآخر دون أن يعلل أو يعضد ما ذهب إليه بإيراد الحجج والشواهد، من ذلك ما ذكره في باب " التشبيه بالعقاب " مستشهداً بقول امرئ القيس :

كأنّي بفتخاءِ الجَنَاحَيْن لَقْوَةٍ صَيُودٍ من العِقبانِ طأطأتُ شيمالي (1)

ويفسره بقوله :

أخبرني السجستاني عن أبي عبيدة أن أبا عمرو بن العلاء كان ينشده شيمالي فزاد ياء، وكان غيره يروي شملالي يريد الخفيفة . يقول : كأني بطأطأتي هذه طأطأت عقابا، ويقال لِقوة ولَقوة والكسر أجود .

وقد عضد ابن قتيبة تفسيره ألفاظ الشعر بأمثال العرب وعدَّها مصدراً من مصادر الاستشهاد، يوثق بها صحة ماينطق به الشعر، من ذلك ما استشهد به في باب " الأبيات في الحيّة " على قول الكميت :

وإيّاكُم إيّاكُمُ ومُلِمَّة يقول لها الكانون صَمِّي ابنةَ الجبلِ (2)

ويفسره بقوله :

ابنة الجبل الأفعى، وهم يشبهون الداهية بها، ومن أمثالهم : صَمِّي صمام، و صَمِّي ابنةَ الجبل، و : جاء بالحية، وجاء بأم الرُّبيق على أريق، وأمّ الربيق الحية، و : جاء بأم بنات طبق،

(1) نفسه 1/37، والبيت في ديوانه : 144 مع اختلاف فإن العجز فيه " أطاطىء شملالي "، وشملالي : فرسي السريع .

(2) المعاني الكبير 2/674، وجاء في اللسان (صمم) : صَمِّي ابنة الجبل، يعني الصَّدى، يضرب مثلاً للداهية الشديدة

يضربون هذا مثلاً في الدواهي، وأصله من الحيات .

واستشهد في باب " الأبيات في الحرب " على قول زهير بن أبي سلمى بمثل رواه عن أبي عبيدة، موثقاً به صحة الألفاظ في الشاهد :

تداركتما عَبْساً وذبيانَ بَعْدَمَا تَفَانوا ودقُّوا بينَهُمْ عِطْرَ مَنْشَمِ [1]

ويفسره بقوله :

الأصمعي : منشم امرأة كانت عطّارة، فتحالف قوم فأدخلوا أيديهم في عطرها على أن يقاتلوا حتى يموتوا، فصاغوا هؤلاء بمنزلة أولئك في شدة الأمر . أبو عبيدة : منشم اسم لشدة الأمر لا أنّ ثَمَّ امرأة، قال : وهو مثل قولهم : جاؤوا على بكرة أبيهم وليس ثمّ بكرة . أبو عمرو : هو من التنشيم في الشر وهو الابتداء به . غيره : منشم امرأة كانت تبيع الحنوط .

وقد يستشهد على معنى ألفاظ الشعر بمثل، ثم يفسر دلالة المثل، ويعضد تفسيره للمثل بمثل آخر في المعنى نفسه، من ذلك ما ذكره في " باب الرمح " مستشهداً على قول رؤبة :

والدَّيْنُ يُحْبِي هاجِساً مهجوساً مَغْس الطَبيب الطعْنَةَ المَغُوسا

شدَّ بعَشْرٍ حَبْلَه المخموسا [2]

ويفسره بقوله :

المغس : الطعن، يقال : أجد في بطني مغساً، يقول : كما يغمس الطبيب أي كما يطعن الطبيب في الجرح، يقول : ما أجد من ألم الدَّيْن مثل هذا، فضربه مثلاً للدَّيْن . وقوله :

---

(1) نفسه 2/880، والبيت في ديوانه /79.

(2) نفسه 2/ 1089و 1090، الرجز في ديوانه : 68، وروايته " والدَّيْنُ يُحْمي هاجساً ..."

شدَّ بعشر، هذا مثَّل . يقول : أحكم أمره فجعل حبله على خمس قوى، وشد بعشر أصابعه .

قال الأصمعي : العرب تقول : بيدين ما أوردها، وما زائدة [1] . إذا أحكم الأمر فإذا عَمِل عملاً لم يجدً فيه قالوا :

أوردها سعد وسعدٌ مشتمل

ويعود لتفسير رجز رؤبة ويقول : وعنى بقوله شدَّ بعشر، صاحب القتب الذي يشده، يقول : أحقبه حقاباً شديداً، فاثر في صلب البعير .

وقد يفسر ابن قتيبة معنى البيت، ويجد أن ألفاظه توافق أمثال العرب فيذكر الأشباه والنظائر، وقد يخلص إلى مغزى البيت، ويفسره بأنه أتى به الشاعر ليضربه على معنى قصد إليه من ذلك ما استشهد به في باب " الأبيات في الحرب " .

بقول زهير بن أبي سلمى :

رعوا ما رعوا، من ظِمئهم، ثم أوْرَدوا غِماراً، تَفَرَّى بالسِّلاح، وبالدَّم [2]

ويفسره بقوله : الظِّمءُ : ما بين الشَّربَتين، والغِمار من الغَمْرة، وهي أعظم شأنهم . تفرَّى : تشقق عليهم بالسلاح وبالدم، وهذا مثل ضربه لما كانوا فيه من ترك الحرب، ثم وقوعهم في الحرب .

وعضد ما ذهب إليه بشاهد آخر من المعلقة نفسها :

ومَن يَعْصِ أطرافَ الزِّجاجِ فإنّه يُطيعُ العَواليْ، رُكِّبَتْ كلَّ لَهْذَمِ [3]

---

(1) أصل المثل " بيدين ما أوردها زائدة " هكذا في مجمع الأمثال وجمهرة الأمثال، وذكرا أن زائدة اسم رجل، وأن ما زائدة .

(2) المعاني الكبير 2/ 881 . والبيت في ديوانه /84، وروايته . " رَعَوْا ظِمْأهم حتى إذا تمَّ أوردوا " .

(3) نفسه 2/881 . والبيت في ديوانه /88 .

ويفسره بقوله :

يريد من عصى الأمر الصَغير صار إلى الأمر الكبير، وهذا مثلٌ . يقول : إن الزُّجَّ ليس يطعن به، إنما الطعن بالسّنان، فمن أبى الصلح وهو الزُّج أطاع العوالي، ومثلٌ للعرب "الطعن يظأر" أي يعطف على الصلح . أبو عبيدة : يقول : من لم يقبل السلم عفواً قبلها بعد أن يُغلب ويقتل قومه، وكانوا يرفعون الزِّجاج أولاً فإذا أرادوا الحرب قلبوها . واللَّهذم : المحدد الماضي من الأسنة، أي ركبت في كل لهذم .

وعضد تفسيره بشاهد آخر لم يسمّ قائله، ونص على المعنى الذي قصده الشاعر بأنه مثل، وفسّر معناه، وقال :

واسأل بهم أسداً إذا جعلت حرب العدو تشول عن عُقمِ [1]

ويفسّره بقوله :

عن بمعنى بعد، وهذا مثلٌ، وذلك أن الناقة إذا لقحت شالت بذنبها، فضربه مثلاً للحرب، أي قد لقحت ، فهي تشول بذنبها بعد أن كانت عقيماً لا تحمل، والمعنى أنها كانت ساكنة فهاجت .

ونجد أن ابن قتيبة يمثل بطائفة من الحيوانات، متخذاً من صيغة " أفعل " التفضيل منهجاً لتفسير معاني الأبيات، من ذلك ما ذكره في باب الأبيات في الضب من أمثلة ذكر فيها حيوان الضب مسبوقاً بصيغة (أفعل من) ضربها لتوضيح ما ورد في الشواهد من معان، واستشهد بقول خداش بن زهير :

فإن سمعتُم بجيشٍ سالك سَرِفا أو بطن مرفأٍ اخفوا الجرس واكْتتِمُوا

---

(1) نفسه 882/2، وفي اللسان (شول) " شالت الناقة بذنبها . . وكل ما ارتفع شائل " .

ثم ارجعوا فأكُبُّوا في بُيوتكم   كما أكبَّ على ذي بَطْنه الهَرِمُ [1]

ويفسره بقوله : الهَرِمُ : الضَّبُّ هاهنا، وجعله هَرِماً لطول عمره، وذو بطنه : ولده، والضَّبُّ يأكل حسوله، ولذلك قيل : أعقُّ من ضَب، كأنّه قال ارجعوا عن الحرب التي لا تستطيعونها إلى أكل الذرية والعيال، ويقال ذو بطنه : قَيْئُه، وأنه يقيء ثم يرجع، فيأكله كالكلب والسنور . ويعضد تفسيره بشاهد لعملّس بن عقيل بن عُلَّفة دون أن يعقّب عليه :

أكلتَ بنيكَ أكلَ الضَّبِّ حتى   وجدتَ مرارة الكلأ الوبيلِ [2]

ويذكر شاهداً آخر في المعنى نفسه :

أكلتَ بنيك أكل الضَّبِّ حتى   تركت بنيك ليس لهم عديدُ [3]

وقد يروي قصة المثل إشباعاً في التفسير، من ذلك ما ذكره في تفسير بيت كثَيِّر الذي يقول فيه :

ومُحْتَرِشٌ ضبَّ العَداوَةِ منْهُمُ   بِحُلْوِ الرُّقَى، حَرْشَ الضِّباب الخوادعِ [4]

ويفسره تفسيراً لغوياً، معتمداً على ما قاله الأصمعي في تفسير هذا المثل : " هذا أجل من الحرش "، ويقول : الاحتراش تحريك اليد عند جحر الضب ليخرج، فيرى أن حيَّةً تريد الدخول فيصاد .

وقال الأصمعي في قولهم : هذا أجلُّ من الحرش، إن الضَّبَّ قال لابنه : إذا سمعت

---

(1) المعاني الكبير 2/642. وفي اللسان (سرف) : و (سَرِفُ) : موضع .

(2) نفسه 2/642. وفي اللسان (وبل) : " والوبيل من المرعى : " الوخيم "

(3) نفسه 2/ 642 .

(4) نفسه 2/643. والبيت في اللسان (حرش) وفيه " حَرَش الضّب يحرشه حَرشاً : صاده ". وروايته " بحلو الخلى " ويقال : إنه لحُلو الخَلَى أي حُلْو الكلام .

صوت الحرش فلا تخرجن، فسمع الحِسل صوت الحفر، فقال لأبيه : أهذا الحَرش؟ فقال : يا بني هذا أجلُ من الحرش، فأُرْسِلت مثلاً، وقوله : ضب العداوة، يعني الحقد الكامن في هذا القلب، وإنما سُمِّي ضَبّاً؛ لأن الضبَّ إذا خدع في جحره وُصف عند ذلك بالمكر والخبث، فيقولون : خِبٌّ ضبٍّ و: أخدع من ضَبٍّ، فشبه الحقد الكامن الذي يعسر استلاله بالضب إذا خدع في جحره، أي دخل، وهو حينئذٍ أخبث ما يكون وأعسر صيداً [1].

ويستقصي ما ضرب من أمثال في الضب، ويستشهد بالمثل ليفسر مستغلق ألفاظ الشعر، ويوضح المعنى المراد، من ذلك ما قاله في قول الطِّرِمَّاح وذكر فلاة :

يقيمُ بها الذئبُ الأزَلُّ وقوتُه ... ذواتُ المرادي من مَنَاقٍ ورُزَّحِ [2]

ويفسره بقوله :

ذوات المرادي : الضِّباب، والمرادي الصُّخور، واحدها مِرداة، والضبُّ سيء الهداية، فإذا حفر لنفسه جحراً حفره عند صخرة ليجعلها علماً له، لأنه لا يأمن أن يغلط فيَلِجُ على ظربان أو وبر فيأكله، ولذلك يقال في المثل : كل ضبٍّ عند مرداته، والمناقي : السِّمان، والرُّزَّح : المهازيل .

ويضرب عدة أمثلة على صيغة " أفعل التفضيل " ليفسر المعنى المقصود في الشاهد الذي يذكره، من ذلك ما قاله في هذا البيت :

منا تينُ أبرامٌ كأنَّ أكفَّهم ... أكفُّ ضِبابٍ أُنشِقَتْ في الحبائل [3]

ويفسره بقوله : أنشِقَتْ : عَلِقَتْ . يقال : أقصر من إبهام الضَّبِّ، وأقصر من إبهام الحبارى، وأقصر من إبهام القطاة، أراد صغر أكفهم .

---

(1) المعاني الكبير 2/643، 644.

(2) نفسه 2/645، وفي اللسان (زلل) : " والأزَلُّ : الخفيف الوَرِكين . والأزلُّ الأرسح، وهذه صفة لازمة للذئب .

(3) نفسه 2/651 . وجاء في اللسان (برم) : " البَرَم : الذي لا يدخل مع القوم في المَيْسر، والجمع أبرام .

فقد ضرب ابن قتيبة الأمثال التي وردت بصيغة " أفعل التفضيل " مقترنة بمن ، داخلة على اسم يمثّل به لمعنى من المعاني، اشتهر فيه حتى ضرب به المثل، وقد قال زلهايم عن هذا النوع من المثل الذي جاء على صيغة (أفعل من) : " ويندرج تحت التعبير المثلي، كذلك المبالغة في التشبيه باستعمال صيغ أفعل من .... ويفترق التعبير المثلي " عن المثل " في أنّه لا يعرض أخباراً معينة عن طريق حالة بعينها . لكنه يبرز أحوال الحياة المتكررة والعلاقات الإنسانية في صورة يمكن أن تكون جزءاً من جملة . والتعبيرات المثلية عبارات قائمة بذاتها تشتمل على إتباع في بعض الأحيان، وهي تثري التعبير وتوضحه بسبب ما فيها من بيان عظيم، وهي مشهورة متداولة على العموم[1]".

وقد أورد ابن قتيبة عدداً من الأمثال على وزن (أفعل من)، معظمها مضروب على ألسنة الحيوان، وهي تعالج قضية اللغة، فقد ساقها من أجل هدف لغوي، واستخدمها من أجل التفسيرات اللغوية التي تجلو معنى النص، وتفك مستغلق ألفاظه، وتوضح المراد منه، من ذلك ما ذكره في باب " الأبيات في النعام "، مستشهداً بقول ابن هرمة :

فإنّي وتركي ندى الأكرمين وقدحي بكفَّيَّ زنداً شحاحا
كتاركةٍ بيضها بالعراءِ ومُلْبِسَةٍ بيضَ أخرى جناحا[2]

ويفسره بقوله:

ويقال في المثل : أموق من نعامة، وذلك أنها ربما خرجت للطعام، فرأت بيض نعامة أخرى، قد خرجت لمثل ما خرجت له فتحضن بيضها، وتدع بيض نفسها، ويقال : أخرق من حمامة، وذلك لأنها لا تجيد عمل العش، وربما وقع البيض فانكسر، واستشهد على المعنى نفسه بقول عبيد :

---

(1) الأمثال العربية القديمة /30، 31.

(2) المعاني الكبير 1/ 359. والبيتان في حماسة البحتري /115، 116.

عَـــيُّـــوا بأمـــرهم كـــمـــا   عـــيَّتْ ببْـيـضـتـهـا الحـمـامَـهْ
جَــــعَلَتْ لـهـــا عُـــــودَيْن مِنْ   نشَـم وآخَـــر من ثُـمـــامَـــهْ [1]

ويفسره بقوله : النشم شجر تتخذ منه القسي صلب، والثّمام نبت ضعيف، يقول : قرنت هذا بهذا فسقط البيض فانكسر، ويقال أيضاً : أخرق من عقعق، لأنه وإن كان حذراً، فإنه من الطير الذي يضيّع بيضه وفراخه، ويقال : أسرق من كندش، وهو العقعق . فقد فسر ابن قتيبة الأبيات تفسيراً لغوياً، وضرب الأمثال شاهداً على ما ينطق به صحة الشعر، وبيّن من خلال تفسيره نوع النبات الذي تتخذ منه القسي، ونوعاً من أنواع النبات المنتشر في الجزيرة العربية .

ومن ذلك ما ذكره في باب " الأبيات في الشاء والمعز " ، مستشهداً بقول حميد بن ثور وقد ذكر بعيراً :

مُـــحَلىً بأطواقٍ عِـــتـــاقٍ يَبـــينُـهـــا   على الضـــرِّ راعي الضـأنِ لا يتــقـوّفُ [2]

ويفسره مستشهداً على تفسيره بمثل يعضد ما ينطق به الشعر ويقول :

خص راعي الضأن لجفائه وجهله بأمر الإبل، يقال في المثل : أجهل من راعي ضأن، لايتقوف من القيافة، أي لا يطلب أمراً يستدل على نجابته، لأن النظر إليه يدل عليه .

وقد جمع حمزة الأصفهاني في كتابه " الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة " عدداً من ألأمثال التي ذكرها ابن قتيبة في كتابه " المعاني الكبير " ، وزعم أن بعضاً منها مولّد، من ذلك ما ذكره ابن قتيبة في باب " الأبيات في القراد " مستشهداً بقول الشمّاخ وذكر ناقته :

---

(1) نفسه 1/359، والبيتان في ديوانه /126، ورواية البيت الأول : بَرِمَتْ بنو أسَد كما ... برمت)

(2) نفسه 2/693، والبيت في اللسان : (قوف) ورواية عجزه : " على الضَّزْنِ أغْبى الضأن لو يَتَقَوَّفُ .

وَجِلْدُها مِنْ أطومٍ مـــا يُؤيِّسُـــهُ طِلْحٌ بِضاحِيَّةِ الصَّيْداء مَهْزولُ [1]

ويفسره تفسيراً لغوياً مؤيداً تفسيره بمثل " أسمع من قراد " قال عنه حمزة الأصفهاني إنه مثلٌ مولّد، وذكر ابن قتيبة مثلاً آخر على صيغة (أفعل من) : ألزق من قراد، وبقول من أقوال العرب " ما هو إلا قراد ثفر " . ويقول : أي جلد الناقة كجلد أطوم، وهي سمكة تكون في البحر غليظة الجلد، ما يؤيسُه : ما يؤثر فيه من غلظه، طِلحٌ : قراد . بضاحية يعني حصاة ظاهرة للشمس، شبّه القراد به، والصيداء حجارة البرام، والعرب تقول : ألزق من قراد، وما هو إلا قراد ثفر ، وتقول : أسمع من قراد، ويستدلون عند المياه على قرب الإبل منهم بانتعاش القردان .

ومن هذه الأمثال، (أسلح من حبارى) و (أشرد من نعام)، وقد استشهد بها ابن قتيبة في باب " الأبيات في الحبارى " وذكر قول الراعي :

تنوش برجليْها وقد بلَّ رِيشَها رَشاشٌ كَغَسْلِ الوَفْرَةِ المُتَصبِّبِ [2]

ويفسره بقوله : تنوش برجليها أي تضرب بهما، والغسل : الخطمي . يريد سلحت على ريشها، ويقال في المثل "أسلح من حُبَارى " . ويستشهد على المثل بشاهد شعري فيه مثلان :

وهم تركوك أسْلَحَ من حُبَارى وهم تركوك أشردَ من نعام [3]

ونرى ابن قتيبة يعضد تفسيره بأكثر من مثل، فتحتشد الأمثال وتتوالى، وبعضها يفسر معاني بعضها الآخر، وتدور في فلك النص، لإزالة الإبهام والغموض عن معانيه، من ذلك ما ذكره في باب " أبيات المعاني في الكلاب "، مستشهداً بقول مساور :

(1) المعاني الكبير 2/ 631. والبيت في ديوانه / 97. وقال محقق الديوان : الأَطْومُ : سلحفاة بحرية غليظة الجلد "

(2) نفسه 1/ 293. والوَفْرَةُ : الشعر على الرأس كما في اللسان (وفر).

(3) نفسه / 293. وفي اللسان " أسلح من حُبَارى، لأنّها ترمي الصَّقر بسَلْحِها إذا أراغها ليصيدها " (حبر)

بني أسـد إن تُـمـحل العـام فَـقْـعَس   فـهـذا إذاً دهرُ الكلابِ وعَـامُـهـا [1]

ويفسره بقوله :

وقول العرب في مثل من أمثالها " فلان يثير الكلاب عن مرابضها " يراد به لؤمه وطمعه، وأنه يثيرها، يطمع أن يجد في مواضعها شيئاً يأكله، ومن أمثالهم " ألأم من كلب على عَرق " .ومن أمثالهم " سمن كلب في جوع أهله " وذلك إذا وقع في الإبل السَّواف فماتت فأكل . . . . "[2] .

فقد اهتم ابن قتيبة بضرب الأمثال التماساً لتفسير أبيات المعاني، وشرح ألفاظها، وتقريب معنى النص وجلاء غوامضه وفك مُسْتَغْلَقه، وقد يذكرها للاستئناس على معنى عام، أو قاعدة لغوية، أو للدلالة على أصل المعنى، ويظهر من خلال تناوله للأمثال أنّ أغلب ما كان يستشهد به يأتي لتوثيق الألفاظ ومعانيها أو لتوضيح دلالة لفظ، أو لتضمين بعض الحروف الجارة لبعضها الآخر، وغيرها من الأغراض التي هدف إليها، وكان ينص على القائل أحياناً، أو يكتفي بقوله (ويقال) أو (تقول العرب) وغيرها وكان ينسب بعض الأمثلة والأقوال التي وردت كشواهد، وبعضها لم ينسبها .

وقد أخذ أمثاله عن جميع العرب، واستشهد بكلام الحجازيين وأهل اليمن وغيرهم، ليوثق الألفاظ ومعانيها، فكان في هذا المنهج كوفيَّ النزعة، لأنه وسّع دائرة الاستشهاد، في حين أخذ البصريون عن قبائل معينة، وقد نقل السيوطي ما ذكره أبو نصر الفارابي في أوَّل كتابه المسمّى (الألفاظ والحروف) أسماء القبائل التي يؤخذ عنها وهي : قيس، تميم، أسد، هذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين .

أمّا القبائل التي لم يؤخذ عنها فهي : لخم، جذام، قضاعة، غسّان، إياد، تغلب، النمر،

---

(1) نفسه 1 / 241. وفي اللسان (فقعس) : حيٌ من بني أسد أبوهم فقْعس بن طريف بن عمرو " .

(2) نفسه 1 / 241. وفي اللسان (سوف) " " السَّواف : " الفناء، وهو مرض الإبل " .

بكر، عبد القيس، أزد عُمان، أهل اليمن، بنو حنيفة، وسكان اليمامة، ثقيف، سكان الطائف، وحاضرة الحجاز (1) .

وقد وضع اللغويون معيارين لأخذ المادة اللغوية عن القبائل، أحدهما أن تكون القبيلة بدوية غير متحضرة، لغتها فصيحة، لم تختلط بلغات أخرى، والثاني معيار زماني، وقد حددوا نهاية القرن الثاني للأخذ عن عرب الأمصار، ونهاية القرن الرابع الهجري للأخذ عن عرب البادية (2) .

كما وضعوا معايير للاحتجاج بالشعر، وصنفوا شعراء العربية إلى أربع طبقات، وهي طبقة الجاهلين، وطبقة المخضرمين، وطبقة الإسلاميين، وطبقة المولدين، ويقال لهم المحدثون، وهم الذين عاشوا ابتداءً من العصر العباسي، وقد أجمعوا على صحة الاستشهاد بشعر الطبقتين الأوليين، كما ذهبوا إلى صحة الاستشهاد بشعر الطبقة الثالثة، ورفضوا الاستشهاد بشعر الطبقة الرابعة .

وعندما أراد ابن قتيبة أن يدوّن معاني اللغة معتمداً على الشعر، فقد خالف علماء اللغة في عصره، ولم يقصر استشهاده على الطبقات الثلاث، وإنما أخذ من شعر الطبقة الرابعة، فأخذ من الجاهليين أمثال : امرئ القيس والحارث بن حلّزة والأعشى، والمخضرمين أمثال حسان بن ثابت والحطيئة وكعب بن زهير، والإسلاميين أمثال : الأخطل وابن هرمة، والعباسيين أمثال : بشار بن برد وخلف الأحمر . وقد تكثّر من شعر الأعصر الثلاثة الأولى، ولم يُكْثر من شعر العصر الرابع، وانتخب من الشعراء من عرف بفصاحته وسليقته العربية .

وقد روى ابن قتيبة عن شيوخه من علماء المدرستين الكوفية والبصرية، فمن الكوفيين روى عن أبي عمر الشيباني (– 206 هـ)، وابن الأعرابي (–231 هـ)، ومن البصريين روى

---

(1) الاقتراح للسيوطي /56، 67. والمزهر للسيوطي 1/211، ومقدمة ابن خلدون /523.

(2) نظرات في اللغة والنحو، لطه الراوي : 23، واللغة والنحو : عبّاس حسن : 24

عن أبي عمرو بن العلاء (–157 هـ)، وأبي عبيدة (–210 هـ)، والأصمعي (–213هـ)، وأبي زيد الأنصاري (–215 هـ)، وأبي حاتم السجستاني (–255 هـ)، والرياشي (–257هـ)، وغيرهم .

وواضح أن ابن قتيبة قد أخذ عن البصريين أكثر من الكوفيين، ولعل ذلك يعود إلى طول إقامته في البصرة وتلقيه علومه على أكابر علمائها وتأثُّره بهم . وهذا ما حدا بابن النديم إلى أن يقول عنه : " إنه كان يغلو في البصريين [1]" . إلا أنه لم يقدح أحداً من شيوخه على اختلاف مذاهبهم العلمية، بل احترم آراءهم جميعاً، وكان ينقل خلافاتهم في تفسير الألفاظ أو رواية الأبيات بدقة وأمانة علمية .

ويعد كتاب " المعاني الكبير " مصدراً أساسياً من مصادر التراث العربي، فقد احتجن ثروة لغوية مهمة، لا غنى للدارس عنها، وامتاز بجِّدة المنهج، وصحة الألفاظ، وبثروته اللغوية النقدية التي تمثل عناية ابن قتيبة بمعنى اللفظة وهي مفردة، وبالمعنى العام للبيت الذي توجد فيه اللفظة، كما امتاز بالمنهج العلمي الذي سلكه في تفسيرغريب الألفاظ، فكان يفك مغلق الكلمة، ثم يجيل النظر في اشتقاقها وصيغها، ويحاول إرجاعها إلى أصولها، ثم يعرض لوجوه استعمالها، وتطورها، ويلتمس سبب تسميتها، ثم يعمد إلى توثيق مذهبه في التفسير، وإيراد شواهد من كلام الفصحاء، شعراً ونثراً، كالأمثال والأقوال والحكم والمأثور من كلام العرب، لشد أزره فيما يذهب إليه، ولا يغفل توجيهاته النحوية والتصريفية، مستأنساً بآراء علماء اللغة والنحاة الأثبات، التي تضيء تفسير النصوص، ولكنه لم يكن مجرد ناقل لتلك الآراء، بل كان ناقداً لغوياً امتاز بحسّه اللغوي السليم، فكان يقلب العبارة على وجوه متعددة، ويتصرف بها تصرف العالم الفقيه بأسرار اللغة، ويعرض أقوال العلماء في وجوهها، فقد يقبل رأياً، ويرد آخر، وقد يرجح بين عدة أقوال، ويرتضي القول الذي يتَّسق مع معنى النص والسياق اللغوي، ويفتي بالرّاجح مؤكداً

---

(1) الفهرست /115.

شخصيته العلمية المستقلة، ودرايته بمعاني الشعر التي أمدته بأداة قوية للحكم عليها، وتمييز الصحيح من الخطأ من الألفاظ، والاختلاف في رواية الألفاظ، أو الخطأ فيها وتصويبها .

وامتاز الكتاب بالترتيب والتنظيم والتأليف المتّحد، فابن قتيبة يسير وفق ترتيب موضوع وتخطيط مسبق مدروس واتساق فكري وتسلسل منطقي، وكان إذا أراد تقريب فكرة ألحّ عليها في صور شتّى مستشهداً بشواهد من قصيدة واحدة أو من قصائد شتى لشاعر أو لشعراء آخرين، من ذلك ما جاء في كتاب الخيل فقد عقد عدة أبواب استقصى فيها تشبيه الخيل بالعقاب وبالبازي وبالصقر وبالنعامة وبالوعل والظبي وبالطير وبالرشا وبالسهم وبالخذروف وبالحجر وبالجرادة وبالكلاب وبالثور وبالناس وبالعصا وبالدلو وبالماء والسيل، وكان يستقصي رسم ملامح الصورة في كل باب من الأبواب، مبرزاً أدقّ التفاصيل والخطوط والألوان والحركات لتتضح الفكرة وينكشف المعنى، متخذاً من التحليل اللغوي منهجاً لتحقيق غايته، مراعياً في الوقت نفسه تسلسل الأفكار وترابطها، محاولاً أن يسلم كل فكرة لأخرى، حريصاً على تأييدها بفكرة أخرى أو بما يقابلها من فكرة معارضة، من ذلك ما ذكره في باب الأبيات في النعام مستشهداً بقول الكميت يصف النعام واستقباله للريح :

فاستوأرت بفريّ كاد يجعله طيرورةً زفيانُ الحَرْجفِ الزَّجِلِ [1]

ويفسره بقوله :

فاستوْأرَتْ : مرّت على نفارٍ، والفري : العدو الشديد، وزفيان : صوت، والحرجف : ريح ممتدة، والزجل : المصوت . ويقال زفيان من زفاه يزفيه أي استخفه وطرده، يقول : كاد طرد الريح له أن يجعل عدوه طيراناً، والظليم يستقبل الرّيح إذا عدا وكلّما اشتد عصوف الرّيح كان أشد لعدوه .

---

(1) المعاني الكبير 1/350. وجاء في اللسان (ورأ) : " اسْتَوْرَأتِ الإبل إذا تَرَابعَت على نِفار واحد " .

ويعضد تفسيره لألفاظ البيت وتحليله اللغوي برأي أبي عبيدة ويقول : وقال أبو عبيدة: وإنما يستقبلها لأنه إن استدبرها أكبته، فيضع عنقه على ظهره ثم يخرقها .

ويستشهد بقول عالم لغوي آخر غير أبي عبيدة، تمهيداً لتأييد فكرته بنص آخر في وصف حيوان آخر يتفق مع النعام في خصائصه، ويقول :

قال غير أبي عبيدة : والثور أيضاً يستقبل الريح إذا عدا . ويستشهد ببيت لعبدة بن الطيب يصف استقبال للريح :

مُسْتَقبِلَ الرِّيحِ يَهْفُو وَهْوَ مُبْتَرِكٌ ... لِسَانُهُ عن شِمَالِ الشِّدْقِ مَعْدُولُ (1)

ويفسره بقوله : والثور إذا عدا أخرج لسانه من الشدق الأيمن، وعدله إلى الأيسر .

ويستقصي في توضيح الفكرة في وصف الذئب واستقباله للريح، مستشهداً بقول طفيل الغنوي :

كسيد الغضا الغادي أضلَّ جراءَه ... علا شرفاً مُسْتَقْبِلَ الرِّيحِ يلحَبُ (2)

ويؤيد الفكرة بشاهد آخر للأخطل يصف الظليم والنعامة حيث يقول :

تعاوَرا الشَّدَّ، لَمَّا اشْتَدَّ وَقْعُهُما ... وكان بَيْنَهما، من غائطٍ، وَشَعُ

خَمْساً وَعشرِينَ، ثُمَّ اسْتَدْرَعَتْ زَغَباً ... كأنَّهنَّ، بأعْلى لَعْلَعٍ رِجَعُ (3)

ويفسرهما بقوله :الوَشَع : الطريقة من الغبار، وهي الوشائع، شبّه طرائق الغبار إذا عدا بوشائع الثوب، وهي الخيوط التي لحم بها السَّدى، وقوله : خمساً وعشرين، يعني أنهما

---

(1) نفسه 1/350. والبيت في المفضليات : / 282.

(2) المعاني الكبير 1/350، والبيت في ديوانه /45/ وينظر " طفيل الغنوي : حياته وشعره " د . محمد عبد القادر أحمد ص / 84.

(3) نفسه 1/350، 351، والبيتان في ديوانه : 1/362، 363.

يختلفان إلى بيضهما خمساً وعشرين ليلة، حتى استدرعت فراخها زغباً أي تدرعت، رِجَعُ: حواسر الإبل وصغارها .

وإذا جاءت فكرة معارضة للفكرة التي يناقشها، أيّد الفكرة المخالفة بما يلائمها من أبيات المعاني، من ذلك ما ذكره في باب " الأبيات في الحيّة " مستشهداً ببيت لموسى بن جابر الحنفي يتحدث فيه عن أكل الأروى للحيات، ثم جاء بنص لخلف الأحمر يتحدث فيه عن أكل الذئاب للحيات، وهي فكرة معارضة مخالفة للمتعارف عليه، لأن الذئاب تأكل الضباب .

وبدأ بذكر بيت موسى بن جابر الحنفي وذكر حية :

طرد الأروى فـما تقـربه ونفى الحيات عن بيض الحجل (1)

وعقب عليه يقول : فخصّ الأروى لأنها تأكل الحيات، ثم ساق قول خلف الأحمر :

أبى الحارون أن يطؤوا حماه ولا تسري بعقوته الذئابُ (2)

وعقَّب عليه بقوله :

سئل خلف عن ذلك، فقال : لأنّ الذئاب تأكل الحيات، ولا نعلم أنّ أحداً قال ذلك، والذئاب تأكل الضباب .

وكما يستقصي ابن قتيبة معالجة الفكرة التي يريد التعبير عنها في صور شتى، فإنه يستقصي معالجة النص لغوياً، ملتزماً إشباع التفسير، وحشد الشواهد الشعرية، وعرض آراء علماء اللغة في التفسيرات اللغوية، من ذلك ما قاله في كتاب الخيل " العجز والفخذان "

(1) نفسه 2/666. والبيت في اللسان : (روي) : والأُرْوِيَّة؛ الأنثى من الوعول، فإذا كثرت فهي الأروى على أفْعَل على غير قياس " .

(2) نفسه 2/667. وفي اللسان (عقا) : " العَقْوَةُ والعقَاة السّاحة وما حَوْل الدار " . و" حوا " " رَجلُ حَوَّاءُ . وحاوٍ: يجمع الحَيَّات : والحاوي : صاحب الحيَّات " .

مستشهداً بقول امرئ القيس :

سَلِيمُ الشَّظى عَبْلُ الشَّوى، شَنِجُ النَّسا   لَهُ حَجَباتٌ مُشْرِفات على الفالِ (1)

ويفسره بقوله :

الشظى : عظم لاصق بالذراع، فإذا تحرك قيل شظي الفرس، شَنِج النسا : قصيره، والنَّسا : عرق مستبطن الفخذين حتى يصير إلى الحافر، فإذا هزلت الدابة ما جت فخذاه، فخفي، وإذا سمنت انفلقت فجرى بينهما كأنه حيّة، وإذا قصُر كان أشدّ لرجله .... ويأتي ابن قتيبة بشاهد شعري مفسر لكلمة " النسا " ويقول : قال :

بشَنِجٍ موتَّرِ الأنساء

فإذا كان فيه توتيرٌ فهو أسرع لقبض رجليه وبسطهما، غير أنه لا يسمح له بالمشي، وضروب من الحيوان توصف بشنج النسا، وهي لا تسمح بالمشي كالظبي .

ويعضد تفسيره اللغوي للكلمة ببيت آخر لأبي دَاود الإيادي :

وقُصْرى شَنْجِ الأنساءِ، نَبَّاحٍ من الشُّعْب (2)

ومنها الذئب وهوأقزل، وإذا طرد فكأنه يتوجّى، ومنها الغراب وهو يحجل كأنه مقيّد واستشهد على المعنى نفسه بقول الطِّرمَّاح :

شَنِجُ النَّسا حَرِقُ الجَناح، كأنَّه،   في الدارِ إثْرَ الظَّاعنينَ مُقَيَّدُ (3)

ويعود إلى تفسير بيت امرئ القيس ويقول :

والحجبات واحدها حجبة، وهي رأس الورك التي تشرف على الجاعرة، والفال عرق يخرج من فَوَّارة الوَرِك، يقول : قد أشرفت حجبته على هذا العرق .

---

(1) المعاني الكبير 1 / 151 . والبيت في ديوانه / 143 . وفيه الفالي : اللحم الذي على الورك، وأصله الفائل .

(2) نفسه 1 / 151 . والبيت في أدب الكاتب / 116 .

(3) نفسه 1 / 151 . والبيت في اللسان (شنج)، في وصف الغراب وهو يَحْجِلَ كأنه مقيد ." .

ويستشهد بقول أبي النجم ليعضد تفسيره لكلمة (الفال) :

طامحـــة الطـــرف نبـــأة الفائـــل[1]

نبأة : مشرفة، والفائل والفال واحد، أراد مشرفة موضع الفائل .

ويعود ليعضد تفسيره لكلمة " النَّسا " ببيت شعر لطفيل الغنوي :

على كل مُنْشَقٍّ نَسَـــاها طِمِـــرَّةٍ ومُنْجَـــرِدٍ كـــأنّه تَيسُ حُلَّبُ[2]

ويفسره بقوله : منشق نساها يريده موضع نساها، منشق لأنها سمينة، فقد انفلقت فخذاها، كما يقال : فلان شديد الأخدع، يراد شديد العنق، والأخدع عرق في العنق، وفلان شديد الأبهر، وهو عرق في الظهر، يريد الظهر .

ويورد شاهداً في معرض تحليله لكلمة " النَّسا " للنابغة الجعدي :

فليقُ النَّســـا حَـــبِطُ الموقـــفَـــيْـــنِ يَسْـــتَنّ كـــالتَّـــيس في الحُلَّبِ[3]

ويفسره بقوله : فليق النَّسا مثل منشق النَّسَا، والموقف ما دخل في وسط الشاكلة إلى منتهى الأطرة من منتهى الخاصرة، أراد أنه منتفخ .

ويذكر شاهداً على معنى " فليق النسا " لأبي ذؤيب :

مُـــتَـــفَلِّقٌ أنْســـاؤُهاعَنْ قـــانِىءٍ كـــالْقُـــرْطِ صَـــاوٍ، غُـــبْـــرُهُ لايُرْضَعُ[4]

ويفسره بقوله : تفلقت أنساؤها عن ضرع أحمر كالقرط في صغره، وصاو يابس، والغبر بقية اللبن، وإنما أراد أنها لم تحمل، وإذا لم تحمل كان أصلب لها، ومثله في الكلام" فلان لا

---

(1) نفسه 1 / 152 . وفي اللسان (فيل) : " والفائل : اللحم الذي على ضرب الورك، وقيل : هو عِرْق " .

(2) نفسه 1 / 152 . والبيت في ديوانه /30 . وينظر كتاب طفيل الغنوي . د . عبد القادر أحمد /196 .

(3) نفسه 1 / 152 . والبيت في اللسان : " نسا " .

(4) نفسه 1 / 152 . والبيت في المفضليات /878 . وشرح الهُذَلِيِّين 1 / 35 .

يرجى خيره " أي ليس له خير يرجى .

فقد استوفى ابن قتيبة التحليل اللغوي للنص، واستقصى تفسيره لكلمة النَّسا، مورداً أبياتاً عديدة لشعراء مختلفين، مفسّراً ما بدا له في كل شاهد من ألفاظ تفسيراً لغوياً، ويشرح معناه، فاتَّسعت بذلك دائرة التفسير لديه، وصدر بذلك عن مادة لغوية ثرة، وظفت في بابها المعقود لها .

ويربط ابن قتيبة بين تفسيره اللغوي وأقوال العرب، مستنداً إلى معرفته بأساليبهم ومآخذهم في القول، وافتتانهم بألوان التعبير اللغوي، من ذلك استعمالهم الفعل (رمى) متعدياً بنفسه ومتعدياً بحرف الجر (على)، وقد أفاد من هذا الاستعمال ووظفه في تفسير قول ذي الرِّمَّة في باب " القسي والسهام " :

أخو شُقَّةٍ يَرْمي على حيثُ تَلتَقي   من الصَّفحة اليُسرى صُحارٌ وواضِحُ [1]

ويفسره بقوله :

" صحار " حمرة إلى بياض وهي الصحرة، و" واضح " بياض، وهو ما وَضَحَ من إبطه، فأراد حيث يجتمع ذا وذا عند الفريصة، وهي مضغة لحم تحت الإبط ممَّا يلي الجنب، والعرب تقول : رماه ورمى عليه، يقول : فهذان يلتقيان عند مَقَطِّ الجنب حيث تنقطع الأضلاع، والمقتل في الجنب الأيسر وفيه القلب .

فقد اهتم ابن قتيبة بالدرس اللغوي اهتماماً كبيراً، واتّخذ كتاب المعاني الكبير النص الشعري محوراً يدور في فلكه، ومن خلاله يبسط اللغة ويعالج قضاياها ويقف على ظواهرها، ويفسره تفسيراً لغوياً، فالنص عنده يدور في دوائر من لغة وأدب ونحو وصرف وبلاغة ونقد وموعظة ومثل وتاريخ، لكن النواة الأولى في الكتاب تبقى اللغة، وما سواها فنون متعددة متباينة، وتحليل النص يكشف عن اقتدار ابن قتيبة وعن امتلاكه الملكة

(1) نفسه 2/1057 . والبيت في ديوانه 2/902، وروايته " أخا شَقْوةٍ " .

النقدية القادرة على فهم النص واستيعابه ونقده والحكم عليه وتذوقه تذوق الخبير اللغوي والناقد الأدبي الذي أخضع عمله لمقاييس العقل والذوق السليم .

وتبدو قيمة الكتاب اللغوية في احتجانه نصوصاً تضمنت غريب اللغة، وقدرة ابن قتيبة على معالجة هذا الغريب تؤكد أن اللغة كانت وُكده وهدفه، يتوخى الدقة في التمييز بين الصيغ واستعمالاتها ودلالاتها، من ذلك ما جاء في كتاب الخيل باب " في مغازيهم " مستشهداً بقول بشر بن أبي خازم :

بِكُلِّ قِيَادِ مُسْنَفَةٍ عَنُودٍ   أضرَّ بها المَسَالِحُ والْغِوَارُ (1)

ويفسره بقوله : مُسْنِفَةٌ : مُتَقَدِّمَة، عَنُود لا تستقيم على حالة، ولكنها تعارض، والمسالح مواضع القتال حيث يستعمل السلاح، والغوار المغاورة، مُسْنِف بالكسر في الفرس، وبالفتح في البعير .فقد كشف النص عن الدقة اللغوية عند العرب، فبنية الكلمة الصرفية تحدد استعمالاتها ودلالتها . وقد فسّر غريب الألفاظ، مقلباً الكلمة على وجوهها المختلفة ولغاتها المتعددة، ذاكراً وجوه اشتقاقها وصيغها، مبيناً معنى الكلمة في السياق اللغوي، من ذلك ما ذكره في كتاب " الطعام والضيافة "، باب " العقر للأضياف " مستشهداً بهذا البيت :

وَقَدْ فَدَى أَعْنَاقَهُنَّ المَحْضُ   والدَّأْضُ، حتى ما لهن غَرْضُ (2)

ويفسره بقوله :

أي كانت لهن ألبان نقري منها، ففدت أعناقها من النحر، والغرض أن يكون في جلودها نقصان، والدأض أن لا يكون فيها نقصان، يقال : دئض يدأض دأضانا بالضاد والصاد جميعاً، ويقال : بالظاء ، دأظ يدأظ دأظاً والاسم الدأظ .

---

(1) المعاني الكبير 1 / 97، والبيت في المفضليات / 672.

(2) نفسه 1 / 397، والبيت في اللسان (دأض)، ورواية عجزه " حتى لا يكون غَرْض " .

ومن الغريب الذي فسره ابن قتيبة ما ذكره في كتاب " الطعام والضيافة " باب " شدة الزمان والجدب " مستشهداً بقول الكميت :

وكاعبهــم ذات الغفــارة أسغــب [(1)]

وعلّق عليه قائلاً :الغفارة شعر الصدغ وما يليه .

وجاء البيت في شرح هاشميات الكميت :

وبات وليــدُ الحيِّ طيَّــان ســاغِــبــاً وكــاعِــبُــهم ذات الغــفــارِة أسْــغَبُ

ويروى : القفاوة [(2)]

وانفرد ابن قتيبة بتفسير الغفارة في المعاني الكبير، ولم يرد هذا التفسير في معاجم اللغة و" وإنما الغفارة خرقة تلبسها المرأة فتغطي رأسها ما قبَل منه وما دَبَر غيرَ وسْطِ رأسها، وقيل الغفارة خرقة تكون دون المقنعة تُوقي بها المرأة الخمار من الدهن، وأمّا الغفير والغفيرة فشعر العنق واللحيين والجبهة والقفا . . "[(3)] .

ومن هذه الألفاظ الغريبة التي انفرد ابن قتيبة بتفسيرها لفظ " النسف " الذي جاء في قول النابغة الجعدي في باب " الدعاء بالشر واليمن " :

إذًا فــعــدِمت المال إلا مــقــيَّــراً بأقــرابه نِسْفٌ من العــرِّ جــالبُ [(4)]

ويفسره بقوله :

---

(1) نفسه 1/414، والبيت في شرح هاشميات الكميت بتفسير القيسي ص /78. وفي اللسان (غفر): الغِفَارة، بالكسر : خرقة تلبسها المرأة فتغطي رأسها ما قَبَلَ منه وما دَبَرَ غَيْرَ وَسْطِ رأسها " .

(2) شرح هاشميات الكميت للقيسي /78. وفي اللسان (طوى) :" والطيَّانُ : الجائعُ . ورجل طيَّان : لم يأكل شيئاً .

(3) المعاني الكبير 1/(414 الحاشية).

(4) نفسه 2/ 836.

المقيَّر البعير المهنوء، والنسف أشد الجرب، جالب ذو جلب .

وعلق محقق المعاني على تفسير ابن قتيبة وقال : لا أعرف النسف بهذا المعنى[1]، وجاء في أساس البلاغة : " وانتسف لونه تغيّر وبالشين"[2] .

ومن الغريب الذي انفرد بتفسيره ابن قتيبة في المعاني الكبير لفظ (الأُرْنَة) في قول ابن أحمر الذي استشهد به في باب " الأبيات في الحرباء " حيث قال :

وتَقَنَّعَ الحِرْباءُ أُرْنَتَهُ ... مُتَشاوِساً لوَرِيدِهِ نَقْرُ[3]

وعلّق عليه قائلاً :

سألت عنه السجستاني فقال : " الأُرْنَةُ " ما لُفَّ على الرأس، قال : ولم أسمعه إلاّ في هذا البيت، قال : وفي شعر ابن أحمر ألفاظ لم يُسمع بها إلاّ في شعره وهي قوله :

مارِيَةٌ لُؤْلُؤانُ اللَّوْنِ أوَّدَها ... طَلٌّ وبَنَّسَ عنها فَرْقَدٌ، خَصِرُ[4]

أراد تأخر، وتسميته السم الجوزل، والنار ماموسة . في بيت قاله :

تَطايَحَ الطَّلُّ عن أعْطافِها صُعُداً ... كما تَطايَحَ عن مامُوسَةِ الشَّرَرُ[5]

ومن الغريب الذي ورد في المعاني الكبير وفسره ابن قتيبة قول العجاج في باب "الأبيات في الوعيد" :

---

(1) نفسه 2/ 836. (الحاشية).

(2) أساس البلاغة، للزمخشري /952.

(3) المعاني الكبير 2/658. والبيت في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة /1/365. وفي اللسان (أرن) ورواية صدره : " وَتَعَلَّلَ الحِرْباءُ أُرْنَتَهُ " وقال : وكنى بالأرنة عن السَّراب لأنه أبيض . وقيل: الأرنة: ما لُفَّ على الرأس .

(4) المعاني الكبير 2/658. والبيت في جمهرة أشعار العرب /676. وفيه " المارية " البقرة الوحشية.

(5) نفسه 2/658. والبيت في الشعر والشعراء 1/364.

والشَّـوْقُ شَـاجٍ للعُيُـونِ الحُـذَّلِ [1]

ويفسره بقوله :

يقول هو الذي حذَّلها وأبكاها . ويعلق محقق الكتاب على هذا التفسير ويقول : " لم أجد حُذَّل بمعنى أحذل في معاجم اللغة " ، فمصدر الغرابة في اللفظ تفسير ابن قتيبة صيغة فُعَّل بمعنى أفعل، وهي غير مستعملة في معاجم اللغة .

ونجده يستعمل صيغة أفعل بمعنى فعل ويفسر لفظ (أبهز) في المعاني الكبير تفسيراً ينفرد به، ولم يرد له ذكر في معاجم اللغة، وقد جاء هذا اللفظ في قول رؤبة بن العجّاج في باب " الأبيات في الوعيد " .

فـأبْهَـزَ بيَ المَدَرَّةَ والزَّعـيـمـا وذا عِـضـاضٍ يعـدِلُ الظَّلومـا [2]

ويفسر بقوله :

أبهز بي يقول القَهُ بي من قولك : رجل مبهوز، والزعيم في هذا الموضوع المتكلم وفي غيره الكفيل .

ووردت مادة (بهز) في لسان العرب وقال : بَهَزه عني يَبْهَزُه بهزاً ومعناه : دفعه دفعاً عنيفاً ونحّاه . . . ورجل مِبْهَز، مِفْعَلُ .

وقال محقق الكتاب : " يوجد فيه من الألفاظ اللغوية أو الصيغ ما لا يوجد في المعاجم المطبوعة من ذلك ما في (ص 474) لعدِّيٍّ بن زيد :

ووطيـد مـسـتـعَلٍ سـيـبـه عـاقـد الأيام والدهر يُـسِـنّ

قال " الوطيد الملك " ولم نجد هذا في المعاجم، ولا هناك مظَّنة لتصحيف

(1) نفسه 2/796. والرجز في ديوانه : 1/212، من قصيدة مطلعها " **ما بالُ جاري دَمْعِكَ المُهَلَّلِ** "

(2) نفسه 2/796. وفي اللسان (مدر) : " المَدَرُ : قِطَعُ الطين اليابس، واحدته مَدَرَةٌ " .

أو تحريـــف [1]".

ويفسره ابن قتيبة بقوله :

أي يسهل ما عقد عليهم الدهر ويحله، ... والوطيد الملك .

ويعقب المحقق على تفسير ابن قتيبة قائلاً : " ويفسر المؤلف الوطيد بالملك، ولم أظفر به لغيره ... ومعنى البيت : وملك متتبع بعطائه العاقد الذي يعقد على الناس معايشهم من الأيام والدهر فينسي تلك العقد ويحلها [2]".

ولم ترد مادة (وطد) في معجم الصحاح للجوهري [3]، ووردت في لسان العرب (وطد) وقال : " وطّد الله للسلطان ملكه وأطّده إذا ثبّته ... [4]، ووردت في القاموس المحيط : (وطد) الشيء يطده وطْداً ووطْدَةً فهو وطيد وموطود) أثبته وثقّله .... [5]".

وقال محقق الكتاب : " ومن ذلك أنه أنشد في (ص 576) لأبي النجم يذكر عبد الرحمن الأشعث :

عـــيـــراً يكدُّ ظهـــره بـالأفـــوق   حـــمـــار أهل غـــيـــر أن لم ينـهق

يرجـــو بأنبـــاط الســـواد الأَبَق   أن يتـــرك الدينَ كـــجلدِ الأبلقِ

ثم قال : " أي يكد بالذل فواقاً بعد فواق " وهذا يعطي أن الأفوق جمع فواق ولم نجده في المعاجم .. [6]".

---

(1) نفسه (مقدمة المحقق كح) .

(2) المعاني الكبير 1 / (474 الحاشية) .

(3) الصحاح للجوهري (تاج اللغة وصحاح العربي) جـ 6 ص 2525 . تح : أحمد عبد الغفور عطار .

(4) اللسان (وطد) .

(5) القاموس المحيط (وطد) .

(6) المعاني الكبير (مقدمة المحقق : كح) .

ويفسره ابن قتيبة في (باب الهجاء وهجاء النساء) ويقول :

أي يكد بالذل فواقاً بعد فواق لا يروّح، وأصل هذا في الحلب، غير أن لم ينهق يقول يكدُّ ويذل ولا ينطق، كجلد الأبلق أي يؤثر فيه ويجعله ألواناً ومللا [1]" .

وجاء في اللسان مادة (فوق) : " الفُيُق جمع مُفيق، وهي التي يرجع إليها لبنها بعد الحلب، وذلك أنهم يحلبون الناقة ثم يتركونها ساعة حتى تفيق . يُقال أفاقت الناقة فاحْلُبها . قال ابن برِّي : قوله الفُيُق جمع مُفيق قياسه جمع فَيُوق أو فائقٍ . وأفاقت الناقة واسْتَفاقها أهلها إذ نَفَّسوا حلبها حتى تجمع درَّتها .

والفُواق والفَوَاق : ما بين الحلبتين من الوقت، والفُواق ثائبُ اللبن بعد رضاع أو حِلابٍ، وهو أن تُحْلَب ثم تُترك ساعة حتى تَدِرَّ [2]" .

وجاء في القاموس المحيط : " والفِيقة بالكسر اسم اللبن يجتمع في الضرع بعد الحلبتين جمع فِيَقٍ بالكسر، وفيَقٌ كعِنَب، وفيقات وأفواق جمع أفاويق ما اجتمع في السحاب من ماء فهو يمطر ساعة بعد ساعة ومن الليل أكثره . . . [3]" .

وجاء في صحاح الجوهري مادة (فقا) : " فُقْوَةُ السهم : فُوقُه، والجمع فُقاً [4]" .

ومما تقدم يتبين لنا أن معاجم اللغة لم تذكر أن الأفوق جمع فواق، خاصة فيما ذهب إليه ابن قتيبة ونصّ على أن أصل هذا في الحلب .

ويقول محقق الكتاب : " وأثمن من هذا وأجدى أنّ فيه مواضع يتبيّن بها خطأ أصحاب المعاجم وتصحيفهم، منه ما في (ص446) أنشد لابن مقبل :

---

(1) نفسه 1/576.

(2) اللسان (فوق).

(3) القاموس المحيط (فوق)

(4) الصحاح، مادة (فقا)

سقتني بصهباء درياقة ... متى ما تُلَيِّن عظامي تَلِنْ

صهابيَّة مترع دَنُّها ... تَرَجَّع في عود وعس مُرِنْ

وفسر قوله :

" أي ترجّع الخمر في هذا القدح تعرف منه فَيُوالى عرفها وَيُشرب وهو ترجيعه، وعس لموالاة العَرف والحاجة، كما تُواعِس الأرض فتلحّ عليها وتطؤها، عود يعني قدحاً، والُمرنّ الذي يرنّ إذا قرعته سمعت له رنيناً "[1].

وقال محقق الكتاب معقباً على شرح ابن قتيبة : " ونقلت في التعليق عن القدماء ما يوافق قول المؤلف أن البيت الثاني في وصف الخمر، وأنّ كلمة " عود " أريد بها القدح، إلاّ أنّ بعضهم قال الوعس هنا الرمل، ومعنى عود وعس : عود رمل، وعنى به قدح زجاج، فإن الزجاج يعمل من الرمل . فجاء بعض المتأخرين فتصحف عليه الشطر الأول وحدس أن البيت في وصف مغنية، وأن المراد بالعود عود الطرب، وأن الوعس ضربٌ من الشجر، فتعقبه أصحاب المعاجم من المتأخرين، فزعموا أن الوعس ضربٌ من الشجر تعمل منه البرابط، وهذا كله حدس، ولا يثبت في اللغة أن الوعس شجرٌ "[2].

وقال ابن السيد البطليوسي في تفسير النص :

الصهباء : الخمر التي يضرب لونها إلى الحمرة، وكذلك الصهابية . وقيل: هي التي تُعصر من العنب الأبيض . وقوله (درياقة) . أراد أنها تشفي من العلل كما يشفي الدِّرياق، ويروى : (تصفق) ومعناه كمعنى ترجع، أي تحول من إناء إلى إناء عند المزج . ويروي الأصمعي : (عن عُسّ عود)، قال الأصمعي : كأنه يشرب في قارورة، فصيّرها كانها عود، فقال في عُسَ عود أي في عس خشب، قال : وسمعت رجلاً يقول : اسقني في

---

(1) المعاني الكبير مقدمة المحقق : كح) و 4461.

(2) نفسه (مقدمة المحقق : كح) .

قدح عيدان، وروى غيره في عود وَعس، وقال : أراد قدح زجاج، والزجاج يعمل من الرمل. والوعس : الرمل اللين الموطّى . والمُرنُّ : الذي يصوِّت إذا فرغ ... "[1].

وعاد المحقق وعلق عند تفسير البيت وقال : " اضطربوا في كلمة (وعس) في هذا البيت، فحاصل كلام المؤلف أنها بمعنى المواعسة أضيف إليه الفاعل، فالقدح يواعس العرف أي يواليه .. " .

ورأى محقق الكتاب أن ابن سيده قد اضطرب في شرح هذا البيت في " المحكم " . وأن ابن منظور والفيروز أبادي قد سارا على نهجه وقال : " وفي اللسان والقاموس قول ثالث أحسبه من حدس ابن سيده في المحكم، حدسه من البيت بعد تغيير فيه "[2].

وجاء في المحكم مادة (س ع و) مقلوبه (و ع س) : " والوعس : شجر تعمل منه العيدان التي يُضرب بها، قال ابن مقبل :

رَهَاوِيَّةٍ مُترعٍ دَنُّها ... تُرَجِّعُ في عودِ وَعسٍ مُرِنّ[3]

وجاء في اللسان مادة (و ع س) : " والوَعْسُ : شدّة الوطء على الأرض، والموعوس : كالمدعوس . والوَعْسُ : شجر تُعمل منه العيدان التي يُضرب بها؛ قال ابن مقبل :

رَهَاوِيَّةٍ مُتْرَعٍ دَنّها ... تُرَجِّعُ في عودِ وَعْسٍ مُرِنْ[4]

وجاء في القاموس المحيط (و ع س) : " الوعس : كالوعد شجرٌ يُعمَل منه البرابط والأعواد والأثر والوطء والرَّمْل السَّهْل يصعب فيه المشي، وأوعسه ركبه، والوعساء رابية من

---

(1) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، للبطليوسي 3/260.

(2) المعاني الكبير 1/) 446 حاشية المحقق)

(3) المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده، مادة (س ع و).

(4) اللسان مادة (و ع س) .

رمل لينة تُنبِت أحرار البقول[1]".

وعقّب محقق الكتاب على ما جاء في القاموس واللسان قائلاً : " فهموا أنّ البيت في وصف مغنّية، وهذا من عيوب هذه المعاجم المتأخرة، تورد المحدوسات في معرض المحققات، ولم يذكر ابن دريد في الجمهرة، ولا الزمخشري في الأساس أن الوعس شجر، والله أعلم[2] ....".

وجاء في جمهرة ابن دريد مادة (س وع) : " والوعس الرمل االسهل الذي يشق على الماشي فيه، أرض وَعس وأرضون وُعُوس ووُعْس ... وأوعاس وأوْعس القومُ إذا ركبوا الوَعْس. وأرض معياس قلبت الواو ياء لكسرة الميم .

وعسا النبت يعسُو عُسُوًّا إذا اشتد وصلب من النبت وغيره[3]".

وجاء في أساس البلاغة مادة (وع س) : " مشى في الوَعْس والوعساء والأوعاس . ورمل أوعَس . والإبل تُواعس ليلها مُواعَسَة وهو ضرب من السَّير ...[4]".

لقد قدم لنا كتاب " المعاني الكبير " قيمة علمية لغوية كشفت لنا عن جهود ابن قتيبة واهتمامه الكبير بالدرس اللغوي، وأبان عن شخصيته اللغوية المتميزة وعن حسه الذوقي والنقدي في تفسير الشعر وتحليل النص اللغوي، وعن خبرته الواسعة بمعاني الشعر العربي القديم وغريب ألفاظه، وتعمقه في فهم أسرار اللغة، والوقوف على ظواهرها، وقد لمحنا كلّ ذلك من خلال النصوص والشروح والتفسيرات اللغوية والتحليلات الدقيقة، ونثر ما في النصوص الشعرية من مادة لغوية ثرّة، فكان ذلك الصنيع خدمة للغة العربية وحفظها من

(1) القاموس المحيط مادة (و ع س).

(2) المعاني الكبير 1 / (447 حاشية المحقق) .

(3) جمهرة اللغة لابن دريد مادة (س وع) .

(4) أساس البلاغة للزمخشري مادة (وع س) .

الضياع، كما حفظ كثيراً من الأشعار التي أنشدها لشعراء مغمورين، فأحياها وأخرجها من دائرة النسيان، وقدّم لنا تراثاً شعرياً يحوي الكثير من الفرائد اللغوية التي تثري البحث العلمي، إضافة إلى حفظه أشعار الشعراء المشاهير التي لم تتضمنها دواوينهم المطبوعة، فغدا الكتاب مصدراً لا غنى عنه لكل محقق وناشر لدواوين الشعراء القدامى، ينهل منه، ويفيد من رواياته دارساً ومقارناً، ويعتمد عليه في الاستقصاء عن أشعار الشعراء المفقودة التي ضمنها ابن قتيبة كتابه المعاني الكبير، فغدا الكتاب مصدراً لهذه النصوص لا غنى عنه، وخاصة أن ابن قتيبة قد روى عن شيوخ ثقات عاصرهم، أو نقل في كتابه عن شيوخ أجلاء رحلوا، وقد عزّز رأيه بآرائهم ووثق روايته عنهم، وصحح كثيراً من الروايات الشعرية اعتماداً على علمهم، ودرايتهم الكبيرة بمعاني الشعر العربي القديم وغريب ألفاظه .

فالكتاب يعد كتاب لغة في المقام الأول، ويشهد لابن قتيبة بأنه من أئمة اللغة والغريب والنقد والأدب .

هـ : شواهده الشعرية :

أولى ابن قتيبة الشعر عناية كبيرة، وعدّه مصدراً رئيساً من المصادر التي اعتدّ بها للاستشهاد على صحة ما يقوله من معنى أو أصل أو إثبات قاعدة لغوية، فيعضد رأيه به، وقد اهتم بالإكثار من الشواهد في أكثر مؤلفاته، وذلك لتوثيق ما يذكره من ألفاظ ومعان، وتحرَّى الشواهد التي يحتج بها، لكنه لم يقْصِر استشهاده على شعر الأعصر الثلاثة المعروفة، وإنما تجاوز ذلك إلى العصر الرابع، واستشهد بشعر بشار بن برد وخلف الأحمر، وإن لم يكثر من الاعتماد على شعراء العصر العباسي .

وقد أفاد ابن قتيبة من درايته بمعاني الشعر التي أمدته بأداة قوية ليدعم جهوده اللغوية في تفسير ألفاظ اللغة وتوضيح دلالاتها، فكان يفسر الكلمة التي يرى أنها غامضة، تفسيراً لغوياً ويبين معناها ثم يعضد تفسيره بالشاهد الذي يحتج به، من ذلك تفسيره " رجوت "

بمعنى " خفت "، وأيّد هذا التفسير بقول الشاعر أبي ذؤيب الهذلي .

إذا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا وَخَالَفَهَا في بَيْتِ نُوبٍ عَوَامِلِ [1]

ويفسره بقوله :

" أي لم يخف لسعها [2]" .

وقد يوسّع دائرة التفسير اللغوي، ولا يكتفي بشرح اللفظة وبيان موضع الشاهد فيها، وإنما يفسر الألفاظ التي تبدو له أنها بحاجة إلى شرح، من ذلك تفسيره كلمة " الاعتكاف " بمعنى " الإقامة "، وقال : " يقال : اعتكف فلان بمكان كذا إذا أقام به ولم يخرج عنه، وعكف فلان على فلان، إذا أقام عليه، وقال أبو ذؤيب يذكر الأثافي :

فَهُنَّ عُكُوفٌ كَنَوْحِ الْكَرِيمِ قَدْ شَفَّ أَكْبَادَهُنَّ الهَوِيُّ [3]

ويفسره بقوله : أي الأثافي عكوف، كما تعكف النوائح على القبر، شفّ أكبادهن الحزن فهوت أجوافُهُنَّ . يقال شفَّني الأمر : أي : شقَّ علي، يريد : " إن الأثافي مقيمة لا تبرح مكانها [4]" . فقد ذكر معنى " شفّ "، والشاهد سيق لعكوف .

وقد يذكر المعاني المتعددة للكلمة الواحدة، ويستشهد عليها جميعاً، من ذلك تفسيره قوله تعالى : ﴿ وكان الله على كل شيء مقيتاً ﴾ [5]، أي مقتدراً، أقات على الشيء : اقتدر، قال الشاعر :

---

(1) البيت في ديوانه / 19، وفي شرح أشعار الهذليين 1 / 144، وفيه رواية أخرى (وحالفها) بالحاء المهملة .

(2) تفسير غريب القرآن / 271، تأويل مشكل القرآن / 192 .

(3) البيت في ديوانه / 12، وفي شرح أشعار الهذليين 1 / 101، وفيه : " الهَوِيُّ " هَوِيُّ أنفسهن، وخَلْوَتُهُنَّ إلاّ من الحُزْن .

(4) غريب الحديث 1 / 218 - 217 .

(5) النساء / 85 .

وذي ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفسَ عَنْه، وكُنْتُ على إساءته مُقيتا [1]

والمُقيت أيضاً : الشاهد للشيء، الحافظ له، قال الشاعر :

أَلِيَ الفَضْلُ أَمْ عَليَّ، إذا حُوسِبْتُ؟ إني على الحساب مُقيتُ [2]

وقد ينص على الاختلاف في رواية ألفاظ الشاهد، من ذلك ما ذكره في تفسير حديث أبي هريرة : " قوله : ترغثونها، أي ترضعونها، يعني : الدنيا، يقال : رغث الجدي أمه إذا رضعها، وشاة رغوث، إذا رضعها ولدها، قال الشاعر :

وذَمُّوا لنا الدُّنيا وهم يَرْضَعُونها أفاويقَ، حتى ما يَدرُّ لها ثَعْلُ [3]

وأنشد بعضهم : يرغثونها .. [4]

وقد يأتي بالشاهد ليدل على إحلال صيغة محلَّ أخرى من ذلك مجيء " فعيل " بمعنى " مفعول "، نحو قوله : " يقال نخلة سليب (فعيل) في معنى مفعول، ونخل سُلُبٌ، وشجر سُلَب إذا سقط ورقه، قال ذو الرُّمَّة، وذكر الرئال :

كأنَّ أعناقَها كُرَّاثُ سائِفَةٍ طارَتْ لفائِفُه أو هَيْشَرٌ سُلُبُ [5]

ويستشهد على مجيء " فَعْل " بمعنى " فعيل " نحو قوله : " سمج وسميج "، قال أبو ذؤيب :

---

(1) البيت في اللسان (قوت)، منسوب إلى الزبير بن عبد المطلب ولأبي قيس بن رفاعة .

(2) البيت في اللسان (قوت)، وهو للسَّموْءَل بن عادياء وهو في ديوانه / 26. ينظر تفسير غريب القرآن / 312، 133 .

(3) البيت في اللسان (فوف)، وهو لأبي هَمَّام السلولي . وفي (ثعل) : " والثُّعْل والثُّعْل : زيادة في أطْباء الناقة "

(4) غريب الحديث 2/ 296 .

(5) نفسه 2/549، والبيت في ديوانه 1/ 135 . وفيه " السائفة " من الرمل : ما استرقّ منه . و" الكُرَّاث " نبت .

فـإن تصْـرِمي حَـبْلي، وإن تَـتَـبـدَّلي خَليـلاً وَمِنْهُم صَـالِحٌ وسَـمِـيجُ [1]

وعلى مجيء " فعيل " بمعنى " فاعل " . نحو قوله :

بعثـوا إلـيَّ عريفهـم يتوسَّـمُ [2]

أي عارفهم [3]

وعلى مجيء " فاعل " بمعنى " فعيل " نحو قول أبي النجم العجلي :

مـن بين مَقْـتُولٍ وطـافٍ غـارِقٍ [4]

أي غريق [5]

وعلى مجيء " فعيل " بمعنى " مُفْعِل "، نحو قوله : " قال عمرو بن معديكرب " :

أَمِنْ رَيْحـانَةَ الدَّاعِي السَّـمِـيعُ يُؤَرِّقُني وأصـحَـابي هُجُـوعُ ؟ [6]

يريد الداعي المُسْمِع [7]".

ويستشهد على إحلال صيغة " فاعل " محلّ صيغة " مفعول "، نحو قوله : " العرب تقول : ليل نائمُ وسر كاتم، قال " وَعْلَةُ الْجَرْمِيُّ " :

لما رأيت الخـيل تتـرى أثايجـاً علمت بأنّ اليـوم أحـمسُ فـاجـرُ

---

(1) أدب الكاتب / 454، والبيت في شرح أشعار الهذليين 1 / 137، وروايته " فإن تُعْرِضي عَنِّي ... " .

(2) عجز بيت لطريف بن تميم العنبري، الأصمعيات 127 . وصدره : " **أوكلّما وردَت عُكاظَ قبيلةٌ** " .

(3) أدب الكاتب / 453 .

(4) البيت في اللسان (غرق) وصدره : " **فاصبحُوا في الماء والخَنَادِقِ** " .

(5) أدب الكاتب / 454 .

(6) البيت في اللسان (سمع)، وفي ديوانه / 128، والشعر والشعراء 1 / 332 .

(7) تاويل مشكل القرآن / 297، وينظر تفسير غريب القرآن / 17 .

أي يوم صعب مفجور فيه [1].

وقد استشهد ابن قتيبة بالشعر لتحديد معاني الألفاظ، ولبيان الأصل الدلالي للكلمة، من ذلك قوله: " التحيَّات: الملك، وأصله أن الملك كان يُحَيًّا، فيقال: انعم صباحاً، وأبيت اللعن، ولا يقال ذلك لغيره ... ثم سُميَّ الملك: تحية، إذ كانت التحية لا تكون إلاّ للملوك، قال عمرو بن معديكرب:

أُسيِّرها إلى النعمان حتَّى ... أُنيخَ على تحيَّتِهِ بجُنْد [2]

أي على ملكه [3]".

وقد استشهد بالشعر على تضمين حرف لحرف آخر، نحو: مجيء (في) موضع (على)، قال عنترة:

بطلٌ كأنّ ثيابَه في سَرْحَةٍ ... يُحْذى نِعالَ السِّبْتِ لَيْسَ بِتَوأَمِ [4]

أي على سرحةٍ من طوله [5]".

و(الباء) موضع (عن)، نحو قول علقمة بن عَبَدَة:

فإنْ تَسْألوني بالنِّساء فإنَّني ... بَصِيرٌ بأدْواءِ النِّساء طَبِيبُ [6]

---

(1) نفسه /296، 297. والبيت في المعاني الكبير 2/ 946. وقال في شرحه: " أثايج: جماعات. أحمس: شديد.

(2) البيت في ديوانه /80، وروايته:

أؤم بها أبا قابوس حتى ... أكل على تحيته بجندي

(3) غريب الحديث 1/ 169.

(4) شرح القصائد العشر /199، والمعاني الكبير 1/ 448. و" السرحة: ضرب من الشجر، ويحذى: يلبس. والسِّبت كل جلد مدبوغ.

(5) تاويل مشكل القرآن /567، وأدب الكاتب / 394.

(6) البيت في ديوانه /110، وأدب الكاتب / 508. والأدواء: جمع داء.

أي عن النساء [1]

و(الباء) موضع (من)، نحو قول الهذلي وذكر السحائب :

شَربْنَ بماءِ البحر ثُمَّ ترفَّعَتْ   متى لُجَجٍ خُضْرٍ لَهُنَ نَئيجُ [2]

أي شربن من ماء البحر [3]" .

وقد استشهد ابن قتيبة بالشعر على لهجات القبائل العربية الخاصة التي تختلف في المظاهر الصوتية والدلالية والتراكيب، وتشترك في مجموعة من الصفات اللغوية، والعادات الكلامية، التي تؤلف لغة مستقلة عن غيرها من اللغات [4] .

من ذلك استشهاده على لهجة " العنعنة " التي نسبها إلى قبيلة تميم، ووصفها بقوله :

" وهي إبدالهم العين من الهمزة في (أن) . يقولون : " ظننت عنك ذاهب، يريدون ظننت أنك "، ثم استشهد عليها بالشعر، بما أنشده بعضهم :

أعن ترسَّمْتَ من خَرقاءَ منزلةً   ماءُ الصَّبابةِ من عينيكَ مَسجومُ [5]

يريد " أأنْ " . [6]

كما نسب الكشكشة إلى قبيلة تميم، وبيّن أن الكشكشة هي إبدال الشين من الكاف، واستشهد بقول أعرابي منهم :

---

(1) تأويل مشكل القرآن / 568، وأدب الكاتب / 508 .

(2) البيت لأبي ذؤيب الهذلي في أدب الكاتب / 515، وشرح أشعار الهذليين 1 / 129، وروايته :

تروّت بماء البحرِ ثمَّ تَنصَّبَتْ   على حَبَشِيَّاتٍ لَهُنَّ نَئيجُ .

(3) تأويل مشكل القرآن / 575 .

(4) في اللهجات العربيّة / 16 .

(5) البيت لذي الرمة كما في ديوانه 1 / 371 وفيه " أأن ترسَّمْتَ " و" الترسُّم " : التثبُّت والنظر .

(6) غريب الحديث 2 / 405 .

تَضْـــحَكُ مني أن رأَتْني أحْــتَـــرِشْ، ولو حَــرَشْتِ لكشَــفْتُ عن حِــرِش [1]

أراد حرك [2]".

ونسب الغمغمة إلى قضاعة، وعرَّفها بقوله : " الغمغمة كلام غير بيِّن، وهو التغمغم أيضاً، وكأنّ في الغمغمة حكاية اللفظ [3]" . ثم استشهد على معناها بقول العجّاج :

كــأنَهُمْ مِنْ فــائِظٍ مُــجَــرْجَمِ أراحَ بعــد الغَمِّ والتَّــغَــمْــغُمِ [4]

وذهب إلى أن معناها أصوات الثيران، واستشهد بقول المسيب بن علس :

كــغــمــامــة الثــيــران بينهم ضــرب تغــمَّص دونه الحــدقُ [5]

وقال : وغماغمها أصوات لا تفهم [6] .

وقد كان ابن قتيبة يعزو الشواهد التي كان يستشهد بها على الأحكام اللغوية إلى أصحابها ما أمكنه ذلك، ويورد أحياناً بعض الشواهد غير معزوَّة إلى أصحابها، لكنه كان مطمئناً إلى أنها من الشعر الذي احتجّ به السابقون له من علماء العربية، كالأصمعي والفرّاء وأبي عبيدة والرياشي والكسائي وغيرهم من اللغويين الأوائل الذين رووا هذه الشواهد ولم يبعدوا كثيراً من عصور الاحتجاج .

وكان يستشهد على الأحكام اللغوية بالشطر الواحد أحياناً، من ذلك استشهاده لتوثيق كلمة " الناهل " بمعنى " العطشان " بقول النابغة الذبياني :

---

(1) البيت في اللسان (كشش) وفي اللسان : " والكَشْكَشَةُ : لغة لربيعة، وفي الصحاح : لبني أسد " .

(2) غريب الحديث 2/ 403 .

(3) نفسه 2/ 405 - 406 .

(4) الرجز في ديوانه /1/ 472، وفيه " الفائظ " : الميِّت . و" المُجَرْجَم : المَصْروع .

(5) البيت في ديوانه / 14 . وفي اللسان (والغَمَصُ في العينِ : كالرَّمَض) مادة (غمص) .

(6) غريب الحديث 2/ 406 . وفي اللسان (غمم) : " والغَمْغَمَةُ والتغَمْغُم : الكلام الذي لا يُبين، وقيل : هما أصوات الثيران عند الذُّعْر، وأصوات الأبطال في الوغى عند القتال . " .

يَنْهَـلُ منهـا الأَسَـلُ النَّاهـل [(1)]

وكثيراً ما يذكر الشاهد كاملاً لتوثيق لفظ أو معنى كلمة، وقد لا يكتفي بإيراد شاهد واحد، فيأتي بأكثر من شاهد ليستشهد على حكم من الأحكام اللغوية، وليعضد رأيه، بإيراد الحجج البينة التي تدعم ما يذهب إليه في تفسيره أو حكمه على قضية لغوية، من ذلك استشهاده على لفظ " الرداء " بمعنى " الحسن والنضارة " وقال :

قال آخر وذكر الكبر :

وهذا ردائي عنده يَسْتَعيرُه ليَسْلبني نفسي أمال ابن حَنْظل [(2)]

وقال رؤبة في مثله :

حتَّى إذا الدَّهْرُ اسْتَجدَّ سِيما مِنَ البِلَى يَسْتَوْهِبُ الوَسِيما

رِداءَهُ والبِشْرَ والنَّعِيما [(3)]

أراد البشر الناعم [(4)]،

ومن ذلك استشهاده على تصويب عبارة " "عيرتني كذا " بأكثر من شاهد، وقال : وتقول عيّرتني كذا ولا يقال عيّرتني بكذا، قال النابغة :

وعيَّرتْني بنو ذبيان رهْبته وهل عليَّ بأن أخشاك من عار [(5)]

وقال المتلمِّس :

---

(1) البيت في ديوانه /209، واللسان (نهل)، وأدب الكاتب /179، وصدره : " **والطاعن الطعنة يوم الوغى** "

(2) البيت للأسود بن يعفر، كما في ديوانه / 56 ورواية صدر البيت : **والقي سلاحي كاملاً فاستعاره** .

(3) المعاني الكبير 1 / 482. والرجز في ديوانه / 185 .

(4) غريب الحديث 2/ 92.

(5) البيت في ديوانه /124، وفيه " خشيته " .وأدب الكاتب /66.

تعـــيَّــرني أُمي رجـــالٌ ولـن تَـرى   أخـــا كـــرمٍ إلاّ بأن يتـكَـرَّمـــا [1]

وقالت ليلى الأخيلية :

أعـــيَّـــرْتَنـي داءً بأمِّك مِـــثْلُـه   وأيُّ حَـصـانٍ لا يُقـالُ لهـا : هَلاَ؟ [2]

وقد استشهد على دخول بعض حروف الجر على بعض بأكثر من شاهد، من ذلك استشهاده على دخول (الباء) مكان (عن) وقال : " وإنما تأتي (الباء) بمعنى (عن) بعد السؤال، قال الله عزّ وجل : ﴿ فاسأل به خبيراً ﴾ [3] أي عنه .

وقال علقمة بن عبده :

فــإن تســألوني بالنّســاء فــإنني   بصـــير بأدواء النســاء طبـــيب [4]

وقال ابن أحمر الباهلي :

تُســـائِلُ بـابْنِ أحـــمـــرَ مَنْ رآهُ   أعَـــارتْ عَـــيْنَهُ أمْ لَمْ تَعَـــارَا ؟ [5]

وأنشد أبو عمرو بن العلاء للأخطل :

دع المُغَـــمَّـــرَ لا تَســـألْ بِمَـــصْـــرَعِـــهِ   واسـألْ بِمَـصْقَلَةَ البَكْرِيِّ : ما فَـعَلا؟ [6]

وقال آخر :

---

(1) البيت في ديوانه / 14، وروايته (يعيرني) (ولا أرى) .

(2) البيت في ديوانها / 103 . وفيه : " **وأيُّ جَوَاد لا يقال له هلا** " . وأدب الكاتب / 323- 324 .

(3) الفرقان / 59 .

(4) البيت في ديوانه / 11 . والاقتضاب 3/ 344، وأدب الكاتب / 508 وتأويل مشكل القرآن / 568 .

(5) البيت في اللسان (عور) ورواية صدره : " **وسائلة بِظَهْرِ الغيب عني** "، والبيت في تأويل مشكل القرآن / 568 .

(6) البيت في ديوانه 1/ 157، والاقتضاب 3/ 346، و" المُغَمَّر " القعقاع بن ثور الذُّهلي .

ولا يسأل الضيفُ الغريب إذا شتا   بما زخرت قدري له حين وَدّعا [1]

فهذا الحشد من الشواهد دليل على سعة مخزون ابن قتيبة اللغوي وحفظه لأشعار العرب ومعرفته بمعانيها، ودرايته برواياتها، وتمكنه من استحضار الشاهد المناسب الذي يحتج به على حكم لغوي، يعضد به رأيه، ويوضح تفسيره اللغوي، ويوثق الألفاظ التي يذكرها ومعانيها وأبنيتها، مدركاً قيمة الشاهد الشعري في تحديد دلالة الألفاظ والوقوف على أصلها، وتتبع تطورها، وقد نهج بذلك منهج اللغويين الذين استشهدوا بالشعر العربي الذي يحتج به على إثبات القواعد اللغوية وصحة ما يذهبون إليه . وقد قال ابن عباس : "الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزل الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها، فالتمسنا معرفة ذلك منه [2]".

وما ذلك إلاّ لأن الشعر يعبر عن أساليب العرب ومذاهبهم في القول، وافتنانهم في التعبير، ولهجاتهم القبلية المتنوعة، وعلى ما اعترى ألفاظها وأصواتها من تغير أدّى إلى الاختلاف في نطقها ومعناها .

(1) البيت لمالك بن حريم الهمداني كما في الاقتضاب 3/ 347، وادب الكاتب 397 - 399 .

(2) الإتقان 1 / 120- 123 .

الفصل الرابع

جهود ابن قتيبة اللغوية

في أدب الكاتب

أدب الكاتب

يعد كتاب (أدب الكاتب) من نفائس ابن قتيبة، فهو أضخم كتبه اللغوية وفيه آراؤه القيمة في علم اللغة، وهوثمرة من ثمار التأليف العربي في مادة (فقه اللغة)، ومن أوائل الكتب العربية التي وصلت إلينا منظمة منسقة الترتيب في اللغة.

وهو ينهض قمة رفيعة لدراسة التطور اللغوي، إذ إنه احتجن طائفة كبيرة من الألفاظ التي يستعملها المثقفون في غير مواضعها الأصلية .

وضعه ابن قتيبة ليكون درساً نافعاً لكتَّاب الدواوين، وزاداً لغوياً لأهل الصناعة، وقدّمه للوزير " عبد الله بن يحيى بن خاقان " لإرشاد الكتّاب إلى سنن الصواب .

يقع الكتاب في مقدمة (خطبة) وأربعة كتب (أبواب) .

وحدد ابن قتيبة في مقدمة كتابه الأدوات التي اختارها للكاتب، لتكون عدته في عمله، وهي مجموعة نصائح ساقها ابن قتيبة ليأخذها مُغْفِلُ التأديب، ليصيب حظّاً من كل فن، ولوناً من كل معرفة، وطرفاً من كل علم، وحذقاً بالفقه وأصوله، وعلوم العربية وآدابها، ودراسة أخبار الناس، وتحفظ عيون الحديث، ليدخلها في تضاعيف سطوره متمثلاً إذا كتب، ويصل بها كلامه إذا حاور .

عرض في الكتاب الأول (كتاب المعرفة) مجموعة أبواب تتضمن ألواناً من المعارف اللغوية التي تدور على الألفاظ، فشرحها وفسّرها تفسيراً لغوياً أزال اللبس عن الغامض منها، وفك المستغلق من عباراتها، وصوّب ما انحرف منها عن سنن العربية، بأسلوب قوامه الإيجاز من أجل سهولة حفظه، ودراسته بطريقة بعيدة عن التقعير والتقعيب [1] .

وخصّ أول باب في كتاب المعرفة بـ (ما يضعه الناس في غير موضعه)، ومنهجه في هذا

---

(1) أدب الكاتب / 16

الباب هو ذكر المعنى غير الصحيح، والتعقيب بالمعنى الصحيح، كقوله؛ "من ذلك : أشْفارُ العَيَنْ يذهب الناس إلى أنها الشَّعْرُ النابت على حروف العين، وذلك غلط، إنما الأشفارُ حروف العين التي ينبت عليها الشعر، والشعر هو الهدب [(1)]" . ويعضد تفسيره بكلام العرب ، وبالمأثور من أقوال العلماء والفقهاء، مقلّباً العبارة على وجوهها المختلفة، مستعيناً بظاهرة الاشتقاق ليبين المعنى المراد وليشير إلى الخطأ الدلالي، ويقول : " وقال الفقهاء المتقدمون : في كل شُفْر من أشفار العين رُبْعُ الدِّية، يعنون في كل جفن، وشُفْرُ كلِّ شيء حَرْفُه، كذلك شفيره، ومنه يقال : شفير الوادي " و " شُفْرُ الرَّحم " . ويشير إلى الخطأ الدلالي بسبب التوسع في الاستعمال المجازي ويقول : " فإن كان أحد من الفصحاء يسمّي الشَّعر شُفراً فإنما سمَّاه بمنْبته، والعرب تسمي الشيء باسم غيره إذا كان غيره مجاوراً له، أو كان منه بسبب، على ما بيّنت في " باب تسمية الشيء باسم غيره [(2)]".

ومنه أيضاً قوله " الحشمة " يضعها الناس موضع الاستحياء، قال الأصمعي : وليس كذلك، إنّما هي بمعنى الغضب، وحُكي عن بعض فصحاء العرب : " إن ذلك لمَّا يُحشم بني فلان أي : يغضبهم [(3)]" . فذكر المعنى اختصاراً من أجل الإشارة إلى الخطأ الدلالي .

وقد أمدته معرفته بمعاني الشعر، وبكلام العرب، ودرايته العميقة بظواهر اللغة بأداة قوية لمعرفة ما يضعه الناس غير موضعه، من ذلك تخصيص دلالة الكلمة، والإشارة إلى الخطأ الدلالي في عدم معرفة وقوع الكلمة على معنيين مختلفين، من ذلك " الطَّرَب " يذهب الناس إلى أنه في الفرح دون الجزع ، قال الشاعر، وهو النابغة الجعْدي :

وأراني طرباً في إثرهم طَرَب الوالهِ أو كالمُخْتَبلْ [(4)]

---

(1) نفسه / 21.

(2) أدب الكاتب / 22.

(3) نفسه / 23.

(4) ديوانه / 93.

وقال آخر [1] :

فَقُلْنَ: لقد بكيْتَ، فَقُلْتُ: كلاّ ... وهل يبكي من الطَّرَبِ الجليدُ [2]

واجتهد في توضيح الفروق اللغوية بين دلالات الألفاظ التي أخطأ العامة في استعمالها ولم يفرقوا بين دلالاتها المختلفة، من ذلك " الظلُّ والفيءُ " يذهب الناس إلى أنهما شيء واحد، وليس كذلك؛ لأنّ الظلَّ يكون غداةً وعشيةً، ومن أول النهار إلى آخره، ومعنى الظل السِّتْرُ، ومنه قول الناس " إنّا في ظلِّك " أي : في ذراك وفي سِتْرك، ومنه " ظلُّ الجنَّة، وظِلُّ شجرها " إنما هو سِترُها ونواحيها، وظِلُّ الليل : سواده؛ لأنه يستر كلَّ شيء، قال ذو الرُّمة:

قد أَعْسِفُ النَّازِحَ المجْهُولَ مَعْسِفُهُ ... في ظِلِّ أَخْضَرَ يدعو هامَهُ الْبُومُ

أي : في ستر ليل أسود، فكأن معنى ظلّ الشمس ما سترته الشخوص من مَسْقَطها، والفيءُ لا يكون إلا بعد الزوال، لا يقال لما كان قبل الزوال فيءٌ، وإنما سمي فيئاً لأنه ظِلٌّ فاء من جانب، أي : رجع عن جانب المغرب إلى جانب المشرق، والفيء هو الرجوع، قال الله عزّ وجلّ : ﴿ حتى تفيء إلى أَمْرِ الله ﴾ [3]، أي ترجع إلى أمر الله . وقال امرؤ القيس :

تيَمَّمتِ العَيْنَ التي عند ضارِجٍ ... يفيءُ عليها الظِّلُّ عَرْمَضُها طامِ [4]

أي : يرجع عليا الظلُّ من جانب إلى جانب . فهذا يدلك على معنى الفيء .

وقال الشمّاخ :

إذا الأرْطى تَوَسَّدَ أَبْرَدَيْهِ ... خُدُود جَوازئٍ بالرَّمْلِ عينِ [5]

(1) هو أبو جنَّة حكيم بن عبيد – وقيل حكيم بن مصعب – كما قال الجواليقي، ينظر شرح الجواليقي / 122.

(2) أدب الكاتب / 23. وفي الحاشية : وإنما هو ههنا بمعنى الجزع .

(3) الحجرات / 9.

(4) ملحق ديوانه . ص : 476، عن الشعر والشعراء 1 / - 111؛ 112، وينظر شرح الجواليقي ، ص 131.

(5) ديوانه ، ص : 331. وينظر شرح الجواليقي، ص 132، والاقتضاب، ص 296.

أبرداه : الظلُّ والفيء، يريد وقت نصف النهار، كأن الظِّباء في بعض ذلك الوقت كانت في ظلٍّ ثم زالت الشمس فتحول الظل فصار فيئاً فحوَّلت خدودها "[1] ومن ذلك " الحمدُ والشكرُ " لا يكاد الناس يفرقون بينهما، فالحمدُ : الثناء على الرَّجل بما فيه من حَسَنٍ، يقول : " حَمِدْت الرَّجُل " إذا أثنيت عليه بكرم أو حسبٍ أو شجاعة، وأشباه ذلك، والشكرُ له : الثناء عليه بمعروف أولاكه؛ وقد يوضع الحمد موضع الشكر؛ فيقال : " حَمِدْتَه على معروفه عندي " كما يقال : " شكرت له " ولا يوضع الشكرُ موضع الحمد فيقال : " شكرت له على شجاعته "[2] .

فقد التمس ابن قتيبة الفروق اللغوية الدقيقة بين دلالات الألفاظ، وصوَّب خطأ الناس في استعمال لفظ محلَّ لفظ آخر، مؤمناً بأن كل لفظ يوحي بمعنى خاص لا يوحيه لفظ آخر.

وصحّح الخطأ الذي كان مبعثه التوسع المجازي، والتفت في أثناء معالجته لهذا الخطأ إلى ظاهرة الإبدال، فأشار إلى أساليب العرب في إبدال حرف من آخر نتيجة التطور الصوتي وقال : " ومن ذلك " الملَّة " يذهب الناس إلى أنها الخبزة، ويقولون : " أطعمنا مَلَّةً " وذلك غلط، إنما الملَّة موضع الخُبزة، سمّي بذلك لحرارته، ومنه قيل : " فلانٌ يتَمَلْمَلُ على فراشه " ولأصل : "يتملَّلُ " فأبدل من إحدى اللامين ميماً، ويقال، ملَلْتُ الخبزة في النار أمُلُّها مَلاًّ"، والصواب أن يقال " أطعمنا خُبْزَ مَلَّةٍ "[3].

لقد وقف ابن قتيبة على ظاهرة التطور الصوتي في اللغة، وأشار إلى الإبدال والتمس سبب تسمية المسميات، وبين افتنان العرب في طرق القول، وأساليبهم في استعارة الكلمة ووضعها مكان الكلمة الأخرى إذا كان المسمّى بها بسبب من الأخرى، أو

---

(1) أدب الكاتب / 26-28.

(2) نفسه /36.

(3) نفسه / 37 - 38.

مجاوراً لها أو مشاكلاً .

وفسّر بعض العبارات المتداولة، ووضّح المعنى المجمل المقصود منها، من ذلك ما جاء مثنى في مستعمل الكلام، وقال : " تقول العرب : " ذهب منه الأطيبان " يراد به الأكل والنكاح: و" أهلك الرجال الأحمران " : الخمر واللحم، و" الأسودان " التمر والماء، قالت عائشة رضي الله عنها : " لقد رأيتنا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وما لنا طعام إلا الأسودان التمر والماء " . وقال حجازي لرجل استضافه : " ما عندنا إلا الأسودان " فقال له : " خير كثير " قال : " لعلّك تظنهما التمرَ والماء، والله ما هما إلاّ الليل والحرّة [1]" .

وفسّر المستعمل من مُزْدَوِج الكلام . من ذلك قوله : " له الطِّمُّ والرِّمُّ " الطمُّ: البحر، والرمُّ : الثرى. وقوله : " له الضِّحُّ والريح " والضِّح : الشمس، أي : له ما طلعت عليه الشمس، وما جرت عليه الريح .

ومن ذلك ما له سَبَدٌ ولا لَبَدُ " السَّبَدُ : الشعر والوبر، يعنى الإبل والمعز، واللَّبْدُ : الصوف، يعني الغنم [2]" .

وقد يشرح اللفظة ويعقب عليها بالمعنى العام، من ذلك تفسيره ما يستعمل من الدعاء في الكلام نحو " استأصل الله شأفته " الشَأْفة : قرحة تخرج في القدم، فتكوى فتذهب، يقال منه : شئِفَتْ رجْلُه تَشْأَفُ شَأَفَاً، يقول : أذهبك الله كما أذهب ذاك [3] " .

وقد يفسر الأصل اللغوي للفظة، ويبين اشتقاقها، ومن أين أخذت حروفها، من ذلك أسكت الله نأمتَه " مهموزة مخفّفة الميم، وهو من " النّئيم " وهو الصوتُ الضعيف . يقال نامَّته – بالتشديد غير مهموز– أي ما ينمُّ عليه من حركته [4]" .

---

(1) أدب الكاتب / 42.

(2) نفسه / 46.

(3) نفسه / 49.

(4) نفسه / 49.

وقد عمد ابن قتيبة إلى ضبط حركة الكلمة، مدركاً أهمية الضبط المعجمية واللغوية لبيان الكلمة المراد شرحها .

وقد يفسر معنى العبارة، ثم يذكر أصلها اللغوي، مشيراً إلى تطور دلالتها من المعنى المحسوس إلى المجرد، من ذلك قوله : " أرغم الله أنفه " أي : ألزقه بالرّغام، وهو التراب، ثم يقال : " على رغْمه " و" على رَغْم أنفِه " .

ومن ذلك " سَخَّم الله وجْهَهُ " أي؛ سَوَّده، من السُّخام وهو سواد القِدْر [1]"

وقد يفسر معنى العبارة ثم يذكر أصلها، من ذلك ما جاء في باب " تأويل كلام من كلام الناس مُسْتَعْمَلٍ وقال : " يقولون : " حلب فلانٌ الدَّهرَ أشْطُرَه " أي : مرّت عليه صروفه من خيره وشرّه، وأصله من أخلاف الناقة، ولها شطران : قادمان، وآخران، وكلُّ خِلْفَين شَطْر [2]".

ومنه : (يقولون) : " ما بفلان طِرْقٌ " أي مابه قوة، وأصل الطِّرق الشَّحمُ، فاستعير مكان القوة؛ لأن القوة أكثر ما تكون عنه [3] .

ومنه " يقولون " فلانُ نسيج وَحْدِه " وأصله أن الثوب الرفيع النفيس لا يُنْسَجُ على منواله غيره، وإذا لم يكن نفيساً عُمِلَ على منواله سَدَى عدة أثواب؛ فقيل ذلك لكل كريم من الرِّجال [4]".

وقد يفسر معنى العبارة، ثم يذكر أصل حكايتها المنسيّة، من ذلك "يقولون لمن رفع صَوْته" قد رفع عقِيْرَتَهُ " وأصله أن رجلاً قُطِعَت إحدى رِجْلَيْه فرفعها ووضعها على

(1) نفسه / 49.

(2) أدب الكاتب / 50.

(3) نفسه / 51.

(4) نفسه / 52.

الأخرى، وصرخ بأعلى صوته؛ فقيل لكل رافعٍ صوته : قد رفع عقيرته، والعقيرة : الساق المقطوعة [1]".

لقد أدرك ابن قتيبة تطور العبارة من المعنى المحسوس إلى المجرد، ووقف على قوانين التطور الدلالي، وأن الألفاظ يعتريها التغيير والتطور؛ لأنه سنة من سنن الحياة، ونتيجة طبيعية لكثرة استعمال هذه الألفاظ في وظائف جديدة، من ذلك قوله : و " التَّيَمُّم بالصَّعيد " أصله التعمُّد، يقال : تَيَمَّمْتُك، وتأمَّمتُك، وأمَّمتُك، وقال الله عزّ وجلّ ﴿ فتيمَّمُوا صعيداً طيِّباً ﴾[2] أي تعمَّدوا، ثم كثر استعمالهم هذه الكلمة حتى صار التيمُّم مَسْحَ الوجه واليدين بالتراب [3] . وتعقّب ابن قتيبة أصول أسماء الناس وردها إلى مسمّياتها، وفسّر دلالتها من ذلك " المسمَّوْن بأسماء النبات " نحو : " ثُمامَةُ : واحدة الثُّمام، وهي شجر ضعيف له خوصٌ أو شبيه بالخوص، وربما حُشي به خصاص البيوت، وقال عبيد بن الأبرص :

عَيُّوا بأمْرِهِمُ كما عَيَّتْ ببيضتها الحَمامَه
جعلت لها عُودَيْنِ مِنْ نَشْمٍ، وآخَرَ مِنْ ثُمَامَهْ [4]

فالحمامة ههنا : القُمْريّة . ومنه " طَلْحةُ : واحدة الطَّلْحْ وهي شجرٌ عظام من العضاه " . ومنه " سيابةُ : واحدة السيَّاب، وهو البلح [5] .

لقد فسر معنى الاسم، وردّه إلى أصله، وأشار إلى الجموع السّماعية لهذه الألفاظ، مدركاً ما لعلاقة ذلك بوضوح المعنى وتحديده، أو للتفرقة بينها وبين ألفاظ أخرى ترد في

(1) نفسه 53.

(2) النساء / 43.

(3) أدب الكاتب / 65.

(4) ديوانه /138، والبيتان في شرح الجواليقي، ص : 165، والاقتضاب، ص : 314.

(5) أدب الكاتب / 68.

الصيغة نفسها، وقد يذكر أسماء من سمّي بأسماء النبات أو كني بها، من ذلك قوله : "حَمْزةُ " : بقلةٌ، وحدثني زيد بن أخزم الطّائي، قال : حدثنا أبو داود، عن شعبة، عن جابر، عن أبي نصر، عن أنس بن مالك، قال : " كنّاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ببَقْلَةٍ كنت أجتنيها " وكان يُكْنى " أبا حمزة " . ومثله قوله : " أراكةُ : واحدة الأراك، وبها سمّي أبو عمر بن أراكةَ [(1)] .

وتعقّب أسماء الناس المسمّين بأسماء الطير، نحو " هَوْذَةُ : القطاةُ، وبها سمّي الرجل و"القُطَامي" - بضم القاف وفتحها - الصّقر، وهو مأخوذ من القَطَمَ وهو الشهوان للّحم وغيره، يقال : " فَحْلٌ قَطِمٌ، إذا كان يشتهي الضّراب [(2)] .

ومنهم من سمّي بأسماء السّباع، نحو : " عَنْبَسُ " : الأسد، وهو فَنْعَل من العبوس وبه سمّي الرجل . و " حَيْدَرة " : الأسد، ومنه قول عليٍّ بن أبي طالب رضوان الله عليه :

أنا الذي سمَّتنِي أمي حَيْدَرَهْ

و" أسامة " : الأسد، وبه سمّي الرجل " و" هَيْصَمُ : الأسد و " هرثمة " : الأسد . و"الهرماس" : الأسد و" الضَيْغَمُ : الأسد، أخذ من " الضَّغْم " وهو العَضُّ و" الدَّلَهْمَسُ " : الأسد و" الضِّرْغامةُ : الأسد [(3)]".

لقد تعقب ابن قتيبة أسماء الناس المسمّين بأسماء السباع، وأقرّ بوقوع الترادف في اللغة، وبأن الألفاظ المختلفة تدل على مسمّى واحد، فللأسد أسماء كثيرة، ودلالتها واحدة، ولم يشر إلى الفروق اللغوية بينها .

ومنهم من سمّي بأسماء الهوام نحو " الذَّرُّ : جمع ذَرَّةٍ، وهي أصغر النمل، قال

---

(1) نفسه / 69.

(2) نفسه / 70.

(3) نفسه 70- 71.

الله تعالى : ﴿ فمن يعمل مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه ﴾[1] أي : وزْنَ ذرَّةٍ، وبها سُمِّي الرجلُ ذرّاً، وكُني أبا ذَرٍّ[2]".

ومنهم من سُمّي بالصفات وغيرها، نحو : " النَّجاشِيُّ : هو الناجش، والنَّجشُ : استثارة الشيء، ومنه قيل للزائد في ثمن السلعة : ناجش، ونَجّاش؛ ومنه قيل للصائد : ناجشٌ، قال محمد بن إسحاق : النّجاشِيُّ اسمه أصحَمَةُ، وهو بالعربية عَطيَّةُ، وإنما النّجاشيُّ اسم الملك كقولك : هِرَقْلُ . وقَيْصَرُ، ولست أدري أبالعربية هو، أم وفاقٌ وقع بين العربية وغيرها؟[3]".

و" الشَّوْذَبُ " : الطويلُ . و " الحَوْشب " : العظيم البطن، و" الصِّمَّةُ "؛ الشجاع، جمعُها؛ صِمَمٌ . و " قُتَيْبَةُ : تصغير : قتْب، وجمعه أقتاب، وهي الأمعاء . قال الأصمعي والكسائي : واحدها قِتْبَةٌ[4]".

والتفت إلى ظاهرة التصغير في العربية، وردَّ الاسم إلى أصله، مدركاً ما لعلاقة ذلك بتوضيح المعنى؛ لأن تصغير الكلمة قد يُعَمّي على معناها، من ذلك قوله : " عامر بن فُهَيْرَة: تصغير فِهرْ، والفهر مؤنثة، يقال : هذه فِهْر "، ومثله قوله : " زُهَيْرٌ : من : أَزْهَرُ " مُصَغَّرٌ مُرَخَّمٌ . مثل : سُوَيْدٍ من أسوَد . والأزهرُ : الأبيض[5]".

وفسر ألفاظ السَّماء والنجوم والأزمان والرياح، وحاول توضيح معانيها، وردّها إلى أصولها، كقوله : " السّماء " : كلُّ ما علاك فأظلَّك، ومنه قيل لسقف البيت : " سماءٌ " وللسحاب : " سماءٌ "، قال الله تعالى : ﴿ ونزَّلْنا من السّماء ماءً مباركاً ﴾[6] يريد من

---

(1) الزلزلة / 7.

(2) أدب الكاتب / 72.

(3) نفسه / 73.

(4) نفسه 75.

(5) نفسه 76.

(6) ق / 9.

السحاب [1]".

ومنه : " الفَلَكُ " : مَدارُ النجوم الذي يضُمها، قال الله تعالى : ﴿ وكلٌّ في فلك يَسْبَحُون ﴾ [2] سمّاه فلكاً لاستدارته، ومنه قيل : " فَلْكَةُ المِغْزَل " وقيل : " فَلَك ثَدْيِ المرأة"، وللفلك قطبان : قطبٌ في الشمال، وقطب في الجنوب، متقابلان [3] .

وفسّر الألفاظ التي تدل على أوقات معينة، كقوله : " يقال : مضى هَزِيعٌ من الليل، وهُدْءٌ من الليل، وذلك من أوله إلى ثلثه . وجَوْزُ الليل : وسَطه، وجُهْمَةُ الليل : أوَّل مآخيره، والبُلْجَةُ : آخِره، وهي مع السَّحور، والسُّدْفةُ مع الفجر، والسُّحْرَةُ : السَّحَرُ الأعلى، والتَّنْوِيرُ :عند الصلاة ... [4]".

وتعقّب هذه الألفاظ سالكاً منهج أصحاب معاجم المعاني، وجمع الألفاظ التي تدور في فلك موضوع واحد، من ذلك قوله في " المطر " . " الوَسْمِيُّ " مطر الربيع الأول عند إقبال الشتاء ......

والعرب تسمي النَبْتَ " ندى "، لأنه بالمطر يكون، وتسمّي الشحم " ندىً " لأنه بالنبت يكون، قال ابن أحمر [5] :

كثَور العداب الفَرْدِ يَضْرِبُه النَّدى   تَعلَّى النَّدى في مَتْنه وتحدَّرا

فالندى الأول : المطر، والنَّدى الثاني : الشحم .

---

(1) أدب الكاتب / 85.

(2) يس / 40.

(3) أدب الكاتب / 85 - 86.

(4) أدب الكاتب / 94

(5) هو عمرو بن أحمر الباهلي، والبيت في ديوانه /84، والعداب : ضرب من الرمل، والعداب : الأرض السهلة ويقال مستدق الرمل .

ويقولون للمطر : " سماء "؛ لأنه من السماء ينزل، قال الشاعر [1] :

إذا سقط السماءُ بأرض قَوْمٍ رعيْناه وإن كانوا غضابا

وأضعف المطر : " الطَّلُّ " وأشَدُّهُ : " الوابل " ومنه السيل، قال الشاعر :

هو الجواد ابن الجواد ابن سَبَلْ إن ديَّموا جَادَ، وإن جادوا وَبَل [2]

يريد أنه يزيد عليهم في كل حال، قال الله تعالى : ﴿ فإنْ لَمْ يُصِبْها وابلٌ فَطَلٌّ ﴾ [3] يريدُ أن أكلها كثير اشتدَّ المطر أو قلَّ [4] .

وخصّ ألفاظ النبات بباب خاص وشرح معانيها بإيجاز . نحو : " الخلى " وهو الرَّطْبُ، و" الحشيشُ " وهو اليابس، ولا يقال له رطْباً : حشيشٌ " .

و" الشَّجرُ " ما كان على ساق، و" النجمُ " ما لم يكن على ساق، قال تعالى : ﴿ والنَّجْمُ والشَّجَرُ يَسْجُدان ﴾ [5] .

و" النَّوْرُ " من النبْت : الأبيضُ، و" الزَّهرُ، يكون أبيض ثم يصفَرُّ؛ هذا قول ابن الأعرابي. و" الأبُّ " المرعى [6] .

وتعقّب ألفاظ النخلة وخصّها بباب خاص، وفسرها بإيجاز، نحو " الكِرنافة " : أصل السَّعفة التي تَيْبَس، وجمعها كرانيفُ، و" الكرَبةُ " التي تَيْبَسُ فتصيرُ مثل الكتفِ،

---

(1) معاوية بن مالك معوِّد الحكماء، والبيت في المفضليات / 359.

(2) البيتان في اللسان (سبل) والرجز لجهم بن سبل يفخر فيه بنفسه وسبل أبيه، وينظر شرح الجواليقي / 186.

(3) البقرة / 265.

(4) أدب الكاتب / 97.

(5) الرحمن / 6.

(6) أدب الكاتب / 98.

و" الجَريدُ " و" العُسُبُ " : السَّعفُ، واحدها عَسيب ... "[1]

وتعقّب أسماء ما شهر منه إناث الحيوان، وفسّر معانيها نحو " اليعاقيبُ " ذكور الحَجَل، واحدها يَعْقوب، و" السُّلَكُ " الذكر من فراخها، والأنثى سُلَكَةُ . و " الْخَرَبُ " ذكر الحُبَارى .و" ساق حُرٍّ " ذكر القمارِيّ . و" الفيَّاد " ذكر البُوم، ويقال؛ هو الصَّدى . و " اليَعْسوب " ذكر النحل ... "[2].

وفسّر أسماء إناث ما شُهر منه الذكور نحو قوله : " الأنثى من الذئاب " سِلْقَةٌ " و"ذئْبَةٌ" والأنثى من الثعالب و" ثَعْلَبَةٌ " والأنثى من الوعول " أُرْوِيَّة " وثلاث " أراويَّ " إلى العَشر، فإذا كثرت فهي الأرْوَى ... "[3].

وعقد باباً خاصاً لـ " ما يعرف واحده، ويُشْكِلُ جمعه " فذكر اللفظ المفرد، وحدد جمعه لندرته من ذلك قوله : " الدخان " جمعه " دواخن "، وكذلك " العثُانُ " " عَوَاثِنُ " ولا يعرف لهما نظيرٌ، والعثان : الغبار .

وامرأة " نُفَساء "، وجمعها " نِفاسٌ " وناقةٌ " عُشَرَاءُ " وجمعها " عِشارٌ " والكَرَوان جمعها " كِرْوَان " والمِرْآةُ جمعُها " مَرَاءٍ " .

واللأْمَةُ الدِّرْع جمعها " لُؤَمٌ " على مثال فُعَل، على غير قياس، كأنه جمع لُؤْمَةٍ "[4].

وعقد باباً آخر لـ " ما يعرف جمعه، ويشكل واحده، فذكر اللفظ الجمع، وحدد مفرده، وما قيل فيه من لغات، وضبطه بالحركات، نحو قوله : " الذَّرارِيحُ واحدها ذُرُحْرُحٌ " و"ذُرَّاحٌ" و" ذُرُّوحٌ " .

---

(1) أدب الكاتب / 101 .

(2) نفسه / 103 .

(3) نفسه / 104 .

(4) نفسه / 105 .

والمصارينُ واحدُها " مُصْرانٌ " بضم الميم، وواحد المُصران مَصِيرٌ . وأفواه الأزقة والأنهار واحدها " فُوَّهَةٌ " ، وأفواه الطّيب واحدها " فُوهٌ " والغرانيق طير الماء واحدها " غُرْنَيْقٌ " ، وإذا وصف بها الرجالُ فواحدهم " غُرْنُوقٌ " و " غِرْنَوْقٌ " وهو الشابّ الناعم "[1] .

وخصّ ألفاظ الخيل بباب خاص (معرفة ما في الخيل، وما يستحب من خَلْقها) وفسرها تفسيراً لغوياً، وعضد تفسيره بشواهد من الشعر الذي يحتج به، نحو قوله :

يُستَحبُّ في الأذنين الدقَّة والانتصابُ، ويُكْرَه فيهما " الْخَذَا " وهو استرخاؤهما . قال الشاعر[2] :

يَخْرُجْنَ من مُسْتَطِير النَّقْع دامية ... كأنَّ آذانَها أطرافُ أقلامِ

ويستحب في الناصية السُّبوغُ، ويكره فيها " السَّفا " وهو خِفَّةُ الناصية وقصرها، قال عبيد[3] :

مُضَبَّرٌ خَلْقُها تَضْبيراً ... يَنْشَقُّ عن وجْهِها السَّبِيبُ

وهي شعر الناصية .... " .

و" يستحب في الخدّ " الأسالةُ " و " الرِّقَّةُ " وذلك من علامات العتق والكرم .

و" يستحب في الجبهة " السَّعَةُ، ولذلك قال امرؤ القيس[4] :

لها جَبْهَةٌ كسَراةِ المِجنّ ... حَذَّفَهُ الصانعُ المُقْتَدِرْ

المجنُّ : التُّرْسُ " .

---

(1) نفسه / 107 .

(2) عديٌّ بن الرقاع كما في الاقتضاب، ص : 322 .

(3) البيت لعبيد الأبرص، وهو في ديوانه / 28 .

(4) أدب الكاتب / 109 .

وأعقب ذلك بألفاظ عيوبها، وقال " الخذا " في الأذن : استرخاءُ أصول الأذنين على الخدّين . و" السَّعفُ " : بياض يعلو الناصية . و" القَنا " احديدابٌ يكون في الأنف، وذلك يكون في الهُجْن . و" السّفا " : خفة الناصية، وهو مذموم في الخيل محمود في البغال ... "[1].

وذكر " العيوب الحادثة في الخيل " وفسر معانيها، نحو قوله : " الانتشار " انتفاخٌ في العَصَب للإتعاب، والعَصَبَةُ التي تنتشر هي " العُجايةُ " ...

و" السَّرطان " وَرَمٌ يأخذ في الرُّسْغ فييبِّسُ عروق الرسغ حتى يقلبَ حافرَه "[2].

وتعقب ألفاظ " خلق الخيل " واستقصى أسماء أعضائها، نحو قوله " قَوْنَسُ الفرس " : ما فوق الناصية من مَنْبَتِها بين الأذنين . و" القَذَال " : جماعُ مؤخَّر الرأس، وهو مَعْقِد العِذار خلف الناصية ... "[3].

وأعقب ذلك بذكر شياتها، وقال : " إذا ابيضّ أعلى رأسه فهو " أصقَعُ " ، وإذا ابيضّ قفاه فهو " أقْنَفُ " . وإذا ابيض رأسه كله فهو " أغشى " و " أرخَم " ، فإن شابت ناصيته فهو " أسْعَفُ " ، فإن ابيضتْ كلها فهو " أَصْبَغُ " ....[4]

وذكر ألوانها وقال : و" البهيم " وهو المُصْمَتُ الذي لا شِيَةَ به ولا وضح، أي لون كان، ومما لا يقال له بهيمُ ولا شِيَةَ به " الأبرش " و" الأغَرُ " و" الأشيَمُ " و" المُدنَّرُ " و" الأبْقَعُ " و" الأبلقُ ... "[5].

---

(1) نفسه / 121 .

(2) نفسه / 124 - 125 .

(3) نفسه / 125 - 126 .

(4) أدب الكاتب / 131 .

(5) نفسه / 134 .

وذكر الدوائر في الخيل، وما يُكره من شياتها وقال : و" الدوائر " ثماني عشرة دائرة، تُكْرَه منها " الهَقْعَةُ " وهي التي تكون في عُرْض زَوْره .. "[1].

وختم باب الخيل بذكر السوابق منها، وذكر أسماءها وقال : " أوّلها " السابقُ " ثم " المُصَلِّي وذلك لأن رأسه عند صَلاَ السابق ... والعاشر " السُّكَيْتُ " .. و" الفِسْكِلُ " الذي يجيء في الحلْبَةِ آخر الخيل .... "[2]

وبعد ذلك انتقل إلى ذكر ألفاظ عيوب خلق الإنسان، وفسر معانيها بإيجاز نحو قوله: "الفَقَمُ " في الفم : وهو أن تتقدم الثنايا السفلى إذا ضمَّ الرجل فاه فلا تقع عليها العُليا ..

و" الفَأْفَأَةُ " : أن يتردد المتكلم في الفاء فإذا تردد في التاء فهو " تَمْتَامٌ "، فإذا دخل بعض كلامه في بعض قيل : " بلسانه لَفَفٌ "، و" الألثَغُ " الذي يَرْجِعُ لسانُه في المنطق إلى الثّاء والغين ... "[3].

ثم يفسر العلل التي تصيب الإنسان، من ذلك " تقول العرب : الدَّواء هو " الأزْمُ " يعنون الحِمْيَة، وأصل الأزم ضمّ الأسنان كأنه يَعضّ، وقال ابن مسعود : أصل كلٍّ داءٍ "البَرَدةُ" يعني التُّخَمَة ....

و " العُذْرَةُ " : وجعُ الحَلْق، وأكثر ما يعتري الصبيان فيُعلَقُ عنهم، و" الإعلاقُ " و"الدَّغْرُ " شيء واحد، وهو أن تُرْفَع اللَّهاة، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك... "[4].

وأعقب الباب بذكر " أبواب الفروق " وبدأها بباب " فروق في خَلْق الإنسان " وذكر فيه

(1) نفسه / 135.

(2) نفسه / 136.

(3) نفسه / 136 - 137.

(4) نفسه / 140 - 141.

الألفاظ التي تدل على الفروق في أسماء أعضائه، وهيئته وأحواله، من ذلك قوله : " ظاهر جلد الإنسان من رأسه وسائر جسده " البَشَرَة " وباطنه " الأدَمةُ " . والعرب تقول : "فلان مُؤدَمٌ مُبْشَرٌ " أي قد جمع لين الأدمة وخشونة البشرة وشخْصُ الإنسان إذا كان قاعداً "جُثَّةٌ" ، فإذا كان قائماً فهو "قامةٌ [1]" .... ويقال : رجل مَلْهُوزٌ : إذا بدا الشَّيب في رأسه، ثم هو " أشْمَطُ " : إذا اختلط السواد والبياضُ، ثم هو " أشْيَبُ " .

و" القَرَنُ " في الحاجبين : أن يطولا حتى يلتقي طرفاهما، و" البَلَجُ " أن يتقطَّعا حتى يكون ما بينهما نقيّاً من الشَّعْر، والعرب تَسْتَحِبُّه وتكره القَرَن، و" الزَّججُ " طول الحاجبين ودقَّتُهما وسُبُوغُهما إلى مُؤْخِر العينين ... [2]" .

ثم يذكر ألفاظ " فروق في الإنسان [3]" وأتبعها بألفاظ " فروق في الأفواه [4]" ، وألفاظ "فروق في ريش الجناح [5]" ، ثم خصّ ألفاظ الفروق بين الأحياء في صفة واحدة، فقال : "ولدُ كلِّ سَبُعٍ " جَرْوٌ " ، وولد كلِّ ذي ريشٍ " فَرْخٌ " ، وولد كلٍّ ذي وَحْشِيَّةٍ "طِفْلٌ " ...

ثم ولدُ الفرس " مُهْرٌ " و" فَلُوٌّ " . وولد الحمار " جَحْشٌ " و " عِفْوٌ " و " تَوْلَبٌ " وكذلك البغل الصغير . وولد البقرة " عِجْلٌ " والأنثى " عِجْلَةٌ " ... [6] .

ثم ذكر ألفاظ " فروق في السِّفاد [7]" ، وألفاظ الفروق في الحمل[8] ، و" ألفاظ الفروق في

(1) أدب الكاتب / 144 .

(2) نفسه / 146 .

(3) نفسه / 149 - 153 .

(4) نفسه / 153 .

(5) نفسه / 154 - 163 .

(6) نفسه / 154 .

(7) نفسه / 156 - 158 .

(8) نفسه / 158 .

الولادة[1]"، وألفاظ " الفروق في الأصوات " نحو قوله : " أزْمَلُ " كل شيء : صوته، و"الجَرْسُ " صوت حركة الإنسان، و" الرِّكْزُ " الصوتُ الخفيُّ، ونحو ذلك " الهَمْسُ " . و"الخَريرُ " صوتُ الماء، و" الغَرْغَرةُ " صوت القِدْر، وكذلك " الهِزَّة " و" الوَسْواس " صوتُ الحُليِّ . . . .[2]"

وفسر الألفاظ المستخدمة في الطعام والشراب، واستقصى أسماءها، من ذلك ما ذكره في باب الطعام : " طعام العُرْس " الوليمةُ " وطعام البناء " الوكيرةُ " وطعام الولادة " الخُرسُ " وما تُطْعِمُه النُّفَساء نفسها " خُرْسَةٌ " وطعام الختان " إعْذارٌ " . .[3]".

وذكر من ألفاظ الشراب " الماء الفُراتُ " : العَذْبُ، و" الأُجَاجُ " المِلْحُ، ويقال : ماءٌ مِلْحٌ، ولايُقال مَالحٌ، قال الله تعالى : ﴿ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وهَذَا مِلْحٌ أُجاجٌ ﴾[4]، و" الشَّرِّيبُ " الماء الذي فيه عُذوبةٌ، وهو يُشربُ على ما فيه، و" الشَّروبُ " دونه في العذوبة، وليس يُشْرَبُ إلاّ عند الضرورة، والماءُ " النَّميرُ " النامي في الجسد، وإن كان غيره عَذْب . . .[5]".

ويستقصي أسماء الخمرة، ويشير إلى سبب التسميات، ويغلب في كل هذا سمة الإيجاز في المعنى، ويندر أن يوثق هذا المعنى، نحو قوله : و " القَهْوَةُ " الخمرُ، سمّيت بذلك لأنها تُقهي، أي تَذْهَبُ بشهوة الطعام، قال الكسائي . يقال : قد أقهى الرجل : إذا قلَّ طُعْمُهُ . وتسمى " الشَّمولَ "، لأنها تشْتَمِل على عقل صاحبها، و" العُقَارَ " . لأنها عاقَرتِ الدَّنَّ، أي : لَزِمَتْه، ويقال : بل أُخذ من عَقْر الحَوض، وهو مُقامُ الشاربة . . . . و"النَّبيذ " لأنه نُبِذَ أي : تُرِكَ حتى أدْرِكَ . .[6]".

---

(1) نفسه / 159 .

(2) نفسه / 160 .

(3) نفسه / 162 .

(4) الفرقان / 53.

(5) أدب الكاتب / 165.

(6) نفسه / 165 - 166 .

وذكر من ألفاظ اللبن " الصّريف " : الحارُّ منه حين يُحلَب، فإذا سكنَتْ رَغوَتُه فهو "الصَّريحُ " و " المَحْض " الذي لم يخالطه الماء، حُلْوا كان أو حامضاً، فإذا أخذ شيئاً من التغير فهو " خامِطٌ " فإذا حذى اللسان فهو " قارِصٌ " فإذا خَثَر فهو " رائِبٌ " فإذا اشتدت حموضته فهو " حَازِرٌ " .

و" المَذِيقُ " المخلوط بالماء، ومنه يقال : " فلان يَمْذُقُ الوُدَّ " إذا لم يُخْلِصْهُ و " الدُّوايَةُ ما رَكِبَ اللبن كأنَّه جلد . . . [1]".

ثم يذكر ألفاظ " فروق في قوائم الحيوان [2]" و " الضروع [3]" وألفاظ " فروق في الرحم والذكر [4]" وألفاظ " فروق في الأرواث [5]".

وذكر الفروق في أسماء الوحوش، وأشار إلى صفاتها التي تتسم بها، وتتميز بها عن غيرها وقال : " الأرآم " الظبَاءُ البِيضُ الخوالِصُ البياض، وهي تسكن الرمل، و"الأُدْمُ ظباءٌ طوالُ الأعناق والقوائم بيض البطون سُمْرُ الظهور وهي أسرع الظباء عَدْواً، وهي تسكن الجبال، و" العُفْرُ " ظباءٌ تعلو بياضها حمرة، قصار الأعناق، وهي أضعفُ الظباء عَدْواً، وهي تسكن القِفاف وصلابة الأرض . . . [6]".

واستقصى أسماء جحرة السباع، ومواضع الطير [7] "وألفاظ "فروق في أسماء

(1) نفسه / 168 .

(2) نفسه / 171 - 170 .

(3) نفسه / 171 .

(4) نفسه / 171 .

(5) نفسه / 171 - 172 .

(6) أدب الكاتب / 172 .

(7) نفسه / 173 .

الجماعات[1]" وأسماء " الشاء[2]" و" شيات الغنم[3]" وأسماء " الآلات[4]" و" الثياب واللباس[5]" و " السّلاح " والتفت في أثناء معالجته تلك الألفاظ إلى الاشتقاق، فاشتق من الأسماء الجامدة الذوات صيغاً متنوعة، من ذلك " يقال : " رجل ترّاس " إذا كان معه تُرْسٌ، فإذا لم يكن معه ترس فهو " أكْشَفُ " ، و" رجُل سائفٌ " ، و" سيّافٌ " إذا كان معه سيفٌ، فإذا لم يكن معه سيفٌ فهو " أمْيَلُ " ، وقيل : " المُسيفُ " الذي عليه السيفُ فإذا ضَرَب به فهو " سائِفٌ[6]" .

وذكر أسماء الصُّنّاع [7] و " اختلاف الأسماء في الشيء الواحد لاختلاف الجهات " من ذلك : " الفَتْلُ الشَّزْرُ " إلى فوق، و" اليَسْرُ " إلى أسفل، و" الطَّعْنُ الشَّزْرُ " عن يمينك وشمالك، و" اليَسْرُ " حِذاء وجهك، والطعنة " السُّلكى " هي المستوية " و" المَخلوجَةُ " ذات اليمين وذات الشمال . .[8]" .

وذكر أسماء " الطير[9]" و" الهوام والذباب وصغار الطير[10]" .

وذكر أسماء " الحيّة والعقرب[11]" وألفاظ " جواهر الأرض[12]" ، وعقد باباً ذكر فيه

---

(1) نفسه 173 - 176 .

(2) نفسه / 176 .

(3) نفسه 176 - 178 .

(4) نفسه / 178 - 181 .

(5) نفسه / 181 - 183 .

(6) نفسه / 183 - 186 .

(7) نفسه / 178 .

(8) نفسه / 178 - 188 .

(9) نفسه / 189 - 193 .

(10) نفسه / 193- 198 .

(11) أدب الكاتب / 198 - 199 .

(12) نفسه / 199 - 200 .

الأسماء المتقاربة في اللفظ والمعنى " نحو قوله : النَّضْخ " أكثر من " النَّضح " ولا يقال من النضخ فَعَلْت. و" الحَزْم " من الأرض : أرفع من " الحَزْنِ " . و " القَبْضُ " بجميع الكفّ، و "القَبصُ " بأطراف الأصابع .... " [1] .

وعقد باباً ذكر فيه " نوادر من الكلام المشتبه " وبيَّنَ الفروق اللغوية بين عدد من الصيغ التي تشكل على الناس، من ذلك : " التَّقريظُ " مَدحُ الرجل حيًّا، و" التأبين " مدحه ميِّتاً... و " عَقَلتُ المقتولَ " إذا أعطيتَ دِيَته، و" عَقَلْتُ عن فلان " إذا لَزِمَتْه دِيَةٌ فأعطيْتَها عنه؛ قال الأصمعي : كلّمت أبا يوسف القاضي في هذا عند ا لرَّشيد فلم يَفْرُقْ بين "عَقَلْتُه" و" عَقَلْتُ عنه " حتى فهَّمْتُه ..... " [2] .

وختم ابن قتيبة كتاب " المعرفة " بباب خاص عقده للتضاد سمّاه " باب تسمية المتضادين باسم واحد " حيث جمع الألفاظ المتضادة وفسر معانيها المختلفة، وبلغ عددها سبعاً وعشرين كلمة، وثّق بعضها بشاهد من الشعر القديم تارة، وترك بعضها عطلاً تارة أخرى، من ذلك قوله : الجَوْن : الأسود، وهو الأبيض، قال الشاعر :

يُبَادِرُ الجوْنَة أن تَغِيبا [3]

يعني الشمس .

و" الصَّريم " الليل، و" الصريم " الصُبح ....و" الجَلَلُ " الشيء الكبير، و" الجَلَلُ " الشيء الصغير ....

---

(1)نفسه / 200 .

(2) نفسه / 202 .

(3) البيت للخطيم الضبابي كما في الاقتضاب /360، والجواليقي / 253 . وصواب إنشاده :

يبادر الآثار أن تؤوبا وحاجبَ الجونة أن يغيبا .

و " النّاهِلُ " العطشان، و" النَّاهِلُ " الرَّيَّانُ، قال النابغة :

يَنْهَـلُ منهـا الأسَـلُ النّاهِـلُ [1]

أي : يُرْوى منها الرِّماح العِطَاشُ [2]"

وقد اكتفى ابن قتيبة بذكر المصطلح في أول الباب، ولم يتحدث عن أسباب نشأة التضاد أثناء تناوله للألفاظ، ويبدو أن عنايته بظاهرة التضاد انصرفت إلى توجيه الكتّاب والدارسين وتعليمهم دلالة الألفاظ على المعاني المختلفة، مستدلاً بوجود هذه الظاهرة على قدرة اللغة العربية في الإعراب عن المعاني الدقيقة، وبأن اللفظة الواحدة يمكن أن تقع على أكثر من معنى، وقد أقرّ بالاشتراك اللفظي في أكثر من موضع في كتبه المختلفة [3] ومن أقرّ بالاشتراك أقرّ بالتضاد؛ لأن التضاد يعدّ ضرباً من ضروب الاشتراك .

ويبدو أن ابن قتيبة قد نهج في كتاب المعرفة منهجاً اتسم بالإيجاز المنسق وحشد المعارف الثقافية واللغوية التي يحتاج إليها الأديب اللغوي، وقد سلك منهج اللغويين الأوائل في هذا اللون من التأليف اللغوي؛ ليكون كتابه نافعاً لكتّاب الدواوين، وزاداً لغوياً لأهل الصناعة، فانصرفت عنايته إلى تصنيف مفردات اللغة بحسب الموضوعات، فقد جمع ما يخص خلق الإنسان، والخيل، والطعام والشراب والثياب في باب واحد يطول أو يقصر بحسب ثراء اللغة العربية في هذا الموضوع أو ذاك .

وهذا المسلك الذي سلكه ابن قتيبة، يلائم الغرض الذي ندب علماء اللغة أنفسهم لتحقيقه، وهو التصنيف والتأليف، ويلائم طبيعة الفكر العربي الذي لم تكن أقيسة المنطق تسيطر عليه . وتعد جهود ابن قتيبة في هذا المجال ثمرة من ثمار التأليف العربي في مادة

---

(1) البيت للنابغة الذُبياني، ديوانه /126، وصدره : **والطاعن الطعنة يوم الوغى** .

(2) أدب الكاتب / 208 - 210.

(3) ينظر أدب الكاتب / 85. والمسائل والأجوبة / 51 - 55.

(فقه اللغة) أفاد منها واضعو المعاجم وأصحاب المصنفات اللغوية الضخمة .

أمّا في الكتاب الثاني وهو (كتاب تقويم اليد [1]) فقد أصّل ابن قتيبة لقواعد رسم الحرف العربي، وبيّن ما يحتاج إليه الكتّاب من ثقافة لغوية في الخط، ونبّه على الأخطاء التي يمكن أن يقعوا فيها من زيادة أو نقص في رسم الحروف، وعالج ظاهرة الخطأ في اللغة المكتوبة، وبيّن أصول الرسم الإملائي للكلمات، من ذلك رسم ألف الوصل في الأسماء، وما تغيّره ألف الوصل، ودخول ألف الاستفهام على ألف الوصل، وعلى ألف القطع، وألف الفصل، وحذف الألف من الأسماء وإثباتها، والأمر بالمعتل من الفعل، وما نقص منه الياء لاجتماع الساكنين، وما يكتب بالياء والألف من الأفعال، وما يكتب بالياء والألف من الأسماء، ورسم الحروف التي تأتي للمعاني مثل " عسى " و " بلى " و " متى " و" كلا " و"كلتا " وغيرها، ورسم الهمزة المتوسطة، والهمزة المتطرفة .

وعقد في هذا الكتاب باباً خاصاً لما يجري عليه العدد في تذكيره وتأنيثه [2]، وآخر للتثنية [3]، وباباً لما يستعمل كثيراً من النّسب في الكتب واللفظ [4] وباباً آخر لما لا ينصرف [5] وباباً لأسماء المؤنث التي لا علامات فيها للتأنيث [6] وآخر لما يذكّر ويؤنث [7]، وباباً لما يستعمل في الكتب والألفاظ من الحروف المقصورة [8]، وآخر لحروف المد المستعمل [9]، ولما

---

(1)أدب الكاتب / 213 - 306.

(2) نفسه / 270 - 275.

(3) نفسه / 275 - 277.

(4) نفسه / 181 - 278.

(5) أدب الكاتب / 281 - 287.

(6) نفسه / 287 - 288.

(7) نفسه / 288 - 289.

(8) نفسه / 297 - 298.

(9) نفسه / 301 - 304.

يُمدُّ ويقصر[1] .

لقد هدف ابن قتيبة منَ باب(إقامة الهجاء) أن يكون درساً نافعاً لكتّاب الدواوين، ليعرفوا أصول الرسم الإملائي للكلمات، ويتجنبوا الأخطاء التي يمكن أن يقعوا فيها من زيادة في كتابة الحرف ما ليس في وزنه؛ ليفصلوا بالزيادة بينه وبين المُشبه له، وإسقاطٍ من الحرف ما هو في وزنه استخفافاً واستغناءً بما أُبقي عما أُلقي . . .[2] .

وفي الكتاب الثالث وهو (كتاب تقويم اللسان) عالج ابن قتيبة طائفة كبيرة من الألفاظ التي يستعملها الأدباء في غير مواضعها الأصلية، وهو ما عرف عند علماء اللغة بـ (لحن العامة)، وعقد باباً ذكر فيه الألفاظ التي تقاربت أصواتها ومعانيها، ووضع الناس أحدها موضع الآخر نحو :

" عُظْمُ الشَّيء " أكثره، و " عَظْمُهُ " نفسه[3] .

و" الجُهْدُ " الطّاقَةُ، تقول " هذا جُهْدي " أي : طاقتي، و " الجَهْدُ " المَشَقَّةُ، تقول "فَعَلْتُ ذاك بجَهْدٍ " . .

و "عُرْضُ الشَّيء " إحدى نواحيه، و " عَرْضَ الشّيء " خلاف طوله . . .[4]"

و" الحَرْقُ " في الثّوب وغيره من النّار، و" الحَرَق " النّارُ نفسُها، يقال : " اذهب في حَرَقِ الله "؛ وقال رؤبة[5] :

شــداً سَريعــاً مــثل إضــرام الحَــرَقْ

---

(1) نفسه / 304 - 306 .

(2) نفسه / 213 .

(3) نفسه / 307 .

(4) نفسه / 308 .

(5) ديوانه /106، وروايته : **من كفتها شداً كإضرام الحَرَق** . وفي اللسان (كفت) و (حرق) .

يعني النّار . . . "[1]

وقد فسّر ابن قتيبة هذه الألفاظ، وذكر معانيها، ووثق دلالتها، حتى لا يقع الناس في الخلط بينها، وربما وضعوا أحدها موضع الآخر .

وأعقب ذلك بالحروف التي تتقارب ألفاظها وتختلف معانيها، نحو : " الإِرْبَةُ " الحاجة، و" الأُربَةُ " العُقْدةُ . و" الحَدَأةُ " الفأس ذات الرأسين، وجمعها حَدأٌ، و" الحِدأَةُ " الطائر، وجمعها حِدأٌ . و" الرُّمَّةُ " القِطْعَةُ من الحَبْل، و" الرِّمَّةُ " العظام البالية[2] .

ثم يذكر اختلاف الأبنية في الحرف الواحد لاختلاف المعاني، والتفت أثناء معالجته لتلك الصيغ إلى ظاهرة الاشتقاق، وفسر الدلالات المختلفة لها، نحو قوله : " قالوا : رجُلٌ مُبَطَّنٌ " إذا كان خميص البطن، و" بَطِينٌ " إذا كان عظيم البطن، و" مَبْطونٌ " إذا كان عليل البطن، و" بَطِنٌ " إذا كان منهوماً نهماً، و" مِبْطانٌ " إذا ضَخُم بَطْنُه من كثرة ما يأكل . . . "[3]

وذكر الألفاظ المثلثة، وفسر دلالاتها المختلفة باختلاف حركة فاء الكلمة، من ذلك "الغَسْلُ " مصدر غَسَلْتُ، و" الغِسْلُ " الخِطْمِيُّ وكلُّ ما غُسِلَ به الرأس، و" الغُسْلُ " بالضَّمِّ: الماء الذي يُغْتَسَل به .. " و" النّكْسُ " مصدر نَكَسْتُ و" النِّكس " من الرجال مُشَبَّه بالنِّكس من السهام؛ وهو الذي نُكِسَ، و" النُّكْسُ " بالضم : هو أن يُنْكَس الرجلُ في عِلَّتِه .. "[4] .

(1) أدب الكاتب / 310.

(2) أدب الكاتب / 322.

(3) نفسه / 326.

(4) نفسه / 312.

والتمس ابن قتيبة طرائق مختلفة لتفسير الألفاظ المتقاربة في اللفظ وفي المعنى، من ذلك تفسير الكلمة بمرادفها كقوله : و" السَّلْم " الصُّلْح، و" السَّلَم " الاستسلام "[1] وقد يوثق دلالة الكلمة بالشاهد الملائم، كقوله : و" النُّصْبُ " الشَّرُّ؛ قال الله عزّ وجلّ : ﴿ بنُصْبٍ وَعَذابٍ ﴾ [2]، و" النَّصْبُ " ما نُصِبَ؛ قال الله عزّ وجلّ : ﴿ كأنَّهُم إلى نَصْبٍ يُوفِضون ﴾ [3] وهو النُّصْبُ " أيضاً، و" النَّصَبُ " التَّعَبُ . . . "[4].

وقد يوثّق دلالة الكلمة بأكثر من شاهد، بعد أن يفسر معناها، نحو قوله : و" الخَلْفُ " الرَّديء من القول، ومنه قولهم في المثل : [5] "سكت ألفاً ونطق خَلْفاً " . ويقال" هذا خَلْفُ سوءٍ " قال الله عزّ وجلّ : ﴿ فخلف من بَعْدِهِمْ خَلْف ﴾ [6] " وهذا خَلَفٌ من هذا " : إذا قام مقامه . . " .

وقد يفسر الكلمة بذكر ضدّها، ويقلبها على وجوهها المختلفة، ويذكر المصدر، والمشتقات منه، كقوله : و" الذِّلُّ " ضد الصعوبة، و" الذُّلُّ " ضدُّ العزّ، يقال " دابَّةٌ ذَلولٌ من الذِّلّ " إذا لم تكن صَعْباً، و" رَجُلٌ ذَليلٌ بَيِّنُ الذُّلِّ " .

وقد يذكر فعل المصدر كقوله: و" النَّفْضُ " مصدرنَفَضْتُ الشيء، و" النَّفَضُ " ما سقط من الشيء تَنْفُضُه . . . . [7] .

و" الأُكْلُ " مصدر أكَلْتُ، و" الأُكْلُ " المأكول، و" فلانٌ ذو أُكْلٍ " إذا كان ذا جَدٌّ وحظٌّ .

---

(1) نفسه 314.

(2) ص / 41.

(3) المعارج / 43.

(4) أدب الكاتب / 314.

(5) ينظر : أمثال أبي عبيد /55، وفصل المقال /51، وجمهرة الأمثال 1/509، ومجمع الأمثال / 330.

(6) الأعراف / 169.

(7) أدب الكاتب / 315.

وقد يفسر الكلمة من سياق الكلام، كقوله : و" السَّدادُ " في المنطق والفِعْل بالفتح، وهو الإصابة، و" السِّداد " بكسر السين : كل شيء سددتَ به شيئاً مثل سِداد القارورة، وسِداد الثَّغر أيضاً، ويقال" أصبتُ سِداداً من عَيشٍ " أي : ما تُسَدُّ به الخَلَّةُ، وهذا سِدادٌ من عَوَرٍ[1] .

لقد ذكر ابن قتيبة معاني هذه الألفاظ، ووثّق دلالتها، لأن غرضه كان التنبيه على الخلط الذي يقع فيه الناس في مثل هذه الألفاظ .

وفسر دلالات المصادر المختلفة للفعل الواحد، نحو قوله :

" قالوا : وجَدتُ في الغضب " مَوْجِدَةً "، وَوَجَدْتُ في الحزن " وَجْداً "، ووجدْتُ الشيءَ، " وِجْداناً وَوُجوداً " .

وبرأت من المرض " بُرْءاً "، وبرأ الله الخَلْقَ، يَبْرَؤُهم " بَرْءاً "[2] .

وذكر المصادر التي لا أفعال لها نحو : " رَجلٌ بيِّنُ " الرُّجولةِ " و" الرُّجُوليَّة " و"الفروسية" ؛ وراجِلٌ بيّن الرُّجْلَة"، وفارسٌ على الدَّابة بيِّن الفروسة وفارس بالعَيْن بَيِّنُ "الفِراسَة[3]" .

وعقد باباً خاصاً للأفعال، فسر فيه بعض الأفعال المعتلة الناقصة، ونبّه على اختلاف معانيها لاختلاف لامها، نحو قوله : " عَلَوْتُ في الجبل عُلُوّاً، و" عَلِيتُ " في المكارم عَلاَءً. . . " .

و" حَلِيت " في عيني وفي صدري تَحْلى حَلاءً، و" حَلا " في فمي الشرابُ يَحْلو حَلاوَةً " .

---

(1) نفسه / 317 .

(2) نفسه / 333 .

(3) نفسه / 342 .

و " قَلَوتُ اللَّحْمَ والبُسْرَ " و " قَلِيتُ الرجلَ " أبغضته . . . "[1].

ونبّه على اختلاف معاني الأفعال ما جاء منها : مهموزاً وبغير همز، نحو قوله : " أدلى الرجل دَلوَه " إذا ألقاها في الماء ليستقي، وإذا جذبها ليخرجها قيل : دَلا " يَدْلو "[2].

و " تَرِبتْ يداك " افتقرت، و " أتربت يداك " استغْنتْ . . " .

و " أفرَط في الشيء " جاوز القَدْر، و " فَرَّط " قَصَّر . . . "[3].

وعقد باباً لـ "ما يكون مهموزاً بمعنى، وغير مهموز بمعنى آخر"، من ذلك قوله : "ذرَأْتَ" يا ربَّنا الخلق، و " ذروتُه " في الرِّيح، و. " ذريتُه " و " أذرَتْه الدَّابةُ " عن ظهرها : أي ألقته .

و " صَبَأْتَ " يارجل، إذا خرجت من شيء إلى شيء، و " الصابئون " منه، و " صَبَوت إلى فلانة " أصبو من الشوق . . . "[4].

وعقد ابن قتيبة في هذا الكتاب عدّة أبواب عالج فيها طائفة كبيرة من الألفاظ التي يستعملها العوام في غير مواضعها الأصلية، وستكون موضع دراسة مفصلة في فصل مستقل يكشف جهود ابن قتيبة اللغوية في معالجة ظاهرة " لحن العامة " وإسهاماته في دراسة التطور اللغوي . . .

أمّا الكتاب الأخير وهو (كتاب الأبنية) فقد قسمه قسمين :

أ - أبنية الأفعال .

ب - أبنية الأسماء .

---

(1) أدب الكاتب / 344.

(2) نفسه 348.

(3) نفسه 349.

(4) نفسه 365.

ويندرج تحت كل كتاب من كتب الأبنية، باب في صيغة بناء من أبنية الفعل أو الاسم، باتفاق معنى أو باختلافه، هدفه هو ذكر البناء بأي صيغة جاء، دون الاهتمام بالمعاني .

وقد بدأ بـ(باب فَعَلْتُ " و" أفْعَلْتُ " باتفاق المعنى) وقال : " جَدَّ فلانٌ في أمره " و"أجدَّ" يقال : فلان جادٌ مُجدٌ "[1] . و" عمر الله بك دارك " و" أعمرَها "[2].

وأعقبه بـ(باب فَعَلْتُ، باتفاق المعنى، واختلافهما في التعدّي) من ذلك : " زَرَيْتُ عليه " و " أزرَيْتُ به " ، " رَفَقْتُ به " و" أرفَقتُه " ، " أنسأ الله أجله " و" نَسَأ في أجله " ، "ذهَبْتُ بالشيء " و" أذْهَبْتُه "[3] . . .

ثم بـ(باب أفعَلْتُ الشيء : عَرَّضته للفعل) نحو : أقْتَلْتُ الرَّجُلَ " عَرَّضتُه للقتل، و"أبَعْتُ الشيءَ " عَرَّضْتُه للبيع ، وأنشد[4] :

فَرَضيتُ آلاءَ الكُميْتِ، فَمَنْ يُبِعْ فَرَساً فلَيْسَ جَوَادُنا بمُبَاعِ

أي : بمُعَرَّض للبيع "[5].

وذكر من أبنية الأفعال بناء (أفْعَلْتُ الشيءَ : وجدته كذلك) نحو : " أتَيْتُ فُلاناً "فأحْمَدْتُهُ " و " أذْمَمْتُهُ " و" أخْلَفْتهُ " أي : وجدته محموداً ومذموماً ومخلافاً للوعد . . "[6].

ومن صيغة بناء " أفْعَلَ الشيءُ " : حان منه ذلك، نحو : " أركَبَ المُهْرُ " حان أن

---

(1) أدب الكاتب / 433.

(2) نفسه / 434.

(3) نفسه 444.

(4) للأجدع بن مالك الهمداني، ينظر الأصمعيات /69، وشرح الجواليقي /313، والاقتضاب / 405.

(5) أدب الكاتب / 446.

(6) نفسه/ 447.

يُرْكَبَ، و" أحْصَدَ الزَّرْعُ " حان أن يُحْصَدَ " . و" أقْطَفَ الكَرْمُ " حان أن يُقْطَف . . "[1].

وذكر صيغة " أفْعَل الشيءُ " : صار كذلك، وأصابه ذلك، نحو : " أجْرَبَ الرَّجُل " . . صار صاحب جَرَب، و" أقْحَط " و " أيْبَسَ " إذا أصابه القَحْطُ واليُبْس . . . " و" أفْعَلَ الشيءُ " أتى بذلك، واتّخذ ذلك، نحو : " أخَسَّ الرَّجلُ " أتى بخسيسٍ من الفعل، و" أتْلَدَ الرَّجُل " اتَّخذ تِلاداً من المال . . . . "[2].

وخصَّ التضاد من أبنية الأفعال ببابين، الأول " أفْعَلْت " و" أفْعَلْتُ " بمعنيين متضادين، نحو : " أشْكَيْتُ الرجلَ " أحْوَجْتُه إلى الشكاية، و" أشكيْتُه " نزعت عن الأمر الذي شكاني له . . . "[3].

وباب " فَعَلْتُ " و" فَعَلْتُ " بمعنيين متضادين، نحو " بِعْتُ الشَّيء " اشتريته وبعته، و"شَرَيْتُ الشيء " اشتريتُه وبِعْتُه . . . . "[4].

واستوفى ذكر صيغ أبنية الأفعال، واستقصى معانيها [5]، وما يتعدى منها وما لايتعدّى[6]، وما يُهمَزُ أوله منها، ولا يُهْمَز بمعنى واحد[7]، وما يهمز أوسطه من الأفعال، ولا يهمز بمعنى واحد[8].

وقد عقد ابن قتيبة أبواباً عدّة في موضع " الإبدال وهي (باب المبدل [9]) و (باب إبدال

(1) نفسه / 448.

(2) نفسه / 448 - 449.

(3) نفسه / 453.

(4) نفسه / 446.

(5) أدب الكاتب / 460.

(6) نفسه / 470.

(7) نفسه / 474.

(8) نفسه / 475.

(9) نفسه / 485.

الياء من أحد الحرفين المِثْلين إذا اجتمعا [1]، و(باب الإبدال المشدّد [2]، و(باب ما أبدل من القوافي [3] .

وعقد باباً آخر لما تكلّم به العامّة من الكلام الأعجمي [4] ، وهوما عرف عند علماء اللغة بـ(المعرّب والدخيل) .

وعقد أبواباً عدة في موضوع الأدوات ، وهي "باب دخول بعض الصفات على بعض"[5] و" باب دخول بعض الصفات مكان بعض"[6] و" باب زيادة الصفات"[7] و" باب إدخال الصفات وإخراجها"[8].

وفي القسم الثاني من كتاب الأبنية عقد ابن قتيبة عدة أبواب تندرج تحت " أبنية الأسماء " منها ما جاء من ذوات الثلاثة فيه لغتان[9] ، وما جاء على فعلة فيه لغتان[10] ، وما جاء على فعال فيه لغتان [11] . وما جاء على فعالة فيه لغتان[12] ، وما جاء على مفعل فيه

(1) نفسه / 487.

(2) نفسه / 489.

(3) نفسه / 489 - 494.

(4) نفسه / 495.

(5) نفسه / 503.

(6) نفسه / 506.

(7) نفسه / 520.

(8) نفسه / 523.

(9) نفسه 526.

(10) نفسه / 539.

(11) نفسه / 544.

(12) أدب الكاتب / 550.

(13) نفسه / 552.

لغتان[13]، وما جاء على مفعلة فيه لغتان[1]، وما جاء على فعلل فيه لغتان[2]، وما جاء فيه لغتان من حروف مختلفة الأبنية[3]، وما جاء فيه ثلاث لغات من بنات الثلاثة[4]، وما جاء فيه ثلاث لغات من حروف مختلفة الأبنية[5]، وما جاء فيه أربع لغات من بنات الثلاثة[6]، وما جاء فيه أربع لغات من حروف مختلفة الأبنية[7]، وما جاء فيه ست لغات[8].

واستقصى ابن قتيبة معاني أبنية الأسماء، نحو قوله: " كلُّ اسم على فَعَلان فمعناه الحركة والاضطراب، نحو " ضَرَبان " و" نَزَوان " و" غَلَيان " و" طَيَران " و" لَهَبان النار "، و" قَفَزَان " ... "[9].

قال: و" فَعِلٌ " يأتي في الأدواء وما قارب معناها، يقال: رجلٌ " وَجِعٌ " و" دَوٍ "وعَمِيَ قلبه فهو" عَمٍ " جُعِلَ العمى في القلب بمنزلة الأدواء ... "[10].

وقد يدخل " فعيلٌ " على " فَعِلٍ " في بعض هذا الباب، قالوا: سَقِمٌ " و" مَريضٌ " و" حَزين "[11].

وذكر أبنية الصفات بالألوان، والصفات بالعيوب والأدواء[12].

---

(1) نفسه / 558.

(2) نفسه / 560.

(3) نفسه / 564.

(4) نفسه / 570.

(5) نفسه / 573.

(6) نفسه / 572.

(7) نفسه / 573 - 574.

(8) نفسه / 574 - 575.

(9) نفسه / 575.

(10) نفسه / 576.

(11) نفسه / 577.

(12) نفسه / 578.

وعقد باباً ذكر فيه شواذ البناء [1]، وآخر لشواذ التصريف [2]، وباباً لما جاء جمعه وواحده سواء نحو قوله : " الفُلْك " السُّفُن واحدها " فُلْكٌ "، قال الله تعالى : ﴿ في الفُلْكِ المشْحُون ﴾ [3]، وقال في موضع آخر : ﴿ حتى إذا كنتم في الفُلْكِ وجَرَيْنَ بهم ﴾ [4]. و"الطاغُوتُ " واحدٌ وجميعٌ، قال الله جل ثناؤه : ﴿ والَّذين كَفروا أولياؤهم الطّاغوت يُخْرجُونَهُم ﴾ [5]. وقال : ﴿ والذين اجتنبوا الطاغُوتَ أن يَعْبُدوها ﴾ [6].

فقد التمس لما ذهب إليه شاهدين على الصيغة الواحدة، الأول جاءت فيه مفردة والثاني جاءت فيه تدل على الجمع .

وذكر ما جاء على بنية الجمع، وهو وصفٌ للواحد، نحو : " ثوبُ أسْمال " و" أخلاق " و" سراويل أسماط " إذا كانت غير محشوَّة .

قال الكسائي : وإنما قالوا " ثوبٌ أخلاقٌ " أرادوا أن نواحيه أخلاقٌ فلذلك جُمِعَ [7]".

وعقد باباً لأبنية نعوت المؤنث [8]، وآخر لأبنية المصادر [9]، وباباً لمصادر بنات الأربعة فما فوق [10]، وختم الكتاب بباب ما جاء فيه المصدر على غير صَدْر، نحو قوله : " قال

---

(1) نفسه / 585 .

(2) نفسه / 600 .

(3) الشعراء / 119 .

(4) يونس / 22 .

(5) البقرة / 275 .

(6) الزمر /17، وينظر أدب الكاتب 617 .

(7) أدب الكاتب / 621 .

(8) نفسه / 621 .

(9) نفسه / 623 .

(10) نفسه / 627 .

الله عز وجل : ﴿ والله أَنْبَتكُمْ من الأرض نباتاً ﴾ [1] ، فجاء على نَبَتَ، وقال الله عزّ ذكره ﴿ وتَبَتَّل إليهِ تَبْتيلا ﴾ [2] فجاء على بَتَّلَ ... وإنما تجيء هذه المصادر مخالفة للأفعال، لأن الأفعال – وإن اختلفت أبنيتها – واحدة في المعنى ... "[3].

لقد حوى أدب الكاتب من كل شيء، وهو مفنن، والكتاب يشهد على قدرة ابن قتيبة ومكانته في علم اللغة، وسعة اطلاعه ومعرفته بالعربية وظواهرها وأسرارها . ويغلب على اتجاهه التوفيق بين مذاهب الكوفيين والبصريين، فهو يحكّم القياس أحياناً، ويرتضيه، وهو لا يأخذ به مرة أخرى، محاولاً تدعيم المذهب الوسط، وهو مذهب البغداديين .

وقد روى كثيراً عن علماء المدرستين، لكنه اجتهد، واستقلّ برأيه، ولم يتبع رأياً، ويرفض آخر، دون تدبر، بل كان يورد الحجج المتنوعة والقرائن المتعددة ليدعم رأيه، وهذا مظهرٌ من مظاهر شخصيتة العلمية في هذا الكتاب .

ولكن يبدو أن النقد كان موجهاً إلى ابن قتيبة، لأنه أفاد كثيراً من كتاب " إصلاح المنطق " لابن السِّكِّيت ، ونقل كثيراً من النصوص وضمنها كتابه " أدب الكاتب " ، ولم ينسبها إليه، مكتفياً بإشارات عامة لا ينصُّ فيها على تعيين الكتاب ومؤلفه، كأن يقول مثلاً : " يقال " ، أو " يقولون " ، وقد اختصر كثيراً من أبواب " إصلاح المنطق " وخاصة في كتاب الأبنية، وحذف الشواهد، وبعض الروايات منها . ومن ذلك ما ذكره في باب (ما جاء فيه لغتان استعمل الناس أضعفهما) فقد نقل كثيراً من العبارات التي ورد فيها الاختلاف في النطق دون أن ينسبها، وعلى سبيل المثال، قوله : يقولون : "نَقِمْتُ عليه " و " نَقَمْتُ " " فأنا أنَقِمُ أجودُ [4] . ويقولون " قَحِلَ الشيءُ " إذا جَفَّ، و "قَحَلَ "

---

(1) نوح / 17.

(2) المزمّل / 8.

(3) أدب الكاتب / 630.

(4) أدب الكاتب / 421، وإصلاح المنطق / 207.

أجود[1]. ويقولون : " حَذِق الغلام القرآن " وغيره، وحَذَقَ أجود[2]، ويقولون : "ضَلِلْتُ "وضَلَلْتُ أجود[3]، ويقولون : " غَوِيتُ " ، وغَوَيْتُ أغوي أجود..[4]".

ومن أبنية الأسماء، ذكر ابن قتيبة باب (ما جاء من ذوات الثلاثة فيه لغتان : فَعْلٌ وفِعْلٌ) وقال : " حَجْرُ الإنسان وحِجْره [5]" و" رَطْل ورِطْل [6]" و" الزَّنْجُ والزِّنْجُ [7]" و"كَسْرُ البيت وكِسْرُه [8]"، و" الجَرْسُ والجِرْسُ [9]".

وقد اختصر ابن قتيبة الروايات وحذف مصادرها، ولم يعز الأقوال إلى أصحابها، ولعلنا نلتمس له عذراً فيما ارتضاه لكتابه من منهج يعتمد الإيجاز والاختصار في ذكر الأسماء والشواهد تحقيقاً لغرضه التعليمي بعيداً عن الإسهاب والإطالة .

شرح أدب الكاتب ونقده :

نال أدب الكاتب شهرة بعيدة الصيت في عالم اللغة والأدب، وتناوله العلماء والباحثون بالشرح، والنقد ، والتعليق، والاختصار والتهذيب، وإن أشهر تلك الشروح التي وصلتنا كتاب (الاقتضاب في شرح أدب الكتّاب) لابن السيد البطليوسي، وكتاب (شرح أدب الكاتب) لأبي منصور موهوب بن أحمد الجواليقي، وسأحاول تحليل منهج كلٍّ منهما في

---

(1) نفسه / 421، وإصلاح المنطق / 207.

(2) نفسه / 421، وإصلاح المنطق / 207.

(3) نفسه / 421، وإصلاح المنطق / 207.

(4) نفسه / 421، وإصلاح المنطق /189.

(5) نفسه /528، وإصلاح المنطق / 31.

(6) نفسه /528، وإصلاح المنطق / 31.

(7) نفسه /528، وإصلاح المنطق / 31.

(8) نفسه /528، وإصلاح المنطق / 31.

(9) نفسه /528، وإصلاح المنطق / 31.

شرحه ونقده للكتاب .

1- الاقتضاب في شرح أدب الكتاب [1] :

ألّف هـذا الكتـاب أبو محمـد عبد الله بن محمـد بن السـيد البطليوسـي (ت – 521 هـ)، وهو من أبرز من أنجبـتـه الأندلس من العلمـاء والأدباء، ومن خـيـر من ظهـر من النابهين والمفكرين في الحياة العلمية العربية .

شرح البطليوسي كتاب ابن قتيبة (أدب الكاتب) وسمّى شرحه (الاقتضاب في شرح أدب الكتّاب)، ويقع كتـاب الاقتضـاب في ثلاثة أجزاء : الجزء الأول : في شرح خطبة الكتاب وما يتعلق بها من ذكر أصناف الكتّاب وآلاتهم . وجاء شرحه وافياً مستفيضاً، وتناول الخطبة كلمة كلمة، وشرحها دلالياً وأدبياً وإعرابياً وصوتياً، نحو قوله : " قال أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة : (أما بعد حمد الله بجميع محامده) : أمّا : حرف إخبار، يدخل على الجمل المستأنفة، ويتضمن معنى حرف الشرط، والفعل المشروط له، ولذلك احتاج إلى الجواب بالفاء، كما يجاب الشرط ... وقوله (بعد حمد الله) : بعد : ظرف، يُعرب إذا أُضيف إلى ما يتصل به، فإذا انقطع عن الإضافة، بُني على الضم إن اعتُقِدَ فيه التعريف، وأعرب إن اعْتُقِدَ فيه التنكير ... وقوله (بجميع محامده) : ذهب أكثر اللغويين والنحويين إلى أن المحامد جمع (حَمْد) على غير قياس، كما قالوا المَفاقِر، جمع فقر، والمذاكر جمع ذِكر ... وقوله : (والثناء عليه بما هو أهله) : الثناء ممدود ... والغالب على الثناء الممدود أن يستعمل في الخير دون الشر ... وقوله : (والصلاة والسلام على رسوله المصطفى) : الصلاة منه تعالى : الرحمة، ومن الملائكة الدعاء، ومن الناس : الدعاء والعمل جميعاً ... والمصطفى : المختار، وهو مفتعل من الصفوة، وهي خيار كلّ

---

(1) طبع الكتاب طبعة أولى غير محققة في بيروت، ثم نشره مُحَقَّقاً الأستاذ مصطفى السقا والدكتور حامد عبد الحميد بثلاثة أجزاء، ونشرته الهيئة المصرية للكتاب سنة 1981 .

شيء، وأصله مُصْتَفَوٌ أبدلوا التاء طاء لتوافق الصاد في الاستعلاء، وتجاوزت الكلمة ثلاثة أحرف، فانقلبت الواو ياءً كانقلابها في أغزيت وأعطيت : ثم تحركت الياءُ وقبلها فتحة، فانقلبت ألفاً . . "[1]

وقد أتبع البطليوسي شرح الخطبة بذكر أصناف الكتّاب وما يحتاج إليه كل صنف مما يخص مرتبته وما يتصل بذلك مما أغفله ابن قتيبة .

أما الجزء الثاني من الكتاب، فقد تناول فيه البطليوسي ما غلط فيه ابن قتيبة، أو الناقلون عنه، وما مُنع منه، وما هو جائز . وقد فصّل البطليوسي منهجه وعمله في هذا الجزء وقال : (وهذا حين أبدأ بذكر مواضع من أدب الكتّاب، يلزمك التنبيه عليها، وإرشاد قارئه إليها، وليس جميعها غلطاً من ابن قتيبة)، ولكنها تنقسم أربعة أقسام : القسم الأول منها : مواضع غلط فيها، فأنبّه على غلطه .

والقسم الثاني : أشياء اضطرب فيها كلامه، فأجاز في موضع من كتابه، ما منع فيه في آخر .

والقسم الثالث : أشياء جعلها من لحن العامّة، وعوّل في ذلك على ما رواه أبو حاتم عن الأصمعي، وأجازها غير الأصمعي من اللغويين، كابن الأعرابي، وأبي عمرو الشيباني، ويونس، وأبي زيد وغيرهم، وكان ينبغي له أن يقول : إن ما ذكره هو المختار، أو الأفصح، أو يقول : هذا قول فلان، وأما أن يجحد شيئاً وهو جائز، من أجل إنكار بعض اللغويين له، فرأي غير صحيح، ومذهب ليس بسديد .

والقسم الرابع : مواضع وقعت غلطاً في رواية أبي علي البغدادي المنقولة إلينا، فلا أعلم أهي غلط من ابن قتيبة، أم من الناقلين عنه .

وأنا شارع في تبيين جميع ذلك، وترتيبه على أبواب الكتاب بحسب ما أحاط به

---

(1) الاقتضاب 1 / 35 - 28 .

علمي، وانتهى إليه فهمي . . . "[1].

أما الجزء الثالث من الاقتِضاب فهو لشرح أبيات أدب الكاتب التي ذكرها ابن قتيبة في كتابه . والذي يبدو لأول وهلة في نهج البطليوسي أن عمله كان منصرفاً إلى نقد آراء ابن قتيبة وتتبعها، والتنبيه على المواضع التي غلط فيها، ولكن الناظر بإمعان إلى صنيع البطليوسي في (الاقتضاب) يرى أنه التزم الحَيْدة والإنصاف والموضوعية في شرحه ونقده كتاب (أدب الكاتب)، فقد عارضه في بعض آرائه، ونبَّه على التناقض الذي وقع فيه ابن قتيبة في بعض القضايا، وهذا أمر طبيعي أن يصيب العالم ويخطئ، كما أيّده في بعض آرائه التي اطمأنَّ إلى صوابها وترجيحها على غيرها من أقوال العلماء، منصفاً ابن قتيبة لاتباعه الأساليب الصحيحة، والمذاهب اللغوية السليمة . وشرح ما أوجز فيه ابن قتيبة من قضايا لغوية ومسائل نحوية ومعارف متنوعة، وقد أبان شرحه عن غزارة علمه باللغة والنحو والتصريف، وفي دقة القياس، وقدرة التقصّي للمسائل، وفي براعة التعليل، وعمق التحليل، مع كثرة الاستشهاد والتمثيل .

أمّا المواضع التي عارض فيها البطليوسي ابن قتيبة ونبّه على غلطه فيها، فمنها مسائل لغوية، ومنها مسائل نحوية، ومنها مسائل صرفية، ومنها معارف عامة كعلم الكلام، ومنها قضايا تتعلق برواية أبيات الاستشهاد، ومن أمثلة المسائل والموضوعات التي تتبع فيها غلط ابن قتيبة ما ذهب إليه ابن قتيبة في باب (ما يضعه الناس في غير موضعه) إلى أنه من الغلط أن يقال : " فلان يتصّدق : إذا أعطى وفلان يتصدّق : إذا سأل، وهذا غلط . والصواب : فلان يسأل، وإنّما المتصدّق . المعطي . قال الله تعالى : ﴿ وتصدَّق علينا إن الله يجزي المتصدِّقين ﴾[2]. وقد عارضه البطليوسي، وقال إن هذا الذي قاله ابن قتيبة هو رأي الأصمعي وبعض اللغويين الذين ذهبوا مذهبه، واستدلَّ على صحة من قال : فلان

---

(1) الاقتضاب 2/ 5- 7.

(2) يوسف / 88.

يتصدَّق لكلا المعنيين السابقين ما حكاه عن أبي زيد الأنصاري، وقاسم بن أصبغ، أنه قال : تصدَّق : إذا سأل، وما حكاه عن ابن جنّي، وأنشد :

ولو أنّهم رُزِقوا على أقدارهم   ألفَيْتَ أكثر من ترى يتصدَّقُ (1)

وعضد رأيه بما قاله ابن الأنباري في كتاب " الأضداد "، أن المتصدِّق يكون المعطي، ويكون السائل (2)، وحكى نحو ذلك صاحب كتاب " العين " . وأضاف البطليوسي إلى آراء العلماء مجوزاً استعمال الكلمة في المعنيين السابقين وقال : " والاشتقاق أيضاً يوجب أن يكون جائزاً، لأن العرب تستعمل تفعَّلت في بعض الشيء، للذي يؤخذ جزءاً بعد جزء. فيقولون : تحسّيتُ المرق، وتجرَّعْتُ الماء . فيكون معنى تصدَّقت : التمست الصدقة شيئاً بعد شيء (3)" .

وقال ابن قتيبة في هذا الباب : (ومن ذلك المأتم . يذهب الناس إلى أنه المصيبة، ويقولون : كنا في مأتم، وليس كذلك . إنّما المأْتَمُ : النساء يجتمعن في الخير والشر) . وعارضه البطليوسي مستدلاً بما حكاه كراع وابن الأنباري عن الطوسي : أن المأتم يكون من الرجال أيضاً، وأنشد :

وحتى تراهُنَّ لديه قُيَّما   كما ترى حول الأمير المأتما (4)

وفي باب (المُسَمَّوْن بالصِّفات وغيرها) قال ابن قتيبة : " الأخطل من الخطل، وهو استرخاء الأذنين . ومنه قيل لكلاب الصيد خُطْل "، وقد عارضه البطليوسي في هذا

---

(1) البيت في اللسان (صدق) . ويروى فيه (للقيت في موضع ألفيت) وهو مما أنشده ابن الأنباري على أنّ تصدَّق، قد جاء بمعنى سأل .

(2) في اللسان : والمُعطي : متصَدِّق، والسائل متصدق، هما سواء .

(3) الاقتضاب 2/15 - 16، وينظر أدب الكاتب / 25 .

(4) البيت في اللسان (أثِمَ) . والاقتضاب 2/14 - 15، وينظر أدب الكاتب / 24 .

التفسير وقال : " لا أعلم أحداً ذكر أن الأخطل كان طويل الأذنين مسترخيهما، فيقال إنه لُقِّب الأخطل لذلك . والمعروف أنه لُقِّبَ الأخطل لبذاءته وسلاطة لسانه... "[1].

وفي باب (النبات) قال ابن قتيبة : النَّور من النبت : الأبيض، والزَّهر : الأصفر، يكون أبيض ثم يصفر "، وعارضه البطليوسي مستدلاً بما حكاه عن أبي حنيفة : " أنَّ النَّور والزهر سواء "[2].

وقال ابن قتيبة في هذا الباب : الشجر : ما كان على ساق، والنجم : ما لم يكن على ساق، قال الله تعالى : ﴿ والنَّجْمُ والشجرُ يسجدان ﴾[3] . وعارضه البطليوسي مستدلاً بآية أخرى من القرآن الكريم وقال : " قد يسمَّى ما لايقوم على ساق شجراً، قال الله تعالى : ﴿ وأنبتْنا عليه شجرةً من يَقْطين ﴾[4] .

وفي باب (إناث ما شهر منه الذكور) قال ابن قتيبة : " والأنثى من الأسد : لبُؤة بضم الباء والهمز "، وعارضه البطليوسي مستدلاً بما ذكره يعقوب : " أنَّ اللَّبُؤة تهمز ولا تهمز "[5] واستدل بالقياس على لغة من يخفف الهمزات من العرب وقال : " ويقال لها أيضاً : لَبأَة، على وزن ثَمَرَة، وتحذف همزتها، فيقال : لَبَةٌ على وزن شفَة، ومنهم من يقول: لَبَاةٌ على وزن قطاة ونواة "[6].

وفي باب ما يعرف جمعه ويشكل واحده، حكى ابن قتيبة عن الكسائي أنه قال : " من قال أولاك فواحدهم ذاك . ومن قال : أولئك، فواحدهم ذلك " . وعارضه البطليوسي

---

(1) الاقتضاب /2/42، وأدب الكاتب / 79.

(2) الاقتضاب 2/ 50. وأدب الكاتب / 98.

(3) الرحمن / 6.

(4) الصَّافات / 146. وينظر الاقتضاب 2/51، وأدب الكاتب / 98.

(5) عبارة يعقوب في إصلاح المنطق / (165 وتقول اللبؤة، فهذه اللغة الفصيحة، ولبوة، لغة) .

(6) الاقتضاب 2/60، وأدب الكاتب / 104.

مستنداً إلى ثقافته النحوية واللغوية وقال : " أولاك وأولئك : اسمان للجمع، وليسا على حد الجموع الجارية على آحادها، وكل واحد منها يصلح أن يكون واحده : (ذاك) . وأن يكون (ذلك) باللام، وإن كان لمؤنث فواحدها تلك، لأنهما يقعان للمذكر والمؤنث . والذي قاله الكسائي شيء لا يقتضيه قياس، ولا يقوم عليه دليل، فإنه تعلقٌ بالسماعِ عن العرب "[1] .

وفي باب (مايعرف واحده ويشكل جمعه) قال ابن قتيبة : "الدخان : جمعه دواخن كذلك العُثان جمعه عواثن[2] ولا يعرف لهما نظير . والعُثان : الغبار" . وعارضه البطليوسي بما حكاه عن أبي جعفر بن النحاس، وبما ورد في شعر الأخطل، وبما ذكره ابن جني وقال : " هذا الذي قال ابن قتيبة " . قد قاله جماعة من اللغويين والنحويين وكان القياس أن يقال : أدْخنة وأعثنة . كما يقال في جمع غراب : أغربة . وقد جاء الدخان مجموعاً على القياس في قول الأخطل :

صُفْرُ اللِّحى من وقود الأدْخنات إذا ... قلَّ الطَّعام على العافين أو قَتَرُوا[3]

جمع دخاناً على أدخنة، وأدخنة على أدخنات .

وقال أبو جعفر النحاس : الدواخن : جمع داخنة، والدُّخُن : جمع دُخان . وهذا الذي قاله هو القياس، لأن فواعل، إنما هي جمع فاعلة، كضارِبة وضوارب .

وقد حُكي في جمع دُخان : دِخان (بكسر الدال) وهو نادر ذكره ابن جني[4] .

وفي باب (خلق الخيل)، قال ابن قتيبة : " والضرَّة : لحم الضرع، ولها أربعة أطباء " . وعارضه البطليوسي مستدلاً بما حكاه عن أبي حاتم مستنداً إلى معرفته ودرايته بافتنان

---

(1) الاقتضاب 2/ 61 و62، وادب الكاتب / 108 .

(2) في اللسان (عثن) .وهو جمع على غير قياس .

(3) البيت من قصيدته التي مطلعها : (**خفَّ القطين فراحو منك او بكروا**)، وينظر الاقتضاب 2/ 65 .

(4) الاقتضاب 2/65. وادب الكاتب / 105 .

العرب في مجازات الكلام، وأساليب القول واستعمالها التثنية مكان الجمع وقال : " هذا الذي قاله قول أبي عبيدةِ مَعمَر في كتاب الديباجة . ومنه نقل هذه الأبواب، وأنشد أبو عبيدة :

" كأنَّما أطْباؤها المكاحل[(1)]"

وأما أبو حاتم، فردّ ذلك على أبي عبيدة، وقال : ليس للفرس إلا طُبْيان . وكان يُروَى أن أبا عبيدة إنما غلط في ذلك لقول الرّاجز الذي أنشده . وليس في جمع الشاعر للطبي ما يدل على أنها أربعة . لأن العرب قد تخْرج التثنية مخْرج الجمعِ، كقولهم : رجل عظيم المناكب، وإنما له منكبان، وكذلك يخرجون الجمع مخرج التثنية، كقولهم لبَّيْك وسَعْديك، وحنانَيْك ودواليك . ولا يريدون بذلك اثنين فقط[(2)]".

وقال ابن قتيبة في هذا الباب. " يقولون للفرس عتيق وجواد و كريم . ويقال للبِرْذون والبغل والحمار : فاره . قال الأصمعي : كان عدي بن زيد يخطىء في قوله في وصف الفرس : (فارهاً متتابعا [(3)]) . قال ولم يكن له علم بالخيل ... " وعارضه البطليوسي لأن ابن قتيبة عوّل في تفسيره على ما قاله الأصمعي، وانتصر لما قاله عدي بن زيد، مستدلاً بما حكاه عن العرب وبما ورد في شعر أبي ذؤيب وقال : ما أخطأ عدي بن زيد، بل الأصمعي هو المخطىء؛ لأن العرب تجعل كل شيء حسن فارهاً . وليس ذلك مخصوصاً بالبرذون والبغل والحمار، كما زعم، وعلى هذا قالوا : أفرهت الناقة : إذا نَجُبَت، فهي مفرهة . قال أبو ذؤيب :

---

(1) واحد الأطباء طُبي (بضم الطاء)، وبعضهم يقول طِبي (بكسر الطاء) . ينظر إصلاح المنطق / 43.

(2) الاقتضاب 2/ 73. وأدب الكاتب / 127.

(3) البيت في اللسان (فره)

فصاف يفري جله عن سراته ... يبذُّ الجياد فارها متتابعا

ومُــفْــرَهةٍ عَنْس قــدرْت لســاقــهــا   فــخــرّت كــمــا تتَّــابعُ الرّيح بالقَــفَلْ[1]

.... وكان الأصمعي – عفا الله عنه – يتسرع إلى تخطئة الناس، وينكر أشياء كلها صحيح"[2].

ومن أمثلة المسائل النحوية التي تتبع فيها البطليوسي غلط ابن قتيبة، ما ذهب إليه ابن قتيبة من نصب كلمة " السودان " التي ذكرها ابن قتيبة في باب (معرفة ما في خلق الإنسان من عيوب الخلق) وقال : واللطع في الشفاه : بياض يصيبها، وأكثر ما يعتري ذلك (السودانَ) . وعارضه البطليوسي قائلاً : والوجه رفع السودان على خبر المبتدأ الذي هو أكثر ما يعتري . ويكون (ما) بمعنى الذي . ويعتري ذلك صلة لها . ويقدر في الفعل ضمير محذوف، عائد (إلى ما) . كأنه قال : وأكثر الذين يعتريهم ذلك السودان وجعل (ما) لمن يعقل . وكان ينبغي أن يقول : وأكثر من يعتري ذلك"[3].

وفي باب (معرفة في الطّعام والشراب) قال ابن قتيبة : " والنّياطل؛ مكاييل الخمر، واحدها : ناطل " . وعارضه البطليوسي مستدلاً على ماله وجه من القياس في العربية وعلى ما حكاه ابن الانباري وقال : " هذا الذي قاله : قول أبي عمرو الشيباني، ولا يصح في مقاييس العربية أن يكون النياطل جمع ناطل؛ لأن فاعلاً إذا كان اسماً، فإنما بابه أن يجمع على (فواعل)، كقولهم في قادم الرّحل ... قوادم؛ وفي حاجب العين، وحاجب الشمس : حواجب ... وحكى ابن الأنباري عن أبيّة عن الطوسي أنه يقال : نيْطل، فيقال على هذا في جمع ناطِل وناطَل : نواطِل . وفي جمع نَيْطَل :نَياطل . ولا وجه لقول من قال : إن

---

(1) البيت في ديوان الهذليين ص 38. ومفرهة : تامة، وعنس : شديدة . وقدرت لساقها : هيأت وضربت رجلها . والقفل : ما يبس من الشجر . والمعنى : خرّت حين ضربت رجلها، كما تمر الريح باليبيس، فيتبع بعضه بعضاً .

(2) الاقتضاب 2/ 73و 74. وأدب الكاتب / 130 .

(3) نفسه 2/ 78. وأدب الكاتب / 138 .

واحد النياطِل : ناطِل، إلا أن يزعم أنه من الجموع الخارجة عن القياس، وليس ينبغي أن يحمل الشيء على الشذوذ؛ إذا وجد له وجه من القياس صحيح "[1] .

وفي باب (ما يذكر ويؤنث) قال ابن قتيبة : " المُوسَى، قال الكسائي : هي فُعْلى وقال غيره : هو مُفْعَل من أوْسيت رأسه : إذا حلقته، وهو مذكَّر إذا كان مُفْعَلاً، ومؤنث إذا كان فُعْلَى " . ويردُّ البطليوسي على ابن قتيبة وعلى الكسائي مستدلاً بمعرفته بكلام العرب، ودرايته بعلم النحو والصرف، وخبرته بالظواهر اللغوية، كالاشتقاق، وقال " كون مُوسَى على وزن مُفْعَل، لا يمنع من أن تكون مؤنثة، وتكون من الأسماء التي لا عَلَمَ فيها للتأنيث، كالقَوس، والأرض، والشمس، ونحوها . وأحسب من أنكر كونها مؤنثة إذا كانت مُفْعَلا، توهم أنَّها لو كانت مؤنثة للزم أن يكون فيها علامة تأنيث، كما تقول : امرأة مكرمة، ولا يجوز امرأة مُكرم . وهذا لا يجب؛ لأن مُوسَى ليست بصفة جارية على فِعل، فيلزم أن تلحقها الهاء . إنما هي اسم للآلة التي يُلْحَق بها . وهي مشتقة لا من أوسيتُ رأسه: إذا حلقته . وقيل : هي مشتقة من أسَوْت الشيء : إذا أصلحته .

فأما على قول الكسائي، فيلزم أن تكون مؤنثة لاغير ، لأن (فُعلى) في كلام العرب لا تكون ألفها لغير التأنيث . وتنوين العرب لها دليل على أنها لغير التأنيث، وأن ما قاله الكسائي من أن وزنها فُعلى غير صحيح . وكان الكسائي يرى أنها مشتقه من ماس يميس : إذا تَبَخْتَر "[2] .

وأخذ البطلْيوسي على ابن قتيبة خلطه بين المذهبين البصري والكوفي في اتجاهه اللغوي والنحوي، وفي باب (أوصاف المؤنث بغير هاء) . قال ابن قتيبة : " وما كان على (مُفْعِل) فيما لا يوصف به مُذكّر، فهو بغير هاء، نحو امرأة مُرْضِع، ومُقْرِب، ومُلْبِن، ومُشْدِن،

(1) نفسه 2/90، 91 . وأدب الكاتب / 167 .

(2) الاقتضاب /130، 131 . وأدب الكاتب / 288.

ومطْفِل؛ لأنه لا يكون هذا في المذكر، فلما لم يخافوا لَبْساً، حذفوا الهاء . فإذا أرادوا الفعل قالوا : مُرْضعة ... " وردّ عليه البطليوسي وقال : " هذا الذي قاله مذهب كوفي . وأمّا البصريون فيرون أن هذه الصفات كلها جاءت على معنى النسب، لا على الفعل . والمعنى عندهم : ذات إرضاع، وذات إقراب، وذات ألبان، ونحو ذلك . ويدلُّ على صحة قولهم، واستحالة قول الكوفيين، أنّا وجدنا صفات كثيرة يشترك فيها المذكر والمؤنث بغير هاء، كقولهم رجل عاشق، وامرأة عاشق، ورجل حاسر، وامرأة حاسرٌ، وفرس ضامِرٌ، ومُهرةٌ ضامر ، فلو كانت العلة ما قالوه، للزم هذه الصفات التأنيث، قال ذو الرُّمة :

ولو أنّ لقمان الحكيمَ تَعَرَّضَتْ   لعينيه مَيٌّ سافِراً كاد يبرقُ (1)

وقال الأعشى :

عهدي بها في الحَيِّ قد سُرْبِلَتْ   هيفاءَ مثل المُهْرَةَ الضّامِرِ (2)

وقد خلط ابن قتيبة في كتابه المتقدم بين المذهبين جميعاً؛ لأن قوله في صدر الكلام : "وما كان على (مُفْعِل) مما لايوصف به المذكر، فهو بغير هاء : مذهب كوفيٌّ. وقوله في آخر الكلام : " فإذا أرادوا الفعل قالوا : مُرْضعة ، مذهب بصريّ؛ لأن إثباتهم الهاء إذا أرادوا الفعل، دليل على أن حذفهم إياها بناء للصفة على غير الفعل وهذا رجوع إلى قول البصريين (3)" .

وفي باب (دخول بعض الصفات مكان بعض (4)) يقول البطليوسي : هذا الباب أجازه قومٌ من النحويين، أكثرهم الكوفيون، ومنع منه قوم، أكثرهم البصريون وفي القولين جميعاً

---

(1) البيت في اللسان (برق)، وقال : برق بصره برقاً وبروقاً : دهش فلم يبصر، وقيل : تحير فلم يطرف .

(2) البيت من قصيدة له في ديوانه (ص : 139) ، وهي في هجاء علقمة بن علاثة، ومديح عامر بن الطفيل .

(3) الاقتضاب 2/ 132 . وأدب الكاتب / 294.

(4) أدب الكاتب / 520 - 56.

نظر؛ لأن من أجازه دون شرط وتقييد، لزمه أن يجيز سرت إلى زيد، وهو يريد مع زيد، قياساً على قولهم : إن فلاناً لظريف عاقل، إلى حسب ثاقب، أي مع حَسَب . ولزمه أن يجيز زيدٌ في عمرو، أي مع عمرو .... وهذه المسائل لايجيزها من يجيز إبدال الحروف، ومن منع ذلك على الإطلاق، ولزمه أن يتعسف في التأويل لكثير ممّا ورد في هذا الباب؛ لأنّ في هذا الباب أشياء كثيرة، يَبْعُد تأويلها على غير وجه البدل، كقوله :

إذا ما امرؤٌ ولّى عليَّ بودِّه ... وأدبرَ لم يصْدُر بإدباره ودّي [1]

وقوله :

إذا رضيت عليَّ بنو قُشَيْر ... لعَمْرُ الله أعجبني رضاها [2]

ولا يمكن المنكرين لهذا أن يقولوا : إن هذا من ضرورة الشعر، لأن هذا النوع قد كثُر وشاع، ولم يخصَّ الشعر دون الكلام . فإذا لم يصحّ إنكار المنكرين له، وكان المجيزون له لا يجيزونه في كل موضع، ثبت بهذا أنه موقوف على السماع، غير جائز القياس عليه، ووجب أن يُطلب له وجه من التأويل " .

وقد التمس البطليوسي لكثير من المسائل التي أوردها ابن قتيبة في هذا الباب تأويلات عارض فيها ما ذهب إليه ابن قتيبة، وردّ عليه ما ورد في هذا الباب، كما قال البطليوسي إن ابن قتيبة نقله من كتاب يعقوب بن السكيت في المعاني، وفيه أشياء غَلِطَ فيها يعقوب، واتّبعه ابن قتيبة على غلطه، وأشياء يصح أن تُتَأوّل على غير ما قاله، وقال ابن قتيبة في هذا الباب، وأنشد لِطرفة :

وإن يلتق الحيُّ الجميعُ تلاقني ... إلى ذِروَةِ البيت الرفيع المُصَمَّدِ[3]

---

(1) البيت لدوسر بن غسان اليربوعي كما ذكره ابن السيد في القسم الثالث من الاقتضاب .

(2) البيت للقحيف العقيلي يمدح حكيم بن المسيب القشيري . ينظر الخزانة 4/ 247.

(3) البيت من معلقة طرفة (**لخولة أطلال ببرقة ثهمد**) ينظر شرح المعلقات السبع للزوزني .

وقال : معناه : في ذروة البيت . وعارضه البطليوسي وقال : " وهذا لا يلزم؛ لأنه يمكن أن يريد آوياً إلى ذروة، كما قال تعالى ﴿ سآوي إلى جبل يعصمني من الماء ﴾ [1]، فليس فيه على هذا حُجّة . . .

وقال ابن قتيبة في هذا الباب : " رميت على القوس : أي عنها، وأنشد

(أرمي عليهــا وهـــي فَرْعٌ أجمــع [2])

وعارضه البطليوسي والتمس تأويلاً جاز فيه استعمال (على) هاهنا وقال : " إنما جاز استعمال (على) هاهنا؛ لأنه إذا رمى عنها، فقد وضع السهم عليها للرمي "[3] .

وقال ابن قتيبة في هذا البيت : " حدّثني فلان من فلان أي عنه، ولَهيت من فلان : أي عنه ." وعارضه البطليوسي وقال: " إنما جاز استعمال (من) هاهنا مكان (عن)، لأنه إذا حدّثه عنه، فقد أتاه بالحديث من قبله . وكذلك إذا لَهي عنــه، فقد لهي من أجله وبسببه[4]" .

وقال ابن قتيبة في هذا الباب : " رميتُ عن القــوس، بمعنى : بالقوس، وأنشد لامرئ القيس :

(تصدُّ وتُبْـدي عن أسيــلِ وتتَّقـــي [5])

وقال : يريد بأسيل . وحُكـي عن أبي عبيدة في قوله تعالى : ﴿ وما ينطق عن

---

(1) هود / 43.

(2) قوله : وهي فرع أجمع : أي عملت هذه القوس من غصن ولم تعمل من شق عود وذلك أقوى لها . ينظر شرح البطليوسي لهذا البيت في الجزء الثالث من الاقتضاب .

(3) الاقتضاب 2/270، وأدب الكاتب / 507.

(4) نفسه 2/270، 271، وأدب الكاتب /508.

(5) صدر بيت من معلقة امرئ القيس : (**قفا نبك** . . .) وعجزه (**بناظرة من وحش وجرة مطفل**)

الهوى[1] ﴾ أي بالهوى " . وعارضه البطليوسي ورد عليه قائلاً : " قد قال قبل هذا إن قولهم: رميت على القوس، معناه : عن القوس، وأن (على) بمعنى (عن) . ثم ذكر هاهنا أن (عن) بمعنى الباء، فحصل من كلامه أن (على) بدل من (عَنْ) . و(عن) بدل من الباء، فهي إذن بدل من بدل، وهذا غير صحيح، لأنّ (عَنْ) في قولهم : رميت عن القوس، ليست ببدل من شيء لأن معنى عَنْ التجاوز، كقولك خرجت عن البلد . وهذا المعنى موجود في الرَّمي، لأن السهم يتجاوز القوس ويسير عنها، فهي على بابها . وكذلك قولهم: رميت بالقوس، ليست الباء فيه بدلاً من حرف آخر؛ لأنه بمنزلة قولك رميت بالحجر زيداً . والمعنى رميت السهم بالقوس، كما تقول : دفعته عن نفسي بالسيف[2]" .

قال ابن قتيبة في قوله تعالى : ﴿ فرَدُّوا أيديهم في أفواههم ﴾[3]، معناه : إلى أفواههم . وعارضه البطليوسي وردّ عليه تأويله وقال : " هذا التأويل لا يلزَم . و(في) هاهنا : على بابها المتعارف في اللغة، لأن الأيدي هاهنا لا يخلو أن يراد بها الأيدي التي هي الجوارح، والأيدي التي هي النّعم؛ فإن كان المراد بها الجوارح، فالمعنى أنهم عَضُّوا أيديهم من الغيظ على الرُّسل، فيكون قوله تعالى : ﴿ عَضُّوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾[4] ولا يعضون أيديهم إلا بأن يُدخلوها في أفواههم .. وإن كان المراد بالأيدي النّعم، فالمعنى أنهم ردوا كلام الرسل وإنذارهم عليهم، فلم يقبلوه ... فصار هذا بمنزلة قول القائل : رددت كلامه في فيه، إذا لم تقبله منه[5]" .

وفي باب (زيادة الصفات) يقول البطليوسي : " سمَّى ابن قتيبة في هذه الأبواب

---

(1) النجم / 3 .

(2) الاقتضاب 2/272، 273، وأدب الكاتب / 509 .

(3) إبراهيم / 9 .

(4) آل عمران / 119 .

(5) نفسه 2/ 274و275، وأدب الكاتب /509، 510 .

حروف الجر صفات . وهي عبارة كوفية لا بصرية . وإنما سمّوها صفات ، لأنها تنوب مناب الصفات وتحل محلها . فإذا قلت : مررت برجل من أهل الكوفة، أو رأيت رجلاً في الدار، فالمعنى: مررت برجل كائن من أهل الكوفة . ورأيت رجلاً مستقراً في الدار .

وحروف الجر تنقسم من طريق الزيادة وغير الزيادة ثلاثة أقسام : قسم لا خلاف بين النحويين في أنه غير زائد . وقسم لا خلاف بينهم في أنه زائد . . . وقسم ثالث فيه خلاف. وإنما خصصنا الباء بالذكر دون غيرها من حروف الجر، لأن ابن قتيبة، لم يذكر في هذا الباب حرفاً غير الباء . . . . فللنحويين في هذا النوع من الباءات أقوال مختلفة، وهي كثيرة [1] .

وقد أضاف البطليوسي إلى رأي ابن قتيبة في هذا الباب آراء جديدة؛ من ذلك ما ذكره في قوله تعالى :﴿ تَنْبُت بالدُّهْن ﴾[2] فإنه يُقرأ بفتح التاء وضمها . فمن قرأ بالفتح – وعليه أكثر القرّاء – فالباء غير زائدة . ومن قرأ بضم التاء – وهي قراءة أبي عمرو وابن كثير – ففي هذه القراءة ثلاثة أقوال: أحدها : ما ذكره ابن قتيبة : من زيادة الباء، وأحسبه قول أبي عبيدة . ويقوّي هذا القول ما روي عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ : (يُخرج الدُّهن) . والقول الثاني : أن تكون هاهنا هي الباء التي تعاقبت واو الحال في نحو ما حكيناه من قول الشاعر :

(قد قطع الحبل بالمرْوَدِ [3])

أي والمرود فيه . فيكون المعنى : تنبت نباتها والدهن فيه .

والقول الثالث : أن تكون على حدّها في قراءة من فتح التاء؛ لأنه قد حكى نَبَتَ البقلُ.

---

(1) الاقتضاب 2/ 295 - 299.

(2) المؤمنون / 20.

(3) البيت لرجل من بني الحارث، وصدره (**ومُسْتَنّة كاستنان الخَروف**) . ينظر المخصص (176:6) وقوله : مستنة: يريد طعنة فار دمها . والخروف هنا ولد الفرس إذا بلغ ستة أشهر أوْ سبعة .

وأنبت بمعنى واحد [1] .

وفي باب (إدخال الصفات وإخراجها [2]) . يقول البطليوسي : "هذا الباب موقوف على السماع ولا يجوز القياس عليه، وإنما لم يجز أن يُجعل مقياساً كسائر المقاييس، لأن الفعل إنما يحتاج في تعدّيه إلى وساطة الحرف، إذا ضعف عن التعدي إلى معموله بنفسه، فتعديه بلا واسطة، دليل على قوته، وتعدّيه بواسطة، دليل على ضعفه، فمن أجاز تعدّيه بنفسه تارة، وتعدّيه بواسطة تارة، من غير أن يكون بين الحالتين اختلاف، كان كمن أجاز اجتماع الضّدَّين. ولهذا والذي ذكرناه، أنكر هذا الباب قومٌ من النحويين واللغويين ودفعوه . . . . وقال : إن العرب قد تحذف حروف الجرّ من أشياء هي محتاجة إليها، وتزيدها في أشياء هي غنيّة عنها . . . . وأخذ على ابن قتيبة أنه لم يتنبّه إلى ما يحدث بزيادة الحرف من معنى لم يكن في الكلام، ولم يجعل لكلٍّ معنى غير معنى الآخر، وقال : فمن ذلك قولهم : شكرت زيداً وشكرت لزيد، يتوهَّم كثير من أهل هذه الصناعة : أن دخول اللام هاهنا كخروجها، كما توهَّم ابن قتيبة ويعقوب، ومن كتبه نقل ابن قتيبة ما ضمّنه هذا الباب، وليس كذلك لأنك إذا قلت : شكرت زيداً، فالفعل متعدٍ إلى مفعول واحد . وإذا قلت : شكرت لزيد، صار بدخول اللام متعدياً إلى مفعولين، لأن المعنى شكرت لزيد فعله . وإنما يترك ذلك الفعل اختصاراً . ويدلك على ظهور المفعول في قول الشاعر :

شكرت لكم آلاءكم وبلاءَكم وما ضاع معروف يكافئه شُكرُ

ومن هذا النوع قولهم : كلت الطعام، ووزنت الدراهم . فيعدونهما إلى مفعول واحد، ثم يدخلون اللام فيعدونهما إلى مفعولين، فيقولون : كِلت الطعام لزيد، ووزنت الدراهم لعمرو . وإذا قالوا : كِلتُ لزيد، ووزنت لعمرو، فإنما يتركون ذكر المكيل والموزون اختصاراً. وكذلك إذا قالوا : كلت زيداً ووزنت عمراً، حذفوا حرف الجر والمفعول الثاني اختصاراً وثقة

(1) الاقتضاب 2/ 299. وأدب الكاتب/ 520.

(2) ينظر أدب الكاتب/ 523.

بفهم السامع . . . فعلى تلك الأوجه التي ذكرتها ينصرف هذا الباب"[1].

وذكر ابن قتيبة في هذا الباب قول الله تعالى : ﴿إنّما ذلكم الشيطان يُخَوِّفُ أولياءَه﴾[2] . وقال معناه يخوّفكُمْ بأوليائه . وعارضه البطليوسي ملتمساً تأويلاً آخر ينكر تقدير حرف جر محذوف، وقلّب تفسير الآية على عدّة وجوه وقال : "يريد أنه مثل قولهم: خوَّفت زيداً الأمرَ، وخوَّفته بالأمر . فالمخوفون على ما قاله : هم المؤمنون . والأولياء، وهم الكفّار، هم المُخَوَّف منهم . وقد يجوز أن يكون الأولياء هم المخوَّفين . دون المؤمنين . ويكون المعنى أنّ الشيطان إنما يخوّف الكفّار لأنهم يطيعونه . وأمّا المؤمنون فلا سلطان له عليهم . كقوله تعالى في موضع آخر : ﴿إنما سلطانه على الذين يتولّونه﴾[3] . فليس في هذا تقدير حرف جر محذوف[4] .

وأخذ البطليوسي على ابن قتيبة خفض كلمة (مائة) إذا وقعت تمييزاً لكلمة (كذا) في قول ابن قتيبة : "والخبر ينقسم على تسعة آلاف، وكذا وكذا مئةٍ من الوجوه" وعارضه البطليوسي وقال: "إنه خفض مِئة . وحكمها أن تنصب، لأن أسماء الإشارة لا تضاف . . . لأنه كان ضعيفاً في صناعة النحو . وفي كتابه هذا أشياء كثيرة تدلُّ على ذلك[5]".

ومن أمثلة المسائل الصرفية التي تتبَّع فيها البطليوسي غلط ابن قتيبة، واتهمه بالخلط بين مذهب البصريين والكوفيين، ما ذهب إليه ابن قتيبة في (باب أسماء يتفق لفظها وتختلف معانيها) حيث قال : "الصِّبى من الصِّغر : مقصور بالياء . والصَّباء من الشوق : ممدود . وقال بعد هذا بألفاظ يسيرة : والعدى : الأعداء : مقصور، بالياء. ورد عليه البطليوسي

---

(1) الاقتضاب 2/ 306-309. وأدب الكاتب/ 523.

(2) آل عمران/ 175.

(3) النحل/ 100.

(4) الاقتضاب 2/ 309، 310، وادب الكاتب/ 525.

(5) نفسه 1/ 64 و 65 .وأدب الكاتب/ 7.

وقال : "لا فرق بين الصِّبا والعِدا في القياس، لأنهما كليهما من بنات الواو. ويقال : صبا يصبو، وعدا يعدو . فقياسهما أن يكتبا بالألف .

وقد خلط ابن قتيبة في هذا الباب بين مذهب البصريين والكوفيين، ولم يلتزم قياس واحد منهما . فأخذ في الصِّبا بمذهب الكوفيين، وفي العِدا بمذهب البصريين"[1] .

وفي باب (المصادر التي لا أفعال لها)، يقول البطليوسي : "ترجمة هذا الباب مخالفة للكثير مما تضمنه؛ لأنه ذكر فيه مصادر لها أفعال مستعملة، فمنها قوله : "رجلٌ غَمْرٌ : أي غير مجرّب للأمور، بيِّن الغَمارة، من قومٍ أغمار" . وهذا له فعل مستعمل . يقال : غَمُرَ الرجلُ غَمارة، على مثال قَباحة .

ومنها قوله : "وكلبة صارفٌ بيِّنة الصُّروف، وناقة صَرُوف بيّنة الصَّريف" . فهذا له فعل مستعمل أيضاً . . . يقال : صَرَفت الكلبة . وقد حكى هو ذلك في باب السِّفاد من كتابه هذا[2] . وكذلك يقال : صَرَفت الناقة تَصرف : إذا صَوَّتت بأنيابها[3] .

وفي باب (تفعَّلتُ ومواضعها) ذكر ابن قتيبة في هذا الباب : "تدهْقنت : تشبّهتُ بالدَّهاقين" . وردّ عليه البطليوسي منبهاً على غلطه وقال : "ليس تدهقنت من هذا الباب؛ لأن وزنه في قول من جعل نونه أصلية تفعللت، وفي قول من جعلها زائدة تفعْلنت . والقياس أن تكون أصلية لا زائدة[4]" .

وفي باب (فُعْلُل وفُعْلَل)، قال ابن قتيبة في هذا الباب : "قُنْفُذ وقُنْفَذ، وعُنْصُل، وعُنْصَل (للبصل البري) وعُنْصُر وعُنْصَر" . وعارضه البطليوسي ونبه على غلطه وقال :

---

(1) الاقتضاب 2/135 . وأدب الكاتب 300 و 301 .

(2) أدب الكاتب /157 . . .

(3) الاقتضاب 2/154، وأدب الكاتب/342، 343 .

(4) نفسه 2/ 247 . وأدب الكاتب/ 466 .

"قياس النون في هذه الأمثلة أن تكون زائدة، ووزنها فُنْعُل، لا فُعْلُل . ويدل على ذلك جواز الفتح والضم فيها، وليس في الكلام (فُعْلَل) بفتح اللام، إلا ما حكاه الكوفيون من طُحْلَب وجُؤْذَر وقُعْدَد وذُحْلَل[1]" .

وفي باب (شواذ التصريف[2]) عارض البطليوسي ابن قتيبة في كثير من المسائل التي أدخلها في شواذ التصريف، وحجته في ذلك أنَّ ابن قتيبة عوّل في ذلك على ما رواه عن بعض اللغويين، في حين أهمل آراء بعضهم الآخر، وعدّها البطليوسي صحيحة يُعْتَدُّ بها وخالف بها ما ذهب إليه ابن قتيبة، من ذلك ما قاله ابن قتيبة في هذا الباب : "قال الفرّاء : ماء مَعين، مفعول، من العُيون، فنقص كما قال : مَخيط ومَكيل" وردّ عليه البطليوسي معارضاً : "لا وجه لإدخال هذا في شواذ التصريف، لأنه على ما ينبغي أن لا يكون عليه على ما قاله الفرَّاء . ويجوز أن يكون (مَعين) فَعِيلا، فتكون الميم أصلاً لأن الخليل قال : المعين : الماء الكثير، وقال أبو علي البغدادي : المعين : الماء الجاري على وجه الأرض، ومَعَن الوادي : إذا كثر الماء فيه .

وحُكي عن ابن دريد : ماء مَعْن ومعين، وقد مَعُن على مثال ظَرُف . وحكى الخليل في باب الثلاثي الصحيح : المعينُ : الماء الكثير . ثم قال في باب المعتل : الماء المَعين : الظاهر الذي تراه الأعين، وهذا يوجب أن تكون الميم زائدة، كما قال الفرّاء، وقوله الأول يوجب أن تكون أصليّة[3]" .

وقال ابن قتيبة في هذا الباب : "وأما قولهم : أحببته، فهو محبوب، وأجنَّه الله فهو مجنون، وأحمَّه الله فهو محموم، وأزكمه الله فهو مزكوم، ومثله مكْزوز ومقرور، فإنه بُني

(1) نفسه 2/316. وأدب الكاتب/ 560.

(2) ينظر الباب في أدب الكاتب/ 600.

(3) الاقتضاب 2/342، وأدب الكاتب/ 614.

على (فُعِل) لأنهم يقولون في جميع هذا فُعِلَ بغير ألف . يقولون : حُبَّ، وجُنَّ، وزُكِمَ، وحُمَّ، وكُزَّ، وقُرَّ .

قال : لا يقال : قد حَزَنه الأمر، ولكن يقال : أحزنه، ويقولون : يُحزنه، فإذا قالوا : أفعله الله : فكلّه بالألف، ولا يُقال مُفْعَل في شيء من هذا إلا في حرف . قال عنترة :

ولقد نزلتِ فلا تظُني غيره ... مِنّي بمنزلة المُحَبِّ المُكْرَمِ [1]

وعارضه البطليوسي وقال: هذا كله نادر، خارج عن القياس. لأن فُعِل إذا رُدَّ إلى صيغة ما لم يُسَمَّ فاعله لم يجب فيه أكثر من تغيير الحركات، وأمّا أن يكون مع المفعول الذي لم يُسمَّ فاعله ثلاثياً ومع الفاعل رباعياً، فغير معروف، إلا ما شذّ من الألفاظ. وقد جاء بعضها على القياس، فقد حُكي، حزَنه الأمر وأحزنه، وقد قرأت القرّاء بهما جميعاً . ﴿إنّي ليَحْزُنني﴾[2] ، ويُحْزنني، وقد حكي حَبَبْت الرجل وأحببته[3] .

وقد نبه البطليوسي على غلط ابن قتيبة في رواية بعض أبيات الاستشهاد، ونص على صواب الكلمة، من ذلك ما أنشده ابن قتيبة عن أبي عبيدة لهند بنت النعمان بن بشير، في روْح بن زِنباع[4] .

وهل هندُ إلا مُهْرَةٌ عربيةٌ ... سليلةُ أفراسٍ تجلّلها بغْلُ [5]

وقال البطليوسي : "وقد أنكر كثير من الناس رواية من روى (بغل) بالباء؛ لأن البغل لا

---

(1) البيت من معلقته "**هل غادر الشعراء من متردم**" .

(2) يوسف / 13.

(3) الاقتضاب 2 / 341، وأدب الكاتب / 613.

(4) روْح بن زنباع الجزامي : من أهل فلسطين، من رجالات الدولة الأموية، وفي "التاج" (روح) : وكان مجاهداً غازياً .

(5) البيت في سمط اللآلئ ص 179 .والتنبيه على أوهام أبي علي في أماليه ص 36، والكامل للمبرد 1 / 256 .

ينسل، قالوا: والصواب نَغْلُ بالنون، وهو الخسيس من الناس والدواب، وأصله نَغِل بكسر الغين على مثال فَخِذ، فسكن تخفيفاً كما يقال في فخِذ فخْذ"[1].

ومن ذلك ما أنشده ابن قتيبة لصخر السُّلميّ:

ولقد قتلتكم ثُناءً ومَوْحَداً   وتركت مُرَّةَ مثل أمسِ الدَّابر[2]

وقد خطَّأ البطليوسي ابن قتيبة في كلمة (الدّابر)، وذهب إلى أن الصواب: (المُدْبِر) مستدلاً بالبيت الذي تلاه، وقال: "كذا وقع في النسخ والصواب: المُدْبر، لأنّ بعده:

ولقد دَفَعْتُ إلى دُريد طعْنة   نجلاء تزْغل مثل غطّ المَنْخِر[3]

وأنشد ابن قتيبة في باب (شواذ التصريف) عن الكسائي:

وتأوي إلى زُغْبٍ مساكين دُونهم   فَلاً لا تخطَّاه الرماح مَهُوبُ[4]

ونبّه البطليوسي على الخطأ في كلمة (دونهم) وذكر الصواب، وقال: "هذا غلط، والصواب، (وتأوي إلى زُغْب مساكين دونها)، لأنه يصف قطاة[5]".

وأخذ البطليوسي على ابن قتيبة أشياء اضطرب فيها كلامه، فأجاز في موضع من كتابه، ما منع فيه في آخر، ومن أمثلة القضايا التي أنكرها البطليوسي على ابن قتيبة تخليطه واضطرابه، فيما قاله في باب (المسمون بالصفات وغيرها): "عامر بن فهيرة تصغير فهر. والفهر مؤنثه، يقال: هذه "فِهْرٌ". ونبّه البطليوسي على التناقض الذي وقع فيه ابن قتيبة وعقب على ما قاله: "قد ذكر بعد هذا في الكتاب، أن الفهر يذكر ويؤنث وهو

(1) الاقتضاب 2/ 30-28، وأدب الكاتب/ 41.

(2) البيت في اللسان (ثنى) وروايته: (الدابر): كرواية ابن قتيبة.

(3) الاقتضاب 2/ 318.

(4) البيت لحميد بن ثور، ديوانه/54، ورواه في اللسان (هيب).

(5) الاقتضاب 2/ 336. وأدب الكاتب/ 605.

خلاف قوله هاهنا[1]".

وقال ابن قتيبة في باب (إناث ما شُهر منه الذكور) . "والأنثى من العُقبان : لَقوة" . ونبه البطليوسي على الاضطراب الذي وقع فيه ابن قتيبة وقال : "وقد قال ابن قتيبة في أبنية الأسماء من هذا الكتاب، العُقاب، لَقوة ولِقوة، ولم يختص أنثى من الذكر[2]) . ونبّه البطليوسي على التناقص الذي وقع فيه ابن قتيبة في باب (فروق في الأرواث) حين قال : "نَجْو السّبع وجَعْره" . وعقب البطليوسي بقوله "تخصيصه النّجو هاهنا بأنه : للسبع غلط، وتناقض منه؛ لأنه قد قال في آخر باب تأويل كلام من كلام الناس يستعمل، عند تكلمه في الاستنجاء . إن النجو يكون من الإنسان . .[3]".

وفي باب (معرفة في اللباس والثياب) قال ابن قتيبة : (حَسَر عن رأسه، وسفر عن وجهه، وكشف عن رجليه)، وتعقبه البطليوسي ونبّه على ما وقع فيه من تخليط وقال : "كلامه هذا يُوهم من يسمعه، أن الحسْر لا يستعمل إلا في الرأس . وقد قال في (باب المصادر المختلفة عن الصَّدْر الواحد) : حسر عن ذراعيه[4] . وقد قال في الباب الذي بعد هذا الباب "فإن لم يكن عليه درع فهو حاسِر[5]" . وهذا كله تخليط وقلة تثقيف للكلام . وكذلك الكشف لا يخص الرجلين دون غيرهما من الأعضاء . وكل شيء نُزع عنه ما عليه فقد كُشِف . .[6]" .

وفي باب (الحرفين اللذين يتقاربان في اللفظ والمعنى ويختلفان فربما وضع الناس

---

(1) نفسه 2/ 40. وأدب الكاتب 76و 288.

(2) الاقتضاب 2/ 59. وأدب الكاتب/ 104 و 539.

(3) نفسه 2/ 93. وأدب الكاتب/ 64 و 171.

(4) تنظر العبارة في أدب الكاتب/ 342. وتمام العبارة (وحَسَر عن ذراعيه يَحْسِرُ حَسْراً) .

(5) هذه العبارة في باب معرفة في السلاح في أدب الكاتب/ 183و 184.

(6) الاقتضاب 2/ 100و101، وأدب الكاتب/ 342و183و 184.

أحدهما موضع الآخر[1]) . قال ابن قتيبة : "والسَّداد في المنطق والفعل بالفتح، وهو الإصابة. والسِّداد بالكسر : كلُّ شيء سددْت به شيئاً، مثل سِداد القارورة، وسداد الثغر أيضاً . ويقال أصبت سِداداً من عيش . أي ما تسدُّ به الخلّة . وهذا سِدادٌ من عَوز" . وتعقبه البطليوسي ونبّه على ما وقع فيه من تناقض وقال : "قد قال في باب ما جاء فيه لغتان استعمل الناس أضعفهما [2]" : ويقولون سَدادٌ، والأجود سداد . وقال في كتاب أبنية الأسماء : "سِداد [3] من عوز، وسَداد"، فسوّى بين اللغتين . . [4]" .

وفي باب (الحروف التي تتقارب ألفاظها وتختلف معانيها[5]) قال ابن قتيبة : "البَوْص : السبْق والفوت . والبوَص : اللّون والبُوْص بالضم العَجُز" . وعقب البطليوسي على ما قاله ابن قتيبة منبهاً على التناقض الذي وقع فيه وقال : "قد حكى بعد هذا في كتاب الأبنية : أنه يقال للعَجُز [6] بَوْص، وبُوص، بالفتح والضم، فافهم . . [7]" .

وفي باب (المصادر المختلفة عن الصدر الواحد[8]) . قال ابن قتيبة : "غار الماء يَغُور غَوْراً، وغارت عينه تغور غوْراً، وغار على أهله يغار غَيرةً، وغار أهله : بمعنى غارَهم يَغيرهم غياراً. وغار الرجلُ : إذا أتى الغَور وأنجد بالألف . وغارني الرجلُ يَغِيرني ويَغُورني : إذا أعطاك الدِّية، غِيرة . وجمعها : غِيَر" . ونبّه البطليوسي على ما وقع فيه ابن قتيبة من خلل واضطراب وقال : "وقد حكى ابن قتيبة في كتاب الأبنية : الغيْر، والغَارُ في الغَيْرة . . .

---

(1) ينظر هذا الباب / 307 / من أدب الكاتب .

(2) ينظر هذا الباب / 421 / من أدب الكاتب .

(3) تنظر هذه العبارة في باب (ما جاء على فعال فيه لغتان / 423 من أدب الكاتب .

(4) الاقتضاب2 / 139و 140 .

(5) ينظر هذا الباب / 322 / من أدب الكاتب (1) والعبارة في الباب نفسه ص / 326 / .

(6) نص العبارة في أدب الكاتب : "والبُوصُ : (بالفتح والضم) عجيزة المرأة" ص / 529 .

(7) الاقتضاب / 2 / 143 .

(8) ينظر أدب الكاتب / 333 .

وكان ينبغي لابن قتيبة أن يذكر أغار هاهنا مع غار، كما ذكر أحمَى مع حَمِي، وأبلى مع بَلي. فتركه إخلال برُتبة الكِتاب. . ."[1].

وفي باب (الأفعال[2]) قال ابن قتيبة : "قلوْتُ اللَّحم والبُسْر، وقَلَيْتُ الرجلَ : أبغضْتُه" ونبّه البطليوسي على التناقض الذي وقع فيه ابن قتيبة وقال : "قد ذكر في باب فعلت في الياء والواو بمعنى واحد[3] : قلوت الحَبَّ، وقليته[4]، وهو خلاف ما ذكره ها هنا[5]".

وقال ابن قتيبة في هذا الباب : "تهجَّدت : سَهرْت . وهَجَدتُ : نمت[6]"، ونبّه البطليوسي على ما وقع فيه من اضطراب وقال : قد حكى في باب تسمية المتضادين باسم واحد : الهَاجدُ المُصلِّي بالليل، وهو النّائم أيضاً . . .[7]، وقال في باب فعَلْتُ وفعَلْتُ[8] بمعنيين متضادين: "تهجَّدت : صليّت بالليل، ونمت" . وقال بعضهم : تهجَّدت : سهرتُ، وهجدت : نمت . . ."[9].

وقال ابن قتيبة في باب الأفعال : "خفق الطائر : إذا طار . وأخفق : إذا ضرب بجناحيه ليطير" . ونبّه البطليوسي على ما وقع فيه ابن قتيبة من تناقض وقال : "قد قال

---

(1) الاقتضاب 2/146، 147 .

(2) ينظر هذا الباب 344/ من أدب الكاتب، والعبارة في الباب نفسه/ 344.

(3) ينظر هذا الباب/ 472/ من أدب الكاتب .

(4) وكذا قال يعقوب، وعبارته : قلوت البسر وقليت، وكذلك البر، ولا يكون في البغض إلا قليت (إصلاح المنطق 126) وأدب الكاتب/ 472.

(5) الاقتضاب 2/156، وأدب الكاتب/344 و 472.

(6) تنظر هذه العبارة ص/247/من أدب الكاتب .

(7) هذه العبارة في ص/ 210، من أدب الكاتب، وقد ذكرها يعقوب في الأضداد ص 194.

(8) ينظر هذا الباب ص/ 455، من أدب الكاتب .

(9) الاقتضاب 2/157، وأدب الكاتب 455/ 456.

في باب فعلت وأفعلتُ بمعنى واحد : [1] خفق الطائر بجناحيه، وأخفق : إذا طار فجعلهما سواء [2] .

وقال ابن قتيبة في هذا الباب : "أوعيت المتاع [3] : جعلته في الوعَاء، ووعَيت العلم باتفاق معنى [4] : وَعيتُ العلم وأوعيته وأوعيت المتاع . وهو خلاف ما قاله هنا [5]" .

وفي باب (ما يكون مهموزاً بمعنى، وغير مهموز بمعنى آخر [6])، قال ابن قتيبة : "ذَرَأتَ يا ربنا الخلق، وذروْتُه في الريح، وذرَيْتُه، وأذرَتْه الدّابّة عن ظهرها : ألقته" . ونبّه البطليوسي على ما وقع فيه ابن قتيبة من اضطراب وقال : "قد أجاز في باب فعلت وأفعلت باتفاق المعنى : ذروت الحب، وأذريتُه. . [7]" .

وفي باب (الأفعال التي تهمز والعوامُّ تدع همزها [8]) قال ابن قتيبة : "هنأني الطعام ومرأني، فإذا أفردوا قالوا : أمْرأني [9]" . ونبّه البطليوسي على ما منعه ابن قتيبة في هذا الباب وأجازه في باب آخر وقال : "قد حكى في باب فعلت وأفعلت باتفاق المعنى [10] : مرأني الطعام وأمْرأني . ولم يشترط هناك ما اشترطه هاهنا، وهكذا قال أبو إسحاق الزجاج في كتاب فعلت وأفعلت . فالحكم في هذا أن يقال : "إن هذا الفعل إذا انفرد جازت فيه

---

(1) ينظر هذا الباب ص/ 433/ وأدب الكاتب .

(2) الاقتضاب 2/ 159، وأدب الكاتب/ 435.

(3) تنظر العبارة في ص/ 358/ من أدب الكاتب .

(4) ينظر الباب ص/ 433/ من أدب الكاتب .

(5) الاقتضاب 2/ 163، 164، وأدب الكاتب/ 437.

(6) ينظر هذا الباب ص/ 363/ من أدب الكاتب .

(7) الاقتضاب 2/ 168 . وأدب الكاتب/ 364.

(8) ينظر هذا الباب ص/ 366. من أدب الكاتب .

(9) وحكى يعقوب ذلك في غصلاح المنطق ص/ 352. وأدب الكاتب/ 367.

(10) ينظر هذا الباب ص/ 433/ من أدب الكاتب .

اللغتان، وإذا ذكر مع (هنأ) قيل : مَرَأ بغير ألف لا غير على الإتباع[1]" .

وفي باب (ما يهمز من الأسماء والأفعال والعوام تبدل الهمزة فيه أو تسقطها[2]) .

قال ابن قتيبة : "أغامت السماء، وأغْيمت، وتغيَّمت، وغيَّمت. ولم يجز غَامت. "ونبّه البطليوسي على ما وقع فيه ابن قتيبة من تناقض وقال : "قد أجاز في باب فَعَلْت وأفعلت باتفاق المعنى[3] : غامت السماء وأغامت[4] ونسي هاهنا ما قاله هناك . .[5] .

وفي باب (ما يهمز والعوام تهمزه[6]) . قال ابن قتيبة : "زكِنْتُ الأمر أزكَنْه : أي علمته. وأزكنت فلاناً كذا : أي أعلمته . قال : وليس هو في معنى الظن" . ونبّه البطليوسي على ما منعه هنا وأجازه في موضع آخر وقال : "قد أجاز في باب فعلت وأفعلت باتفاق معنى : زكِنت الأمر وأزكنته[7]، وأنكر أزكنته في هذا الباب . . وهذا تخليط وقلّة تثبُّت . فأما قوله : إنه بمعنى العلم لا بمعنى الظن، فهو قول الأصمعي، وحكى أبو يزيد أنه يكون بمعنى الظن الصحيح . .[8]" .

وفي هذا الباب، قال ابن قتيبة : "وقفْتُه على ذنبه" ونبه البطليوسي على إنكار ابن قتيبة قول العامة "أوقفته" هنا، وأجازه في موضع آخر وقال : "قد قال في باب الأفعال : "يقال[9] لكل ما حسبته بيدك مثل الدابة وغيرها : وقفْته بغير ألف، وما حبسته بغير يدك أوقفْته

---

(1) الاقتضاب 2/ 169 .

(2) ينظر هذا الباب ص/369/ من أدب الكاتب .

(3) ينظر الباب ص/433/ من أدب الكاتب .

(4) تنظر العبارة ص/441/ في أدب الكاتب .

(5) الاقتضاب 2/174، وأدب الكاتب/ 370.

(6) بنظر الباب ص/372/ من أدب الكاتب .

(7) تنظر العبارة ص/373/ من أدب الكاتب .

(8) الاقتضاب 2/ 178 .

(9) تنظر العبارة ص/362/ من أدب الكاتب .

بالألف، وبعضهم يقول وَقَفْتُ بغير ألف في كل شيء . فذكر في باب الأفعال أنهما قولان، وأنكر هاهنا قول العامة أوقفته . . "[1].

وفي باب (ما جاء على يفعُل) بضم العين (مما يُغَيَّر[2]) قال ابن قتيبة : "درَّ له الحَلَبُ يدُرُّ" . وعارضه البطليوسي منبهاً على أن الكسر فيه جائز، وأن ابن قتيبة قد أجاز في موضع آخر من كتابه ما منعه هنا وقال : الكسر فيه جائز، وهو أقيس من الضم، لأنه قد قال بعد هذا في الكتاب : إنَّ كل ما كان على فعلت، بفتح العين، من ذوات التضعيف، غير متعد، فالعين من فِعله المستقبل مكسورة، إلاَّ ألفاظاً شَذَّتْ، فجاءت بالضم . . . "[3].

وفي باب (ما جاء على يفْعِل بكسر العين ممّا يُغَيَّر[4]) . قال ابن قتيبة : "أَبَقَ يأبِقُ" . ونبه البطليوسي على ما وقع فيه من تناقض فأجاز الكسر والضم في موضع آخر من كتابه وقال : "قد حكى بعد هذا في باب فعَل يفْعُل أنه يقال : أبقَ يأبِقُ يأبُقُ، ونسي ما قاله هاهنا[5]".

وعقّب البطليوسي على ما ذكره ابن قتيبة في باب (فعَلْتُ وأفْعَلْتُ باتفاق معنى[6]) .

وقال : "هذا الباب أجاز فيه ابن قتيبة أشياء كثيرة، منع منها فيما تقدم من كتابه . . . "[7].

ونبه البطليوسي على ما وقع فيه ابن قتيبة من خطأ في باب (ما يهمز أوسطه من الأفعال

---

(1) الاقتضاب 2/ 179 . وأدب الكاتب/ 374 .

(2) ينظر الباب ص/400/ من أدب الكاتب .

(3) الاقتضاب 2/ 216 . وأدب الكاتب/ 400 .

(4) ينظر الباب ص/400/ من أدب الكاتب .

(5) الاقتضاب 2/ 217 . وأدب الكاتب/ 477 .

(6) ينظر هذا الباب ص/433/ من أدب الكاتب .

(7) الاقتضاب 2/ 242 . وأدب الكاتب/ 433 .

ولا يهمز، بمعنى واحد[1]) ، وقال : " . . . جميع ما أورده في هذا الباب ليس فيه شيء مهموز الأوسط، إلاّ ذأى العود يَذأى . وسائر ما ذكره إما مهموز اللام، نحو رقأت في الدرجة. ورقأ الدم، وناوأت الرجل، ودرأته، ونحو ذلك، وإما مهموز الفاء، نحو تأممتك، والواجب إسقاط الأوسط من الترجمة ليصح الكلام[2]" .

وفي باب (شواذ التصريف[3]) قال ابن قتيبة : "قال الفراء : إنما قالوا : (هو أليَطُ بقلبي منك) بالياء، وأصله الواو، ليفرقوا بينه وبين المعنى الآخر" .

ونبه البطليوسي على ما أجازه ابن قتيبة في موضع آخر وقال : "قد حكى فيما تقدم من الكتاب أنه قال : لاطَ حُبُّه في قلبي يلِيط ويلُوط، فيجب على هذا أن يقال : هو أَلْيَطُ بقلبي وألوط[4]" .

ونبه البطليوسي على مواضع وقعت غلطاً في رواية أبي علي البغدادي [5] المنقولة إلينا وبيّن أنّ أسباب الخطأ قد يكون من الرواة أو النسّاخ، أو ابن قتيبة، أو الناقلين عنه، وتحرّى وجه الصواب بالعودة إلى نسخ أدب الكاتب، وإلى المصادر التي نقل منها ابن قتيبة، ونصّ عليها، ومن أمثلة المواضع التي وقعت غلطاً في رواية أبي علي، ما ذكره ابن قتيبة في باب (معرفة ما يضعه الناس في غير موضعه) . "ومن ذلك الآرِيُّ، يذهب الناس إلى أنه المِعْلَف[6]" .

(1) ينظر هذا الباب ص/ 475/ من أدب الكاتب .

(2) الاقتضاب 2/ 248 .

(3) ينظر هذا الباب ص/ 600/ من أدب الكاتب .

(4) الاقتضاب 2/ 335 .

(5) أبو علي البغدادي : إسماعيل بن القاسم القالي، صاحب كتاب الأمالي والنوادر، قال الزبيدي في طبقاته كان أحفظ أهل زمانه للغة، وأرواهم للشعر الجاهلي . . . ولد سنة 280هـ وتوفي سنة 356 .

(6) تمام الكلام من أدب الكاتب : وذلك غلط، إنما الآري : الآخية التي تشد بها الدابة، وهو من تاريت بالمكان : إذا أقمت به" ينظر أدب الكاتب/ 37 .

ونبّه البطلوسي معقباً على الخطأ الذي سببه الرواة وقال: "هكذا رواه أبو علي (بكسر الميم، وفتح اللام) . وجعله بمنزلة الآلات، وقال : هو شيء منسوج من صوف يمدُّونه بين أيدي دوابهم، وجدته مقيَّداً عن علي بن حمزة السُّكري : مَعْلِف (بفتح الميم وكسر اللام)، لأنه مكان للاعتلاف؛ وكل فعل على وزن فعَل يفعِل، بفتح العين من الماضي وكسرها من المستقبل، فإن اسم المكان والزمان منه (مَفْعِل) بكسر العين، كالمضْرِب والمغْرِس. . . "[1].

ومن ذلك ما قاله ابن قتيبة في باب (تأويل كلام من كلام الناس مستعمل) : "وقولهم أسود مثل حَلَك الغراب. قال الأصمعي سواده، وقال غيره أسود مثل حنك الغراب يعني منقاره . . "[2].

ونبّه البطليوسي على الغلط الذي وقع في كتاب أبي علي البغدادي، ونصَّ على الصواب قائلاً: "وقع في كتاب أبي علي البغدادي، أسود من حنك الغراب، وهو غلط، لأن هذا يجري مجرى التعجب، فكما لا يقال : "هو أشد سواداً من حلَك الغراب وحنك الغراب[3]، وهذا صحيح على ما يوجبه القياس . . "[4].

وصححً البطليوسي ما وقع في أكثر نسخ كتاب "أدب الكاتب" تحت عنوان : باب "أصول أسماء الناس المسمون بأسماء النبات" وقال : "وقع في أكثر النسخ المُسمين بالياء، ورأيت كثيراً ممن يقرأ هذا الكتاب، ويُقرأ عليه يبشرون[5] الواو ويردونها ياءً كأنهم يرون

---

(1) الاقتضاب 2/ 26.

(2) روى ذلك ابن السكيت في إصلاح المنطق ص 82، وأدب الكاتب/ 61.

(3) في شرح فصيح ثعلب/" : 88 وأسود حالك وحانك ومثل حلك الغراب وحنكه" فحلكه " سواده، وحنكه : منقاره .

(4) الاقتضاب 2/ 34.

(5) أي يحكونها ويمحونها بسكين ونحوه .

المسُمين صفة للناس وذلك غلط . والصواب المسمون بالواو؛ لأن قوله أصول الناس، ترجمة يدخل تحتها جميع الأبواب التي ذكر فيها أسماء الناس المنقولة عن الأجناس والأنواع والصفات إلى العلمية، إلى آخر باب المُسمين بالصفات وغيرها . ثم نوّع ما أجمله في الترجمة وقسمه فقال: المسمون بأسماء النبات، المسمّون بأسماء الطّير، المسمون بأسماء السِّباع . . إلى آخر ما تقتضيه الترجمة . فقوله : المسمون بأسماء النبات مرتفع على خبر مبتدأ مُضْمَر، كأنه قال : هؤلاء المسمَّون، وكذلك سائرها . . .[1]".

وعقب البطليوسي على ما قاله ابن قتيبة في باب (المسمّون بأسماء الهوام) : "العَلَس : القراد، ومنه (المُسَيِّب بن عَلَس الشاعر) . وصوب غلط الرواة وقال : "هكذا رويناه عن أبي نصر عن أبي علي (بن عَلَس) مصروفاً، وكذا قرأته في غير هذا الكتاب وذكر كراع أن (علس) اسم أمه، فيجب على هذا ألا يصرف . .[2]".

وفي باب (المسمون بالصفات وغيرها) قال ابن قتيبة : "وروى نقلة الأخبار أن (طيِّئاً) أول من طوى المناهل، فسمي بذلك، وأن مراداً تمرّدت، فسميت بذلك، واسمها : يُحابر . ولست أدري كيف هذان الحرفان، ولا أنا من هذا التأويل فيهما على يقين . . " وصحح البطليوسي ما روي عن أبي نصر بصرف كلمة (مراداً) وقال : "كذا رويناه عن أبي نصر " (مراد) مصروفاً، والقياس ألا يصرف، لأنه أراد القبيلة دون الحيّ، والدليل على أنه أراد القبيلة قوله : تمرَّدتْ، وقوله : واسمها : يُحابُر . فأنّث الضمائر . . .[3]".

وقال ابن قتيبة في باب (النبات) : "البَلَس : التين، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : من أحب أن يَرِقَّ قلبه : فليُدْمِن أكل البَلَس" وعقب البطليوسي على رواية

(1) الاقتضاب 2/ 37. وأدب الكاتب/ 67.

(2) الاقتضاب 2/ 38، وأدب الكاتب/ 72/ .

(3) نفسه 2/ 45، وأدب الكاتب/ 82/ .

الحديث وقال : "هذا الحديث يعتقد قوم أنه تصحيف من بعض الرواة، وإنما هو " فلْيُدمِ أكل البُلْسُن، وهو العدس . .[1]" .

وصحح البطليوسي ما وقع من غلط من بعض الناقلين في قول ابن قتيبة في باب (النخلِ) : "والعِفَار والإبار : تلقيح النخل، والجَبَابُ والجَدَادُ والجِدَاد والجِرام والجَرام والقِطَاع والقَطَاع : كله : الصِّرام" .

ويعقب البطليوسي على ما قاله ابن قتيبة مصححاً : "كذا رويناه عن طريق أبي نصر عن أبي عليٍّ، وهكذا رأيته في جمهور النسخ من هذا الكتاب .

وحكى أبو عبيد في الغريب المصنّف، أن الجِبَاب : تلقيح النخل . ذكره الأصمعي والصواب أن يقال : العَفَار والإبار والجباب : تلقيح النخل، أو يقال : وهو الجباب، ولعله قد كان هكذا فوقع فيه الوهم من قبل بعض الناقلين. . .[2]" .

ومثال الخطأ الذي سببه ابن قتيبة نفسه ما قاله في باب (ألوان الخيل[3]) : والبهيم : هو المُصْمَت الذي لا شية به ولا وضح : أيّ لون كان . ومما لا يقال له بهيم ولا شية به : الأبرش[4]، والمدنَّر[5]، والأنمر[6]، والأشيم[7]، والأبقع[8] والأبلق" . وعقب البطليوسي على ما قاله ابن قتيبة وعاد إلى المصادر التي نقل منها ابن قتيبة هذه الأبواب وقال : "كذا وقع في

---

(1) نفسه 2/ 52، وأدب الكاتب/100/ .

(2) نفسه 2/ 53، وأدب الكاتب/102/ .

(3) ينظر الباب ص/134/ من ادب الكاتب .

(4) الأبرش : الأرقط . أدب الكاتب ص/ 134 .

(5) المُدنَّر : الذي تكون به نُكتٌ فوق البَرَش . أدب الكاتب ص 335.

(6) الأنمر : أن تكون به بقعة بيضاء، وبقعة أخرى أيّ لون كان . أدب الكاتب/ 135 .

(7) الأشيم : أن تكون به شامة أو شام في جسده . أدب الكاتب/ 135 .

(8) الأبقع : الذي تكون في جسده بُقَعٌ تخالف سائر لونه . أدب الكاتب/ 135 .

النسخ من هذا الكتاب، وقد طلبته في كل نسخة وقعت منه إليَّ، فوجدته هكذا، ووجدت في كتاب الديباجة لأبي عبيدة، الذي نقل منه ابن قتيبة هذه الأبواب كلها ممّا يخالف هذا.

قال أبو عبيدة : ومما لا يقال له بهيم، وهو ممّا لا شية به الأشهب والصّنابي وهو مستكره، ومما لا يقال له بهيم . وهو مما له شية[1] : الأبرش والأنمر والأبلق والمدنَّر والأبقع . وهذا هو الصحيح وما نقله ابن قتيبة غلط . . .

والفرق بين الشِّية والوضح : أن الشية لُمْعَةٌ تخالف معظم الفرس، وهي بياض في سواد، أو سواد في بياض . . . وأما الوضح فإنه البياض خاصّة[2]".

والبطليوسي في شرحه، له صفاته المميزة، فهو يورد الأمثلة والشواهد اللغوية أو الشعرية، ويورد رأي ابن قتيبة وآراء اللغويين والنحاة، ثم ينقدها جميعاً مصطنعاً في ذلك غزارة علمه، وعمق ثقافته، ثم يثبت لنفسه رأياً مستقلاً، ومن أمثلة المواضع التي خالف فيها رأي ابن قتيبة وآراء اللغويين، ما قاله ابن قتيبة في (فروق في أسماء الجماعات) . . . والرَّكب أصحاب الإبل، وهم العَشْرة، ونحو ذلك ." وعقب البطليوسي قائلاً : "هذا الذي قاله ابن قتيبة، قد قاله غير واحد من اللغويين. . . . والقياس يوجب أن هذا غلط؛ والسماع يعضد ذلك . ولو قالوا: إن هذا هو الأكثر في الاستعمال لكان لقولهم وجه . وأما القطع على أنه لا يقال راكب ولا ركْب إلاّ لأصحاب الإبل خاصة . فغير صحيح. . .[3]".

وفي باب (نوادر من الكلام المشتبه) قال ابن قتيبة : "بات فلان يفعل كذا وكذا : إذا فعله ليلاً . وظلّ يفعل كذا وكذا : إذا فعله نهاراً " .

---

(1) عبارة البطليوسي (وهو مما له شية) هي الصواب، لأن الأبرش والأنمر . . . إلخ كلها من ذوات الشية، فلو كانت من غير شية، لوجب عطفها على المصمت الذي لاشية به . ينظر حاشية المحقق 2/ 75.

(2) الاقتضاب 2/74و 75، وأدب الكاتب/ 134 .

(3) نفسه 2/96و 97. وأدب الكاتب/ 175 .

وخالف البطليوسي رأي ابن قتيبة وآراء اللغويين وصرح برأيه المستقل وقال : "قد قال هذا كثرة من اللغويين، وليس بصحيح عند التأمل، وإنما ينبغي أن يقال : إنَّ ظلّ أكثر ما يستعمل بالنهار، وأما القطع على أنه لا يستعمل إلاّ بالنهار، فدعوى مفتقرة إلى دليل، وقد وجدنا ظلّ مستعملاً في أمور لا تختص نهاراً دون ليل . فمنها قوله تعالى : ﴿فظلتم تفكهون﴾[1]، وقوله : ﴿إن نشأ ننزِّل عليهم من السماء آيةً فظلَّت أعناقهم لها خاضعين﴾[2] فهذا لا يختص وقتاً دون وقت . وكذلك قول مسكين الدارمي :

وفتيان صدق لستُ مُطلعَ بعضهم على سرِّ بعض غير أني جِماعُها

يظلون شتى في البلاد وسِرُّهم إلى صخرة أعيا الرجالَ انصداعُها[3]

فقد أورد البطليوسي الأمثلة والشواهد اللغوية أو الشعرية، وعضد رأيه بآيات من القرآن الكريم، وبالمأثور من كلام العرب، وهو في نقده، ناقد دقيق الفهم، صافي الطبع، لطيف الحس اللغوي، ثاقب النظر، قادر على إدراك خفي المعاني والفروق بين الألفاظ، يتوخى دقة الموازنة وسلامة المقارنة، كما يتجنب الشطط والإسراف، ويبتغي النصف والاعتدال، ونراه يرجح رأي ابن قتيبة على آراء اللغويين حين يدرك أنه الرأي الصواب، ومن ذلك ما قاله ابن قتيبة في باب (تأويل كلام من كلام الناس مستعمل) : "ويقولون أريته لمحاً باصراً : أي نظر بتحديق شديد . ويُخَرَّج (باصر) مُخرج لابن وتامر ورامح، أي ذو لبن وتمر ورمْح وبصر .

وعقب البطليوسي على ما قاله ابن قتيبة منتصراً لرأيه، وقال : "يريد أن هذه الصفات، جاءت على معنى النسب، لا على أفعال، وهو موضع أشكل على قوم فيظنونه غلطاً، حيث وجدوا أفعالاً مستعملة من الرمح والتمر واللبن، وليس الأمر على ما ظنوا . وما قاله ابن قتيبة

(1) الواقعة / 65.

(2) الشعراء / 4.

(3) ورد البيتان له في الحماسة (باب الأدب ط بيروت ص130) ، والاقتضاب 2 / 115 . وينظر أدب الكاتب / 204.

صحيح لا مطعن فيه . . . "[1].

وقال ابن قتيبة في هذا الباب : "إن المسافة مشتقة من السَّوْف، وهو الشَّم، وأنشد قول رؤبة :

إذا الدليـل استـاف أخـلاف الطُـرُقْ

أي شَمَّهـا[2]

ورجّح البطليوسي رأي ابن قتيبة وقال : "كذا قال يعقوب، وأكثر اللغويين، وذكر بعضهم أنها مشتقة من السُّواف بضم السين وفتحها، وهو موت الإبل . . . وقال البطليوسي : هذا الذي ذكره ابن قتيبة هو المشهور، والذي حكاه اللغويون . . . "[3].

وفي باب (ومن صفات الناس) قال ابن قتيبة : "رجل مَأْبون : أي مقرون بخلَّة من السُّوء . من قولك : أبنْتُ الرَّجل آبُنُه وآبِنُه بشرّ " .

وعقّب البطليوسي مرجِّحاً رأي ابن قتيبة . وقال : "هذا الذي قاله هو المشهور من قول اللغويين، وحكى أبو الحسن اللّحياني : أبنت الرجل بخير وشر . قال : فإذا حذفوا ذكر الخير والشر، لم يذكر إلا في الشر وحده . . "[4].

وفي باب (الأسماء المتقاربة في اللفظ والمعنى) قال ابن قتيبة : "الرِّجزُ : العذاب، والرِّجسُ : النَّتَنُ "[5].

وأيد البطليوسي ما قاله ابن قتيبة وانتصر له وقال : "هذا قول الكسائي وكثير من

---

(1) الاقتضاب 2/ 32 وأدب الكاتب/ 53.

(2) عبارة أدب الكاتب : وقولهم : "بيننا وبينهم مسافة" أصله من السوف، وهو الشم . ص/63/ .

(3) الاقتضاب 2/ 35و 36.

(4) الاقتضاب 2/47، وأدب الكاتب/ 84.

(5) عبارة يعقوب في إصلاح المنطق ص / 32. الرجس : (الشيء القذر) .

اللغويين، وقال أبو الحسن الأخفش : الرِّجز هو الرِّجس بعينه . والذي حكى ابن قتيبة هو الوجه. . . "[1].

وفي باب (ما جاء على لفظ ما لم يُسَمَّ فاعله) قال ابن قتيبة : "عُنيت بالشيء، فأنا أُعنى به، ولا يُقال : عَنيتُ" .

وأيد البطليوسي ما قاله ابن قتيبة وقال : "قد حكى ابن الأعرابي : عَنيت بأمره أعنى، وأنا به عان، على مثال : خشيت أخشى، وأنا خاشٍ، والذي قاله ابن قتيبة هو المعروف وهو نادر. . . "[2] .

وانتصر البطليوسي لرأي ابن قتيبة في إدخال أفعال على زنة (فَعُل) مضمومة العين وأفعال مكسورة العين على زنة (فَعِل) في باب (فَعَل) المفتوح العين . وقال : "ولم يكن غرضي في ذكر هذه الأفعال الرد على ابن قتيبة، لإدخاله إيّاها في باب (فَعَل) المفتوح العين، وإنما ذكرتها لأني رأيت كثيراً من المستورين في هذه الصناعة، المنتحلين لها، يصرفونها كلّها إلى الفتح. وقد وقعَتْ إليّ نسخ كثيرة من هذا الكتاب، مقروءة على قوم مشهورين، ووجدت أكثر هذه الألفاظ فيها مَبْشورة مُصْلَحة، ورأيت قوماً يعتقدون أن ابن قتيبة غلط في إدخالها في باب (فَعَل) المفتوح العين وهذا الذي اعترضوا به غير صحيح؛ لأن الأفعال الماضية كلها كيفما تصرفت صيغها، يجوز أن يعبر عنها بفَعَل، وإنما تراعى مقابلة الحركات بالحركات، والسواكن بالسواكن في موضع آخر غير هذا، وشهرة هذا عند العارفين بصناعة التصريف تغنينا عن إطالة القول فيه. . . "[3] .

وفي باب (شواذ التصريف) . قال ابن قتيبة : "قالوا : مِذْروان، والأصل مِذْرَيان، وهما فرعا كلِّ شيء، وإنما جاز بالواو؛ لأنه بُني مُثَنَّى، لم يأت له واحد فيبنى عليه " .

---

(1) الاقتضاب 2/ 109 . وأدب الكاتب/ 201 .

(2) نفسه 2/ 219. وأدب الكاتب/ 401.

(3) نفسه 2/ 244. وأدب الكاتب/ 534و 535.

وأيّد البطليوسي ما ذهب إليه ابن قتيبة، ورجح رأيه، وردّ آراء علماء آخرين وقال : هذا الذي قاله هو المعروف، وحكى أبو عُبيد القاسم، عن أبي عمرو : أنه يقال لواحدها : مِذْرىً، وأحسب أن أبا عمرو قاس ذلك على غير سماع، وأن أبا عبيد، وَهِمَ فيما حكاه عن أبي عمرو، كما وَهِمَ في أشياء كثيرة من كتابه. ."[1].

لقد أبان البطليوسي في شرحه كتاب "أدب الكاتب" عن غزارة علمه باللغة والنحو والتصريف، ودقة القياس، وقدرة التقصّي للمسائل، وبراعة التعليل، وعمق التحليل مع كثرة الاستشهاد والتمثيل، وأسلوبه سهل، واضح العبارة، يجمع الوضوح إلى الجمال، وينأى عن صعوبة التعقيد أو الغموض في التفكير، ويمتاز بالترابط، وتسلسل الأفكار في نظام منطقي حسن، فلا يجنح إلى استطراد يخرجه عن موضوعه الذي تناوله، ثم يعود إليه مستدركاً، والتزم في نقده بالحَيْدة والموضوعية وبالموقف العلمي، فنبّه على مواضع الغلط، وأيّد رأيه بالشواهد والأدلة وإيراد الحجج المقنعة، وانتصر لرأي ابن قتيبة في مواضع أخرى إيماناً منه بأنه اتبع الأساليب الصحيحة والمذاهب اللغوية السليمة، فلم يتعصب لرأي، ولم يصدر في حكمه عن هوى، وإنما كان يتوخى النصف والاعتدال، ويتجنب الشطط والإسراف . مدركاً أن الناقد يجب أن يوعب الآراء جميعها، ويصدر في نقده عن ترسيخ المنهج القويم وتأصيل الدراسة العلمية اللغوية .

2 - شرح أدب الكاتب[2] :

ألف هذا الكتاب الإمام أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر الجواليقي المولود في سنة (465) للهجرة، والمتوفى سنة (540)، وهو من تلاميذ الإمام الشيخ أبي زكريا

(1) الاقتضاب 2/ 335. وأدب الكاتب 602/ .

(2) طبع الكتاب طبعة غير محققة، ونشرته دار الكتاب العربي في بيروت ، وقدم له الأستاذ مصطفى صادق الرافعي .

الخطيب التبريزي أول من درّس الأدب في المدرسة النظامية ببغداد[1]. وقرأ الجواليقي على شيخه سبع عشرة سنة، استوفى فيها علوم ا لأدب من اللغة والشعر والخبرة بالعربية وفنونها، ثم خلف شيخه على تدريس الأدب في المدرسة النظامية بعد علي بن أبي زيد المعروف بالفصيحي[2].

ويعد هذا الشرح بعض دروسه في تلك المدرسة، فقد انتهت إلى الجواليقي إمامةُ اللغة في عصره، فهو مدقق محيط مبالغ في الاستقصاء، لايندّ عنه شيء مما هو بسبيله من الشرح، وهو رجل ثقة صدوق كثير الضبط، معني بالتصريف ووجوهه مما انتهى إليه من أثر الإمام ابن جني، فإن بين الجواليقي وبينه شيخين كما نعرف من إسناده في هذا الشرح[3].

شرح الجواليقي كتاب ابن قتيبة (أدب الكاتب) وشمى شرحه (شرح أدب الكاتب)، ويقع الكتاب في جزء واحد، وهو لم يقسم الكتاب كما فعل البطليوسي، بل جاء شرحه عاماً تناول شرح الخطبة، وتفسير أبياته وتوضيح مشكلاته، وتبيين ما رد عليه . .[4].

ابتدأ الجواليقي[5] شرح خطبة الكتاب، وتناولها كلمة كلمة مبيناً إعرابها ودلالاتها واشتقاق ألفاظها، نحو قوله : "قال أبو محمد (أما بعد حمد الله بجميع محامده والثناء عليه بما هو أهله والصلاة على رسوله المصطفى)، قال الجواليقي : "أما حرف تفصل به الجمل، سمعت قائلاً قال فلان كريم عاقل فقيه، فيقال له على طريق إثبات بعض هذه الصفات ونفي بعضها : أما كريم فكريم، وأما عاقل فعاقل، أي هذه الصفات هي الثابتة،

---

(1) انشأها نظام الملك وزير الملك شاه السلجوقي المتوفى سنة 485.

(2) لقب بذلك لكثرة إعادته كتاب الفصيح في اللغة .

(3) مقدمة الكتاب بقلم المرحوم الرافعي ص/ 10.

(4) مقدمة شرح أدب الكاتب للجواليقي ص/ 15.

(5) الجواليقي نسبه إلى الجَوالق، وهي جمع شاذ لجُوالق، فالمفرد جُوالق بضم ا لجيم والجمع بالفتح، وقد نسب هذا الإمام إلى عمل الجوالق وبيعها .

وفيما بقي شك، وفيها معنى الشرط،، ولا بدَّ لها من الجواب بالفاء لتضمنها معنى الشرط، كقولك " أما زيد فمنطلق، وأما عمرو فذاهب" فزيد وعمرو مرفوعان بالابتداء وموضعهما بعد الفاء ومنطلق وذاهب خبر الابتداء. . . . . وبعد منصوب على الظرف، وهو معرب لإضافته إلى الحمد. . . وقبل وبعد معربتان بالنصب والجر إذا كانتا مضافتين أو نكرتين، فإن قطعتهما عن الإضافة بنيتهما على الضم. . . . وحمد مصدر حمدت أحمد حمداً ومحمدة وهو أعم من الشكر، لأن الحمد الثناء على الرجل بما فيه من حَسَنٍ، والشكر الثناء عليه بمعروف أولاه. . والثناء بتقديم الثاء ممدود تكريم الحمد، ولا يكون في الذم وهو فعال من ثنيت، تقول منه أثنيت على الرجال إثناء حسناً، والثناء الاسم. . . وأما النثا بتقديم النون والقصر فهو الخبر يكون في الخير والشر، فالفعل منه نثا ينثو . .

.... وقال بعض أهل اللغة الثناء يكون في الخير والشر، والنثا لايكون إلا في الذكر الجميل، والقول هو الأول . وقوله "بما هو أهله" أي بالمدح الذي يؤنس بأنه له ويستحقه . . . . والصلاة في اللغة الدعاء، وسمّى ما تعبدنا الله به صلاة؛ لأن المصلي يدعو في صلاته والعرب تسمي الشيء [1] إذا تعلق به أو جاوره أو كان منه بسبب، ومن ذلك الصلاة على الميت إنما هي الدعاء له . . . والصلاة من الله الرحمة، ومن الملائكة دعاء واستغفار، ومن الناس التي فيها الركوع والسجود. . . [2]".

ثم تناول الجواليقي كتاب "أدب الكاتب" وبدأ بشرح ما أوجز فيه ابن قتيبة من قضايا لغوية ومسائل نحوية ومعارف متنوعة، مصطنعاً في ذلك غزارة علمه، وعمق ثقافته، وكشف عن دقة في القياس، وقدرة على تقصي المسائل، وبراعة في التعليل وعمق في التحليل، واتجاه سليم في ا لنقد المنهجي المستند إلى الاستقراء والمقارنة والموازنة والدقة في

---

(1)جاء في هامش التحقيق هذه العبارة "هنا نقص نحو ثلاث كلمات في الأصل" ، وتمام العبارة (باسم غيره) من أدب الكاتب/ 21.

(2) شرح أدب الكاتب للجواليقي ص/ 17.

التحرّي وإطلاق الأحكام .

ومن المسائل اللغوية التي شرحها الجواليقي في كتابه، ما ذكره ابن قتيبة في كتاب (المعرفة) وبدأ بباب (معرفة ما يضعه الناس غير موضعه [1])، وقد نبه على غلط ابن قتيبة في بعض المسائل، من ذلك ما ذهب إليه ابن قتيبة في قول الناس : "زَكِنْتُ الأمر" وقال : يذهبون فيه إلى معنى ظننت وتوهمت، وليس كذلك، وإنما هو بمعنى علمت، يقال : زكنْتُ الأمر أزْكَنُهُ [2]" وقد عارضه الجواليقي في هذا التأويل مستدلاً بما حكاه عن ابن درستويه مخالفاً بما استشهد به أهل اللغة على معنى علمت ببيت قَعْنب وقال : " وأما زكنت الأمر فقال ابن درستويه معناه حزرت وخمّنت، وقال : وأهل اللغة يقولون معناه خمّنت على مثل ما خمّنوا عليه من سوء الظن، والعرب تقول فلان صاحب أزكان وليس يعنون به صاحب علم ولكن صاحب حزر، وأنشد أبو محمد بيت قعْنب بن أم صاحب :

ولن يراجع قلبي ودَّهم أبداً زكنت منهم على مثل الذي زَكِنوا[3]

أي : علمت منهم مثل الذي علموا مني. . . . . [4]

فالجواليقي نبّه على ما أنكره ابن قتيبة، آخذاً عليه تسرُّعه، مؤمناً بأنّه لا ينبغي في الدّرس اللغوي الإذعان لرأي وإغفال آخر، وخاصة إذا كان للرأي المقابل ما يؤيده ويعضده بالحجج والشواهد . ومن ذلك تنبيهه على غلط ابن قتيبة، في قوله : "ومن ذلك اللَّبة"، يذهب الناس إلى أنها النُّقرة التي في النحر، وذلك غلط، إنما اللّبة المَنْحَر . فأما النُّقرة فهي الثغرة وعارضه الجواليقي وقال : "قد وَهِم في هذا لأن اللبة والنقرة والثغرة والمنْحَر شيء

(1) ينظر هذا الباب ص/ 21من أدب الكاتب .

(2) أدب الكاتب/ 23.

(3) البيت في اللسان (زكن)، وشرح الجواليقي/93، والاقتضاب 2/ 13 .

(4) شرح الجواليقي 93، وأدب الكاتب/ 24.

واحد وهي الهَزْمَةُ بين الترقوتين"[(1)] .

ومن ذلك ما قاله ابن قتيبة "الأعجمي والعجمي" و "الأعرابي والعربي" ولا يكاد عوامّ الناس يفرقون بينهما . فالأعجمي الذي لا يُفصح وإن كان نازلاً بالبادية، والعجمي : منسوب إلى العجم وإن كان فصيحاً، والأعرابي : هو البدويُّ والعربيُّ : منسوب إلى العرب وإن لم يكن بدوياً" .

وعارضه الجواليقي مستدلاً بما حكاه عن الفراء وأبي العباس وابن الأنباري وقال : "قال الفرّاء وأبو العباس : الأعجم الذي في لسانه عجمة والأعجمي هو العجمي . قال ابن الأنباري وهو الصحيح عندنا . والأعراب : أهل البادية، والعرب أهل الأمصار، فإذا نسبت رجلاً إلى أنه من أعراب البادية قلت : أعرابيّ، ولا يقال عربي لئلا يشتبه بالنسبة إلى أهل الأمصار، قال الفرّاء : إذا نسبت رجلاً إلى أنه يتكلم بالعربية وهو من العجم قلت رجل عَرَبانيّ ....[(2)]

فالجواليقي لم يسلّم بما قاله ابن قتيبة، بل ناقش الآراء المختلفة، وتتبع الموازنة بين الأقوال التي قد تشير إلى الوجه الصحيح، وهذا دليل على وضوح شخصيته العلمية، وقوة درسه، ودقة نقده .

ومن ذلك ما قاله ابن قتيبة "إشلاء الكلب" وهو عند الناس إغراؤه بالصيد وبغيره مما تريد أن يحمل عليه، وذلك غلط، إنما إشلاء الكلب أن تدعوه إليك، وكذلك الناقة والشاة" .

وتعقبه الجواليقي منكراً التضييق والتكلف والتعنت، ملتمساً تحرير الدرس اللغوي من الجمود، ملتزماً القواعد الصحيحة في الاستقراء والبحث والتمحيص وقال : "وأمّا الإشلاء فقد جاء في معنى الإغراء وهو قليل. . ."[(3)] .

---

(1) نفسه / 108، وأدب الكاتب / 36.

(2) نفسه / 110، وأدب الكاتب / 39.

(3) شرح الجواليقي / 110و 111، وأدب الكاتب / 40.

وقال ابن قتيبة في باب (ما يستعمل من الدعاء في الكلام) : "بالرِّفاء والبنين" يدعى بذلك للمتزوج، والرِّفاء : الالتحام والاتفاق، ومنه أُخذ "رفء الثوب" .

وقال الجواليقي : "إنه مأخوذ من رَفَوت الرجل إذا سكنته، قال الهذلي :

رفوني وقالوا : يا خويلد لا تُرَعْ ... فقلت وأنكرت الوجوه : همُ همُ[1]

ومن المنسوب قول ابن قتيبة : "القطا الكُدْريُّ" نُسبَ إلى معظم القطا، وهي كُدْرٌ، وكذلك "القُمْريُّ" منسوب إلى طيرٍ قُمْرٍ، أي : بيض، و "الدُّبْسيُّ" منسوب إلى طير دُبْس وعارضه الجواليقي منبهاً على غلطه، وقال : "ليس بصحيح عندهم لأن الجمع لا ينسب إليه إذا لم يُسَمَّ به والصحيح أنه منسوب إلى القمرة والدبسة والكدرة[2]" .

وفي باب (المسَمّون بالصفات وغيرها) . قال ابن قتيبة : "وعاتكة : القوس إذا قدمت واحمرّت، وبها سميت المرأة" . وعارضه الجواليقي وقال : "العاتكة التي قد عتك بها الطيب، وقال قوم : العاتكة من النساء الطاهرة، وقد حُكي : عتك عليهم بالسيف إذا حمل عليهم، وعتك في أمره إذا جدّ، فيمكن أن يكون اشتقاق عاتكة من هذا كله. . .[3]" .

وقال ابن قتيبة في باب "إناث ما شُهِر منه الذكور" : والأنثى من العقبان "لَقْوَة" . وعارضه الجواليقي ونبّه على غلطه وقال : "الذي حكى الثقات في اللقوة أنها السريعة الاختطاف الثقفة، ولم يقولوا إنها تختص بالأنثى وهي صفة في الأصل، قال امرؤ القيس :

كأني بفتخاء الجناحين لقوة ... صَيُود من العقبان طأطأت شملالي

وفيها لغتان لِقْوة ولَقْوة، وكذلك الناقة إذا كانت تسرع اللقح، والفتح في هذه أجود،

---

(1) نفسه / 116، وأدب الكاتب / 50، وينظر حاشية المحقق (3) .

(2) نفسه / 121، وأدب الكاتب / 66 .

(3) نفسه / 128، وأدب الكاتب / 81 .

والعقاب يقع على الذكر والأنثى. . . "[1].

وقال ابن قتيبة في باب ما يعرف جمعه، ويشكل واحدة "سواسية" واحدها "سواء" على غير قياس، ونبه الجواليقي على غلطه وقال : "قوله (سواسية) يقال للقوم إذا استووا في الشر سَواسية وليس له واحد من لفظه. . . "[2].

وفي باب (معرفة ما في الخيل، وما يستحب من خَلقها) قال ابن قتيبة : "والسَّفا في البغال والحمير محمود. . . " ونبّه الجواليقي على غلطه وقال : وهذا غلط؛ لأنه توهّم أن السفا في الخيل والبغال والحمير شيء واحد، وأنه خفة الناصية فيها، وليس الأمر كما توهم. السفا في الخيل خفَّة الناصية وهو مذموم، وفي البغال خفة المشي وهو محمود، حكى أبوعبيدة عن الأصمعي، قال : السفواء من البغال السريعة، ومن الخيل الخفيفة الناصية. . . "[3].

وقد نبه الجواليقي على خطأ ابن قتيبة فيما رواه في باب (المسمون بالصفات وغيرها)، حيث قال : "الحَوْفَزانُ : فَوْعَلانُ من "حَفَزه" يقال؛ إنه سمي بذلك لأن بسطام بن قيس حفزه بالرمح حين خاف أن يفوته، فسمِّي بتلك الحَفْزة الحوفزان" ، وقال الجواليقي : "هكذا الرواية عنه وهو سهو، والصحيح أن الذي حفزه قيس بن عاصم بن سنان بن خالد بن منقر في يوم جدود[4]" فقد صحح الجواليقي المعلومة التاريخية وحكى قصة الحادثة . .

وقد يصحح الجواليقي شاهداً ساقة ابن قتيبة منبهاً على الخطأ فيه، من ذلك ما قاله ابن قتيبة في باب (معرفة في الشراب) : "والعلماء بلغة العرب يجعلون الطِّلاء الخمر بعينها، ويحتجون بقول عبيد :

---

(1) نفسه / 138، وأدب الكاتب / 104 .

(2) نفسه / 139، وأدب الكاتب / 108 .

(3) شرح الجواليقي / 143، وأدب الكاتب / 109 .

(4) نفسه / 124، وأدب الكاتب / 74 .

هي الخَــــمْـــر تُكْنَـى الطِّلاءُ ... كــمــا الذّئب يكْنَى أبا جَــعْــدَهْ[1]

وعقب الجواليقي على الشاهد وقال : "هذا البيت ناقص، وهكذا يروى، وهو من الضرب الرابع من المتقارب، وقد سقط من صدره جزءٌ وتمامه : هي الخمر والخمر تكنى الطلاء، أو نحو ذلك. . . .[2]"

وقد يروي أكثر من رواية للشاهد، مستنداً في ذلك إلى معرفته بأشعار العرب، من ذلك ما قاله ابن قتيبة في باب (شواذ الأبنية) : قال لي أبو حاتم : قال لي أبو زيد : وقد جاء "الأرمداء"، وهو الرَّماد العظيم، وأنشد :

لـم يُـبْـق هـذا الـدّهـر مـن آيـائـهِ ... غـيـرَ أثافـيـهِ وأرْمِـدائِـهِ[3]

وعقب الجواليقي على الشاهد وقال : "ويروى أثريائه، وقد روى غيره هذه الأبيات على غير ما رَواها" وهي :

لـم يُـبْـق هـذا الـدهـر مـن آيـاتـهـا ... غـيـر أثافـيـهـا وأرمـداتـهـا

فعلى هذا الإنشاء لا شاهد فيه؛ لأن أرمدات جمع أرمدة وأرمدة جمع رماد فهو جمع الجمع . . . .[4]"

وفي باب (المسمون بالصفات)، قال ابن قتيبة : "حَفْصٌ : زِبّيلٌ من جلود"، ونبه الجواليقي على خطأ ابن قتيبة، وصحح سبب التسمية؛ وقال : لم يُسمَّ الرجل حفصاً بالزَّبيل، وإنما سُمي باسم الأسد لأنه يدعى حفصاً، كما يسمى أسداً، وبه كني

(1) البيت في اللسان (طلا)، قال محقق أدب الكاتب : في شعر عبيد بن الأبرص أشياء كثيرة خارجة عن العروض / 166.

(2) شرح الجواليقي / 171، وأدب الكاتب .

(3) البيت بلا نسبة في شرح الجواليقي / 292، واللسان (أبي، ثرا، رمد) .

(4) شرح الجواليقي / 292، 293، وأدب الكاتب / 587 .

عمـر – رضي الله عنه –"[1] .

وقال ابن قتيبة في الباب نفسه: الأخطل: من الخَطل، وهو استرخاء الأذن، ومنه قيل لكلاب الصيد "خُطْلٌ"، وعارضه الجواليقي ونبه على غلطه وقال : "الأخطل سمي بذلك من قولك : خطل في كلامه يخطل خطلاً، إذا كان مضطرب الكلام . . لا من الخطل الذي هو استرخاء الأذن كما ذكر أبو محمد . . ."[2] .

ولم يرم الجواليقي في كتابه إلى تسفيه آراء ابن قتيبة، والتنبيه على المواضع التي غلط فيها، ولكنه كان حريصاً على اتباع الأساليب اللغوية الصحيحة وتوخي الصواب، وخدمة اللغة العربية، ولذلك نراه يؤيد ابن قتيبة وينتصر لرأيه الصحيح، وينص على أنه الأجود حين يقارنه برأي آخر لا يرتضيه، من ذلك ما قاله ابن قتيبة في باب (ما يضعه الناس غير موضعه) ومن ذلك "المَلَّـةُ" يذهب الناس إلى أنها الخُبْزة، يقولون : "أطْعَمنا مَلَّـةً" وذلك غلط، إنما المَلَّة موضع الخبزة، سمي بذلك لحرارته. . . . والصواب أن يقال : "أطعمنا خبز ملـة" .

وعقب الجواليقي على ما ذهب إليه وقال : "قول ابن قتيبة "ولا يقال أطعمنا مَلَّة" يريد به أجود الوجهين. . ."[3] .

وقديؤيد رأي ابن قتيبة ويضيف إليه رأياً آخر يعضده، من ذلك قول ابن قتيبة في باب (تأويل المستعمل من مزدوج الكلام) : "له الوَيل والأَلِيل" : الأليلُ : الأنين، قال ابن ميَّادة :

وقـولا لهـا : مـا تأمـرينَ بوامِقٍ   له بعـد نومـات العيـون أليلُ؟[4]

(1) شرح الجواليقي/ 128، وأدب الكاتب/ 77.

(2) نفسه/ 128، وأدب الكاتب/ 79.

(3) نفسه/ 109، وأدب الكاتب/ 37و 38.

(4) نفسه/ 113، وأدب الكاتب/ 43. واللسان (ألل) .

وعقب الجواليقي قائلاً : "والأليل : أنين وتوجع، وقرأت بخط الصولي، قال سمعت أبا العباس أحمد بن يحيى رحمه الله، قال الأليل من وجد بلغ القلب؛ والأنين من علّة. . . [1]".

وقد يكتفي الجواليقي بشرح أقوال ابن قتيبة، وإضافة آراء جديدة لرأيه، لأن ابن قتيبة قد نهج في كتابه منهج الإيجاز والاختصار، ولم يلتزم الاستقصاء، وبسط الآراء المختلفة، فغايته تعليمية هدفت إلى تسهيل الطريق على الدارسين لاستخلاص آرائه، والانتفاع بما احتجنه من مواد لغوية ومسائل نحوية واضحة، ومن أمثلة الآراء التي أضافها الجواليقي في شرحه وتناوله للمواد اللغوية التي طرحها ابن قتيبة، ما جاء في تعقيبه على "أشفار العين" في باب (معرفة ما يضعه الناس في غير موضعه) حيث قال : " أصل شفر في اللغة القلّة ومن ذلك قيل لحرف كل شيء شفر لأنه أقله ومنه يقال شفر مال الرجل إذا قلّ، وعيش مشفّر أي ضيق . . . . ومنه قولهم في النفي ما بالدار شَفْر بفتح الشين أي ما بها أحد، وقال اللحياني شفر لغة، وقال البصريون والكوفيون بأسرهم : العرب تقول لحرف كل شيء من القبر والمياه والأنهار والعينين : شَفْر وشفير، فإذا جاوزا هذا قالوا شَفَر، وقولهم ما بالدار شفر أي أحد[2]".

ومن أمثلة ما أضافه، ما ذكره ابن قتيبة في باب "المسمّون بأسماء الطير" وقال : "السعدانة : الحمامة" واستدرك الجواليقي وقال : "والسعدانة كِركِرَةُ البعير واسم شجرة وجمعها السعدان، وهي أيضاً : العقدة في أسفل الميزان[3]".

وفي باب (السوابق من الخيل) قال الجواليقي : "لم يذكر أبو محمد جميع أسماء خيل الحلبة، وأسماء خيل الحلبة عشرة، لأنهم كانوا يرسلونها عشرة عشرة، فالأول منها السابق،

---

(1) نفسه / 113.

(2) شرح الجواليقي / 89، وأدب الكاتب / 21.

(3) نفسه / 122، وأدب الكاتب / 70.

وهو المجلّي؛ لأنه كان يجلّي عن صاحبه . والثاني المصلّي؛ لأنه يضع جحفلته على صلا السابق، والثالث المسلي لأنه يسليه، والرابع التالي، والخامس المرتاح، والسادس العاطف، والسابع المؤمل . والثامن الحظي، والتاسع اللطيم، لأنه يلطم عن الحجرة، والعاشر السُّكَيت لأنه يعلو صاحبه تخضع وسكوت، ويقال السّكّيت أيضاً بتشديد الكاف والفِسْكِلُ الذي يجيء في الحلبة آخر الخيل . . . "[1].

وفي باب (الشجاج) قال الجواليقي : "لم يذكر أبو محمد - رحمه الله - جميع الشجاج وأسمائها، والشجاج إحدى عشرة شجة، أُخبرت عن ابن السكيت قال : قال أبو زيد : الشج في الوجه والرأس ولا يكون إلا فيهما، فأيسر الشجاج وهي الدامعة بالعين غير معجمة التي يظهر دمها من غير أن يسيل. . . "[2].

وفي كتاب (الأبنية) : قال ابن قتيبة في باب (فَعَل يفعَل ويَفْعِل) : "ولم يأت فعَل يفعَلُ بالفتح في الماضي والمستقبل إذا لم يكن فيه أحد حروف الحلق لاماً ولا عيناً إلا في حرف واحد جاء نادراً، وهو "أبى يأبى" وزاد أبو عمرو "ركَن يَركَن" . وعقب الجواليقي مستدركاً على ما قاله ابن قتيبة : "قد جاء غير ذاك وهو قلا يقلا وسلا يسلا وجبا يجبا، ووجهه أنَّ الألف أخت الهمزة، والهمزة حرف حلق فهو كقرأ يقرأ، إذا لينت همزته فقلت قرا يقرا . . . "[3].

والجواليقي مولع بالقياس في اللغة، ويُلحق ما وضعه المتأخرون بما سُمع من العرب ويروي ذلك جميعه متأثراً بالطريقة التي نهجها ابن جني وشيخه أبو علي الفارسي، من ذلك ما أضافه على ما قاله ابن قتيبة في باب (معرفة في الطعام والشراب) : "ويقال : يدي

---

(1) نفسه / 161، وأدب الكاتب / 135 .

(2) نفسه / 165، وأدب الكاتب / 143 .

(3) شرح الجواليقي / 238، وأدب الكاتب / 483.

من اللحم "غَمِرةٌ" و "زَهِمةٌ" ، و"الزَّهم" الشَّحْمُ، ومن الزُّبْد واللبن" وضِرَةٌ . . . ومن السمك "سهِكَةٌ" .

وقد استوفى الجواليقي هذا الباب وقاس ألفاظاً جديدة أضافها وقال : "وقولهم يدي من كذا فَعِلة المسموع منهم وفي ذلك ألفاظ قليلة، وقد قاس قوم من أهل اللغة على ذلك أشياء، فقال : يدي من الإهالة سنخة، ومن البيض زَهِمَة، ومن التراب تَرِبة، ومن التين والعنب والفواكه كَتِنَة وكَمِدة ولَزِجة . ومن العشب كَتِنَة أيضاً، ومن الجبن نَسِمة، ومن الجص شَهِرة، ومن الحديد والشّبِّ والصُفر والرصاص سَهِكَةٌ وصدِئة أيضاً، ومن الحمأة رَدِغة ورزغة بغْين معجمة. . . "[1].

والتفت الجواليقي في شرحه وتناوله للمواد اللغوية التي ذكرها ابن قتيبة إلى ظاهرة الاشتقاق، فيذكر المصدر الذي اشتقت منه الكلمة ويفسر معناها وأصلها اللغوي، ويستخدم ما اشتق من المصدر في عبارات يفسر المشتقات فيها من السياق، من ذلك ما ذكره ابن قتيبة في باب (معرفة ما يضعه الناس غير موضعه) . "ومن ذلك "حاشية الثوب" يذهب الناس إلى أنها جانبه الذي لا هُدب له، وحواشي الثوب : جوانبه كلها، فأما جانبه الذي لا هدب له فهو طرَّتُه وكُفَّتُه." وقال الجواليقي : معقّباً : "الحاشية مشتقة من الحشا، وهو الناحية؛ لأنها ناحية الثوب، يقال : أنا في حشا فلان أي في ناحيته، وقيل إن حاشيتي الثوب جانباه الطويلان في طرفيهما الهُدْب، واشتقاق الطرَّة من الطرّ وهو القطع، لأنها مقطوعة من جملة الثوب، وكذلك الطرة من الشعر سميت طرة؛ لأنها مقطوعة من جملته، والطَّرَّة بالفتح المرة الواحدة وبالضم الشيء المقطوع بمنزلة الغُرفَة والغَرفة، وقال ابن دريد طُرّة الثوب موضع هدبه[2]" .

(1) نفسه/170، وأدب الكاتب/ 164 .

(2) شرح الجواليقي/111، وأدب الكاتب/ 40 .

ويذكر الأصل الدلالي للكلمة التي يفسرها تفسيراً لغوياً من ذلك قوله (ماذقت عنده عبكة ولا لبكة) أصل العبك خلطك الشيء، والعبكة قطعة من سويق، وقيل العبكة ما يتعلق بالسقاء من الوضر، ويقال هي الشيء الهين، واللبك جمعك الثريد لتأكله . واللبكة اللقمة منه"[1] .

فقد ذكر الجواليقي الأصل الدلالي للكلمة، ثم فسر معناها، مقلّبا العبارة على وجوه متعددة، وقد يذكر المعنى أولاً ثم يذكر اشتقاق الكلمة ومن أين أخذت حروفها، ومن ذلك ما جاء في باب (ما يستعمل من الدعاء في الكلام)، "وقولهم (قمقم الله عصبه)، قال الجواليقي : "معناه قبض عصبه، وجمع بعضه إلى بعض وضمّه، أُخذ من القمقام وهو الجيش يجتمع من ههنا وههنا حتى يكثر وينضم بعضه إلى بعض، والقمقام صغار القردان، لأن خلقه منضم بعضه إلى بعض . . . "[2] .

وقد أقرّ الجواليقي بالمشترك اللفظي، وأن الكلمة الواحدة تقع على معان مختلفة، وأن الذي يحدد معناها السياق والاستخدام اللغوي .

وكان الجواليقي في شرحه يلتمس سبب التسمية، ليسهل على الدارس فهم العبارة والوقوف على أصلها اللغوي من ذلك ما قاله ابن قتيبة في (باب المسمون بأسماء السباع) : (حَيْدرة : الأسد)، وعقب الجواليقي ملتمساً سبب التسمية : "وسمي بذلك لغلظ عنقه وقوة ساعده، ومنه غلام حادرٌ إذا كان ممتلئ البدن شديد البطش والياء زائدة[3]" وقوله (هيصم : الأسد) أخذ من الهصم وهو الكسر، يقال هصمه وهزمه إذا كسره . ." وقوله (نهشل : الذئب) قيل إنه مأخوذ من النهش واللام زائدة . . . "

---

(1) نفسه/115، وأدب الكاتب/47.

(2) نفسه/116، وأدب الكاتب/47.

(3) نفسه/123، وأدب الكاتب/ 71.

وقوله (كلثوم : الفيل) سمّي ذلك لاستدارة وجهه، والكلْثمة استدارة الوجه مع كثرة اللحم[1]".

وقد لا يتناول الجواليقي المادة اللغوية بالشرح، وإنما يكتفي بشرح الشاهد الذي أنشده ابن قتيبة ليعضد رأيه في تفسيره للعبارات اللغوية، من ذلك ما أنشده شاهداً على ظل الليل لذي الرُّمة واسمه غيلان بن عقبة :

قد أعْسِف النّازحَ المَجْهولَ مَعْسِفُهُ ... في ظِلِّ أخضَرَ يدعو هامَهُ البُومُ

وأعقبه الجواليقي بالبيت الذي يليه ليستوفي المعنى، نظراً لتعلق البيت بما بعده، وأنشد :

بالصهب ناصبة الأعناق قد خشعت ... من طول ما وجفت أشرافها الكُومُ[2]

وفسر البيتين بقوله :

أعسف : أسير على غير هداية، والنازح : الخرق البعيد، والمَعْسِفُ والعَسَفُ واحد، وهو أن يأخذ على غير هدى . والمجهول، الذي لا يهتدي لطريقه، وقد بالغ في وصف نفسه بقطع الفلوات وارتكاب الأهوال؛ لأنه لم يكفه أن يجعل الموضع الذي يسير فيه خَرِقاً لا يهتدي فيه؛ حتى أخبر أنه يسري فيه في ليل أسود لا قمر فيه، وذلك أشد لقطعه، ثم جعله لا يسمع به سوى صوت البوم، وذلك أروع له وأبعد من الأنيس والهام جمع هامة، وهي : أنثى البوم، والذكر : الصدأ . والأخضر هنا : الأسود، وظله : سِتْرُه، ويروى في ظل أغضف وهو المتثني .

والصهب جمع أصهب وصهباء وهي الإبل يخالط بياضها حمرة، وهو أن يحمر أعلى

(1) نفسه/123، وادب الكاتب/ 71.

(2) ديوانه/401، وشرح الجواليقي/ 97. والبيت الأول في أدب الكاتب ص/ 27.

الوبر وتبيضّ أجوافه، وجمل صهابي أي أبيض اللون وهو نجار العتق . وخشعت : تطامنت. والوجيف : ضرب من السير السريع . وأشرافها : أسنمتها، الواحد شرف، والكوم جمع أكوم وكوماء، وهي العظيمة السنام . يقول : أعسف هذا المكان المجهول معسفه في ليل متراكب الظلمة بالإبل الصهب الناصبة الأعناق، وقد تطامنت أسنمتها العظام الطوال ولصقت بظهورها من طول سيرها السريع"[1].

فقد تناول الجواليقي شرح المفردات، وفسرها تفسيراً لغوياً، والتفت إلى ردّ الجموع إلى صيغة المفرد، مدركاً العلاقة بين تحديد مفرد الصيغة ومعناها، ثم عقّب بالمعنى العام، وقد استوفى شرح شواهد كثيرة من كتاب "أدب الكاتب" ملتزماً النهج نفسه، وكان يذكر أحياناً قصة الشاهد نحو ما ذكره ابن قتيبة في باب (ذكور ما شهر منه الإناث) وقال : (الثعلبان ذكر الثعالب) وأنشد :

أرَبٌ يبولُ الثّعلبان برأسِه ... لقد ذلّ من بالَتْ عليه الثّعالب[2]

وعقب الجواليقي على الشاهد بقوله : "هذا البيت يضرب مثلاً للذليل المستضعف، وهو فيما أخبرت عن الحسن بن علي عن محمد بن العباس لراشد وهو أحد الوفد الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة من بني سليم، فأسلموا . . . . وكان راشد يسدن صنماً لبني سليم، فرأى يوماً ثعلباناً يبول عليه، فقال : أرَبٌ يبول الثعلبان برأسه، ثم شدّ عليه فكسره، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : "ما اسمك"؟ فقال غوي بن عبد العزّى فقال : أنت راشد بن عبد ربه" فأسلم وحسن إسلامه . . ."[3].

(1) شرح الجواليقي/ 97و 98.

(2) اختلف في قائله ويروى لراشد بن عبد ربه، ينظر حاشية محقق أدب الكاتب ص/ 103(8) .

(3) شرح الجواليقي/ 137.

ويلتفت الجواليقي في أثناء معالجته المواد اللغوية إلى ظاهرة الإعراب، مدركاً علاقة النحو بتفسير مستغلق الألفاظ، ويشرح ما غمض منها : من ذلك ما ذكره ابن قتيبة في باب (تأويل كلام من كلام الناس مستعمل)، وقال : (حلب الدهر أشطره)، وعقب الجواليقي مفسراً قول ابن قتيبة : كأنه استخرج دُرَّة الدهر في حَلَبه لطول تجربته، وهيَ بدل من الدهر بدل الاشتمال، والتقدير حلَب أشطر الدهر"[1] وأعرب كلمة وَحْدَه في قولهم : (فلان نسيج وحدهِ) وقال: "ووحده منصوب في جميع كلام العرب إلا في ثلاثة مواضع نسيجُ وحدهِ وعيْرُ وحدهِ وجُحَيْشُ وحدهِ"[2].

ويعضد توجيهه الإعرابي بأقوال علماء اللغة، ويصرح برأيه بعد أن يسوق آراء مختلفة، ويؤيد رأيه بآية من القرآن الكريم، من ذلك قول ابن قتيبة في الباب نفسه : "قولهم (لاجَرَمَ) قال الفرّاء : هي بمنزلة لا بُدَّ ولا مُحال، ثم كثرت في الكلام حتى صارت كقولك حقاً، وأصله من جرمت أي كسبت . قال الشاعر وهو أبو أسماء بن الضَّريبة :

ولقد طعَنْتُ أبا عُيَيْنةَ طَعْنَةً جَرَمَتْ فَزارَةَ بعدها أن يَغْضَبُوا[3]

وعقب الجواليقي بقوله : "جرمت معناه كسبت، وهو يتعدّى إلى مفعولين، كما أن كسبت كذلك ففزارة المفعول الأول، وأن يغضبو المفعول الثاني . وقال أبو عبيدة، أحقّت الطعنة لفزارة الغضب. . . وحقيقة معنى (لا جَرَمَ) : "أن "لا" نفيٌ لكلام، و"جرم" بمعنى كسب . . ."[4].

وفي باب (أسماء الصنّاع)، قال ابن قتيبة : "والعَصَّابُ" الغزّال، قال رؤبة :

---

(1) شرح الجواليقي /116، وأدب الكاتب / 50.

(2) نفسه /116، وأدب الكاتب /50.

(3) قال محقق كتاب أدب الكاتب : "البيت لأبي أسماء بن الضريبة أو عطية بن عفيف، أو غيرهما" حاشية (13 /) ص 61.

(4) شرح الجواليقي / 120.

طـيَّ القسـامـيِّ بُـرودَ العَصَّـاب[1]

و"القسَّامي" الذي يَطوي الثياب أوّل طيِّها حتى تنكسر على طَيِّه" والتفت الجواليقي إلى معالجة كلمة "طيّ" معالجة نحوية، ووجه إعرابها بقوله : "وطيّ القَسَّامي منصوب على تقدير فطويته طيّاً مثل طيِّ القسامي، فمثل منصوب على أنه صفة طيًّا، ثم حذف طياً، وأقيم مقامه، وحذف مثل، وأقيم طي القسامي مقامه"[2] .

لقد استوفى الجواليقي في شرحه كتاب "أدب الكاتب" معالجة القضايا اللغوية، والمسائل النحوية، وشرح كثيراً من الشواهد، والتفت في أثناء معالجته مواد الكتاب إلى الظواهر اللغوية، وأولى عنايته بظاهرة الاشتقاق والتصريف، والقياس، فقد كان كثير الاستقصاء، يورد كثيراً من الآراء ويقارن ويوازن، ويدلي برأيه الخاص، ويورد الكثير من الحجج والشواهد، لينتهي إلى حكم موضوعي يسهل على الدارسين الوصول إلى الأساليب الصحيحة، والتعابير اللغوية السليمة .

إن اهتمام الدارسين والباحثين وعلماء اللغة بكتاب "أدب الكاتب" دليل على مكانة هذا السفر اللغوي في تراثنا، ولا ننكر أن ابن قتيبة قد أفاد من جهود علماء اللغة الذين تقدّموه، ونقل كثيراً من النصوص من كتبهم، وروى العديد من المواد اللغوية التي أخذها منهم، وقد اجتهد البطليوسي والجواليقي في تتبُّع آراء ابن قتيبة ووثّقوا النصوص التي نقلها من العلماء الآخرين ونسبوها إلى أصحابها، وعزوا الشواهد التي ساقها ابن قتيبة إلى قائليها إذا كانت غفلاً من ذكر أسماء الشعراء .

(1) ديوانه ص/6، واللسان (عصب) .

(2) شرح الجواليقي / 175.

الباب الثالث

مباحث لغويَّة عامَّة

الفصل الأول

جهود ابن قتيبة اللغوية

في معالجة ظاهرة لحن العامة

تمهيد :

إن اللغة العربيـة التي نتحدث بهـا اليـوم، سـادت الجـزيرة العـربيـة قـبل الإسـلام بقـرنين من الزمان تقريباً، مستخدمة في الشعر والخطب والأمثال استخداماً يمكن أن نسميه موحداً بين شعراء القبائل المختلفة وخطبائها، وإن وجدت هناك فروق لغوية يسيرة تشير إلى اختلافات لهجية معينة . وأوضح مثال على هذه الوحدة اللغوية هو الشعر، فقد بقيت لغة الشعر لغة فنيّة يقصدها معظم العرب قصداً [1] .

(أ) الفصاحة :

لقد كان عرب الجاهلية يعربون كلامهم رفعاً ونصباً وجراً وجزماً، وذلك بالسليقة التي فطروا عليها من نشأتهم في بيئة فصيحة اللسان، سليمة البنيان، حتى أصبح الإعراب لديهم من الملكات الراسخة . وقد انطبع حسهم اللغوي عليه، وكل خلاف في النطق بهذه السليقة ينبو لسان العربي عنه، يقول أبو بكر الزبيدي : "ولم تزل العرب في جاهليتها وصدر من إسلامها، تبرع في نطقها بالسجيّة، وتتكلم على السليقة، حتى فتحت المدائن ومصرت الأمصار ودونت الدواوين[2]" .

وإن الفصاحة في عرب الجاهلية ليست على منزلة واحدة، فهناك قبائل هي في المرتبة العليا من الفصاحة، وهناك قبائل هي أقلّ منها فصاحة، وتعليل ذلك يعود إلى مواطن هذه القبائل، فالقبائل التي تسكن أواسط الجزيرة إلى شيء من جنوبيها، أي بلاد العالية، تُعَدُّ فصحى قبائل العرب، وهي قبائل الحجاز وكنانة وهذيل وغطفان وهوازن وسليم وطيء وتميم وأسد وقيس . يقول الفارابي : "الذين عنهم نقلت العربية، وبهم اقتدي، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة

---

(1) تاريخ اللغات السامية / 106 .

(2) لحن العوام / 4.

وبعض الطائيين، ولم يؤخذ من غيرهم عن سائر قبائلهم، وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري قط، ولا عن سكان البراري ممن يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم"[1].

وقد أُخِذَت قواعد اللغة العربية عند وضعها في البصرة من مراجعة لغات هذه القبائل، على اعتبار أنها هي الفصحى، ولغاتها هي الأكثر في الاستعمال، ولم يؤخذ عن غيرها من سائر القبائل التي خالطت الأعاجم، وظهرت الرّخَاوة في ألسنتها منذ العصر الجاهلي، ولم يكن رفض الأخذ عن تلك القبائل لأنها تجري في كلامها الألفاظ الدخيلة فقط، فقد كان العرب ممّن أخذت عنهم اللغة يفعلون ذلك، وإنّما لأن هؤلاء استخدموا تراكيب وتصاريف لغوية دخيلة على الفصحى . يقول ابن جني : "فكان ما يروى عن أغلاط الناس منذ ذاك (أي منذ زمن أبي الأسود) . إلى أن شاع واستمر فساد هذا الشأن مشهوراً ظاهراً، فينبغي أن يستوحش من الأخذ عن كل أحد إلاّ أن تقوى لغته، وتشيع فصاحته، وقال الفرّاء في بعض كلامه، إلا أن تسمع شيئاً من بدوي فصيح فتقوله"[2].

ب - (اللحن) :

إن الاختلاط بين العرب والفرس قبل الإسلام كان سبباً مؤدياً إلى حدوث الانحراف اللغوي، كما كان الفتح الإسلامي من بعد ذلك سبباً ودافعاً إلى انتشاره وتنوع مظاهره . يقول أبو بكر الزبيدي : "فاختلط العربي بالنبطي، والتقى الحجازي بالفارسي، ودخل الدين أخلاط الأمم وسواقط البلدان، فوقع الخلل في ألسنة العوام"[3].

ولما ازداد الفتح، وانتقل إلى أطراف الجزيرة العربية، وهي مواطن ضعف الألسنة العربية،

---

(1) المزهر 1/ 211، 212، نقلاً عن كتاب "الألفاظ والحروف" لأبي نصر الفارابي (339) ، والاقتراح للسيوطي/ 22.

(2) الخصائص : 2/ 8و 9.

(3) المزهر : 1/ 211 و 212.

والخطأ، وبُدِئَ بفتح العراق، ودخل الأعاجم في الإسلام، وسكنوا المدن الإسلامية، ولا سيما بعد تأسيس البصرة والكوفة، أخذ اللحن ينتشر على نطاق واسع نتيجة هذا الاختلاط. يقول ابن فارس (ت 395هـ) : "فأمّا اللحْن بسكون الحاء، فإمالة الكلام عن جهته الصحيحة في العربية. يقال : لحن لحناً، وهذا عندنا من الكلام المولّد؛ لأن اللحن محدث لم يكن في العرب العاربة الذين تكلموا بطباعهم السليمة[1]".

وأول زيغ ظهر في الألسنة تسكين أواخر الكلم هرباً من الإعراب[2]، حتى تسرب اللحن إلى التلاوة في القرآن، واللحن فيه قد يخل بمقاصد الآيات التي يلحن فيها، ويغير من المعنى المقصود من الآية، وذلك أن بعض وجوه التعبير تختلف معانيها باختلاف الإعراب، ولهذا فقد نجد أن مما حفَّز أبا الأسود الدؤلي إلى وضع العربية سماعه قارئاً يقرأ على قارعة الطريق قوله تعالى ﴿ إنَّ اللَّهَ بريءٌ من المشركين ورسولُه ﴾[3] بكسر اللام من (رسوله)، فقال : حاشا لله أن يبرأ من رسوله، ما كنت أحسب أن أمر الناس صار إلى هذا[4]".

وقد أورد الزمخشري لفظ "مال" في تفسيره اللحن وهو : "إمالة الشيء عن جهته بهذا المعنى، قال في الأساس (لحن) : "لحن في كلامه، إذا مال به عن الإعراب إلى الخطأ" .

ومن الشواهد الشعرية على استعمال "اللحن" بمعنى الخطأ، عند بعض العلماء، قول مالك بن أسماء بن خارجة :

منطق صائب وتلحن أحيانا ... وخير الحديث ما كان لحنا

فقد فسر الجاحظ اللحن هنا بالخطأ، قال : "اللحن من الجواري الظراف، ومن الكواعب

---

(1) مقاييس اللغة " (لحن) .

(2) فقة اللغة (وافي) / 132 .

(3) التوبة / 3.

(4) الفهرست / 66، وأخبار النحويين البصريين / 12، ومراتب النحويين / 8.

النواهد، ومن الشواب الملاح، ومن ذوات الخدور الغرائر، أيسر، وربما استملح الرجل ذلك منهن ما لم تكن الجارية صاحبة تكلف. . . وقد قال مالك بن أسماء في استملاح اللحن من بعض نسائه :

وحديثٌ ألَذُّه هو ممّا ينعَت الناعِتُون يوزن وزنا[1]
منطق صائب وتلحَنُ أحيانًا وأحلى الحديث ما كان لحنا

وتابعه في ذلك ابن قتيبة[2]، وابن عبد ربه[3] .

وقد عارض هذا الرأي لفيفٌ من العلماء، كأبي بكر ابن الأنباري، وحمزة بن الحسن الأصبهاني، وأبي عبيد البكري . قال ابن الأنباري في كتابه "الأضداد" : "وقال ابن قتيبة : اللحن في هذا البيت الخطأ، وهذا الشاعر استملح من هذه المرأة ما يقع في كلامها من الخطأ. قال أبو بكر : وقوله عندنا محال، لأن العرب لم تزل تستقبح اللحن من النساء، كما تستقبحه من الرجال، ويستملحون البارع من كلام النساء. . ."[4] .

وقد دافع عن تفسير الجاحظ وابن قتيبة من المحدثين الدكتور إبراهيم أنيس وقال :

"ولكن نقاد الجاحظ وابن قتيبة لم يستسيغوا تفسيرهما، وذهبوا إلى تفاسير أخرى لا تخلو من التكلف والتعسّف، مثل أن يقال : إن الكلمة من أسماء الأضداد. وهي في البيت بمعنى الصواب . وفسّرها بعضهم بمعنى الرمز والإشارة، وفسرها آخرون بمعنى الغناء، ولم يخطر في ذهن هؤلاء النقاد أن هذا الكلام من عبث الشعراء، ومغالاتهم، فالشاعر يعجب بجاريته، ويلذ له كل شيء فيها، حتى حين تلحن، وتنحرف عن الصواب، ولا يصح من

---

(1) البيان والتبيين : 1/ 146.

(2) عيون الأخبار/المقدمة، و 2/ 162.

(3) العقد الفريد 2/ 480.

(4) الأضداد 241 - 246.

أجل هذا أن ينظر إلى البيت نظرة المنطق والعقل[1]".

ولعل هذا حق، فلا بأس من أن تتكلم الحسناء بالكلام الملحون أحياناً، ولا ضير على صاحبها إذا استعذب لحنها أحياناً، حتى لو جعله أعذب الحديث.

وكان من أثر انتشار اللحن والفساد اللغوي في الألسنة نشوء لغة للتخاطب بين عامة الناس لا تتقيد بالفصحى، ومن أهم عناصرها:

- اللحن في الألفاظ: وهو الخطأ في الإعراب، ثم الخطأ في بنية الكلمة من حيث الحذف والزيادة والتقديم والتأخير والقلب، والخطأ في تحريك أواسط الفعل الثلاثي من ضم أو فتح أو كسر، وكذا الخطأ في الأسماء وضبطها ضبطاً صحيحاً[2].

- الاختصار في الجمل: وذلك بنحت لفظة أو لفظتين، كأخذ حروف من هذه وتلك، وتكوين لفظة أو لفظتين لاختصار الجملة.

- دخول ألفاظ أعجمية في الاستعمال مع الألفاظ العربية، فقد استحدث العرب الذين خالطوا الفرس تراكيب وتصاريف لغوية دخيلة على الفصحى ومضارعة للفارسية ومنقولة من أصلها الأعجمي بوضعها الأصلي أو محرفة، وليس القصد أن تكون قد دخلت العربية من الفارسية فحسب بل من اللغات الأعجمية الأخرى.

وبمرور الزمن اتسع نطاق اللغة العامية، وكثر الخطأ في الألسنة، ونهض ولاة الأمر وعلماء العربية الغيارى على لغة العرب ولغة التنزيل يعملون بجد على درء خطر العامية والمحافظة على الفصحى، وكان ما فعلوه عاملاً فعالاً في حفظ القرآن الكريم من الخطأ في تلاوته، وحفظ لغة الكتابة، ولكنه لم يقض على الخطأ الشائع وعلى تيار العامية.

ومن أبرز ما فعله العلماء وضع النحو وضوابط العربية على وجه عام، وأول ما وضعت

---

(1) مستقبل اللغة العربية المشتركة / 16.

(2) عيون الأخبار 2/160، والبيان والتبيين 1/ 161.

نواة ذلك في مدينة البصرة حين كثر فيها هذا الزيغ اللغوي والخطأ في التلاوة، وانتشرت فيها العامية بسبب مستوطنيها الأعاجم واختلاطهم بأبناء العرب، وكان بدء ذلك على يد أبي الأسود الدؤلي حين كثر فيها هذا الزيغ .

وشهد القرن الثالث الذي عاش فيه ابن قتيبة نهضة لغوية ونحوية، تمثَّلت في التنافس بين علماء البصرة وعلماء الكوفة في مسائل اللغة والنحو، ونهضوا يؤلفون الكتب التي تجنّبها شر العاميّة، وتبين أخطارها، وتنبّه على وجوه مخالفة العربية الفصحى في الأصوات، أو في الصيغ، أو في تركيب الجملة وحركات الإعراب، أو في دلالة الألفاظ ويظهر ذلك بوضوح من الأمثلة التي عالجوها في كتبهم .

وغدا التأليف في موضوع لحن العامة مثار اهتمام علماء اللغة، ومن كتب اللحن التي ألفت إلى نهاية القرن الثالث الهجري، كتاب "لحن العوام" المنسوب لعلي بن حمزة الكسائي (ت 189 هـ[1])، وكتاب "لحن العامة" لأبي زكريا الفراء (ت 207 هـ[2])، و "ما يلحن فيه العامة، لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت 210 هـ[3])، و "ما يلحن فيه العامة" : للأصمعي عبد الملك بن قريب (ت 215 هـ[4])، و "ما خالفت فيه العامة لغات العرب" لأبي عبيد القاسم بن سُلاّم (ت224 هـ[5])، و "ما يلحن فيه العامة"، لأبي نصر أحمد بن حاتم الباهلي (ت 231 هـ[6])، و إصلاح المنطق لأبي يوسف يعقوب بن إسحاق بن السكيت (ت 244 هـ[7])، و "ما يلحن فيه العامة" لأبي عثمان بكر بن محمد المازني

(1) تاريخ الأدب العربي "كارل بروكلمان" : 2/ 199 . طبع الكتاب بتحقيق عبد العزيز الميمني بالقاهرة عام 1344 .

(2) كشف الظنون : 2/1577، ووفيات الأعيان 5/ 229.

(3) بغية الوعاة/395، وكشف الظنون 2/ 1577.

(4) شرح المفصل 1/8، وفهرست ابن خير الإشبيلي / 375.

(5) لسان العرب 7/ 263.

(6) بغية الوعاة/130، وذيل كشف الظنون 2/ 421.

(7) طبع الكتاب بتحقيق الأستاذين عبد السلام هارون وأحمد محمد شاكر – دار المعارف 1956م – القاهرة .

(ت 248 هـ[1])، و "لحن العامة" لأبي حاتم سهل بن محمد السجستاني (ت 255 هـ[2])، وكتاب "النحو ومن كان يلحن من النحويين" لأبي زيد عمر بن شبة البصري (ت 262 هـ[3])، و "أدب الكاتب" لابن قتيبة (ت 276 هـ) .

(جـ) - جهود ابن قتيبة في معالجة اللحن :

لقد وقف ابن قتيبة - كما وقف غيره من أعلام اللغة - موقف العالم المخلص لدينه ولغته، وقد بذل جهوداً كبيرة للذود عنهما، وأسهم بقسط وافر في دراسة اللغة واستنباط قوانينها، ووضع الضوابط التي تصونها من الخلل والفساد، وأدرك أن الألفاظ تتعرض في أصواتها وصيغها ودلالاتها إلى الانحراف والتغيير، والتأثر والتأثير . وقد تنبّه الجاحظ لهذا التطور فقال : "اللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها[4]" .

وقد أسهم ابن قتيبة في حركة تنقية اللغة ومعالجة الخطأ الذي تسرب إليها، إيماناً منه بأن اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم، وينبغي أن نجنبها أي انحراف، وأن نجتهد لصونها وتنقيتها ممّا علق بها من شوائب، وقد أثمرت جهوده اللغوية في هذا الميدان حين وضع مؤلفه الشهير "أدب الكاتب" الذي يتألف من أربعة كتب هي " كتاب المعرفة، وكتاب تقويم اليد، وكتاب تقويم اللسان، وكتاب الأبنية .

والكتاب المخصص للَّحْن من هذه الكتب هو "تقويم اللسان" ، ويتخلل الكتب الأخرى بعض لحن العامة . وفي كتاب "المعرفة" جانب من لحن العامة في المعاني عنوانه "باب معرفة ما يضعه الناس في غير موضعه" .

---

(1) بغية الوعاة / 203، وكشف الظنون 2 / 1577 .

(2) فهرسة ابن خير / 248، وإنباه الرواة 2 / 62 . وكشف الظنون 2 / 1577، وبغية الوعاة / 265 .

(3) بغية الوعاة / 361 .

(4) البيان والتبيين 1 / 368 .

وإذا كان علماء التنقية قد أطلقوا كلمة (العامّة) أو (العوام) دون تحديد لمن يراد بها، فإن ابن قتيبة قد حدد في خطبة كتابه أنه لا يقصد بما يكتب رَعَاع الناس، وإنما كلامه مُوَجّه إلى طائفة الكتّاب الذين استطابوا الدّعة، واستوطؤوا مركب العجز، وأعفوا أنفسهم من كدِّ النظر، وقلوبهم من تعب الفكر، حين نالوا الدّرك بغير سبب، وبلغوا البغية بغير آلة. فأصبحوا كجهلة أهل زمانه، وأصبح أبْعَدُ غاية الكاتب في كتابه أن يكون حسن الخط، قويم الحروف، وأعلى منازل الأديب أن يقول من الشعر أبياتاً في مدح قينة أو وصف كأس[1].

وقد وضع ابن قتيبة في (أدب الكاتب) آراءه وملاحظاته على لغة الكتّاب، وحرص على جمع آراء كثير من العلماء في معالجة ظاهرة لحن العامة، واجتهاداتهم بين الإجازة والتخطئة. وطريقة ابن قتيبة في عرض اللحن وصوابه مختلفة، فهو يبدأ بذكر الصواب أحياناً، ثم يذكر الخطأ، من ذلك قوله : "وتقول : لا يُسَاوي هذا الشيء درهماً، ولا يقال : لا يَسْوَى[2]" . ولكنه يبدأ بالخطأ أحياناً أخرى ثم يذكر الصواب، من ذلك قوله : "ويقولون أتاني الأسود والأبيض" والمسموع : أتاني الأسود والأحمر، وإنما يراد أتاني جميع الناس عَرَبُهم وعَجَمُهم[3]" .

ويمكننا أن نرصد جهوده في معالجة ظاهرة لحن العامة في أمورٍ أهمها :

أولاً - التصحيح الدلالي :

أدرك ابن قتيبة أن ألفاظ اللغة تتعرض إلى التغيير في معانيها، فكانت هناك معان جديدة لبعض الكلمات، إما ذات صلة بالمعاني القديمة، وإما غريبة عنها، ولذا كانت هناك الظواهر الثلاث الآتية :

(1) أدب الكاتب/9، وما بعدها .

(2) نفسه/ 411.

(3) نفسه/ 412.

1- تغيير الدلالة : باستحداث معنى لم يكن من قبل .

2- تعميم الدلالة : بأن تكون المعاني الجديدة أعمّ من المعاني القديمة .

3- تخصيص الدلالة : بأن تحدد الكلمة ببعض ما كانت تدل عليه قديماً .

وقد فهم ابن قتيبة اللحن على أنه خروج اللفظ عن معناه الأصلي إلى معنى جديد، وقد عالج الألفاظ التي اعتقد أن الناس أفسدوا استعمالها، ووضعوها غير موضعها، وأخطؤوا فهم دلالاتها، ونبّه عليها مبيناً دلالة العبارة على المعنى الذي وضعت له، ويردها إلى أصولها اللغوية التي اشتقت صيغها منها، من ذلك قوله : "أشفار العين" يذهب الناس إلى أنها الشعر النابت على حروف العين، وذلك غلط، إنما الأشفار حروف العين التي ينبت عليها الشعر، والشعر هو الهُدْبُ . وقال الفقهاء المتقدمون : في كل شُفْرٍ من أشفار العين رُبْعُ الدِّية، يعنون في كلِّ جَفْن، وشُفْرُ كل شيء حَرْفه، وكذلك شفيره، ومنه يقال : "شفير الوادي" و "شُفْرُ الرَّحِم" ، فإن كان أحد من الفصحاء يسمي الشعر شُفراً فإنما سمّاه بمنْبته، والعرب تُسمي الشيء باسم غيره إذا كان مجاوراً له، أو كان منه بسبب[(1)]" .

ومن ذلك "حُمَةُ العقرب والزُّنبور" يذهب الناس إلى أنها شوكة العقرب وشوكة الزنبور التي يلسعان بها؛ وذلك غلط، إنما الحُمَةُ سَمُّهما وضَرُّهما، وكذلك هي من الحيّة . ومنه قول ابن سيرين "يُكره التّرياق إذا كان فيه الحُمَة" يعني السم، وأراد لحوم الحيات لأنها سَمٌّ . . . فأما شوكة العقرب فهي الإبرة[(2)]" .

ومن ذلك "الطَّربُ يذهب الناس إلى أنه في الفرح دون الجزَع، وليس كذلك، إنما الطَّرب خفةٌ تصيب الرجل لشدة السرور، أو لشدة الجزع . .[(3)]" .

ومن ذلك "القافلة" يذهب الناس إلى أنها الرُّفقة في السفر، ذاهبة كانت أو راجعة،

(1) أدب الكاتب / 21.

(2) نفسه / 22.

(3) نفسه / 22، 23.

وليس كذلك، إنما القافلة الراجعة من السفر، يقال : قفلت فهي القافلة، وقفل الجند من مبعثهم، أي رَجَعوا، ولا يقال لمن خرج من العراق إلى مكة قافلة حتى يَصْدُروا"[1].

ومن ذلك قول الناس : " فلان يتصدّق" إذا أعطى و "فلان يتصدق" إذا سأل، فهذا غلط، والصواب "فلان يسأل" . وإنما المتصدق المعطي . . . "[2].

لقد أنكر ابن قتيبة تغيير دلالة بعض الكلمات القديمة، حتى إن ارتبطت الدلالتان : المستحدثة والقديمة برابطة مناسبة، إذ من الممكن تخريج استعمالات العامة على أساليب المجاز، وذلك أمر مشهور متعارف بين العرب، وقد اضطرب مقياسه بين الإجازة والتخطئة في مجال تغيير الدلالة، مع وجود العلائق المناسبة، وعقب تخطئة استعمال "الأشفار" بمعنى الشعر النابت في العين، صرح بوروده، وقال : فإن كان أحد من الفصحاء يُسمى الشّعْر شُفْرا، فإنما سماه بمنبته، والعرب تسمي الشيء باسم غيره إذا كان مجاوراً له، أو كان منه بسبب" . وقد عقد لذلك باباً سمّاه : (باب تأويل كلام من كلام الناس مستعمل[3]) ذكر فيه أساليب ذات معنى عام أو خاص، نقلت العرب دلالتها إلى معان أخرى ليست بعيدة عن المعاني القديمة، من ذلك قوله : "يقولون : "حلب فلان الدّهر أشْطُرَهُ" أي : مرّت عليه صروفه من خيره وشره، وأصله من أخلاف الناقة، ولها شطران : قادمان وآخران، وكل خلفين شَطْرٌ"[4].

ويقولون : "ما بفلان طرق" أي ما به قوة، وأصل الطِّرْق الشحم، فاستعير مكان القُوة : لأن القوة أكثر ما تكون عنه"[5].

---

(1) نفسه / 24.

(2) نفسه / 25.

(3) ينظر الباب في أدب الكاتب ص / 50.

(4) أدب الكاتب / 50.

(5) نفسه / 50، 51.

فالمجاورة في المكان تُعَدّ من عوامل انتقال الدلالة، وهي إحدى علاقات المجاز المرسل . ومع أن ابن قتيبة أنكر على العامة استعمال بعض الكلمات في غير ما وضعت له، فقد أخذ على ابن السكيت تعسفه مع العامة في إطلاقهم التنزه على الخروج إلى الرياض والبساتين، وقال : "كان بعض أصحاب اللغة يذهب في قول الناس "خرجنا نتنزّه" إذا خرجوا إلى البساتين – إلى الغلط، وقال : إنّما التنزه التباعد عن الماء والريف، قال : ومنه يقال : "فلان يتنزه عن الأقذار" أي يباعد نفسه عنها . و "فلان نزيه كريم" . "إذا كان بعيداً عن اللؤم" فهذا الاستعمال ليس من الخطأ – في رأيه – ومن الممكن تخريجه على المجاز وقال : "لأن البساتين في كل مصر وفي كل بلد إنما تكون خارج المِصْر؛ فإذا أراد الرجل أن يأتيها فقد أراد أن يتنزه، أي يَبْعُد عن المنازل والبيوت، ثم كثر هذا واستعمل حتى صارت النزهة القعود في الخُضَر والجنَان[1]" .

وقد أقرّ ابن قتيبة نفسه بوجود علاقة المجاورة بين المعنيين، وبكثرة الاستعمال وأجاز تغيير معنى الكلمة وانتقالها إلى معنى جديد تستعمل فيه، كقوله : وقولهم للمزادة "راوية" والراوية : البعير الذي يُسْتقى عليه الماء، فسمي الوعاء راوية باسم البعير الذي يَحْمِله[2]" .

وبسبب المجاورة انتقل معنى الراوية من الدابة التي يستقى عليها إلى المزادة[3] .

ومن الممكن أيضاً تخريج إطلاق العامة حُمَة العقرب والزنبور على شوكتهما على أسلوب المجاز المرسل، ووجود العلاقة بين المعنيين،وهي علاقة الآلية؛ لأن الشوكة هي العضو الذي عن طريقه ينفث العقرب والزنبور سمّهما، فلهذا سميت الشوكة حُمَة ويحتمل أن

---

(1) نفسه / 38، 39.

(2) نفسه / 64.

(3) هذا المثال ورد في تلخيص المفتاح للخطيب القزويني لبيان علاقة المجاورة في المجاز المرسل / شرح التفتازاني / 173، وفي الصحاح (روى) : "والعامة تسمي المزادة : راوية . وذلك جائز على الاستعارة " .

تكون العلاقة هي المحلية أي أن الشوكة محل السم .

وكذلك تخريج قول العامة : "أكلنا مَلّة" بدل : خبز مَلّة . على المجاز المرسل، وعلاقته المحلية، فالملة : الرماد الحار . وقال ابن قتيبة : "ومن ذلك" الملّة" يذهب الناس إلى أنها الخبزة، ويقولون "أطْعمنا مَلَّة" وذلك غلط، إنما الملة موضع الخَبْزَة، سمي بذلك لحرارته"[1] . وقد تولى الجاحظ توجيه ما تقوله العامة بقوله : "ومن هذا الباب (التسمية باسم المكان) : الملّة، والملّة موضع الخبزة، فسموا الخبزة موضعها، وهذا عند الأصمعي خطأ"[2] .

ومن ذلك قول ابن قتيبة : "الخَلَى" هو الرّطب، و"الحشيش" هو اليابس، ولا يقال له رطْباً : حشيش"[3] .

ويمكن تخريج تسمية العامة للكلأ الأخضر : الحشيش، على المجاز المرسل، وعلاقته اعتبار ما سيكون، والحشيش هو اليابس من الكلأ، والعلاقة أن الأخضر سيؤول إلى يابس .

وكذلك يمكن تفسير حدوث اللحن فيما ذهب إليه من أن الطرب : خفة تصيب الرجل لشدة السرور، أو لشدة الجزع، ومن الغلط تخصيصه بالفرح وحده، على رأي ابن قتيبة، ويعد هذا نتيجة للتطور في الدلالة، فالمعنى الأول لكلمة "الطرب" كان عاماً شاملاً للسرور والجزع، ثم تطور معناها، وتخصصت في الدلالة على "الفرح" . وإذا سلمنا بهذا النوع من التطور الدلالي الذي يقع في اللغة العربية، أمكن أن نخرج عليه أمثلة كثيرة تخصص معناها، ثم حكم عليها ابن قتيبة بأنها لحن؛ لأنها لم ترد بهذا المعنى عن العرب الفصحاء .

ومن مظاهر التطور الدلالي توسيع المعنى أو تعميم الخاص، وذلك حيث تستعمل الكلمة الدالة في أصل معناها على نوع خاص، ثم يتطور ليطلق على معنى أعم، من ذلك

(1) أدب الكاتب/ 37 .

(2) الحيوان 1/ 333 .

(3) أدب الكاتب/ 98 .

يمكن أن يخرج قول العامة للرفقة المسافرة أو العائدة : قافلة، وأصلها من قفل أي رجع .

فعُمّم المعنى بعد أن كان خاصاً، وعلى ذلك يمكن تخريج كثير من الأمثلة التي حكم عليها ابن قتيبة بأنها من لحن العامة .

ويعد من هـذا النوع، أي تعميم الدلالة، طائفة من الألفاظ التمس ابن قتيبة بينها فروقاً في الدلالة، ولم يسلّم بأنها مترادفة، وإذا وجد العامة يعممون حكم على سلوكهم اللغوي بالخطأ .

وقد اجتهد في تصحيح خطأ العامة في عدم التفرقة بين الألفاظ المتقاربة في معانيها، ونبه على الفروق اللغوية بينها، ونص على الاستعمال الدقيق لكل لفظ، وأدرك أن العامة ربما أزالت اللفظ عن جهته، وأفسدت استعماله، ولم تفرق بين دلالته ودلالة لفظ آخر، من ذلك قوله: "الظلّ والفيءُ" يذهب الناس إلى أنهما شيء واحد، وليس كذلك ، لأن الظلّ يكون غداة وعشية، ومن أول النهار إلى آخره . . . والفيء لا يكون إلاّ بعد الزوال، ولا يقال لما كان قبل الزوال فيء، وإنما سمي فيئاً، لأنه ظلّ فاء من جانب إلى جانب، أي رجع من جانب المغرب إلى جانب المشرق، والفيء هو الرجوع، قال الله عز وجل : ﴿حتى تفيءَ إلى أمر الله﴾[1] . أي ترجع إلى أمر الله"[2] .

ومن ذلك "البخيل واللئيم" يذهب الناس إلى أنهما سواء، وليس كذلك، إنما البخيل الشحيح الضنين، واللئيم: الذي جمع الشح، ومهانة النفس، ودناءة الآباء . يقال كل لئيم بخيل، وليس كل بخيل لئيماً"[3] .

ومن ذلك "الخائن، والسارق" لا يكاد الناس يفرقون بينهما، والخائن : هو الذي اؤتمن

(1) الحجرات/ 9.

(2) أدب الكاتب/ 28-26.

(3) نفسه/ 35.

فأخذ فخان . . . والسارق كمن سرقك سراً بأي وجه كان . يقال : كلّ خائن سارق . وليس كل سارق خائنا[1]".

ومن ذلك "الجبهة والجبين" لا يكاد الناس يفرقون بينهما؛ فالجبهة : مسجد الرجل الذي يصيبُه نَدَبُ السجود، والجبينان : يكتنفانه، من كل جانب جبينٌ[2]".

ويبدو أن الفروق الدقيقة بين الكلمات المتقاربة في دلالاتها، ليست موضع اتّفاق بين اللغويين، فبعضهم سمع بعض العرب يعممون هذه الدلالة ولا يفرقون هذه التفرقة الدقيقة، ويقول الدكتور إبراهيم أنيس : "إن الناس في حياتهم العادية يكتفون بأقل قدر ممكن من دقّة الدلالات وتحديدها، ويقنعون في فهمهم للدلالات بالقدر التقريبي الذي يحقق هدفهم من الكلام والتخاطب، ولا يكادون يحرصون على الدلالة الدقيقة المحددة التي تشبه المصطلح العلمي[3]".

وانصرفت جهود ابن قتيبة اللغوية إلى تصحيح الألفاظ المتقاربة في النطق وفي المعنى، وتلتبس على الناس فيضعون أحد اللفظين موضع الآخر، وعقد لذلك باباً في كتابه "أدب الكاتب" وعنوانه "باب الحرفين اللذين يتقاربان في اللفظ وفي المعنى ويلتبسان فربما وضع الناس أحدهما موضع الآخر[4]" . ومن ذلك قوله :

و"عَدْلُ الشي" بفتح العين : مِثْلُه، قال الله سبحانه ﴿ أو عَدْلُ ذلك صياما ﴾[5] .

و"عِدْلُ الشيء" بكسر العين : زِنَتُه .

---

(1) نفسه / 35-54.

(2) نفسه / 36.

(3) دلالة الالفاظ / 151 .

(4) ينظر الباب ص / 307 من أدب الكاتب .

(5) المائدة / 95.

و"الحَرْقُ" في الثّوب وغيره من النّار، و "الحَرَقُ" النَّار نَفْسُها،

و"الجُهْدُ" الطاقة . . و "الجَهْدُ" المَشَقّة .

و"الغَبْنُ " في الشراء والبيع، و "الغَبَنُ" في الرأي .

و"الحَمْلُ" حمْل كلّ أنثى وكل شجرة، قال الله عز وجل: ﴿حملت حَمْلاً خفيفاً﴾[1].

و"الحِمْلُ" ما كان على ظهر الإنسان" .

و"عَلاقَةُ" الحُبّ والخصومة بالفتح، و"عِلاقة" السَّوط بالكسر .

و"السِّلْمُ" الصلح، و"السَّلْمُ" الاستسلام[2]" .

وإن هذه الفروق الدقيقة بين الكلمات المتقاربة صوتياً، ليست موضع اتفاق بين اللغويين، فبعضهم سمع بعض العرب يعممون دلالة بعض المفردات، ولا يفرقون هذه التفرقة الدقيقة .

واجتهد ابن قتيبة في توضيح الفروق الدلالية بين الكلمات التي تتقارب في النطق وتختلف معانيها، ولا يكاد عوام الناس يفرقون بينها، وعقد لذلك باباً في "أدب الكاتب" عنوانه "باب الحروف التي تتقارب ألفاظها وتختلف معانيها[3]" . ومن ذلك قوله :

"الإِرْبَة" الحاجة، و "الأُرْبة" العُقْدة .

و"الحَدَأَةُ" الفأس ذات الرأسين، وجمعها حَدَأٌ، والحِدْأَةُ الطائر، وجمعها حِدأٌ ،

و"الرُّمَّةُ" القطعة من الحبل، و"الرِّمَّةُ" العظام البالية .

و"الرَّقُ" ما يكتب فيه، و "الرِّقُّ" المِلْكُ .

---

(1) الأعراف/ 189.

(2) أدب الكاتب/ 314-307.

(3) ينظر الباب ص/322/ من أدب الكاتب .

و"الرَّوْعُ" الفَزَعُ، و "الرُّوع" النَّفْسُ، يقال : "وقع ذلك في رُوعِي" أي في خَلَدِي[1]".

واجتهد في توضيح الفروق الدلالية بين الكلمات التي يتفق لفظها وتختلف معانيها، ولا يكادُ عوام الناس يفرقون بينها، ويخلطون بين المقصور والممدود وعقد لذلك باباً في "أدب الكاتب" عنوانه "باب أسماء يتّفق لفظها وتختلف معانيها[2]" ومن ذلك قوله :

"هوى" النَّفس مقصور بالياء، و"الهَوَاءُ" الجو ممدود .

و"الصّفا" الصَّخْرُ مقصور بالألف، و"الصَّفاءُ" من المودة والشيء الصافي ممدود .

و"سَنَا" البَرْق مقصور بالألف، و"سَنَاءُ" المجد ممدود[3]".

واجتهد في تصحيح خطأ العامة في عدم التفرقة بين دلالات الأبنية المختلفة في الحرف الواحد، وعقد لذلك باباً في "أدب الكاتب" عنوانه "باب اختلاف الأبنية في الحرف الواحد لاختلاف المعاني[4]"، نبّه فيه على الفروق الدلالية بين الأبنية التي تختلف في صيغها وأوزانها، وتتّحد في الجذر اللغوي الذي صدرت عنه واشتقت منه، فاختلفت لذلك معانيها، وربما أخطأ عامة الناس ولم يفرقوا بينها، ووضعوا الواحد مكان الآخر، من ذلك قوله :

"قالوا : "رَجُلٌ مُبَطَّنٌ" إذا كان خميص البطن، و"بطين" إذا كان عظيم البطن "ومبْطون" إذا كان عليل البطن و"بَطِنٌ" إذا كان منهوماً نهماً و"مِبْطان" إذا ضَخُمَ بطنه من كثرة ما يأكل". ورجل "مُظَهَّر" إذا كان شديد الظهر، ورجل "ظَهِرٌ" إذا اشتكى ظهره، مثل "فَقِرٌ"

(1) أدب الكاتب / 322-325.

(2) ينظر الباب ص/ 299/ من أدب الكاتب .

(3) أدب الكاتب / 299.

(4) ينظر الباب ص/ 326/ من أدب الكاتب .

إذا اشتكى فقاره. . . "[1].

وصحح ابن قتيبة خطأ العامة في عدم ا لتفرقة بين دلالات المصادر المختلفة الصادرة عن الفعل الواحد من ذلك قوله :

قالوا وجدت في الغضب "مَوْجِدَةً"، ووَجَدْتُ في الحزن "وَجْداً"، ووَجَدْتُ الشي "وِجْداناً ووجوداً، وافتقر فلان بعد جِدَةٍ" .

ووجب القلب "وجيباً"، وَوَجَبَتِ الشمسُ "وجُوباً"، وَوَجَبَ البيعُ "جبةً" .

ونَحَلَ جسمه يَنْحَلُ "نُحولاً" ونَحَلْتُه من العطيَّةِ أنْحَلُهُ "نُحْلاً" ونَحلْتُه القول أنْحَلُه "نَحْلاً" .

ورأيت في المنام "رُؤْيا" ورأيت في الفقه "رَأْياً" ورأيت الرجل "رُؤْيَةً[2]" .

وصحَّح خطأ العامة في عدم التفرقة بين الأفعال المتقاربة في صيغها والمختلفة في دلالاتها من ذلك قوله :

"عَلَوْتُ" في الجبل عُلُوّاً، و"عَلِيْتُ" في المكارم عَلاءً .

و "قَلَوْتُ اللحمَ والبُسْرَ" و "قَلِيتُ الرَّجل" أبغضته .

و"كَبر الرّجُلُ" إذا أسَنَّ، و "كَبُرَ الأمرُ" إذا عَظُمَ .

و"نَمَيْتُ الحديثَ نقلته على جهة الإصلاح، و "نَمَّيْتُه" مشدداً نقلته على جهة الإفساد[3]" .

واجتهد في تصحيح خطأ العامة في عدم التفرقة بين الأفعال المهموزة وغير المهموزة،

---

(1) أدب الكاتب/326، 327 .

(2) نفسه/ 333-339 .

(3) أدب الكاتب/ 344-349 .

وعقد لذلك باباً في "أدب الكاتب" بعنوان " باب ما يكون مهموزاً بمعنى، وغير مهموز بمعنى آخر[1]"، نبّه فيه على الفروق الدلالية، ومن ذلك قوله : "ذرأتَ" يا ربنا الخَلْقَ، و"ذروْتُه" في الرِّيح، و "ذَرَيْتُه"، و"أذْرَته الدَّابةُ عن ظهرها : أي ألقَتْه .

و"صَبَأْتَ" يا رجلُ، إذا خرجت من شيء إلى شيء، و"الصابئون" منه، و"صَبَوْت" إلى فلانة" أصبو من الشوق .

و"كفَأْت الإناء" قلبته، و"أكفأتُه" أيضاً لغةٌ، و"كَفَيْتُكَ ما أهمَّك[2] .

ثانياً : تصحيح الأبنية :

اجتهد ابن قتيبة في معالجة الأبنية التي اعتراها اللحن، وحُرِّفت في ضبطها أو حروفها، من حيث الحذف والزيادة والتقديم والتأخير والقلب، والخطأ في تحريك أواسط الفعل الثلاثي من ضم أو فتح أو كسر، وكذا الخطأ في الأسماء وضبطها ضبطاً صحيحاً .

وصحح خطأ العامة في إهمال همزة الأفعال المهموزة، وعقد لذلك باباً في "أدب الكاتب" عنوانه "باب الأفعال التي تهمزُ، والعوامّ تَدَعُ همزها[3]"، نبّه فيه على لحن العامة في ترك همزة الأفعال المهموزة، وتحريف أبنيتها، من ذلك قوله :

"طَأْطَأْتُ" رأسي، و"أَبطَأْتُ"، و"اسْتَبْطَأْتُ" و"تَوَضَأْتُ" للصلاة، و"هَيَّأْتُ" و"تَهَيَّأْتُ"، و"تَوكَّأْتُ" و"خَبَّأْتُه" و"أَطْفَأْتُ السِّراج"، و"دَرَأْتُ" فلاناً دفعته، و"دارَأْتُه" : دافَعْتُهُ . . . " كل ذلك بالهمز والعوام تدع همزها[4] .

وفي باب ما يهمز من الأسماء والأفعال والعوامُّ تبدل الهمزة فيه أو تسقطها، قال "يقال

---

(1) ينظر الباب ص/363/ من أدب الكاتب .

(2) أدب الكاتب/ 363-366 .

(3) ينظر الباب ص/366/ من أدب الكاتب .

(4) أدب الكاتب/ 366-368 .

"آكلت فلاناً" إذا أكلتَ معه، ولا تقل واكلته؛ و"آزَيْتَه" حاذيته، ولا تقل "وازَيْتُه".

و"آزرْته على الأمر، أي: أعَنْتَهُ وقَوَّيْتَه، فأما، وآزَرْتُه، فصرت له وزيراً" و"آتيْتُه على ما يريد" هذا كله العوام تجعل الهمزة فيه واو"[1].

و"هي الدناءة"، والكآبَةُ"، و"دخل في مساءة فلان"، وهي "المرآة" والجميعُ "مَرَاء" هذا كله العوام تسقط الهمزة منه"[2].

و"أصْحَتِ السماء" فهي مُصْحيةٌ، ولا يقال صَحَت.

و"أغلقت الباب" وأقْفَلْتُه"، ولا يقال غَلَقْتُه ولا يقال قَفَلْتُه.

و"أعييْتُ في المشي" فأنا مُعي، ولا يقال عييتُ إلاّ في المنطق.

وهي "الإِوَزُّ" والعامة تقول وزّة[3]".

وصحح خطأ العامة في هَمْز ما لا يهمز من الأسماء والأفعال، من ذلك قوله: "يقولون رجلٌ "أعْزَبُ"، وإنما عَزَبٌ. وهي "الكُرَةُ" ولا يقال "أكرة" ويقال "فلان أعسرُ يَسَرٌ" وهو الذي يعمل بكلتا يديه، ولا يقال أيْسَرُ.

و"فلان خير الناس وشرُّ الناس" ولا يقال أخير ولا أشر".

و"شَمَلَت الرّيح" و"جَنَبَت" و"صَبَتْ" و"قَبَلَتْ" و"دبَرَتْ" كل ذلك بلا ألف[4]".

وصحح خطأ العامة فيما حرّف من ضبط الأبنية، ومن ذلك ما يُشَدد من الأسماء والأفعال والعامة تخففه، من ذلك قوله:

---

(1) نفسه / 369.

(2) أدب الكاتب / 369.

(3) نفسه / 371-382.

(4) نفسه / 371-374.

"هذه فُوَّهَةُ النهر" بالتشديد، ولا يقال فُوَهَةٌ .

قال الأصمعي : "عُنِّسَتِ المرأة" إذا كبرت ولم تُزَوَّج فهي مُعَنِّسة، ولا يقال عَنَسَتْ وأبو زيد يجيزه، وقال : تَعْنُس عُنُوساً، وهي عانس. . .[1]" .

وصحح ما يخفَّف والعامة تشدده، وقال :

"هي الرَّباعِيَة" للسن، ولا يقال رَبَاعِيَّة، و"هي الكراهِيَةُ" و"الرَّفاهِيَةُ" و"الطَّواعِيَة" . هذا كله بالتخفيف . . و"هو الدُّخَان" ولا يشدد[2]" .

وصحح ما جاء ساكناً، والعامة تحركه، كقوله :

يقال : في أسنانه حَفْرٌ" وهو فساد في أصول الأسنان، و"حَفَرٌ" رديئة . و"هي حَلْقَةُ الباب" و"حَلْقَةُ القَوْم" .

قال أبو عمر الشيباني : لا يقال "حَلَقةٌ" في شيء من الكلام، إلاَّ الحلَقة الشَّعْر جمع حالِقٍ، مثلُ كافرٍ وكَفَرة وظالمٍ وظَلَمةٍ[3]" .

وصحح ما جاء مُحَرَّكاً، والعامة تُسَكِّنه، كقوله :

"أتْحَفْتُهُ تُحَفَةً" و"أصابتْه تُخَمةٌ"، و"هي اللُّقَطَةُ" لما يُلْتَقَطُ، و"هم نُخَبَةُ القوم" أي : خِيَارُهم .

و"طَلَعَتِ الزُّهَرَةُ" للنّجم .

و"هي زَهْرَة الدُّنيا" و"زهَرَتُها" أي حُسْنُها .

ويقال؛ اعمل بحسَب ذاك "بفتح السين، فإذا كان في معنى "كفاك" فهو

---

(1) نفسه / 375-377.

(2) نفسه / 377-378.

(3) نفسه / 381؛ 382.

بتسكين السين .

و"ذهب دمه هَدَراً" بفتح الدال. . ."[1].

وصحح ما جاء مفتوحاً والعامة تكسره، كقوله :

هو "الكَتَّان" بفتح الكاف، و"الطَّيْلَسان" بفتح اللام، وهي "الغَيْرَةُ" بفتح الغين . وهي شَفَةُ الرَّجُل، وهو جَفْنُ عينه، و"جَفْنُ السيف" جميعاً بالفتح، "وهي دِمَشْقُ"[2]" .

وصحح ما جاء مكسوراً والعامة تفتحه، كقوله :

"هو السِّرْداب، والدِّهليز" و"هو الدِّيوان" و"الدِّيباج" بكسر الدال فيها، وهو "النِّسْيان" بكسر النون وسكون السين، مصدر نسيتُ .

و"هي المِطْرقة" ، و"المِكْنسة" و"المِغْرفة" و"المِرْوحة" .

و"هذه مُقَدِّمة الجيش" ، و"هم المُقاتِلَة" بالكسر، ولا يقال مُقدَّمةٌ ولا مُقاتَلَةٌ[3]" .

وصحح ما جاء مفتوحاً، والعامة تضمه، كقوله : هي "التَّرقوة" و"عَرْقوة الدلو" بالفتح، "قَبِلتُ الشيء قَبولاً" بفتح القاف وفعلت به "خَصوصية" ولِصٌّ بَيِّن "اللَّصوصية" ، وهو السَّعُوط و"الغَرور" و"السَّنون" بفتح أوائلها..[4]

وصحح ما جاء مضموماً، والعامة تفتحه، كقوله :

يقال : "على وجهه طُلاوةٌ بضم أوله، وهي ثياب "جُدُدٌ" بضم الدال الأولى ولا يقال جُدَدٌ – بفتحها – إنما الجُدَد الطرائق . . ."[5].

---

(1) أدب الكاتب / 382 / 385 .

(2) نفسه / 388-389 .

(3) نفسه / 390-392

(4) نفسه / 393 .

(5) نفسه / 394 .

وصحح ما جاء مضموماً، والعامة تكسره، من ذلك قوله :

تقول : "هو الفُلْفُلُ" بالضم، وهي "لُعْبَةُ" الشَّطرنج والنَّرد وغير ذلك . . . فأما اللِّعبة بالكسر، فمثل الجِلْسَةِ والرِّكْبَة . . . "(1).

وصحح ما جاء مكسوراً، والعامة تضمُّه، كقوله :

هو "الخِوانُ" بكسر الخاء، وفعلت ذلك "صِراحاً" بكسر الصاد؛ لأنه مصدر صارَحْتُ بالأمر، و"السِّواك : بالكسر، ولا يقال السُّواك . . . "(2).

وصحح ما جاء على فَعِلْتُ بكسر العين والعامة تقوله على فَعَلْتُ، بفتحها، كقوله : "قَضِمَت الدابّة الشعير تقضَمه"، و " قد لَجِجْتُ تَلَجُ لجاجةٍ " وقد " مَضِضْتُ " في المصيبة أمضُّ مَضضاً، و " قد مَصِصتُ الشَّرابَ ... "(3).

وصحّح ما جاء على فَعَلْتُ، بفتح العين، والعامة تقوله على فَعِلْتُ، بكسرها، كقوله : " نَكَلْتُ عن الأمر، أنكِلُ نُكُولاً، و " حَرَصْتُ على الأمر أحرِصُ " و " قد جَهَدْتُ جَهْدي " و " قد غَطَسْتُ " و " سَبَحْتُ في الماء " و " عَجَزْتُ عن الأمر " أعجِزُ ... "(4).

وصحّح ما جاء على فَعَلْتُ، بفتح العين، والعامة تقوله على فَعُلْتُ، بضمها، كقوله : " جَمَدَ الماء " يجْمُدُ، و " ذبَلَ الرَّيحان " يَذبُل، و " كَفَلْتُ به " أكفُل كفالةً و " قَبَلت به أقْبَلُ قَبَالةً، و "عَثَرْتُ" أعثُر . و " ضَمَرَ الرجل " يضمُر ... "(5).

(1) نفسه / 395.

(2) أدب الكاتب / 396-397.

(3) نفسه / 397.

(4) نفسه / 398.

(5) نفسه / 399.

ثالثاً : تصحيح التصحيف :

أدرك ابن قتيبة أن كثيراً من الكلمات قد طرأ عليها التصحيف، فحلّ في كلٍّ منها حرف مكان حرف، ونبّه على ما تصحّف فيه العوامُّ[1]، من ذلك قوله :

يقولون " الزُّمُرُّد" وهو بالذال معجمة، ويقولون لِعيب بالدواب " الجَرَدَ " بالدال، وهو بالذال معجمة، ويقولون " ملحٌ أنْدَرَانيٌّ " وإنما هو ذرآنيٌّ " بفتح الراء وبالذال معجمة وهو من الذُّرْأة : البياض، يقال : " ذرئَ رأسه، وعَلَتْهُ ذَرْأَةٌ، ويقولون " شنَّ عليه درْعَه " وإنما هو "سَنَّ" عليه درعه، أي صبَّها، وسنَّ الماء على وجهه، أي صبَّه صبَّاً سهلاً، فأمّا الغارة فإنه يقال فيها "شَنَّ عليهم الغارة " بالشين معجمة، أي فرَّقها . ويقولون " نعق الغراب " وذلك خطأ، إنما يقال "نَغَقَ" بالغين معجمة – فأما نعق فهو زجر الراعي الغنم . . .[2]" .

رابعاً : تصحيح التغير الصوتي :

أدرك ابن قتيبة أن ألفاظ اللغة تتعرض في أصواتها إلى الانحراف والتغيّر لأنّه سنة من سنن حياة اللغة وتطورها، وعالج ما طرأ على بعض الكلمات من تحريف نتيجة التغير الصوتي، وصحح ما جاء بالسين، والعوام يقولونه بالصاد، كقوله :

"دابةٌ شموس" ولا يقال شموصٌ، و "أخذه قسراً" ولا يقال قصراً، و "قد قَصَره" إذا حَبَسه، ومنه ﴿حور مقصورات في الخيام﴾[3]، فأمَّا " القَسْرُ بالسين، فهو القهر، و "هو الرُّسغُ " بالسين ولا يقال بالصاد . . . .[4]

وصوّب ما جاء بالصاد، والعوام يقولونه بالسين، كقوله :

---

(1) ينظر الباب ص/ 385 من أدب الكاتب .

(2) أدب الكاتب/ 385-386 .

(3) الرحمن/ 72 .

(4) أدب الكاتب/ 386 .

" هو قَصٌّ الشاة، و " قَصَصُها " ولا يقال قَسٌّ، و " هو صَفْحُ الجبل " لوجه الجبل ، مثل صَفْحِ الوجه، .. ولا يقال سَفْحٌ إلاّ لما سفح فيه الماءُ، وهو أسفل الجبل .

ويقال : " بخصْتُ عينه " بالصَّاد، ولا يقال بَخَسْتُها، إنّما البَخْسُ النقصانُ، و "هو الصندوقُ " بالصاد، و "قد أصاخَ " فهو مصيخٌ، إذا استمع، ولا يقال أساخَ[1]" .

خامساً : تصحيح الخطأ في النحو والصرف :

انصرفت جهود ابن قتيبة إلى معالجة اللحن في الألفاظ – وصوب خطأ العوام في النحو والصرف، ومن مظاهر الخطأ التي عالجها في لغة العامة :

(أ)- جمع غير الثلاثي :

لاحظ ابن قتيبة أن العوام يجمعون الجديد على جُدَد – بضم ففتح – خلطاً بينه وبين الجُدَد التي هي الطرائق، ونبّه على هذا الخطأ وقال : يقال : " هي ثياب جُدُدٌ " بضم الدال الأولى ولا يقال جُدَد – بفتحها – إنما الجُدَدُ الطرائق، قال الله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ ﴾[2] أي طرائق..[3]" .

(ب)- المفرد في محل المثنى :

ذكر ابن قتيبة أن عامة زمانه استعملوا المفرد دالاً على المثنى فيما لا ينفصل، فقالوا : تَوْأَم وزوج، والصواب : تَوْأَمان وزوجان، ونبّه على هذا الخطأ وقال :

" يقال : اشتريت زَوْجَي نِعَال .. ولا يقال زوْج نِعَال، لأن الزَّوْج ههنا الفرد .

ويقال: هما أخوان تَوْأَمان "وجاءت المرأة بتوأمَيْن، ولا يقال تَوْأَم، إنما التَوْأَم أحدهما[4]" .

---

(1) نفسه / 386-387.

(2) فاطر / 27.

(3) أدب الكاتب / 394.

(4) نفسه / 421.

(ج)- الجمع في محل المفرد :

أشار ابن قتيبة إلى هذه الظاهرة ، وذكر أن العامة يقولون : " أنتَ سَفِلَةٌ " وذاك خطأ، لأن السَّفِلَةَ جماعة، والصواب أن تقول : أنت من السَّفِلَة "[1] .

فقد نبه على خطأ العامة، لأنهم استعملوا سَفِلَة - وهي دالّة على جماعة - خبراً عن المفرد .

(د)- التذكير والتأنيث :

لاحظ ابن قتيبة أن العوام استعملوا بالتاء الوصف الخاص بالمؤنث، فنبّه على هذا الخطأ وعقد باباً في أدب الكاتب عنوانه " باب أوصاف المؤنث بغير هاء "[2] . أشار فيه إلى أن العامة كانت تستعمل بالتاء الأوصاف الخاصة بالمؤنث، وقال : " ما كان على " فَعِيل " نعْتاً للمؤنث وهو في تأويل " مفْعول " كان بغير هاء نحو " كفٌ خضيب " و " مِلْحَفَةٍ غسيل " وربما جاءت بالهاء فيُذهب بها مذهب الأسماء نحو " النّطيحة " و " الذَّبيحة "، يقال "شاة ذبيحٌ كما يقال "ناقةٌ كسير" وتقول "هذه ذبيحتُك" وذلك أنك لم ترد أن تخبر أنها قد ذُبِحَت،

... فإذا لم يَجُزْ فيه مفعول فهو بالهاء، نحو : مَريضة، وكبيرةٍ، وصغيرةٍ، وظريفةٍ .

وإن كان " فَعِيلٌ" في تأويل "فاعِل" كان مؤنثه بالهاء، نحو : رحيمة، وعليمة، وكريمة،

وإن كان "فَعُولٌ " في تأويل "فاعل" كان بغير هاء، نحو " امرأة صبور " و " شكور " .

وإذا كان في تأويل " مفعول بها " جاءت بالهاء، نحو " الحَمُولة " و " الرَّكوبة " .

(1) أدب الكاتب/416، 417.

(2) ينظر الباب ص/ 291 من أدب الكاتب .

وما كان على " مِفْعيلٍ " فهو بغير هاء، نحو " امرأة مِعْطير " .

وما كان على " مِفْعالٍ " فهو بغير هاء، نحو امرأة " مِعْطار " .

وما كان على " مُفْعِلٍ " مما لا يوصف به مذكّر فهو بغير هاء، نحو " امرأة مُرْضِع " و " مُطْفِلٍ " .

... فإذا أرادوا الفعل قالوا " مُرْضِعَةٌ " . .

وما كان على " فاعِلٍ " مما لا يكون للمذكر وصفاً فهو بغير هاء : قالوا " امرأة طَالِقٌ " و " حامِلٌ " . والرجل " زَوْجُ " المرأة، والمرأة " زَوْجُ " الرجل، لا تكاد العرب تقول " زَوْجَتُه "[1] .

فقد نبه ابن قتيبة على الغلط في استعمال ما كان خاصاً بالمؤنث، وما يستوي فيه التذكير والتأنيث، وأشار إلى خطأ العوام في تأنيث بعض المذكر، وتذكير بعض المؤنث، وأنهم استعملوا بالتاء الوصف الخاص بالمؤنث، فقالوا : امرأة طالقة وطاهرة وحائضة، وأنهم استعملوا زوجة بالتاء بدلاً من زوج، واستعملوا بالتاء الأوصاف التي يستوي فيها المذكر والمؤنث : من فعيل بمعنى مفعول، وفَعُول بمعنى فاعل، ومِفْعال، وذلك عند وصف المؤنث بها، فيقولون : شاة ذبيحة، وناقة كسيرة، وشاة رَمِيَّة، وكذلك يقولون : امرأة صبورة، وشكورة، وكذلك يقولون : امرأة مِعْطارة، وامرأة مرضعة ومطْفِلة .. وقد حَدَّد لنا ابن قتيبة الاستعمال العربي لهذه الأوصاف، ونبّه على خطأ إلحاق التاء دون قصد المبالغة، وتوحيد العوام علامة التأنيث فجعلوها التاء دائماً، وأضافوها إلى الأسماء بالمؤنث .

(هـ)- المشتقات :

ذكر ابن قتيبة أن العوام كسروا الميم في اسم الفاعل من افْعَلَّ، فقالوا هذه عصا مِعْوَجَّة بكسر الميم، والصواب : " هذه عصا مُعْوَجَّةٌ " بضم الميم .[2]

---

(1) أدب الكاتب / 291-296 .

(2) أدب الكاتب / 396 .

وذكر أن العوام جاؤوا باسم المفعول من الفعل المعتل الأجوف على وزن مفعول بالتمام دون نقص، ونبّه على هذا الخطأ وقال : " ليس يأتي " مفْعولٌ من ذوات الثلاثة – وهي من بنات الواو – بالتمام، وإنما يأتي بالنقص، مثل " مَقُول " و " مَخُوف " إلاّ حرفان، قالوا : مُسْك "مَدْووفٌ" وثوبٌ " مَصْوونٌ "[1] .

وأشار إلى أنهم فتحوا الميم في اسم الآلة من وزني "مِفْعَل ومِفْعَلة"، ونبّه على هذا الخطأ، وعقد لذلك باباً في أدب الكاتب عنوانه " باب ما جاء مكسوراً والعامة تفتحه " ، وذكر من ذلك : "المِطْرَقَة" و "المِكْنَسة" و "المِغْرَفة" و "المِقْدَحة" و "المِرْوَحة" و "مِقْطَع" و "مِجَنٌّ" و "مِخْزَرٌ" و "مِبْضَعٌ" ، بكسر الميم، والعوام يستعملونها بفتح الميم، وأشار إلى أنهم فتحوا الفاء من فِعِّيل وفِعْليل – المبنيين للمبالغة والتكثير، فقالوا :

" بَصَلٌ حَرِّيْفٌ " والصواب " حِرِّيفٌ "[2] .

وذكر أنهم استعملوا اسم التفضيل من الخير والشر على خلاف ما اشتُهر عن العرب من حذف الهمزة منهما وقال : " فلان خيرُ الناس وشرُّ الناس " ولا يقال أخيرُ الناس ولا أشرُّ "[3] .

وأشار إلى أنهم استعملوا صيغة التفضيل (فُعْلى) بغير الألف واللام والإضافة، ونبّه على هذا الخطأ وقال : " ليس في الكلام " فُعْلى " بغير الألف واللام والإضافة، نحو "الصُّغرى " و "الكُبرى" ، ولا تقل " هذه امرأة صُغْرى " كما لا تقلْ : " هذا رجلٌ أصغر " حتى تقول "منك" وتقول " هذه الصغرى " و " هذا الأصغر "[4] .

وأشار إلى أن العوام لم يفرقوا بين المشتقات، فاستعملوا اسم المفعول مؤدِّياً معنى اسم

---

(1) نفسه / 589.

(2) نفسه / 392.

(3) نفسه / 372.

(4) نفسه / 593، 594.

الفاعل وفتحوا ما جاء مكسوراً وقالوا : طعام مُدَوَّد وتمرٌ مُسَوَّس، والصواب مُدوِّد ومُسَوِّس[1] .

ويقال : " ما سَرَّني بذاك مُفْرِحٌ " لأنه يقال : أفرحني الشيء، ولا يقال مَفْروح، إلا أن تقول : مَفْرُوحٌ به[2]" .

و " هو حديث مستفيضٌ " لأنه من استفاض الحديث، ولا يقال مُسْتَفاضٌ، إلا أن يقال مستفاض فيه[3]" .

واستعملوا صيغة اسم الفاعل اسماً للمكان، وقال في باب " ما جاء مفتوحاً والعامة تكسِره " : هو " المُغْتَسَلْ " ولا يقال مُغْتَسِل، إنما المغْتسِلُ الرَّجُل[4]" .

(و)- التعدية واللزوم :

ذكر ابن قتيبة أن العوام أخطؤوا في تعدية اللازم ولزوم المتعدي، وعقد لذلك باباً في أدب الكاتب عنوانه " باب ما يُعَدّى بحرف صفة أو بغيره، والعامة لا تعديه، أو لا يُعَدَّى والعامة تُعَديه " ، فمن تعدية اللازم، قال : " تقول فزِعت منك " . و " فَرِقْتُ منْك " ولا يقال فرقتك ولا فزعتك، ومن لزوم المتعدي، ذكر أنهم قالوا : خشيت منك وخفت منك وهِبْتُ منك – والصواب أن يقال : " خشيتُك " و " هِبْتُكَ " و " خِفْتُكُ [5]" .

وذكر أن العوام لم يفرقوا بين حروف التعدية، وأن التبادل وقع بينها، فأحلّوا الباء محل على في قولهم "بنى بأهله" محل "بنى فلان على أهله"، و" الباء " محل "مِنْ" في قولهم "

(1) نفسه / 390.

(2) نفسه / 418.

(3) أدب الكاتب / 418.

(4) نفسه / 388.

(5) نفسه / 420.

سَخِرْت به " محل "قد سَخِرْتَ منه"، والباء محلّ "عَنْ" ، في قولهم "رميت بالقوس" محل "رميت عن القوس"، ولا يقال "رميت بالقوس" إلا أن تلقيها عن يدك [(1)]" .

وأشار ابن قتيبة إلى أن العامة عدَّت إلى مفعولين أفعالاً تتعدى إلى واحد، فقالت عيّرتني بكذا، والصواب "عيَّرتني كذا [(2)]" .

(ز)- التعريف والتنكير :

ذكر ابن قتيبة أن العوام أدخلوا أداة التعريف على العلم، ونبه على خطئهم، وقال : وهي "رأس عَيْنٍ" ولا يقال رأس العين [(3)]" .

(ح)- الإضافة :

ذكر ابن قتيبة أن العوام أضافوا الشيء إلى نفسه حين قالوا : عِرْقُ النَّسا، وعِرْقُ الأكحَل، وعرق الأبْجَل، وقال الأصمعي : "هو النَّسا" للعرق [(4)]" .

وأنهم أضافوا (أجْمَع) التي هي للتوكيد مع إدخال الجارِّ عليها، فقالوا : "قُومُوا بأجْمُعِكم" والأجْمُعُ : جماعة جَمْعٍ، ولا يكون بأجمَعِكم ... [(5)]" .

(ي)- المعلوم والمجهول :

ذكر ابن قتيبة أن العوام اتجهوا إلى التخلص مما جاء على صورة المبني للمجهول بتحويله إلى مبني للمعلوم، وعقد لذلك باباً في أدب الكاتب "عنوانه" باب ما جاء على لفظ ما لم يُسَمَّ فاعله" ذكر فيه عدداً من الكلمات التي حولها العوام إلى مبني للمعلوم، من ذلك

---

(1) نفسه / 419، 420.

(2) نفسه / 420.

(3) نفسه 431.

(4) نفسه / 409.

(5) أدب الكاتب / 409.

قوله: " تقول" وُثِئَتْ يدُه" فهي مَوْثوءة، ولا يقال وَثِئَتْ، و "زُهي فلان" فهو مَزْهُوٌّ، ولا يقال زَهَا ولا هو زاهٍ . و "عُنيتُ بالشيء" فأنا أُعْنى به، ولا يقال عَنيتُ. و " نُتِجَتْ الناقة " ولا يقال نَتَجَتْ . و "سُقِطَ في يَدِه[1]" .

(ق)- تصريف الأفعال :

ذكر ابن قتيبة أن العوام جعلوا حركة عين الماضي من المضعَّف الثلاثي على وَفْق حركة عين مضارعه، وذكر أمثلة للمكسور العين في المضارع الذي قاسوا عليه الماضي فقالوا بالكسر كلِلْت أكِلٌّ، والصواب "قد كَلَلْتُ " إذا أعييت أكِلُّ كَلاَلاً وكَلاَلَةً[2]" .

وأنهم جعلوا حركة عين الماضي من الصحيح السالم الثلاثي على وفق حركة عين مضارعه من ذلك : "أَجَنَ الماء" يأجِن، ولا يقال أجِنَ[3]" .

وذكر ابن قتيبة أنّه جرت على ألسنة العامة صيغة (افتعل) للمطاوعة بدلاً من (انفعل) وقال : " يقال : "مَحَوْتُه فانمحى" ، ولا يقال امْتَحى[4]" .

وأشار ابن قتيبة إلى ظاهرة القلب المكاني في الأفعال، ونبه على خطأ العوام في قولهم أيسْتُ من الأمر، والصواب : قد " يَئِسْتُ من الأمر" أيْأس منه يأساً[5]" . وأشار ابن قتيبة إلى أن العوام يخطئون في الإسناد، فيُسنِدون إلى المفعول ما حقّه أن يُسْنَد إلى الفاعل، يقولون : "حَكّني موضع كذا من جَسَدي"، وهو خطأ، إنما يقال : أكلني فَحكَكْتُهُ[6]" .

ويقولون " ركضَ الدابَّةُ والفرسُ" ، وهو خطأ، إنما الرَّاكض الرَّجُلُ، والرَّكْضُ : تحريكُكَ

(1) نفسه / 401.

(2) نفسه / 398.

(3) نفسه / 399.

(4) نفسه / 457.

(5) نفسه / 370.

(6) نفسه / 412.

الرِّجْلَ عليه ليعدُوَ، يقال : ركَضْتُ فَعَدا [1]" .

وتناول ابن قتيبة ضمن بابين في أدب الكاتب : هما (باب ما يهمز من الأفعال والأسماء والعوام تبدل الهمزة فيها أو تسقطها [2]) و (باب ما لا يهمز والعوام تهمزه [3])، تناول الاضطراب في استعمال العوام صيغتي (فَعَلَ وأفعل) وعدم التفرقة بينهما، كما أشار إلى ظاهرة قلب الهمزة واواً في صيغة (فاعل) من مهموز الفاء، فقالوا : واكلْتُه وواتيْتُه ووازيْتُه، والصواب أن يقال " آكلت فلاناً " و " آزَيْتُه " حاذيته، و " آتيتُه على ما يريدُ هذا كله العوام تجعل الهمزة فيه واواً وهذا طعام لا " يلائمني " ملاءمةً، أي لا يوافقني . فأما "يلاومني" فلا يكون إلا من اللوم : أن تلومَ رجلاً ويَلومَك [4]" .

(ل)- الحذف والزيادة :

أشار ابن قتيبة إلى أن العوام يحذفون بعض الحروف من بعض الصيغ، ويقولون : " لا بل لشانئك" بدلاً من "افْعَلَ ذاك لا أبا لشانئِك [5]" .

وذكر أنهم يزجرون البغل بقولهم : عَدْ – أي عَدَسْ [6]" .

وأشار إلى أنهم يزيدون في خبر كاد، فيقولون : كاد أن يفعل كذا، والصواب "كاد فلان يفعل كذا [7]" .

---

(1) أدب الكاتب / 415.

(2) ينظر الباب ص / 369 من أدب الكاتب .

(3) ينظر الباب ص / 372 من أدب الكاتب .

(4) أدب الكاتب / 369، 370 .

(5) نفسه / 416.

(6) نفسه / 417.

(7) نفسه / 419.

(م)- اسم الهيئة :

ذكر ابن قتيبة في باب (ما جاء مكسوراً، والعامة تفتحه) ، أن العوام فتحوا أول اسم الهيئة فصار مشابهاً لاسم المرّة، وأشار إلى هذه الظاهرة، ونبه على خطأ العوام، وقال : "وهي "المِشْيَةُ" و "جِرْيَةُ الماء" و "قِتْلَة شَرَّ قِتْلَةٍ"[1]" .

سادساً : تصحيح الأساليب :

أدرك ابن قتيبة أن اللحن يشمل أيضاً التركيب العام للجملة، ولذلك انصرفت عنايته إلى معالجة الأساليب اللغوية، وما يطرأ عليها من لحن يحدث عمّا ينقص من العبارة أو يزاد فيها، أو يُبْدَل بعض حروفها بغيرها، وأشار إلى أن العوامّ استحدثوا أسلوباً جديداً للتعجب وقال : يقولون : في سبيل الله عليك " وهو خطأ، وإنما يقال : في سبيل الله أنت " .

ومن الأساليب المولّدة التي عالجها ابن قتيبة، قوله :

يقولون : " فلان يُنْدي علينا " وهو خطأ، إنما هو يتندّى علينا، كما يقال يتسخّى . ويقولون : "لم يكن ذلك في حسابي " وليس للحساب ههنا وَجهٌ، إنما الكلام : ما كان ذلك في حِسباني، أي : في ظَنّي . . .

ويقولون : " آخر الداء الكيُّ" وهو خطأ، إنما هو آخر الدواء الكيُّ .

ويقولون : " تجوع الحُرَّة ولا تأكل ثَدْيَيْها "، يذهبون إلى أنها لا تأكل لحم الثَّدي، إنما هو ولا تأكل بثدييها، أي : لا تُسْتَرْضَعُ فتأخذ على ذلك الأجر . . . " .

ويقولون : " في رأسه خُطْبَةٌ " وإنما هي خُطَةٌ . . .

ويقولون : " إن فعلت كذا وكذا فبها ونِعْمَهْ " يذهبون إلى النعمة، وإنما هو فبها ونِعْمَتِ – بالتاء – وفي الوقف، يريدون ونِعمَتْ الخَصْلَةُ، فحذفوا، وقال قوم : فبها

---

(1) نفسه / 391.

وَنَعِمْتْ – بكسر العين وتسكين الميم – من النعيم .... الخ ... "[1] .

(د)- مقياس الصواب والخطأ في الاستعمال اللغوي عند ابن قتيبة :

لقد اتخذ ابن قتيبة موقف التشديد في تخطئة العامة، وقد سلك منهج الأصمعي الذي كان مولعاً بالجيد المشهور مُضيِّقاً فيما سواه، وقد قال عنه أبو حاتم : وكان الأصمعي يقول أفصح اللغات ويُلغي ما سواها "[2] . وجاء عنه في مراتب النحويين أنه : كان يُضيِّق ولا يُجَوِّز إلا أفصح اللغات، ويَلجّ في ذلك ويَمْحِك، وكان مع ذلك لا يجيب في القرآن، وحديث النبي صلى الله عليه وسلم "[3] .

وقد اعتمد ابن قتيبة هذا المقياس في التخطئة والتصويب، وكان يمثل اتجاه المتشددين للمحافظة على سلامة اللغة، وتنقيتها مما شاع على ألسنة الناطقين بها من كلام مختلف عن سنن الكلام العربي، وتطبيق المقياس الصوابي عند ابن قتيبة يتمثل في تحديد الشعراء الذين يحتج بشعرهم، وقد نقل في كتابه (أدب الكاتب) عن كثير من العلماء في مقدمتهم الأصمعي الذي لم يكن يحتج بأشعار المولدين، وأخذ ابن قتيبة برأي الأصمعي في عدم الاحتجاج بأشعارهم في مواضع كثيرة، من ذلك تخطئة العامة في قولهم : "سمك مالح" ، مع أنه جاء في شعر لَعذافر، ولكنه في رأيه ليس بحجّة وقال :

"يقال : هذا ماءٌ مِلْحٌ، ولا يقال : مالح، قال الله عزّ وجل : ﴿ هذا عذب فُرَاتٌ سائغٌ شرابُه وهذا مِلْحٌ أجاج ﴾ [4] . ويقال : " سَمَكٌ مَليحٌ ومملوحٌ " ، ولا يقال : مالح، قال : وقد قال عُذافِرٌ، وليس بحجّة :

---

(1) ادب الكاتب / 413، 414.

(2) المزهر 1 / 233.

(3) مراتب النحويين / 41.

(4) فاطر / 12.

بَـصْـــــرِيَـةٌ تـزوَجَـتْ بَـصْـــــرِيًـاً   يُطْعِـــمُــــهـــا المَالِحَ والطَّرِيًا [1]

ورفض الاحتجاج بشعر ربيعة الرقي الذي أجاز زيادة (بين) بعد (شتان)، موافقاً بذلك رأي الأصمعي وقال : يقال : " شَتَّان ما هُمَا " بنَصْب النون، ولا يقال : شِتّان ما بينهما، قال الأعشى :

شَـتَّـــان مـــا يَوْمي على كُــورِهَا   ويَوْمُ حَــيَّـــانَ أخِي جَـــابِر [2]

وليس قول الآخر : [3]

لشَتَّـــان مـــا بين اليزيدين فــي النَّـــدى [4]

بحجَّة . . . [5]

وقد خرج عن مسلك الأصمعي في مواضع أخرى، واستشهد بأشعار للكميت ولذي الرُّمَّة وللطِّرمَّاح، وكان احتجاجه بهم في معاني اللغة وألفاظها، ففي المعاني استشهد بالكميت على أنّ (اصطلب) بمعنى جمع العظام فطبخها لِيُخْرِج وَدَكَها فيأتدِمَ به، وقال : " ومنه قول الكميت بن زيد :

واحْـــتَلَّ بَـرْكُ الشِّـــتـــاءِ منزِلَهُ   وباتَ شَـيـخُ العِـيـالِ يَصْطَلِبُ [6]

واستشهد بشعر ذي الرُّمَّة على أن (زُعْتُ النَّاقةَ) بمعنى عطفْتُها، وأنشد :

---

(1) البيتان له في أدب الكاتب / 405، وشرح الجواليقي / 295، وإصلاح المنطق / 288، واللسان (ملح).

(2) ديوانه / 183. وشرح الجواليقي / 294. والخزانة 3 / 46.

(3) هو ربيعة الرقي، ينظر شعره ص / 60، وشرح الجواليقي / 294.

(4) عجزه : **يزيد سُلَيْم والأغرّ بن حاتم** .

(5) أدب الكاتب / 404.

(6) ديوانه 1 / 82. والمعاني الكبير 1 / 415، واللسان (صلب) .

وَخـــافِقِ الرأسِ فـــوقَ الرَّحْلِ قُلتُ له زُعْ بالزِّمـامِ، وجَـوْزُ الليلِ مَـرْكُـومُ [1]

أي : اعطِفِ النَّاقة بالزِّمام . . "[2] .

واستشهد بقول الطرماح على أن الغراب إذا كان يَحْجِلُ كأنه مقيَّد يوصف بأنه شَنِجُ النَّسا، وأنشد :

شنِجُ النَّســـا حَـــرِقُ الجناحِ كـــأنَّهُ في الدَّار إثْرِ الظَّاعنينَ مُـــقَـــيَّـــدُ [3]

وفي الألفاظ استشهد بقول الكميت على صوغ وزن (فُعَال) من لفظ العشرة من العدد وقال : "أُحَاد" و "ثُناء" و "ثُلاث" و "رُباع" كلٌّ ذلك لا ينصرف ولم نَسْمَع فيما جاوز ذلك شيئاً على هذا البناء غير قول الكميت :

فلم يســـتـــريثـــوك حـــتى رمـــيـ ـــتَ فـوق الرجـال خـصـالاً عُـشـارا [4]

واحتج بشعر الطرماح على أن اللام تأتي بمعنى (على) في قوله :

كـــأن مُـــخَـــوَّاها على ثفناتهـــا مُـــعَـــرَّسُ خَـمْسٍ وقَّـعَتْ للجناجِنِ [5]

واستشهد بقول ذي الرُّمة على أن (مِنْ) الجارّة تدخل على (عَنْ)، وأنشد :

وهْيفٌ تَهـــيجُ البَـــيْنَ بعـــدَ تَجـــاورٍ إذا نَفَـــحَتْ مِنْ عَـنْ يمينِ المشـــارِقِ [6]

وسلك ابن قتيبة منهج مَنْ سبقه من العلماء في اللحن، ولم يحتج بالقراءات القرآنية

(1) ديوانه 1 / 420، وشرح الجواليقي 274 .

(2) أدب الكاتب / 346 .

(3) ديوانه / 130، وأدب الكاتب / 117 . وشرح الجواليقي / 210، واللسان (شنج) .

(4) ديوانه 1 / 191، شرح الجواليقي / 392-393 . وأدب الكاتب / 567 .

(5) ديوانه / 491، وشرح الجواليقي / 360 . وأدب الكاتب / 511 .

(6) ديوانه 1 / 248، وشرح الجواليقي / 349، وأدب الكاتب / 503 .

والحديث، ولحّن من قال : بنى بأهله، وقال : " يقال " بنى على أهله "[1] ، مع أنه جاء في حديث أنس : " كان أول ما أنزل من الحجاب في مُبْتَنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب "[2]، وكذلك تخطئة : عيَّرته بكذا، وقال : " وتقول : " عيَّرْتَني كذا " ولا يقال عيرْتني بكذا، قال النابغة :

وعــيــــرَتْني بنو ذبيــــان رهْبَــتَــــهُ   وهلْ عليَّ بأن أخــشــاكَ من عَــارِ [3]

مع أنه جاء في الحديث : " فعيَّره بأُمِّه "[4] .

ولم يعتمد ابن قتيبة في مقياسه الصوابي على لهجة معيّنة تكون هي الأفصح، وأخذ بالأفصح المشهور متجاوزاً ما عداه، وهذا مقياس الصواب عند المتشددين، وعند المتساهلين، كل ما تكلمت به العرب وما قيس على كلام العرب فهو صواب . وقد سلك سبيل السماع في قبول الألفاظ وعدم قبولها، حيث عَدَّ من اللحن ما وقع في بعض الكلمات من تغيير مع أن ما بينها ما يسَوِّغُ الإبدال كقرب المخرج، وعقد لذلك بابين في أدب الكاتب وهما : (باب ما جاء بالسين وهم يقولونه بالصاد [5]) و (باب ما جاء بالصاد وهم يقولونه بالسين [6]) .

ولكن ابن قتيبة لم يلتزم السماع أبداً، واتجه إلى الأخذ برأي من قال بالقياس، ولو لم يُسمع، فقد ورد عن العرب أسماء للمكان على (مَفْعِل) بكسر العين ممّا مضارعه يفعُل -بضمها - على غير القياس، كمَسْكِن ومَسْجِدٍ ومَطْلِعٍ، وتبع ابن قتيبة من قال : " الفتح

---

(1) أدب الكاتب / 419.

(2) اللسان (بنى) .

(3) ديوانه / 83، وشرح الجواليقي / 304، وأدب الكاتب / 420 .

(4) الحديث في المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي 2 / 447 .

(5) ينظر الباب ص / 386من أدب الكاتب .

(6) ينظر الباب ص / 386من أدب الكاتب .

في هذه الأحرف التي كُسِرَت جائزٌ، وإن لم يُسْمَع في بعضها . . . .[1]" .

ويعد ابن قتيبة في مقدّمة العلماء الذين خلطوا بين مذهبي المِصْرَين – البصرة والكوفة – وأنشؤوا مذهباً مستقلاً هو (المذهب البغدادي)، وظهر هذا الاستقلال في بعض آرائه في (أدب الكاتب) فهو أحياناً بصري يلحّن العامة، وإن تابعوا الكوفيين، ففي باب (ما جاء على فعَلت – بفتح العين والعامة تقوله على فَعُلت بضمها[2]) – قال : "البصريون يقولون : " حَمَض الخَلُّ " ، و " طَلَقَتِ المرأة " لا غير، و " حلَم الرَّجلُ " في نومه – بفتح اللام – فأما حلُم فمن الحِلْم[3]" . وهذا يدل على أن الكوفيين يجيزون الفتح والضم، ولم يأخذ بآرائهم .

وهو أحياناً يبني آراءه موافقاً الكوفيين، كما في اتجاهه إلى جواز نيابة بعض حروف الجر عن بعضها الآخر – موافقاً الكسائي والفرّاء –، وقال البطليوسي : " هذا الباب أجازه قومٌ من النحويين، أكثرهم الكوفيون، ومنع منه قوم، أكثرهم البصريون . . .[4]" .

وهو أحياناً لا يلتفت إلى مذهب كوفي أو بصري، وإنما الأمر عنده موقوف على ما ورد، كما في إنكاره التضعيف في قوله : " يقال : " قد غَلَفْتُ لحيته " بالطّيب مخففة، ولا يقال غَلَّفت[5] مع أنه جائز على معنى التكثير، كما يقال : ضرَب وضرَّب، وقتل وقتَّل .

ونرى ابن قتيبة يتفرد برأيه، ولا يأخذ برأي كوفي ولا بصري ولا بما ورد، من ذلك تفرقته بين " اللَّحَن " بفتح الحاء، و " اللحْن " بإسكانها، وقال : و " اللَّحَنُ " – بفتح

---

(1) أدب الكاتب / 553 .

(2) ينظر ص / 399، من أدب الكاتب .

(3) نفسه / 399.

(4) الاقتضاب 2/ 262 .

(5) أدب الكاتب / 379 .

الحاء – الفِطْنَة، يقال " رجُلٌ لَحِنٌ " و " اللَّحْنُ " الخطأ في الكلام .... [1] وقال البطليوسي : " وقد زعم الكوفيون أن كل اسم كان على مثال (فَعْل) وعين الفعل منه حرف من حروف الحلق، فالفتح فيه والسكون جائزان معاً، كالنَّهْر والنَّهَر، والشَّعْر والشَّعَر . وأهل البصرة يجعلونه موقوفاً على السماع، وهو الصحيح [2]" .

(1) نفسه / 321.

(2) الاقتضاب / 142 .

الخلاف بين ابن قتيبة والبطليوسي في المستوى الصوابي :

إن كثيراً من مسائل الخلاف بين اللغويين، حول ما يجوز، وما لا يجوز، سببها الاختلاف في تحديد المستوى الصوابي، واختلافهم في تحديد دائرة القياس اللغوي، حيث اقتصر البصريون على جواز القياس على المشهور الشائع، وأبوا القياس على القليل النادر . والتزموا القواعد والمقاييس التي وضعوها للصحة اللغوية، وحكموا بالخطأ على مَنْ تجاوز هذه المقاييس، في حين أن الكوفيين قد أجازوا القياس على الشاهد الواحد أو الشاهدين [1] .

ولم يتّفق أصحاب مذهب تنقية اللغة حول مقياس محدد يقوم على أساسه الحكم بالصحة أو الخطأ، فمنهم من سلك مسلكاً متشدداً يتمثل في الوقوف عند ما سمع، وعدم الاعتراف إلاّ بالأفصح، وما عداه فهو خطأ، وذلك بسبب ظهور اللحن وشيوعه على الألسنة، والخشية من سيل الشعوبية، وخطرها الداهم على الفصحى دفعت أصحاب هذا الاتجاه إلى اتخاذ موقف التشدد في تخطئة العوام، فقد كانوا مولعين بالجيد المشهور من كلام العرب، ولا يُجَوِّزُون إلا أفصح اللغات . وقد سلك ابن قتيبة هذا المسلك المتشدد، فهو يأخذ بالأفصح ويدع ما عداه، ويعده من اللحن .

ومنهم من يرى أن من تكلم بلهجة من لهجات العرب، أو يقيس عليها، ولو كانت نادرة أو رديئة فهو مصيب غير مخطئ " فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطئ، وإن كان غير ما جاء به خيراً منه [2]" .

وقد سلك البطليوسي هذا المسلك المتساهل، فهو يجيز أيّة لغة من لغات العرب، فلا يكاد يلحن أحداً . فمقياس الصواب عند المتشددين هو الأفصح وما عداه لحن . وعند

(1) الاقتراح، للسيوطي/ 84.

(2) الخصائص، لابن جني 2/ 12.

المتساهلين : كل ما تكلمت به العرب، وما قيس على كلام العرب فهو صواب .

وتتبّع البطليوسي آراء ابن قتيبة في لحن العامة، ونقدها، وأخذ عليه أشياء اضطرب فيها كلامه، فأجاز في موضع من كتابه، ما منع فيه في آخر، وأشياء جعلها من لحن العامة، وعوَّل في ذلك على ما رواه أبو حاتم عن الأصمعي، وأجازها غير الأصمعي من اللغويين، كابن الأعرابي، وأبي عمرو الشيباني، ويونس، وأبي زيد وغيرهم، وكان ينبغي له أن يقول: إن ما ذكره هو المختار، أو الأفصح، أو يقول : هذا قول فلان، وأما أن يجحد شيئاً وهو جائز، من أجل إنكار بعض اللغويين له، فرأي غير صحيح، ومذهب ليس بسديد[1] .

ومن أمثلة اختلاف المقياس الصوابي عند ابن قتيبة والبطليوسي، مسألة الحرص على عدم التناقض، وقد لاحظ البطليوسي أن ابن قتيبة وقع في كثير من التناقض في عدد من المواضع فأجاز في موضع ما منعه في آخر، وخالف في موضع ما أتى به في موضع آخر، ونسي في مكان ما قاله في مكان غيره، وساق في محل ما يبطل كلامه في محل سواه . ومن إجازة الشيء تارة ثم إنكاره تارة أخرى أن ابن قتيبة ذكر في باب (ما جاء مفتوحاً والعامة تكسره) : " اليَسار، والرَّصاص، والوَداع، والدَّجاج، وفَصّ الخاتم[2]" . ووجد البطليوسي أن هذه كلها " قد حكي فيها الفتح والكسر " وقد قال في باب ما جاء فيه لغتان استعمل الناس أضعفهما : أن الفِصّ : بالكسر، والدِّجاج لغة ضعيفة .

وذكر في أبنية الأسماء : أن الدَّجاج والدِّجاج لغتان، ولم يجعل لأحدهما مزيّة على الأخرى .

وحكى في باب ما جاء فيه لغتان استعمل الناس أضعفهما : أن الرصاص بالكسر : لغة ضعيفة .

---

(1) الاقتضاب للبطليوسي : 2/ 6.

(2) أدب الكاتب / 388، 389، والاقتضاب 2/ 200.

ومثل هذا الاضطراب والتخليط يحيِّر بال القارئ لكتابه، وكان ينبغي أن يجعل في باب واحد، ولا ينكر الشيء تارة، ثم يجيزه تارة أخرى [1]" .

وقال ابن قتيبة في باب (ما جاء مفتوحاً والعامة تضمه) : " وهي الأَنمَلة بفتح الميم : واحدة الأنامل "، وعقب البطليوسي وقال : " إدخاله الأَنملة في لحن العامة ظريف جداً، ولو قال : إن هذه اللغة أفصح اللغات، لكان ما قاله صحيحاً . وقد كثرت اللغات في الأنملة والإصبع حتى صار الناطق بهما كيف شاء لا يكاد يخطئ، وفي كل واحدة منهما تسع لغات .... وأفصح اللغات : أَنمَلة، بفتح الهمزة والميم، وإِصبَع، بكسر الهمزة وفتح الباء .

وذكر ابن قتيبة في باب (ما جاء فيه أربع لغات من حروف مختلفة الأبنية) : أن في الإصبع أربع لغات، ونسي ها هنا ما قاله هناك .... [2]" .

وقال ابن قتيبة في باب (ما جاء مضموماً والعامة تكسره) : "هي الخُصية والخُصيتان" . ووجد البطليوسي أنه قد حكى في باب (فُعلة وفِعلة من أبنية الأسماء) أنه يقال خُصية وخِصية، ونسي ما قاله ههنا . فأما الخُصى بغير الهاء، فلا أعرف غير الضم . وأما الخِصى فجمع خِصية بالكسر لا غير.. [3]" .

وقال ابن قتيبة في (الأفعال) : " يقال لكل ما حبسته بيدك مثل الدابة وغيره وقفته بغير ألف، وما حبسته بغير يدك أوقفته، يقال أوقفته على الأمر . وبعضهم يقول : وقفته، بغير ألف، في كل شيء " .

وتعقبه البطليوسي فذكر أنه قد قال بعد هذا الباب ما لا يهمز والعوام تهمزه : وقفته على ذنبه . وأنكر قول العامة : أوقفته بالألف، فإذا كان صحيحاً جائزاً، فَلِمَ جعله هناك من

---

(1) نفسه/423/ ، ونفسه 2/ 201 .

(2) نفسه/393/ ، نفسه 2/ 209 .

(3) نفسه/396/ ، ونفسه 2/ 212 .

لحن العامة ؟ وإن كان اعتقد أن وقفته أفصح من أوقفته، فكان ينبغي أن يذكره في باب ما جاء فيه لغتان، استعمل الناس أضعفهما، ولا يشغل بال قارئ كتابه بأن يجيز له شيئاً في موضع من كتابه، ويمنعه في موضع آخر . وفي كتابه أشياء كثيرة من هذا النحو"[1] .

وقال ابن قتيبة في باب (ما جاء مكسوراً والعامة تضمه) : "هو الخِوان، بكسر الخاء " . وتعقبه البطليوسي فذكر أنه قد قال في (باب ما جاء فيه لغتان استعمل الناس أضعفهما) : "ويقولون : خُوان . والأجود خِوان . فذكر أن الكسر أفصح من الضم، وأنهما لغتان" ونسي ما قاله ها هنا .

ثم قال في (باب فِعال وفَعال من أبنية الأسماء) أنه يقول : خِوان وخَوان . (للذي يُؤكل عليه[2]) .

وقال ابن قتيبة في باب (فَعَلْتُ وأفْعَلْتُ باتفاق المعنى واختلافهما في التعدي) : "رَفَقْتُ به وأرْفَقْتُه" . وتعقبه البطليوسي وذكر أنه قد قال في باب (ما جاء مضموماً والعامة تفتحه : رَفُق الله بك، ورَفُقَ عليك، وأرفقك إرفاقاً، فأنكر الفتح، ورُوي عنه ها هنا بالفتح[3]) .

ومن أمثلة اختلاف المقياس الصوابي عند ابن قتيبة والبطليوسي، أن البطليوسي رأى أن لا وجه لإدخال ألفاظ أو أقوال في لحن العامة، لجواز وجهها، أو لأن بعض اللغويين أجازها، وإمعان البطليوسي في البحث والتنقيب حرر كثيراً من الألفاظ التي قضى ابن قتيبة بأنها من لحن العامة، ومن ذلك أن ابن قتيبة قال في باب (معرفة ما يضعه الناس في غير موضعه) : إن الحشْمة يضعها الناس موضع الاستحياء . قال الأصمعي : وليس كذلك وإنما هي بمعنى الغضب، وحُكي عن بعض فصحاء العرب أنه قال : " إن ذلك لممَّا يُحْشِم بني

---

(1) أدب الكاتب / 362 / ، والاقتضاب 2 / 166 .

(2) نفسه / 545 / ، ونفسه 2 / 213.

(3) نفسه / 444 / ، ونفسه 2 / 245.

يُغضبهم " .

وعارضه البطليوسي وقال : " هذا قول الأصمعي، كما ذكر عنه، وهو المشهور، وقد ذكر غيره أنَّ الحشمة بمعنى الاستحياء"[(1)] . وقال ابن قتيبة في الباب نفسه حكاية عن الأصمعي : ونحو هذا قول الناس : زَكِنْتُ الأمرَ . يذهبون فيه إلى معنى ظننت وتوهمت، وليس كذلك . إنما هو بمعنى علمت . يقال : زكنت الأمر أزكنه . وتعقبه البطليوسي وقال: قد حكى أبو زيد الأنصاري : زكِنت منك مثل الذي زكنت مني . قال: وهو الظن الذي يكون كاليقين، وإن لم تُخبر به . وحكى صاحب العين نحواً من ذلك . ."[(2)] .

وفي باب (النبات) قال ابن قتيبة : " الخَلَى : هو الرَّطب، والحشيش : هو اليابس، ولا يقال له رَطباً : حشيش " .

وتعقبه البطليوسي وقال : " هذا الذي ذكره قول الأصمعي . وكان يقول : من قال للرَّطب من النبات حشيش فقد أخطأ .

وحكى أبو حاتم قال : " سألت أبا عبيدة معمراً عن الحشيش، فقال : يكون رطباً، ويابساً . وقال أبو عبيد في الغريب المصنف في باب نعوت الأشجار في ورقها والتفافها : وأما الورق فخضرة الأرض من الحشيش. . ."[(3)] .

وقال ابن قتيبة في باب (إناث ما شهر منه الذكور) : " والأنثى من الوعول : أُرويَّة، وثلاث أراوي إلى العشر . فإذا كثرت فهي الأرْوى .

وتعقبه البطليوسي وقال : " هذا الذي قاله، هو قول الأصمعي، وكان يزعم أن الوعل : هو الذَّكر، والأنثى : هي الأُرويَّة، وكان لا يجيز أن يقال للأنثى : (وَعْلَة)، وحُكي نحو

---

(1) نفسه / 23 / ، ونفسه 2 / 11 .

(2) أدب الكاتب / 23 / ، والاقتضاب 2 / 14 .

(3) نفسه / 98 / ، ونفسه 2 / 49 . والغريب المصنف / 181، واللسان (ورق) .

ذلك عن الأحمر .

وأما أبو زيد فأجاز أن يقال للأنثى وَعْلة، وذكر أن الأروية يقع للذكر والأنثى . وكذلك قال أبو عبيد : الأروى : الوعول، الواحدة منها أُروية، وهذا هو الأشبه بالصواب لأن العرب تقول في أمثالها : إنما أنت كبارح الأروى، قلّما يُرى، ولا يختصون هنا أنثى من ذكر ... "[1] .

وقال ابن قتيبة في باب خلق الخيل : " يقولون للفرس عتيق وجواد وكريم، ويقال للبرْذون والبغل والحمار : فاره . قال الأصمعي : كان عدي بن زيد يخطئ في قوله في وصف الفرس : (فارها متتابعا[2]) . قال ولم يكن له علم بالخيل .

وتعقبه البطليوسي وقال : " ما أخطأ عديٌّ بن زيد، بل الأصمعي هو المخطئ، لأن العرب تجعل كل شيء حسن فارها . وليس ذلك مخصوصاً بالبرذون والبغل والحمار، كما زعم، وعلى هذا قالوا : أفرهت الناقة : إذا نُجبت، فهي مُفْرِهة ...

... وكان الأصمعي – عفا الله عنه – يتسرع إلى تخطئة الناس وينكر أشياء كلها صحيح ....[3]

وقال ابن قتيبة في باب (ما يشدَّد والعوام تخفّفه) : " وعَّزْتُ إليك في كذا، وأوعزت ولم يعرف الأصمعي وعَزْت خفيفة ... " .

وعارضه البطليوسي قائلاً : " إن الأصمعي لم يعرف وعَزْت خفيفة، فقد عرفها غيره . فلا وجه لإدخالها في لحن العامة من أجل أن الأصمعي لم يعرفها . وقد أجاز ابن قتيبة في باب (فعلت وأفعلت باتفاق المعنى) : "وعزت وأوعزت" . فإن كان قول الأصمعي عنده هو

---

(1) أدب الكاتب / 104 / والاقتضاب 2 / 57 .

(2) نفسه / 130 / ونفسه 2 / 73، واللسان (فره) .

(3) نفسه / 130 / ونفسه 2 / 73، 74 .

الصحيح فلِمَ أجاز قول غيره في هذا الموضع الآخر؟ "[1] .

وفي باب (ما جاء خفيفاً والعامة تشدده) ، قال ابن قتيبة : " غَلَفْتُ لحْيَتهُ بالطِّيب، ولا يقال : غَلَّفت" ، وقد اعتمد ابن قتيبة على السماع .

ورد عليه البطليوسي بقوله : " إدخال مثل هذا في لحن العامة تعسُّف، لأن غلَّف جائز، على معنى التكثير، كما يقال : ضرَب وضرَّب، وقتل وقتَّل. . . "[2] .

وقال ابن قتيبة في باب (ما جاء محرَّكاً والعامة تسكنه) : "وفلان نغِلٌ : أي فاسد النسب والعامة تقول : نَغْل " .

ردّ عليه البطليوسي وقال : " مثل هذا لا يُجعَلُ لحناً . . . لأن التخفيف في مثله جائز. . . "[3] .

وفي باب (ما جاء بالصاد، وهم يقولونه بالسين) قال ابن قتيبة : " يقال : بَخَصْتُ عينه بالصاد ولا يقال بَخَسْتُها، إنما البخس النقصان . وذكر : هي صنجة الميزان . . . وهو الصندوق بالصاد . . " .

ورد عليه البطليوسي وقال : " هذه الأشياء كلها تقال بالصاد والسين، حكى ذلك الخليل وغيره "[4] .

وقال ابن قتيبة في باب (ما جاء مفتوحاً والعامة تكسره) : " مَرْقَاة ومَسقاةٌ، وذكر الأَبْرَيْسم (بفتح الألف والراء) . ثم ذكر أن الكسر لغة .

ورد عليه البطليوسي و قال: " فإذا كان الكسر لغة، فأي معنى لإدخال هذا في لحن

---

(1) نفسه/377/ ونفسه 2/ 183.

(2) نفسه/379/ ونفسه 2/ 184.

(3) نفسه/385/ ونفسه 2/ 194.

(4) نفسه/387/ ونفسه / 197.

العامة، وقد يمكن أن تكون العامة قالت : أبْرِيسَم (بكسر الراء) فذكره من أجل ذلك وأما المَرَقاة والمَسْقاة : فلا وجه لذكرهما في هذا الباب "[1] .

وفي باب (ما جاء مكسوراً والعامة تفتحه) . قال ابن قتيبة : " ليس على فلان مَحْمِل، وقعدت له في مَفْرِق الطريق ويقال مَفْرَق. ومِرْفَق اليد . ولي في هذا الأمر مِرفق (بكسر الميم فيهن) " .

ورد عليه البطليوسي وقال : " لا وجه لإدخال هذه الألفاظ في لحن العامة، لأن الفتح والكسر جائزان في جميعها، وقد قال هو في هذا الباب بعينه : أنه يقال : مَفْرق (بالفتح). وحكى الخليل في مَحْمِل الفتح، والقياس يوجب فيه ذلك، لأن فعله حمل يحمِل[2] (بفتح العين) من الماضي، وكسرها من المستقبل .

والمَفْعَل من هذا الباب إذا كان مصدراً : فحكمه الفتح، إلا ما شذَّ عن الباب، وأجاز أبو علي البغدادي في مِرْفَق اليد، فتح الميم وكسر الفاء، وكسر الميم مع فتح الفاء، ولم يجز ذلك في المِرْفَق من الأمر، حُكي ذلك عنه في بعض تعاليق هذا الكتاب، فإذا كان هذا صحيحاً عنه، فهو غلط، لأن المِرْفَق من الأمر يجوز فيه ما جاز في المرفق من اليد، وقد قرأت القرّاء : ﴿ ويهيئ لكم من أمركم مِرْفَقا ﴾[3] و (مَرْفِقا) بالوجهين . . . " .

وقال ابن قتيبة في هذا الباب : " وهي الجِنازة (بكسر الجيم) " .

ورد عليه البطليوسي وقال : " وقد اضطرب قول ابن قتيبة في الجنازة، فذكر في هذا الباب : أنها بالكسر، وأنكر فتح الجيم، وجعله من لحن العامة، ثم قال في (باب ما جاء فيه

---

(1) أدب الكاتب / 389 / ، والاقتضاب 2 / 202 .

(2) حكى يعقوب في إصلاح المنطق ص / 137 / : قال الفراء : ما كان على فعَل يفعِل فالمفعل منه إذا أردت الاسم مكسور . وإذا أردت المصدر فهو المفْعَل (بفتح العين) .

(3) الكهف / 16 .

لغتان استعمل الناس أضعفهما) إن الجنازة[1] (بالكسر) : أفصح من الجَنازة .

ثم ذكر في كتاب الأبنية من كتابه هذا، إنهما لغتان . وقال في كتابه في المسائل : الجنازة (بكسر الجيم) : الميت، وإنما سمي النَّعش جنازة باسم الميت، ولم يذكر الفتح ....[2]" .

وقال ابن قتيبة في باب (ما جاء على فَعِلت) (بكسر العين) والعامة تقوله على (فَعَلت) بفتحها : " صدِقت في يمينك وبَرِرْت بها " .

ورد عليه البطليوسي وقال : " حكى ابن الأعرابي : صدَقت وبَرَرْت، فوردا بالفتح والكسر . فأما برِرْتُ والدي فلا أعرف فيه لغة غير الكسر[3]" .

وفي باب (ما يُنقص منه ويزداد فيه، ويُبدل بعض حروفه بغيره) قال ابن قتيبة : كساءٌ مَنْبَجانيّ، ولا يقال : أنبجاني، لأنه منسوب إلى مَنْبِج، وفتحت باؤه في النسب، لأنه خرج مَخرج منظراني، ومخبرانيّ " .

وعارضه البطليوسي وقال : " قد قيل : أنبجانيّ، وجاء ذلك في بعض الحديث[4] .

وقد أنشد أبو العباس المبرّد في الكامل في وصف لحية :

كالأنبجاني مَصقولاً عوارضها   سوداءُ في لين خدُ الغادة الرُّود[5]

ولم ينكر ذلك، وليس في مجيئه مخالفاً للفظ منبج[6]، ما يبطل أن يكون منسوباً

---

(1)أدب الكاتب / 391 / والاقتضاب 2 / 204 .

(2) رواها يعقوب في إصلاح المنطق ص / 137 / بالفتح والكسر في باب (الفَعالة والفِعالة بمعنى واحد) .

(3) أدب الكاتب / 397 / والاقتضاب 2 / 205 .

(4) أدب الكاتب / 397 / ، والاقتضاب 2 / 214، 215 .

(5) جاء في الحديث : " رُدُّوها عليَّ وائتوني بأنبجا نيّته " ، اللسان (نبج) .

(6) البيت من أبيات، وردت في الكامل للمبرِّد (1 / 316) وهي لإسحاق بن خلف، يصف فيها رجلاً بالقصر=

إليها، لأن المنسوب يرد خارجاً عن القياس كثيراً كمَرْوزيّ ورَازيّ . ونحو ذلك [1]" .

ويستعين البطليوسي بالأصل لتبيين أن قول العامة صحيح، ففي الباب نفسه، قال ابن قتيبة : "ويقولون : النقد عند الحافر، يذهبون إلى أن النقد عند مقام الإنسان، ويجعلون القَدَم ها هنا الحافر . وإنما النقد عند الحافرة : أي عند أول كلمة " .

وردّ عليه البطليوسي وقال : " قد ذكر بعض اللغويين أن قول العامة : النقد عند الحافر : صحيح [2]، وقال : أصله أن الخيل كانت أفضل ما يُباع، فكان الرجل إذا اشترى فرساً قال له صاحبه : النقد عند الحافر، أي عند حافر الفرس في موضعه قبل أن يزول، ثم صار مثلاً في كل شيء لا نظرة فيه، كما قالوا : دفعوه إليه برُمَّته، وأصله في الإبل، ثم صار مثلاً في ما لا رُمَّة له، ومثل هذا كثير.. [3]" .

لقد تتبع البطليوسي آراء ابن قتيبة، وتناولها بالنقد، ورد عليها، وعلى آراء علماء آخرين . وقد أخذ بمنهج التيسير، ونأى بنفسه عن التضييق والتعنُّت، والتمس لأخطاء العامة أوجه الصواب، مؤمناً بأنه لا ينبغي في الدرس اللغوي الأخذ برأي، وإغفال آخر، أو الاعتراف بصيغة وإنكار أخرى، وأنه لا ينبغي أن يحمل الشيء على الشذوذ إذا وجد له وجه صحيح من القياس، ولا ينبغي إنكار غير المنكر الذي جاء في كلام العرب كثيراً، أو إنكار الممكن غير الممتنع أو الحكم بغلط الممكن الذي له نظائر، ولا يجوز إنكار قول صحيح له حجج وأدلة في بعض الحديث والشعر، وآمن البطليوسي بوجوب الاستقراء، وضرورة انفتاح الدارس اللغوي على مختلف الروايات والأقوال وتقديرها جميعاً، وأن الأخذ

= وطول اللحية .

(1) في اللسان (نبج) يقال كساء أنبجاني : منسوب إلى منبج : المدينة المعروفة وهي مكسورة الباء، ففتحت في النسب وأبدلت الميم همزة .

(2) أدب الكاتب /417، 418 / ، والاقتضاب 2/ 233 .

(3) في أساس البلاغة (حفر) : والنقد عند الحافرة والحافر .

بالمشهور أو الاعتماد عليه لا يمنع من مراعاة ما سواه، والاستفادة منه إذا لم يكن فيه شيء يستوجب طرحه أو يقضي بعدم الاعتداد به، وفي باب (ما ينقص منه ويزداد فيه ويبدل بعض حروفه بغيره)، قال ابن قتيبة : " ويقال : نثل درعه، ولا يقال : نثرها " وقد ردّ عليه البطليوسي بعد أن استقرأ، وقال : " نثل ونثر لغتان صحيحتان . ويقال : للدُّرع . نثلة ونثرة . قد حكى ذلك غير واحد من اللغويين. . "[1] .

وفي باب (ما يعرف جمعه ويشكل واحده) قال ابن قتيبة : "الغَرانيق : طير الماء ، واحدها غُرْنيقٌ ، وإذا وُصف بها الرجال فواحدهم : غُرْنوق، وغِرنوق وهو الرجل الشاب الناعم " .

ورد عليه البطليوسي بعد استقراء اللغات وقال : " قد حكى الخليل : أنه يقال لواحد الغرانيق، التي هي طير الماء، غُرْنيق وغُرنُوق (بضم الغين والنون) . حكى مثل ذلك أبو حاتم في "كتاب الطير" . ويقال في صفة الرجل : غُرْنُوق على وزن قُرقور، وغِرنيق على وزن قنديل، وغَرَانِق على وزن غَدافِر وغَروْنق على وزن فدوكس، وغرناق على وزن سربال . . . "[2] .

لقد تتبع البطليوسي أقوال ابن قتيبة، ووازن بينها وبيْن أقوال علماء آخرين، ولم يسلّم بما قيل، بل ناقش الآراء المختلفة، وعوّل على أدلة مختلفة . وقام بتعيين ما اعتقد أنه الصواب، وعوَّل على ما يزيل غموض كثير من كلام العرب، ورأى أن إهمال الاستقصاء أدى إلى ترك بعض اللغات المستعملة وبعض الصيغ والأقوال والتسرّع في الحكم على كثير من الكلام باللحن .

لقد كان الاختلاف بين ابن قتيبة وبين البطليوسي أمراً طبعيًّا، لأن اللغويين القدماء لم

---

(1) الاقتضاب 2/ 232.

(2) أدب الكاتب/408/ ، والاقتضاب 2/ 228.

يتفقوا على مقياس صوابي، فمقياس الصواب عند ابن قتيبة هو الأفصح وما عداه لحن، وعند البطليوسي : كل ما تكلمت به العرب وما قيس على كلام العرب فهو صواب .

فاللغويون لم يتفقوا على الذين تؤخذ عنهم اللغة من الشعراء والرواة، ولم يتفقوا على التوسع في القياس أو تضييق نطاقه، ولم يتفقوا على قبول ما جاءت به إحدى لهجات العرب مخالفاً للغة المشهورة، وكان أكثر خلافهم ونقاشهم يدور حول مقياس الصواب اللغوي .

لقد استطاع ابن قتيبة أن يسهم بقسط وافر في الجهود اللغوية التي كانت تهدف إلى معالجة ظاهرة لحن العامة في اللغة، ومخالفة العربية الفصحى، وكان يرمي إلى إعادة الخارجين عن الفصحى إلى حظيرة اللغة العربية الفصحى، وقد جمع طائفة من الألفاظ والتراكيب والأمثلة اللحنية، التي اعتقد أن الناس يخطئون فيها في زمانه، وبرهن على خطئها، ونص على الصواب، اعتماداً على المادة اللغوية التي جمعها اللغويون الأوائل من أفواه العرب، ولم يكن – شأنه في ذلك شأن اللغويين كافة – يقصد من العامة دهماء الناس وخشارتهم، وإنما قصد المثقفين الذين تتسرّب لغة التخاطب والحياة اليومية إلى لغتهم الفصحى في كتاباتهم أو أحاديثهم في المجالات العلمية، كمواقف الخطابة والوعظ، ولم يعن بتسجيل نصوص كاملة من اللغة الدارجة في عصره الذي تلا عصور الاحتجاج اللغوي، ومع ذلك فقد أطلعنا في مؤلفاته اللغوية على بعض جوانب التطور اللغوي الذي حدث آنذاك، ونستطيع من خلال الكلمات والتراكيب التي جمعها في كتبه أن نلحظ بعض ملامح ذلك التطور اللغوي، ولاسيما في نواحي الدلالة والأبنية والأصوات والأساليب .

الفصل الثاني

جهود ابن قتيبة اللغوية
في علم الدلالة

دلالــة الألفـاظ

تمهيد :

إنّ علم الدلالة، أو (دراسة المعنى) يُعَدُّ موضوعاً أساسياً من موضوعات علم اللغة، وبغيره يبقى البحث مبنياً على النظر في الشكل اللغوي وحده، أي يبقى ناقصاً أو مغفلاً لوظيفة اللغة التي بها يتحقق الفهم في المجتمع، ومن هنا كانت الدلالة المنطلق إلى دراسة عملية الفهم أو الإيصال .

وعلم الدلالة يعد علماً حديث النشأة، ولكنّ دراسة الكلمات أو المفردات ربّما كانت الأصل الذي بدأ به علماء اللغة خطواتهم الأولى نحو علم الدلالة الحالي، منذ أن عرضت للإنسان القديم ألفاظ من لغته أو من لغات أخرى، لم يفهمها [(1)] .

وقد نهض علماء العربية من المفسرين والمعجمين والشراح بشرح غريب القرآن، وتفسير غريب الحديث، وفك مستغلق الألفاظ الغامضة في الشعر وأقوال العرب من حكم وأمثال وخطب ووصايا .

واجتهد العلماء في تحديد الأصل اللغوي للمفردات، ودرسوا طبيعة التغيُّر الطارئ عليها، وأشاروا إلى العوامل التي غيّرتها وطوّرتها .

وتنوعت اهتمامات العرب وغطت جوانب كثيرة من الدراسة الدلالية، من ذلك التأليف في "الوجوه والنظائر" في القرآن، والحديث عن مجاز القرآن، وإنتاج المعاجم الموضوعية ومعاجم الألفاظ . وحتى ضبط المصحف بالشكل يعد في حقيقته عملاً دلالياً، لأن تغيُّر الضبط يؤدي الى تغيير وظيفة الكلمة، وبالتالي إلى تغيير المعنى [(2)]، وجهد العلماء في وضع قواعد النحو العربي حرصاً على صون اللغة من اللحن .

---

(1) دراسات في اللغة، للدكتور مسعود بوبو، ص : 99 وما بعدها .

(2) علم الدلالة، للدكتور / أحمد مختار عمر، ص 20 وما بعدها .

ووقف علماء اللغة عند ظواهر لغوية تعدُّ من صميم المباحث الدلالية، (كالترادف والمشترك اللفظي والأضداد)، تمثل جانباً متميزاً من خصائص اللغة العربية، وتوسعاً في طرائق التعبير فيها، وتنوعاً في دلالات الألفاظ، كما تشهد على حيويتها ومقدرتها الفائقة على النماء والتجدد والعطاء [1].

وقد كانت لابن قتيبة جهود لغوية في دراسة الألفاظ : معنى وتأصيلاً واشتقاقاً، بدءاً بتفسيره غريب القرآن، وغريب الحديث، وغريب الشعر، وانتهاء بمحاولته الرائدة – في تأويل مشكل القرآن – ربط المعاني الجزئية للمادة بمعنى عام يجمعها، إضافة إلى أبحاثه الدلالية الموزعة في تضاعيف كتبه اللغوية، والتي تناول فيها الظواهر اللغوية من ترادف واشتراك وتضاد .

أولا – الترادف :

(أ) تعريفه :

جاء في المزهر : " قال الإمام فخر الدين : هو (أي المترادف) الألفاظ المفردة الدّالّة على شيء واحد باعتبار واحد [2]" . فالمترادفان عند الرازي اللفظان المفردان المتساويان في الدلالة على معنى واحد، أو يسمى بهما الشيء الواحد .

(ب) الترادف بين إنكاره والإقرار به :

استرعت ظاهرة الترادف اهتمام علماء العربية منذ عهد مبكر، وأشاروا إليها في مؤلفاتهم اللغوية، ومثلوا لها بذكر أمثلة تنص على الإقرار بوجودها في اللغة، ومنهم من ألّف فيها كالأصمعي الذي وضع كتاباً سمّاه (ما اختلفت ألفاظه واتفقت معانيه [3])

(1) دراسات في اللغة/ 294.

(2) المزهر، للسيوطي 1/ 402.

(3) نشره مظفر سلطان في دمشق سنة 1951.

والرُّماني في كتابه (الألفاظ المترادفة [1]) ، ومنهم من ذكرها في تضاعيف كتبه، مشيراً إلى اعترافه بوقوع الترادف، وقد ذكرها سيبويه في كتابه وقال : " اعلم أنَّ من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين .... فاختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين هو نحو : جلس وذهب، واختلاف اللفظين والمعنى واحد نحو : ذهب وانطلق، واتفاق اللفظين والمعنى مختلف نحو قولك : وجدت عليه من المَوْجِدة، ووجدت إذا أردت وجدان الضّالّة وأشباه هذا كثير . [2]فقد مثَّل سيبويه للترادف بقوله ذهب وانطلق وعبر عنه باختلاف اللفظين والمعنى واحد، وهذا الضرب من الألفاظ هو الذي سُمِّي فيما بعد بالألفاظ المترادفة .

وقد تناقل العلماء تقسيم سيبويه للكلام، وعرضوا له في مؤلفاتهم اللغوية، ومن هؤلاء قطرب (–206 هـ) الذي حاول أن يعلل وقوع الترادف بقوله : (إنَّما أوقعت العرب اللفظتين على المعنى الواحد ليدلوا على اتساعهم في كلامهم)، كما زاحفوا في أجزاء الشعر، ليدلوا على أنَّ الكلام واسع عندهم، وأنَّ مذاهبه لا تضيق عليهم عند الخطاب والإطالة والإطناب [3]" .

وممن أشاروا إلى وقوع الترادف أبو علي القالي، وقد قال : حدَّثني أبو بكر بن دريد –رحمه الله – قال : حدّثني أبو عبد الله محمد بن الحسين قال : حدَّثنا المازني قال : سمعت أبا سرار الغنوي يقرأ (وإذا قتلْتُمْ نَسَمةً فادَّارأْتُمْ فيها [4]) فقلت له : إنما هي نفساً فقال : النسمة والنفس واحد [5]" .

---

(1) نشره محمد محمود الرافعي في القاهرة سنة 1321هـ .

(2) الكتاب لسيبويه 1/ 7-8.

(3) الأضداد لقطربُ، مجلة إسلاميكا، ص243-244، مج/5، سنة 1931، والمزهر 1/ 400-401.

(4) البقرة/ 72.

(5) دراسات في اللغة/ 277.

ومن المثبتين للترادف كذلك الفيروز أبادي الذي ألّف كتاباً بعنوان "الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف" . كما ألف كتاباً في أسماء العسل[1] .

ويقول الدكتور مسعود بوبو : " ووجه المبالغة عدم توخي الحرص على أصل الدلالة اللغوية، وتتبع تطورها، أو إغفال ما وضعت له عرفاً، ذلك أنّ طبيعة العربيّة أن تحسن التفصيل بين المسميّات وصفاتها ومراتبها وتنوعها ومختلف أصولها، وخاصة عندما يكون لتلك المسميّات من الكثرة والتداخل والتشابه ما قد يوقع في اللبس[2]" .

فالترادف واقع في اللغة، ولكنّ المنطق يقتضي ألا نتوسع في مفهومه، وإلا انتهى بنا الأمر إلى أن نضع مرادفات لمسميات متباعدة الدلالة، فنفسر الجنان والقلب بالفؤاد، وبالكبد وبالحشا. . . [3] .

ويقول الدكتور أحمد مختار عمر ، ويبدو أن مثبتي الترادف كانوا فريقين : ففريق وسَّع في مفهومه، ولم يقيِّد حدوثه بأي قيود. وفريق آخر كان يقيد حدوث الترادف ويضع له شروطاً تحد من كثرة وقوعه . ومن الأخيرين الفخر الرازي الذي يقول : " ومن النَّاس من أنكره، وزعم أن كل ما يظن من المترادفات فهو من المتباينات . إمّا لأنّ أحدهما اسم الذات، والآخر اسم الصفة، أو صفة الصفة. . . والكلام معهم إمّا في الجواز، ولا شك فيه . أو في الوقوع إمّا في لغتين، وهو أيضاً معلوم بالضرورة، أو من لغة واحدة كالحنطة والبر والقمح . . . وتعسفات الاشتقاقيين لا يشهد لها شبه فضلاً عن حجة[4]" .

فالرازي كان يرى قصر الترادف على ما يتطابق فيه المعنيان بدون أدنى تفاوت . فليس من الترادف عنده السيف والصارم، لأنّ في الثانية زيادة في المعنى " .

---

(1) المزهر 1/ 407.

(2) دراسات في اللغة/ 275.

(3) نفسه/ 275.

(4) علم الدلالة/ 217، عن المزهر 1/ 407.

ومنهم الأصفهاني الذي كان يرى أنَّ الترادف الحقيقي هو ما يوجد في اللهجة الواحدة، أمّا ما كان من لهجتين فليس من الترادف... [1].

ويروى عن أبي علي الفارسي أنه قال : " كنت بمجلس سيف الدولة بحلب، وبالحضرة جماعة من أهل اللغة، وفيهم ابن خالويه، فقال ابن خالويه : أحفظ للسيف خمسين اسماً، فتبسم أبو علي وقال : ما أحفظ له إلاّ اسماً واحداً، وهو السيف، قال ابن خالويه : فأين المهند والصارم وكذا وكذا ؟ فقال أبو علي : هذه صفات، وكأنّ الشيخ لا يفرق بين الاسم والصفة [2]" .

ويقول الدكتور مسعود بوبو : " وواضح أنَّ الحقَّ إلى جانب أبي علي، فالصارم والحسام والبتار والعَضْب والهندي ... صفات للسيف، يدل معظمها على القطع بأشكاله، أو يدل على نسبه إلى جهة صنعه ... [3]" .

وهناك فريق آخر كان ينكر الترادف كأبي علي الفارسي، منهم : ابن الأعرابي (–231 هـ)، وأبو العبَّاس ثعلب (–291 هـ)، وابن فارس اللغوي (–395 هـ)، وأبو هلال العسكري (–395 هـ)، ويقول ابن الأعرابي معللاً إنكاره للترادف بقوله : " كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد، في كل واحد منهما معنى ليس في صاحبه، ربما عرفناه فأخبرنا به، وربَّما غمض علينا فلم نُلْزم العرب جهله [4]" .

ويعلل ابن فارس إنكاره للترادف، ويعقد في الصاحبي فصلاً يسميه (باب الأسماء التي لا تكون إلاّ باجتماع صفات وأقلها ثِنْتان)، وقد عرض فيه طائفة من الألفاظ التي يظنها النَّاس مترادفات، وهي مختلفات، وقال : " الاسم واحد، هو السيف، وما بعده من الألقاب

---

(1) في اللهجات العربية / 175.

(2) المزهر 1 / 405.

(3) دراسات في اللغة / 276.

(4) الأضداد، لابن الأنباري / 7.

صفات ... وكذلك الأفعال نحو مضى وذهب وانطلق، وقعد وجلس، ورقد ونام وهجع .... ففي كل منها ما ليس في سواها . وهو مذهب شيخنا أبي العبّاس أحمد بن يحيى ثعلب"[1] .

وقد ألّف أبو هلال العسكري كتابه " الفروق في اللغة " لإبطال الترادف، وإثبات الفروق بين الألفاظ التي يدعى ترادفها . وقد بدأ كتابه بعنوان " باب في الإبانة عن كون اختلاف العبارات والأسماء موجباً لاختلاف المعاني في كل لغة " قال فيه : " الشاهد على أنّ اختلاف العبارات والأسماء يوجب اختلاف المعاني أنَّ الاسم كلمة تدل على معنى دلالة الإشارة . وإذا أشير إلى الشيء مرَّة واحدة فعرف، فالإشارة إليه ثانية وثالثة غير مفيدة . وواضع اللغة حكيم لا يأتي فيها بما لا يفيد . فإن أشير منه في الثاني والثالث إلى خلاف ما أشير إليه في الأول، كان ذلك صواباً . فهذا يدل على أن كل اسمين يجريان على معنى من المعاني وعين من الأعيان في لغة واحدة، فإن كل واحد منهما يقتضي خلاف ما يقتضيه الآخر، وإلاَّ لكان الثاني فضلاً لا يحتاج إليه . وإلى هذا ذهب المحقّقون من العلماء، وإليه أشار المبرد في تفسير قوله تعالى ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعَةً ومِنْهاجا﴾ [2]، قال : فعطف شرعة على منهاج، لأنَّ الشرعة لأول الشيء، والمنهاج لمعظمه ومتسعه ... وكما لا يجوز أن يدل اللفظ الواحد عل معنيين فكذلك لا يجوز أن يكون اللفظان يدلان على معنى واحد . لأنَّ في ذلك تكثيراً للغة بما لا فائدة فيه"[3] .

وقد حاول المنكرون للترادف التماس الفروق الدقيقة بين الألفاظ التي تبدو مترادفة ومن ذلك تفريق أبي هلال العسكري بين المدح والثناء بقوله : إنَّ الثاني المدح المكرر. وبين المدح والإطراء بقوله : " إنَّ الثاني هو المدح في الوجه . وكذلك تفريقه بين القديم والعتيق بقوله :

---

(1) الصاحبي / 96، 97. والمزهر 1 / 404.

(2) المائدة : 48.

(3) الفروق في اللغة / 13-15.

" الفرق بين القديم والعتيق أنَّ العتيق هو الذي يدرك حديث جنسه فيكون بالنسبة إليه عتيقاً، أو يكون شيئاً يطول مكثه أكثر مما يبقى أمثاله مع تأثير الزمان فيه، فيسمَّى عتيقاً، ولهذا لا يقال إنَّ السماء عتيقة وإن طال مكثها، لأنَّ الزمان لا يؤثر فيها، ولا يوجد من جنسها ما تكون بالنسبة إليه عتيقة، ويدل على ذلك أيضاً أنَّ الأشياء تختلف فيعتق بعضها قبل بعض على حسب سرعة تغيره وبطئه . والقديم ما لم يزل موجوداً، والقدم لا يستفاد والعتق يستفاد، ألا ترى أنَّه لا يقال سأقدم هذا المتاع كما تقول سأعتقه، ويتوسع في القدم، فيقال : دخول زيد الدار أقدم من دخول عمرو، ولا يقال : أعتق منه، فالعتق في هذا على أصله لم يُتَوسَّع فيه[1]" .

ويقول الدكتور مسعود بوبو في معرض تحليله لأصحاب هذا الرأي : " لكن مع وجاهة هذه الآراء والتعليلات لا ينبغي إنكار الترادف كليَّة، لأنَّ المعاجم العربيَّة، وكذلك الشّراح وأهل الفقه والتفسير قد درجوا على شرح اللفظة بالأخرى، حتَّى صار الأمر تعوُّداً أو عرفاً يصعب معه توضيح الكلام بغير هذا الأسلوب[2]" .

لقد بالغ المنكرون للترادف في ذكر الفروق بين الألفاظ، ومنهم من أظهر براعة في الصناعة مع تلطّف في التكلّف لاصطياد هذه الفروق، والأساس الذي اعتمدوا عليه في التفريق هو الاشتقاق، ورد الألفاظ إلى أصولها الثلاثية، لا الدلالات التي يدركها النَّاس من هذه الألفاظ .

(ج) موقف ابن قتيبة من الترادف :

أقرَّ ابن قتيبة بوجود ظاهرة الترادف في اللغة، وأفاد منها في شرحه ألفاظ اللغة في القرآن والحديث والشعر وغريب اللغة، وفسَّرها معبِّراً عن مفهوم الترادف في دلالاتها، لكنَّه لم

(1) نفسه / 110 .

(2) دراسات في اللغة / 277.

ينص على مصطلح الترادف، وإنما استخدم بعض العبارات التي تدل على الترادف، من ذلك تعقيبه على الكلمات المترادفة التي تؤدي دلالة متساوية في رأيه : (واحد)، و (بمعنى واحد) و (كذلك) و (كل) و (مثلها) و (نحوها)، من ذلك :

" الجَبَابُ والجَدَادُ والجِدَادُ والْجَرَامُ " و "الجِرامُ" و "القِطاعُ" و "القَطاعُ" كلّه الصِّرام[1] .

و "العَذْقُ" النخلة نفسها[2] .

و "عرين الأسد وعرِّيسَتُه" ، واحد[3] .

و "الكَلْكَلُ" الصدر، فأمّا الجُؤْجُؤُ والزَّوْرُ – وهما شيء واحد[4] .

و "الرَّهْبُ والرَّهَبُ والرَّهْبَةُ واحد[5]" .

و "الغمص والرمص واحد . وهو الغمص في العين[6]" .

و "عانشت وعانقت بمعنى واحد[7]" .

و "الجفنة والحثوة شيء واحد[8]" .

و "المثبّت والموطّد واحد[9]" .

---

(1) أدب الكاتب / 102 .

(2) نفسه / 102 .

(3) نفسه / 173 .

(4) نفسه / 173 .

(5) تفسير غريب القرآن / 333 / .

(6) غريب الحديث 1 / 381 .

(7) نفسه 2 / 570 .

(8) نفسه 1 / 570 .

(9) نفسه 2 / 399 .

و "يقال : خذق وذرق وزرق بمعنى[1]" .

و "التُّرفة ونحوها التُّحفة[2]" .

و "الجِذْوة ومثلها الجِذْمة[3]" .

وقد يعقب ابن قتيبة على اللفظتين المترادفتين اللتين تدلان دلالة واحدة بذكر المعنى، نحو قوله :

"الجَريدُ والعُسُبُ "السَّعَفُ[4]" .

و "الكَثَرُ والجَذَبُ : الجُمَّارُ[5]" .

و "الشِّمْراخُ والعِثْكَالُ : ما عليه البُسْرُ[6]" .

و "العُنْظُبُ والخُنْطُبُ : ذكر الجَرَادِ[7]" .

وقد يجمع الألفاظ التي اعتراها التطور الصوتي، ثُمَّ يُعَقِّب على صيغتها المتعددة بالمعنى الذي يجمع بينها، من ذلك قوله :

" امتقع لونه وانتقع واهتقع وابتقع كل هذا إذا تغيّر من حزن أو فزع[8] " .

وقد يعزو الترادف إلى اختلاف لغات القبائل أو اللهجات العربية، من ذلك قوله :

---

(1) نفسه 2 / 425 .

(2) تفسير غريب القرآن / 297 .

(3) نفسه / 332 .

(4) أدب الكاتب / 101 .

(5) نفسه / 101 .

(6) نفسه / 101 .

(7) نفسه / 102 .

(8) غريب الحديث 1 / 486 .

" وأهل الحجاز يسمون الدِّبْس : الصَّقْر[1] " .

و " المخلاف لأهل اليمن كالرستاق لغيرهم[2] " .

ولكنّ ابن قتيبة – وإن أقرّ بوجود الترادف في اللغة – فلم – يوسّع في مفهومه ولم يغال بحدوثه وجَعْلِ كُلٍّ الألفاظ المتقاربة في معانيها من المترادف، وإنَّما التمس الفروق الدلالية بين الألفاظ التي يظن العامَّة أنها من الألفاظ المترادفة، ونبّه على الفروق المعنوية، من ذلك قوله :

"الظّلُّ والفَيْءُ" يذهب الناس إلى أنّهما شيء واحد، وليس كذلك، لأنّ الظل يكون غَدَاةً وعَشيَّةً، ومن أول النهار إلى آخره، ومعنى الظّل السِّتْرُ، ومنه قول النّاس " إنَّا في ظِلِّك" أي : في ذراك وفي سِتْرك، ومنه "ظلُّ الجَنَّة، وظِلُّ شجرها" إنّما هو سِتْرها ونواحيها، وظِلُّ الليل سوادُه، لأنَّه يستر كلَّ شيء ... والفيءُ لا يكون إلاَّ بعد الزوال، لا يقال لما كان قبل الزَّوال فيءٌ، وإنَّما سُمّي فيئاً، لأنَّه ظلٌّ من جانب إلى جانب، أي : رَجَع عن جانب المغرب إلى جانب المشرق، والفيء هو الرُّجوع، قال الله عزَّ وجل ﴿ حتى تفيءَ إلى أمر الله ﴾[3] أي: ترجع إلى أمر الله[4]" .

ومن ذلك " الآل والسَّرابُ " لا يكاد النّاس يَفْرُقُون بينهما، وإنّما الآلُ أولُ النهار وآخرَهُ الذي يرفع كلّ شيء ... وأمّا السَّراب فهو الذي تراه نصف النّهار كأنَّه ماء، قال الله تعالى: ﴿ كَسَرابٍ بقيعةٍ يحْسَبُهُ الظمآن ماء ﴾[5] .

---

(1) أدب الكاتب / 102 .

(2) غريب الحديث 1 / 550 .

(3) الحجرات / 9 .

(4) أدب الكاتب / 26، 27 .

(5) النور / 39 . وأدب الكاتب / 28، 29 .

ومن ذلك " الخَلْفُ والكَذبُ " لا يكاد النّاس يفرقُون بينهما، والكذبُ فيما مضى، وهو أن تقول : فَعَلْتُ كذا، ولم تَفْعلْه، والخلف لِما يُسْتَقبل، وهو أن تقول : سأفعل كذا، ولا تفعله [(1)]" .

ومن ذلك "الفقير، والمسكين" لا يكاد الناس يَفرُقُون بينهما، ... والفقير : الذي له البُلْغَةُ من العيش، والمسكين : الذي لا شيء له... [(2)]" ومن ذلك "الخائن، والسارق" لا يكاد الناس يفْرُقُون بينهما، والخائنُ : هو الذي اؤتمن فأخذ فخان ... والسارق : من سرقك سراً بأي وجه كان . يقال : كلُّ خائن سارقٌ، وليس كل سارقٍ خائناً. . [(3)]" .

ومن ذلك "البخيلُ، واللئيم" يذهب النّاس إلى أنّهما سواء، وليس كذلك، إنّما البخيلُ: الشحيحُ الضّنين، واللئيم : الذي جمع الشُحَّ ومهانة النفس ودناءة الآباء، يقال : كلٌّ لئيم بخيل، وليس كلُّ بخيل لئيماً [(4)]" .

ومن ذلك "الحمد، والشكر" لا يكاد النّاس يَفْرُقُون بينهما، فالحمد : الثناء على الرجل بما فيه من حَسَن، تقول : " حمِدْت الرَّجُلَ " إذا أثنيت عليه بكرم أو حَسَب أو شجاعة، وأشباه ذلك، والشُّكر له : الثناء عليه بمعروفٍ أولاكَهُ، وقد يوضع الحمد موضع الشكر، فيقال : " حمدْتُه على معروفه عندي " كما يقال " شكرت له " ، ولا يوضع الشكر موضع الحمد فيقال : "شكرت له على شجاعته [(5)]" .

ومن ذلك "الجَبْهَةُ والجبينُ، لا يكاد الناس يَفْرُقُون بينهما، فالجبهةُ : مَسْجِدُ الرَّجل الذي

---

(1) أدب الكاتب / 33 .

(2) نفسه / 34 .

(3) نفسه / 35 .

(4) نفسه / 35 .

(5) نفسه / 36 .

يصيبُه نَدَبُ السجود، والجبينان – يكتنفانها، من كل جانب جبينٌ[1]" .

ومن ذلك " الأعجميُّ، والعجميَّ " و " الأعرابيُّ، والعَرَبيُّ " لا يكاد عوامُّ النّاس يفرقون بينهما، فالأعجمي . الذي لا يُفصح وإن كان نازلاً بالبادية، والعجميُّ : منسوب إلى العجم وإن كان فصيحاً، والأعرابيُّ: هو البدويُّ، والعربيُّ: منسوب إلى العرب وإن لم يكن بدوياً[2]" .

ومن ذلك " الهُجْنَةُ، والإقرافُ " في الخيل، لا يكاد الناس يفرقُون بينهما، فالهُجْنَةُ إنما تكون من قِبَل الأمِّ، فإذا كان الأبُ عتيقاً والأم ليست كذلك كان الولد هجيناً والإقراف : من قبل الأب، فإذا كانت الأمُّ من العتاق، والأب ليس كذلك كان الولد مُقْرِفاً[3].." .

لقد كان موقف ابن قتيبة من ظاهرة الترادف معتدلاً يتسم بالمرونة، فهو من جهة أقرَّ بالترادف، لكنّه لم يسرف ولم يبالغ في جعل الألفاظ المتقاربة في معانيها من المترادف، وهذا مبدأ سليم ودقيق، وقد قبل بمبدأ التغير المستمر في الدلالة اللفظية على أن يظل بين اللفظ والمعنى شيء من المواكبة يحول دون حدوث الغموض والإلغاز[4]، وتوخى الحرص على أصل الدلالة اللغوية وتتبع تطورها من ذلك قوله : " والُحشُّ " الكنيف وأصله البستان، وكانوا يقضون حوائجهم في البساتين، فسمي الكنيف حُشّاً[5]" .

و "الكنيفُ" أصله الساتر، ومنه قيل للترس "كنيفٌ" أي : ساترٌ، وكانوا قبل أن تُحْدَثَ الكُنُفُ يقضون حوائجهم في البَرَاحات والصحارى، فلما حفروا في الأرض آباراً تَسْتُر الحدث سمّيت كُنُفاً[6]" .

---

(1) أدب الكاتب / 36.

(2) نفسه / 39، 40.

(3) نفسه / 40، 41.

(4) دراسات في اللغة : 274.

(5) أدب الكاتب / 65.

(6) نفسه / 65.

ويقولون لمن رفع صَوْته " قد رفع عقيرته " وأصله أنَّ رجلاً قطعت إحدى رجْلَيْه فرفعها ووضعها على الأخرى وصرخ بأعلى صوته، فقيل لكل رافعٍ صوته : قد رفعَ عَقيرَته، والعقيرة : الساق المقطوعة [1]" .

ومن ذلك قوله : " وكان بعض أصحاب اللغة يذهب في قول النّاس " خرجنا نتنزَّه " ، إذا خرجوا إلى البساتين إلى الغلط، وقال : إنَّما التَنزّه التباعد عن الماء والريف، قال : ومنه يقال : " فلان يتنزّه عن الأقذار " أي : يُبَاعد نفسه عنها، و " فلانٌ نزيه كريم " إذا كان بعيداً عن اللؤم، وليس هذا عندي غلطاً، لأنَّ البساتين في كل مصر، وفي كل بلد إنما تكون خارج المِصْر، فإذا أراد الرَّجلُ أنْ يأتيها فقد أراد أن يتنزّه، أي : يَبْعُد عن المنازل والبيوت، ثم كثُر هذا واستعمل حتى صارت النزهةُ في الخُضَر والجِنَان [2]" .

ولم يغفل ابن قتيبة أصلَ الدلالة اللغوية، وما وضعت له عرفاً، وتتبَّع تطورها، وأدرك أن طبيعة العربية أن تحسن التفصيل بين المسمّيات وصفاتها ومراتبها وتنوعها ومختلف أصولها، وخاصة عندما يكون لتلك المسميّات من الكثرة والتداخل والتشابه ما قد يوقع في اللبس[3]، وقد فسَّر ابن قتيبة معاني الفروق، وعقد لذلك عدّة أبواب في كتاب " أدب الكاتب " بدأها بذكر فروق في خلق الإنسان " من ذلك قوله : " ظاهرُ جلد الإنسان من رأسه وسائر جسده "البَشَرَةُ" وباطنه "الأَدَمةُ"، والعرب تقول : " فلان مُؤْدَمٌ مُبْشَرٌ " أي : قد جمع لين الأدَمَةِ وخُشُونةَ البَشَرَةَ [4]" .

ومن ذلك: "شخْصُ الإنسان إذا كان قاعداً أو نائماً" جُثَّة" ، فإذا كان قائماً فهو "قامةٌ [5]" .

---

(1) نفسه / 53 .

(2) أدب الكاتب / 38، 39 .

(3) دراسات في اللغة / 275 .

(4) أدب الكاتب / 144 .

(5) نفسه / 144 .

ويقال: " رَجُلٌ مَلْهُوزٌ " : إذا بدا الشَّيْبُ في رأسه، ثم هو "أشْمَطُ" : إذا اختلط السوادُ والبياض، ثم هو "أشْيَبُ"[(1)].

وحرص ابن قتيبة على ذكر الفروق اللغوية، وإطلاق الأسماء على مسمّيَاتها بدقة، فلكل عضو اسمه، مهما دقَّ ذلك العضو وصغر، من ذلك قوله :

و " المُقْلَةُ " شَحْمَةُ العين التي تجمع البياض والسَّواد، والسَّواد الأعظم هو " الَحدَقَةُ " ، والأصغرُ هو "النَّاظرُ" وفيه إنسان العين، وإنَّما النَّاظر كالمرآة إذا استقبلتها رأيت شخصك فيها، والذي تراه في النَّاظر هو شخصك، و " المَأقُ " و " المُؤْقُ " واحدٌ، وهو طرفها الذي يلي الأنفَ، و " اللِّحاظُ " مُؤْخِرهُا الذي يلي الصَّدْغَ ... "[(2)].

ثم أتبعها بذكر " فروق في الأطفال " ، وقال : " ولد كلِّ سَبُعٍ " جَرْوٌ " ، وولد كلِّ ذي ريش "فَرْخٌ" ، وولد كلِّ وحْشِيَّةٍ " طِفْلٌ "[(3)]، ثم فصَّل في كلِّ نوع فقال : " ثم ولد الفرس " مُهْرٌ " و "فَلُوٌ" . وولد الحمار "جحْشٌ" و "عِفْوٌ" و "تَوْلَبٌ" ... إلخ "[(4)].

ثم أتبعها بذكر "فروق في الأصوات" من ذلك قوله : " أزْمَلُ كلِّ شيء : صَوْتُه، و"الجرْسُ" صوتُ حركةِ الإنسان . و "الرِّكْزُ" الصوت الخفيُّ، ونحو ذلك "الهَمْسُ" و"الخَرِيرُ" صوت الماء، و "الغرغَرَةُ" صوت القِدْرِ "[(5)].

وفسّر ابن قتيبة دلالات الأسماء المتقاربة في اللفظ والمعنى، ووضّح الفروق بينها، وعقد لذلك باباً في كتاب " أدب الكاتب " سمَّاه " باب الأسماء المتقاربة في اللفظ والمعنى " قال فيه : "النَّضخ" أكثر من " النّضح ... و "الحَزْمُ" من الأرض : " أرْفَعُ من الحَزْن " ،

---

(1) نفسه / 146.

(2) نفسه / 146.

(3) أدب الكاتب / 154.

(4) نفسه / 154.

(5) نفسه / 160.

و "القبضُ" بجميع الكفِّ، و "القَبْصُ" بأطراف الأصابع [(1)]" .

و "المائِحُ" الذي يَدْخُل البئر فيملأ الدلو، و "الماتِحُ" الذي يَنْزعُها [(2)]" .

وأتبعه بـ (باب نوادِر من الكلام المشتَبه) ، فسّر فيه بعض الكلمات التي تخفى دلالاتها على الكتاب والمثقفين، ووضّح الفروق بينها، من ذلك قوله : " التقريظُ مدح الرَّجل حَيَّاً، و "التَّأبينُ" مَدْحُه مَيّتاً . و "غضِبْتُ لفلان" إذا كان حَيّاً، و "غضِبْتُ به" إذا كان مَيّتاً . و "عقلت المقتولَ" إذا أعطيتَ ديته، و "عَقَلْتُ عن فلان" إذا لَزِمَتْه دِيَةٌ فأعطيتها عنه . . [(3)]" .

و " الغَيْلَمُ " المرأةُ الحسناءُ، بالغين مُعْجَمةً، و " العَيْلَمُ" بالعين غير مُعْجَمةٍ : البِئْرُ الكثيرةُ الماء. . . [(4)]" .

ومن جهود ابن قتيبة الدلالية تفسيره الألفاظ التي تتقارب في اللفظ والمعنى، ووضح الفروق اللغوية بينها، من ذلك قوله : " قالوا : عُظْمُ الشيء . أكثره، و "عَظْمُه" نَفْسُه [(5)]" .

و "الجُهْد" الطّاقة، تقول : " هذا جُهْدِي " أي : طاقتي، والجَهْدُ "المشَقَّةُ [(6)]" .

و "عَدْلُ الشيء" بفتح العين : مِثْلُه، قال الله سبحانه ﴿أو عَدْلُ ذلك صياماً﴾ [(7)] و "عِدْلُ الشيء" بكسر العين: زِنَتُه [(8)]" .

---

(1) نفسه / 200 .

(2) نفسه / 202 .

(3) نفسه / 202 .

(4) نفسه / 204 .

(5) نفسه / 307 .

(6) أدب الكاتب / 308 .

(7) المائدة / 95 .

(8) أدب الكاتب / 309 .

و " السَّكْنُ " " أهل الدّار، و " السَّكَنُ " "ما سكنت إليه[1]" .

ووضح الفروق بين الألفاظ التي تتقارب في النطق وتختلف في المعنى، من ذلك :

" الرُّمة " القطعة من الحبل، و " الرِّمَّة " العِظام البالية [2]" .

و " السَّلْمُ "الدَّلْوُ لها عُرْوَةٌ، و "السَّلْمُ" السلح و " السِّلْمُ" أيضاً، و "السَّلَم" السَّلف، يقال : أسْلَم في كذا أي : أسْلَفَ فيه، و " السَّلَم " الاستسلام. . . [3]" .

ووضّح الفروق بين معاني المصادر المختلفة عن الفعل الواحد، من ذلك قوله : " قالوا : وجَدْتُ في الغضب "مَوْجِدَةً" ووَجَدْتُ في الحزن " وَجْداً " ووجَدْتُ الشيء " وِجداناً ووُجوداً " وافتقر فلان بعد "وُجدٍ" أي سعة [4]" .

ووضّح الفروق بين الأفعال المتقاربة في صيغها والمختلفة في معانيها، من ذلك قوله : "عَلَوْتُ في الجبل عُلُوّاً، و "عَلِيتُ" في المكارم عَلاَءً [5]" .

و " قلوْت اللحم والبَسْرَ " و " قَلَيْتُ الرَّجل " أبغَضْتُه[6] .

ووضح الفروق الدلالية بين الأفعَال المهموزة وغير المهموزة، من ذلك قوله :

"أعال الرَّجل" إذا كثر عيالُه، و "عَالَ يعيلُ" إذا افتقر، و "عال يعول" إذا جار، قال الله عزَّ وجلّ : ﴿ ذلك أدْنى ألاّ تعُولُوا ﴾ [7] .

---

(1) نفسه / 311.

(2) نفسه / 322.

(3) نفسه / 323.

(4) نفسه / 333.

(5) نفسه / 344.

(6) نفسه / 344.

(7) النساء / 3، وأدب الكاتب / 355.

و " ضَرَبت في الأرض " تَباعَدْتُ، و " أضرَبْتَ عن الأمر "أمسكت "[1] .

ووضَّح الفروق الدلالية بين الأفعال المهموزة التي تأتي بمعنى، والأفعال غير المهموزة التي تأتي بمعنى آخر، من ذلك قوله : "صَبَأتَ" يا رجل، إذا خرجت من شيء إلى شيء، و"الصابئون" منه، و"صَبَوْت إلى فلانة" أصبو من الشوق "[2] . و"كفأت الإناءَ" قلبتُه، و"أكفأته" أيضاً لغةٌ، و"كفَيْتَك ما أهَمَّك"[3] .

لقد مثل ابن قتيبة موقف العالم المتزن، وأدرك العلاقة المتلازمة بين اللفظ والمعنى، وأن الألفاظ تتطور دلالاتها بما يتلاءم وأعراف البيئات أو أذواق العصور، فهو – وإن أقر بوجود ظاهرة الترادف في اللغة – لم يبالغ في قبول هذه الظاهرة، وحاول التماس الفروق الدلالية بين مختلف الصيغ، وحدد استعمالاتها بدقة، مبيناً أن الألفاظ تكتسب دلالات جديدة عن طريق المجاز أو النقل أو الصفة أو النسبة، متوخياً الوقوف على أصل الدلالة اللغوية، متتبعاً تطورها، مفصِّلاً بين المسميات وصفاتها ومراتبها وتنوعها ومختلف أصولها .

(د) موقف المحدثين من الترادف:

اشترط المحدثون لقبول الترادف الاتفاق في المعنى بين الكلمتين اتفاقاً تاماً، بحيث تتطابقان تمام المطابقة، ولا يشعر أبناء اللغة بأي فرق بينهما، ولذا يبادلون بحريّة بينهما في كل السياقات، والاتحاد في البيئة اللغوية، أي أنْ تكون الكلمتان تنتميان إلى لهجة واحدة، كما يشترطون الاتحاد في العصر، أي أن تكون الكلمتان تنتميان إلى عصر واحد . فإذا بحثنا عن الترادف يجب ألا نلتمسه في شعر شاعر من الجاهليين ثم نقارن كلماته بكلمات وردت في الشعر الحديث مثلاً . وألا يكون أحد اللفظين نتيجة تطور

---

(1) أدب الكاتب / 362.

(2) نفسه / 365.

(3) نفسه / 366.

صوتي للفظ آخر. . [1]

ولم يختلف المحدثون مع القدامى في إدراكهم أسباب نشأة الترادف، ومن هذه الأسباب:

العامل اللهجي، فقد تتعدد أسماء الشيء الواحد في اللهجات المختلفة، وقد تطلق أكثر من قبيلة على الشيء الواحد اسماً يعرف به، وقال السيوطي: " تضع إحدى القبيلتين أحد الاسمين، والأخرى الاسم الآخر للمسمّى الواحد، من غير أن تشعر إحداهما بالأخرى، ثم يشتهر الوضعان ويخفى الواضعان، أو يلتبس وضع أحدهما بوضع الآخر، وهذا مبني على كون اللغات اصطلاحيّة [2]" .

ويقول الدكتور مسعود بوبو: " إذا كانت اللغة من وضع البشر كان لكل قبيلة مسمّيات شاعت واتفق عليها في بيئتها الخاصة، وباختلاط القبائل وسيرورة الأحاديث ورواية الأشعار انتقلت تلك المسميات الخاصة وعرفت في قبائل أخرى، والأمانة العلمية تقتضي مراعاة هذا والاحتفاظ لكل قبيلة بحقها في تسميتها، إذ في إغفال لهجتها تقليل من شأن أصحابها أو عدم اعتداد بلغتهم [3]" .

وقد أدرك ابن قتيبة العامل اللهجي، وعزا بعض الألفاظ المترادفة إلى اختلاف لغات القبائل أو اللهجات العربية [4] .

ومن أسباب الترادف أيضاً تحول الصفات للمسمّى الواحد إلى العلمية، ثم باستعمال هذه الصفات محلّ الأسماء في العربيّة وغيرها من اللغات، ويقول الأستاذ محمّد المبارك:

---

(1) دراسات في اللغة / 283 وانظر ص 277، وفي اللهجات العربية / 178-179، وعلم الدلالة / 220 وما بعدها، وفصول في فقه العربية / 284-286.

(2) المزهر 1 / 405-406.

(3) دراسات في اللغة / 278.

(4) ينظر ص /377/ من هذه الرسالة .

إنّ للشيء المسمّى وجوهاً وصفات كثيرة، ويمكن أن يسمى بأكثر من صفة من صفاته، وأن يشتق له من الألفاظ كلماتٍ متعددة تبعاً لتلك الوجوه والصفات . ومن هنا ينشأ الترادف، وهو تعدد اللفظ للمعنى الواحد، وهو عكس الاشتراك، وهذا هو أبرز أسباب نشوئه وظهوره في جميع اللغات "[1] .

ويقول الدكتور حسن ظاظا : " ويلحق بهذه الظاهرة ما يبتكره الأدباء من ألفاظ وصفات، وتحميلها معاني شعرية أو فنيّة، ينوعون بها الجرس الموسيقي، أو يأتون بها الواحدة تلو الأخرى للتأكيد، أو للإطراف وإظهار البراعة، أو للسجع .. الخ . فمن ذلك تسمية السماء، القبة الزرقاء، والجرباء (لأنها تبدو وفيها بقع بيض من النجوم) . وتسمية الأرض : الغبراء، والبسيطة، والأديم، والثرى . وتسمية الحب الهوى، والغرام، والعشق والوجد ... "[2] .

فللشيء الواحد في الأصل اسم واحد، وقد يوصف بصفات مختلفة، ثم يتناسى الوصف مع مرور الزمن، ويصبح اسماً للشيء، من ذلك تسمية الأسد : العبّاس، من "العبوس" وتسمية السيف، الفيصل، والمهنّد، واليماني، والحسام، وعلى هذا النحو يمكن تعليل الكثرة الكاثرة من المترادفات أو الأسماء التي تطلق على الداهية، والرماح، والرياح، والجمل، والعسل، والخمر، والذهب، والظباء، والقفر (من بيداء، وصحراء، وبادية، وموماة، ومفازة ...) والذئب من (ذئب وأوْس وسرحان وسبع وسِيْد، وأطلس، وذؤالة [3])، فهذه الصفات نابت عن الاسم الأصلي في التعبير عن هذا المسمّى، وانتهت بأن أصبحت مرادفة له .

ومن أسباب التَّرادف أيضاً أن تدخل كلمات من اللغات الأخرى إلى العربية الأصل في

---

(1) فقه اللغة / 199-200.

(2) كلام العرب من قضايا اللغة العربية / 105.

(3) دراسات في اللغة / 280.

الشعر وفي الأدب عامة، وفي المعاجم، ويقول الدكتور حسن ظاظا : و " يتصل بهذا أن تكون في اللغة لفظة لمعنى من المعاني، ثم تأتيها – من لغة أجنبية – ألفاظ بنفس المعنى، فتأخذ مكانها في المترادف . فمن ذلك "الخمر" وهي الكلمة العربيّة العامة للشراب المسكر، ثم نجد بجانبها "الإسفنط" و "الخندريس" من أصل يوناني، ونجد "الصهباء" في العربية، وهي الخمر الصفراء اللون، إذ "الأصهب" هو الأشقر تقريباً، ثم تأتي لفظة "الزرجون" من الفارسية : "زر" أي ذهب، و "كون" أي لون، فتأخذ مكانها في مجوع المترادفات الدالة على الخمر أيضاً . . . [1]" .

فهذه الألفاظ اقتُرِضت من اللغات الاجنبية، ودخلت العربية، وشاع استعمالها، وأصبحت من المترادفات، ويقول الدكتور مسعود بوبو " ويسلك في هذا أيضاً البدائل الدخيلة للمسمّى الواحد، مع معرفة العرب بأن هناك تسمية أصيلة، وأخرى دخيلة كالمسك عوضاً من المشموم أو الياسمين والسَّمْسَق، أو السَّجَنجَل والمرآة، أو الياطية والرَّاووق، أو الأسطوانة مكان السارية أو اللائطة، أو الخيار مكان القَتَد، أو الإبريق مكان التامورة . . ومنه كذلك لفظة المثل، والنّموذج والنمط بمعنى واحد، والنموذج والنمط دخيلان، بينما المثل والغرار من العربية .

كل هذا وأمثاله يؤدي بدورانه على الألسنة ولهج النّاس به إلى أن يصنّف مع الترادف بمرور الزمن [2]" .

وقد أدرك ابن قتيبة عامل الدخيل، وقد عزا بعض الألفاظ المترادفة إلى دخول الألفاظ من اللغات الأخرى إلى العربية، من ذلك قوله : "الزرجون" الخمر، وأصله بالفارسية زرْكون، أي لون الذهب، و "الخَنْدريس" الخمر، و "الإسفَنطُ" و "الإسْفَندُ" الخمر. . . و"السَّجَنْجَل"

---

(1) كلام العرب / 104، 105 .

(2) دراسات في اللغة / 280 .

المرآة، بالرُّوميّة فيما أحسبه، و "البَرَنْساء" الخَلْقُ، وأصله بالنَّبطية ابن الإنسان . . .[(1)]" .

ومن أسباب الترادف عامل التطور اللغوي في اللغة الواحدة، فقد يؤدي تطور بعض أصوات الكلمة أو إبدال بعض حروفها إلى نشوء صورة أخرى لها، عدّها بعض اللغويين من قبيل المترادف للاسم الواحد، من ذلك ما نقل عن الأصمعي البشاشة والهشاشة : انطلاق الوجه وكثرة البِشْر، يقال :لقيناه فهش بنا وبشَّ بنا، وقد هششت يا رجل تهَشُّ هشاشة وبَشِشْتَ تَبَشُّ بَشَاشةً، وهما واحد[(2)]" ومنه : "يقال : بنات مَخْر وبنات بَخْرٍ، وهن سحائب يأتين قُبُلَ الصَّيفِ بيضٌ، منتصبات في السَّماء . . .[(3)]" .

ومنه " يقال : ماءٌ آجن وآجم[(4)]" .

فهذه الأمثلة وغيرها تصنف في الترادف، وبصرف النظر عن كون الإبدال اللغوي بسبب اتفاق الحروف في المخرج أم لعلة أخرى، ويقول الدكتور مسعود بوبو : "وثمة أمثلة أخرى كثيرة تتوزعها كتب النحو واللهجات والقراءات والمعاجم تستعصي على الحصر أو قل لم تُستَوْفَ إلى الآن في اللغة العربيّة، فإذا أغفلنا الجانب الصوتي عُدَّ كله في الترادف، لكن ما من شك في أنّ كثيراً من هذه الأمثلة لا يعدو أن يكون من آثار السمع وعيوب النطق، وأنّ الأصل في مثل هذه المترادفات واحد، ولكنه ضاع - بمرور الزمن - وصار شائعاً بنطقين أو أكثر، وتلك مسألة نشهد نظائر لها في الكلمات الدخيلة المعرَّبة بأصوات عربيّة نحو إسرائيل وإسرائين، وإِسْرَال . . .[(5)]" .

وقد أدرك ابن قتيبة أثر التطور اللغوي في حدوث الترادف، وذكر بعض الأمثلة التي

---

(1) أدب الكاتب / 495.

(2) الإبدال، لأبي الطيّب اللغوي / 88.

(3) الإبدال، لابن السكيت / 70.

(4) نفسه / 78.

(5) دراسات في اللغة / 281.

تدل على نشوء صيغ متعددة للدلالة على معنى معين، وقد يكون الإبدال اللغوي، والتطور الصوتي لبعض حروف تلك الصيغ هو الذي أدى إلى ترادف تلك الألفاظ .

لقد وقف ابن قتيبة من ظاهرة الترادف موقفاً معتدلاً فهو – وإن أقر بوجودها، ودرج على شرح اللفظة بالأخرى، وعدّ بعض الألفاظ من قبيل الترادف، فهي تتساوى في الدلالة على معنى من المعاني، لكنه لم يبالغ في جعل جميع الألفاظ المتقاربة الدلالة من قبيل الترادف، وإنما حاول التماس الفروق الدلالية لها، تحرياً للدقة، ودفعاً للتداخل والتشابه الذي قد يوقع في اللبس .

ثانياً : المشترك اللفظي :

(أ) **تعريفه** : جاء في المزهر – هو "اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة [1]" ، أي هو ما اتحدت صورته واختلف معناه، على عكس المترادف، فوجود معنيين أو أكثر للفظ الواحد يجعل تلك الألفاظ مشتركة في قضية واحدة، ومن هنا جاءت التسمية التي أصبحت مصطلحاً [2] .

(ب) المشترك بين إنكاره والإقرار به :

أثارت قضية العلاقة بين اللفظ والمعنى اهتمام علماء اللغة منذ زمن مبكر، وهل للّفظ معنى مستقل؟ وهل يحتمل بعض الأسماء معنيين وأكثر ؟

وقال الجاحظ : " وقال من علم : حقُّ المعنى أن يكون الاسم له طبقاً، وتلك الحال له وفقاً ويكون الاسم له لا فاضلاً ولا مفضولاً ولا مقصِّراً ولا مضمَّناً [3]" .

فالجاحظ قيّد الاسم بالمسمّى وقصره عليه، وأنّ اللفظ لا يحتمل إلاّ معنى واحداً فالسين

(1) المزهر 1/ 369.

(2) دراسات في اللغة/ 283.

(3) البيان والتبيين 1/ 64.

والياء والفاء كلمة تدل على معنى السيف . وألاّ نعدّ الحسام والمهند وغيرها من الألفاظ التي تترجم معنى السيف، وأن نعبّر بالعين والياء والنون عن العين المبصرة وحدها، فلا نشرك معها بهذه الأحرف عين الماء والجاسوس، وبذلك يتساوى عدد الألفاظ وعدد المعاني .

ولم يقبل بعض علماء اللغة هذا التفكير اللغوي، وردوا عليه بتصور آخر، وقال الإمام الرازي" لا يجب أن يكون لكل معنى لفظ، لأنّ المعاني التي يمكن أن تُعقَل لا تتناهى، والألفاظ متناهية، لأنّها مركّبة من الحروف، والحروف متناهية، والمركّب من المتناهي متناهٍ، والمتناهي لا يضْبطِ ما لا يتناهى، وإلاّ لزم تناهي المدلولات[(1)]" .

ومن هنا كان لا بدّ من المرونة في قبول ظاهرة الاشتراك في اللغة للتعبير عن كل ما يحتمله الكلام من وجوه المعاني، فالمشترك واقع ملموس، ووسيلة من وسائل التعبير باللفظ الواحد عن المعاني العديدة .

والأكثرون من علماء اللغة قالوا : إن المشترك اللفظي واقع في اللغة، ومنهم من أفرد لظاهرة الاشتراك في اللغة كتاباً خاصّاً كالأصمعي الذي ألف كتاباً بعنوان "ما اتفق لفظه واختلف معناه[(2)]" ، واليزيدي الذي ألف كتاباً بعنوان "ما اتفقت ألفاظه واختلفت معانيه[(3)]" ، وألف المبرد كتاباً سماه " ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد[(4)]" ، جمع فيه الألفاظ المشتركة في القرآن المجيد .

ومنهم من تعرّض لهذه الظّاهرة في تضاعيف كتبه اللّغوية، ومثَّل لها كالخليل[(5)]

---

(1) المزهر 1 / 41.

(2) نشر الكتاب بتحقيق امتياز علي عرشي سنة / 1938م .

(3) الفهرست / 75.

(4) نشر الكتاب بتحقيق عبد العزيز الميمني سنة / 1350هـ .

(5) العين 1 /227، 262 .

وسيبويه [1] وأبي عبيدة [2]، وأبي زيد [3] وابن السكيت [4] وابن قتيبة .

واعترف به ابن فارس، ومثل له (بالعين) و (قضى [5])، ونبّه ابن جني، على حروف وأسماء وأفعال لم يقتصر بها على معنى واحد، لأنّها "اتفق لفظها واختلف معناها [6]" .

وروى العلماء المفسرون الذين أقروا بظاهرة الاشتراك عدداً من الأمثلة والأساليب التي تؤيد وجود هذه الظاهرة، ويقول الطبري وهو يعلق على لفظة (الحفدة) في قوله تعالى : ﴿ وبنين وحفدة ﴾ [7] . الحفدة : الخدم والأعوان . وقيل بنو المرأة من غير زوجها، وقيل : الأصهار. وأصل الحفدة : مداركة الخطر والإسراع في المشي، وإنما يفعل هذا الخدم . ويقال في دعاء الوتر : (وإليك نسعى ونحفد)، أي نسرع . ويعلق الطبري بقوله : لم يدل الله بظاهر تنزيله، ولا على لسان رسوله، ولا بحجة عقل، على أنه عنى بذلك نوعاً من الحفدة دون نوع، وهذا من فضل الله علينا ومن نعمه : فالكل داخل، إذ له وجه في الصحة ومخرج في التأويل [8]" .

وقال الشريف المرتضى متعرضاً لظاهرة الاشتراك : "وليس يجب أن يستبعد حمل الكلام على بعض ما يحتمله إذا كان له شاهد من اللغة وكلام العرب، لأنّ الواجب على من يتعاطى تفسير غريب الكلام والشعر أن يذكر كلّ ما يحتمله الكلام من وجوه المعاني،

---

(1) الكتاب 1 / 8 .

(2) مجاز القرآن 1 / 238 .

(3) النوادر / 207 .

(4) تهذيب الألفاظ / 186 .

(5) الصاحبي / 171 .

(6) الخصائص 3 / 110 .

(7) النحل / 72 .

(8) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة / 246، 247، وتفسير الطبري 14 / 98 .

فيجوز أن يكون أراد المخاطب كل واحد منهما منفرداً وليس عليه العلم بمراده بعينه، فإن مراده مغيب عنه، وأكثر ما يلزمه ما ذكرناه من ذكر وجوه احتمال الكلام[1]" .

ومن العلماء من ردّ المشترك، ولم يسلّم بوقوعه في اللغة، وقد تأول المنكرون لوجود المشترك اللفظي في اللغة ما جاء من أمثلته على المجاز، وأنه أتى من اختلاف التصاريف ومخالفة بنية الكلمة من اختلاف المصادر .

ومن هؤلاء العلماء الذين أنكروا هذه الظاهرة ابن درستويه الذي يقول وهويعلق على كلمة (وجد) : "هذه اللفظة من أقوى حجج من يزعم أنّ في كلام العرب ما يتفق لفظه ويختلف معناه، لأن سيبويه ذكره في أول كتابه، وجعله من الأصول المتقدمة، فظن من لم يتأمل المعاني ولم يتحقق الحقائق أن هذا لفظ واحد قد جاء لمعان مختلفة، وإنّما هذه المعاني كلها شيء واحد، وهو إصابة الشيء خيراً كان أو شراً[2]" .

فقد أعاد ابن درستويه ألفاظ المشترك اللفظي إلى أصل دلالي واحد يحمل معنى عاماً تتفرع منه معانٍ أخرى وهي إصابة الشيء خيراً كان أو شراً، فالمعاني كلها في لفظة (وجد) عنده، إنَّما هي لشيء واحد، ولكن فرقوا بين المصادر، لأنّ المفعولات كانت مختلفة . فجعلوا الفرق في المصادر بأنّها أيضاً مفعولة .

ويقول ابن درستويه : " والمصادر كثيرة التصاريف جداً، وأمثلتها كثيرة مختلفة، وقياسها غامض، وعللها خفية، والمفتشون عنها قليلون، والصبر عليها معدوم، فلذلك توهم أهل اللغة أنّها تأتي على غير قياس، لأنهم لم يضبطوا قياسها ولم يقفوا على غورها[3]" .

ويقول الدكتور مسعود بوبو معلّقاً على قول ابن درستويه : " ويعني هذا أنَّ علماء

---

(1) أمالي المرتضى 1/18، 19 .

(2) المزهر 1/384، والكتاب لسيبويه 1/ 15 .

(3) نفسه 1/ 384 .

اللغة لو وقفوا على الأصول، أو تدبروها بالتثبت من أحوالها وما طرأ عليها لكانوا تبينوا حقائقها قبل أن تتأتى لهم على الصورة التي انتهت إليها أو استقرت عليها الآن بما يتفق ومقولة المشترك اللفظي .

أمّا من حاول ذلك منهم فقد تهدّى إلى أنّ الأصل واحد في أساس الوضع، أو ترجّح لديه أنّه كذلك، ولكنه نُقِل إلى معنى آخر وكَثُر استعماله فيه عند أصحابه حتى صار بمنزلة الأصل [1]" .

ولم ينكر ابن درستويه المشترك اللفظي مطلقاً وإنما أقر بمجيء النادر منه لعلل، منها اختلاف اللهجات، أو لما يقع في الكلام من حذف أو اختصار، وقال : " ولكن يجيء الشيء النادر من هذا لعلل . . . وإنما يجيء ذلك في لغتين متباينتين أو لحذف واختصار وقع في الكلام [2]" .

والحقيقة أنَّ الاشتراك ظاهرة شائعة في لغتنا العربية، لا سبيل إلى إنكارها، ولكن ينبغي النظر إليها بروية وإمعان واعتدال، فلا نبالغ في قبولها بلا ضابط ولا معيار، ولا نسرف بالقول بمنعها وعدم وقوعها في لغتنا .

(ج) موقف ابن قتيبة من المشترك اللفظي :

أقر ابن قتيبة بوجود ظاهرة الاشتراك اللفظي في اللغة، وأفرد لها باباً في كتاب " تأويل مشكل القرآن" سمّاه (باب اللفظ الواحد للمعاني المختلفة [3]) تناول فيه (44) لفظة مشتركة، كما عقد في كتاب " أدب الكاتب ثلاثة أبواب، الأول : بعنوان (باب أسماء يتفق لفظها وتختلف معانيها [4])، والثاني : (باب الحرفين اللذين يتقاربان في اللفظ وفي

(1) دراسات في اللغة / 286.

(2) المزهر 1 / 385.

(3) تأويل مشكل القرآن / 439.

(4) أدب الكاتب / 299.

المعنى، ويلتبسان فربما وضع النّاس أحدهما موضع الآخر[1])، والثالث : (باب الحروف التي تتقارب ألفاظها وتختلفِ معانيها[2]) . كما تعرّض لها في تضاعيف كتبه وتناولها بدقة في المسألة العاشرة من كتاب " المسائل والأجوبة" أجاب فيها عن سؤال موجّه إليه وحدده بقوله : (وسألت عما يحتمل من الأسماء معنيين وأكثر وما لا يحتمل إلاّ معنى واحداً ؟[3]) . . . وذكر في الجواب عدداً من الألفاظ المشتركة . وتناول هذه الظاهرة عند شرحه ألفاظ القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر .

ولكن ابن قتيبة لم يصرّح بذكر المصطلح أثناء معالجته ظاهرة المشترك اللفظي، وإنما يشير إليها إشارة واضحة ينص فيها على إقراره بوجودها، من ذلك قوله في جوابه على المسألة العاشرة : سألت عمّا يحتمل من الأسماء معنيين وأكثر .

... وهذا كثير فمن ذلك : هي الأرض التي نحن عليها، والأرض الزكام . يقال : رجل مأروض إذا كان مزكوماً، والأرض الرعدة . وقال ابن عبّاس : أزلزلت الأرض أم بي أرض ؟ أي رعدة . والأرض قوائم الفرس – قال الشاعر :

ولـم يقلّـب أرضهـا البيطـار[4]

أي قوائمها[5] .

ومن ذلك القَرْن وهو الخُصلة من الشعر، والقرن العَفْلة في الجارية، والقَرْنُ دَفْعَةٌ من عَرَق الفرس، والقَرْنَ الجبل الصغير، والقَرْنُ حاجب الشمس، والقرن قرن الثّور، والقَرْن قرْن

---

(1) نفسه / 307.

(2) نفسه / 322.

(3) المسائل والأجوبة / 51.

(4) البيت لحُمَيْد الأرقط، وهو حميد بن مالك بن ربْعي التميمي، والبيت في اللسان (أرض) .

(5) المسائل والأجوبة / 51، 52.

الإنسان في السِّن، والقرن يقال ثمانون سنة[1] .

ومن ذلك العَرْضُ هو الجبل، والعَرْض الجيش، والعرض خلاف الطّول، والعرض السعة . ومن ذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وجنّة عرضها السَّموات والأرض [2]﴾ أي سعتها . ومن ذلك تقول العرب : "وفي الأرض العريضة مذهب [3]" لا يريدون العرض الذي هو خلاف الطول إنما تراد السعة [4]" .

وقد يكتفي بجمع ألفاظ المشترك اللفظي من خلال شرحه للألفاظ، من ذلك قوله : (السلطان) هو الملك والقهر، فإذا لم يكن ملك ولا قهر فهو : بمعنى حجة وبرهان[5] واستشهد بقوله تعالى : ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين﴾ [6]، وقوله تعالى : ﴿ فليأت مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطانٍ مبينٍ﴾ [7] .

وقد يشير إلى تعدد المعنى المختلف للفظة بكلمة (أيضاً) و (كذلك)، نحو قوله : (شِعَارُ القوم في الحرب) "بالكسر"، و "الشِّعارُ ما وَلِي الجلْد من الثياب بالكسر أيضاً [8]" .

و "الْوَكْفُ البَيْتُ، و "الْوَكْفُ أيضاً النِّطَعُ، و "الوَكَفُ" الإثم، و "الوَكَفُ" العَيْبُ، قال :

الحافِظو عورة الْعَشِيرةِ لا يأتيهمْ من ورائِهمْ وَكَفُ[9]

---

(1) نفسه / 52 .

(2) آل عمران / 133 .

(3) ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة / 111، ومجمع الأمثال 2 / 452 .

(4) المسائل والأجوبة / 52، 53 .

(5) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة 247 .

(6) هود / 96 .

(7) الطور / 38 .

(8) أدب الكاتب / 322، 323 .

(9) نسبه الجواليقي لعمرو بن امرئ القيس الخزرجي، في شرح أدب الكاتب، وينظر أدب الكاتب / 324 .

وقد يجمع ابن قتيبة ألفاظ المشترك اللفظي في باب يشير إلى الظاهرة، كما فعل في تأويل مشكل القرآن، و "أدب الكاتب" .

والتفت أثناء معالجته ألفاظ المشترك اللفظي إلى ذكر الأصل الدلالي للفظة، وما يتفرع منها من معانٍ أخرى، وقد يعيد الدلالات المتفرعة من الأصل وينص على ذلك بقوله : "هذه كلها فروع ترجع إلى أصل واحد"[1] ، ولا شك أنّ ابن قتيبة يعد رائداً من رواد علم اللغة، حاز قصب السبق برد مفردات المادة اللغوية، إلى أصولها المعنوية المشتركة، والباب الذي عقده في كتاب "تأويل مشكل القرآن" وهو بعنوان "باب اللفظ الواحد للمعاني المختلفة" يعد باباً عظيم القدر، بالغ الأهمية، وقد تحدث فيه عن نيف وأربعين لفظاً من الألفاظ التي جاءت في القرآن الكريم متحدة المباني، مختلفة المعاني، كالقضاء، والبلاء، والأمة، والرؤية، والإمام، والإسلام، والفتنة، والسلطان، والضلال، والنسيان، والحساب، والكتاب .... الخ .. ولهذا الباب قيمة تاريخية في علم اللغة عند العرب، فقد أرجع ابن قتيبة المعاني المختلفة للفظ الواحد، إلى أصل مشترك صدرت عنه، وتفرعت عليه . ومن أمثلة ذلك مادة "قضى" إذ يقول فيها :

أصل قضى . حتم. كقول الله عزّ وجل : ﴿ فيمسكُ التي قضى عليها الموت ﴾[2] أي حتمه عليها، ثم يصير الحتم بمعان، كقوله : و ﴿ قضى ربُّك ألاّ تعبدوا إلا إياه ﴾[3] ، أي أمر، لأنه لما أمر حتم بالأمر، وكقوله : ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب ﴾[4] ، أي أعلمناهم، لأنَّه لما خبرهم أنهم سيفسدون في الأرض، حتم بوقوع الخبر . وقوله :

---

(1) تأويل مشكل القرآن / 442 .

(2) الزمر / 42 .

(3) الإسراء / 23 .

(4) الإسراء / 4 .

﴿ فقضاهن سبعَ سماوات ﴾[1]، أي صنعهُنَ .

وقوله : ﴿ فاقض ما أنت قاض ﴾[2]، أي فاصنع ما أنت صانع .

ومثله قوله : ﴿ فأجْمِعُوا أمركمْ وشركاءكم ثم لا يكنْ أمرُكم عليكم غُمَّة ثم اقضوا إليَّ ﴾[3]، أي اعملوا ما أنتم عاملون ولا تُنْظِرون .

قال أبو ذؤيب :

وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صَنَعُ السَّوابغِ تُبَّعُ [4]

أي صنعها "داود" و "تُبَّع" .

وقال "الآخر" في عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – :

قضيت أموراً ثم غادرت بَعْدَها بوائِجَ في أكمامِها لم تفتَّقِ [5]

أي عملت أعمالا، لأنّ كلَّ من عمل عملاً وفرغ منه فقد حتمه وقطعه .

ومنه قيل للحاكم : قاض، لأنه يقطع على النّاس الأمور ويحتم . وقيل : قُضِي قَضَاؤك . أي فرغ من أمرك . وقالوا للميت : قد قضى : أي فرغ . وهذه كلها فروع ترجع إلى أصل واحد[6]" .

---

(1) فصلت / 12 .

(2) طه / 72 .

(3) يونس / 71 .

(4) ديوانه / 19 .

(5) البيت للشماخ بن ضرار، حماسة أبي تمام 3 / 101 .

(6) تاويل مشكل القرآن / 441-442 .

لقد رأى ابن قتيبة أن الأصل الدلالي لمادة "قضى" هو : حتم، ثم تطوّرت دلالتها إلى معان أخرى، كأمر، وعلم، وصنع، وعمل، وقطع، وفرغ، وإن استعمال اللفظ بأكثر من معنى يدل على أنّه من المشترك اللفظي .

ثم ذكر لفظة "الهدى" وقال : "أصل هدى" : أرشد، كقوله ﴿عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾ [1]، ثم يصير الإرشاد بمعان، كقوله : ﴿وأمّا ثمود فهديناهم﴾ [2] أي بيّنا لهم.. ومنها إرشاد بالدعاء كقوله: ﴿ولكل قوم هاد﴾ [3]، أي نبي يدعوهم... ومنها إرشاد بالإلهام كقوله : ﴿الذي أعطى كلَّ شيءٍ خلقه ثم هدى﴾ [4] أي صورته من الإناث، ثم هدى، أي ألهمه إتيان الأنثى .. ومنها إرشاد بالإمضاء، كقوله : ﴿وإنّ الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ [5] أي لا يمضيه ولا ينفذه، ويقال : لا يصلحه، وبعض هذا قريب من بعض" [6] .

ومن الألفاظ المشتركة الأخرى التي ذكرها في هذا الباب : الأمة والعهد والإلُّ والقنوت والدِّين والمولى والضلال والإمام والصلاة والكتاب .

وقال في لفظة الكتاب : " أصل الكتاب : ما كتبه الله في اللوح ممّا هو كائن " .

ثم تتفرّع منه معان ترجع إلى هذا الأصل كقوله : ﴿ كتب الله لأغْلبَنَّ أنا ورُسلي ﴾ [7] أي : قضى الله ذلك وفرغ منه ...

---

(1) القصص / 22 / .

(2) فصّلت / 17 .

(3) الرعد / 7 .

(4) طه / 50 .

(5) يوسف / 52 .

(6) تاويل مشكل القرآن / 444 .

(7) المجادلة / 21 .

ويكون كُتب بمعنى فُرض، كقوله : ﴿ كُتِبَ عليكم القصاصُ ﴾ [1]، أي فُرِض .

ويكون كَتَبَ بمعنى جَعَل، كقوله : ﴿ كَتَبَ في قلوبهم الإيمان ﴾ [2] .

ويكون كتب بمعنى أَمَر، كقوله : ﴿ادخلوا الأرض المقدّسة التي كتب الله لكم ﴾ [3]، أي أمركم أن تدخلوها .

ويقال : كتب ههنا أيضاً : جعل. يريد ادخلوا الأرض التي كتبها الله لولد إبراهيم، عليه السلام، أي جعلها لهم... [4]" .

ثم ذكر السبب والحبل، وقال : " السبب أصله : الحبل . ثم قيل لكل شيء وصَلْت به إلى موضع، أو حاجة تريدها : سَبَبٌ . تقول : فلان سببي إليك، أي وصلني إليك . وما بيني وبينك سبب، أي آصِرَة الرحم، أو عاطفة مودّة . ومنه قيل للطريق : سَبَبٌ، لأنك بسلوكه تصل إلى الموضع الذي تريده، قال الله عزَّ وجل :﴿ فأتبع سبباً ﴾ [5]، أي : طريقاً .. [6]" .

ومن الألفاظ المشتركة التي ذكرها : الظلم والبلاء والرجز والرجس والفتنة والفرض والخيانة والإسلام والإيمان والضر والحَرَج والرُّوح والنَّار والحمل والوحي .

وقال في الوحي : " الوحي : كل شيء دللت به من كلام أو كتاب أو إشارة أو رسالة . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح ﴾ [7]، وقال : ﴿ وأوحى إليَّ هذا

---

(1) البقرة / 87.

(2) المجادلة / 22.

(3) المائدة / 21.

(4) تأويل مشكل القرآن / 462، 463.

(5) الكهف / 85.

(6) تأويل مشكل القرآن / 464.

(7) النساء / 163.

القرآن لأنذِركُمْ به ﴾ [1]، فهذا إرسال جبريل بالقرآن .

وقال : ﴿ فأوحى إليهم أن سَبّحوا بُكرَةً وعشيّا ﴾ [2]، أي أشار إليهم وأومأ ...

والوحي : إلهام، كقوله : ﴿ وإذ أوحْيتُ إلى الحواريّين ﴾ [3] و ﴿ أوحى ربك إلى النحل ﴾ [4] . أي ألهمها .

والوَحْيُ : إعلام في المنام، كقوله : ﴿ وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يُرسِلَ رَسَولاً فيُوحي ﴾ [5] .

والوحي : إعلام بالوَسْوَسَة من الشيطان، قال : ﴿ وإنّ الشياطين ليُوحون إلى أوليائهم ﴾ [6] .

والوحي : أمر، قال الله تعالى : ﴿ بأنّ ربك أوحى لها ﴾ [7]، أي أمرها [8]" .

ثم ذكر الفرح والفتح والكريم والمثل والضرب والزوج والرؤية والنسيان والصاعقة والصّعْق . وقال في لفظة " الصّعْق : الموت، قال تعالى : ﴿ فصَعِق مَنْ في السَّموات ومَنْ في الأرض ﴾ [9] .

---

(1) الأنعام/ 19 .

(2) مريم/ 11 .

(3) المائدة/ 111 .

(4) النحل/ 68 .

(5) الشورى/ 51 .

(6) الأنعام/ 121 .

(7) الزلزلة/ 5 .

(8) تاويل مشكل القرآن/ 489-490 .

(9) الزمر/ 68 .

وقال تعالى : ﴿ وخرَّ موسى صَعِقاً ﴾ [1]، أي مَيّتاً، ثم ردّ الله إليه حياته .

وقال الله تعالى : ﴿ فقالوا : أرنا الله جهرة، فأخذتهم الصَّاعقة بظلمهم ﴾ [2]، أي الموت . يدلك على ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُّم بعثناكم من بعد موتكم ﴾ [3] .

والصاعقة : العذاب، كقوله : ﴿ أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عادٍ وثمود ﴾ [4] .

والصّاعقة : نار من السحاب، قال الله تعالى : ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ﴾ [5]، وأراها سمّيت صاعقة، لأنّها إذا أصابت قتلت، يقال : صعقتهم، أي قتلتهم [6] .

وقد أدرك ابن قتيبة أنّ الاستعمال المجازي للكلمة يعد عاملاً من عوامل تغيير المعنى واختلافه، ومن الألفاظ المشتركة التي ذكرها الأخذ، وقال : الأخذ : أصله باليد، ثم يستعار في مواضع، فيكون بمعنى : القبول ، قال الله تعالى : ﴿ وأخذتم على ذلك إصْرِي ﴾ [7] . أي قبلتم عهدي وقال : ﴿ ويأخذ الصدقات ﴾ [8]، أي يقبلها .

ويكون بمعنى : الحبس والأسر، قال الله تعالى : ﴿ خُذْ أحَدَنا مكانه ﴾ [9]، أي احبسه .

والأخذ : التعذيب، قال الله تعالى : ﴿ وكذلك أخْذُ ربِّك إذا أخذ القرى ﴾ [10]،

---

(1) الأعراف / 143 .

(2) النساء / 153 .

(3) البقرة / 56 .

(4) فصلت / 13 .

(5) الرعد / 13 .

(6) تأويل مشكل القرآن / 501 .

(7) آل عمران / 81 .

(8) التوبة / 104 .

(9) يوسف / 78 .

(10) هود / 102 .

أي: تعذيبه .

وقال : ﴿ وَهَمَّتْ كلُّ أمّةٍ برسلوهم ليأخذوه ﴾ [1]، أي ليعذِّبوه، أو ليقتلوه [2] .

ومن ذلك أيضاً لفظة " الرِّجْز " العذاب . قال الله تعالى، حكاية عن قوم فرعون : ﴿لئن كشفت عَنَّا الرِّجز لنؤمنَنَّ لك ﴾ [3]، أي العذاب .

ثم قد يسمَّى كيْدُ الشيطان رِجْزاً، لأنه سبب العذاب، قال الله تعالى : ﴿ ويُذهِبُ عنكم رجْزَ الشيطان ﴾ [4] .

ومن ذلك لفظة "الفرح" المسرة، قال اللّه تعالى : ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجَرَيْن بهم بريح طيّبة وفرحوا بها ﴾ [5]، أي سروا .

والفرح : الرِّضا، لأنه عن المسرة يكون . قال الله تعالى : ﴿كلُّ حِزْبٍ بما لديهم فرحون ﴾ [6]، أي راضوان . . .

والفرح : البَطَر والأشر، لأنَّ ذلك عن إفراط السرور، قال الله تعالى : ﴿ إنّ الله لا يحب الفرحين ﴾ [7] .

ومن الألفاظ التي تغيّر معناها بسبب الاستعمال المجازي "الرَّجم" ، وقال : أصله الرَّمي، كقوله تعالى : ﴿ وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ [8]، أي مرامي .

---

(1) غافر / 5 .

(2) تاويل مشكل القرآن / 502-503 .

(3) الأعراف / 134 .

(4) الأنفال / 11، وتأويل مشكل القرآن / 471 .

(5) يونس / 22 .

(6) المؤمنون / 53، والروم / 32 .

(7) القصص / 76، وتأويل مشكل القرآن / 491 .

(8) الملك / 5 .

ثم يستعار فيوضع موضع القتل، لأنهم كانوا يقتلون بالرَّجم ... ومنه قوله تعالى : ﴿لَنَرْجُمَنَّكُم﴾ [1]، لنقتلنَّكم .

ويوضع موضع : الشتم، لأنّ الشتم رمي ... ومنه قول أبي إبراهيم له : ﴿لأرجمنّك﴾ [2]، أي لأشتمنّك .

ويوضع موضع الظن، ومنه قوله : ﴿رجماً بالغيب﴾ [3]، أي ظناً . ويقال : رَجْمٌ بالظن، كأنه رميٌ به .

والرَّجم : اللعن والطّرْدُ ... وإنَّما قيل للشيطان : رجيم، أي طريد، لأنّه يطرد برجم الكواكب [4]" .

ومن ذلك لفظة "الأمر" وقال فيها : الأمر : القضاء، قال الله تعالى : ﴿يُدَبِّر الأمر من السَّماء إلى الأرض﴾ [5]، أي يقضي القضاء ...

والأمر : الدِّين، قال تعالى : ﴿ فتقطّعوا أمرهم بينهم ﴾ [6]، أي دينهم ...

والأمر : القول، قال تعالى : ﴿ إذ يتنازعون بينهم أمرهم﴾ [7]، يعني قولهم .

والأمر : العذاب، قال الله تعالى : ﴿ وقال الشيطان لمّا قضي الأمر﴾ [8] .

---

(1) يس/ 18.

(2) مريم/ 16، وتمام الآية ﴿لئن لم تنته لأرجمنّك واهجرني مليا﴾ .

(3) الكهف/ 22.

(4) تأويل مشكل القرآن/ 508.

(5) السجدة/ 5.

(6) المؤمنون/ 53.

(7) الكهف/ 821.

(8) إبراهيم/ 22.

والأمر : القيامة، قال الله تعالى : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾[1]، أي القيامة والموت .

والأمر : الوحي، قال الله تعالى : ﴿ يتنزَّل الأمر بينهن ﴾[2] .

والأمر : الذَّنْب، قال الله تعالى : ﴿ فذاقت وبال أمرها ﴾[3]، أي جزاء ذنبها .

وهذا كله، وإن اختلف فأصله واحد . ويكنَّى عن كل شيء بالأمر، لأنّ كلَّ شيءٍ يكون، فإنَّما بأمر الله، فسمّيت الأشياء : أموراً، لأنّ الأمر سببها[4] .

ووافق رأي ابن قتيبة رأي علماء اللغة في أنَّ نقل المعنى أو استعارته أو استعماله المجازي يُعَدُّ من أبرز عوامل نشأة المشترك اللفظي، ومثَّل السيوطي لهذا التطور اللغوي بلفظة العين التي تدل على معانٍ كثيرة، كالعين لكل ذي روح يبصر بها، وعين الركبة، وعين الميزان، والتي تصيب الإنسان، وعين الماء، وعين الشمس، ومطر يجيء ولا يقلع أياماً، والعين نفس الشيء . وحرف من حروف المعجم، والمتجسس للخبر، والثقب للمزادة، والعين طائر[5] .

وكالخال . لأخي الأم، والمكان الخالي، والشامة في الوجه، وضرب من برود اليمن، والسحاب، والبعير الضخم وغيرها[6] .

وأدرك ابن قتيبة أنَّ أسباب وقوع المشترك اللفظي في اللغة اختلاف اللهجات، وفسّر دلالة بعض الألفاظ استناداً إلى ما تمثله بلغة قبيلة من القبائل، كقوله في تفسير الآية

---

(1) النحل / 1.

(2) الطلاق / 12.

(3) الطلاق / 9.

(4) تاويل مشكل القرآن / 514، 515.

(5) المزهر 1 / 372-375.

(6) نفسه 1 / 376.

الكريمة: ﴿ فشرِّد بهم مَنْ خَلْفَهم ﴾[1]، أي افعل من العقوبة والتنكيل يتفرّق بهم من أعدائك، ويقال: شرِّد بهم: سمِّع بهم بلغة قريش[2]".

وذكر السيوطي أن من عوامل المشترك اللفظي اختلاف لهجات القبائل كقولهم: الألفت: هو الأعسر بلغة تميم، والأحمق بلغة قيس، وقولهم السليط: هو الزيت عند العرب، ودهن السّمسم عند أهل اليمن. والهجْرس: للقرد في اللهجة الحجازية، وللثعلب في اللهجة التميمية[3]. كما أشار إليه ابن درستويه[4]، وأبو علي الفارسي[5].

ويقول الدكتور مسعود بوبو: " إن من يقف على الأصول ويتتبع استعمالاتها عند العرب في شعرهم وكلامهم لا يعدم التعليل المقنع لأسباب هذا الاختلاف بين بيئاتهم وقبائلهم، ولو كانت هذه القبائل أصلاً تعيش معاً لانتفت ظاهرة وجود معنيين للهجرس، إذ لا يعقل أن يسمي النّاس القرد والثعلب باسم واحد إلا على التشبيه[6]".

ويقول الدكتور حسن ظاظا مبيناً أثر اختلاف اللهجات في وقوع المشترك اللفظي: "ومن الأسباب الرئيسية لوقوع المشترك في اللغة، وجود كلمة، هي من حيث اللفظ عند أكثر من قبيلة، مع اختلاف المعنى أو الاستعمال في كل من هذه القبائل، فإذا ما حدثت وحدة بينها اكتسب اللفظ أكثر من معنى من القبائل التي كانت تستعمله[7]".

ومن أسباب وقوع المشترك اللفظي الدخيل، فقد تشبه لفظة دخيلة في نطقها لفظة

---

(1) الأنفال/ 57.

(2) تفسير غريب القرآن/ 180.

(3) المزهر 1/ 381.

(4) نفسه 1/ 386.

(5) المخصص 13/ 259.

(6) دراسات في اللغة/ 287.

(7) كلام العرب/ 110.

عربية أخرى ذات دلالة مختلفة، ويستعمل اللفظ المشترك للدلالة على المعنيين المختلفين، وقد أشار إلى عامل الدخيل من اللغويين القدامى ابن السّراج وقال : "وقد تتعدى العرب أيضاً لغتها إلى لغة العجم، وتستعمل الشيء فتعربه وتشبهه بألفاظها . . . فلهذا ينبغي أن يكون غير ممتنع أن يتفق في اللغة اللفظان ويتباعد المعنيان"[1] .

كما أشار شهاب الدين الخفاجي إلى هذا العامل بقوله : " لا يضرُّ المُعَرَّب كونه موافقاً للفظ عربي كسَكَّرَ فإنه معرب، وإن كان عربي المادّة بمعنى أغلق، قال تعالى : ﴿ سُكِّرتْ أبصارنا ﴾[2] .

ويقول الدكتور مسعود بوبو مشيراً إلى هذا العامل : "وكما كان الدخيل سبباً من أسباب نشأة الترادف، كذلك كان سبباً أو عاملاً من عوامل نشأة المشترك اللفظي، وذلك عندما تتحد أو تتطابق صور اللفظ وله أكثر من معنى كلفظة "الحب" التي تدل على العلاقة الإنسانية في العربية، وعلى (الجرّة) كما عربّت من الفارسية"[3] .

ويقول : " ومن عوامل نشأة المشترك اللفظي أيضاً التطور اللغوي وخاصة من الناحية الصوتية والإبدال، ومن أمثلة ما روته المعاجم من أن (حنك الإنسان) هو باطن الفم من داخل و (حنك الغراب) هو شدّة سواده، فإنه ممّا لا شكَّ فيه أن الحنك بالمعنى الثاني متطورة عن الحلك بمعنى شدة السواد، قلبت فيها اللام نوناً"[4] .

ومن أمثلة ذلك "الفروة" جلدة الرأس والغنى[5]، فإنّ أصل الكلمة بالمعنى الثاني هو (الثروة)، أبدل فيها الثاء فاء، كالإبدال في كلمتي (جدث) و (جَدَف) بمعنى القبر،

---

(1) الاشتقاق، لابن السَّراج / 331 .

(2) الحجر / 15 . وتمام الآية (لقالوا إنّما سُكِّرت أبصارنا .. بل نحن قوم مسحورون) .

(3) دراسات في اللغة / 287 .

(4) نفسه / 289 .

(5) القاموس المحيط / فرو .

وكلمتي "الأيم" و "الأين" بمعنى الحيّة [1]" .

وإن شواهد أخرى من الإبدال يمكن تحليلها، أو تكلفها لتصبح في جملة المشترك اللفظي[2] .

ويبدو أنّ ابن قتيبة توسع في مفهوم الاشتراك، ولم يلتزم أن يكون البناء اللفظي للكلمة المشتركة واحداً من حيث الاتفاق في الحروف والحركات، وإنما عدّ من المشترك اللفظي بعض الصيغ المختلفة في بنيتها من حيث الحروف والحركات، وقد سمّى بعض الألفاظ التي جاءت مقصورة أو ممدودة بعنوان " باب أسماء يتفق لفظها وتختلف معانيها [3] ، ومن أمثلة ذلك: "هَوَى" النّفس مقصور بالياء، و "الهواءُ" الجو ممدود .

و "رَجَا" البِئْر مقصور بالألف، و "الرَّجاء" من الطَّمع ممدود .

و "الصَّفا" الصَّخْر مقصور بالألف، و "الصَّفَاء" من المودة والشيء الصّافي ممدود .

و "سَنَا " البرق مقصور بالألف، و "سَنَاءُ" المجد ممدود .

و "الثّرى" الترابُ النّدِيُّ مقصور بالياء، و "الثَّراء" الغنى ممدود .

و "الصِّبى" من الصِّغَر مقصور بالياء، و "الصَّبَاءُ" "من الشَّوْقِ ممدود" .

و "صَبا" الريح مقصور بالألف[4] .

ويتضح من هذه الأمثلة، أنَّ ابن قتيبة لم يُفرّق بين صيغتي المقصور والممدود، من حيث البناء، وإنّما عدها أسماء متفقة اللفظ، مختلفة المعنى، وهذا لا شك يعدُّ توسعاً في مفهوم المشترك اللفظي، لأنه يخل بشرط الاتحاد في بنية الكلمة من حيث عدد الحروف وهيئتها

---

(1) أدب الكاتب/ 485.

(2) دراسات في اللغة/ 289.

(3) أدب الكاتب/ 299.

(4) نفسه/ 299-301.

وترتيبها، فضلاً عن اختلاف الجذر اللغوي، والأولى عدم عدها من المشترك اللفظي .

كما عدّ الألفاظ المختلفة في الحركات من المشترك اللفظي وسمّاها (الحروف التي تتقارب ألفاظها وتختلف معانيها [1])، ومن أمثلة ذلك :

" الإِرْبَةُ " الحاجةُ، و "الأُربَة " العُقْدَةَ .

و " الرُّمَّة " القِطْعَةُ من الحَبْل، و " الرِّمَّة " العظام البالية .

و " شِعارُ القَوْم في الحرْب " بالكسر " و " الشِّعارُ " ما ولي الجِلْدَ من الثياب .

و " أرضٌ كثيرةُ الشَّعار " أي : كثيرةُ الشجر، بفتح الشين .

و " السَّلْمُ " الدَّلْو لها عروة و " السُّلْمُ " : الصلح، و " السِّلْمُ " أيضاً، و " السَّلَمُ " السَّلف، يقال : "أسْلمَ في كذا" أي : أسلف فيه و " السَّلَمُ " الاستسلامُ، قال الله عزَّ وجل: ﴿ ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السَّلَم ﴾ [2] .

" الغَمْرُ " الماء الكثير، و " رَجُلٌ غَمْرُ الخُلُق " أي : واسِعُهُ و " فَرَس غَمْرٌ " أي : جواد ، و "الغِمْرُ" الحِقْدُ، و " الرَّجُل الغُمْر " الذي لم يكن يجرب الأمور [3]" .

ويتضح من هذه الأمثلة أن ابن قتيبة عدَّ الألفاظ المختلفة في الحركات والمتقاربة في الصورة والنطق، مختلفة في المعنى، وهذا توسعٌ في مفهوم ظاهرة الاشتراك، ومن الأولى ألاَّ تعدّ من المشترك اللفظي لأنَّها فقدت شرط الاتفاق في الحركات .

(د) موقف المحدثين من المشترك اللفظي :

أقرّ المحدثون بوجود ظاهرة الاشتراك في اللغة، واتفقوا مع علماء اللغة القدامى في تفسير

---

(1) نفسه / 322 .

(2) النساء / 94.

(3) أدب الكاتب / 322-325 .

العوامل التي أدّت إلى نشأة المشترك اللفظي في اللغة . وأضافوا إليها بعض الأسباب الأخرى التي استنتجوها من دراساتهم اللغوية، ومن هذه العوامل ما يمكن أن يسمى بالاشتراك الكاذب، ولا يكون تطابق اللفظ فيه حقيقي، إنما هو تطابق كاذب قام بطريق المصادفة أو التشابه بين الجمع والمفرد، أو المصدر والفعل[1]، ويقول الدكتور حسن ظاظا : " قد يحدث الاشتراك بسبب وجود كلمة في صيغة أشبهت أخرى في صيغة المفرد، مثل "النوى"، جمع نواة، و"النوى" البعد، وهذا من الاشتراك الكاذب تشابه اسم وفعل في النطق، مثل الفعل "هوى" أي سقط، و "الهوى" الذي هو ميل النفس .... ومنه أيضاً تشابه صيغ مختلفة الأصل والاشتقاق على العموم[2]" .

ويرى الدكتور مسعود بوبو أن المشترك اللفظي يعد مظهراً من مظاهر الاتساع في التعبير، وخصيصة من خصائص الثراء اللغوي في العربية، ويقر بوجوده بشرط الاعتدال وعدم المبالغة ويرى أن التأصيل اللغوي الحديث يمكن أن يخرج كثيراً من الأسماء التي عدّها اللغويون القدماء من باب الاشتراك، ويمكن قبولها على أنّها من مظاهر التطور اللغوي والاتساع في التعبير، وعقّب على ما تسوقه كتب اللغة في لفظة "العين" التي لها في كلام العرب مواضع كثيرة، وقال :

" ولعلّ الأصل في هذه المعاني كلها عين الماء أو عين كل ذي روح يبصر بها، أمّا سائر التسميات الأخرى فعلى الاشتقاق أو التشبيه أو النقل، أو المبالغة أو لبيان القيمة، أو لعلة أخرى لم نقف عليها بتعليل مُرْضٍ مقبول، ولكن أيتما حال، فقد صارت هذه مشتركات لفظية عند بعضهم بدليل حشد معانيها عند القدماء على هذا النوع من الاتساع وقد قلنا بترجيح أصل عين الماء، أو الجارحة التي تبصر في هذه المشتركات جرياً على مألوف العربية في الانتقال بالدلالات من الحسية إلى المعنوية أو الذهنية المجردة مواكبة في ذلك تطور الفكر

---

(1) دراسات في اللغة/ 288.

(2) كلام العرب/ 108، 109.

وتنامي التجربة الإنسانية وتنوعها[1]" .

وهذا الرأي الوجيه يمثل الاتجاه العلمي المعتدل في قبول مبدأ التجديد والنمو في الثروة اللغوية دون إسراف أو مبالغة، انطلاقاً من الحرص على فهم اللغة واستيعاب القوانين التي تحكم تطورها ونماءها، والمواءمة بين التأصيل اللغوي الذي يمد الجسور إلى تراثنا، والتطور الذي يدل على الحيوية والنمو بما يتلاءم مع تناسب الأحوال ومواكبة التغير .

ويذهب الدكتور حسن ظاظا إلى أنَّ التزيد في ظاهرة الاشتراك، مردُّه إلى الدلالات التي يضيفها اللغويون على ألفاظ اللغة وتراكيبها ويقول : " إن المشترك يكثر على الخصوص في الألفاظ الحوشية أو الغريبة غير الدائرة على الألسنة، ولا في نصوص الأدب، ولعلَّ ذلك آت إلى حد ما، لا من اشتراك حقيقي ولكن من دلالات أعطاها الشُّراح واللغويون لهذه الألفاظ الغريبة . . .[2]" .

وأكد أن الأمر يحتاج إلى مزيد من التحقيق والتدقيق من اللغويين الجدد، لا سيّما بعد أن أصبح في متناولهم أن يطرقوا علم اللغة المقارن، وأن يعيدوا على هداه النظر في بعض ما ألصق بشوارد اللغة من المعاني[3] .

وصفوة القول في المشترك اللفظي ما قاله الدكتور صبحي الصالح : "ولسنا نزعم أنّ العربية تنفرد بالمشترك اللفظي، ففي سائر اللغات ألفاظ مشتركة يدور النقاش حولها بين أصحاب الاشتراك ومنكريه، كما يدور مثله بين أصحاب الترادف ومنكريه . بيد أنّ كثرة المشترك النسبية في لغتنا هي التي تجعل بحث المشترك مندرجاً تحت اتساع العربية في التعبير على أنه خصيصة لا تنكر من خصائصها الذاتية[4]" .

---

(1) دراسات في اللغة / 287.

(2) كلام العرب / 111.

(3) نفسه / 111.

(4) دراسات في فقه اللغة / 351.

ثالثاً : التضاد :

(أ) تعريفه :

عرّف أبو الطيب اللغوي التضاد بقوله : " الأضداد جمع ضد، وضدّ كل شيء ما نافاه، نحو : البياض والسواد، والسخاء والبخل، والشجاعة والجبن وليس كلّ ما خالف الشيء ضداً له، ألا ترى أنَّ القوة والجهل مختلفان، وليسا ضدّين، وإنما ضدّ القوة الضعف، وضدّ الجهل العلم، فالاختلاف أعم من التضاد، إذ كان كل متضادين مختلفين، وليس كل مختلفين ضدّين[1]" .

فالأضداد هي الألفاظ التي يدل الواحد منها على معنيين متضادين، وهو نوعٌ من الاشتراك اللفظي، في كون اللفظة فيهما تدلُّ على أكثر من معنى، ويفترق عنه في أنَّ التضاد يقع على معنيين متناقضين لا أكثر .

(ب) عوامل نشوء التضاد في العربية :

يرجع نشوء ظاهرة التضاد إلى عوامل متعددة من أهمها :

1- عموم الدلالة في اللفظ : قد يكون المعنى الأصلي للكلمة عاماً، ثم يتطور هذا المعنى ويتخصص للدلالة على ضدين، وقال ابن الأنباري مبيناً أثر هذا العامل في نشأة الأضداد : " وقال آخرون : إذا وقع الحرف على معنيين متضادين، فالأصل لمعنى واحد، ثم تداخل الاثنان على جهة الاتساع فمن ذلك : " الصريم " : يقال للّيل صريم، وللنّهار صريم، لأنّ الليل ينصرم من النهار، والنهار ينصرم من الليل فأصل المعنيين من باب واحد وهو القطع، وكذلك (الصّارخ) : المستغيث، والصارخ المغيث : سمّيا بذلك، لأنّ المغيث يصرخ بالإغاثة، والمستغيث يصرخ بالاستغاثة، فأصلهما من باب واحد[2]" .

---

(1) الأضداد، لأبي الطيب اللغوي 1/ 1 .

(2) الأضداد/ 7و 8 .

وفي ضوء هذا العامل يمكن تعليل إطلاق معنى الطرب على الفرح والحزن، والأصل في هذا المعنى كما يقول ابن قتيبة : " خفة تصيب الرجل لشدة السرور، أو لشدة الجزَع [(1)]" .

ومن ذلك أيضاً ما قيل في "المأتم" الذي يدل على اجتماع في الغمّ والهمّ، وفي السرور والفرح عند من يقول بالأضداد، ولكن أصل المعنى يدل كما يقول ابن قتيبة على اجتماع النساء في الخير والشر[(2)] .

2- اختلاف اللهجات العربية القديمة : فبعض ألفاظ التضاد جاء من اختلاف القبائل في استعمالها، ثم عمد مدونو اللغة إلى إضافة هذه المعاني بعضها إلى بعض، دون أن يعنوا بنسبة كل معنى إلى القبيلة التي كانت تستعمله، وقال ابن الأنباري " وقال آخرون : إذا وقع الحرف على معنيين متضادين فمحال أن يكون العربي أوقعه عليهما بمساواة منه بينهما، ولكنَّ أحد المعنيين لحي من العرب، والمعنى الآخر لحي غيره، ثم سمع بعضهم لغة بعض، فأخذ هؤلاء عن هؤلاء، وهؤلاء عن هؤلاء [(3)]" .

فالقائلون بهذا المذهب يرون إثبات التضاد على أن لا يكون من وضع القبيلة الواحدة، وفي ضوء هذا العامل يمكن تفسير كلمة "السدفة" فاللغويون يذكرون أن تميماً تطلق هذه الكلمة على الظلمة، ولكنَّ قيساً تطلقها على الضوء [(4)]" .

ومن ذلك كلمة "القَلْت" التي تعني في لغة قيس وتميم وأسد : النقرة الصغيرة في السهل أو الجبل، وفي الصخرة ونحوها . أمَّا أهل الحجاز، فيطلقون هذه الكلمة، على مستنقع ماء في السهل أو في الجبل، واسع يمكن أن يغرق فيه الفيل [(5)]" .

---

(1) أدب الكاتب / 23 .

(2) نفسه / 24 .

(3) الأضداد / 11 .

(4) الأضداد لابن الأنباري / 114 .

(5) نفسه / 420 .

ويعلل أبو علي الفارسي نشأة الأضداد باختلاف اللهجات العربية ويقول : "أما اتفاق اللفظين، واختلاف المعنيين، فينبغي ألا يكون قصداً في الوضع ولا أصلاً، ولكنه من لغات تداخلت [1]" .

3– المجاز والاستعارة : قد يجيء التضاد من انتقال اللفظ عن معناه إلى معنى آخر، ويقول أبو علي الفارسي فيما رواه عنه ابن سيده : من أن " اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ينبغي ألا يكون قصداً في الوضع ولا أصلاً، ولكنه من لغات تداخلت، أو أن تكون لفظة تستعمل لمعنى، ثم تستعار لشيء فتكثر وتغلب، وتصير بمنزلة الأصل [2]" .

ومن أمثلة ذلك ما نقله السيوطي من أنَّ "النطفة" : الماء، تقع على القليل منه والكثير، ثم قال : وليس بضد[3]، ومنها إطلاق كلمة "الأمة" على الجماعة والفرد [4] .

وعقب على هذه العبارة الدكتور مسعود بوبو وقال : " وأغلب الظن أنَّ هذا من المجاز أو المبالغة الشبيهة بقولهم : فلان بحر، أي كأنَّ هذا الإنسان بمناقبه وصفاته يعادل أمة بكاملها وحده، وعلى هذا النحو صار الفرد والجماعة بمعنى واحد، وصنف اللفظ في الأضداد [5]" .

ومعنى الضدية لا يتحقق بين الحقيقة والمجاز، لأنهما لا يتساويان في فهمهما من الكلمة، وبالانتقال في فهم المعنى الثاني بالقرينة تفويت لمعنى الضدية .

4– التفاؤل : وهذا العامل أدى إلى نشأة التضاد، لأنَّ المرء إذا شاء التعبير عن معنى

---

(1) المخصص 13/ 59.

(2) نفسه 13/ 59.

(3) المزهر 1/ 397.

(4) الأضداد لابن الأنباري/ 269.

(5) دراسات في اللغة/ 293.

سيء تشاءَم من ذكر الكلمة الخاصة به، وفرَّ منها إلى غيرها، فجميع الكلمات التي تعبّر عن الموت والأمراض والمصائب والكوارث، يفرُّ منها الإنسان، ويكنِّي عنها بكلمات حسنة المعنى، قريبة إلى الخير [1] : ويقول السجستاني في باب " المقلوب لفظه في كلام العرب عن جهته والأضداد " : "إنما قيل للعطشان" : ناهل على سبيل التفاؤل، كما يقال : المفازة للمهلكة على التفاؤل . . . لأنّ معنى فاز : نجا، فالمفازة المنجاة، قال تعالى : ﴿ فلا تحسبنّهم بمفازة من العذاب ﴾ [2]، (أي بمنجاة) .

كما قال ابن الأنباري : "واختلف النّاس في اعتلال لها : لم سميت مفازة على معنى المهلكة، وهي مأخوذة من الفوز ؟ قال الأصمعي وأبو عبيد وغيرهما : سميت مفازة على جهة التفاؤل لمن دخلها بالفوز، كما قيل للأسود : أبو البيضاء، وقيل للعطشان : ريّان [3]" .

5- التهكم : وهذا العامل يؤدي إلى تطور الدلالة وتغييرها إلى ضدها وقلب المعنى، من ذلك إطلاق لفظة "العاقل" على "الجاهل" لغرض الاستهزاء والسخرية كما يقول ابن الأنباري "وممّا يشبه الأضداد أيضاً قولهم للعاقل : يا عاقل، وللجاهل إذا استهزؤوا به : يا عاقل [4]" .

ومن ذلك استعمال لفظة "التعزير" بمعنى التعظيم، ومنه قوله تعالى : " لتؤمنوا بالله ورسوله وتَعزِّروه وتوقِّروه [5]" ، غير أنّها تستعمل في معنى التأديب والتعنيف واللوم [6] تهكماً واستهزاء بالمذنب .

---

(1) في اللهجات العربية للدكتور إبراهيم أنيس / 208.

(2) الأضداد للسجستاني / 99، والآية / 188من سورة آل عمران .

(3) الأضداد لابن الأنباري / 105 .

(4) نفسه / 258.

(5) الفتح / 9.

(6) الأضداد لابن الأنباري / 147 .

6- الاشتقاق وتغير الصيغ : وقد تأتي الأضداد من عوامل تصريفية واشتقاقية، ومن الضرب الذي يتغيرٌ فيه معناه من السلب إلى الإيجاب بتغير الصيغة، من ذلك صيغة (فاعل) إذا نقلت إلى (متفعّل) فالهاجد النائم، والمتهجّد المنصرف عن النوم إلى العبادة . والآثم مقارف الإثم، والمتأثم الكاره له .

وهناك صيغ صرفية تحتمل معنيين متضادين، من ذلك صيغة (فعول) التي تستعمل في العربية بمعنى (الفاعل)، مثل : شكور وغفور وكفور، كما تستعمل بمعنى (المفعول) مثل: رسول، بمعنى : مُرْسَل، وقد ورد بعض الأمثلة من هذه الصيغة بالمعنيين جميعاً مثل "ذَعور" بمعنى : ذاعر ومذعور[1]، و "ركوب" بمعنى : الراكب والمركوب[2] .

وصيغة (فعيل) تأتي بمعنى (فاعل) ، مثل : سميع وعليم وقدير، كما تأتي بمعنى : (مفعول)، مثل : جريح بمعنى مجروح، وطريد، بمعنى : مطرود، وقد ورد بعض الأمثلة من هذه الصيغة بالمعنيين المتضادين، مثل(الكَريُّ)، بمعنى : المكتَري والمكْتَرى[3] و "الغريم" بمعنى : الدائن والمدين[4]، و"القنيص" بمعنى : القانص والمقنوص[5] .

وصيغة (فاعل) تأتي بمعنى (مفعول)، مثل "خائف" و "عائذ[6]" وصيغة (مُفْتَعِل) و(مُفْتَعل) من الأجوف، ومضعَّف الثلاثي، مثل (مختار) و (مرتد) .

7- التطور الصوتي : ومعناه رجوع الكلمة إلى أصلين، فيكون معنى منحدراً من أصل، وضده الثاني منحدراً من أصل آخر، ثم تتطور أصوات إحداهما، بصورة تجعلها

---

(1) نفسه / 57 .

(2) نفسه / 356 .

(3) الأضداد لابن الانباري / 199 .

(4) نفسه / 203 .

(5) نفسه / 262 .

(6) نفسه / 125 .

تنطبق على الأخرى، فيبدو الأمر كما لو كانت كلمة واحدة لها معنيان متضادان .

ومن أمثلة ذلك : قول بني عقيل : " لمقت الكتاب " أي كتبته، وقول سائر قيس : "لمقت الكتاب" أي محوته . والفعل "لمق" تطور عن الفعل "نَمَقَ" فأبدلت النون لاماً، وبذلك صار الفعل : "لمق"، فتطابق مع نظيره بمعنى "محا" ، وتولّد التضاد بين المعنيين عن هذا الطريق وقد رُوي عن أعرابي أنه قال عن كتاب : " لمقته بعدما نمقته " أي محوته بعد أن سطرته[1] .

(ج) التضاد بين إنكاره والإقرار به :

من أقرّ بوجود المشترك اللفظي أقرّ بالتضاد،أو وجد إلى الإقرار به سبيلاً، وألّف في ظاهرة التضاد من علماء اللغة قطرب[2] ، والأصمعي[3] ، وعبد الله بن محمد هارون التّوزي[4] ، وابن السكيت[5] ، وأبو حاتم السجستاني[6] . وابن الأنباري، وأبو الطيب اللغوي ... ومنهم من أثبت التضاد إذا كان من لغة لقبيلة واحدة، لأنّ التضاد حينئذ يكون متحققاً في الوضع، وقال ابن دريد في الجمهرة : " الشعب : الافتراق، والشعب : الاجتماع، وليس في الأضداد، وإنّما هي لغة قوم[7]" . ومنهم من أثبت التضاد على أن يكون ذلك من قبيلتين لا من وضع قبيلة واحدة[8] .

---

(1) نفسه / 35.

(2) نُشِر كتابه بمجلة "إسلاميكا" . مج /5/ سنة1931، بعناية (هانس كوفلر) .

(3) نشر ضمن مجموعة ثلاثة كتب في الأضداد، بعناية (أوغست هفنر) في بيروت 1912م.

(4) نشر بمجلة المورد العراقية العدد /2/سنة 1979 بتحقيق الدكتور محمد حسين آل ياسين.

(5) نشر ضمن مجموعة ثلاثة كتب في الأضداد، بعناية (أوغست هفنر) في بيروت 1912م.

(6) نشر ضمن مجموعة ثلاثة كتب في الأضداد، بعناية (أوغست هفنر) في بيروت 1912م.

(7) جمهرة ابن دريد : الأضداد .

(8) الأضداد لابن الأنباري/ 11، والمخصص/13/ 59.

وهناك من أنكر وجود هذه الظاهرة في العربية، لأنه يفيت حكمة الوضع، إذ المقصود من وضع الألفاظ فهم المعاني، وفي طليعة هؤلاء المنكرين للتضاد ابن درستويه، فقد ألف في إبطال الأضداد، وقال : "النوء الارتفاع بمشقة وثقل، ومنه قيل للكوكب، قد ناء إذا طلع، وزعم قوم من اللغويين أن النوء السقوط أيضاً، وأنه من الأضداد، وقد أوضحنا الحجة عليهم في ذلك في كتابنا الذي عملناه في إبطال الأضداد[1]" .

فابن درستويه ممَّن ذهب إلى إنكار الأضداد، ولكنه اضطر إلى الاعتراف بوجود النادر من تلك الألفاظ، وذلك حين قال : "وإنّما اللغة موضوعة للإبانة عن المعاني، فلو جاز لفظ واحدٌ للدلالة على معنيين مختلفين، وأحدهما ضد الآخر، لما كان ذلك إبانة بل تعمية وتغطية، ولكن قد يجيء الشيء النادر من هذا لعلل..[2]" .

وقد رمى الشعوبيون العرب بنقصان الحكمة، وقلة البلاغة، وكثرة الالتباس في كلامهم، لورود ألفاظ التضاد في لغتهم، وقد انبرى أبو بكر ابن الأنباري لبيان خطل هذا الرأي حين قال : "إنّ كلام العرب يصحح بعضه بعضاً ويرتبط أوله بآخره، ولا يعرف معنى الخطاب منه إلا باستيفائه، واستكمال جميع حروفه، فجاز وقوع اللفظة على المعنيين المتضادين، لأنّهما يتقدمها ويأتي بعدها ما يدل على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر، ولا يراد بها في حال التكلم والإخبار إلا معنى واحد[3]" .

(د) موقف ابن قتيبة من ظاهرة التضاد :

أثبت ابن قتيبة وجود ظاهرة التضاد في العربيّة، وأقرّ بوروده، وعقد له ثلاثة أبواب في كتابه "أدب الكاتب" هي :

---

(1) المزهر 1 / 396.

(2) نفسه 1 / 396.

(3) الأضداد لابن الأنباري / 2.

1 – باب " تسمية المتضادين باسم واحد "[1] .

2 – باب " أفْعَلْتَ وأفْعَلْتَ بمعنيين متضادين "[2] .

باب " فَعَلْتُ وفَعَلْتُ بمعنيين متضادين "[3] .

وتعرض لظاهرة التضاد في كتابه " تأويل مشكل القرآن " في باب " المقلوب "[4] ، كما تعرض لهذه الظاهرة في تضاعيف كتبه اللغوية الأخرى .

وقد وقف ابن قتيبة على العوامل المؤدية إلى نشأة التضاد، وهي العوامل التي أقرها علماء اللغة القدامى والمحدثون، ومن ذلك : دلالة اللفظ على العموم، وهو أن يسمى المتضادان باسم واحد، وأن تشمل دلالة اللفظ معنيين متضادين في الأصل، ثم يتطور أصل المعنى ويخصص للدلالة على ضدين، وفي ضوء هذا العامل يمكن تعليل إطلاق معنى الطرب على الحزن والفرح، وقد ذكر ذلك في كتابه " أدب الكاتب " في باب " معرفة ما يضعه النّاس في غير موضعه، إذ يقول : " الطّرب " يذهب النّاس إلى أنّه في الفرح دون الجزع، وليس كذلك إنّما الطرب خفّة تصيب الرّجل لشدّة السرور، أو لشدّة الجزع "[5] .

فالمعنى العام هو الذي شمل كلاً من المعنيين المتضادين، ومن ذلك " المأتم "، وقد قال في ذلك : " المأتم " يذهب النّاس إلى أنّه المصيبة، ويقولون : كنّا في مأتم، وليس كذلك، إنما المأتم النساء يجتمعن في الخير والشر "[6] . فالمعنى العام هو الذي شمل المعنيين المتضادين وهو اجتماع النساء عامة، في السراء والضراء .

---

(1) أدب الكاتب / 208 .

(2) نفسه / 453 .

(3) نفسه / 455 .

(4) تأويل مشكل القرآن / 185 .

(5) أدب الكاتب / 22، 23 .

(6) نفسه / 24 .

ومن ذلك لفظ " الصريم" وقال : ومن ذلك أن يسمّى المتضادان باسم واحد، والأصل واحد، فيقال للصبح صريم والليل صريم، قال سبحانه وتعالى: ﴿ فأصبحت كالصريم ﴾ [(1)] . أي سوداء كالليل، لأنَّ الليل ينصرم عن النهار، والنهار ينصرم عن الليل [(2)] .

وقال ابن الأنباري : " إنّ أصل المعنيين من باب واحد، وهو القطع [(3)] .

وأنكر أبو علي القالي التضاد في لفظ الصريم، وقال : " والصريم : الصبح، سمّي بذلك، لأنّه انْصَرَم عن الليل، والصريم . الليل، لأنه انصرم عن النهار، وليس هو عندنا ضداً [(4)] .

فلم ير القالي وقوع لفظ " الصريم " في الألفاظ التي ترتبط بأصل عام يشمل المعنيين المتضادين .

ومن ذلك لفظ " السدفة " ، وقال : ويقال "وللظلمة سدفة، وللضوء سدفة، وأصل السدفة : السترة، فكأنّ الظلام إذا أقبل ستر الضوء، والضوء إذا أقبل ستر الظلام [(5)]" .

وقال ابن الأنباري : "وكذلك السدفة : الظلمة، والسدفة : الضوء، سُمّيا بذلك لأنّ أصل السدفة : الستر، فكأنَّ الليل إذا أقبل سترت ظلمته ضوء النَّهار [(6)]" .

ومن ذلك لفظ الصَّارخ : وقال فيه : " وللمستغيث " : صارخ، وللمغيث : صارخ، لأنّ المستغيث يصرخ في استغاثته، والمغيث يصرخ في إجابته [(7)] .

---

(1) القلم/ 10 .

(2) تأويل مشكل القرآن/ 186، 187 .

(3) الأضداد لابن الأنباري/ 8 .

(4) الأمالي، 2/ 318 .

(5) تأويل مشكل القرآن/ 287 .

(6) الأضداد، لابن الأنباري/ 9 .

(7) تأويل مشكل القرآن/ 187 .

وقال ابن الأنباري : "فأصلهما من باب واحد [(1)]" .

ومن العوامل التي تنبّه إليها ابن قتيبة عامل اختلاف اللهجات، وما ينشأ عنه من التضاد، ومن ذلك ذكره معنى (ثب) أي : اجلس في لهجة حِمْير، إذ ظن الأعرابي الذي قال له أحد ملوك حمير : (ثب)، يريد اجلس فظنّ الرجل أنه أمره بالوثوب من الجبل فهلك [(2)]" .

كما فطن إلى عامل الاستعمال المجازي، وما ينشأ عنه من التضاد، فقد ينتقل معنى اللفظ الحقيقي إلى معنى آخر مجازي لعلاقة تربط بين المعنيين المتضادين، من ذلك قوله :

" قالوا للكبير : جلل، وللصغير جلل، لأنَّ الصغير قد يكون كبيراً عند من هو أصغر منه، والكبير يكون صغيراً عند من هو أكبر منه، فكل واحد منهما صغير كبير . ولهذا جُعِلَتْ (بعض) بمعنى (كل)، لأنَّ الشيء يكون كله بعضاً لشيء، فهو بعض وكل [(3)]" .

فقد أشار ابن قتيبة إلى العلاقة المجازية التي نشأت بين المعنيين المتضادين، وهي تسمية الشيء باسم جزئه، وقد تكون العلاقة علاقة مجاورة، ومثال ذلك : " قال ابن قتيبة : "توسَّد حرف من الأضداد، يقال : قد توسّد فلانٌ القرآن إذا نام عليه وجعله كالوسادة له، فلم يكثر تلاوته، ولم يقم بحقه . ويقال : قد توسد القرآن إذا أكثر تلاوته، وقام به الليل، فصار كالوسادة وبدلاً منها [(4)]" .

ومن العوامل التي فطن إليها ابن قتيبة عامل التفاؤل، وما ينشأ عنه من التضاد . وقال في تفسير حديث النبي صلى الله عليه وسلم : "لا يظمأ ناهله [(5)]" . يقول : من رُوي منه

---

(1) الأضداد، لابن الأنباري / 8.

(2) نفسه / 105.

(3) تاويل مشكل القُرآن / 185 .

(4) الاضداد لابن الانباري / 186-187 .

(5) غريب الحديث 1 / 385.

لم يعطش بعد ذلك، والناهل الذي شرب حتى روي . وقد يكون في غير هذا الموضع العطشان، وهو حرف من الأضداد، قال النابغة :

والطاعن الطعنة يوم الوغى ينهل منها الأسل النّاهل [1]

أتى بالمعنيين كليهما في البيت، أي يروى منها الريان والعطشان، ويقال أصل الحرف هو الري، وإنما قيل للعطشان : ناهل على وجه التفاؤل له بالرّي، والتطير من العطش، كما قيل للّديغ سليم، والفلاة مفازة [2] .

ويقول الدكتور مسعود بوبو في ذكر عوامل الأضداد إنّ منها " فكرة التفاؤل التي كان لها – وما يزال أحياناً – أثرها في نفس العربي، والتي أدّت إلى التطور في الدلالات اللغوية تجنباً لذكر المعنى صراحة، ممّا ترتّب عليه البحث الدائم في المجتمعات العربية القديمة عن ألفاظ لا تذكر بالتشاؤم أو الكوارث. . . [3]" .

ويقول الدكتور علي عبد الواحد وافي معللاً استعمال بعض الألفاظ في التضاد لغرض التفاؤل : " ففي بعض الأمثلة قد استعمل اللفظ في ضد ما وضع له لمجرد التفاؤل كالمفازة في المكان الذي تغلب فيه الهلكة، فقد سميت بذلك تفاؤلاً بالسلامة، وكالسليم للملدوغ، وكالريان والناهل للعطشان. . . [4]" .

ومن العوامل التي وقف عليها ابن قتيبة عامل التهكم والاستهزاء، وقد ذكر ذلك في (باب المقلوب) إذ عَدّ من أسباب نشأته مجيئه للاستهزاء، كقولهم للحبشي : أبو البيضاء، وللأبيض: أبو الجون . ومن هذا قول قوم شعيب : " إنك لأنت الحليم الرشيد [5]" .

---

(1) ديوانه / 167 .

(2) غريب الحديث 1 / 538، 539، وتاويل مشكل القرآن / 184 .

(3) دراسات في اللغة / 292 .

(4) فقه اللغة / 194 .

(5) هود / 87 .

كما تقول للرجل تستجهله : يا عاقل، وتستخفه: يا حليم [1] . ومن العوامل التي تؤدي إلى قلب المعنى وتحويل الدلالة إلى الضدية عامل المبالغة في الوصف كما قال ابن قتيبة : "ومن المقلوب : أن يوصف الشيء بضد صفته ... للمبالغة في الوصف، كقولهم للشمس : جَوْنَةٌ، لشدة ضوئها، وللغراب : أعور لحدة بصره [2]" .

ويتضح لنا من العوامل التي وقف عليها ابن قتيبة أنّه كان مهتماً باستقصاء ألفاظ ظاهرة التضاد، مدركاً تطور دلالة أصولها واستعمالاتها في معان جديدة، لأسباب اقتضتها دواعي التطور اللغوي، والاستعمال المجازي، والاختلاف اللهجي، فكان بذلك من الرواد الذين أصّلوا لهذه الظاهرة في اللغة العربيّة .

رابعاً - تطور الدلالة :

إن تطور الدلالة ظاهرة شائعة في كل اللغات، تدعو إليها الضرورة، كتقلُّب الأحوال، وتبدل النظم الاجتماعية، وتأثر اللغة بلغات أخرى، وتكتسب الألفاظ دلالات جديدة مغايرة لما كانت عليه في أصل وضعها، ويقول الدكتور مسعود بوبو في وصف تطور اللغة العربية : "ولقد كانت الحضارة العربية تتحول بالفكر العربي واللغة العربية في عملية مواكَبَة دائمة، وهذا يعني أنَّ اللغة كانت تجدِّد خلاياها، وتنمّي ثروتها اللفظية، وتطوّر أساليبها على مرّ العصور لتكون لغة الشعر، ولغـة العقيدة الدينيـة، ولغة الحضارة العبّاسيـة، ولغـة العلوم النقلية والعقلية ولغة البلاغة والزخرف اللفظي، كما كانت لغة الموسوعات والتأريخ .

وغني عن البيان أنّها كانت في هذه المراحل كلها تزداد ثراء وتطوراً... [3] ، فالتطور

(1) تأويل مشكل القرآن / 185 .

(2) نفسه / 185 .

(3) دراسات في اللغة / 191 .

إذن ظاهرة طبيعية يقتضيها التعبير عن وجوه النشاط الفكري والسياسي والاجتماعي، لتغدو دلالات الألفاظ قادرة على تمثل التغيير الذي يصيب النشاط الإنساني بوجه عام . والتطور يشمل معاني الألفاظ وتغير التراكيب والحروف .

وقد تتبّع ابن قتيبة مظاهر التطور اللغوي، وما يطرأ على ألفاظ اللغة من تبدل في أصولها من الداخل، ومن تطور دلالي في الاستعمال اللغوي في عصره .

وقد اعترف بالتطور الدلالي الذي يطرأ على الأصل اللغوي لبعض المفردات بسبب المجاز وكثرة الاستعمال، مبيناً العلاقة بين المعنى المنقول منه والمنقول إليه، ومثال ذلك قوله : "ويقولون "ما بفلان طِرْقٌ" أي ما به قوّة، وأصل الطِّرْق الشحم، فاستعير مكان القوّة، لأن القوة أكثر ما تكون عنه[(1)]" . ومن ذلك قوله : " وكان بعض أصحاب اللغة يذهب في قول النّاس "خرجنا نتنزّه" ، إذا خرجوا الى البساتين – إلى الغلط، وقال : إنّما التنزُّه : التباعد عن الماء والريف، قال : ومنه يقال : "فلان يتنزُّه عن الأقذار" أي يباعد نفسه عنها، و "فلان نزيه كريم" : إذا كان بعيداً عن اللؤم، وليس هذا عندي غلطاً، لأنّ البساتين في كل مصر، وفي كل بلد، إنما تكون خارج المصر، فإذا أراد الرجل أن يأتيها فقد أراد أن يتنزّه، أي يَبْعُدَ عن المنازل والبيوت، ثم كَثُر هذا واستعمل حتى صارت النزهةُ القعود في الخَضَر والجِنَان[(2)]" .

لقد أدرك ابن قتيبة أن الكلمة قد تستخدم مجازاً في غير الدلالة القديمة، فيحل المعنى المجازي محل المعنى الحقيقي، وينقل التطور معنى الكلمة إلى الدلالة على ما يجاورها أو ما ينتج عنها، ويصنف علماء البلاغة هذا الشكل من أشكال الانتقال بين ضروب المجاز المرسل. وقد نبه ابن قتيبة على هذا النوع من التطور الدلالي وقال : " العرب تسمّي الشيء باسم الشيء إذا كان مجاوراً له أو كان منه بسبب[(3)]" وقال أيضاً : " فالعرب تستعير

(1) أدب الكاتب/ 50، 51.

(2) نفسه/ 38، 39.

(3) أدب الكاتب/ 21.

الكلمة فتضعها مكان الكلمة إذا كان المسمّى بسببٍ من الأخرى أو مجاوراً لها، أو مشاكلاً[1]" .

فالمجاز المرسل هو ما كانت العلاقة بين ما استعمل وبين دلالته الأصلية علاقة غير التشبيه[2]، كالعلاقة السببيّة، والمجاورة، والمحليّة، والحاليّة، وكتسمية الشيء باسم جزئه، ومثال ذلك قوله : " وقولهم للنساء " "ظعائن" وأصل الظعائن : الهوادجُ، وكُنَّ يَكُنَّ فيها، فقيل للمرأة : ظعينة، قال أبو زيد : ولا يقال حُمُولٌ ولا ظُعُنٌ إلا للإبل التي عليها الهوادج، كان فيها نساء أو لم يكن[3]" . وقال : " وقولهم للمزادة : "راوية" والراوية : البعير الذي يستقى عليه الماء، فسمِّي الوعاء راوية باسم البعير الذي يَحْمِلُه[4]" .

فقد نقل التطور معنى الكلمة إلى الدلالة على ما يجاورها، فانتقل معنى الظعينة من الهودج الذي تكون فيه المرأة إلى المرأة، وانتقل معنى المزادة من البعير الذي يستقى عليه الماء إلى المزادة .

ومن ذلك أيضاً : "الملّة" يذهب النّاس إلى أنها الخبزة، " يقولون أطعمنا مَلَّة وذلك غلط، إنما الملَّة موضع الخبزة، سمي بذلك لحرارته، ومنه قيل : " فلان يتململ على فراشه[5]" . فالعلاقة هنا علاقة محلية، فقد سمى الناس الخبزة باسم موضعها، وهي الملّة . ومن ذلك قوله : "يقولون للنبات : نَوْءٌ لأنه يكون عن النوء عندهم[6]" .

وقال : " ويقولون للمطر : سماء، لأنه من السماء ينزل، فيقال : ما زلنا نطأ السماء

---

(1) تاويل مشكل القرآن / 135 .

(2) الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني / 397 .

(3) أدب الكاتب / 64 .

(4) نفسه / 64 .

(5) نفسه / 37 .

(6) تأويل مشكل القرآن / 135 .

حتى أتيناكم [1]" .

فالعلاقة هنا سببية لأنَّ النوء سبب النبات، ولأنَّ السماء سبب المطر .

ومن مظاهر التطور الدلالي التي تنبّه عليها ابن قتيبة ظاهرةُ تخصيص الدلالة العامّة، وأدرك أنَّ في اللغة ألفاظاً تضيق بعد سعة، فتنتقل دلالتها من العام إلى الخاص، ويساعد على ذلك تنظيم الحياة، وسنُّ القواعد، ووضع التشريعات الضابطة، ومن هذا نرى تغيير دلالة كثير من الكلمات التي كان يشيع استعمالها في معانٍ خاصة كالصلاة والزكاة والنفاق، والوضوء، والأذان، والتَّيمُّم، وهذه الكلمات وغيرها، لم تكن العرب تعرفها قبل الإسلام بمدلولاتها التي استعملها المسلمون، وفطن ابن قتيبة إلى ما أحدثه الإسلام من تغيير عميق في حياة العرب تناول جوانبها المختلفة كالتفكير والمعتقد وروابط الاجتماع، واقتضى هذا التغيير في الفكر والسلوك تغيير المفاهيم وتطوير الدلالات في اللغة لتغدو الألفاظ القديمة قادرة على ترجمة الدلالات الجديدة .

ويقول الدكتور علي عبد الواحد وافي مبيناً أثر القرآن والحديث والإسلام في اللغة العربية :

" أمَّا المفردات ودلالتها فكان الأثر فيها واضحاً كل الوضوح . فقد تجرد كثير من الألفاظ العربيّة من معانيها العامّة القديمة، وأصبحت تدل على معانٍ خاصة تتصل بالعبادات والشعائر أو شؤون السياسة والإدارة والحرب، أو مصطلحات العلوم والفنون [2]" .

ومن الألفاظ التي ذكرها ابن قتيبة، وتطورت دلالتها من العام إلى الخاص، لفظ "الصلاة" وقال : " أصل الصلاة : الدعاء، وقال الله عزّ وجل : ﴿ وصلِّ عليهم إنّ صلاتك

(1) نفسه / 135.

(2) فقه اللغة / 119.

سكن لهم ﴾[1]، أي : ادع لهم، وقال تعالى : ﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ﴾[2]، أي دعاؤه، فسمّيت الصلاة بذلك لأنّهم كانوا يدعون فيها[3]" .

فالصلاة معناها في الأصل : الدعاء، ثم تخصص استعمالها في العبادة المعروفة في الإسلام .

ومن ذلك لفظ " الوضوء للصلاة " فقد تخصص مدلوله بعد الإسلام، وقال ابن قتيبة : هو من الوضاءة، والوضاءة : النظافة والحسن، ومنه قيل : فلان وضيء الوجه، أي نظيفه وحسنه ... والوضوء الذي حدَّده الله تعالى في كتابه للصلاة، هو غسل الوجوه والأيدي إلى المرافق، والمسح بالرؤوس والأرجل، والغسل للرجل وغيرها[4] .

وقال في " النفاق " : "النفاق : مأخوذ من نافقاء اليربوع، وهو جحر من جحرته يخرج منه ... وكذلك المنافق يدخل في الإسلام باللفظ ويخرج منه بالعقد ... والنفاق لفظ إسلامي لم تكن العرب قبل الإسلام تعرفه[5]" .

ومن الألفاظ التي كان لها في الأصل معنى عام، ثم تخصصت دلالتها على معنى أضيق لفظة "الطرب" وقال فيها ابن قتيبة : "الطرب" يذهب النّاس إلى أنّه في الفرح دون الجزع، وليس كذلك، إنّما الطّرب خفةٌ تصيب الرجل لشدّة السرور، أو لشدّة الجزع[6]" .

ومن ذلك "المأتم" يذهب النّاس إلى أنّه المصيبة، ويقولون : كنّا في مأتمٍ، وليس كذلك،

---

(1) التوبة/ 103 .

(2) التوبة/ 99.

(3) غريب الحديث 1/ 167 .

(4) نفسه 1/ 153 .

(5) تفسير غريب القرآن/ 29 .

(6) أدب الكاتب/ 22، 23 .

إنّما المأتم النساء يجتمعن في الخير والشر "[1] .

ومن ذلك "الحَمَامُ" يذهب النّاس إلى أنّها الدواجن التي تستفرخ في البيوت، وذلك غلط، إنّما الحمام ذوات الأطواق وما أشبهها مثل الفواخت والقماريّ والقطا، قال ذلك الأصمعيُّ، ووافقه عليه الكسائي "[2] .

ومن مظاهر التطور الدلالي التي تعرض لها ابن قتيبة "تعميم الدّلالة الخاصة" ، "فكما يصيب التخصيص دلالة بعض الألفاظ قد يصيب التعميم البعض الآخر، غير أن تعميم الدلالات أقلّ شيوعاً في اللغات من تخصيصها، وأقل أثراً في تطور الدلالات وتغيرها "[3] .

فالتعميم لا يتم إلاّ ببطء، لأن توسيع المعنى يحتاج إلى شيوع الدلالة وتداولها ورسوخها في أذهان المتكلمين باللغة .

ومن الألفاظ التي مثَّل لها ابن قتيبة في ظاهرة التعميم لفظ "القافلة" وقال : "يذهب النّاس إلى أنّها الرفقة في السفر، ذاهبة كانت أو راجعة، وليس كذلك، إنما القافلة الراجعة من السفر، يقال: قفلَت فهي قافلة، وقفل الجند من مبعثهم، أي : رجَعوا، ولا يقال لمن خرج من العراق إلى مكة قافلة حتى يصدروا "[4] .

ومن ذلك السبب : أصله الحبل، ثم قيل لكل شيء وصلت به إلى موضع أو حاجة تريدها : سبب "[5] .

ومن ذلك : " الرَّجم : أصله الرمي .. ثم يستعار فيوضع موضع القتل، ويوضع موضع

(1) نفسه / 24 .

(2) نفسه / 25 .

(3) دلالة الألفاظ، للدكتور إبراهيم أنيس / 154 .

(4) أدب الكاتب / 24 .

(5) تاويل مشكل القرآن / 464 .

الشتم .. ويوضع موضع : الظن "(1) .

ومن مظاهر التطور الدلالي التي تعرّض لها ابن قتيبة ظاهرة انتقال الدلالة من المحسوس إلى المجرّد، وهذه الظاهرة أخصب الظواهر في تطور الدلالات في اللغة العربية، نظراً لما تتسم به من خاصيّة الاشتقاق التي تساعد على توليد ألفاظ جديدة تساير تطور العقل وإدراكه للمعنويات والمجردات، وتحويل اهتمامه عن المحسوسات، ويقول الدكتور حسن ظاظا : " وإذا كان الاسم في لغة الرجل القديم قد اقترن بوجود المسمّى، فلا عجب إذن من أن نجد الأسماء القديمة كلها كانت لمسميَّات محسوسة .. كذلك راح الفكر الفلسفي عند البشر يزداد رقيًّاً، وبدأ الإنسان يتطلع إلى الغيبيات والمعقولات والمجردات، وكان عليه حينئذ أن يجعل لها أسماء تعبر عنها، فنقل كثيراً من أسماء المحسوسات إلى دلالات معنوية "(2) .

لقد انتقل الإسلام بالعرب من البداوة إلى الحضارة، وحوّل اهتمامهم من الحواس والغرائز إلى العقل والتفكير، فكانت اللغة العربية تواكب هذا التطور، وتمدُّه بألفاظ تلبي حاجة المجتمع الجديد للتعبير عن المدلولات الجديدة . " وبقدر ما تكون الحضارات حيّة وغنيّة في أصالتها يكون منسوب تأثيرها في اللغات، حتى لتوشك اللغات أن تكون وعاء لها أو صورة عنها، ولعلَّ مردَّ ذلك إلى طبيعة العلاقة "الجدلية" بين اللغة والفكر، فإبداع الفكر في حاجة إلى لغة تصوغه وترصده، ومعطيات اللغة المتجددة مرهونة بتحريض الفكر ورقيه واحتياجاته، إنّهما كوجهي قطعة نقد واحدة، أو كطرفين متحالفين متلازمين في قضية واحدة، وبينهما قاسم مشترك من التأثير لا غنى عنه إزاء التطور التاريخي للوعي الإنساني "(3) .

وقد رصد ابن قتيبة تطور دلالة عدد كبير من الألفاظ، وانتقالها من المحسوس إلى المجرد،

(1) نفسه / 508.

(2) كلام العرب / 42.

(3) دراسات في اللغة / 191.

واستدلّ بأصولها في اللغة على معانيها، من ذلك ما قاله في تفسير ما يستعمل من الدعاء في الكلام، نحو : " أرغم الله أنفه " أي : ألزقه بالرُّغام، وهو التراب، ثم يقال " على رغْمه" و "على رَغْمِ أنْفه [1]" .

ومن ذلك ما ذكره في باب " تأويل كلام من كلام النّاس مستعمل " نحو :

"يقولون : حَلَب فلان الدّهر أشْطُرَهُ " أي : مَرَّت عليه صُرُوفُهُ من خيره وشرِّه، وأصله من أخلاف النَّاقة، ولها شطران : قادمان، وآخران، وكَلُّ خِلْفين شَطر [2]" .

ومن ذلك : "يقولون : " ادفعه إليه برُمَّته " وأصله أنَّ رجلاً دفع إلى رجل بعيراً بحبل في عنقه، والرّمّة : الحبل البالي، فقيل ذلك لكل من دفع شيئاً بجملته ولم يحتبس منه شيئاً يقال : "ادفعه إليَّ برُمته " أي : كُلَّه [3]" .

ومن ذلك : "يقولون : فلان نسيج وحْده " وأصله أنّ الثوب الرفيع النفيس لا يُنْسجُ على مِنواله غيره، وإذا لم يكن نفيساً عُمِل على منواله عِدَّة أثواب، فقيل ذلك لكل كريم من الرِّجال [4]" .

ومن ذلك : "يقولون : " عمل به الفاقرة " وهي الداهية، يراد أنّها فاقرة للظهر، أي : كاسرة لِلْفقار، ويقال : هو من " فقرْتُ أنف البعير " إذا حَزَزْته بحديدة، ثم وضعت على موضع الحزِّ الجريرَ وعليه الوتر الملْويُّ لِتُذَلّله وتروِّضه [5]" .

وقد تتبع ابن قتيبة مظاهر نمو اللغة بالتطور الصوتي، وما يطرأ على ألفاظ اللغة من تبدل

---

(1) أدب الكاتب / 48 .

(2) أدب الكاتب / 50 .

(3) نفسه / 51 .

(4) نفسه / 52 .

(5) نفسه / 55 .

في أصواتها من الداخل، ويقول الدكتور مسعود بوبو مبيناً مظاهر نمو اللغة بالتطور الصوتي : " صحيح أنَّ التطور الصوتي في اللغات قد يكون بطيئاً لا يكاد يلحظ، كما هي الحال في اللغة العربية التي حافظت على أصول أصواتها فبدت صفاتُ معظمها متفقة في القديم والحديث، ولعلّ مردّ ذلك إلى توارث الرواية الشفهية في الأشعار وقراءة القرآن الكريم، ولكنَّ الصحيح أيضاً أن النظام الصوتي بعيد كل البعد من أن يكون ثابتاً طوال تطور لغة من اللغات . ويستطيع الإنسان أن يفهم ذلك بسهولة إذا فكر في الصورة التي ينتقل بها وفي الشروط التي تمسك عليه توازنه [1]" .

وذكر ابن قتيبة في (باب المبدل [2]) عدداً من الألفاظ المبدلة دون أن يشير إلى كيفية نشوئها أو بيان العلاقة التي تربط بين الحرفين المبدلين، من ذلك :

" قالوا : " مَدَهْتُه " بمعنى " مَدَحْتُه " و "الأيم" و "الأين" الحيَّة والقبر "جَدث" و"جَدَف" [3]" .

و "انتفَيْتُ من الشيء" و "انتفلْتُ" سواءٌ، " أرقتُ الماءَ " و "هرقْتَه [4]" .

قال الفراء : " غُمَار الناس " و " خُمارُهم " . و " لَصِقَ " و " لزِق " و " لَسِق " ، "سَحَقْتُ الزَّعفران " و " سَهَكْتُه [5]" .

فقد ذكر ابن قتيبة اللفظتين معاً ولم يشر إلى الأصل أو وجود العلاقة الصوتية بين الحرفين المبدلين، ولم يربط الإبدال باللهجات .

وصفوة القول : أنَّ ابن قتيبة قد أدرك عوامل التطور الدلالي والتطور الصوتي، ورصد

---

(1) دراسات في اللغة : 192، واللغة لفاندريس / 64 .

(2) أدب الكاتب / 485.

(3) أدب الكاتب / 485.

(4) نفسه / 487.

(5) نفسه / 487.

مظاهر الثراء اللغوي في العربيّة، ووقف عند ظواهر لغوية تعدّ من صميم المباحث الدلالية كالترادف والاشتراك والتضاد، وكانت دراساته اللغوية وآراؤه تمثل إدراكاً واضحاً لهذه المباحث الدلالية، فهو وإن أقرّ بوجود تلك الظواهر اللغوية إلاّ أنه لم يبالغ في قبولها، ودفعه التزامه بصون اللغة من اللحن إلى التشدد في الدفاع عن معانيها وعدم قبوله الاستعمالات الجديدة دون ضابط أو معيار، ملتزماً منهج أستاذه الأصمعي الذي يعد رأس المتشددين في المحافظة على سلامة العربية كما وردت عن العرب .

الفصل الثالث

جهود ابن قتيبة اللغوية

في معالجة المعرَّب والدَّخيل

المعرب والدخيل

(أ) تمهيـد :

اختلط العرب بالأعاجم منذ العصر الجاهلي، لأغراض سياسة وتجارية واجتماعية، وقد كان من نتائج هذا الاختلاط أن فشت في منطق المتحضرين ألفاظ كثيرة من الدخيل، ودخلت في اللغة العربية مئات من الكلمات من لغات شتى، وتكلمت بها العرب، وأوردها الفصحاء في كلامهم، وذكرها الشعراء في أشعارهم، وتأثرت العربية باللغات الفارسية والحبشية والآرامية وغيرها، والسبب في ذلك أن تلك اللغات كانت تمثل حضارة ذلك العصر ومدنيّته .

وإنّ البحث في ظاهرة اقتراض الألفاظ بين اللغات أمر طبعي يحدث نتيجة الاحتكاك المادي والثقافي، ويؤدي إلى تفاعل اللغات وتجاورها، ويعلل الدكتور مسعود بوبو وجود الدخيل في لغتنا العربية ويقول : " ولغتنا العربية ليست بدعاً بين اللغات، فلم يكن أصحابها معزولين عن الاختلاط بالأقوام المجاورة لهم، ولا كانت هي بريئة من التأثير في اللغات أو نقية من التأثر بها . . . ولقد أثبت البحث العلمي أنَّ العربيّة أعطت هذه الأمم وخاصة بعد الإسلام – أكثر ممّا أخذت منهم بكثير، بل إن بعضها قد أخذ من الحروف العربية رموزاً للكتابة في لغته، وما زال يستخدمها إلى اليوم، فضلاً عمّا أخذ من الألفاظ العربيّة [1]" .

ويقول الدكتور حسن ظاظا مبيناً وجود ظاهرة الدخيل في العربية : "ووجود الدخيل في لغتنا العربية هو صورة لظاهرة عامة في كل اللغات . فهي جميعاً تستورد الدخيل بحسب حاجتها، ويتسرَّب إليها أيضاً رغم أنفها، إذ لا يكاد يعقل أن تتم عملية تبادل

(1) أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج/ 5، 6 .

حضاري غير مشفوعة بتبادل لغوي في الوقت ذاته...[1]" .

ولا شكَّ أنَّ اقتراض الدخيل كان أمراً متوقفاً على ما تمليه طبيعة الحياة العربية بعامَّة غير مرهون بالحذر والتحفظات المبكّرة المتّصلة بتصوُّر الخطر على اللغة، وخاصّة في المرحلة التي تسمى بالعصر الجاهلي[2] .

وقد ازدادت فرص الاحتكاك بين العرب والأمم المغلوبة بعد الفتوحات الإسلاميّة، وقد نجم عن هذا الاحتكاك، وعن التطور الطبيعي للحضارة العربية أن ظهرت مستحدثات كثيرة، لم يكن للعرب عهد بها من قبل في ميادين الاقتصاد والسياسة والاجتماع والإنتاج الفكري، فانتقل من جراء ذلك إلى اللغة العربية عدد كبير من مفردات اللغات الفارسية والسريانية واليونانية والتركية والكردية والقبطية والبربرية والقوطية . وقد ظهرت آثار اللغتين الفارسية واليونانية في ألسنة فصحاء العرب أنفسهم في العصور التي اصطلح على تسميتها "بعصور الاحتجاج" .

ويفسر الدكتور مسعود بوبو اقتراض العربية من اللغات الأخرى المسميات المتَّصلة بالأمور المادّية والصناعية بخاصة، بأن حاجة العرب إلى الدخيل أملتها طبيعة حياتهم الناقصة حضارياً لا طبيعة لغتهم الناقصة دلالياً أو تركيباً وبنية، ويلخص موقفه من ميل العرب إلى استعمال الكلم الدخيل عوضاً من الأصيل بجملة أسباب، منها :

1 – سبب لغوي لفظي يتصل بما للكلمة من خفة وجرس ووقع أو قبول وذيوع بين الناس .

2 – سبب اجتماعي له صلة بطبيعة العلاقات التبادلية لهذه الماديات بين العرب والأقوام الأخرى، فيكون في استخدام العربي لها وسيلة إيصال أسرع وأجدى في التعامل والتفاهم .

---

(1) كلام العرب من قضايا اللغة العربية / 63.

(2) أثر الدخيل على العربية الفصحى / 368، 369.

3 – سبب مادي أو خاص يتعلق بجودة الصنف المسمَّى وشكله ومميزاته، فقد يختلف هذا الصنف من قوم إلى قوم، والأفضل أو الأكثر قبولاً وجودة بين الناس ينتشر مع اسمه العربي إن كان عربياً أو الأعجمي إن كان أعجمياً .

4 – ربما كان التلفظ بالاسم الأجنبي عند بعض الناس محل مباهاة تُزيّن لهم – على ضحالتها وسذاجتها – سعة المعرفة والاطِّلاع وتجعل منهم محل إعجاب وموضع ثقة وإنصات.

5 – وفوق هذا، يؤكد التتبع التاريخي أنَّ قسماً من هذا المقابل العربي غير عريق الأصالة والقدم في العربية، وإنما هو مسمًّى طارئٌ، بني على أية مناسبة من قرينة أو تشابه بينه وبين الدخيل [1]" .

(ب) المعرَّب والدَّخيل :

1 – مفهوم الدخيل لغة واصطلاحاً

يقول ابن فارس في تحديد أصل دلالة كلمة "الدخيل" : الدال والخاء واللام أصل مطّرد منقاس، وهو الولوج . يقال : دخل يدخل دخولاً . . . وبنو فلان في بني فلان دخيل: إذا انتسبوا معهم . .

ودخيلك : الذي يداخلك في أمورك [2]" .

ويشير ابن فارس إلى اختلاف الدّخيل عن الأصيل بقوله :

" والدَّخل كالدَّغل، وهو من الباب، ثم يقول في مادّة (دغل) . أدْغَل في الأمر، إذا أدخل فيه ما يخالفه [3]" .

(1) أثر الدخيل على العربية الفصحى / 376-371 .

(2) معجم "مقاييس اللغة" دخل، نقلاً عن المرجع السابق / 23.

(3) مقاييس اللغة / دخل، ودغل .

فالدخيل هو : ولوج ذي أصل غريب في أصل آخر يخالفه، وهو بهذا الاعتبار طارئ على ما سواه مجتلب إليه .

ولم يشع الدّخيل في اللغة مصطلحاً متفقاً عليه بين اللغويين العرب، بهذا التعيين الدقيق، فقد أطلقوا على المفردات الأجنبية التي دخلت في اللغة العربية اسم " المعرّب والدَّخيل "، وبدأ الدّخيل في العربية الفصحى يعرف ويسمَّى مقروناً بالأعجمي والمعرَّب والمولَّد، ويوجّه الدكتور مسعود بوبو تسمية الدخيل بالأعجمي ويقول : " الأعجمي في عرف القدماء ضدّ العربي، أو كل ما ليس بعربي، سمّي الأعجم بذلك لأنه لا يفصح ولا يبين كلامه، وكل من لا يقدر على الكلام أصلاً فهو – عندهم – أعجم . والعربي : الذي يفصح و (يعرب) عمًّا في نفسه . والدّخيل أعجمي الأصل أيّتما حال لكونه صدر ابتداء عن أولئك الأعاجم . . . وعلّة ازدواج التسمية مردُّها إلى اعتبارين في التقدير :

– الأول : اعتبار لغوي يتّجه بالتّسمية إلى أصل الاشتقاق : "عجم" . . . والعجماء، في هذه المادة: البهيمة، سميت عجماء لأنَّها لا تتكلم، وما سمّي الأعجم أعجم لأنّه لا يتكلّم، بل لأنهم لا يفهمون كلامه . . . فمن هنا قالوا : اللسان الأعجمي، والكلام الأعجمي، والرجل الأعجم .

– أما الاعتبار الثاني في تقدير التّسمية فيتّجه إلى المعنى اللغوي العام في أصل لفظة الدخيل لغة . وهو ما ارتضاه المحدثون بديلاً عن الأعجمي لاقتناعهم الداخلي بأنَّ اللسان الأعجمي يمكن أن يفصح، والكلام الأعجمي يمكن أن يفهم. . "[1] .

فإطلاق اللغويين مصطلح "الدخيل" و "الأعجمي" على ما دخل اللغة العربية من مفردات أجنبية لا ينطوي على إخلال كبير بالحقائق، وقد يقبل أيضاً مثل هذا التوسع والترخص بضم "المعرَّب" إليهما على التعميم أو التغليب . . . "[2] . ويوضح الدكتور

(1) أثر الدخيل على العربيّة الفصحى / 31.

(2) نفسه / 33.

مسعود بوبو الفرق بين المصطلحين ويقول :

صحيح أنَّ هناك حقيقة مبدئية لا يمكن إنكارها هي كون المعرّب دخيلاً أو أعجمياً في الأصل، أي قبل أن يعرّب، ولكنّ أمرين أساسيين يستتبعان هذه الحقيقة، الأول : أنَّ هذا المعرّب قد اكتسب بتعريبه صفة جديدة عند المعرّبين واللغويين، وإلاّ اعتبر عملهم مُلغىً، ثم إنه بهذا التعريب تغير شكله وجرسه، وربما دلالته، وبالتّالي لم يبق هو هو .

الثاني : أن علماء اللغة أطلقوا عليه مصطلحاً جديداً واستنُّوا بشأنه سنناً وشرائط، وساقوا أدلة وبراهين لتعرُّفه، هي غيرها ممّا يتَّصل بالدَّخيل على وجه فهمهم أو تصورهم له . . . "[1] .

فالمعرَّب يطلق على اللفظ المنقول إلى العربيَّة في عصر الاحتجاج، ذلك بأن يرد في القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف أو كلام العرب الذين يحتج بكلامهم، وثمة خلط بين المعرّب والدّخيل والمولّد عند بعضهم لا مجال هنا للخوض في تفصيلاته . وخلاصة القول إن مصطلح الدخيل أعم وأشمل من المعرَّب، فالمعرّب هو دخيل أو أعجمي في الأصل، قبل أن يعرّب، والدّخيل يطلق على كل ما دخل في اللغة العربية من اللغات الأجنبية سواء أكان ذلك في عصر الاحتجاج أم بعده، وسواء أخضع عند التعريب للأصوات والأبنية العربية، أم لم يخضع، وسواء أكان نكرة أم علماً .

ولذلك سمَّى الخفاجي كتابه : " شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل " . فذلك يشمل المعرَّب والمولَّد والأعجمي .

(ج) الدَّخيل والقرآن الكريم :

لقد كان فضل القرآن عظيماً على اللغة العربية، إذ دعا الباحثين وعلماء اللغة إلى العناية بلغته، واجتهدوا بتحديد معاني غريبه وتفسير آياته وتعلم ضروب البلاغة من

---

(1) المرجع السابق/ 33.

إعجازه وفصاحته .

ووجد علماء العربية أنفسهم أمام ألفاظ ما هي بالعربية الصريحة، وربما كانت وقعت لهم معرفتها من لغة أخرى ألمّوا بها فامتثل أمامهم ذلك السؤال الكبير : هل في القرآن الكريم كلام أعجمي؟ . . ولا تزال الإجابة محل أخذ وردّ إلى اليوم [1] ويلخص السيوطي اختلاف أهل العلم في هذا الموضوع بقوله : " اختلفت الأئمة في وقوع المعرّب في القرآن، فالأكثرون ومنهم الإمام الشافعي وابن جرير وأبو عبيدة والقاضي أبو بكر وابن فارس على عدم وقوعه فيه [2]" . ثم قال : " وذهب آخرون إلى وقوعه فيه " .

وأضاف :

"وأقوى ما رأيته للوقوع وهو اختياري، ما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن أبي ميسرة التابعي الجليل قال : في القرآن من كل لسان، وروي مثله عن سعيد بن جبير ووهب بن منبه . . . ثم رأيت ابن النقيب صرّح بذلك فقال : من خصائص القرآن على سائر الكتب المنزلة أنها نزلت بلغة القوم الذين أنزلت عليهم ولم ينزل فيها شيء بلغة غيرهم، والقرآن احتوى على جميع لغات العرب وأُنْزِل فيه بلغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شيء كثير [3]" .

ويحلل الدكتور مسعود بوبو آراء الفريقين حول هذه القضية ويقول : " فالاتجاه الأول المتشدّد (كأبي عبيدة وابن جرير والشافعي وغيرهم) يذهب إلى الاحتجاج على عدم الوقوع بالآيات الكريمة التي تنص على عربيّته صراحة، أو باتفاق توارد الوقوع في اللغات، أو باتساع لغة العرب بحيث لا يحيط بها إلا نبيّ .

---

(1) أثر الدخيل على العربية الفصحى / 71 .

(2) الإتقان / 136، نقلاً عن المرجع السابق .

(3) نفسه / 137 .

ويحتج الفريق الثاني بتوجيه الآيات إلى معنى آخر كقولهم إنّ الكلمات اليسيرة بغير العربية لا تخرجه عن كونهِ عربياً ... " .

ويضيف :

إذا ما أخذنا هذه الجهود اللغوية بمعايير البحث العلمي في ظاهرة الدخيل . أو بمعايير الدراسة اللغوية للنصوص نجد أنّها لا تكاد تتعدى الإطار النظري الذي يرمي إلى الدفاع عن قضية أخرى لا يشكل الدخيل فيها أكثر من طرف ثانوي عارض، محور تلك القضية في الأصل هو خدمة النص القرآني . أمَّا التوقف عند الدخيل فيتحدد بمدى ما لعلاقة الدخيل بكلم القرآن الكريم من أهمية، لا باعتباره يشكل موضوعاً قائماً بذاته ينعقد عليه البحث[1] .

(د) ضوابط لمعرفة الدَّخيل :

نشط علماء اللغة يضعون القواعد العامَّة والضوابط لمعرفة الألفاظ الدخيلة وقال أبوحيَّان في الارتشاف : " الأسماء الأعجمية على ثلاثة أقسام : قسم غيَّرته العرب وألحقته بكلامها، فحكم أبنيته في اعتبار الأصلي والزائد والوزن، حكم أبنية الأسماء العربية الوضع، نحو درهم، وبَهْرَج، وقسم غيَّرته ولم تلحقه بأبنية كلامها، فلا يعتبر فيه ما يعتبر في القسم الذي قبله، نحو آجرّ وسِفْسِير . وقسم تركوه غير مغيّر، فما لم يلحقوه بأبنية كلامهم لم يُعَدَّ منها، وما ألحقوه بها عُدَّ منها، مثال الأول خراسان، لا يثبت به فُعَالان، ومثال الثاني خُرَّم، ألحق بسُلَّم، وكُرْكُم ألحق بقُمقُم [2]" .

ويوضح الدكتور مسعود بوبو أدلة معرفة الدخيل ويقول : " والألفاظ التي دخلت العربية من لغات أخرى، وقيض لها أن تستمر، لحظ القوم فيها أعراضاً متشابهة من التغيير،

(1) أثر الدخيل على العربية الفصحى / 74.

(2) المزهر 1 / 131 .

أو سمة مطردة انقادت فيها لطبائع العربية في الحذف أو الوزن أو الصوتية أو الإلحاق، فأخضعوها إلى تصنيف متجانس، أو أدرجوها في باب واحد اتخذ دليلاً على عدّها في الدخيل، ثم صار شرطاً لإدخال أمثالها في العربيّة "[1].

ويضيف قائلاً :

" وفي مقدمة ما اعتمد عليه اللغويون القدامى من أدلة معرفة الدخيل : السماع، فاللفظة المسموعة من العرب الأقحاح – وإن تشابهت عليهم – مالوا إلى اعتبارها عربيَّة، وراحوا يبحثون عن أصل يشتقّونها منه . ومن السماع تصريح أئمة اللغة بأنَّ اللفظ فارسي أو رومي أو دخيل أو أعجمي أو معرَّب، ومثل هذا سماع مرفوع مسند . . .

ولهم بعد السماع أدلة أخرى تتجه إلى التغيير الذي يجرونه على بنية اللفظ الدخيل والذي حظيت الحروف فيه بالقسط الأكبر من الاهتمام والمعالجة، ثم اتسعوا في التغيير ليشمل الأوزان والأصوات والحركات مما يندرج تحت علم الصرف . ومن دواعي اهتمامهم بالحروف أنَّهم اعتبروا التغيير في بنية اللفظ الأعجمي غالباً، وإبدال الحروف لازماً، وهم يصدرون في هذا الحكم عن بعد نظر وتفطُّن وحرص على عدم إفساد أصل اللغة وأساسها "أي الحروف" بحروف أجنبية "[2].

إن مظاهر التحريف التي لحقت الكلمات الأعجمية المعرّبة ترجع إلى تحريف في الأصوات، كتبديل حرف أو إسقاطه، أو زيادة بعض الحروف، وإمّا إلى تحريف في الأوزان، وكثيراً ما كان ينال الكلمة الواحدة جميع هذه التغييرات أو معظمها، وقد وصف الجواليقي طريقة تغيير اللفظ المعرّب بقوله :

" اعلم أنهم كثيراً ما يجترئون على تغيير الأسماء الأعجمية إذا استعملوها، فيبدلون

---

(1) أثر الدخيل على العربية الفصحى / 79.

(2) المرجع السابق / 81.

الحروف التي ليست من حروفها إلى أقربها مخرجاً . وربَّما أبدلوا ما بَعُدَ مخرجه أيضاً .

والإبدال لازم لئلا يدخلوا في كلامهم ما ليس من حروفهم .

وربَّما غيَّروا البناء من الكلام الفارسي إلى أبنية العرب .

وهذا التغيير يكون بإبدال حرف من حرف، أو زيادة حرف، أو نقصان حرف، أو إبدال حركة بحركة، أو إسكان متحرك، أو تحريك ساكن . وربّما تركوا الحرف على حاله لم يغيّروه "[1] .

فاللغويون والمعرّبون حاولوا أن يجروا على اللفظ المنقول إلى اللغة العربيّة أحكام اللفظ العربي، فإذا جاء في كلام العرب مثل ذلك اللفظ في الوزن والحروف، فإنهم ينقلونه بعينه، وتجري عليه أحكام اللفظ في العربية من لام التعريف والتنوين وغير ذلك، وقد بيّن ذلك سيبويه وقال :

" اعلم أنهم ممَّا يغيّرون من الحروف الأعجمية ما ليس من حروفهم ألبتة، فربَّما ألحقوه ببناء كلامهم، وربَّما لم يلحقوه "[2] .

وقد حاول سيبويه بالإلحاق أن يجد للأعجمي الدخيل قوالب وصيغاً مستساغة مقبولة عن طريق قواعدِ العربيَّة .

ويبيِّن الدكتور مسعود بوبو جهود اللغويين القدماء في هذه القضية ويقول : "لم يول القدماء أهمية كبيرة للدَّخيل من حيث صيغته توسُّلاً إلى معرفته، وإنما أولوه أهمية قصوى من حيث محاولة ترويضه وتطويعه على قبول الانقياد للصيغ العربية والاطّراد معها. وهذا أمر يمكن تتبُّعه في القواعد العربية بعامّة، لكنَّ المهمَّ هنا ألا يعوَّل على شذوذ الصيغة وحده

(1) المعرّب/ 94.

(2) الكتاب 2/ 342.

في معرفة الدَّخيل من غير امتحانها على محك العربية في النسب والتصغير والجمع والمشتقات حتى يكون قبولها لأساليب العربية في ذلك أو نفورها منه أمراً مرجحاً لفرز الدخيل من الأصيل"[1] .

ويتلخص منهج تعريب الألفاظ المنقولة في ضوء أقوال علماء اللغة، بتبديل الأصوات التي ليست من أصوات العرب إلى أقربها مخرجاً لئلا يدخل في كلامهم ما ليس في أصواتهم أو بتغيير بناء الكلمة المقترضة إلى أبنية العربيَّة، أو بترك اللفظ الأعجمي على حاله إذا كان موافقاً لأحكام اللفظ العربي في الأصوات والصيغ أو بنية الكلمات .

وقد ذكر الجواليقي الوجوه التي يعرف بها اللفظ الدخيل في مقدمة كتابه، وعقد لذلك باباً عنوانه " ما يعرف من المعرَّب بائتلاف الحروف "[2] بين فيه الضوابط التي وضعها علماء اللغة لمعرفة الدخيل بائتلاف حروفه، فقد يتكون من حرفين متنافرين لا يجتمعان في كلام العرب، ومن أمثلة هذا النوع التي أشار إليها في قوله : لم تجتمع الجيم والقاف في كلمة عربية . فمتى جاءتا في كلمة فاعلم أنّها معرّبة . من ذلك جَلَوْبق وجَرَنْدَق والجَوْقُ والقَبْجُ ورجل أجْوق . . .

ولا تجتمع الصاد والجيم في كلمة عربية . من ذلك : الجِصُّ والصَّنْجةُ والصَّولجان ونحو ذلك . . . .

ولم يحك أحد من الثقات كلمة عربية مبنية من باء وسين وتاء . فإذا جاء ذلك في كلمة فهي دخيل"[3] .

وقد يتكون الدّخيل من حروف تجتمع في كلام العرب غير أنّها تلتزم ترتيباً خاصاً في

---

(1) أثر الدخيل على العربية الفصحى / 86.

(2) ينظر الباب ص/100/ من المعرّب .

(3) المعرب / 100.

تاليفها . وورودها في كلمة بغير هذا الترتيب يدل على أنّها دخيل، وقد أشار الجواليقي على أمثلة هذا النوع في الباب نفسه، وقال : " وليس في أصول أبنية العرب اسم فيه نون بعدها راء فإذا مرّ ذلك فاعلم أنَّ ذلك الاسم معرَّب نحو : نَرْجِسٍ ونَرْس ونَوْرَجٍ ونِرْسَتان ونرجَةٍ . . .

وليس في كلامهم زايٌ بعد دالٍ إلاّ دخيل من ذلك الهِنْدازُ والُمهَنْدِزُ وأبدلوا الزاي سيناً فقالوا المُهَنْدِس .

وأخف الحروف حروف الذّلاقة وهي ستة : ثلاثة من طرف اللسان وهي الراء والنون واللام . وثلاثة من الشفتين وهي الفاء والباء والميم . . .

فإذا جاءك مثال خماسي أو رباعي بغير حرف أو حرفين من حروف الذلاقة فاعلم أنه ليس من كلامهم مثل " عقْجشٍ " و " حُظَائِجٍ " ونحو ذلك . . . "[1] .

وقد عُني علماء اللغة بتمييز الكلمات الدخيلة الأجنبية وحصرها، وألف بعضهم في ذلك مؤلفات تعنى بالمعرّب في اللغة، وكانت بدايات التأليف في هذا الفن حين تناول علماء اللغة المعرّب في القرآن الكريم، ثم بحثوا في المعرّب في اللغة كلها دون أن يقصروا هذا الفن على المعرّب القرآني، فأولوه عنايتهم في مؤلفاتهم وموسوعاتهم اللغوية، ولم يفردوا له في بداية الأمر رسائل متخصصة، بل أفردوا له بعض الأبواب في كتبهم ومصنفاتهم ومعاجمهم، وقد أفرد أبو عبيد القاسم بن سلام (–224 هـ) بعض الفصول للمعرّب في كتابه " الغريب المصنّف "، كما عقد ابن قتيبة فصلاً في كتابه " أدب الكاتب " وعنوانه " ما تكلم به العامّة من الكلام الأعجمي " . ثم توالى التأليف في هذا الفن حتى وضع الجواليقي (–540) كتاب " المعرّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم " وهو الكتاب الأوّل المتخصص بالمعرّب . وقد انطوى عمل الجواليقي على قضية هامّة جديرة

(1) نفسه/ 100و 101 .

بالتأمل، هي أنّه عزا ألفاظاً كثيرة من مادّة كتابه إلى اللغات الأعجمية استناداً إلى أقوال أئمة اللغة السابقين له، كأبي عبيدة والأصمعي وابن السِّكيت وابن قتيبة وابن دريد وغيرهم، ولم يول الجانب النظري فضل عناية، ولم يقم بمقارنة بين العربية واللغات التي أمدَّتها بالدَّخيل، بل اكتفى بمقدمة مجتزأة تشير إلى معرفة مذاهب العرب في استعمال الأعجمي .

(هـ) جهود ابن قتيبة اللغوية في المعرّب والدّخيل :

أولى ابن قتيبة المعرّب في اللغة عنايته، ورصد استعمال عدد من الألفاظ الدخيلة في اللغة العربيّة، وعقد فصلاً في كتابه " أدب الكاتب " عنوانه : "ما تكلم به العامة من الكلام الأعجمي"[1] . ويبدو أن عنوان الفصل غير صحيح، لأنّ قصر استعمال تلك الألفاظ على لغة العامَّة أمرٌ يدعو إلى الغرابة والتساؤل، وقد ورد في حاشية التحقيق عنوان آخر لهذا الباب " ما يتكلم به العرب "[2] منقول عن النسخة المرموزة بالحرف (و) وأرجّح أن هذا العنوان الصحيح لهذا الباب المعقود في كتاب " أدب الكاتب "، لأنَّ ابن قتيبة نفسه قد روى تلك الألفاظ عن علماء العربيَّة القدامى، كالأصمعي وأبي عبيدة، وقد ذكر أنّها وردت في شعر الفصحاء الذين يحتج بشعرهم، كامرئ القيس وأوس بن حجر، والأعشى والعجَّاج، ولبيد، والشَّماخ وغيرهم .

وإن معرفة ابن قتيبة باللغة الفارسية وببعض اللغات الأعجمية القديمة قد أتاحت له الوقوف على عدد من الألفاظ التي دخلت اللغة العربية وجرت على ألسنة الفصحاء، وأمَّا منهجه الذي اتبعه في رصد تلك الألفاظ فقد كان يحكم على الألفاظ الأجنبية معتمداً

---

(1) ينظر الباب ص/ 495. من أدب الكاتب .

(2) أدب الكاتب (حاشية التحقيق 1/ 495) . وفي الاقتضاب ورد عنوان الباب (باب ما تتكلم به العرب من الكلام الأعجمي) 2/ 261. وفي شرح الجواليقي عنوانه : (باب ما يتكلم به العرب من الكلام الأعجمي) / 247.

على اللغويين الأقدمين، كالأصمعي وأبي عبيدة، وعلى السماع في أغلب الأحيان، وعلى معرفته بأصول تلك الألفاظ وعزوها إلى اللغات الأجنبية التي نقلت منها، وقد التزم الصدق والحيطة والحذر في حكمه على أصل اللفظة، فإذا اطمأن إلى معرفة الأصل في اللغة المنقولة عنها نصَّ على ذلك صراحة، وإذا شك في معرفته استعمل عبارة " وأحسبها " أو "فيما أحسبه"[(1)] .

أما طريقة معالجته لمواده فكان يقدِّم اسم العالم الذي يروي عنه، ويذكر المفردة ويفسرها، ويذكر اللغة التي هي منها، ويذكر أصلها النطقي، من ذلك ما رواه عن الأصمعي وقال : "الأصمعي" : " الزَّرْجُونُ " الخمر، وأصله بالفارسية زَرْكون، أي : لون الذهب"[(2)] .

وكان أحياناً يقدّم الكلمة، ويشير إلى أصلها، ولا يفسرها، من ذلك قوله : " الفُرانِقُ " إنّما هو بَرْوَانه، والعرب تقول : رجل "قُرْبُزٌ " للجُزْبُزِ . ."[(3)] .

. . . و" الفَنزْج " وهو بالفارسية ينْجَكان . .

وكان يكتفي بذكر الكلمة المعربة وعزوها إلى اللغة الأعجمية التي نقلت منها، ولا يذكر أصلها النطقي، ولا يفسر معناها، اعتقاداً منه أن تداول تلك الكلمات قد أغنى عن الإشارة إلى مدلولها، من ذلك : " الطَّسْتُ " و " النَّور " و " القُمقم " بالرومية، و"البُسْتان" فارسي معرّب و " الطّابق " و " الطَّاجِنُ " و " الْهَاوُن " فارسي .

. . . و" الدَّيْدَبان" و" الخَنْدَقُ" و"المَوْزَج " و" المُوقُ " هذه كُلّها فارسيةٌ عُرِّبَتْ . ."[(4)] .

---

(1) أدب الكاتب / 495 .

(2) نفسه / 495 .

(3) نفسه / 498 .

(4s) أدب الكاتب / 501 .

ولم يتطرق ابن قتيبة في حكمه على الألفاظ الدخيلة إلى الضوابط التي اعتمدت في التعريب، ولم يناقش قواعد معرفة الألفاظ الدخيلة أو طريقة إلحاقها بالأبنية العربية، وإنما كان يكتفي بالحكم على أصل الكلمة معتمداً على معرفته باللغتين العربية والفارسية، وبالسماع، وبما ورد في شعر الفصحاء من ألفاظ أعجمية، وبما رواه اللغويون الأقدمون، ونصوا على أنه أعجمي ودخيل .

وكان أحياناً يقدِّم الكلمة الدَّخيلة، ويفسر معناها، ويحكم على أصلها النطقي " ثم يذكر الشواهد التي تؤيد رأيه، كقوله : و "الْكَرْدُ" العنقُ، وأصله بالفارسية كَرْدَن، وأنشد :

وكُنَّا إذا الْقَيْسيُّ نبَّ عَتُودُه ... ضَرَبْناهُ دون الأُنثَيَينِ على الْكَرْد [1]

والأنثيان : الأذُنان [2]" .

وكان أحياناً يقدّم الكلمة الدخيلة، ويفسرها، ثم يذكر الشاهد الذي استعملت فيه بالمعنى الذي نصّ عليه، ثم يعقب بذكر أصلها النطقي، كقوله :

" الدَّسْتُ " الصحراء، وأنشد للأعشى :

قد عَلِمَتْ فارسٌ وحِمْيَرُ والـ ... أعْرابُ بالدَّسْتِ أيُّكُمْ نَزَلاَ [3]

يريد الصحراء، وهي دَسّتْ بالفارسية .

وكان يذكر الشاهد الذي وردت فيه الكلمة الدخيلة، ثم يروي أقوال العلماء في تفسيرها، وينص على اختلافاتهم في الحكم على مدلول الكلمة، ثم يحكم على أصل الكلمة، ويبين نطقها في اللغة المنقولة منها، وأخيراً يذكر معناها الأصلي، كقوله : قال لبيد :

---

(1) البيت للفرزدق، ديوانه 1/ 207.

(2) أدب الكاتب : / 495.

(3) ديوانه/ 273.

قُرْدُمانيـــاً وتَرْكــاً كالبَصَــل [1]

وعن أبي عبيدة هو قَباء مَحْشُوٌّ، وروي عن غيره أنه قال :هي دروع، وأصله بالفارسية كَرْدُمانْد، ومعناه عُمل وبقيَ. . . ." [2] .

ومن ذلك قول العجاج :

مَيَّاحَةً تَمِيحُ مَشْــياً رَهْوَجَــا [3]

قال : الرَّهْوَج المَشْيُ السَّهْلُ، وهو بالفارسية رهْوَار، أي هِمْلاج [4]" .

وتارة يذكر الشاهد الذي وردت فيه اللفظة الدخيلة، ويكتفي بالحكم على مدلولها الأصلي دون أن يذكر أصلها النطقي، كقوله :

قال الشاعر :

وقَــارَفَتْ، وهْيَ لم تَجْــرَبْ، وباع لهــا   من الْفَـصــافِصِ بالنُّمِّيِّ سِـفْــسِــيرُ [5]

والسفسير بالفارسية السِّمْسارُ. . . ." [6] .

وتارة أخرى كان يذكر الشاهد، ثم يذكر أقوال العلماء في عزو الكلمة إلى أكثر من لغة، وينص على اختلافهم في رواية الشاهد، وفي الحكم على مدلولها، كقوله :

وقال الأعشى :

---

(1) ديوانه / 191، وصدره : **فخمة ذفراء تُرْتى بالعرا** .

(2) أدب الكاتب / 497.

(3) ديوانه، 2 / 25.

(4) أدب الكاتب / 498.

(5) البيت يروى للنابغة الذبياني، ديوانه / 204، ويروى لأوس بن حجر، ديوانه / 41.

(6) أدب الكاتب / 499.

وبيْـــــداء تحْـــــسِبُ أرْآمَــــهَـــــا رِجَـــــالَ إيادٍ بـأجْـــيَــــادِهـا [1]

قال أبو عبيدة : أراد " الجودِيَاءَ " بالنبطية أو بالفارسية، وهي الكساءُ والأصمعيُّ يرويه "بأجلادها" أي : بشُخُوصِهَا وَخلَقِها [2]" .

وكان يجتزئ بشطر بيت كشاهد على الكلمة الدخيلة، ويذكر الشاهد تاماً في مواضع كثيرة، وأحياناً يسوق أكثر من شاهد على المفردة الدخيلة يعضد تفسيره ببيت لشاعر جاهلي، وبآخر لشاعر إسلامي، مؤكداً استعمال الكلمة وجريانها على ألسنة فصحاء الشعراء الذين يحتج بشعرهم، كقوله :

قال أوس :

تَضَـــمَّنَهَـــا وَهْمٌ رَكُـــوب كــــأنَّه إذا ضَمَّ جَنْبَــيْـــهِ المَخَــارِمُ رَزْدَقُ [3]

وعقّب مفسراً كلمة "رذدق" مشيراً إلى أصلها بالفارسية وقال : "رزْدَقُ" سطر ممدود، وهو بالفارسي رَسْتَه . وعضد حُكمه بشاهدٍ آخر، وقال :

قال رؤبة :

ضَوَابعـــاً تَرمْي بِهِـــنَّ الرَّزْدَقـا [4]

والشعراء الذين استشهد بأشعارهم، جميعاً من الفصحاء الذين يقع الاحتجاج بشعرهم، وقد عزا معظم الشواهد إلى قائليها، وترك بعضاً منها غفلاً، ولم ينسبها، وعضد رأيه بأقوال أئمة اللغة كالأصمعي وأبي عبيدة أحياناً، واكتفى أحياناً بذكر الكلمات

---

(1) ديوانه / 107، وفيه : " بأجلادها " .

(2) أدب الكاتب / 499.

(3) ديوانه / 17، وفي أدب الكاتب / 500.

(4) ديوان / 110 .

الدخيلة بإيجاز شديد، ولم يحتج عليها بأي شاهد، مكتفياً بالسماع، كقوله : "والْيرَنْدج [1]" جلدٌ أسودُ، وهو بالفارسية رَنْدَه، و "الكُرَّزُ [2]" البازي، وهو الرجل الحاذقُ، بالفارسية كُرَّهْ، و " مِرْعِزى [3]" وهو بالنبطية مِرْنِزًى [4]" .

واعتمد ابن قتيبة على الأشعار وحدها ليدعم بها حكمه على الألفاظ الدخيلة، ولم يعضد رأيه بآيات القرآن الكريم أو بالأحاديث الشريفة .

وبلغ مجموع الألفاظ الدخيلة التي ذكرها ابن قتيبة في هذا الفصل (64) أربعاً وستين كلمة عزاها إلى اللغات الأعجمية التي نقلت منها، وإنَّ أكثر ما دخل العربية من تلك الألفاظ هو من الفارسية، وبلغ عددها (48) ثمانية وأربعين لفظاً، وهذا يعود إلى الاختلاط والتفاعل بين اللغتين العربية والفارسية، وبلغ عدد ما ذكره من اللغة النبطية (5) خمس كلمات، ومثلها من الرومية، وذكر كلمتين أخذتا من السريانية، وواحدة من التركية، وأخرى من الحبشية، وشك في نسبة كلمتين .

وقد ظهرت آثار تلك اللغات في ألسنة فصحاء العرب أنفسهم في عصور الاحتجاج، وكان أظهرها اللغة الفارسية فالنبطية والرومية، وأقلها أثراً التركية والحبشية، وهذا مرده إلى الاحتكاك المبكر بين العرب والفرس والذي وجد منذ العصر الجاهلي، وازداد بعد الفتوحات الإسلامية، وما نتج من التفاعل بين الحضارتين العربية والفارسية، وقد استطاع ابن قتيبة أن يذكر الأصل اللغوي لأكثر الألفاظ الفارسية، وذلك مرده إلى معرفته بتلك الألفاظ .

ولم يراع ابن قتيبة ترتيب كلماته على نظام معين، ولم يذكرها على حروف المعجم

---

(1) أدب الكاتب / 501 .

(2) نفسه / 501 .

(3) نفسه / 501 .

(4) نفسه / 501 .

مزيدة كانت أو أصلية، ولم يصنفها تصنيفاً معيناً حسب ما أخذت من اللغات الأجنبية، ولذا كان على الباحث – إذا أراد أن يعرف موضع الكلمة في الفصل – أن يرى الفصل كله، ويجد القارئ في الفصل كلمات على هذا النسق :

و "الصَّرْدُ" و "الجَرْمُ" البَرْدُ والحَرُّ، و "المَرْجُ" و "العَسْكَرُ" و "الدَّيْدَبانُ" و "الخندقُ" و"المَوْزج" و "المُوقُ" هذه كلها فارسية عُرِّبت"[1] . ويجمعها ورودها في الفصل، ثم لا يرتبها نظامٌ ما .

لقد عالج ابن قتيبة بعض الألفاظ الأجنبية التي دخلت العربيَّة، وممَّا هيَّأ له أن يمضي في معالجة مواده، معرفته باللغة الفارسية، فردَّ الكلمات المعرَّبة إلى اللغة التي أخذت منها، ولكن يبدو أنَّ علمه قصَّر عن معرفة اللغات الأجنبية الأخرى المتداولة في ذلك العصر، ففاتته المقارنة العلمية بين الألفاظ التي حكم عليها بأنّها دخيلة ، ولم يبين أصولها التي أخذت منها، مكتفياً بالسماع أحياناً، أو بما نقله عن العلماء الأقدمين كأبي عبيدة والأصمعي أحياناً أخرى .

وقد تعقَّب البطليوسي ابن قتيبة، فيما اعتقد أنه خطأ وقع فيه في رواية أبي علي البغدادي المنقولة إليه، وقال : " فلا أعلم أهي غلط من ابن قتيبة، أم من الناقلين عنه[2]" .

وعقب على ما حكاه عن أبي عبيدة : " غزل شخت " أي صُلْب، بالشين معجمة "، وقال : "أنكر ذلك أبو علي البغدادي وقال : الرواية عن أبي عُبيدة : سَخْت بالسين[3] غير معجمة . وكذلك حكى في البارع عن أبي عمرو : السَّخيتُ : الشديد، وهو عجمي مُعرّب، بالسين غير معجمة، على وزن ظريف . وحكى عن يعقوب، كذب سَخْت، على

---

(1) أدب الكاتب / 501.

(2) الاقتضاب 2 / 7.

(3) وهذه رواية أدب الكاتب ط 1مؤسسة الرسالة 1982، تحقيق د. محمد الدالي .

وزن فَلْس، وسخيت على وزن ظريف : أي خالص . وأمَّا الشّخت (بالشين معجمة)، فهو الرقيق من كلِّ شيء، وليس الصُلب، وهو أيضاً أعجميّ مُعَرَّب . . . "[1] .

ونبه البطليوسي على الاختلاف في رواية كلمة " مُحَرْزق " فيما أنشده ابن قتيبة للأعشى في النعمان :

فذاك وما أنجى من الموت ربَّه ... بساباط حتى مات وهو مُحَرْزق

وقال ابن قتيبة : هو بالنبطية هُرْزُوق : أي محبوس، أو نحوه ذلك "[2] .

وعقَّب البطليوسي قائلاً : " كان الأصمعي يرويه مُحَرْزق بتقديم الراء على الزاي، وكذلك رواه أبو زيد . وكان أبو عمرو الشيباني يرويه، بتقديم الزاي على الراء، فذكر ذلك لأبي زيد، فقال : أبو عمرو أعلم بهذا منا . يريد أن أبا عمرو أعلم باللغة النبطية، لأنَّ أمه كانت نَبطِية "[3] .

وهذا أمر طبعي أن تخضع الكلمات الدخيلة، للأساليب الصوتية في اللغة العربية، فينالها كثيرٌ من التحريف في أصواتها وطريقة نطقها، ولم تبق تلك الكلمات على حالها تماماً، كما كانت في لغتها، وإنما حدث فيها أن طوَّعها العرب لمنهج لغتهم، في أصواتها وبنيتها، حتى تأخذ وزن كلمات اللغة العربية وهيئة حركاتها، لتشاكلها وتماثلها وتأتلف معها وتلائم الأسلوب العربي .

وقد تتبَّع الجواليقي في كتابه " شرح أدب الكاتب " ما قاله ابن قتيبة في (باب ما تتكلم به العرب من الكلام الأعجمي)، وشرح الشواهد التي ساقها ابن قتيبة ليعضد رأيه

---

(1) الاقتضاب 2/ 261، 262 .

(2) أدب الكاتب/ 501، 502 .

(3) الاقتضاب 2/ 262، وقال الجواليقي في شرح أدب الكاتب/ 252/ " ويروى محزرق بتقديم الزاي وهي رواية البصريين، وبتقديم الراء رواية الكوفيين " .

في الحكم على الألفاظ الدخيلة التي وردت في شعر الفصحاء الذين يحتج بشعرهم، وقد أيَّد ابن قتيبة، واستند إلى رأيه في عزو الكلمة إلى اللغة الأعجمية المنقولة منها، من ذلك قوله : قال أبو محمد (والسبيج بَقِيرَةٌ وأصله بالفارسية شَبِي وهو القميصُ) وأنشد للعجاج :

كالحَبَشِيّ التفّ أو تسَبَّجا

وعقب الجواليقي قائلاً : " وشبّهه في لونه بالحبشي، والتف اشتمل، وتسبّج اشتمل بالسبيج " .

ويعضد الجواليقي حكمه على مدلول الكلمة الدخيلة بأقوال أئمة اللغة، ويورد آراءهم المختلفة في تفسير الكلمة التي وردت في شعر الفصحاء والذين يحتج بأقوالهم، وعقَّب على ما أنشده ابن قتيبة للعجّاج :

عَكْفَ النّبيط يلْعَبُون الفَنْزجا

وقال : "والنبيط النَبط، وقال ابن الأعرابي : الفَنْزج لعب النبيط إذا بطروا، وقال الأصمعي : الفنزج النزوان.. [1]" .

وأيَّد الجواليقي ابن قتيبة في الحكم على أصل كلمة " الدَّيابُوذُ " ، وأضاف إلى ما فسَّره ابن قتيبة موضحاً وقال : " قال أبو محمد : " والدَّيَابُوذُ " ثوبٌ يُنْسَجُ على نِيرَيْن، وهو بالفارسية دوابوذ " ، قال الشَّماخ وذكر ظبية :

كأنَّها وابن أيَّام تربَبه ... من قُرَّة العين مجتابا ديَابُوذ

وعقب الجواليقي مفسراً الشاهد، مضيفاً إلى رأي ابن قتيبة في تفسير كلمة "الديابوذ"، وقال : " والهاء في كأنّها راجعة إلى الظبية، وابن أيام ولدها تَرَبَّبُه تُرَبِّبه، ومن

---

(1) شرح الجواليقي : / 249 وادب الكاتب/ 498.

قرَّة العين، أي هـو قُرّة عينهـا . ومجتاباً داخلاً فيه . وتفسير الديابوذ أنَّ لحمته خيطان وهو ثوب أبيض . . "[1] .

وقد أفاد الجواليقي من جهود علماء اللغة أمثال ابن دريد والأزهري والنَّضر بن شُمَيْلٍ وغيرهم، وجمع من كتبهم الكلمات الدخيلة وأودعها كتابه الشهير المسمَّى " المعرّب من الكلام الأعجمي "، واستند إلى أقوالهم، وعزا كثيراً من الألفاظ التي ذكرها إلى اللغات الأجنبية المنقولة منها، وذكر أصل بعضها في لغاتها الأصلية، واحتجن كتابه طائفة كبيرة من الألفاظ التي أوردها ابن قتيبة في كتابه " أدب الكاتب " في (باب ما تتكلم به العرب من الكلام الأعجمي) مستفيداً ممَّا ذكره ابن قتيبة في الحكم على أصلها ونطقها الأصلي ومدلولها، ومن ذلك قوله : " قال ابن قتيبة : البُورِيَاءُ بالفارسية . وهي بالعربيَة بَارِيءُ وبُوريٌ .

قال العجَّاج :

كالخُصِّ إذ جلَّلَهُ البَارِيُّ [2]

وقال الجواليقي : " قال ابن دريد وابن قتيبة : البَهْرَج : الباطل، وهو بالفارسية نَبْهَرَهْ، وأنشد للعجّاج :

وكان ما اهتَضَّ الجحَافُ بَهْرَجَا [3]

وقال الجواليقي : "قال ابن قتيبة : البَالِغَاء ممدود : الأكارعُ وهو بالفارسية بابها [4]" .

---

(1) نفسه : /251، 252/ ونفسه/ 500 .

(2) المعرب للجواليقي/ 158، ونفسه/ 497 .

(3) المعرب/ 160، وأدب الكاتب/ 498 .

(4) نفسه/ 162، ونفسه/ 498 .

وقال أيضاً . . . قال أبو عبيد وابن قتيبة : البَالَة : الجِراب، وهو بالفارسية بالة[1] .
وقال أيضاً " ابن قتيبة : الرَّهْوج : المَشْي السهل، وهو بالفارسية رَهْوار، أي هِمْلاَج، وأنشد للعجَّاج :

مَيَّاحَةً تَمِيحُ مَشْيا رهوَجَا [2]

ومن الألفاظ التي ذكرها الجواليقي وعزاها إلى اللغات التي أخذت منها، مستنداً إلى ما قاله ابن قتيبة : "السِّجيل" ، وقال : " قال ابن قتيبة : السِّجِّيل بالفارسية سَنْك وكِلْ أي حجارة وطين[3]" .

وقال الجواليقي : "ابن قتيبة : الصِّيق الريح، وأصله نبطيٌّ زيقا[4]" . لقد أفاد الجواليقي من ابن قتيبة وما ذكره في عزو الكلمة إلى اللغة التي أخذت منها، وما ذكره في نطقها الأصلي وحكمه على مدلولها .

ونقل الجواليقي كثيراً من الألفاظ التي ذكرها ابن قتيبة ولم يعزها إليه من ذلك ما قاله الجواليقي في كلمة الجُدَّاد : " الجُدَّاد : الخيوط المعقَّدة . وهي بالنبطية كُدَّاد . قال الأعشى يصف الخَمَّار :

أضاء مِظَلَّتَهُ بالسِّرَاج والليلُ غامِرُ جُدَّادِها [5]

والعبارة نفسها مذكورة بنصها في أدب الكاتب، ولكنَّ ابن قتيبة أنشد أولاً قول الأعشى، ثم تناول ما ورد في البيت من الدخيل وحكم على مدلوله، وأصله، ولغته، في حين ذكر الجواليقي الكلمة الأولى ثم استشهد عليها بقول الأعشى .

---

(1) نفسه / 163، ونفسه / 500 .
(2) نفسه / 323، ونفسه / 498 .
(3) نفسه / 365، ونفسه / 496 .
(4) نفسه / 419، ونفسه / 501 .
(5) نفسه / 233، ونفسه / 500 .

ومن ذلك ما ذكره الجواليقي في لفظ " الخَوَرْنق " ، وقال : "والخَوَرْنق كان يُسَمَّى الخُرْنَكاه وهو موضع الشُرِب فأعرب[1]" ، والعبارة نفسها موجودة في أدب الكاتب ولم ينسبها الجواليقي إليه، ولكنه أضاف على ما قاله ابن قتيبة شارحاً وموضحاً وقال : وهي بُنْيَةٌ بناها النعمان لبعض أولاد الأكاسرة، وقد استشهد على ورود اللفظة الدخيلة في شعر عدّي بن زيد فقال :

وتبـــــيَّن رَبُّ الخَـــــوَرْنَق إذ أشْـ رَفَ يومـــاً وللهـــدى تَفكيـــر [2]

وعضد حكمه على ورود الكلمة بشاهد ثانٍ للمُنخَّل، وبشاهد ثالث للأعشى[3] .

ومن ذلك أيضاً ألفاظ الدَّست[4] و "الدَّيابُوذُ[5]" ، وقد نقل الجواليقي عبارة ابن قتيبة حرفياً ولكنه أسند القول إلى ابن دريد الذي أخذها من ابن قتيبة، ولكنَّ الجواليقي أضاف، واستقصى وأورد أقوال علماء اللغة، وذكر أكثر من وجه للفظة الدخيلة، وعضد الآراء بأكثر من شاهد، واستند في الحكم على أصل الكلمة إلى ما قاله أبو عبيد، وهو متقدم على ابن قتيبة وابن دريد .

ومن ذلك أيضاً حكم الجواليقي على أصل كلمة "السفسير[6]" ، استناداً إلى ما قاله أبو عبيد عن الأصمعي، وقد وردت الكلمة في أدب الكاتب، وحكم ابن قتيبة على لغتها ومدلولها . ويبدو أنَّ الجواليقي عدَّ ابن قتيبة ناقلاً لأقوال من سبقه فلم يذكره، واعتمد على أقوال العلماء الذين تقدَّموه .

---

(1) نفسه / 273، ونفسه / 503 .

(2) المعرب / 273 .

(3) نفسه / 273 .

(4) نفسه / 288، وأدب الكاتب / 496 .

(5) نفسه / 289، وأدب الكاتب / 500 .

(6) نفسه / 372، وأدب الكاتب / 499 .

لقد كانت جهود ابن قتيبة اللغوية في " المعرَّب والدَّخيل " حَلْقة في سلسلة متّصلة من جهود علماء اللغة الذين اهتموا بظاهرة الكلمات الدخيلة في اللغة العربية، وإن ما ذكره في كتابه " أدب الكاتب " أو في تضاعيف كتبه اللغوية يعد ثمرة طيبة أفاد منها من جاء بعده من العلماء الذين جمعوا هذه الكلمات الدخيلة من كتب اللغة، وكان الجواليقي أقدر أولئك العلماء على الاستقصاء، ويعد كتابه من أهم المراجع اللغوية بالنسبة إلى الدخيل في ذلِكَ العصر .

خاتمــــة

إن النتائج التي يمكن أن نستنتجها من هذا البحث تتلخص في النقاط التالية :

1 – ألقى هذا البحث الضوء على دور ابن قتيبة ومشاركته في الحياة الفكرية والنهضة اللغوية التي شهدها القرن الثالث الهجري، وأشار إلى الدوافع التي حفزته على الإنتاج اللغوي والفكري، وتسخير قلمه للدفاع عن لغته وعقيدته .

2 – نفى هذا البحث عن ابن قتيبة التهم الموجهة إليه بالأدلّة والحجج والبراهين، وأشار إلى أنّه تعرّض لكثير من المشكلات الدينية والفقهية، وللعديد من المسائل اللغوية والنحوية والأدبية، الأمر الذي حمل بعض العلماء الذين اختلف معهم بالرأي على أن ينالوا من مكانته العلمية، وأثبت البحث أنّ دعواهم لم تثبت أمام ما نقل عن أكثر مترجميه من وصفه بالصدق والفضل والأمانة العلمية، وما شهدت به أقواله ومواقفه، ودلت عليه آثاره ومؤلفاته .

3 – رسّخ البحث الاتجاه إلى تقوية الشك في نسبة كتاب " تلقين المتعلم من النحو " إلى ابن قتيبة، وبيّن أنّ الأدلة والقرائن التي ساقها محقق الكتاب لا ترقى إلى ترجيح ما ذهب إليه في توثيق نسبة الكتاب إلى ابن قتيبة، وذكر البحث أنّ الكتاب لم يرد معزوّا إلى ابن قتيبة عند غيره من النحاة واللغويين اللاحقين به في أيٍّ من مؤلفات أحدهم، ولم يذكره أحدٌ من مترجمي ابن قتيبة الذين ذكروا مؤلفاته، إضافة إلى أن ابن قتيبة لم يشر إليه في أيٍّ من مؤلفاته، وممّا قوّى الشك في نسبة الكتاب إليه أنّ أحداً ممن اتصلت أعمالهم العلمية أو بحوثهم اللغوية بابن قتيبة، لم يشر إليه من قريب، ولا من بعيد ضمن مؤلفاته .

4 – ربط البحث بين ثقافة ابن قتيبة الواسعة وبين مؤلفاته القيمة التي مثلت اتجاهات ثقافية متعددة في عصره، وأبانت عن أمانته العلمية، والتزامه الصدق، وتحريه الحقيقة، وحسن تصنيفه، وترتيبه، وتنظيمه، وتحرره من الفوضى التي غلبت على مؤلفات أقرانه من

العلماء في عصره، وأبرزت قدرته على التأليف في مختلف العلوم والآداب والفنون .

5 – بيّن البحث منهج ابن قتيبة اللغوي في تفسير ألفاظ القرآن الكريم وتأويل مشكل آياته، والذي يتلخص في شرح المفردة بمرادفها والكشف عن معناها الأصلي، مستدلاً بأصلها على معناها، قبل أن تخضع لعوامل التطور الدلالي، وعلل تسمية بعض الألفاظ، وفسر الألفاظ التي ذكرت على سبيل المجاز ونصَّ على اختلاف دلالاتها بسبب اختلاف بنيتها الصرفية، وفسَّر الألفاظ المعرَّبة في القرآن، وذكر القراءات القرآنية وبيّن معانيها، ونسبها إلى أصحابها، واستشهد على ألفاظ القرآن الكريم بالحديث الشريف وبآيات القرآن نفسها، وبالشعر، وبكلام العرب وأمثالهم . وقوم البحث جهود ابن قتيبة في تصحيح غلط بعض المفسرين الذين أخطؤوا تفسير بعض الآيات معتمداً على اللغة في التماس وجه الصواب، ليزيل الغموض عن معنى الآية . وأشار البحث إلى أن ابن قتيبة تفرد بمنهج متميز في تأويل الآيات المشكلة، فقد أخذ في كثير من الآيات بظاهر المعنى، ونفر من التأويل البعيد، ومن فرض الاحتمالات الأسلوبية انطلاقاً من عقيدته، لكنه كان يخرج أحياناً عن تقليده، ويعارض بعض المفسرين والظاهريين من اللغويين في تحكمهم اللفظي، مع شدة حرصه على عدم الوقوع في حبائل التجسيم والتشبيه .

ورصد البحث جهود ابن قتيبة في استخراج أنواع المجاز في القرآن الكريم وتبويبها، لأنَّ المجاز يعد القطب الذي تدور عليه قضية المشكل، والرأي عند ابن قتيبة أنَّ المجاز واقع في القول، ولا سبيل إلى إنكاره، والمجاز واقع في القرآن الكريم، ويعد عمل ابن قتيبة في هذا المجال الأساس الذي اعتمد عليه علماء البلاغة، وبنوا عليه من بعد .

6 – حدّد البحث منهج ابن قتيبة اللغوي في تفسير غريب الحديث وتأويل مختلفه، وبين طريقة تناوله ألفاظ الحديث، وأنه كان يذكر الأصل اللغوي للكلمة، ويجعله أصلاً لمعاني الكلمات القريبة من هذه الكلمة في أحرفها، مبيناً دلالة ذلك الأصل، مشبعاً ذلك

بذكر الاشتقاق والمصادر والشواهد من كلام الله وكلام العرب أمثالاً وخطباً، وشعراً، موضحاً المعنى المراد من اللفظة التي يفسرها، ذاكراً أكثر من معنى للفظ الواحد، ناصّاً على أنَّ السياق يحدد معنى اللفظة التي يرد فيها أكثر من وجه، مرجِّحاً ما يراه صواباً، مستنداً إلى معرفته العميقة بأسرار اللغة، ووقوفه الدقيق على ظواهرها اللغوية، ودرايته بعلم الحديث، مجتهداً في تصحيح رواية بعض الأحاديث الشريفة، مصوّباً معانيها، ناقداً ما حرِّف منها، مخالفاً آراء بعض اللغويين الذين أخطؤوا تفسير بعض ألفاظها، متخذاً من أسلوب المناقشة والرد اللغوي سبيله إلى الإقناع، مؤيداً رأيه بالحجج والأدلة، ليزيل عن النص كل لبس أو غموض . وقوَّم البحث جهود ابن قتيبة في تفسير عدد من الأحاديث الشريفة التي اشتملت على التشبيه، بالتفسير والإيضاح، وبيان مراميها وفسَّر بعض ألفاظها تفسيراً مجازياً .

7- رصد البحث جهود ابن قتيبة اللغوية في نقد الشعر وشرح غريبه، وأشار إلى أنه أودع في مقدمة كتابه " الشعر والشعراء " أصول النقد المعروفة في عصره، وبسط فيها آراءه. في الشعر والشعراء، وأنه انطلق من نقده اللغوي من إحساس عفوي بالجمال، غير متأثر بأقيسة المنطق التي عرفها البلاغيون المتأخرون .

وقوَّم البحث آراءه اللغوية النقدية، ونظرته إلى تحقيق النص الشعري، بحيث تكون عبارته صحيحة سليمة، كما نطق بها الشاعر، منبهاً إلى ما يعتري ألفاظ الشعر من تصحيف، وأثر ذلك في تغيير المعنى .

ورصد البحث جهوده في تفسير الألفاظ الغريبة التي وردت في أشعار الميسر والقداح، فقد استقصى أسماء القداح المتعددة، وأوعب ما قيل فيها، وقدَّم بذلك خدمة للعربية، لأنه حفظ ألفاظاً وشواهد كان يخشى عليها من النسيان والاندثار لغرابتها وقلة استعمالها، ولأنّ المواضع التي وردت فيها، تمثل جوانب من الحياة الاجتماعية عند العرب في الجاهلية، قد جبّها الإسلام، وانقطعت بمجيئه، فكان لابن قتيبة فضل جمعها وتدوينها وتفسيرها، والاستدلال عليها بما ورد في كتاب الله وكلام العرب منظومه ومنثوره .

ووقف البحث على جهود ابن قتيبة اللغوية في شرح الشعر العربي القديم، ونقده، وأنه حاول أن يجمع في كتابه " المعاني الكبير " معظم أبيات المعاني، وبين البحث منهجه الذي سلكه لتفسير الأبيات الملغزة، وأنه سخر المواد اللغوية والنحوية والبلاغية والنقدية والأدبية والتاريخية لفك مستغلق ألفاظها، وإزالة الغموض عنها .

وأنه تفرد بمنهج متميز في كتابه فعقد كل باب من أبواب الشعر المتضمن لمعاني ذلك الباب، وتناول ما ورد في الأبيات من ألفاظ تعهدها بالتفسير والشرح والتمثيل معتمداً على الشعر لتدوين معاني اللغة، وأنَّ هذا الشعر يقوم مقام الاستشهاد على الألفاظ، وليس في كتابه لفظة أصيلة في بابها المعقود لها لم ترد في الشعر، إلاَّ ما استطرد إليه أثناء شروحه بعض الألفاظ ممَّا لا يتصل بموضوع الباب الذي هو فيه، وهو أسلوب يخالف منهج أصحاب معاجم المعاني، فهو وإن اتفق معهم في جمع المادة تحت عنوان معين، لكنهم اعتمدوا اللفظة أساساً، ثم استشهدوا على توثيقها بالشعر . أمَّا ابن قتيبة فقد جعل الشعر أساساً في الجمع، ثم تناول الألفاظ بالتفسير والشرح، وذكر الأصل اللغوي للكلمة، وفسَّر دلالتها تفسيراً يتسق مع صيغة بنائها، وقد أجرى نظره في الشاهد، وأدار تفكيره في قواعد النحو والصرف، وأجرى الاشتقاق في الشواهد التي عضد بها تفسير أبيات المعاني، والتفت أثناء معالجته ألفاظ الشعر إلى الظواهر اللغوية وسخرها لجلاء الغموض عن تلك الألفاظ، ونقل آراء علماء المدرستين البصريين والكوفيين، وأفاد من آرائهم دون تعصب، ووظف قضايا النحو لتقريب النص اللغوي، وتفسير ما غمض منه، مدركاً علاقة النحو بالمعاني، وقد بسط آراءه النحوية بوضوح دون إغراق في المصطلحات والتفريعات التي تشتت الذهن، وتصرف القارئ عن بلوغ الهدف الذي يسعى إليه في فهم المعاني بيسر وسهولة .

وقوم البحث جهود ابن قتيبة اللغوية في معالجة غريب اللغة، وأنه قدَّم في كتاب "المعاني الكبير" خدمة للغة العربية، وحفظ كثيراً من الأشعار الغريبة التي أنشدها لشعراء

مغمورين، فأحياها وأخرجها من دائرة النسيان، إضافة إلى حفظه أشعار الشعراء والمشاهير التي لم تتضمنها دواوينهم المطبوعة .

8 – حدّد البحث مقياس الصواب والخطأ في الاستعمال اللغوي عند ابن قتيبة، وأشار إلى أنّه سلك منهج الأصمعي الذي كان مولعاً بالجيد المشهور، مضيقاً على سواه، ولا يجوّز إلا أفصح اللغات، وقد اعتمد ابن قتيبة هذا المقياس في التخطئة والتصويب، وكان يمثل اتجاه المتشددين في تخطئة العامة للمحافظة على سلامة اللغة، وتنقيتها ممّا شاع على ألسنة الناطقين بها من كلام خارج عن سنن الكلام العربي، ولم يعتمد على لهجة معينة عاداً إياها الأفصح، وأخذ بالأفصح المشهور متجاوزاً ما عداه، وقد سلك سبيل السّماع في قبول الألفاظ وعدم قبولها، ولكنه لم يلتزم السماع أبداً . واتجه إلى الأخذ برأي من قال بالقياس ولو لم يُسمع .

وأشار البحث إلى أنَّ ابن قتيبة يعد في مقدمة العلماء الذين خلطوا بين مذهبي المصرين: البصرة والكوفة، وأنشؤوا مذهباً مستقلاً هو " المذهب البغدادي " .

وانتهى البحث إلى أنَّ كثيراً من مسائل الخلاف بين اللغويين، حول ما يجوز، وما لا يجوز سببها الاختلاف في تحديد المستوى الصوابي، وفي تحديد دائرة القياس اللغوي، وأن أصحاب مذهب تنقية اللغة لم يتفقوا حول مقياس محدد يقوم على أساسه الحكم بالصحة أو الخطأ، فقد سلك بعضهم مسلكاً متشدداً، يتمثل في الوقوف على السماع، وعدم الاعتراف إلا بالأفصح، وما عداه فهو خطأ، وقد سلك ابن قتيبة هذا المسلك المتشدد، وذلك بسبب ظهور اللحن وشيوعه على الألسنة .

9 – قوَّم البحث جهود ابن قتيبة اللغوية في دراسة الألفاظ : معنى وتأصيلاً واشتقاقاً، وخلص إلى أنَّ جهوده في هذا المجال، مع جهود علماء العربية، من مفسرين ومعجميين وشرّاح – تعدّ الأصل الذي بدأ به علماء اللغة خطوتهم الأولى نحو علم الدلالة الحالي .

وأشار البحث إلى أن ابن قتيبة اجتهد في تحديد الأصل اللغوي للمفردات، ودرس طبيعة التغير الطارئ عليها، وحدّد العوامل التي غيّرتها، ووقف عند ظواهر لغوية تعد من صميم المباحث الدلالية، كالترادف والمشترك اللفظي والأضداد، وهي التي تمثل جانباً متميزاً من خصائص العربية، وتوسعاً في طرائق التعبير فيها، وتنوعاً في دلالات الألفاظ، كما تشهد على حيويتها ومقدرتها الفائقة على التجدد والنماء والعطاء .

وبين البحث أنَّ ابن قتيبة – وإن أقرَّ بوجود ظاهرة الترادف في العربية، لكنه لم يبالغ في قبولها، وحاول التماس الفروق الدلالية بين مختلف الصيغ، وحدَّد استعمالاتها بدقة، مبيناً أن الألفاظ تكتسب دلالات جديدة عن طريق المجاز أو النقل أو الصفة أو النسبة .

وحدد البحث موقف ابن قتيبة من المشترك اللفظي، وأشار إلى أنه أقر بوجوده في اللغة، وأنه حاز قصب السبق حين ردَّ مفردات المادة اللغوية إلى أصولها المعنوية المشتركة، وأنَّ الباب الذي عقده في كتاب " تأويل مشكل القرآن " وعنوانه " باب اللفظ الواحد للمعاني المختلفة " يُعَدُّ باباً عظيم القدر، بالغ الأهمية، له قيمة تاريخية في علم اللغة عند العرب، لأن ابن قتيبة عالج الألفاظ التي جاءت في القرآن الكريم متحدة المباني، مختلفة المعاني، وأرجع المعاني المختلفة للفظ الواحد إلى أصل مشترك، صدرت عنه، وتفرعت عليه، فكان له فضل الريادة في هذا الاجتهاد اللغوي، وفكرة ابن قتيبة هذه أوحت إلى ابن فارس اللغوي (–395 هـ) بتأليف كتابه "مقاييس اللغة" .

وحدّد البحث موقف ابن قتيبة من وجود ظاهرة التضاد في العربية، وأشار إلى أنه أقرَّ بوجودها، ووقف على العوامل المؤدية إلى نشأتها، وهي العوامل التي أقرَّها علماء اللغة القدامى والمحدثون، وأنه كان مهتماً باستقصاء ألفاظ التضاد، مدركاً تطور دلالة أصولها واستعمالاتها في معانٍ جديدة، لأسباب اقتضتها دواعي التطور اللغوي، والاستعمال المجازي، والاختلاف اللهجي، فكان بذلك من الروّاد الذين أصّلوا لهذه الظاهرة في اللغة العربية .

وتعرّض البحث لظاهرة تطور الدلالة، وحدّد قوانين هذا التطور، ونوّه بجهود ابن قتيبة اللغوية في رصد دلالة عدد كبير من الألفاظ، وأنَّ دراساته اللغوية في هذا المجال تمثل إدراكاً واضحاً للمباحث الدلالية التي تعرّض لها، وعالجها في تضاعيف كتبه .

10 – قوَّم البحث جهود ابن قتيبة اللغوية في معالجة " المعرّب والدّخيل "، وأشار إلى أنه أولى المعرّب في اللغة عنايته، ورصد استعمال عدد من الألفاظ الدَّخيلة في اللغة العربية، وقد أتاحت له معرفته باللغة الفارسية وببعض اللغات الأعجمية القديمة الوقوف على عدد من الألفاظ التي دخلت اللغة العربية، وجرت على ألسنة الفصحاء، وحدّد البحث منهجه في رصد تلك الألفاظ، وأنه كان يحكم عليها معتمداً على اللغويين الأقدمين، وعلى السماع في أغلب الأحيان، وعلى معرفته بأصول تلك الألفاظ وعزوها إلى اللغات الأجنبية التي نقلت منها .

ونوَّه البحث بجهوده التي تعد حلقة في سلسلة متصلة مِن جهود علماء اللغة الذين اهتموا بظاهرة الدخيل في العربية .

فهرس المصادر والمراجع

- الآثار الباقية عن القرون الخالية، أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي - ليبزك 1923م .

- الإبدال، ابن السكيت، تحقيق الدكتور حسين شرف، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية - القاهرة 1978م .

- الإبدال في كلام العرب، أبو الطيب اللغوي، تحقيق عز الدين التنوخي، دمشق مطبوعات المجمع العلمي العربي - دمشق 1960م .

- الإبدال والمعاقبة والنظائر، الزجاجي، تحقيق عز الدين التنوخي، دمشق 1962م .

- ابن قتيبة ، الدكتور اسحق موسى الحسيني ، ترجمة هاشم ياغي، بيروت 1400 هـ - 1980م.

- ابن قتيبة، الدكتور محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة 1980م .

- ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية والأدبية والنقدية، محمد رمضان الجربي، طرابلس ليبيا، 1984م .

- الإتباع، أبو الطيب اللغوي، تحقيق عز الدين التنوخي، مطبوعات المجمع العلمي العربي دمشق 1961م .

- اتجاهات النقد عند البطليوسي في الاقتضاب، الدكتور حامد محمد أمين شعبان، دار الثقافة، القاهرة 1984م .

- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، القاهرة 1968م.

- أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج، الدكتور مسعود بوبو، مطابع

وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1982م .

– أثر القرآن في تطور النقد العربي، الدكتور محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر 1961م.

– أخبار النحويين البصريين، أبو سعيد السيرافي، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي وطه الزيني القاهرة . 1955

– الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة، ابن قتيبة، تحقيق الدكتور كاظم حطيط بيروت، الشركة العالمية للكتاب 1990ورجعت إلى طبعة دار الكتب العلمية بيروت 1405هـ – 1985م .

– أدب الكاتب، ابن قتيبة، تحقيق الدكتور محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت 1402هـ – 1982م .

– أرجوزة في الضاد والظاء، ابن قتيبة، تحقيق الدكتور داود الجلبي – مجلة لغة العرب، السنة السادسة – الجزء السادس .

– الأزهية في علم الحروف، الهروي، تحقيق عبد المعين ملوحي، مطبوعات مجمع اللغة العربية – دمشق 1971 .

– أساس البلاغة، الزمخشري، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت 1979م .

– الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر، تحقيق علي محمد البجاوي، مطبعة نهضة مصر – القاهرة .

– أسس علم اللغة، ماريو باي، ترجمة الدكتور أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة 1983م .

– إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، عبد الباقي اليماني، تحقيق عبد المجيد دياب.

- مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض 1986م .

- الاشتقاق، أبو بكر بن السّراج، تحقيق محمد صالح التكريتي، بغداد 1973م .

- الاشتقاق، ابن دريد، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة المثنى، بغداد 1979م .

- الاشتقاق، عبد الله أمين، القاهرة . 1956

- الاشتقاق والتعريب، عبد القادر المغربي، القاهرة 1947م .

- الأشربة، ابن قتيبة تحقيق محمد كرد علي، مطبعة الترقّي، دمشق 1947م .

- الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر أحمد بن علي، القاهرة، 1333هـ .

- إصلاح الغلط، ابن قتيبة، تحقيق الدكتور عبد الله الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983م .

- إصلاح المنطق، ابن السكّيت، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف القاهرة 1970م .

- الأصمعيات، تحقيق محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر 1964م .

- أصول التفكير النحوي، الدكتور علي أبو المكارم، الجامعة الليبية، مطبعة كلية التربية، 1973م .

- الأصوات اللغوية، الدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة 1981م .

- الأضداد، ابن السكيت، تحقيق أوغست هفنر، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1913م.

- الأضداد أبو بكر بن الأنباري، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، مطبعة حكومة الكويت، 1960م .

- الأضداد، أبو حاتم السجستاني، تحقيق أوغست هفنر، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1913م.

- الأضداد، الأصمعي، تحقيق أوغست هفنر، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1913م .

- الأضداد، قُطرب، تحقيق هانس كوفلر - مجلة إسلاميكا، المجلد الخامس 1931م .

- الأضداد في كلام العرب، أبو الطيب اللغوي، تحقيق الدكتور عزة حسن، دمشق 1963م .

- الأضداد في اللغة، د. محمد حسين آل ياسين، مطبعة المعارف، بغداد 1974م .

- أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، د. نايف خرما، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1979م (سلسلة عالم المعرفة 9) .

- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1973م .

- إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس، تحقيق الدكتور زهير غازي أحمد، مطبعة العاني، بغداد، 1980م .

- الأعلام، خير الدين الزركلي، بيروت 1971 - 1974م .

- الإعلان بالتوبيخ لمن ذمَّ التاريخ، السخاوي محمد بن عبد الرحمن، تحقيق، فراتز رواندال، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي، بغداد 1963م .

- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة 1963م) .

- الأفعال، أبو عثمان المعافري السرقسطي، تحقيق الدكتور حسين محمد شرف مجمع اللغة العربية، القاهرة 1975م .

- الاقتراح في علم أصول النحو، جلال الدين السيوطي، تحقيق أحمد قاسم، مطبعة السعادة، القاهرة 1976م .

- الاقتضاب في شرح أدب الكُتّاب، ابن السيد البطليوسي، تحقيق مصطفى السقا والدكتور حامد عبد المجيد، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة 1981 وما بعدها .

- إقليد الخزانة، عبد العزيز الميمني الراجكوتي، جامعة البنجاب، لاهور 1972م .

- الإكمال، ابن ماكولا، تحقيق الشيخ المعلمي اليماني، عبد الرحمن بن يحيى، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن 1962م .

- الألفاظ، ابن السكيت، تحقيق لويس شيخو اليسوعي، بيروت .

- الألفاظ الفارسية المعرّبة، أدي شير، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1908م .

- الألفاظ اللغوية، عبد الحميد حسن، معهد البحوث والدراسات لجامعة الدول العربية، القاهرة 1971م .

- الألفاظ المترادفة، الرماني النحوي، نشره محمد محمود الرافعي، القاهرة 1321هـ .

- أمالي الزجاجي، تحقيق عبد السلام هارون، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة 1982م.

- الأمالي الشجرية، حيدر أباد 1349هـ، طبعة مصورة، دار المعرفة، بيروت .

- أمالي المرتضى، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، بمصر 1954م .

- الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، لجنة التأليف والنشر، القاهرة 1939م .

- الأمثال، أبو عبيد القاسم بن سلاّم، تحقيق عبد المجيد قطامش، دار المأمون للتراث دمشق 1980م .

- الأمثال، أبو عكرمة الضبي، تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب، دمشق 1974م .

- أمثال العرب، المفضل الضبي، مطبعة الجوائب، الأستانة 1300هـ .

- الأمثال، مؤرج السدوسي، تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب، وزارة الثقافة، القاهرة، 1971م .

- الأمثال العربية القديمة، رودلف زلهايم، ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب، بيروت 1971م .

- إنباه الرواة على أنباه النحاة، القفطي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، القاهرة 1950م .

- الأنساب، السمعاني، تقديم وتعليق عبد الله عمر البارودي، دار الكتب العلمية، بيروت 1988م .

- الإنصاف في مسائل الخِلاف، أبو البركات بن الأنباري، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية بمصر، 1961م .

- الأنواء في مواسم العرب، ابن قتيبة :

1 – طبعة مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد–الدكن– الهند 1956م .

2 – طبعة وزارة الثقافة والإعلام، دائرة الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1988م .

- الأوائل، ابن قتيبة، تحقيق محمد بدر الدين القهوجي، دار ابن كثير، دمشق 1987م.

- البارع في اللغة، أبو علي القالي، تحقيق هاشم الطعان، مكتبة النهضة، بغداد، دار الحضارة، بيروت 1975م .

- البحث اللغوي عند العرب، الدكتور أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة 1978م . البحر المحيط، أبو حيّان النحوي الأندلسي، مطبعة السعادة، القاهرة 1328هـ .

- بحوث ومقالات في اللغة، الدكتور رمضان عبد التوّاب، مكتبة الخانجي،

القاهـرة 1988م .

– البداية والنهاية، ابن كثير عماد الدين إسماعيل، مطبعة السعادة، القاهرة 1932م .

– البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة 1958م .

– بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة 1964م .

– البلاغة العربية، تاريخها، مصادرها، مناهجها، الدكتور علي عشري، مكتبة الشباب، القاهرة.

– البُلْغَة في تاريخ أئمة اللغة، الفيروز أبادي، تحقيق محمد المصري، وزارة الثقافة، دمشق 1972م .

– البُلْغَة في شذور اللغة (مجموعة رسائل في اللغة) للأصمعي، وأبي زيد الأنصاري، – تحقيق الدكتور أوغست هفنر، والأب لويس شيخو، بيروت 1914م .

– البُلْغَة في الفرق بين المذكر والمؤنث، أبو البركات بن الأنباري، تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب، دار الكتب، القاهرة 1970م .

– البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق محمد عبد السلام هارون، القاهرة 1950م .

– تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت 1965، وطبعة دار صادر، بيروت (نسخة مصورة عن طبعة المطبعة الخيرية بمصر 1306هـ) .

– تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، بيروت 1974م .

– تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، مطبعة الهلال، القاهرة 1930م .

– تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار وآخرين، دار المعارف، القاهرة 1964م .

– تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، طبعة مصورة في بيروت عن طبعة مطبعة السعادة بالقاهرة 1931م .

– تاريخ الرسل والملوك، محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر 1979 .

– تاريخ التراث العربي، الدكتور محمد فؤاد سزكين، ترجمة عرفة مصطفى، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض 1988م .

– تاريخ علوم اللغة العربية، طه الراوي، مطبعة الرشيد، بغداد 1949م .

– تاريخ اللغات السامية، إسرائيل ولفنسون، دار القلم، بيروت 1980م .

– تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، تحقيق السيد أحمد صقر، ط 1، القاهرة 1954م ، وط2، القاهرة 1973م .

– تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة، تحقيق محمد زهري النجار، دار الجيل، بيروت 1973م .

– وطبعة بشرح سعيد محمد اللحام، دار ومكتبة الهلال، بيروت 1989م .

– تذكرة الحفاظ، الذهبي، طبع حيدر آباد الدكن 1958، نسخة مصورة عنها، دار إحياء التراث العربي، بيروت .

– الترادف في اللغة، الدكتور حاكم مالك الزيادي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد 1980م .

– ترتيب المدارك وتقريب المسالك، القاضي عياض اليحصبي، تحقيق الدكتور أحمد

بكير محمود، دار الحياة، بيروت .

– تصحيح الفصيح، ابن درستويه، تحقيق الدكتور عبد الله الجبوري، بغداد 1975م .

– تصريف الأسماء والأفعال، الدكتور فخر الدين قباوة، مطبوعات جامعة حلب 1981م .

– التصور اللغوي عند الأصوليين، الدكتور أحمد عبد الغفار، دار عكاظ للنشر والتوزيع، الرياض 1982م .

– التضاد في ضوء اللغات السامية، الدكتور ربحي كمال، نشر جامعة بيروت العربية 1972م .

– تطور الجهود اللغوية في علم اللغة العربية العام، الدكتور وليد محمد مراد، دار الرشيد دمشق، مؤسسة الإيمان، بيروت 1984م .

– تطور دراسات إعجاز القرآن وأثرها في البلاغة العربية، الدكتور عمر ملاّ حويش، بغداد 1972 .

– التطور اللغوي، مظاهره وعلله، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة 1981م.

– التطور اللغوي التاريخي، الدكتور إبراهيم السامرائي، دار الأندلس، بيروت 1981م .

– التعريفات، الجرجاني، تحقيق عبد المنعم الحفني، دار الرشاد، القاهرة 1991م .

– تفسير سورة الإخلاص، ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، تصحيح بدر الدين النعساني، القاهرة 1323هـ .

– تفسير غريب القرآن، ابن قتيبة، تحقيق السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة 1978م .

– التكملة والذيل والصلة، الصاغاني محمد بن الحسن، تحقيق عبد الحليم الطحاوي

وآخرين، مجمع اللغة العربية القاهرة 1970م .

– تلقين المتعلم من النحو، ابن قتيبة، تحقيق الدكتور جمال عبد العاطي مخيمر، مطبعة أبناء وهبة حسان، القاهرة 1989م .

– تهذيب الأسماء واللغات، النووي محيي الدين بن شرف، المطبعة المنيرية، القاهرة 1927م .

– تهذيب الألفاظ، ابن السِّكِّيت، تحقيق لويس شيخو اليسوعي، طبعة مصورة عن طبعة بيروت 1985م .

– تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، دائرة المعارف حيدر أباد الدكن 1325هـ .

– تهذيب الكمال في أسماء الرجال، المزي، مصور عن النسخة الخطية المحفوظة في دار الكتب المصرية، وأجزاء منه مطبوعة في مؤسسة الرسالة، بيروت .

– تهذيب اللغة، الأزهري، تحقيق عبد السلام هارون وآخرين،دار القومية العربية، القاهرة 1964م .

– جامع الأصول في أحاديث الرسول، ابن الأثير، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، دمشق 1969م .

– الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، دار الكتب المصرية، القاهرة 1967م .

– الجامع الصحيح (صحيح البخاري) البخاري، القاهرة .

– جمهرة أشعار العرب، القرشي، تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر 1967م .

– وطبعة بتحقيق محمد علي الهاشمي، الرياض 1981م .

– جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم والدكتور

عبد المجيد قطامش، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة 1961م .

- جمهرة الأنساب، ابن حزم علي بن أحمد، تحقيق : محمد عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة 1962م .

- جمهرة اللغة، ابن دريد، تحقيق الدكتور رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت 1987م .

- الجنى الداني في حروف المعاني، المرادي، الحسن بن قاسم، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، حلب 1973م .

- جهم بن صفوان ومكانته في الفكر الإسلامي، الدكتور خالد العسلي، بغداد 1965م .

- الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه الحسين بن أحمد، تحقيق الدكتور عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، بيروت 1971م .

- الحماسة، البحتري، رواية أبي خالد الأحول، تحقيق لويس شيخو اليسوعي، دار الكتاب العربي، بيروت 1967م .

- الحماسة الشجرية، ابن الشجري، هبة الدين، تحقيق عبد المعين الملوحي وأسماء الحمصي، وزارة الثقافة، دمشق 1970م .

- الحيوان، الجاحظ عمرو بن بحر، تحقيق محمد عبد السلام هارون، بيروت 1969م .

- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر البغدادي، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1979م، وطبعة دار الثقافة، بيروت .

- الخصائص، ابن جنّي، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب، القاهرة 1952م .

- خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الخزرجي، تحقيق محمود فايد القاهرة .

- دائرة المعارف الإسلامية، النسخة العربية، إعداد ابراهيم زكي خورشيد وآخرين، دار الشعب، القاهرة 1969م .

- دائرة المعارف، البستاني، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1956 - 1960م .

- دراسات في فقه اللغة، الدكتور صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت 1968م.

- دراسات في اللغة، الدكتور إبراهيم السامرائي، مطبعة العاني، بغداد 1961م .

- دراسات في اللغة، الدكتور مسعود بوبو، مطبوعات جامعة دمشق 1983م .

- الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، الدكتور محمد حسين آل ياسين، دار مكتبة الحياة، بيروت 1980م .

- دلائل الإعجاز، الجرجاني، تعليق محمود محمد شاكر، القاهرة 1984م .

- دلالة الألفاظ، الدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1984م .

- دلالة الألفاظ عند الأصوليين، الدكتور محمود توفيق سعد، مطبعة الأمانة، القاهرة 1987م.

- دور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمان، ترجمة الدكتور كمال بشر، مكتبة الشباب، القاهرة 1962م .

- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ابن فرحون المالكي، تحقيق محمد الأحمدي، أبو النور دار التراث القاهرة 1976م .

- ديوان الأخطل، شرح مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت 1986م.

- ديوان الأعشى، دار صادر، بيروت 1966م .

- ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، القاهرة 1969 وطبعة دار صادر، بيروت .

- ديوان أمية بن أبي الصلت، تحقيق الدكتور عبد الحفيظ السطلي، دمشق 1974م .

- ديوان أوس بن حجر، تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم، بيروت 1967م .

- ديوان ابن مقبل، تحقيق الدكتور عزة حسن، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم دمشق 1962م .

- ديوان أبي ذؤيب الهذلي، نشر يوسف هل الألماني – هانوفر 1926م .

- ديوان الأدب، الفارابي، تحقيق الدكتور أحمد مختار عمر، نشر مجمع اللغة العربية، القاهرة 1976م .

- ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي، تحقيق الدكتور عزة حسن، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق 1960م .

- ديوان حاتم الطائي، صنعة يحيى بن مدرك الطائي، تحقيق الدكتور عادل سليمان جمال، القاهرة 1975م .

- ديوان الحارث بن حلِّزة، تحقيق الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت 1991م .

- ديوان الحطيئة، دار صادر، بيروت، 1981م .

- ديوان حمَيد بن ثور، صنعة عبد العزيز الميمني، القاهرة 1951م .

- ديوان ذي الرُّمَّة، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، حلب 1968م .

- ديوان رؤبة ضمن (مجموع أشعار العرب) نشر وليم بن الورد، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1980م .

- ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعة ثعلب، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة 1964م .

- ديوان سحيم عبد بني الحسحاس، صنعة نفطويه، تحقيق عبد العزيز الميمني، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة 1950م .

- ديوان سلامة بن جندل، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، حلب 1968م .

- ديوان سويد بن أبي كاهل اليشكري، تحقيق شاكر العاشور، دار الطباعة الحديثة، البصرة 1972م .

- ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني، تحقيق الدكتور صلاح الدين الهادي، دار المعارف، القاهرة 1968م .

- ديوان طرفة بن العبد، شرح أحمد بن أمين الشنقيطي، مطبعة السعادة مصر 1327هـ .

- ديوان الطِّرِمَّاح، تحقيق الدكتور عزة حسن، دمشق 1968م .

- ديوان طفيل الغنوي، تحقيق الدكتور محمد عبد القادر أحمد، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة .

- ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق الدكتور حسين نصار، مصر 1957م .

- ديوان العجَّاج، رواية الأصمعي، تحقيق الدكتور عبد الحفيظ السطلي، مكتبة أطلس، دمشق 1971م .

- ديوان عدي بن زيد، تحقيق محمد جبار المعيبد، بغداد 1965م .

– ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد، مطبعة المدني، القاهرة 1962م .

– ديوان كعب بن زهير، تحقيق الدكتور إحسان عباس، الكويت 1962م .

– ديوان النابغة الجعدي، نشر المكتب الاسلامي، دمشق 1964م .

– ديوان النابغة الذبياني، صنعة ابن السكِّيت، تحقيق الدكتور شكري فيصل، بيروت 1968م .

– وطبعة أخرى بتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة 1977م .

– ديوان الهُذَليين، دار الكتب المصرية، القاهرة 1945م .

– الرحل والمنزل، المنسوب لابن قتيبة، تحقيق لويس شيخو (في البلغة) بيروت 1914م .

– رسائل البلغاء، محمد كرد علي، مطبعة دار الكتب العربية، القاهرة 1913م .

– رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر 1979م .

– رفع الإصر عن قضاة مصر، أحمد بن علي بن حجر، تحقيق الدكتور حامد عبد المجيد ومحمد المهدي، المطبعة الأميرية، القاهرة 1957م .

– رواية اللغة، الدكتور عبد الحميد الشلقاني، دار المعارف، مصر 1971م .

– الرواية والاستشهاد باللغة، الدكتور محمد عيد، نشر عالم الكتب، القاهرة 1974م .

– روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، الخوانساري، المطبعة الحيدرية، طهران 1390هـ .

– الزينة في الكلمات الإسلامية، أبو حاتم الرازي، تحقيق الدكتور حسين الهمداني، دار

الكتاب العربي، مصر 1957م .

– سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي، مصر، 1969م .

– سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة 1952م .

– سنن أبي داود، تعليق عزة عبيد الدعاس، حمص، 1971م .

– سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاهر، القاهرة 1937م .

– سنن الدارمي، تحقيق أحمد محمد دهمان، مطبعة الاعتدال، دمشق 1349هـ .

– سنن الدارقطني، تحقيق عبد الله هاشم المدني، المدينة المنورة 1966م .

– سنن النسائي، المطبعة الميمنية، القاهرة 1312هـ .

– سمط اللآلئ، أبو عبيد البكري، تحقيق عبد العزيز الميمني، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة 1936م .

– سير أعلام النبلاء، الذهبي شمس الدين، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت 1983م .

– شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي، مطبعة الصدوق الخيرية، القاهرة 1350هـ .

– شرح أدب الكاتب، أبو منصور الجواليقي، دار الكتاب العربي، بيروت .

– شرح أشعار الهذليين، أبو سعيد السكري، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مطبعة المدني، القاهرة 1965م .

– شرح ديوان الأخطل التغلبي، شرح إيليا سليم الحاوي، دار الثقافة، بيروت 1968م .

– شرح ديوان امرئ القيس، دار صادر، بيروت 1958م .

- شرح القصائد التسع المشهورات، صنعة أبي جعفر النحاس، تحقيق أحمد خطاب، دار الحرية، بغداد 1973م .
- شرح القصائد السبع الطوال، أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة 1980م .
- شرح القصائد العشر، الخطيب التبريزي، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، مكتبة المدني، مصر 1962م .
- شرح المعلقات السبع، الزوزني، تحقيق محمد علي حمد الله ، نشر المكتبة الأموية، دمشق 1963م .
- شعر الراعي النميري وأخباره جمع وتحقيق الدكتور ناصر الحاني، دمشق 1964م .
- شعر عبدة بن الطيب، الدكتور يحيى الجبوري، دار التربية للطباعة، بغداد 1971م .
- شعر عمرو بن معديكرب، جمع وتحقيق مطاع الطرابيشي، نشر مجمع اللغة العربية دمشق 1974م .
- شعر الكميت بن زيد الأسدي، صنعة الدكتور داود سلوم، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، العراق 1969م .
- شعر النمر بن تولب، صنعة الدكتور نوري حمودي القيسي، مطبعة المعارف بغداد 1969م .
- الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار التراث العربي، القاهرة 1967م، وطبعة عالم الكتب، بيروت 1982م .
- شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، شهاب الدين الخفاجي، المطبعة المنيرية، القاهرة 1983م .

- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس، تحقيق السيد أحمد صقر، القاهرة 1977م .

- الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، مطابع دار الكتاب العربي، القاهرة 1956م .

- صحيح البخاري، تحقيق الدكتور مصطفى ديب البغا، دار القلم، بيروت 1981م .

- صحيح مسلم، ابن بشكوال، القاهرة 1966م .

- ضحى الإسلام، أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1977م .

- طبقات ابن خياط، خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء الدين العمري، بغداد 1967م.

- طبقات الشعراء، ابن المعتز، تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج، دار المعارف، القاهرة 1956م .

- طبقات فحول الشعراء، ابن سلاّم الجمحي، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة 1952م .

- طبقات المفسرين، الداودي، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة 1972م .

- طبقات النحويين واللغويين، أبو بكر الزبيدي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، مطبعة الخانجي، القاهرة 1954م .

- طفيل الغنوي، حياته وشعره، الدكتور محمد عبد القادر أحمد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1983م .

- ظاهرة الاشتقاق في اللغة العربية، الدكتور طنطاوي محمد درّاز، مطبعة عابدين، القاهرة 1986م .

- ظاهرة التأويل وصلتها باللغة، الدكتور أحمد عبد الغفار، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية .

- العربية (دراسات في اللغة واللهجات والأساليب)، يوهان فك، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار، دار الكتاب العربي، القاهرة 1951م .

- عقائد السلف، ابن قتيبة، وأحمد بن حنبل، والبخاري، والدارمي، تحقيق الدكتور علي سامي النشار، وعلي جمعة الطالب، الإسكندرية 1971م .

- العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، مصر 1359هـ .

- علم الدلالة العربي، النظرية والتطبيق، الدكتور فايز الداية، دار الفكر، دمشق 1985م .

- علم الدلالة والمعجم العربي، الدكتور عبد القادر أبو شريفة وآخرون، دار الفكر، عمَّان، الأردن، 1979م .

- علم اللغة، محمود السعران، دار المعارف، القاهرة 1962م .

- علم اللغة العربية، الدكتور محمود فهمي حجازي، الكويت 1973م .

- علم اللغة العام، الدكتور محمد كمال بشر، دار المعارف، القاهرة 1980م .

- علم اللغة وفقه اللغة، الدكتور عبد العزيز مطر، دار قطري بن الفجاءة، الدوحة 1985م .

- علم المفردات في إرثنا اللغوي، نشأة محمد رضا ظبيان، دار العلوم، الرياض 1981م.

- علوم الحديث، ابن الصلاح عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري، تحقيق الدكتور نور الدين عتر، 1966م .

- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق الدكتور عبد الله درويش، بغداد 1967م .

- عيون الأخبار، ابن قتيبة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1974م .

- العواصم من القواصم، ابن العربي محمد بن عبد الله، نشر محب الدين الخطيب، القاهرة 1371هـ .

- غريب الحديث، ابن قتيبة، تحقيق الدكتور عبد الله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد 1977م .

- غريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سلام، مراقبة الدكتور محمد عبد المعين خان، حيدر أباد 1964م .

- الغلو والفرق الغالية في الحضارة الإسلامية (مع تحقيق الجزء الثالث من كتاب الزينة للرازي)، الدكتور عبد الله سلوم السامرائي، بغداد 1972م .

- الفائق في غريب الحديث، الزمخشري، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، القاهرة 1971م .

- الفرق بين الفِرَق، البغدادي طاهر، القاهرة 1328هـ .

- الفروق في اللغة، أبو هلال العسكري، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1980م .

- الفِصَل في الملل والأهواء والنِّحَل، ابن حزم الأندلسي، مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة 1964م .

- فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، أبو عبيد البكري، تحقيق الدكتورين إحسان عباس وعبد المجيد عابدين، دار القلم، بيروت 1971م .

- فصول في فقه اللغة، الدكتور رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة 1987م .

- فقه اللغة، الثعالبي، تحقيق مصطفى السَّقَّا وآخرين، مطبعة الحلبي، القاهرة 1954م .

– فقه اللغة، الدكتور علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، القاهرة ط 8 .

– فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، دار الفكر الحديث، لبنان 1964م .

– الفهرست، ابن النديم: 1 – طبعة دار المعرفة بيروت، 2 – وطبعة فلوجل 3 – وطبعة دانشكاه طهران، تحقيق رضا تجدد، طهران 1971م .

– فهرسة ابن خير الإشبيلي، تحقيق زيدين وطرغوة (طبعة مصورة) المكتب التجاري، بيروت 1963م .

– فهرست دار الكتب المصرية، مطبعة دار الكتاب، القاهرة 1938م .

– فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، أسماء الحمصي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق 1973م .

– فهرس المكتبة الخديوية، القاهرة 1301هـ .

– فوات الوفيات، ابن شاكر الكتبي، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، القاهرة 1951م .

– في أصول النحو، سعيد الأفغاني، دار الفكر، دمشق 1963م .

– في التحليل اللغوي، منهج وصفي وتحليلي، خليل أحمد عمايرة، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن 1987م .

– في اللهجات العربية، الدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1984م .

– القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت 1987م .

– قراءة في فكر الزيدية والمعتزلة، الدكتور عبد العزيز المقالح، دار العودة بيروت 1982م.

- القرطين، ابن مطرف الكناني، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة 1355هـ .

- القلب والإبدال، ابن السكيت (ضمن الكنز اللغوي في اللسن العربي)، تحقيق الدكتور أوغست هفنر، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1903م .

- الكامل في التاريخ، ابن الأثير الجزري، دار صادر، بيروت 1965م .

- الكامل في اللغة والأدب، المُبرِّد، تحقيق أبي الفضل إبراهيم والسيد شحاتة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة .

- الكتاب، سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1975م .

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، الزمخشري، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة 1972م .

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، أنقرة تركيا 1946م .

- كلام العرب من قضايا اللغة العربية، الدكتور حسن ظاظا، دار المعارف، القاهرة 1971م .

- الكلمة دراسة لغوية ومعجمية، الدكتور حلمي خليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية 1980م .

- الكنز اللغوي في اللسن العربي، تحقيق الدكتور أوغست هفنر، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1903م .

- اللباب في تهذيب الأنساب، ابن الأثير، مطبعة القدسي، القاهرة 1937م .

- لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية، الدكتور عبد العزيز مطر، دار المعارف، القاهرة 1981م .

- لحن العامة والتطور اللغوي، الدكتور رمضان عبد التواب، دار المعارف، القاهرة 1967م .

- اللحن في اللغة، مظاهره ومقاييسه، الدكتور عبد الفتاح سليم، دار المعارف، القاهرة 1989م .

- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت .

- لسان الميزان، ابن حجر العسقلاني، حيدر أباد الدكن، الهند، 1330هـ .

- اللغات في القرآن، ابن عبّاس، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت 1978م .

- اللغة، فندريس، تعريب الدواخلي والقصّاص، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1950م.

- اللغة بين المعيارية والوصفية، الدكتور تمام حسان، الدار البيضاء 1980م .

- اللغة العربية وعلومها، عمر رضا كحالة، مطبعة النسر، دمشق 1971م .

- اللغة والمجتمع، الدكتور علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة .

- لهجات العرب، الدكتور أحمد تيمور، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة 1973م .

- اللهجات العربية في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، الدكتور عيد محمد الطيب، مطبعة الأمانة، القاهرة 1982م .

- ما تلحن فيه العامة، الكسائي، تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب، مطبعة المدني، القاهرة 1982م .

– مباحث في علوم القرآن، الدكتور صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت 1977م .

– المباحث اللغوية، الدكتور مصطفى جواد، القاهرة 1955م .

– مجاز القرآن، أبو عبيدة، تحقيق الدكتور فؤاد سزكين، القاهرة 1954م .

– المجازات النبوية، الشريف الرضي، تحقيق الدكتور طه محمد الزيني، مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة 1967م .

– مجالس ثعلب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة 1969م .

– مجمع الأمثال، الميداني، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، مطبعة السعادة القاهرة 1978م .

– محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) محمد الخضري بك، المكتبة التجارية الكبرى، مصر 1970م .

– المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، القاهرة، 1958 .

– المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد، تحقيق الشيخ محمد حسين آل ياسين، بغداد 1976م .

– مختارات ابن الشجري، شرح محمود حسن زناتي، دار الكتب العلمية، بيروت 1980م .

– المختصر في أخبار البشر، أبو الفداء المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة .

– المخصص، ابن سيده الأندلسي، طبعة مصورة في بيروت عن طبعة بولاق 1318هـ .

– المدارس النحوية، الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف بمصر 1968م .

– المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، الدكتور رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة 1982م .

- مدخل إلى علم اللغة، محمود فهمي حجازي، دار الثقافة، القاهرة 1978م .

- مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، الدكتور مهدي مخزومي، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة 1958م .

- مذاهب التفسير الإسلامي، كولد سيهر، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة 1955م .

- المذكر والمؤنث، الفَرَّاء، تحقيق الدكتور مصطفى الزرقا، المطبعة العلمية، حلب 1345هـ .

- مراتب النحويين، أبو الطيب اللغوي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، مطبعة نهضة مصر، القاهرة 1974م .

- مروج الذهب، المسعودي، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة 1948م .

- المزهر في علوم اللغة، السيوطي، تحقيق محمد أحمد جاد المولى، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة .

- المسائل والأجوبة في الحديث والتفسير، ابن قتيبة، تحقيق مروان العطية ومحسن خرابة، دار ابن كثير، دمشق – 1990م .

- مستقبل اللغة العربية المشتركة، الدكتور إبراهيم أنيس، القاهرة 1959م .

- المستقصى في أمثال العرب، الزمخشري، طبع بإشراف الدكتور محمد عبد المعين خان، حيدر آباد 1967م .

- المشتبه في الرجال، الذهبي شمس الدين، تحقيق علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة 1962م .

- المشترك اللغوي : نظرية وتطبيقاً الدكتور توفيق محمد شاهين، مكتبة وهبة،

القاهـرة 1980م .

– المصباح المنير، تحقيق الدكتور عبد العظيم الشناوي، دار المعارف، القاهرة .

– المظاهر الطارئة على الفصحى، الدكتور محمد عيد، دار الثقافة للطباعة، القاهرة 1980م .

– المعارف، ابن قتيبة، تحقيق الدكتور ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة 1969م .

– معاني القرآن، الفَرَّاء، تحقيق محمد علي النجار وآخرين، الدار المصرية، القاهرة 1955م .

– المعاني الكبير، ابن قتيبة، تحقيق كرنكو، حيدر أباد – الهند، طبعة مصورة بيروت .

– معاهد التنصيص، عبد الرحيم بن أحمد العباسي، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة 1947م .

– معجم الأدباء، ياقوت الحموي، دار المستشرق، بيروت .

– معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت .

– معجم شواهد العربية، عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1392هـ .

– المعجم العربي، الدكتور حسين نصار، القاهرة .

– المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة 1364هـ .

– معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مطبعة الترقي، دمشق 1957م .

– المعرّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، الجواليقي، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الكتب القاهرة 1361هـ، وطبعة دار القلم، دمشق 1990م، تحقيق الدكتور فؤاد عبد الرحيم .

– المعمرون والوصايا، أبو حاتم السجستاني، تحقيق عبد المنعم عامر، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة 1961م .

– مفتاح العلوم، محمد بن أحمد السكاكي، القاهرة 1342هـ .

– المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق الدكتور محمد أحمد خلف الله، القاهرة 1970م .

– المفضَّليَّات، المفضَّل الضَّبي، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة 1964م ، وطبعة مكتبة المثنى، بغداد، مع شرح أبي محمد القاسم الأنباري، تحقيق كارلوس يعقوب .

– مقالات الإسلاميين واختلاف المُصَلِّين، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة 1969م .

– مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة 1368هـ .

– مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، مطبعة الاستقامة، القاهرة 1954م . وطبعة بيروت .

– مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقاني، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة .

– من أسرار اللغة، الدكتور إبراهيم أنيس، القاهرة 1978م .

– من تاريخ النحو، سعيد الأفغاني، دار الفكر، دمشق .

– المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد – الهند 1357هـ .

– المنقوص والممدود، الفراء، عبد العزيز الميمني، دار المعارف، القاهرة 1977م .

– موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث الشريف، الدكتورة خديجة الحديثي، دار إحياء

الكتب العربية، القاهرة 1963م .

– الميسر والقداح، ابن قتيبة، تحقيق محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة 1385هـ .

– النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب بالقاهرة 1956م.

– نزهة الألباء في طبقات الأدباء، أبو البركات ابن الأنباري، تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي، بيروت 1970 . وطبعة القاهرة، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم 1967م.

– النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، تحقيق علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى، القاهرة .

– نشوء اللغة ونموها واكتهالها، أنستاس الكرملي، المطبعة العصرية، القاهرة 1938م .

– نظرات في اللغة والنحو، طه الراوي، المكتبة الأهلية، بيروت 1962م .

– نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا العلوي، الدكتور عبد السلام عبد الحفيظ، مطبعة دار القرآن، القاهرة .

– النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، تحقيق الزواي والطناحي، دار إحياء الكتب، القاهرة 1963م .

– الهاشميات، الكميت بن زيد الأسدي، مطبعة التمدن، القاهرة .

– هدية العارفين، إسماعيل البغدادي، وزارة المعارف التركية، استانبول 1951م .

– همع الهوامع، السيوطي، دار المعرفة، بيروت .

– الوافي بالوفيات، الصفدي، تحقيق جماعة من المستشرقين والعرب،

استانبول وبيروت .

– وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت 1970م .

المجلات والدوريات

- الأبحاث - الجامعة الأمريكية - بيروت .
- كلية الآداب، جامعة المستنصرية، بغداد .
- لغة العرب، بغداد .
- المجمع العلمي العراقي - بغداد .
- مجمع اللغة العربية دمشق (المجمع العلمي العربي) .
- مجمع اللغة العربية، القاهرة .
- المقتبس، دمشق، القاهرة (أصدرها الأستاذ محمد كرد علي) .
- المورد، وزارة الاعلام، بغداد .

مسرد الموضوعات

الفصل الثالث :



هذا الكتاب

ابن قتيبة الدِّينوري (213 – 276 هـ) من الموسوعيين الكبار في الثقافة العربية الإسلامية، فقد ألَّفَ في اللغة وعلومها، والآداب وفنونها، والشعر والنقد، والتاريخ والتراجم والمعارف، وعلوم القرآن والحديث، والفقه وعلوم الدين.

وفي هذا الكتاب يعكف الباحث عمر مسلم العكش على دراسة الأفكار والآراء التي طرحها ابن قتيبة في علم اللغة، معتمدا فيما يكتب، على المنهج الاستقرائي التحليلي في دراسة فكر ابن قتيبة اللغوي، وجهوده في هذا الحقل.

منشورات المجمع الثقافي

Cultural Foundation Publications

أبوظبي - الامارات العربية المتحدة

ص.ب 2380 هاتف 6215300

ABU DHABI - U . A . E . - P.O. BOX : 2380

TEL. 6215300 - Cultural Foundation

Email:ntlibrary@ne1.cultural.org.ae

http://WWW.Cultural.org.ae

ISBN 9948-01-133-3

9 789948 011330

السعر 55 درهما